رحلة .. في

دنيا المستقبل

تقديم الكاتب الفرنسي

اندريه موروا

للكاتب الانجليزي

هـ . ج . ويلز

سلسلة ثقافية شهرية

١٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٤١ — رجب ١٣٨٢ — ديسمبر ١٩٦٢

No. 141 — DECEMBRE 1962

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان جنيه واحد — فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى جنيه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١ر٧٨٠ — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

رحلة فى دنيا المستقبل

للكاتب الإنجليزى

هـ . ج . ويلز

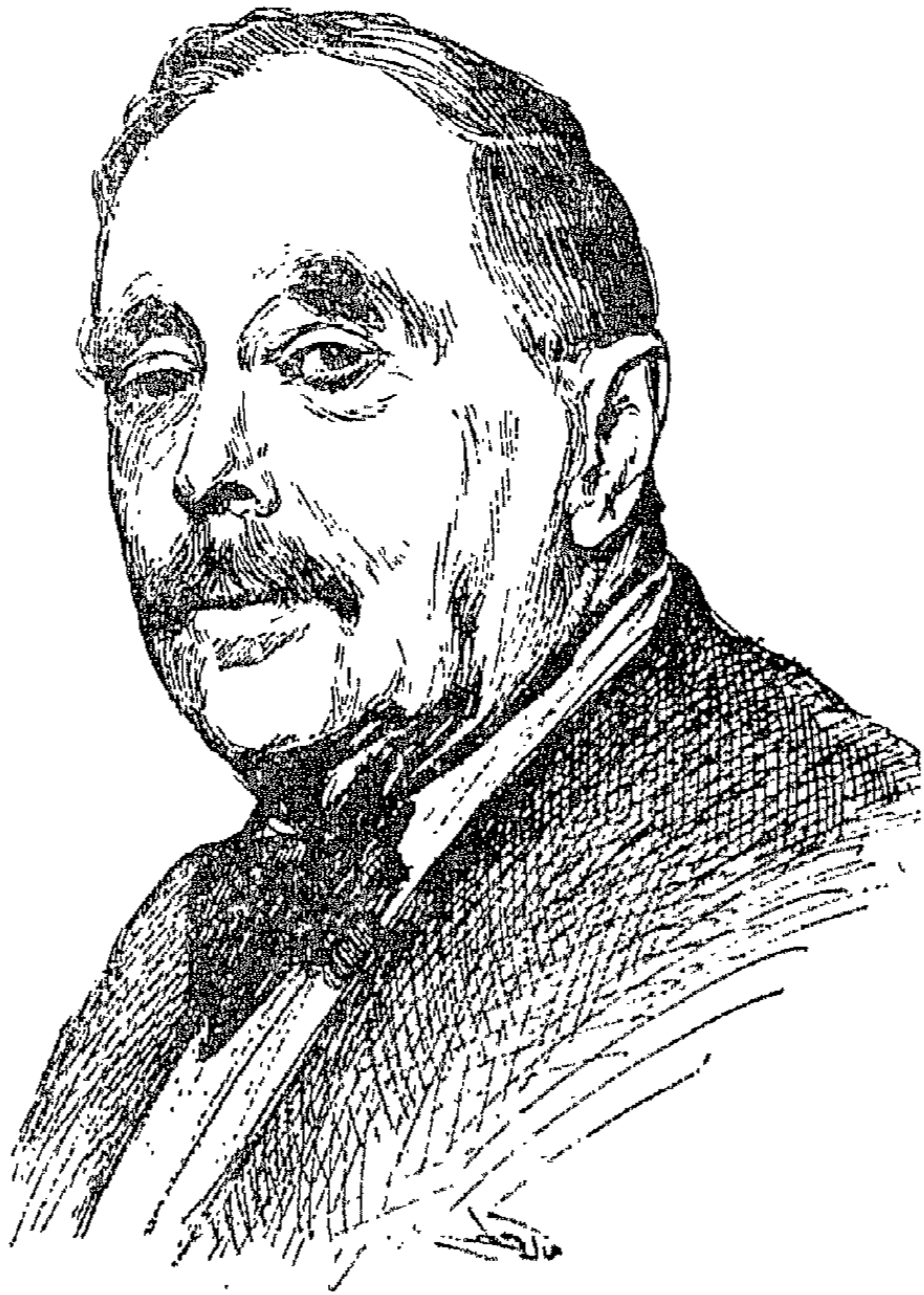
تقديم الكاتب الفرنسى

اندريه موروا

ترجمة :

الدكتور نظمى لوقا

دار الهلال



الكاتب الانجليزى
هـ . ج . ويلز

تقديم

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير

أندريه موروا

لا يستقيم الامر لأصحاب النبوة فى جميع الازمان ، ولا فى جميع المواضع على السواء .. فالعهد بأوقات الاستقرار التى تسود فيها الثقة ألا تحتاج الى أنبياء ، وانما تكون الحاجة الى الانبياء فى عهود القلق والاضطراب ففى تلك العهود تتميع القيم لانها لم تعد صالحة لهداية الناس ، فيشتد الشعور عندئذ بالحاجة الى نمط جديد، أو الى تنظيم جديد يصوغ عالما أفضل ..

وقد بلغت الحضارة الغربية عصر القلق بعد أن بلغ التصنيع ذروة التقدم ، وأوشك العلم بمبتكراته المذهلة وإمكاناته الجبارة أن يفتح فى حياة الناس صفحة جديدة لا عهد لهم بها من قبل

ولهذا السبب صارت حاجة الحضارة الاوربية شديدة الى ضرب من ضروب الانبياء تتفق رسالته من حيث المضمون والشكل مع عصر العلم الذى بزغ فجره ..

وكان « هربرت جورج ويلز » هو الرجل الذى أعدته الاقدار ليكون ذلك البشير النذير بين يدى جنس من البشر ، أزاغت الاضواء القوية عينيه وأدارت رأسه ..

وهربرت جورج ويلز ـ بحكم تكوينه العلمى ، وبمدد من خياله الخصب ، وبسند من حبه للانسانية ومن روحه الفنية ـ أصلح الناس لاستبصار ذلك المستقبل ، والدعوة له بلسان العقل وبلسان العلم .. سواء علم الطبيعة أو علم النفس

***

وأيا كان الرأى فيما دعا اليه من علاج لأضواء الحضارة الحديثة ، فمما لا شك فيه أن رؤيته العلمية التى صاغها فى قالب قصصى شائق أنارت الطريق أمام جيلين على الاقل من القراء الواعين فى آفاق الارض .. وأن تفكيره الاجتماعى التقدمى استولى على ألباب جيلين على الاقل من المعنيين بالتقدم الانسانى ومن المهتمين بالعدالة الاجتماعية ، والاصلاح الاجتماعى على وجه العموم

وقد ظل ويلز قرابة ثلث قرن صاحب هيمنة عقلية فى أوربا وأمريكا ، تضارع فى علو المكانة واتساع النفوذ ما كان يتمتع به فولتير فى القرن الثامن عشر .. حتى لقد حق له أن يقول بأعلى صوته فى عصر الحق الالهى للملوك :

ـ لا يضيرنى الا يكون فوق رأسى تاج ، وفى يدى هذا « القلم » !!

فقد كان صوت ويلز مسموعا ومحترما من الجميع ، فاستزاره أقطاب الارض فى المعسكرين الشرقى والغربى ، استزاره ستالين كما استزاره روزفلت ، وناقشاه فى أحوال العالم ومشكلاته مناقشة الند للند ، لانهما يعلمان أن له من السلطان على العقول ما يضارع على الاقل سلطانهما على الجيوش والحكومات .. وكم من مرة زلزلت أقواله عصبة الامم العتيدة ، وهو يوجه اليها النصح أو

يوبخها على التقصير فى خدمة قضـــية السلام وصيانة مستقبل الحضارة البشرية

ان الحقيقة التى لا مراء فيهـا ، أن كلمـات هربرت جورج ويلز كان لها على الدوام وزن لا يقل عن وزن تلك النذر التى كانت تتنزل على الناس من آفاق فوق افاق البشرية . ولذا جنح فى العشرين عاما الاخيرة من عمره الى الارشاد الصريح السافر متخليـا فى شيخوخته عن الاسلوب القصصى ، مستخدما أسـلوبا شـبه دينى .. كان الناس يتقبلونه بخشوع شبه دينى كذلك !

وهو فى كتاباته جاد العقل ، وان لم يكن على الدوام جاد الاسلوب .. بيد ان الدعابة التى تشوب أسلوبه ولا سيما فى قصصه العلمى لا تخدع القارىء . فما من أحد يمكن ان يأخذ كتاباته على غير محمل الجد ، فأدبه العلمى من ذلك النوع المضىء الذى يفتح الافـــاق أمـام العقل والقلب .. وان لم يسلم الانسان على الدوام بـكل ما يذهب اليه ذلك العالم الفيلسوف الذى خرج على الناس فى أزمة الحضارة متخذا مسوح الانبياء

***

ولعل امتيـاز هربرت جورج ويلز يكمن فى مزج العلم بالادب ، وفتح عيـون النـاس عن طريق ذلك اللون من القصص الذى ابتكره كى يدركوا حقيقة وجودهم وأسرار عالمهم وحياتهم ومدى ما يطرأ على ذلك كله من اختلاف هائل .. قد يصل الى حد الفناء المطلق لو أن ذرة واحدة من عناصر تلك القوانين الكونية عبثت بها يد عابث

وهذا هو سر افتنان الناس بأدبه العلمى الذى ابتدعه

.. وهو أدب يختلف تماما عن أدب علمى أشتهر به كاتب فرنسى اسمه جول فيرن ... فان « جول فيرن » يستخدم حقائق العلم ليسلى الناس بمغامرات مدهشة فهو يجعل حقائق العلم فى خدمة الادب والتسلية .. ويجعل نبوءاته العلمية بالطيران وغزو القمر مطية لامتاع القراء. أما هربرت جورج ويلز فيسخر الادب والمتعة القصصية والتشويق لخدمة الثقافة العلمية ، وتبصير الناس بالهاوية التى يمكن أن يترددوا فيها .. ويشير عليهم بطريق النجاة والازدهار الحضارى اذا شئنا أن ننجو ونتعقل ..

ولذا نجد ويلز حريصا ـ أولا وقبل كل شىء ـ على تدعيم التفكير العلمى فى اذهان الناس ، واقتلاع بقايا جذور التفكير الخرافى غير العلمى .. تلك البقايا التى لم تزل معششة فى أذهان السواد من الناس . وهو فى هذا السبيل لايتردد فى استخدام السخرية اللاذعة لبيان مدى سخافة كل تفكير غير عامى .. وله فى ذلك تحف أدبية خالدة ، نبهت العقول واسترعت الالباب .. وكانت من أكبر العوامل على دفن التفكير غير العلمى دفنا لا يرجى له بعده بعث .. !

ومن أشهر تلك الطرف الباقية ماتناول فيه فكرة المعجزة . وقد شاعت سخريتة اللاذعة ان يجعل مسرح تلك القصة فى حانة من الحانات التى تنتشر فى ريف انجلترا ويسهر فيها الناس مساء السبت ماشاء لهم السهر ، فيفرطون فى الشراب افراطا مسرفا .. ويختلط فى جماعتهم الجاهل والمتعلم والفلاح والصانع والساقية الحسناء البلهاء .. فتلك الجماعة نموذج حسن للعقليات المختلفة فى المجتمع الكبير ..

فألت ترى ان العالم الاديب ويلز ، وقد بدأ بتحضير عناصر القصة فى دقة علمية .. وكأن الاشخاص مستحضرات كيماوية يدقق فى حصرها وتحديد صفاتها وخواصها ، قبل أن يجرى عليها تجربته ليشاهد تفاعلاتها

ويجرى ويلز على ألسنتهم - فيما بين رشفات الشراب وكئوسه المترعة - حديثا ذا شجون فى أمور شتى لا رابطة بينها ، ويجعل أحد الكتبة عند سمسار من سماسرة البورصة شابا تقدميا مولعا بشيئين أولهما الافراط فى احتساء الجعة .. والامر الآخر مناقشة الافكار التقدمية بجراة واندفاع يثيران استنكار المجتمع المحافظ

وهو فى تلك الليلة يشرب كثيرا ويتناقش كثيرا .. ولا يدرى أحد كيف تحدث بعض الندامى عن المعجزات ، فاذا هذا الشاب التقدمى الذى يدعى « ماك » ينتهز الفرصة ليستعرض عضلاته العقلية أمام خادمة الحانة المليحة التى ترمقه بنظرات الاعجاب لفصاحته التى لاتفقه فيها شيئا ! ..

ويلح « ماك » فى انكار المعجزات انكارا تاما .. ويصر بقية الشاربين على وجود المعجزات ووقوعها . وهنا يتراءى لويلز أن يبلغ قمة السخرية .. فيجعل « ماك » يدق المائدة بقبضة يده متحمسا ويصيح :

ــ أنا لا أحب الكلام المرسل على عواهنه .. فهيا نتفق أولا على المقصود بالمعجزة .. ان المعجزة لا تسمى بهذا الاسم الا لانها شىء مضاد للتيار الطبيعى للاشياء ، شىء تحدثه ارادة مستقلة عن الطبيعة التى نعرفها .. وسأضرب الآن مثلا ..

ويتلفت ماك فيما حوله ، وقد تعلقت به جميع أبصار

الشاربين ولا سيما الساقية الحسناء ، فيقول :

ـ لنأخذ شيئا من الاشياء العادية الموجودة أمامنا هنا .. وليكن هذا المصباح المضاء بالغاز . ان الطبيعى أن شعلته تتجه من أسفل الى أعلى .. أليس كذلك ؟

ـ طبعا .. وبعد ؟

ـ لنفرض ان شخصا ما .. وليكن هذا الشخص أنا : زعم لكم أنه يستطيع أن يقلب هذا المصباح راسا على عقب من غير أن يتحطم أو يسقط على الارض ، بل يستمر فى الاشتعال وهو مقلوب بشعلة من أعلى الى أسفل .. هل تظنون هذا ممكنا ؟ .. اننى لكى أبرهن لكم على سخافة تفكيركم سآمر هذا المصباح بكل قوتى ، ان يفعل ما حدثتكم به .. هيا أيها المصباح !

وارتفعت على الفور ضجة فى الحانة .. لأن المعجزة التى سخر منها منكر المعجزات قد وقعت .. ووقعت عن طريقه هو بالذات ، وأطلقت الساقية الحسناء صرخة مدوية ثم سقطت مغشيا عليها . ولم يكن ذعر ماك أقل من ذعر بقية الجلساء .. وبعد قليل تهالك فوق مقعد ، فسقط المصباح على الارض وتحطم ..

***

هكذا وصل ويلز بالتشويق فى قصته الى الذروة .. وببراعة عكس الادوار ، فأعطى لمنكرى المعجزات القدرة على صنع المعجزات . وأثبت بأمانة علمية أن التركيز الشديد للارادة ، هو أقوى سلاح فى يد الانسان .. وأن كل من يصنع معجزة لابد ان يكون قوى الارادة وصاحب قدرة بالغة على التركيز . أما حين يتخاذل ايمانه

وتتهاوى ارادته ، فكل شيء ينقلب الى حطام ..

ويمضى ويلز بذلك الشخص الاعجوبى ماك ، فيجعله يقوم بتمرينات وتجارب لموهبته التى اكتشفها ، والتى صارت محل انكار ممن كانوا يؤمنـون بامكان حـدوث الخوارق من قبل ..!

دخل ماك بيته الحقير ، وافتقد عود ثقـاب ليوقد الشمعة .. فركز ارادته وتمنى أن يكون فى يده صندوق ثقاب ، وعلى الفور تم له ما تمنى ! ..

ومرة أخرى يطوى ويلز هذه السخرية بالخرافة على معنى بناء .. ان الارادة تحقق المستحيل ، وأنه لاشيء يمكن أن يتم ــ حتى ولو كان ممكنـا كل الامكان ــ من غير عزيمة وارادة ..

وتمشيا مع سباق التشويق القصصى ، جعل « ماك » يتمنى عشاء فاخرا .. فاذا بين يديه مائدة حافلة بكل ما لذ وطاب . وأراد أن يغسل أسنانه ، فوجد الفرشاة بالية فتمنى فرشاة جديدة فكان له ما أراد ! .. ولم يعجبه فراشه الحقير ، فتمنى فراشا وثيرا وأغطية من وبر الابل وفراء الثعالب .. فظفر بما تمنى . وفى فراشه ذاك ، نعم بالنوم .. وما طلع الصبح حتى سخر موهبته، فصنعت له افطارا شهيا ، وثوبا فاخرا .. وحملته القوة الخفية الى عمله حملا .. وسـودت له الصـفحات ، وجمعت وطرحت وهو لا يبذل جهدا .. !

وفى طريق عودته الى داره مسرورا ، خطر له ان يتسلى .. فأمر عصاه أن ترقص فى الهواء وحدها ، فاستجابت له ، واذا الناس يتجمعون .. وأصر الشرطى على أخذه

الى مركز الشرطة ، فصرخ ماك فيه :

ـ اذهب عنى الى الجحيم !

فاذا بالشرطي وليس له أثر .. وحزن ماك ، واستهول ما أنزله من العقاب بالرجل المسكين .. ولكنه لم يلبث أن صرف ذهنه عن التفكير فى ذلك ، ومضى يمارس من متع الحياة وملذاتها ما لم يظفر بمثله علاء الدين من مصباحه السحرى فى كتاب ألف ليلة وليلة القديم ..

ولما كان ماك تقدميا ، فقد خطر له أن يسخر موهبته لاصلاح المجتمع ولما يعود بالنفع على عشيرته أجمعين .. فأخذ يأمر بتوسيع الشوارع وحفر الانفاق تحت الارض وتعديل خطوط سكة الحديد .. وأنبت فى التلال القاحلة أشجار الصنوبر ، وجلب اليها أشجار الارز من لبنان ، وتحكم فى الحرارة والبرودة وشدة الرياح

وخطر لماك أن يستغل موهبته فيما هو أعظم وأخطر وأجل .. فكر فى التحكم فى قوانين الفلك ، فأمر الارض أن تكف عن الدوران .. فصدعت الارض بأمره . واذا الجبال تندك ، والعمائر تنهار ، والاشـــجار تقلع من جذورها ، واذا أمواج المحيط العاتية تجتاح العاصـمة كأنها الجبال !

وذعر ماك مما أقدم عليه من غير روية ، فصرخ بأعلى صـــوته :

ـ عودى الى الدوران أيتها الارض !

فعادت الارض الى الدوران .. ولكن الخراب الذى حدث كان عاما شاملا ، بصورة أفزعت ماك .. فكل شىء

قد تهدم وتلاشى من حـوله . وفتح عينيه يرفعهما الى السماء مستنجدا ، واذا به يجد نفســـه ملقى فى ركن الحانة .. والمناقشة لم تزل محتـدمة حول المعجزات : أممكنة هى أم غير ممكنة ! ؟

***

وهكـذا يبلغ ويلز غاية الغايات فى سخريته ودعابته وجده فى آن واحد .. فهو يريد أن يقول ان الكلام عن المعجزات فى ضوء العلم ممكن داخل حدود معينة . هذه الحدود هى العزيمة الصادقة للسيطرة على قوى الطبيعة عن طريق المعرفة والدرس لا عن طريق الاوهام والاحلام .!

وهو يريد أن يحذرنا من شىء آخر خطير . لعله أخطر من الانسياق وراء الاوهام والاحلام ، فالاوهام واحلام اليقظة قد تكون من خيالات الافراط فى الشراب .. ولن تؤدى فى النهاية الا الى يقظة قاسية ان عاجلا أو آجـلا، نجد فيها الواقع مسيطرا على حياتنا . أما ما هو أخطر من الاندفاع وراء الاوهام والاحلام ، فذلك هو الوصول الى الســيطرة على أسرار الطبيـعة ثم اسـتخدام تلك السيطرة استخداما طائشا .. يمكن أن يؤدى فى لحظة واحدة الى تدمير حضارتنا تدميرا تاما ..

فلو فرضنا اننا حصلنا على ســلطان علمى يوازى السلطان الخرافى الممنوح للفتى التقدمى ماك ، فيجب الا نتورط فى مثل حمـاقته .. فنسخر ذلك للعبث بقوى الكون العظمى عبثا قد يقضى علينا . وانما الاحرى بنـا أن تستخدم هذه الســيطرة لاصلاح المجتمع ورفاهيـة البشر فنزرع الخير ونستزيد منه .. ولا يدفعنا الغرور الى العبث بمصائرجنسنا لمجرد الشعورالاجوف بالسلطان

مثل هذا الدرس البليغ ، نجده فى كل تحفــة من درر ويلز فى أدبه العلمى .. فهو معلم وعالم يســتحق مكانة أصحاب الرسالات الانسانية فى عصر العلم ، وهو أيضــا ديدبان ساهر يرى المستقبل ويحــذر من الخطر الداهم الذى يكمن فى حماقة البشر الذين تزداد ســيطرتهم على الطبيعة من غير ان يقابل ذلك تحــكم حكيم فى نفوســهم

ان ويلز هو أول من خرج الى الفضاء .. سبق فى ذلك جاجارين بزمن طويل .. أن من كتبه «حرب الكواكب» . ومن كتبة « آلة الزمن » . وهو أول المسافرين الى القمر ..

***

والآن من هو هذا الرجل الذى خرج فى أزمة الحضارة ليرفع اللواء لعصر العلم ومجتمع المستقبل ؟ ..

من هو ذلك الذى نادى باشتراكية يتولى القيادة فيها الصفوة الممتازة من أشراف الناس ؟ ..

انه ابن خادمة ! ..

انه ابن امرأة لو تقدم بها الزمن بضعة قرون لقيل عنه انه ابن أمة من الرقيق ! ..

لقد كتب ويلز ترجمة حياته بقلمه ، ولم يخف فيهــا شيئا من أسرار نشأته .. فذكر أن أمه كانت خادمة فى قصر ريفى كبير ، ثم تقدم الزمن بتلك الخادمة فصارت مدبرة القصر .. أى رئيســة للخدم

ويصفها ابنها بأنها كانت امرأة ضئيلة الجسم ، لطيفة المعشر ، شديدة التدين ، تحترم النظم الاجتماعية القائمة .. أى أنها كانت ممن يسميهم الناس بالمحافظين ، ففاية

أمانيها حين كبرت سنها وصارت أم كاتب من أشـــهر رجالات زمنه أن تقلد بقدر الامكان فى الزى والســمت « حضرة صاحبة الجـلالة الملـكة فيكتوريا المعظمة ملكة انجلترا وامبراطورة الهند وحامية الايمـــان وصــاحبة المستعمرات التى لا تغيب عنها الشمس ! »

ومن أبوه ؟ ..

انه بستانى فى ضيعة مجاورة اسمه جوزيف ويلز .. وكان على خلاف زوجته فى المزاج والطبـــاع ، فهو غير متزمت .. يحب الرياضةواللهو والصيد ، ويكره مجالس الوقار . وهو متــوقد الذكاء ، فكان هــذا الزواج بين نقيضين مصدر شـــقاء كبير لتلك المرأة الطيبة محدودة العقل .. !

ونشأ الفتى شديد الاعجاب بذكاء أبيه .. وورث عنه عقله المتفتح وعينيه الزرقاوين العميقتين كأنهما قطعة من ماء المحيط ! ..

وما أكثر ما كانت « سارة » تقول لابنها الصغير :
ـ من سوء طالعك أن أباك ليس من الاشراف !

وكانت أقصى أمانيها له أن يغدو بائعا للاقمشة فى متجر محترم بالمدينة ! .. وقد وجهته فعلا الى هـــذه المهنة بعد أن اختلف الى المدرســة أعواما قلائل . وظل الفتى عامين من سنوات يفاعته ، ينام فى قبو أسفل المتجر .. ولا يصيب فى مأواه الرطب من الطعام الا أقله وأرداه .. يقدمونه اليه على مضض شديد ، ويمنون عليه به !

فلما بلغ الفتى الخامســة عشرة من عمره عمــد الى الاباق ، كما يأبق العبد الرقيق من نير مولاه .. وما هذا

بكلام يطلق على سبيل المجاز ، فحياة العامل حينذاك هى بعينها حياة الرقيق قبل قرنين من الزمان أو أكثر .. فما تغيرت حقيقة الرق فى الواقع وان تغير العنوان ... !

وقطع الفتى الآبق نحوا من خمسة وعشرين كيلومترا ، سعيا على قدميه الكليلتين ، وهو خاوى المعدة . ولكن كان أشد عليه من خواء المعدة ، وخوار البدن ، شعوره بالتأثم الشديد لما يسببه من الهم والغم لأمه الطيبة التى سترى فى فعلته نذيرا قويا بالفشل يوشك أن يجعل منه نسخة مكررة من ابيه !

بيد ان ويلز عندما بلغ أشده ، حمد لنفسه ذلك الصنيع .. وايقن انه كان من أحسن ما أقدم عليه فى حياته من الاعمال ، لأنه كان نقطة التحول الحاسمة فى مجرى حياته من الخمول والعبودية الى الانطلاق والنبوغ

***

ومما يذكر بالتقدير ولا مراء لويلز ، أن تلك المشاق المضنية فى باكورة صباه لم تترك فى نفسه أثرا باقيا من المرارة والحقد . وعند ما صور تلك الايام فى أقاصيصه ، جاء وصفه لها خلوا من كل شيء .. اللهم الا الدعابة الصافية . وهكذا المحنة تزيد الطبائع القوية قوة ..

والى هذه الأعوام يرجع الفضل فى تمكين ويلز من فهم الطبقات العاملة ومشكلاتها وشواغلها ، ومن دراسة الطبقات العليا عن طريق القصر الذى تعمل فيه أمه ومراقبة تلك الطبقات الراقية من الخارج قبل أن يظهر نجمه فيندمج فيها عن كثب ..

فى المساء كان يجلس وهو صغير فى قاعة الخدم بالقصر

مع أمه .. وعندئذ يقبل الساقى رئيس الخدم ، وقد أعد قائمة بالأخطاء اللغويةوالتاريخية التى تردى فيها السادة الأجـــلاء الذين يقوم بخـــدمتهم على المائدة وفى قاعة الاستقبال !

وقد نهج ويلز نهج ذلك الســاقى النحوى ! .. فهو يسجل مواطن الضعف الفكرى والوجــدانى لدى من يتربعون فوق قمة النظام الاجتماعى فى العالم الحديث !

ومنذ بلغ الثالثةعشرة، شرع عقل‌ويلز المتوقد يتساءل عن مبرر وجود هذه الطبقة الســائدة ! .. وعن مدى لزومها لاستقامة الامور فى المجتمع ! وبدا له أن المجتمع يفتقر افتقارا شديدا الى التوازن بسبب وجـود تلك الطبقة العليا ، وهى غير كفء للوضع الذى تشغله فوق القمة . وبدا له أيضا أن الطبقة التى تسيطر على المجتمع الحديث، وليدة نظام اجتماعى اقطاعى‌أو زراعى أتت عليه يد التطور !

ولكن‌حذار أن يذهب الظن‌بنا الى أن ويلز كان من دعاة التمرد والثورة التى تستأصل شأفة كل ما هو فاســد بضربة واحدة .. فهو لم يكن يبغض الطبقة الثـرية او يحقد عليهـا . وقصــارى الامر أنهم فى نظره ســخفاء مضحكون .. وهــو يروى فى قصصه سخريته بنفسه ، عند ما كان يقلد أولئك المتكلفين المتحذلقين وهو غـلام صغير ..

ان ويلز أقرب بفكاهته السمحة الى الاستهانة بأبنــاء الطبقة العليا لا القسوة عليهم ..!

***

وكان الفتى ، منذ تعلم القراءة ، شغوفا بالعلم .. ولكن

لعل الفرصة ما كانت لتتاح له كى يشبع نهمه اليه ، لولا محنة ضاق بها هو وأهله أشد الضـــيق حين ألمت به واحتسبوها نقمة خالصة ..

كسرت ساق الصبى وهو فى السابعة من عمره .. فظل قعيد الفراش شهورا لا هم له فيها الا استيعاب كل ما يتفق له من صنوف الكتب ، يستعيض بالرحلة فى آفاقها عن الحركة بساقه المهيضة .. وهو يقرر فى سيرته بصريح العبارة :

— اننى مدين بوجودى اليوم على قيد الحيــاة ، واشتغالى بصناعة القلم والرأى ، لساقى المهيضة .. فلولاها لكنت أكبر الظن بائعا هد الكدح القاتل قواه ، فطرده رب العمل ثم أدركه الموت ضعفا وحسرة ..!

ومن بذرة تلك الشهور التى قضاها قعيد الفراش ، تكونت لديه عادة الاطلاع حتى صارت شهوة وإدمانا .. ثم نمت البذرة واتسعت دائرة الاطلاع بسرعة عظيمة ، حتى لقد أصابه من ذلك شر وهو فى الثـالثة عشرة من عمره حين كان صبيا بائعا فى متجر الاقمشة .. افتقده صاحب المتجر ونقب عنه ، فوجده فى المخزن خلف أحد الاعمدة يدون فى كراســة صغيرة اجابات موجزة عن أسئلة من قبيل : « ماهى المادة ؟ » و «ما هو الفضاء ؟»

ولما فر من جحيم ذلك المتجر الى أمه ، يعلن لها أنه لن يعود الى نير ذلك الرق .. قيضت له المقـادير معلما متقدما فى السن من معلمى مدارس الاقليم ، اكتشف فيه مواهب الذكاء اللامع وسـعة الاطلاع فأتاح له وظيفة مساعد مدرس فى مدرسة أولية .. وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره

وأقبل الفتى على التعليم ، وراح فى الوقت نفسه يدرس ويتقدم من الخارج الى الامتحانات العامة فيجتازها بتفوق ملحوظ .. فقد خطر له أن يدخل مسابقة كلية معلمى العلوم فى كنسنجتن الجنوبية . ومن مزايا هذه المسابقة، أن يحظى المتفوق فيها بمنحة دراسية تشبه البعثة الداخلية .. وجاء ترتيب ويلز فى تلك المسابقة الاول . وكانت قيمة المنحة الدراسية التى حصل عليها كى يعيش فى لندن ، ويتلقى العلم ، جنيها واحدا فى الاسبوع .. كان يعتبر مبلغا محترما فى ذلك الزمن . فلا عجب أن يفرح العالم الصغير الفقير بتلك الثروة الهابطة من السماء !

***

وكان بين أساتذته فى كلية كنسنجتن رجل من اعظم أساتذة عصره ، وهو الاستاذ هكسلى الكبير .. والد النابغتين العظيمتين جوليان هكسلى والدوس هكسلى .. وصديق ونصير العالم العظيم داروين . ولاشك فى أن شخصية هكسلى الكبير ، كانت أقوى وأعظم تأثيرا فى التلاميذ من صديقه الكبير الخجول داروين .. فلم يكن الدرس على يديه تعليما فنيا فحسب ، بل كان أيضا وقبل كل شىء تثقيفا وتشكيلا للعقل ولمنهج التفكير . وفى ذلك يقول ويلز :

ـ أن دراسة علم الحيوان ـ على يد هكسلي ـ كانت سلسلة رائعة من التدريب العلمى الصارم الدقيق الجاد .. انها تدريب على مناهج البحث ونقد الوقائع . ولا ريب عندى فى أن السنة التى قضيتها دارسا ـ على يد هكسلى ـ كانت أعظم السنوات أثرا فى حياتى التعليمية ، وأجداها ثمرة .. فقد ترك الى الابد فى عقلى طابعه الباقى ، وأخص خصائصه الحرص على الدقة فى الاستقراء واستخلاص

النتائج .. والنفور من الاحكام المبتسرة والظنون المرتجلة. وهذا هو الفارق الجوهري بين عقل مثقف ، وعقل لم يدرك التثقيف

وفى تلك الفترة من العمر ، اختمرت لدى ويلز فكرته العلمية عن المجتمع البشري .. فكتب مقالا أعلن فيه أننا ينبغى الا نعتبر البشر طبقات متفاوتة الا على سبيل المجاز البعيد ، فكل فرد فريد فى بابه .. بيد أن التفكير الرياضي والاسلوب الاحصائى هما اللذان يجنحان بنا الى هذا التصنيف ، فيسبق الى أوهامنا أن كل انسان شبيه بكل انسان ، كما تشبه الذرة الذرة .. مع أنه حتى الذرات لاتشبه الواحدة منها ذرة أخرى

ومن العجيب أن هذا الرأى فى الذرة انتهى اليه أكابر العلماء بعد أن أعلنه ويلز بثلاثين عاما !

وبعد تخرج ويلز فى تلك الكلية اشتغل معلما للاحياء ، ثم بدأ يبصق دما .. لان داء السل شرع يطرق باب صدره . وليس للمريض بالسل أن يشتغل بالتدريس ، فاحترف الكتابة الصحفية . وابتدع نوعا من الصحافة العلمية .. وقد ظل عامين يعيش بين المرض والفاقة ، ان أدرك ثمن القوت فاته ثمن الدواء !

***

وكان من الطبيعى أن يغرى هذا الصحفى العالم ـ صاحب الاهتمامات الاجتماعية ـ بخوض غمار السياسة .. بيد أن ويلز لم يستجب لهذا الاغراء ، وآثر أن يدخل ميدان الاصلاح الاجتماعى من باب الادب والقصة

ومن سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٢ انصرف ويلز الى

كتابة القصة العلمية ، وذاعت شهرته بسرعة خارقة .. وأقام مجده الادبى العلمى على قصته الساحرة « رحلة فى دنيا المستقبل أو آلة الزمن » .. ثم أعقبها بجزيرة الدكتور مورو ، ثم الرجل الخفى . وأجمع النقاد على اعتباره مبتكرا لعالم خيالى كامل ..

وبعد ذلك أخرج سلسلة من الروايات ، صور فيها جوانب من حياته الشخصية بأسلوب ساخر ضاحك . وأهم هذه الروايات قصة « كبس » وقصة «مستر بولى» ثم أصدر سلسلة ثالثة من الروايات الذهنية أهمها قصة « الزواج » و « ميكيافيللى الجديد » . وأخيرا أصدر كتبا غير روائية يصور فيها أفكاره بصورة عقلية مرسلة.. وأهم هذه الكتب « الطوبيا العصرية »

وما أن اندلعت الحرب العالمية الاولى ، حتى كانت شهرة ويلز ــ أديبا ومصلحا اجتماعيا ــ لاتعلو عليها شهرة أحد . واتصل بالحركة الفسابية ، وعلى الخصوص ببرناردشو ، ورمزى ماكدونالد وأتباعه أقطاب الحركة العمالية فى انجلترا

ولكنه لم يلبث ان صارحهم باختلافه معهم فى الرأى .. فالاشتراكيون الحزبيون يؤمنون بصراع الطبقات ، وأن الطبقة العاملة يجب أن تصل الى الحكم فتسود الطبقات الاخرى . اما ويلز فكان همه موجها الى تنظيم جميع الطبقات ، وتهذيب التعاون بينها على أساس يحقق تكافؤ الفرص .. وبحيث تتعاون الطبقات جميعا للكفاح ضد الفوضى والغباء .

ان ويلز لايسعى لتغليب طبقة على طبقة .. فالطبقات عنده من المجتمع بمثابة الاعضاء من البدن ، فلابد من

التنسيق التعاوني بينها حتى لايكون بعضها لبعض عدوا . وهذا التنسيق – على أساس علمي – لا محيص عنه في عصر يسود فيه العلم .. فالعلم يؤمن بالتنظيم لابالتطاحن، وبالتعاون المثمر الموجه لا بالصراع

ان مايعنى ويلز من الاشتراكية هو اقامة جمهورية عالمية تتكفل بتنظيم الاحتياجات الجديدة للبشر ، وتتيح لحضارتهم العلمية أحسن ازدهار ممكن كي تعم مزاياها الجليلة الناس كافة

وهذه الجمهورية « الويلزية » ليست ديموقراطية تقوم على المساواة المطلقة ، بل لابد أن يحكمها صفوة الاشراف من الناس .. ولكنهم ليسوا أشراف الجاه والوراثة والثراء ، بل اشراف العلم والذكاء .. فأولئك بمثابة المخ من البدن ، اليه تصريف الامور وحده لانه وحده القادر على تصريفها ..

ولرسالة الجمهورية العالمية ، ولرسالة سيادة العقل والعلم .. ولرسالة تكافؤ الفرص وتعاون الطبقات لقيام مجتمع اشتراكي يسوده التعاون والتنظيم العلمي .. عاش ويلز عدوا للاستعمار والاستبداد ، مبشرا بالسلام ،داعيا الى تربية جديدة تخرج لنا الانسان الجديد الذى يصلح لعمارة عالم جديد يقوم على أساس من العلم والعقل والعدل

اندريه موروا

القسم الأول

رحلة المستقبل

المستحيل الذى صار ممكنا

الرحالة

كانت عيناه الرماديتان تتألقـان بوميض أخاذ .. أما وجهه الذى كنت أعهده فى العادة شاحب اللون ، فيبدو فى ضوء المصابيح الكهربائية محتقنا شديد الاحمرار مما يدل على أن صديقى رحالة الزمان كان يعانى صراعا عنيفا بين مشاعر متضاربة ، أو كان على الاقل تحت وطأة انفعـال من نوع خارق للمألوف ..

والواقع أن رحالة الزمان كان على وشك الافضاء الينا بموضوع على جانب كبـير من الخطورة ، كان حتى تلك الليلة يحتفظ به سرا مدفونا بين طوايا جوانحه . وكنا قد فرغنا لتونا من طعام العشاء الذى دعانا اليه ذلك الانسان الغريب الاطوار فى كل صغيرة وكبيرة من أمور حيـاته وتصرفاته .. فالمقاعد التى جلسنا عليها بعد القيام عن المائدة كانت وثيرة حقا ، ولكن لم تكن فخامتها ووثارتها أهم مافيها .. بل كان الطـريف حقا أنهـا من تصميم صاحبنا رحالة الزمان . وكان تصميما يجمع بين الاصالة والطرافة ، بحيث يحس الجالس وكأن الكرسى كائن حى يضم جسمه بين ذراعيه مرحبا مشوقا اليه .. فتكون الجلسة أقرب الى طمأنينة الحبيب بحبيبه ، منهـا الى الغـوص فى مادة جامدة مهمـا كانت درجـة نعومتها وطرافتها !

كل شىء فى جو هذا الرحالة وبيته مختلف حقـا عن

سائر ما فى بيوت الناس ، لان عقله مختلف عن عقول الناس وأساليب تفكيرهم المطروقة

وكنا نحسب فى بداية الامر أن السر الجديد تقليعة جديدة من مبتكراته التى لانهاية لها ، لان عهدنا بمخيلته الخصبة أنها عجيبة تلد كل عجيب .. ولكنه لوح بسبابته وقد ازداد احمرار وجهه تألقا ، وازداد بريق عينيه توهجا وقال :

ــ يجب أن تعيرونى انتباهكم ، وأن تتابعوا أقوالى بكل عناية ، لانى سأهدم بضعة أفكار معترف بها من جميع الناس ويعتبرونها مبادىء أساسية يقوم عليها بناء العقل وبناء الواقع .. فالهندسة التى علموكم اياها فى المدرسة مثلا ، سأثبت لكم أنها قائمة على وهم وتصور خاطىء بعيد عن الصحة كل البعد !

فقاطعه فيلبى ، وهو شخص مغرم بالجدل ذو شعر أحمر ، قائلا :

ــ أليست هذه بداية من العسير علينا أن نتقبلها ونعتبرها أساسا للمناقشة ؟ !

ــ أنا لا أريد منكم أن تتقبلوا شيئا من غير اثبات مقنع .. وستجدون أنفسكم مقتنعين بكل ما أريد منكم أن تقتنعوا به ، وكلكم تعرفون طبعا أن الخط الهندسى عبارة عن خط له طول وليس له عرض .. هو امتداد بدون سمك ، أى أنه شىء لا وجود له فى الواقع . أليس هذا ماعلموه اياكم فى المدرسة ؟ وكذلك جميع أنواع السطوح .. فالمساحة فى الهندسة شىء ليس له سمك . وهذه كلها امور ذهنية .. عبارة عن تجريدات ذهنية

وهز إحدنا ــ وهو عالم نفسانى ــ رأسه قائلا :

ـ هذا صحيح ..

ـ وبالمثل .. المكعب الذى ليس له سوى طول وعرض وارتفاع لايمكن أن يكون له وجود واقعى !

فصاح فيلبى :

ـ أنا أعترض على هذا الكلام .. فأى جسم له هذه الصفات من طول وعرض وارتفاع يمكن أن يوجد فى الواقع

ـ هذا مايتوهمه معظم الناس .. ولكن أمهلنى لحظة ، وأجبنى عن هذا السؤال : هل المكعب الذى لايستمر وجوده أى مدة من مدد الزمن يمكن أن يكون له وجود حقيقى ؟

وسكت فيلبى مفكرا فى السؤال ولم يجب ، فأدرك رحالة الزمان أنه عاجز عن الجواب .. واستطرد قائلا :

ـ من الواضح أن أى جسم له وجود واقعى يجب أن تكون له أربعة أبعاد : هى الطول والعرض والارتفاع و .. الزمن أو البقاء . ولكن الناس درجوا بسبب ضعف بصيرتهم ونقص ادراكهم على اغفال هذه الحقيقة .. فهناك فعلا أربعة أبعاد ثلاثة منها خاصة بالمكان ، والرابع هو الزمان . وهناك اتجاه عام بين الناس لوضع حد فاصل ـ لا أساس له من الواقع ـ بين أبعاد المكان الثلاثة والبعد الزمنى الذى هو البعد الرابع . وسببهذا الاتجاه الخاطىء أن الوعى البشرى يتحرك بلا توقف فى وجهة واحدة من وجهات الزمان من بداية الحياة الى نهايتها ، فيغفل الناس ادخال الزمن فى حسابهم عندما يتصورون وجود الاجسام المادية .. ولا يبقى فى ذهنهم الا أن الاجسام موجودة فى المكان فقط

وهتف من بيننا شاب حديث السن جدا ، وهو يشعل سيجارا :

ـ لقد صار الامر فى غاية الوضوح حقا ..

وظهر السرور والانشراح على وجـــه رحالة الزمن ، واستطرد بمزيد من التفاؤل :

ـ وليس هناك أى فرق فى الحقيقــة بين الزمن وبين أبعاد المكان الثلاثة ، سوى أننا نتحرك دائما فى الزمن بلا توقف . أما المكان فنتحرك فى بعض أبعــاده دون البعض الآخر وقد نتوقف فيه عن الحركة .. فيخيل الينا لتعود أبعاد المكان أن أبعاده هى الابعاد الوحيــدة للموجودات ، وننسى البعد الرابع للموجودات كلها وهــو الزمن الذى لانعرف له فى حياتنا الا بعداً واحدا يمتد على استقامته من المولد الى الممــات .. ولكن العلمــاء فى الوقت الحــاضر يبحثون فى اقامة علم جديد للهندسة ، هو الهندســــة الرباعية الابعاد ، بدلا من الهندسة القديمة الثلاثية الابعاد

وقال أحدنا ، وهو عمدة من عمد الاقاليم :

ـ هذا شىء جميل .. جميل جدا ..

ـ ولا أخفى عنكم اننى كنت مهتما فى المدة الاخيرة بهذه الهندسة الرباعية الابعاد ، ووصلت الى نتــائج بعضها طريف بل غريب .. فهاهى ذى مثلا صورة انسان وهو فى العام الثامن من عمره ، وصورة أخرى له وهو فى العــام الخامس عشر ، وصورة ثالثة وهو فى العام السابع عشر ، وصورة رابعة وهو فى العام الثالث والعشرين ، وهلم جرا .. وجميع هذه الصور عبـــارة عن قطاعات من وجود هذا الشخص فى المكان ، أى وجوده فى الابعــاد الثلاثة .

ولكن الوجود الحقيقى التام لهـــذا الشخص لايمثله أى قطاع من هذه القطاعات ، لانه وجـــود ذو ابعاد أربعة لا ثلاثة فقط !

وتمهل رحالة الزمن قليـــلا ، كى يترك فرصـــة امام مستمعيه لهضم ما تقدم من عباراته .. ثم واصل كلامه قائلا :

ــ ان رجال العلم يعرفون تمام المعرفة أن الزمن ماهــو الا نوع من أنواع المكان .. وها هو مثلا رســم بيانى من النوع الشائع جدا بين الناس يمثل التغييرات الجوية ، وهذا الخط الذى أتتبعه باصبعى يبين حركة مقيـــاس الحرارة أو مقياس الضغط .. فأمس صباحا كان الضغط مرتفعا جدا ، ثم انخفض أمس مساء ، ثم ارتفع مرة أخرى هذا الصباح . وبطبيعة الحال لم يكن الزئبـــق الموجود داخل مقياس الضغط هو الذى رسم هذا الخط البيانى فى أى بعد من الابعاد المعروفة بأبعاد المكان ، ولكن هـــذا الزئبق رسم خطا شبيها بهذا الخط الذى أمامنا .. وقد رسمه بالتأكيد فى بعد غير أبعاد المكان الثلاثة .. هو حقا البعد الرابع أو البعد المعروف فى لغتنا باسم الزمن

وكان المتحدث فى هذه المرة رجـــلا من رجال الطب ، قال :

ــ ولكن اذا كان الزمن حقا مجرد بعد رابع من أبعـــاد المكان ، فلماذا كنا دائما نعتبره شيئـــا مختلفا تماما عن المكان ومنفصلا عنه .. ولماذا لا نستطيع التحرك فى الزمن كما نتحرك فى أبعاد المكان الاخرى على هوانا ؟

فابتسم رحالة الزمن وقال :

ـ وهل أنت متأكد من أننا نستطيع التحرك فى المكان بشتى أبعاده الثلاثة على هوانا ؟ . اننا نستطيع أن نتحرك على هوانا يمينا ويسارا والى الامام والى الخلف ..وهذا ما كان الناس يمارسونه دائما فى حركاتهم كلما شاءوا . ولهذا أوافقك على أن الانسان يتحرك على هواه فى بعدين فقط من أبعاد المكان هما الطول والعرض .. أما الحركة الى أعلى والى أسفل ، ارتفاعا وهبوطا ، فليس الامر فيها رهنا بمشيئتنا ، لان الجاذبية الارضية تقف فى وجهنا وتضع لحركاتنا علوا وسفلا حدودا وقيودا ..

فاعترض الطبيب قائلا :

ـ ليس هذا الكلام صحيحا على اطلاقه .. فهناك البالونات والطائرات

ـ اذا رجعنا الى الوراء قليلا ـ أى الى ماقبل ابتكار هذه المخترعات ـ فاننا نجد ان الانسان كان لا يستطيع التحرك الى اعلى الا على صورة قفزات اجتهادية متعبة

ـ هذا لاينفى على كل حال أن الحركة الى أعلى كانت ممكنة بصورة ما ، وكذلك الى أسفل ، لان من يقفز الى أعلى يهبط ثانية الى أسفل ..

ـ مع فارق واضح بين الارتفاع والهبوط .. فالارتفاع شاق ، ولكن الهبوط سهل ميسور بلا جهد ..

فقطب الطبيب حاجبيه قليلا ، وقال بشىء من الحدة :

ـ ولكنك على كل حال لا تستطيع أن تتحرك بأى صورة من الصور فى الزمان .. لا تستطيع أن تخرج قيد أنملة من اللحظة الحاضرة ! ..

فزادت نبرات رحالة الزمن عزيمة واصرارا ، وهو يرد عليه قائلا :

ـ وهذا ياسيدى العزيز هو موضع خطئك بالضبط ! هذا بالضبط هو موضوع خطأ جميع الناس حتى الان .. فنحن فى الحقيقة دائما مانخرج من اللحظة الحاضرة ..

وعندئذ قاطعه العالم النفسانى قائلا :

ـ ولكن هذه هى المشكلة ! .. من المفروغ منه انك تستطيع أن تتحرك فى أى اتجاه أو بعد من أبعاد المكان .. اما الزمن فلا يمكنك أن تتحرك فيه او تتجول كما تفعل فى المكان !

ـ وهذا بالذات هو جوهر اكتشافى الجديد ، اكتشافى الهائل الخطير ! ولكنكم تخطئون اكثر ، اذ تقولون اننا لا نستطيع أن نتحرك أو نتجول فى الزمن .. فانا مثلا اذا استرجعت فى ذهنى أى حادث مضى استرجاعا واضحا جليا ، أكون بذلك قد رجعت فى الزمن الى لحظة وقوع ذلك الحادث .. وهذا أشبه بقفزة لا الى أعلى بل بقفزة الى الماضى ، قفزة الى الخلف فى الزمن تجعلنى أبدو شارد الذهن .. وجميع الحيوانات لم تستطع التغلب على قيود الجاذبية التى تمنع البقاء فى الهواء .. ولكن الانسان المتحضر استطاع أخيرا التغلب الى حد ما على هذه الصعوبة باختراع البالونات والطائرات ، فلماذا نجزم مقدما بأنه من المستحيل على الانسان المتحضر ان يجد وسيلة من الوسائل تمكنه من البقاء فى الماضى أى مدة من الزمن يريدها ؟ .. واذا وجد هذه الوسيلة المبتكرة فلماذا لا يستخدمها أيضا فى الرحلة فى الإتجاه المضاد للماضى : فى المستقبل ؟!.

فصاح فيلبى :

ـ أوه ! هذا كثير ! . .

ـ لم لا ؟ . .

ـ لانه ضد العقل ! لانه غير معقول !

وبهدوء تام سأله رحالة الزمن :

ـ ضد أى عقل ؟ . . أى معقول ؟

مسالة برهان

صاح فيلبى قائلا :

ـ اسمع ! فى وسعك أن تبرهن بالجدل على ان الابيض أسود .. ولكنك لن تصل الى أقناعى بأن الابيض أسود..

وبهدوء أيضا قال رحالة الزمن :

ـ ربما .. ولكنك الان على كل حال ترى بوضـــوح الموضوع الرئيسى لمـــا قمت به من أبحاث فى الهندســة الرباعية الابعاد .. وعندى منذ أمـد طويل فكرة أولية عن آلة ..

فصاح الشاب الحديث السن الذى يدخن السيجار :

ـ تجوب بها أنحاء الزمن ! ؟ ..

ـ آلة فى وسعها أن تجمع المكان والزمان فى أى بعد من الابعاد ، أو اتجــاه من الاتجــاهات ، على حسب مشيئة السائق ..

واكتفى فيلبى بضحكة أطلقها ، وكأنه يقول :

ـ هذا كله كلام فى كلام ..

وأدرك رحالة الزمن هذا المغزى ، فقال بهدوء :

ـ وليس هــذا مجرد كلام .. لانى قمت بتحقيقـه واثباته عن طريق التجربة !

فتململ العالم النفسانى فى مقعده قليلا وقال

ـ أن صح هذا فستكون له فائدة كبـــرى بالنسبـــة للمؤرخ .. اذ سيكون فى وسعه أن يرجع فعلا الى الوراء فى الزمن ليتحقق بنفسه ـ وعلى الطبيعة ـ من الاحداث الهامة والمواقع الحربية التى كثر حولها الجدل من غير ان ينتهى الى نتيجة حاسمة ..

ثم استطرد العالم النفسانى باسما :

ـ ما أبرع الخيال ! وما اسرع مايشتط بنا حين يفتح باب المستقبل أمام أعيننا ! ..

فقال الرحالة :

ـ هذا ماحسبت حسابه ، ولذا لم أبح بسرى لانسان الى أن جربته ..

فصحت مأخوذا :

ـ أتعنى انك جربت هذه الرحلات فى الزمن حقا ؟ !

وصاح الآخرون وفى مقدمتهم العالم النفسانى :

ـ عليك بالبرهان !.. هات التجربة العملية !.. فهذا كله فى الغالب شقشقة لسان ليس عليها برهان !

فابتسم رحالة الزمن ابتسامة غامضة ، تفيض بعشرات المعانى .. ثم أدار الينا ظهره فى صمت ، وغادر الحجرة شأن من قبل التحدى .. ومضى فى طريقه ليأتى بالدليل العملى الذى يفحم المعارض ويخرس اللسان !

***

وجلسنا كلنا ونحن فى حيرة شـديدة من أمر صديقنا

الغريب الاطوار ، وكل منا يجهد ذهنه فى تخيل ما سيطلع علينا به .. وأطلق فيلبى دعابة ساخرة ، لم يكد يتمهـا حتى عاد الينا الرحالة وفى يده جسم معدنى لامع لايزيد حجمه على حجم ساعة متوسطة من ساعات الحائط ، وفى هذه الآلة اجزاء مصنوعة من العاج وأجزاء أخرى من مادة بللورية شفافة .. وتناول الرحالة احدى الموائد الصغيرة المتناثرة فى الحجرة فوضعها أمام النار .. وفوق هـذه المنضدة وضع الآلة الغريبة التى تركزت عليها ابصارنا ..

ثم قرب منها مقعدا جلس فيه ..

وكان فوق تلك المنضدة أيضا مصباح صغـير يسقط ضوءه الوهاج فوق الجهاز موضوع التجربة .. وكان فى الحجرة أيضا مالا يقل عن اثنتى عشرة شمعـــة مضاءة وموزعة بحيث كان النور فى الحجرة كافيا جدا . وجذبت المقعد الذى كنت أجلس فيه بحيث صار فى موضع متوسط بين النـــار المشتعلة فى المدفأة وبين رحالة الزمن . ومن خلف رحالة الزمن جلس فيلبى ، وأخذ يتطلع من فـوق كتفه الى الجهـــاز .. وعن يمـين الرحالة جلس الطبيب والعمدة الريفى ، وعن يساره جلس العـــالم النفسانى . واما الشاب الحديث السن الذى يدخن السيجار ، فوقف وراء ظهر العـــالم النفســـانى .. وكنا جميعـا فى منتهى اليقظة ، فلم يخامرنى الشك فى أنه لا مجال لحدوث اى تلاعب ، أو نجاح اى خدعة ، على ضوء تلك الظروف ..

ورفع رحالة الزمن بصره الينا ، ثم نظر الى الجهاز ولم يتكلم ..

فقال العالم النفسانى يستحثه :

ــ وبعد ؟ ..

فوضع الرحالة مرفقيه فوق المنضدة الصغيرة ، وضم راحتيه فوق الجهاز وقال :

ـ هذا الجهاز الصغير ليس الا نموذجا للآلة المنشودة .. وفى هذا النموذج وضعت تصميم آلة الزمان كاملا ، وهو كما ترون نموذج غريب لا أظنكم رأيتم له شبيها من قبل ..

ونهض الطبيب من مقعده وحدق فى الجهاز بنظرات فاحصة وقال :

ـ أنه حقا جميل الصنع ..

واستطرد الرحالة يقول :

ـ واستغرق اعداده عامين .. وكل رافعة من روافعه مصنوعة من مادة معينة . والان أريد منكم أن تتبينوا وظيفة كل رافعة منها ، فهذه مثلا عند الضغط عليها تقذف بالجهاز فيشق حجب المستقبل ويوغل فيه . وتلك الرافعة الاخرى عند الضغط عليها تتخذ الآلة اتجاها عكسيا ... وهذا السرج هو عبارة عن المقعد الذى يجلس فيه من يجوب الزمن بواسطة هذا الجهاز .. والآن سأضغط على الرافعة الاولى وستنطلق الالة فتختفى بين طيات المستقبل . فانظروا الى الآلة جيدا وانظروا الى المنضدة ايضا ، وتحققوا من أنه ليس فى الامر أى خدعة فانا لا اريد ان افقد هذا النموذج ، ثم يبرز لى منكم من يقول أننى محتال أو نصاب !

وساد الصمت دقيقة كاملة تقريبا .. ثم مد الرحالة سبابته نحو الرافعة ، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر لحظة قائلا :

ـ كلا .. بل اعرنى انت يدك ..

ثم التفت نحو العالم النفسانى ، فتناول يده وطلب منه أن يمد سبابته .. فكان العالم النفسانى هو الذى أطلق نموذج آلة الزمان فى سفرتها التى لا أوبة منها ولا نهاية لها ..

ورأينا كلنا الرافعة وهى تتحرك .. وانى لواثق تمام الثقة انه لم تكن هناك خديعة . ثم هبت نسمة من الهواء، واختلجت أضواء الشموع وانطفأت احداها والآلة الصغيرة تدور حول نفسها بسرعة عظيمة بحيث اضطربت معالمها فلم يعد منها سوى شبح . وبعد لحظة واحدة اختفت عن الانظار تماما كأنما ذابت فى الهواء ، وخلت المنضدة من كل أثر لها ..

وسكتنا مبهوتين نحو دقيقة كاملة .. ثم أطلق فيلبى لعنات عبر بها عن ذهوله . وعندئذ أفاق العالم النفسانى وثاب الى رشده ، وأخذ ينظر تحت المنضدة وقد فغر فاه وعينيه .. فضحك رحالة الزمن من كلّ قلبه ، ثم نهض واتجه الى قدر فوق رف المدفأة يحتفظ فيها بالطباق . وأولانا ظهره ، وشرع يحشو غليونه بهدوء ..

وتبادلنا النظرات فيما بيننا .. ثم قال الطبيب :

ــ اسمع ياصاح ! . هل أنت جاد حقا فى هذه المسألة ؟ أتعتقد بصفة جدية أن آلتك تلك انطلقت من هنا لتجوب الزمن ؟

فقال رحالة الزمن ، وهو ينحنى ليشعل غليونه بعود أوقده من نار المدفأة :

ــ طبعا .. بل عندى لكم ماهو أكثر من هذا .. عندى آلة كبيرة من هذا الجهاز أوشكت أن أفرغ من صنعها .

وعندما يتم تجهيزها أنوى انأستقلها فى رحلةخاصة أجوب فيها الزمان ذهابا وايابا .. الى الخلف والى الامام !

فصاح فيلبى :

ــ أتعنى أن جهازك هذا يجوب الآن المستقبل ؟

ــ أو الماضى .. لا أدرى ايهما على كل حال ! .. وكأنما هبط الالهام على العالم النفساني ، فهتف :

ــ لابد أن الجهاز الآن يجوب الماضى لا المستقبل ! .

ــ لماذا ؟ ..

ــ لو كان يجوب المستقبل لصار الآن هنا .. لاننا الآن فى المستقبل فعلا بالنسبة للحظة التى انطلق فيها الجهاز !

فقلت أنا معترضا :

ــ ولكن لو أنه اتجه الى الماضى لكان باديا لاعيننا عندما دخلنا هذه الحجرة الليلة لاول مرة .. بل لكان باديا لأعيننا يوم الخميس الماضى ويوم الخميس الذى قبله وكل يوم من أيام الخميس التى تعودنا أن نجتمع فيها هنا !

فهز العمدة الريفى رأسه بوقار ، وقال وهو ينظر الى الرحالة :

ــ أعتراضات معقولة ياسيدى

فقال الرحالة بهدوء :

ــ بل لا أساس لها على الاطلاق .. وصديقى العالم النفسانى يستطيع أن يؤكد لكم أن هناك حدوداً خاصة للابصار عند البشر . وخارج هذه الحدود لانستطيع أن نرى الاجسام ، فاذا دار الشىء بسرعة عظيمة جدا حول

نفسه وزادت هذه السرعة لم نر هذا الشيء بعد حد معين من حدود السرعة .. انظروا الى ذراع المروحة الكهربائية، وكيف يتميع شكله عند دورانها ،فاذا زادت سرعة الدوران عن حد معين لم نر لذراع المروحة أثرا فكأنه غير موجود .. وكذلك الرصاصة المنطلقة فى الهواء لا نراها لسرعتها المفرطة . فاذا فرضنا ان هذا الجهاز يتحرك مخترقا سرعة الزمان بسرعة تزيد عن سرعتنا مائة ضعف أو أكثر ، سندرك أن الجهاز يقطع دقيقتين كلما قطعنا نحن ثانية واحدة من زمننا .. وأنه يقطع الساعتين كلما قطعنا نحن دقيقة واحدة من زمننا ، فكأن نسبة ظهوره لاعيننا ستكون جزءا على مائة من ظهوره لاعيننا حين كان معنا فى زمن واحد فوق هذه المائدة .. واظن أن هذا واضح !

ونظر الى عيوننا المحملقة الفاغرة ثم أطلق ضحكة ،وأراد ان يخفف عنا ذهولنا فقال :

ـ هل تحبون ان تلقوا نظرة على آلة الزمان التى أصنعها ؟

ونهضنا كلنا واقفين كأنما يحركنا جميعا لولب واحد.. فقادنا فى دهليز طويل رطب الى معمله ، فاذا بنسخة كبيرة من ذلك الجهاز الصغير الذى رأيناه يختفى أمام اعيننا منذ قليل . وكانت بعض أجزاء هذا الجهاز من النيكل، وبعضها الآخر من العاج ، والبعض من البللور الطبيعى وهو نوع نادر من الصخور

وكان الجهاز فى جملته يكاد يكون تاما .. بيد ان الروافع لم تكن قد ركبت بعد ..

وكان منظرها غريبا .. فتناولت احداها لافحصها عن كثب ، وخيل الى انها مصنوعة من الكوارتز .. وهو نوع

من الصخور شديد الصلابة

وسأله الطبيب مرة اخرى :

ــ قل لى .. هل انت جاد تماما فى هذه المسألة ، أم هى ألعوبة أخرى من ألاعيبك التى تتحفنا بهـا بين الحـين والحين .. ومن قبيل ذلك ، الشبح المزعوم الذى أريتنا اياه فى عيد الميلاد الماضى ؟

فقال رحالة الزمن بكل رزانة وثبات :

ــ انى أنوى على متن هذه الآلة ، عند الفراغ من تجهيزها ، أن اكتشف الزمن وأرتاد خوافيه ماضيا ومستقبلا .. فهل هذا الكلام واضح ؟ انى لم أكن أقرب الى الجد منى الآن !

وسكتنا لا ندرى ماذا نقول .. ثم لمحت عينى فيلبى وهو يرنو الى من فوق كتف الطبيب .. فغمز لى بحركة ذات مغزى ، كأنه يقول لى :

ــ دعك منه !

والحقيقة أننى لا أظن احدا منا فى تلك الليلة آمن بآلة الزمن المزعومة ..

والحقيقة أن رحالة الزمن كان من ذلك الطراز الذكى من الناس الذى لا يثق الناس به لفرط ذكائه .. فهناك دائما مايدعوك الى الارتياب فى أمره والاحساس بأنه لا يظهرك على جميع أفكاره ونواياه ، وانك معرض فى أية لحظة لان تجد نفسك واقعا فى فخ من فخاخه التى يخفى امرها متظاهرا بالبرآءة والصراحة التامة ..

فلو أن فيلبى مثلا هو الذى قدم الينا نموذج الجهاز ، وشرح لنا النظرية بألفاظ الرحالة وعباراته لكان ارتيابنا فى

جدية كلامه أقل بكثير .. وهكذا تكون براعة المرء جانية عليه ، او يكون ذكاء المرء محسوبا عليه

وبسبب هذا الارتياب ، كتم كل منا المسألة فى صدره ولم يبح بها لاحد فى الفترة الواقعة بين سهرة ذلك الخميس وسهرة الخميس التالى .. فهذا هو موعدنا الاسبوعى على مائدته للعشاء معا ، وان كانت غرابة الموضوع طبعا لم تفارق اذهاننا لحظة واحدة طول ذلك الاسبوع .. وكل منا يحاول بينه وبين نفسه أن يجد حلا معقولا للغز الجهاز الذى اختفى أمام ابصارنا . ولكن جهودنا وظنوننا على تباينها ذهبت ادراج الرياح

أين ذهب ؟

لما حل يوم الخميس التالى ذهبت كالعادة .. ولكنى وصلت متأخرا فوجدت أربعة رجال او خمسة مجتمعين فى حجرة الجلوس ، وكان الطبيب واقفا أمام نار المدفأة وفى احدى يديه ورقة ، وفى يده الاخرى ساعته .. فتلفت حولى بحثا عن رحالة الزمن فلم أجده . وقال الطبيب على الاثر :

ـ ان الساعة تجاوزت الآن منتصف الثامنة .. وأعتقد انه من المستحسن أن نبدأ بتناول العشاء ..

ـ وأين رب البيت ؟

ـ الامر غريب حقا .. لابد ان عائقا احتجزه عن الحضور فى الوقت المناسب ، وهو فى هذه الرسالة يطلب منى أن أنوب عنه فى الجلوس معكم الى مائدة العشاء اذا لم يكن قد عاد الى بيته فى تمام السابعة .. ويقول أيضا انه سيوضح كل شيء عند حضوره ..

فقال أحد الحاضرين ، وهو رئيس تحرير صحيفة يومية معروفة :

ـ من المؤسف ان نترك طعام العشاء يفسد ويذهب رونقه بالانتظار ..

فرن الطبيب الجرس ايذانا ببداية الطعام ..

وكان العالم النفسانى والطبيب وأنا الذين كنا بين اعضاء السهرة الماضية .. اما الآخرون فكانوا رئيس تحرير تلك الصحيفة اليومية الذى أشرت اليه ، وصحفى آخر، وشخص خجول ذو لحية لم أكن اعرف من هو .. وفيما اذكر لم يفتح هذا الرجل فمه ذلك المساء بكلمة واحدة ..

وعلى المائدة كثرت التخمينات حول سبب غيـــاب الداعى .. وعندئذ قلت على سبيل المزاح :

ـ لعل المسئول عن غيابه رحلة من رحلاته فى الزمن!

فأرهف رئيس التحرير أذنيه ، واستفسر عن معنى هذا الكلام .. فتطوع العالم النفسانى باعطاء صورة مقتضبـة للموضوع الذى شهدناه بأعيننا منذ اسبوع ..

وفيما هو مسترسل فى الشرح ، انفتح الباب المفضى الى الدهليز ببطء وبغير صوت .. وكنت أنا فى مواجهـــة الباب فلاحظت ما حدث وقلت :

ـ مرحى ! .. ها هو أخيرا !..

وانفتح الباب عندئذ على سعته وبرز أمامنا الرحالة ..

وأطلقت صيحة دهشة ..

فنظر الطبيب نحوه وقال :

ـ رباه ! .. ماذا حدث بالله يا رجل ! ؟

وحول الجالسون جميعا أبصارهم نحو الباب المفتوح..

كان الرحالة فى حالة تدعو الى الدهشة حقا ، فمعطفه قذر مغطى بالغبار ، وكماه ملطخان باللون الاخضر ، وشعره مشعث دب فيه الشيب ، أو لعله الغبار المتراكم .. لون شعره فأصبح اقرب الى اللون الرمادى . اما وجهه فكان

شديد الشحوب ، وفى ذقنه جرح كبير فىطريقهالىالاندمال وسحنته تنبىء عن الذهول والتداعى والمعاناة القاسية

وظهر عليه التردد وهو واقف فى فرجة الباب ، كأن ضوء القاعة الباهر أزاغ عينيه .. ثم دخل وهو يترنح ويعرج ، فكانت مشيته أشبه بمشية المتسولين المتشردين الذين أدمت اقدامهم المسافات الطويلة التى قطعوها حفاة أو شبه حفاة .. !

وحملقنا فيه صامتين .. فى انتظار أن يبدد دهشتنا بالكلام ، ولكنه لم يقل شيئا .. بل جلس الى المائدةوتناول كأسا تجرعها عن آخرها دفعة واحدة .. ويبدو أنها جددت قواه قليلا ، فراح يجيل بصره فى الجالسين الى المائدة . ثم لاح على شفتيه شبح ابتسامته المعهودة ..

وهتف به الطبيب :

ـ ماذا فعلت بنفسك يا رجل ؟

ـ لا تقطعوا طعامكم بسببى .. أنا بخير .. سأشرب كأسا اخرى ، ثم أنهض واغتسل واغير ملابسى ، ثم أعود اليكم لاوضح لكم كل شىء وأنا آكل ما ستتفضلون بالابقاء عليه من اللحم المشوى .. فانى جائع جوع الضوارى !

وضع الرحالة كأسه ثم اتجه نحو الباب .. فلاحظت أنه لم يزل يعلو قليلا ، وليس لقدميه وقع ينم عن الصلابة كالمعتاد .. فنهضت واقفا فى موضعى ، وتطلعت الىقدميه وهو منصرف ، فوجدتهما عاريتين تماما الا منجوربمهلهل مخضب بالدماء !..

وواراه الباب عنى وعن سائر المدعوين حين اغلقه خلفه ، ونازعتنى نفسى ان الحق به لاتبين امره .. ولكنى تذكرت

فى آخر لحظة أنه يكره أن يهتم احد به ، لان فرط الاهتمام بأمره يزعجه جداً ..

واخالنى ذهلت عمن حولى نحو دقيقة تقريبا .. كان فكرى فى خلالها يحاول جمع شتات الفروض المتباينة ،ولم أطراف الخيوط المتفرقة فى هذا اللغز عسي أن يؤدى ذلك الى نسج قصة معقولة تفسر ما حدث ..

وافقت من ذهولى هذا على صوت رئيس التحرير الذى كان جالسا قبالتى على المائدة وهو يقول بنبرة متحمسة :

ـ سلوك شاذ من عالم مرموق ! ..

فأدركت أنه بحكم العادة التى اكتسبها من مهنتــــه ، يفكر فى الموضوع الذى يشغل ذهنى بلغة عناوين الصفحة الاولى وما تتطلبه من اثارة صحفية .. فردنى ذلك الى عالم الواقع الذى يتمثل فى مائدة العشاء الانيقة ومن التفوا حولها من خيرة الناس ..

ورفع الشاب الصحفى حاجبيه فى دهشـــــة ، وقال متهكما :

ـ ما الحكاية بالضبط ؟ .. هل كان داعينا الفاضـــل مشغولا عنا بهواية جمع البيض من أقفاص الدجاج وأعشاش الطيور ؟ ..

واختلست أنا نظرة الى العالم النفســــانى .. فقرأت فى عينيه صورة مطابقة للخاطر الذى جال بفكرى .وحلقت خواطرى لتحوم حول رحالة الزمن المسكين ، وهو يصعد السلالم الى مخدعه بخطواته العرجاء والالم يحز فى قدميه. ولا أعتقد أن أحدا سواى لاحظ مالاحظته عليه من دلائل ذلك العرج ..

وكان أول من أفاق تماما من ذهوله هو صديقنا الطبيب الذى رن الجرس ــ فرحالةالزمن يكره أن يقوم الخدم حول المائدة أثناء العشاء ــ وطلب طبقا ساخنا . وكانت تلك الحركة ايذانا لبقية المدعوين .. فأعمل رئيس التحرير الشوكة والسكين فى قطعة اللحم التى أمامه وهو يزمجر . اما الرجل الصامت ذو اللحية ، فاقتدى به فى الاكل وان لم تصدر عنه زمجرة مسموعة .. واستأنف الباقون تناول الطعام ، وتكلفوا تجاذب أطراف متثاقلة من الحديث كانت تتفكك فيسود الصمت بين لحظة وأخرى ، وتبدو عندئذ علائم الحيرة واضحة على جميع الوجوه . وأخيرا لم يطق رئيس التحرير صبرا وصاح :

ــ هذه تصرفات عجيبة لا افهم لها معنى ! فهل لصاحبنا أوجه نشاط سرية يمارسها لمضاعفة دخله أو شىء من هذا القبيل ؟ ..

واندفع لسانى فى حلقى فقلت :

ــ أكاد اجزم بأن لهذا السلوك صلة بموضوع آلة الزمان!

ورأيت الدهشة تطل من جميع العيون ، ولم يعد هناك بد من التصريح .. فشرعت أدلى ببيان موجز عن سهرتنا السابقة فى مثل هذا المكان ، ولم يصدق الضيوف الجدد ما سمعوه .. وكان اشدهم انكارا وسخرية رئيس التحرير ، اذ قال :

ــ ماهذا التخريف ؟ من الذى يستطيع أن يجوب الزمان؟ وهل يتسربل الانسان بالتراب والوحل وسائر أنواع الاقذار لمجرد اقدامه على التمرغ فى خرافة يقطع العقل باستحالتها ؟

ولما سكتنا تساءل رئيس التحرير قائلا :

ـ ما أتعس حظ احفادنا ! يبدو أن دنيا المستقبل لا تستخدم فيها الحمامات ولا فرشاة الملابس !

ولم يكن الصحفى الشاب أقل من رئيس التحرير انكارا وتسخيفا لكلامى ، وانضم الى زميله الكبير فى مهمته السهلة ، وهى التهكم على الفكرة كلها من أساسها بلامبالاة وبلا احتياط أو روية .. وهى الصفات الغالبةعلىالصحفى الحديث الذى يعتبر مستواه فى الجهل أساسا صالحا لتحريم أى فكرة علمية تعلو فوق ذلك المستوى ..

وكان الصحفى الشاب يقهقه قائلا لرئيس التحرير :

ـ ما أبدعها فكرة يا سيدى ! .. أن نكتب فى بداية أى برقية أو خبر : « لمراسلنا الخاص فيما بعد غد » ! وبهذا نسبق جميع صحف العالم !

واذا برحالة الزمن يعود الى حجرة المائدة ، وقد ارتدى ملابس السهرة المعتادة .. ولم يكن يبدو عليه أى أثر ينم عما وقع له من التغيير الذى أدهشنا ، سوى نظرة زائغة بعض الشىء ..

واستقبله رئيس التحرير ضاحكا مقهقها فى تفكه :

ـ كان اصحابك يقولون عنك انك كنت مسافرا فى رحلة الى أواسط الاسبوع القادم ! .. فحدثنا من فضلك عن نتيجة السباق الكبير الذى سيجرى بعد ثلاثة أيام ! وكم تتقاضى ثمنا لهذا النبأ ؟..

ولم يجب رحالة الزمن ، بل قصد الى مقعده الشاغر وهو ساكت . ولما جلس قال بهدوئه المعهود وهو يتلفت منقبا بين الصحاف :

ـ اين نصيبى من اللحم المشوى ؟ ماأجمل ان يغرس الانسان شوكته مرة أخرى فى قطعة لحم حقيقية !..

فصاح رئيس التحرير :

ـ نريد سماع القصة !

ـ لعنة الله على القصة ! .. أريد شيئا آكله ! .. ولن اقول كلمة واحدة قبل ان تحصل خلاياى وعروقى على ما يلزمها من البروتين .. هذه القطعة كافية ،شكرا لك.. والآن قرب منى الملح من فضلك ..

ولم أطق صبرا فسألته :

ـ لا أريد منك الا كلمة واحدة ، هل كنت تجوب الزمن؟

فقال رحالة الزمن وفمه مملوء باللحم وهو يهز رأسه مؤكدا :

ـ نعم ! ...

فقال رئيس التحرير :

ـ أنا على أتم استعداد لدفع شلن عن كل سطر من سطور المقال الذى تكتبه فى هذا الموضوع ، شلن عن كل خمس كلمات !

ودفع رحالة الزمن كأسه بيده نحو الرجل الصامت ثم دق عليهابظفره وهو ينظر اليه.. فأجفل الرجل وكأنه تنبه من شرود طويل، ثم صب للرحالة شيئا من الخمر ..

وساد الصمت بقية مدة العشاء ، وكان الجو مشحونا بالقلق .. اما انا فكانت الاسئلة المتباينة تثب الى شفتى

فلا أردها عن الانطلاق الا بصعوبة شديدة . واعتقد انهذا هو حال المدعوين الآخرين جميعا ..

وحاول الصحفى الشاب ان يخفف من حدةالتوتربرواية نوادر ونكت معادة ، اما رحالة الزمن فانصرفكلالانصراف الى عشائه وجعل يأكل بشهية الضوارى ..

وأشعل الطبيب سيجارة وراح يرقب الرحالة من بين اهدابه ، وازداد وجوم الرجل الصامت واكثر من تجرع الشمبانيا ليغرق فيها توتر اعصابه ..

واخيرا دفع رحالة الزمن صحفته بعيدا ، ثم اجال بصره فينا وقال :

ــ أعتقد أنني يجب أن اعتذر .. والحقيقة انني كنت فى شدة الجوع ، وقد مرت بى ظروف عجيبة للغاية ..

واخرج من جيبه سيجارا قطع طرفه ، ثم قال :

ــ ولكن هيا بنا أولا الى قاعة التدخين ، فالقصة أطول من أن تروى أمام أطباق فيها بقايا طعام ..

ورن الجرس ، ثم قادنا الى القاعة المجاورة .. وجلس كل منا فى مقعد وثير ، واضطجع الرحالة فىمقعدهوخاطبنى قائلا وهو يشير الى الضيوف الثلاثة الجدد :

ــ هل أخبرت بلانك وداش وتشوز بخبر الآلة ؟

فصاح رئيس التحرير :

ــ ولكن المسالة كلها هراء وتخريف ..

ــ لا قدرة لى الليلة على المجادلة ، وليس عندى مانع من ان اروى لكم القصة على علاتها .. اما المجادلة فــلا

أستطيعها . ولذا سأقص عليكم ما حـدث لى ان شئتم ذلك . ولكن بشرط ان تتعهدوا بعدم المقاطعة ، فأنا أريد أن أنفض تلك الحكاية عن صدرى .. وبى الى ذلك حاجة شديدة ، وان كان معظم مافى القصة سيبدو لكم ضربا من الاكاذيب . فليكن اذن ! .. انها مع هذا قصة صادقة ، كل كلمة فيها هى عين الصدق .

وسكت الرحالة قليلا ثم قال :

ـ كنت فى معملى فى الساعة الرابعة بعد الظهر .. وفيما بين الساعة الرابعة ولحظة الدخول عليكم عشت ثمانيـــة أيام لم يعش يوما من قبيلها أى انسان من قبل ! انى اكاد أسقط من شدة الاعياء .. ومع هذا لن يغمض لى جفن حتى أسرد على مسامعكم ذلك الامر وبعدئذ سأذهب الى فراشى توا ، ولكن لا تقاطعونى وأنا أتكلم .. لا مقاطعة ! مفهوم ؟ ..

فقال رئيس التحرير :

ـ وهو كذلك ! ..

وضحكنا كلنا فى اثره وقلنا :

ـ وهو كذلك ! ..

وبهذا بدأ رحالة الزمن قصته كما سأسجلها فى هـذه الصفحات ، بعد أن اضطجع فى مقعـــده .. وكان يتكلم بلهجة الرجل الذى نال منه الاجهاد الشديد فى بداية الامر ، ثم لم يلبث ان تحمس لمـا يقول شيئا فشيئا . وانى لاشعر وأنا أسجل كلامه بعجز القلم ــ وعجز حامل القلم قبـــل كل شىء ــ عن التعبير عن شحنة الحماسة والقوة والاخلاص التى فى صوته ، والقارىء مهما حصر انتباهه فى السطور

التى سيقرؤها لن يستطيع على كل حال ان يرى كما رأيت وجه قائلها حين نطق بهذه الكلمات وقد ازداد شـــحوبا على شحوب .. ولن يصافح أذنيه وقع ألفاظه ..

وكنا نحن الحاضرين نتبادل النظرات بين الحين والحين فى الفترة الاولى من القصة ، ثم كففنا عن ذلك واســـتأثر باهتمامنا وأنظارنا وجه محدثنا رحالة الزمن ..

القسم الثاني

رحلة لا نظير لها

الانطلاق

قال رحالة الزمن وهو ينفث دخان سيجاره :

« أخبرت فريقا منكم فى يوم الخميس الماضى بفحوى المبادىء الاساسية التى بنيت عليها مشروع آلة الزمان .. ثم أطلعتهم على تلك الآلة نفسـها ولم يكن قد انتهى صنعها تماما .. ولم تزل الآلة هنـاك . وقد عادت الى احتلال مكانها فى المعمل ، بعد أن نالت منها مشقات السفر بعض الشىء والحق يقال .. وانكسر قضيب من القضبان العاجية والتوى مسمار نحاس ، أما بقية الجهـاز فلم يصبه عطب ...

« وكان فى حسبانى يوم الخميس الماضى ، انى سأفرغ من صنع الجهاز تماما فى اليوم التالى أى يوم الجمعة ، ولكن عنـدما انتهيت من التجميع تقريبا يوم الجمعة ، اكتشفت أن قضـيبا من القضبان المصنوعة من النيكل أقصر مما ينبغى بمقدار بوصة بالضبط .. فكان لابد من اعادة صنع هـذا القضيب . وكان هذا هو السبب فى تأخير الفراغ من الجهـاز حتى صباح اليوم .. وكانت الساعة العاشرة صباحا بالضبط ، عندما تمت ولادة أول آلة للزمان فى العالم . وأقبلت عليها اعيد فحص أجزائها الدقيقة ، وقمت بتزييت جميع اللوالب والقضبان والمحاور ثم جلست فى المقعد المخصص للراكب . وانتابنى دوار خفيف .. وأحسب أن شعورى عنـدئذ كان أشبه شىء

بشعور المنتحر حين يضع مسدسه على جمجمته ، واصبعه على الزناد ، وتتضارب داخل جدران رأسه آلاف الاسئلة عما سيكون من أمره ! ..

« ووضعت احدى يدى على رافعة الانطلاق ، وقبضت باليد الاخرى على الفرملة .. وضغطت باليد الاولى قليلا ولكنى حركت اليد الاخرى فى الحال لأوقف الحركة . وأنتابنى دوار شديد ، وأحسست بما يحس به من يرى فى الكابوس أنه يسقط من مكان شاهق . ولكنى عندما نظرت فيما حولى رأيت المعمل على ما كان عليه تماما .. فهل ترى حدث شىء ؟

« وخيل الى أن ذهنى غرر بى ، وعندئذ حانت منى نظرة نحو ساعة الحائط . وكانت قبل ذلك بلحظة ـ لحظة واحدة على حسب اعتقادى ـ تشير الى دقيقة أو دقيقتين بعد العاشرة ، فاذا بعقربيها يشيران الى ما بعد الثالثة بنصف ساعة تقريبا !

« واستنشقت نفسا عميقا وأطبقت أسنانى جيدا استجماعا لرباطة جأشى ، ثم ضغطت على محرك السرعة بيدى كلتيهما .. فانطلقت الآلة انطلاقا مفاجئا . وتميع منظر المعمل من حولى ثم أطبقت عليه الظلمة تماما، ودفعت محرك السرعة الى أقصاه . فأطبق الليل فى غمضة عين ، وبعد لحظة واحدة طلع الغد ، وانقضى الغد فى لمحات ثم أطبق ليله بظلامه فلم يلبث الا هنيهة حتى تبلج منه يوم آخر تلاه ليل ثم نهار ثم ليل .. وكانت الاصوات المبهمة تطن فى أذنى . والضباب يتخلل تلافيف دماغى .. واخشى الا يكون هناك احساس واضح عندى بذلك السفر الفذ الذى لم يسبقنى اليه انسان فى طوايا الزمن . وهو على العموم احساس سمج غير مستحب ، خلاصته شعورك

بأنك مندفع الى الامام.. ولا حيلة لك فى تلك الحركة السريعة التى لا تتوقف ولا تلوى على شىء

« ولم يكن هذا هو كل ما هناك ، لان احساسى فى الواقع لم يكن صرفا ، بل هو خليط غريب من عناصر متناقضة.. فكنت فى الوقت نفسه أتوقع فى فزع أن ينتهى هذا الاندفاع الاعمى بارتطام يمكن ان يقع فى أى لحظة . وكان توالى الليل فى أعقاب النهار والنهار فى أعقاب الليل .. لا النهار يدرك الليل ، والليل لا يدرك النهار .. أشبه بخفقات متواليات سراع من جناحى نسر أسود حالك السواد فى خوافيه ريشات بيضاء ، ولم يلبث كل أثر لجدران المعمل وأثاثه من حولى أن اختفى من عيانى ورأيت امامى الشمس فى كل ضخامتها تتخلى عن وقارها المعهود وتقطع قبة السماء فى وثبات كأنها هرولة مذعور ! فتقطع ما بين المشرق والمغرب فى دقيقة .. وتتوارى دقيقة أخرى لتبرز من المشرق وهكذا دواليك ، ورأسى يطن بفكرة مزعجة : أن كل دقيقة فى هذا الحساب تعنى يوما انسلخ من عمر الارض

« وخطر لى ذات لحظة ان المعمل لابد وأنه تقوض بفعل انطلاقة الآلة واننى لهذا السبب فى العراء ، وثقل ضغط الهواء على صدرى فاحسست باختناق ، كما كان توالى المناظر الخاطفة يسبب لعينى آلاما جساما .. ثم استطعت أن ألمح فى فترات الظلام القصيرة المتوالية شكل القمر وهو يتغير بالزيادة وبالنقصان فى دورات سريعة منتظمة ، فما أسرع ما يكتمل بدرا ليرتد كما كان هلالا فمحاقا ! والنجوم فى مساراتها كم بدت لى سريعة ليس فيها شىء من وقار حركاتها المألوف . ثم ازدادت سرعة الآلة فتداخلت حركة النجوم وبدت من فرط اندفاعها فى مساراتها وكأنها خطوط مضيئة متصلة متشابكة . وتداخل الظلام والنور ، فبدت

السماء لى على طول المدى رمادية اللون ليس فيها بياض بين ولا ظلام حالك . وسرعة الآلة لا تكف بعد ذلك كله عن الازدياد ..

« ولمـا نظرت الى اسفل رايت المروج والاشجار فى حال لم ترها عين انسان .. رأيتها تنمو وكأنها منبثقة من باطن الارض يانعة الخضرة ثم اذا بها صفراء ، ثم تستعيد خضرتها وبين لحظة واخرى يدركهـــا المشيب ثم تمسى هشيما تذروه الرياح !

« والصروح الشواهق والعمائر كنت أراها تتداخل ثم تتهادى فاذا بها بين لحظة واخرى اثرا بعد عين ، وكأنما هى حلم بددته اليقظة !

« كل شيء على وجه الارض كان يتغير بسرعة ، يتكون وينمو ويفسد فى لحظات قلائل تحت نظرى .. كما ألقيت نظرة على عداد السرعة فرأيته يشتط فى التسجيل ، ثم لاحظت أن مدار الشمس ينحرف أمام بصرى بين دقيقة واخرى .. فاستنتجت ان سرعتى اصبحت اكثر من سنة فى الدقيقة . وفى مدى الدقيقة الواحدة كنت أرى الثلج يغطى وجه الارض ، ثم يجلو عنه فتكتسى الربى والوهاد بخضرة الربيع اليانعة ثوان معدودات ثم يطغى الجليد على الدنيا مرة أخرى ! ..

« ولاحظت بعد قليل ارتجافا فى الآلة لم أعرف له سببا .. ولكن حالتى الذهنية لم تسمح لى بالتفكير فى شأنها ، لان نوعا فريدا من الجبن ازدادت سيطرته على تفكيرى ، فلم يعد لى تفكير الا بالايغال فى غياهب المستقبل ...

« ولم أفكر اطلاقا فى التوقف ، لان هذه الاحساسات الفذة التى لم يمر بها انسان قبلى كانت تسكرنى ، ثم أضاء

فى ذهنى فجأة خاطر غريب : ادركت ان رحلتى بهـــذه السرعة لن يكون لها محصول ثقافى .. فمن المستحيل أن أتبين ما طرأ على البشرية من تقدم او تأخر بفعل السنين المتوالية ، والارض والشمس تدوران من حولى بهـــذه السرعة الجنونية التى تخفى جميع العالم والتفاصيل !

« وصار اهتمامى كله موجها نحو مصير حضارتنـــا ومدنيتنا .. أريد ان أعـــرف ذلك المصير ! .. وكل ما استطعت أن أراه عبارة عن أبنية اعلى واضخم من جميـــع ما عرفه زماننا من صروح ، ولكنى لم استطع ان اتبين كنه تلك الابنية وموادها .. فما كانت بسبب السرعة الفائقة الا مزيجا من الضباب والوميض ! ورأيت ألوانا من الخضرة اينع واغنى من كل مانعهده فى زماننا تنتشر على الروابى وفى السهول ، ولا تقوى عليها أعاصير الشتاء وصقيعه ، فعلمت أن مئات السنين القادمة حملت للانسان مزيدا من السلطان على قوى الطبيعة . وبدت لى الارض من خلال قناع الضباب الذى وضعته السرعة البالغة على نظرى اشد جمالا مما هى الآن ..

« كان ذلك أقصى ما استطعت أن أراه عن يقين ، وما أيسره وأقله . فزهدت نفسى فى الاسترسال ، وبدأ عقلى يفكر فى ايقاف الآلة ..

« وواجهت على الفور مجازفة خطيرة .. فربما وجدت فى الفضاء مادة تؤذينى أو تؤذى الآلة عند الوقوف ، ولم يكن أمر هذه المادة المجهولة يعنينى وأنا مندفع بتلك السرعة الفائقـــة . ولكن الوقوف مسألة أخرى .. أين سيكون وقوفى ، وفى أى ظروف ؟ وما هى الحالة الكيماوية التى ستترتب على ذلك الوقوف ؟ أليس من المحتمل أن يحدث انفجار يقذف بى أنا وجهازى المبتكر خارج جميع الابعاد

الممكنة .. الى المجهول ؟

« لا أنكر أن هذا الفرض كان قد خطر لى مرارا وتكرارا وأنا أصنع بيدى تلك الآلة ، ولكنى كنت أواجه فكرة ذلك الخطر بصدر رحب لانه جزء لابد منه من عناصر ذلك المشروع الكبير .. ولا بد مما ليس منه بد .. كما يقولون!

« ولكن هذا كله كان كلاما لا ضرر منه ونحن على الارض. أما فى الفضاء ، وقد صار الخطر وشيك الوقوع ، والمصير شبه محتوم .. فالخوف يزعزع أعماقى ، ولا أجد سبيلا الى استرجاع شيء من رباطة جأشى !

« كنت فى موقف لم يتعرض له أحد من قبل ، فلا يمكن أن تؤنسنى سوابق التجربة .. كل شيء كان غريبا .. وهاوية السقوط كانت مخيفة ولوالب الآلة تحدث صريرا يزيد تمزيق اعصابى ، فقلت لنفسى اننى لا يمكن أن اتوقف .. وأن الآلة مهما فعلت لن تكف عن الحركة المندفعة العمياء ..

« وسبب لى هذا الخاطر نوعا من الرعب والجنون ، فما ادرى وأنا اقبض بيدى كلتيهما على الرافعة الاخرى واحركها بكل قوتى .. فاذا بالآلة تدور حول نفسها ، ثم اذا بها تشق بى اجواز الفضاء رأسا على عقب !

« وسمعت دويا مثل قصف الرعد يكاد يخرق صماخ أذنى .. ولعلنى غبت عن الوجدان لحظة ، وأفقت على صوت فحيح شديد يحيط بى من كل صوب . وبعد قليل شعرت اننى استقر فوق شيء طرى ، وتبدد الضباب شيئا فشيئا عن عينى فتبينت موضعى . كنت جالسا على عشب غزير أمام آلتى المقلوبة . وزال الطنين عن اذنى رويدا ، وأنا أجيل البصر فيما حولى لاجدنى وسط

بستان فيه مرج وتحيط به شجيرات . وكان المطر ينهمر فيبلل ثيابى وينفذ الى جلدى وعظامى المقرورة . فقلت بغيظ :

ـ ياله من استقبال بارد لرجل قطع عددا لا يحصى من الاعوام كى يصل الى هنا !

« تم ادركت أنه من البلاهة بمكان أن أترك الماء يبللنى بهذا الشكل .. فنهضت قائما ونظرت فيما حولى ، فاذا شكل ضخم جدا يبدو أنه منحوت فى الصخر الابيض . ولم استطع ان اتبين فيما عدا ذلك شيئا آخر يدلنى على مكان هبوطى ..

« ومن الصعب أن أحدد لكم كنه احساسى ، وأنا أرى أعمدة من البرد والجليد تتساقط من السحابة القريبة نسبيا من سطح الارض . وبعد قليل خفت كثافة الجليد المتساقط فاستطعت ان ارى الشكل الصخرى الابيض بمزيد من الوضوح وكان عاليا ، أعلى بكثير من الشجرة الفضية القائمة بجواره . وهو منحوت من المرمر وشكله اشبه بأبى الهول المجنح .. ولكن جناحيه مبسوطان على سعتهما عند الجانبين كأنه يهم بالتحليق ..

« أما القاعدة التى أقيم عليها ذلك التمثال العجيب ، فيبدو لى أنها مصنوعة من البرونز وعليها طبقة سميكة من الصدأ الاخضر . واتفق أن كان وجه التمثال الى ناحيتى ، فخيل الى أن العينين ترقبان كل حركاتى وسكناتى . وخامرنى احساس بأن شفتيه يتلاعب عليهما شبح ابتسامة !

« وكان واضحا أن التمثال عتيق ، وأن العوامل الجوية فعلت فيه على مر الزمن فعلها .. فكان يسير . وكان

توالى الضوء والظلام بتلك السرعة ، شبيها فى تأثيره السيىء بالاثار التى يتركها المرض الطويل على الكائن الحى ، ووقفت اتأمل ذلك التمثال برهة قصيرة ، قد تكون نصف دقيقة وقد تكون نصف ساعة •• فبدا لى التمثال وكأنه يتقدم تارة ويتراجع تارة أخرى كلما ازدادت كثافة الجليد أو قلت ••

« وأخيرا خف سقوط الجليد حتى أوشك أن ينعدم ، وبدت فى صفحة السماء تباشير طلوع الشمس • وعدت أنظر الى التمثال الابيض الرابض واستولى على كل ماتجمع فى رحلتى من الفزع والمخاوف فجأة ، ترى هل هذا نذير بما حدث للبشر ؟ اى قارعة من المستحيل أن تقع لبنى الانسان ؟ ما المانع من أن تكون البشرية قد فقدت صفاتها الانسانية وانقلبت الى كائنات ليس لبأسها حدود وليس للرحمة لديها وجود ؟

« اننى حرى فى هذه الحالة أن أبدو لقوم ذلك الزمان المستقبل بقية عجيبة من سلالة متوحشة منقرضة ، فيقررون حرصا على الصالح العام أن يقتلونى !

« وبدأت تلوح لعينى مناظر غريبة •• معظمها مبان وأشكال ضخمة وأعمدة شاهقة وغابات تكسو سفوح التلال • ولكن الخوف سيطر على مشاعرى ، ولم يدع لى الفزع فرصة للتفكير •• فاندفعت كالمجنون نحو آلة الزمان ، وحاولت فى استماته أن أصلح من شأنها • وبزغت الشمس فتلاشى كل أثر للجليد المتساقط ، وبدأ كل شىء على مرمى البصر واضحا • فازدادت الابنية والاشياء ضخامة وهولا ، فجعلت انتفض من الخوف كالعصفور بلله القطر ، ووجهت همى كله إلى اصلاح الآلة الى أن تم لى ذلك فامتطيت صهوتها وهممت أن أدير

محركاتها • وعندئذ راجعني شيء من استطلاعي القديم وقد شارفت الامان ، فألقيت نظرة أخيرة على عالم المستقبل البعيد ، وعندئذ تبينت خلال فتحة مستديرة في قمة جدار أقرب الابنية مجموعة من الاشكال مرتدية أثوابا فخمة ، وكان واضحا أنهم رأوني ، فقد كانت وجوههم الى ناحيتي • ثم سمعت أصواتا تقترب مني ، ورأيت بين الاشجار القريبة من التمثال وجوه اشخاص يركضون صوبي ••

سلالتنا البعيدة

« رأيت أحد اولئك الاشخاص الذين يجرون فى اتجاهى قادما من بين الاشجار ، وهو يخترق ممشى فرعيا يؤدى مباشرة الى الارض المعشبة التى كنت واقفا فيها داخل آلتى ..

« ولم يكن هذا الشخص ضخم الجثة ، بل هو على العكس قصير القامة ، ولعل طوله لا يزيد على أربعة أقدام .. متسربل بزى قرمزى اللون ، ومتمنطق حول خاصرته بحزام من الجلد ، وفى قدميه نعل ، وساقاه عاريتان الى الركبتين ، ورأسه عار كذلك ..

« وبعد أن فرغت من ملاحظة هذه الاشياء جميعا ، فطنت لاول مرة الى شدة سخونة الهواء .. ولفت نظرى جمال ذلك الشخص بدرجة فائقة ، ورشاقته الواضحة. ولكن استرعى انتباهى فى الوقت نفسه فرط هزاله ودقة تكوينه

« كان وجهه شديد الاحمرار ، يذكرنى بذلك النوع من الجمال الذى يضفيه السل احيانا على مرضاه . وكانت نظرة واحدة اليه كافية كى أستعيد على الفور الطمأنينة الى نفسى ، فرفعت يدى عن ازرار المحرك وروافعه التى كنت متشبثا بها وأنا على أتم أهبة للانطلاق ..

وبعد لحظة كان كل منا أمام الاخر وجهـا لوجه ، أنا وفى مواجهتى ذلك الكائن الهش الضئيل ابن المستقبل البعيد •• وأدهشنى على الفور أنه لم يظهر أى علامة من علامات الخوف ، ثم التفت الى شخصين آخرين تبعاه عن كثب ، وخاطبهما بلغة غريبة لاحظت أنها شديدة العذوبة تنساب مقاطعها انسيابا ••

« واقبل آخرون غير هؤلاء ، فلم تمض الا برهة حتى تجمع من حولى نحو عشرة من هذه المخلوقات الصغيرة • ووجه أحدهم الخطـاب الى •• ومن العجيب أنـه خطر بذهنى عندئذ أن صوتى اذا تكلمت سيكون أعرض وأعلى وأعمق من احتمالهم وتصورهم • ولذا اكتفيت بهز رأسى، ثم أشرت الى أذنى وهززت رأسى مرة أخرى ••

« وتقدم الشخص الاول منى خطوة ، وبعد تردد قليل لمس يدى •• وعندئذ شعرت بأنامل أخرى صغيرة لينة توضع على ظهرى وكتفى •• كانوا يريدون أن يتيقنوا من حقيقتى ، ويستوثقوا من أننى كائن فعلا ولست وهمـا زخرفه خيالهم •• ولم يكن فى ذلك المسلك ما يبعث على الخوف اطلاقا • والحقيقة أنه لم يكن فى هؤلاء القـوم الصغار الملاح ما يريب ، بل كان فيهم على العكس شىء ما يبعث على الطمأنينة والثقة •• شىء ما لعله تلك الرشاقة الدمثة أو روح الطفولة البريئة وهى ماضية على سجيتها وفضلا عن هذا كان تكوينهم يبدو هشا ضعيفا حتى لقد خيل الى أننى أستطيع ان أطوح بالعشرة المحيطين بى وكأنهم دبابيس ، بمجرد دفعة هينة بظاهر يدى • ولذا تركتهم يتحسسون جسمى كما يشـاءون ، ولكنى أتيت بحركة مفاجئة لتحذيرهم عندمـا رأيت أيديهم الصغيرة الحمراء تتحسس آلة الزمان ••

« ولحسن طالعى أننى فكرت قبل فوات الاوان فى خطر كنت قد نسيته من قبل ، فمددت يدى وفككت الرافعتين الصغيرتين اللتين تستخدمان فى ادارة المحرك .. ودسستهما فى جيبى ، ثم استدرت نحو القوم لأرى ماذا أستطيع أن أصنع فى موضوع التفاهم معهم ..

« ولما تأملت ملامح وجواههم بمزيد من الامعان ، تبينت خصائص كانت غائبة عن بالى فى ملاحتهم التى تشبه ملاحة التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف .. تلك التماثيل التى يتفنن أهل درستون منذ أجيال فى صنعها .. فشعرهم المتموج ينتهى بشكل حاسم عند الرقبة والخد ، وليس هناك ادنى اثر لشعر أو زغب فوق صفحة الوجه .. أما آذانهم فكانت دقيقة الشكل بدرجة مفرطة، وافواههم صغيرة وذات شفاه نحيلة شديدة الاحمرار ، وأذقانهم الصغيرة تبرز من وجوههم بحيث تنتهى مدببة تماما ، وعيونهم واسعة فيها دماثة .. وخيل الى أن نظراتهم خالية من الاهتمام الشديد الذى كنت اتوقعه من جانبهم

« وطال وقوفهم وهم لا يحاولون التفاهم معى .. بل يكتفون بالوقوف والتطلع باسمين ، ويتبادلون فيما بينهم التعليقات بأصواتهم الناعمة الرخيمة .. فقررت أنأضع حدا لهذا الصمت بيننا ، وبدأت أنا بالتفاهم على قدر الاستطاعة ، فأشرت إلى آلة الزمان ثم الى نفسى وترددت برهة لا أدرى كيف أعبر لهم بالاشارة عن معنى الزمان .. فأشرت نحو الشمس ، وعلى الفور تقدم شخص صغير جميل منهم يجمع فى ثوبه بين اللونين الابيض والقرمزى وقلد اشاراتى . ثم أدهشنى بتقليد صوت الرعد ..

« وانتابهم الذهول لحظة مع أن مضمون اشارته كان

واضحا تمام الوضوح .. ولكن ذهولي كان مصدره أن سؤالا طرأ على ذهني على الفور : هل هؤلاء الناس بلهاء ؟

« ولا يمكن أن تتصوروا كيف استولى على هذا الخاطر، و « أورثني » الهم ، فان اعتقادي على مدى الايام أن أبناء سنة نيف و ٨٠٢٠٠٠ سيكونون متقدمين علينا تقدما لايتصوره العقل سواء في المعرفة أو الفن أو سائر الامور الاخرى .. ولكم أن تتصوروا فجيعتي حين أرى بعيني راسي أحد هؤلاء المستقبلين يوجه الي سؤالا يدل على أن مستواه العقلي يضارع المستوى العقلي لطفل من أطفالنا في هذا العصر لايتجاوز الخامسة من عمره !!

« كان هذا الانسان يسألني أن كنت قد أتيتهم قادما من الشمس في عاصفة رعدية ! وملات خيبة الامل والحسرة جوانب نفسي .. وشعرت عندئذ أنني أجهدت نفسي في بناء آلة الزمان بغير طائل ستحق ذلك العناء ..

« وأومأت برأسي وأشرت الى الشمس ، ثم حشدت قوتي كلها في حنجرتي وزأرت مقلدا قصف الرعود فأفزعهم صوتي وتراجعوا مقدار خطوة أو خطوتين ثم انحنوا ، ولم يلبث أن تقدم أحدهم نحوي ضاحكا وهو يحمل طوقا من ازهار جميلة لم أر في حياتي شيئا من نوعها ، وأشار معبرا عن رغبته في تطويق عنقي بها ...

« ولاقت الفكرة استحسانا أعربوا عنه بتصفيق منغم لطيف .. وعلى الفور أخذ كل منهم يجري هنا وهناك ليجمع الازهار من بين الاعشاب، ثم يقذفونني بها ضاحكين الى أن كاد يخنقني العبير .. ولن يكون في وسعكم وأنتم لم تروا بأعينكم مارأيت بعيني ، أن تتصوروا مدى الطرافة

والتجديد والرقة التى إكتسبها اسنبات الزهور فى تلك المئات من السنين ...

« وبعد أن أخذوا حظهم من ذلك اللهو الجميل ، اقترح أحدهم أن يقوموا بعرض طرفتهم التى عثروا عليها فى أقرب مبنى .. وهكذا اقتادونى بعيدا عن أبى الهول المنحوت من المرمر الابيض ، وكان يخيل الى أنه يرقبنى طول الوقت بابتسامة محيرة .. وسرعان ما تبينت وجهتهم ، لانهم كانوا يسيرون بى صوب صرح ضخم رمادى اللون مبنى من الصخر المنقوش ..

« وفى الطريق تواردت على ذهنى تنبؤاتى القديمة المتفائلة عن مستقبل يزدهر فيه العقل والعلم ، ويزداد فيه وقار الانسان مع تقدم الفهم لاسرار الكون ..

ووجدت لهذه الذكرى اثرا ملطفا من جدية الموقف إلى حد كبير ...

« ولذلك المبنى مدخل ضخم وهو فى جملته مترامى الارجاء .. وكنت بطبيعة الحال مشغولا على الخصوص بتكاثر عدد الجمع الذى يتبعنى من هؤلاء الاقوام الصغار .. ومشغول فى الوقت نفسه بتلك البوابات الكبيرة المفتوحة ، وكأنها أفواه هائلة تتثاءب ومن داخلها عالم تملؤه بالنسبة الى الظلال والالغاز ..

« وكان إحساسى العام بالعالم الذى رأيته من فوق مستوى رءوس هؤلاء القوم أنه مروج مترامية الاطراف، تنتشر فيها الاشجار الجميلة والازهار.. فكأنها حديقة كبيرة لم ينبت فيها العوسج ولا الاعشاب التى تخنق النبات المترف النافع . ولاحظت نوعا من الازهار الطويلة البيضاء الغريبة الشكل يبلغ عرض كل بتلة من بتلاتها

« أوراق الازهار » نحو قدم .. وهذه الإزهار البيضاء تنمو هنا وهناك بغير انتظام كأنهـا أزهار برية ، ولكنى لم أفحص أى زهرة منها فى تلك الآونة عن كثب .. وأما آلة الزمان فتركت ملقاة على العشب

« ولاحظت عند اقترابى من بوابة البنـــاء أن ذلك القـــوس الصخرى الضخم حافل بالنقوش ، ولكنى بالطبع لم اتأمل تلك النقوش بتمعن .. وان كان قـد خيل الى أننى أرى أشكالا تذكرنى بالزخارف الفينيقية وأدهشنى أن تلك الزخارف بها تصدعات كثيرة عميقة ، وأن العوامل الجوية قد تركت فيها آثارا سيئة ..

« واستقبلنى على أعتاب البناء بضعة أشخاص آخرين ثيابهم أزهى وأكثر رواء من القوم الذين أتوا الى حيث حطت مركبتى .. ودخلنا وانا أبدو فى وسطهم بثيابى العصرية وضخامتى والازهار المحيطة بعنقى كائنا عجيبا يباين تمام المباينة أعضاء الموكب ذوى الثيـاب البراقة والقدود الضئيلة والضحكات الساحرة الرخيمة والحديث المرح الذى ينسـاب فى الاذن كالخمر المسكرة او الموسيقى العذبة ...

« وافضى ذلك المدخل الضخم الى قاعة لهـا ستائر بنية اللون ، وسقفها المرتفع تحجبه الظلال .. ونوافذها بعضها له مصاريع من الزجاج الملون والبعض الاخـر بغير مصاريع بحيث تسمح بدخول ضوء ملطف .. وأما الارض فكانت مصنوعة من كتل ضخمة من معدن أبيض شديد الصلابة ، واصر على كلمة كتل لا صـــفائح لان السطح كان باليا من كثرة الاستعمال غـدوا ورواحا اجيالا فى اثر أجيال ، مما أحدث أخاديد عميقة فى الممرات

المطروقة .. وهذه الاخاديد تنبىء عن سمك تلك الكتل التي رصفت بها الارض ..

« وكان يعترض طول القاعة عدد لا يحصى من الموائد المصنوعة من الصخر المصقول ، وارتفاعها عن الارض لا يزيد على قدم واحدة .. وفوق هذه الموائد أكوام من الفاكهة ، عرفت في بعض انواعها مشتقات من فصيلة البرتقال والكرز، ولكن معظم الانواع كانت غريبة عني تماما !

« وبين الموائد تناثر عدد هائل من الوسائد والحشايا، جلس اعضاء الموكب عليها واخذوا يشيرون الى كي أحذو حذوهم .. ومن غير مراعاة لأي نوع من أنواع التكلف للاصول المعروفة لنا ، شرعوا يأكلون تلك الفواكه بأيديهم ويلقون القشور والنوى وما الى ذلك داخل الفتحات المستديرة التي على جوانب الموائد ..

« ولم أضيع وقتا طويلا في التردد ، بل حذوت حذوهم لانى كنت أشعر بوطأة العطش والجوع .. واثناء تناول الطعام أخذت اتفحص القاعة على مهل، ولعل اهم ما لفت نظري لاول وهلة هو مظهر الاهمال والتلف .. فزجاج النوافذ تعلوه أوساخ كثيرة وبقع طال عليها الامد ،وان كان مصنوعا فى أشكال هندسية بارعة وهناك ثغرات من اثر التحطيم في مواضع كثيرة ، والستائر تعلوها طبقات كثيفة من الغبار ، ثم لفت نظري أن زاوية المائدة الرخامية القريبة مني مهشمة .. ومع ذلك فان الطابع العام للقاعة يدل على الفخامة والبذخ والابهة

«وكان عدد من يتناولون الطعام لايقل عن مائتين..

ومعظمهم أقرب ما يمكن من موضعى ، وعيونهم ترمقنى باهتمـــام وتومض من فوق الفــواكه التى يقضـــمونها بأسنانهم ، وجميعهم يرفلون فى أكسية متبــاينة الالوان ولكنها كلها على السواء مصـــنوعة من مادة واحـــدة حريرية الملمس بيد أنها متينة

« وقد اكتشفت فيما بعد أن الخيل والماشية والاغنام والكلاب قد حذت حذو الدناصور وما اليه من الحيوانات البائدة ، فانقرضت سـلالتها .. ولكن الفواكه كانت لذيذة جدا وكثيرة الانواع . وكنت فى البداية أتعجب لغرابة أصنافها ولغـرابة الازهار التى أراها ، ولكننى بمرور الوقت ألفت منظرها وعرفت منابتها »

لغة جديدة

« وعلى كل حال ، بمجرد أن أشبعت نهمى وعطشى بدرجة معقولة ، بدأت تساورنى فكرة تعلم لغة هؤلاء القوم .. وكان ذلك طبعا أول شيء يجدر بى أن أوليه عنايتى . وكانت الفواكه التى أمامى موضوعا مناسبا لاول درس ، فتناولت احدى الثمار ورفعتها أمام وجهى فى الهواء ، وبدأت استخدم الاصوات والاشارات فى السؤال عن أسمها .. ووجدت صعوبة كبيرة فى توصيل مرادى الى أذهانهم ، وقوبلت محاولاتى الاولى بنظرات الدهشة والضحك المتوالى . ولكن سرعان مابدا على شخص أشقر الشعر منهم أنه فهم مرادى ونطق باسمه ، وبدأت بينهم ثرثرة طويلة تعليقا على مسلكى وتوضيحا له ..

فكانت محاولتى بصوتى القوى أن أخرج مقاطع لغتهم اللطيفة الرقيقة مدعاة لمرحهم وطربهم .. ومع ذلك زعمت لنفسى أننى معلم كبير وسط مجموعة من الاطفال المشاغبين . ومضيت أسأل عن أسماء الفواكة الاخرى واحدة واحدة وأردد الكلمات ، الى أن وعيت نحو عشرين اسما على الاقل .. ثم انتقلت الى أسماء الاشارة ، ثم فعل « أكل » ..

« وكان التقدم بطيئا شاقا ، وسرعان ماشعر الاقوام الصغار بالتعب ورغبوا في التخلص من اسئلتى .. فقررت أن أخضع لحكم الضرورة وأتركهم لهواهم على أن أتلقى

دروسى فى مقادير صغيرة وفترات قصيرة حتى أتجنب أظبجارهم ...

« وعندما انتهى الطعام ، وانتهـــى درسى الاول .. لاحظت أن معظم من كانوا حولى فى البداية قد انصرفوا. ومن الغريب أننى قابلت عدم اكتراثهم بمثله ، فلم أعد أحسب للياقة معهم حسابا .. فتركت القاعة بعـــد أن شبعت وخرجت الى العراء . وهناك رأيت أفواجا بعد افواج من هؤلاء القوم ، وكانوا يقتفون أثرى الى مسافة قصيرة وهم يتجاذبون الحديث ويضحكون من منظرى، ثم يبتسمون لى بمودة ويتركوننى الى شـــأن آخر ..

« وكان هدوء المساء قد شمل ، عندما ماخرجت من القاعة والشمس على وشك المغيب . وكان كل شىء يبدو فى نظرى غريبا مختلفا تماما عن العالم الذى أعـرفه .. حتى الازهار ، وكان البناء الكبير الذى غادرته قائما عند سفح يخترقه نهر عريض ..

« وقررت أن أصعد قمة ربوة تبعد نحو ميل ونصــف لألقى نظرة على كوكبنا سنة ٨٠٢٧٠١ بعد الميـلاد .. فهذا التاريخ هو الذى سجلته أجهزة آلتى .. !

« وأثناء سيرى الى تلك الربوة ، أخذت أرقب كل دليل يمكن أن يفسر الحالة السيئة التى تكتنف فخـامة كل شىء حولى .. فما اكثر الاطلال والخرائب ! ففى منتصف سفح التل رأيت مثلا كومة كبيرة من الجرانيت ، ومتاهة مترامية من الجدران المتداعية تنمو بينهـا نباتات غريبة الشــكل رائعة الجمال ، أوراقها مزركشة بنقوش بنية اللون . وكان واضحا أن هذه الخرائب هى البقية الباقية من بناء ضخم ، لم استطع أن أتبين الغرض الاصــلى من

انشائه . وبين هذه الاطلال بالذات كان مكتوبا لى ان أمر فيما بعد بتجربة عجيبة للغاية ، قادتنى الى اكتشاف اعجب .. ولكنى سأترك هذا الحديث إلى الوقت المناسب، واستأنف سرد القصة بترتيبها الزمنى ..

« ولما وقفت فوق قمة الربوة أجيل الطرف فى الافق المترامى، تبينت فجأة أنه لا اثر هناك لبيوت صغيرة.. فكان البيت المفرد — وربما ايضا العمارة السكنية — قد انقرضت كما انقرضت الحيوانات المألوفة ..!

« وخطرت لى على الاثر فكرة اخرى ، فنظـــرت الى حفنة الاشخاص الذين كانوا يتتبعون خطواتى عندئذ .. فتبينت ايضا انهم نسخ متشابهة من حيث الاقمشـــة المصنوعة منها الثياب ، والوجوه الخالية من الشعر وطراوة الاطراف ورخاوتها ..

« أجل كنت قد لاحظت ذلك من قبل ، ولكن الملاحظة لم تكن واضحة وشاملة . فليس هناك ذلك التفاوت فى أصناف الثياب ، ولا سيما بين الجنسين كما هو معهود لدينا ، فاستنتجت أن هناك تشابها كبيرا بين الجنســين فى كل شيء فى عالم المستقبل البعيد . ولقد أوشـــكت الفروق الجنســـية أن تتلاشى ، ولم يعد الرجل متميزا بالقوة والمرأة بالرخاوة والنعومة . لم يعد الرجل متميزا بالكدح والعمل .. فلا عمل هناك تقريبا ، وهكـذا لحق الرجل بالنساء فى نعومة الوجه والزى والرقة ..

« وبهذه المناسبة الاحظ ان فى جيلنا الراهن بدايات توحى بهذا الاتجاه .. بدايات لا يستهان بها فى اختلاط الملابس والالوان والصفات والمظاهر ...

« هذه على كل حال هى الخواطر التى مــرت برأسى

فى البداية ، قبل أن اتحقق من مدى اصابتها كبد الحقيقة .. وبينما انا افكر فى هذه الامور ، استرعى انتباهى بناء جميل صغير أشبه ببئر مقامة تحت قبة .. وعجبت فى نفسى لان الابار ظلت محتفظة بوجودها ، ولم تندثر أو تنقرض مثل معظم معالم دنيانا الحاضرة ..

« ولم يكن هناك قرب قمة الربوة ابنية كبيرة ، ولأن خطواتى كانت واسعة جدا بالنسبة لاولئك الناس فسرعان ما ألفيت نفسى وحيدا حين اسرعت فى السير . وكانت هذه اول مرة أخلو فيها الى نفسى .. واسعدنى هذا الشعور بالحرية والمغامرة فاندفعت نحو الربوة ، وهناك وجدت مقعدا من معدن اصفر لم استطع التعرف عليه ، وفى مواضع منه صدأ قرمزى ، ويكاد يكسوه نبات ناعم مثل الطحلب نابت حوله .. وعلى ذلك المقعد جلست ، وأخذت أنظر الى عالمنا القديم فى ضوء الاشعة الاخيرة للشمس الغاربة . وكان المنظر من الطف وأجمل ما رأيت فى حياتى . والافق الغربى يختال فى موكب باذخ من القرمز والارجوان والذهب . ومن تحت أقدامى يترامى وادى التيمز .. وهنا وهناك كنت ارى اطلالا مندثرة وصروحا شامخة بين الحدائق المترامية، ولمحت على البعد خطا عموديا لعله ينبىء عن قبة أو مسلة ...

« ولم تبصر عينى اسوارا ، ولا أى دليل على ملكية خاصة ولا على زراعة مقصودة .. وكأن الارض كلها قد انقلبت حديقة او جنة . ولعل منظر غروب الشمس قد أوحى الى ذهنى بالخاطر الجديد الذى بدأ يستولى على تفكيرى وهو أننى حللت الارض فى الزمن الذى جنح فيه الجنس البشرى الى الغروب . وأيقنت عندئذ أن القوة

والصلابة لا تلدهما الا الحاجة والمقاومة ، وأن الامان من الحاجة والطمأنينة ويسر المعيشة لابد أن تفضى الى الضعف والانحلال ..

«وأدركت عندئذ ان اتجاه البشرية الى تحسين ظروف الحياة ، وأن اجتهاد المدنية فى زيادة الطمأنينة الاقتصادية والاجتماعية والبدنية والصحية قد بلغ على مر الزمن غايته . واستتب النصر طويلا لجهود البشرية المتحدة التى سيطرت على الطبيعة سيطرة تامة .. وان الامور التى نعتبرها اليوم اضغاث احلام وامنيات عذبة ، بيد انها خيالية ، قد تحققت جميعها وزيد عليها اضعافا مضاعفة .. فكانت نتيجة هذه المدنية القصوى المستقرة هى ذلك الحصاد المؤسف الذى يتراءى لعينى صورة خرائب أبنية وخرائب آدميين ! .. الاطلال فى كل مكان تتحدث عن انحلال سلالة لم يكن لطموحها حد ، فدفعت ثمن النجاح تحللا يشفى بها على الفناء !

« لكن بيننا وبين هذا الشوط مدى بعيدا جدا .. فزراعتنا اليوم ووسائلنا الصحية لم تزل بدائية جدا ، وعلمنا العصرى لم يناوش الا أقل القليل من كنوز المعرفة ومن مصادر المرض والفاقة . ولم يزل أمامنا شوط هائل ، قبل أن نصل الى ما يشبه ذروة المدنية . ولكن ذلك الزمن بلغ من سيطرته على سلالات النبات انه يستحدثها لا بالتدريج ولكن فى مثل طرفة العين .. ! وسيكون أبناؤنا فى المستقبل متكافئين فى فرص الذكاء والصحة والرفاهية والرخاء والراحة . ولن يكون هناك تفاوت بين أبناء البشر فى الحقوق أو الامتيازات أو الواجبات ، وما أكثر الامتيازات يومئذ وما أضأل الواجبات !

« حسبكم أن تعلموا أن الهواء سيكون بفضل العلم خاليا من الهوام والذباب والغبار والجراثيم ، وأن التربة ستكون خالية من العوسج والاشواك والاعشاب الضارة .. ان الأمراض التى نعرفها لم يعد لها وجود فى عالم المستقبل ! .. لم يعد هناك فى القاموس شيء اسمه العدوى أو الوباء . لقد قضى الطب الوقائى على الطب العلاجى ، فانقرض كما انقرضت الحيوانات المندثرة !..

« بلْ أكثر من هذا ، قضى العلم على ظاهرات التعفن لخلو الهواء من الجراثيم ! .. انهم يلقون بقايا الطعام وقشور النباتات حيثما اتفق فلا تتعفن ولا تتحلل .. كل شيء هناك نظيف فلا وجود لما نسميه نحن القمامة أو النفاية !

« ومثلما قضى العلم على أسباب الشقاء الصحى ، قضى الوعى الاجتماعى على أسباب الشقاء السياسية والاجتماعية .. فأبناء الجنس البشرى على السواء يرفلون فى أجود أنواع الثياب ، بل ليس هناك من الثياب الا نوع واحد هو الأجود .. فلماذا ينتج البشر ما هو أقل جودة أو أردأ وهم يعرفون كيف ينتجون الأجود والافضل ؟ ! ...

« ثم لمن ينتجون الأردأ ؟ ليس هناك تفاوت فى القدرة الشرائية ، وليس هناك مجال للاثراء الذى يخلق تفاوتا فى الاقتناء ...

« ولم ألاحظ على احد هناك أنه يعمل .. ليس هناك أجراء ولا عمال ، وليس هناك أى نوع من أنواع الصراع .. سواء كان صراعا اجتماعيا أو صراعا اقتصاديا .. والمتجر والاعلان وحركة المرور والنقل

والتسابق على التصدير وعلى الأسواق ، وكل تلك العمليات التجارية التى تنهك أعصاب العالم اليوم ، وتقوم عليها المناورات الدولية والحروب والمكابرات الاستعمارية ، ليس لها مكان فى عالم المستقبل ، انتهى زمنها بانتهائنا .. !

مصير قاتم

« وكان من الطبيعي على ضوء تلك الخواطر والمشاهدات في تلك الأمسية الجميلة ، أن أفكر في الفردوس الاجتماعي الذي نعتبره اليوم ضربا من المحال أو شطحة من شطحات الخيال .. ولكن كيف يكون ذلك مستحيلا وقد استطاع تقدم العلم والمدنية أن يتغلب على الحالة الجوية ، فأصبح طقس انجلترا ربيعا دافئا على الدوام طول النهار ... واذا طرأت عاصفة قبيل الفجر وتساقط الجليد كما شهدت ذلك بعيني ساعة الهبوط عند ساحة أبي الهول فالضرر مؤقت والأثر لا يلبث أن يزول !

« ومشكلة المشاكل التي يواجهها الحصفاء في أيامنا هذه — وهي الزيادة المطردة في النسل — استطاع العلم بكل وسيلة أن يجد لها حلا حاسما ، فالناس في هذا العالم السعيد لا يتهالكون على انجاب الاطفال .. وعددهم دائما في حدود المعقول

« ولكن المسألة الكبرى التي شغلت ذهني عندئذ هي العلة الخفية وراء هذا التغيير في أحوال البشر وأشكالهم .. فتغير الظروف يستتبع دائما من الناس التكييف والتأقلم ليواجهوا الظروف الجديدة ويعيشوا في ظلها .. فما هو ذلك التغير في الظروف الذي تسبب في تغيير درجة الذكاء البشري وظهور قدرات الآدميين وبأسهم ؟

« انها المصاعب والعقبات والقيود التى تكبل الحرية مع النزوع الى الحرية ، فهذه هى الظروف التى لا تسمح بالبقاء الا لمن يعمل ويقاوم ويناضل ويثبت فى النضال ويحسن المراوغة عند الاقتضاء .. وهكذا يبقى فى هذا الصراع الضخم القوى والذكى ، أما الضعيف بدنا وعقلا فلا مكان له ولابد أن يفنى ...

« وكما يبرز الكفاح كوامن القوة والذكاء ، ينضج أيضا صفة الصبر والسيطرة على النفس وضبط الأعصاب والحزم . وفى معمعان الصراع الدائر حول غريزة الجنس، يبرز الحرص على كيان الأسرة وعوامل الغيرة والمسئولية والحنان على الذرية والعناية والتضحية وانكار الذات ..

« هذه هى المحن التى صهرت معدننا .. وأنضجت مواهبنا الجسدية والعقلية والخلقية . وبالقضاء على تلك المحن فى ذلك المستقبل البعيد ، ضاعت نتيجة طموحنا المفرط الى الرفاهية والدعة كنوز هى أثمن من كل رفاهية .. انها كنوز أنفسنا وذواتنا ... كنوز القوة والذكاء والخلق ! ...

« وبينما أنا واقف هناك اتأمل ما آلت اليه البشرية من انحلال بسبب امعانها فى القوة ، ومن هزيمة امام الطبيعة بسبب امعانها فى السيطرة على الطبيعة ، اذا بالقمر بدرا فى تمامه يتراءى فى الأفق الشمالى الشرقى فى هالة من الضياء الفضى ...

« وأخذت حركات الناس عند سفح الربوة تقل الى ان خفتت تماما .. ومرقت بجانبى بومة ، وسرت فى أوصالى قشعريرة من برودة الليل ، فقررت أن أهبط التل لادبر موضعا لمبيتى ..

« وبحثت عن المبنى الـــذى أعرفه بعينى كى أحدد هدفى قبل ان أهبط التل . وتوقفت نظرتى أثناء هذا البحث لحظة عند تمثال أبى الهول المجنح الابيض اللون فوق قاعدته المصنوعة من البرونز . وكان ضوء القمر الصاعد قد ازداد وضوحا ، فظهرت معالم التمثال وما يحيط به تمام الظهور .. واستطعت أن أرى الشجرة الفضية المجاورة له ، والغابة الصغيرة من الشجيرات وقد بدت قاتمة فى الضوء الشاحب . وها هو أيضا ذلك المسطح الصغير المفروش بالعشب الاخضر ..

« وألقيت نظرة أخرى على ذلك المرج .. وانتابنى شك قوى وقلت لنفسى بحرارة :

ــ كلا!.. ليس هذا هو المرج الذى أعرفه !

« ولكنه كان هو لأن وجه أبى الهول كان الى ناحيته.. فهل يمكنكم ان تتصوروا اثر هذا اليقين فى نفسى ؟ .. كلا ، لا يمكنكم أن تتصوروا هذا الاثر .. ان آلة الزمن لم تكن فى موضعها حيث تركتها هناك !..

« وفجأة شعرت كأن ضربة سوط هبطت على وجهى.. ان معنى هذا أن عمرى كله عرضة للضياع .. وأننى قد أبقى فى هذا العالم الجديد الغريب وحيدا لاحـول لى ولا قوة .. وبعد لحظة واحدة ، ترجمت أعصابى هذا الاحساس الى ذعر مفرط . وأخذت اجرى فى خطوات واسعة لاهبط التل ، وسقطت على أم رأسى فجـــرح وجهى ولكننى لم أضيع وقتا فى تجفيف الـدم .. بل وثبت قائما واستأنفت الجرى والقطرات الدافئة تنحدر وتنساب على خدى وذقنى ...

« وظللت طول الوقت اقول لنفسى وأنا أجرى :

ـ انهم لم يفعلوا بها شيئا .. وقد حركوها قليلا فقط .. دفعوها تحت تلك الشجيرات حتى لاتعترض الطريق ..

« وجعلت العن نفسى بصوت مسموع ، وأنا أجرى ، لما أقدمت عليه من طيش حين تركت آلتى بغير احتياط . ورحت انادى بصوت مرتفع فلا يجيبنى أحد ، ويبدو أنه لم يكن هناك انسان واحد يقظان فى ذلك العالم المترامى المستلقى تحت ضوء القمر ..

« وعندما وصلت الى المرج تحققت أسوأ مخاوفى .. فلم يكن هناك أثر للالة ، وشعرت بالاعياء والبرد حينما واجهت المكان الخالى وسط الشجيرات القائمة . وجعلت اجرى فى أرجاء المكان وأنا فى شدة الغيظ ، كأنما الآلة يمكن أن تكون مختفية فى ركن من الاركان .. وبعد قليل توقفت على حين غرة ، وجعلت أجذب شعرى من شدة القهر . ومن فوقى كان ابو الهول الابيض المجنح يطل على من فوق قاعدته البرونزية ، وخيل الى فى ضوء القمر انه يبتسم ساخرا من فجيعتى .. !

« وكان من الممكن أن أعلل نفسى مفترضا أن أولئك القوم قد وضعوا الآلة فى مكان أمين ليحفظوها لى .. لولا أننى كنت على يقين من عجزهم عن ذلك جسديا وذهنيا ، فخامرنى الاحساس بأن هناك قوة خفية أجهلها تدخلت لابعاد اختراعى عن يدى .. !

« ولا بد أنى كنت فى حالة جنونية لانى أتذكر جريى بعنف بين الاشجار وحول أبى الهول ، وأننى رأيت أثناء

جريي حيوانا أبيض اللون ، ظننته في الضوء الخافت غزالا صغيرا .. وأذكر أيضا أنني في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، جعلت أضرب الاشجار بقبضة يدي الى أن دميت مفاصل اصابعي . ثم أخذت أبكي وأهذي .. واندفعت نحو البناء الكبير ، فوجدت القاعدة الكبرى مظلمة ساكنة مهجورة . وانزلقت على الارض غيرالمستوية فكان وقوعي على احدى الموائد الصخرية ، وكدتاكسرعظام حوضي . وأوقدت عود ثقاب واخترقت الستائر المحملة بالتراب ،فوجدت قاعة أخرى كبيرة ملآنة بالوسائد والحشايا .. وعلى بعد أمتار منها رأيت نحو عشرين من أولئك القوم الصغار نائمين ..

« ولا شك أنهم عجبوا لظهوري بينهم على هذه الصورة عجبا شديداً ، لاني دخلت عليهم على حين غرة هاتكا حجب الظلام وسكينة الليل بأصوات غير مفهومة لهم وبضوء عود ثقاب .. فهم فيما يظهر قد نسوا كل شيء عن اختراع اسمه اعواد الثقاب ..

« وجعلت أصيح بهم في غضب كغضب الطفل الهائج :

— اين آلتي ؟ .. أين آلة الزمن ؟

« وكنت أضع يدي عليهم واجذبهم لانهضهم من رقادهم، فكان ذلك بلا شك شيئا عجيبا في نظرهم .. فأخذ نفر منهم يضحكون ، ولكن الغالبية استولى عليها الفزع ! .

« وفجأة أطفأت عود الثقاب واندفعت خارجا ، فاصطدمت في طريقي بواحد منهم وأوقعته على الارض .. ثم اخترقت قاعة الطعام الكبرى مرة أخرى الى أن وجدت نفسي في الخلاء تحت ضوء القمر ..

« وسمعت صيحات تدل على الفزع ، ووقع أقدامهم الصغيرة ، وهم يجرون ويتعثرون فى هذا الاتجاه أو ذاك . ولست أتذكر كل مافعلته والقمر يتسلق قبة السماء ، ويخيل الى أن جسامة خسارتى قد أطارت صوابى .. لانى شعرت بالانقطاع اليائس عن نوعى كله ، حتى صرت حيوانا غريبا فى عالم مجهول ! ..

« وأخيرا استلقيت على الارض قرب تمثال أبى الهول المجنح ، وانفجرت باكيا فى حزن وانكسار بالغ ، مغيظا لان حماقتى سولت لى ترك الآلة الثمينة تغيب عنى ، وفيها سر قوتى كلها حتى لم يبق لى الا الشقاء والعجز ..

وعندئذ كان قد نال منى الاعياء والاسى فنمت .. ولم أستيقظ الا فى وضح النهار ، فوجدت عصفورين يتواثبان من حولى على العشب على قيد ذراع منى ..

« وجلست فى طراوة الصبح ، أحاول أن أسترجع فى ذهنى كيف جئت الى هنا ، ولماذا أحس فى أعماقى بالوحشة والانقطاع واليأس . ثم اتضحت الاشياء أمام بصيرتى ، وأتاح لى ضوء النهار شيئا من الطمأنينة والاتزان فواجهت ظروفى الجديدة بتعقل . واتضحت لى حماقة ثورة غضبى الجنونية بالامس ، ورحت أناقش نفسى الحساب وأحاورها ..

« وبدأت بافتراض أسوأ النتائج ، قائلا لنفسى :

ـ فلنفرض أن الآلة ضاعت تمام الضياع ، أو تحطمت ، ان الواجب يقضى فى هذه الحالة أن أكون هادئا صبورا أو أن أتعلم طرائق هؤلاء الناس فى الحياة ، وأحاول معرفة المصادر التى أحصل منها هنا على مايلزمنى من المواد

والادوات عسى أن أتمكن فى النهاية من صنع آلة أخــرى للزمن ، ان هذا هو بصيص أملى الوحيد .. وهو بصيص ضئيل فعلا ، لكنه افضل كثيرا من اليأس التام ، ثم ان هذا العالم الجديد جميل فى الواقع وطريف وملىء بنواحى الجدة التى تثير الاستطلاع ..

« وهتف بى هاتف فى نفسى بأن الآلة ربما كانت قد أخفيت فى مكان بعيد .. ومع هذا يجب أن أتذرع بالهدوء والصبر كى أعثر على مخبئها واستردها ، اما بالقوة واما بالحيلة ..

قاعدة التمثال

« وعلى هذا القرار هدأت نفسي ، ونهضت قائما على قدمى .. وتلفت حولى وأنا أتساءل أين عساى أستطيع أن أستحم ، لان ارهاقى ونومى فى العراء وتصلب أعضائى وغبار السفر جعل حالتى لاتطاق .. وأغرتنى نضارة هذا الصبح أن أنشد لنفسى النظافة والنضارة ..

« وبينما أنا أبحث عن موضع للاستحمام ، جعلت فى الوقت نفسه أفحص الارض المحيطة بالمرعى الصغير فحصا دقيقا . ورحت أحاول توجيه الاسئلة بالاشـــارة الى من أصادفهم فى طريقى من أولئك القوم الصغار ، فلم يستطع أحد منهم أن يفقه مرادى .. وبعضهم ذهل وســكت ، أما البعض الاخر فظن أننى اهـــرج او اداعب وجعلـوا يضحكون منى . فوجدت عناء شديدا فى منــع يدى من الانقضاض على وجوههم الضاحكة الجميلة ..

« وبعد قليل وجدت بين الاعشاب آثارا تبشر بالخير .. وكانت هذه الآثار عبارة عن أخاديد وخطوط فى الارض فى منتصف المسافة بين قاعدة أبى الهول والموضــع الذى هبطت عليه آلة الزمن عند وصولى . وفضلا عن هـــذه الخطوط ، كانت هناك اثار جر شيء ثقيل .. وبجوارها آثار أقدام صغيرة جدا . ووجه هـــذا كله نظرى الى قاعدة التمثال ، وكانت هـــذه القاعدة كمــا قلت آنفا مصنوعة من البرونز ..

« واتضح لى أن القاعدة المذكورة لم تكن كتلة واحدة صماء ، فهناك نقوش كثيرة واطارات متعددة على جانبيها .. فاتجهت الى تلك الاطارات وجعلت أدق عليها بيدى ، فعرفت أن القاعدة مجـــوفة . وفحصت تلك الاطارات بعناية فوجدتها غير متصلة بعضها ببعض .. ولم أكتشف مواضع للمقـابض أو المفـاتيح ، الا أنى قدرت أن هذه الاطارات عبارة عن أبواب تفتح من الداخل ..

« ووضح أمام ذهنى تمام الوضوح ، بغير عناء طويل فى الاستنتاج ، أن آلة الزمن مستقرة فى موضع ما داخـل القاعة .. وان كنت لا أدرى كيف أدخلوها هناك ..

« وفيما أنا فى موقفى ذاك ، وقد استبدت بى الحيرة ، رأيت شخصين من أولئك الناس الصغار فى ثياب برتقالية اللون قابعين تحت أشجار التفاح المزهــرة .. فالتفت نحوهما باسما ، وأشرت اليهما بالاقتراب منى ، فاقتربا . وعندئذ أشرت الى القاعدة البرونزية ، وحاولت ان أفهمهما بالاشارة فحوى رغبتى فى فتحها ..

« ولكن بمجرد الاقدام على أول اشارة فى هذا المعنى ، وجدت لديهما رد فعل غاية فى الغرابة .. ولا ادرى كيف أصور ذلك لكم اليوم . ولذا سأقرب الموقف من أذهانكم بتشبيه تمثيلى ، وتصوروا أن أحدا منكم بدرت منـه اشارة نابية أو بذيئة نحو سيدة مهذبة خجول .. أن رد الفعل لدى هذه السيدة شبيه تماما بما ارتسم على وجهى هذين الشخصين فى تلك اللحظة .. كأن اشارتى تحمـل كل معانى الفحش الخـادش للحيـاء .. وانطلقا موليين فرارا كأنهما تلقيا أفظع اهانة يمكن أن تخطـــر بالبال ، وتركانى فى حالة حيرة لامزيد عليها ! ..

« وحاولت المحاولة نفسها مع شخص لطيف المنظر يرتدي ثوبا أبيض ، فكانت النتيجة هي بعينها . . وكانت نظراته لي مبعثا لاحساسي بالخجل من نفسي ، ولكني كما تعلمون كنت حريصا على استرداد آلتي . فأعدت عليه الكرة ، فأولاني ظهره موليا عني كما فعل صاحبـاه من قبل . فأفلت زمامي من يدي ، وسيطر على غضبي . وفي ثلاث خطوات ، كنت قد أدركته وأخذت بتلابيبه وجعلت اجره نحو تمثال أبي الهول جرا . .

« وعندئذ طالعت في وجهه من الارتياع والنفورماجعلني أفلته ، فراح يعدو مبتعـدا لايلوي على شيء . . وذهبت الى القاعدة البـرونزية وجعلت أدق اطاراتها بقبضتي ، فخيل الى انى اسمع شيئا يتحرك في الداخل . . خيـل الى بصراحة أني أسمع ضحكة ساخرة ، ولـكن لابد أني كنت مخطئا . .

« وانتقيت قطعة حجر كبيرة استبدلت بها بعد قليـل حصاة ضخمة . . ورحت أدق بها القاعدة حتى أخـذ الصدأ يتناثر ، ولابد أن أولئك الناس الرقاق قد سمعوا الدق على مدى ميل أو أكثر . . فقـد رأيت عددا منهم يقفون فوق الربى البعيـدة ناظرين نحوي في استطلاع ودهشة . .

« وأخـيرا أدركني التعب وتصببت عرقا ، فجلست أرقب المكان ولا أدري ماذا أصنـع . ولكني لم أستطع صبرا على هذا السكوت ، فطبيعتي الغريبة لاتسمح لي بهذا الركود . . وأنا لا أسأم من متابعة معضلة بقصـد ايجاد حل لها سنوات متوالية . أما الاكتفـاء بالسكوت والركود أربعا وعشرين ساعة فشيء لاطاقة لي به . .

« ونهضت بعد فترة من الوقت ، ورحت أتجول على غير هدى بين الاشجار ..

« وفجأة تبدت أمام ذهنى المفـــارقة الضخمة ، حين تذكرت تلك السنوات الطويلة من عمرى التى انفقتها فى الدروس والعمل الكادح لاصـــل ألى عصر المستقبـــل .. وهاانذا أطأ بقدمى عصر المستقبل حتى جن جنونى لهفـة منى على مفارقته !!

« اننى فى الحقيقة قد صنعت بنفسى اعقد واسوا فـخ صنعه انسان .. ومع اننى كنت الضحية فى هذا المأزق ، الا أن المفارقة الضخمة كانت أقوى من حـيرتى وأحزانى فانفجرت أقهقه ضاحكا ..

« وعندما دخلت القصر الكبير خيـــل الى أن الناس يتجنبوننى .. ولعل هذا كان وهما صوره لى خيالى ، او لعله حقيقة سببها أقدامى على دق جوانب قاعدة تمثالهم الكبير . ولكن احساسى الداخلى أكد لى انهم يتجنبوننى فعلا ، ومع هذا حرصت اشد الحرص على الا أظهر لهم أدنى اهتمام ، والا احاول مخاطبتهم أو الاتصال بهم

القسم الثالث

صورة عالم المستقبل

وحشة الغربة

« وانقضى يومان فعادت الامور الى سالف عهدها ، وتعلمت مااستطعت من لغتهم .. وزدت محصولى من الاكتشافات بالتجول هنا وهناك ..

« وما لم اكن قد أسأت الفهم ، فالذى ادركته أن لغتهم بسيطة كل البساطة ، وتتكون من أسماء الموجودات المادية ومن الافعال . وليست هناك ألفاظ تدل على أشياء مجردة أو استعارات ، فعباراتهم تتكون غالبا من كلمتين اثنتين

« وحاولت أن أعبر لهم بهذه اللغة عن فكرة آلة الزمان ، وعن لغز الابواب البرونزية التى تحت تمثال أبى الهول فلم أفلح . ولذا قررت ارجاء هذه المحاولات الى أن تزداد معلوماتى وأصل الى حل هذه الالغاز بوسائلى الخاصة .. وان كنت حريصا على ألا أبتعد عن موضع وصولى أكثر من بضعة أميال فى أى اتجاه من الاتجاهات ..

« ومن هذه الجولات ، استطعت أن أكون فكرة مضمونها أن سائر أنحاء العالم تتمتع بما يتمتع به وادى نهر التيمز فى هذا الموضع من رخاء وبذخ وخصوبة .. فكلما ارتقيت تلا من التلال وقعت عينى على مايشبه الابنية المحيطة بى فى فخامتها وضخامتها .. على تنوع لا حد له

فى مواد البناء وطرازه ، وتحيط بتلك القصور العظيمة بساتين وغابات دائمة الخضرة أشجارها مزهرة أو مثمرة. وهنا وهناك بحيرات وأنهار تلمع فى ضوء الشمس كأنها الفضة الذائبة ، والتلال والربى والجبال تغطيها النباتات والمروج الى مدى النظر ..

« ولفتت نظرى ظاهرة خاصة هى كثرة الآبار الدائرية، وبعضها بعيدة الغور جداً .. واحدى تلك الآبار على الطريق الصاعدة الى التل . وهى تلك الطريق التى سرت فيها فى أول أمسية لى بعد مأدبة الطعام فى القصر الكبير ..

« وقد وجدت تلك البئر ـ شأنها فى ذلك شأن الآبار الاخرى ـ مسورة بالبرونز وتعلوها قبة صغيرة تحميها من الامطار . وجلست بجوار البئر ونظرت فى أعماقها المظلمة ، فلم أستطع أن ألمح أى أثر للماء . واستعنت باشعال عود ثقاب فلم أجد لنوره انعكاسا .. والماء يعكس أشعة الضوء كما هو معلوم . ولكن فى جميع تلك الآبار سمعت صوتا معينا هو أشبه شىء فى رتابته بصوت آلة ضخمة تدور بانتظام . واكتشفت مما يحدث لشعلات الثقاب أن هناك تيارا ثابتا من الهواء يندفع الى أعماق تلك الآبار . ورميت قصاصة من الورق فى فتحة احداها ، فاذا بها لاتهبط الى الداخل ببطء كما هو مفروض ، بل رأيتها فى لمح البصر تمتص وتغوص فى جوف البئر متوارية عن نظرى ..

« وبعد تكرار التجربة ، استطعت أن أربط بين هذه الآبار وبين أبراج عالية شاهدتها هنا وهناك فوق جوانب التلال .. ففوق هذه الابراج كنت أرى فى أحيان كثيرة وميضا خاطفا فى الجو كذلك الوميض الذى يراه المرء فى

يوم شديد الحرارة فوق رمال الشاطىء ..

« وبشيء من اعمال الذهن ،استطعت أن أكون افتراضا قويا عن وجود نظام ضخم للتهوية تحت الارض .. وان كنت لم أستطع أن أتصور الهدف الحقيقى لذلك النظام وخيل الى فى البداية أن له علاقة بالنظام الصحى الوقائي المحكم لدى هؤلاء الناس . وربما كانت هذه التهوية مرتبطة بما يشبه نظام المجارى عندنا ، وهو افتراض كما ترون قريب الى الذهن وله وجاهته .. ولكنه كان بعيدا كل البعد عن الصواب ..

« وهنا يجب أن أذكر شيئا خاصا ، وهو أنى لم أصادف الا أقل القليل - فى عالم المستقبل ذاك - من استعمال البالوعات ، ودورات المياه ، وما الى ذلك من الادوات الصحية التى عهدناها فى عالمنا . وكان المفروض أيضا أن عالم المستقبل ستكون فيه تنظيمات دقيقة جدا لتصرفات الناس ، بحكم اشتراكهم معا فى أبنية واحدة ومنافع واحدة .. ولكنى لم ألاحظ شيئا من ذلك كله . وان كنت قد أحسست بوجود أجهزة وتنظيمات غريبة جدا غائبة عن نظرى وفطنتى ، ولكنها ذات اثر فعال فى معيشة الناس وتوفير الراحة لهم .. وكلها بلا شك تنظيمات اوتوماتيكية ، ولكنى لا استطيع أن احدثكم عن كنهها لان حالى هناك كانت فى الواقع أشبه بحال رجل بدائى زنجى جىء به من الغابة الفطرية الى قلب لندن بضعة أيام ثم أعيد الى عشيرته الاولى فورا .. !

« ولكم أن تتصوروا القصة التى سيرويها هذا البدائى لابناء قبيلته عن مدينة لندن واحوال اهلها واساليب معيشتهم .. انه طبعا سيكون قد تلقى منا فى لندن

تفسيرات كثيرة وبيانات عمـا يراه من وسـائل النقـــل وشبكات المواصلات والمصانع والمصاعد والصحف . . ولكنها طبعا ستكون بيانات غير مغنيـــة بسبب الفجوة الكبيرة بين مستواه الحضارى والعلمى ومستوانا نحن فى لندن . وبطبيعة الحال سوف لا يفهم مواطنوه من كلامه شيئا كثيرا ، لانه اذا كان من رأى بعينيه لم يفهم ، فما بالكم بمن لم يروا بأعينهم !! . .

« والذى قدرته أن المسافة أو الهوة الهائلة بين ذلك البدائى والحياة اللندنية أضأل بكثير من الهاوية العقليـــة والحضارة التى تفصل بيننا وبين عصرالمستقبل الـذى عشت فيه تلك الفترة من الوقت . .

« فبالنسبة لدفن الموتى مثلا ، لم تقع عينى على اى علامة تدلنى على وجود مقـــابر من أى نوع لدى هؤلاء الناس . ولكن خطر لى أنه ربما كانت لديهم مقـــابر او محارق فى موضع ما خارج دائرة اكتشافى . . وكانت هذه المسألة من اهم مايشغل ذهنى ويحيره . وفى الوقت نفسه لاحظت شيئا آخر ضاعف من حيرتى ، وهو ان اولئك الناس لايوجد بينهم عجوز ولا مريض ! . .

« ويجب أن أعترف لكم أن مرور الايام قلل كثيرا من قيمة آرائى او نظرياتى عن مدينة آلية مفرطة فى آليتها، وبشرية منحلة تتجه بسبب ترفها المفرط الىالانقراض . . ولكن تزعزع ثقتى بصواب هذه النظرية جعلنى افكر فى تفسير آخر لما أراه حولى ، ولم أستطع أن أصل الى ذلك التفسير المقنع . . واكتفيت بوضع الفروض . .

« واتضح لى أن القصور العديدة الضخمة التى زرتها كانت أماكن للاقامة ليس الا ، فيها قاعات طعام ضخمـــة

وعنابر نوم واسعة .. ولم أكتشف فيها أى أثر للآلات التى تقوم على توفير معدات الراحة . وهؤلاء الناس أراهم دائما فى ثياب فاخرة جديدة ، لابد أنها تحتاج الى الغسل والكى باستمرار ، وتحتاج الى زيادة مطردة من الانتاج الجديد .. وكذلك الشأن فى نعالهم ، فقد كانت على صغر حجمها تدل على صناعة دقيقة معقدة ، ولابد أنها تصنع فى مكان ما بكيفية ما ..

« وأعجزنى أن أكتشف أى نوع من الحوانيت أو المشاغل او مؤسسات الاستيراد فى جميع البقاع التى زرتها باحثا منقبا .. وأعجزنى أن أجد للناس أى نوع من العمل أو الابتكار او الابتهاج ، فهم ينفقون وقتهم كله فى أنواع طريفة لطيفة من اللعب ، أو فى السباحة بين ضفتى النهر فى ماء صاف صفاء البللور .. أو يتبادلون الوانا من الغزل الرقيق الخفيف ، أو ينامون فى ظلال الاشجار أو فى أبهاء النوم جماعات ..

« لقد حيرتنى حياتهم ، وزادتنى الايام دهشة وحيرة .. ولم استطع ان اعرف ولو على وجه التقريب الاساس الذى تقوم عليه موارد حياتهم اللاهية السهلة ..

« ومرة أخرة أسلمتنى تلك الحيرة الى التفكير فى مصير جهازى المفقود ..

« ساقنى ذلك الى التفكير فى موضـــوع آلة الزمن ، فلست ادرى اى قوة تلك التى نقلتها من موضعها الى جوف قاعدة تمثال أبى الهول . . ولاى غرض تم هــذا النقل ؟ لم أستطع ان أتصور اجابة صريحة عن سـؤالى هذا ولا تفسيرا معقولا لتلك الابار الخالية من الماء ..

الوقوع فى الحب

« كان يعوزنى الدليل الذى أهتدى به فى الوصـــول الى تأويل مقنع .. وتمنيت أن أجد بين الابنية كتابة ألمح فيها بقايا من اللغة الانجليزية استعين بمقارنة حروفها على فهم شىء من حقيقة ذلك العالم ..

« ولكن اليوم الثـــالث من اقامتى فى حوض التيمز سنة ٨٠٢٧٠١ م كان أشبه فى نظرى بصحيفة حافلة بكتابة حروفها مجهولة عندى تمام الجهل . وبين عبارة وأخرى تطالعنى جملة كلمات انجليزية فصيحة ، فلا أفهم الرابطة بينها وبين سائر ذلك الكلام .. فاذا الصحيفة كلها فى نظرى معميات لا أفقه لها مغزى !

« وفى ذلك اليوم الثالث كسبت صديقا ، فبينما كنت أرقب مجموعة من أولئك القوم الصغار وهم يستحمـــون عند شاطىء ضحل من شطوط النهـــر ، أصيب شخص بتقلص فى العضلات واخذ يغوص مستسلما للتيار .. وكان التيار سريعا ، ولكنه ليس من القوة بحيث يجرف سباحا متوسط القدرة . ولاشك فى انكم ستتصورون مافى طباع اولئك القوم من النقص ، اذا قلت لكم ان ما من احد منهم حاول أن ينقذ ذلك المسكين الذى شرع يغرق أمام أعينهم وهو يصرخ صراخا ضعيفا ..

« وعلى الفور نزعت ثيابى ، وقذفت بنفسى فى الماء ،

واخرجت الغريق سالما الى البر .. فاذا بها فتاة ، أخذت أدلك أطرافها فأفاقت من الاغماء .. وارتدت الى حالتها الطبيعية ، فتركتها لانني لم أتوقع من ذلك الجنس الواهن الخلق والطبع أن يعرف شيئا اسمه الامتنان وتقدير المعروف .. ولكنني فى تلك المرة اخطأت التقدير !

« وقع ذلك الحادث فى الصباح .. وعندما عدت من جولة استكشافية بعيدة المدى بعد الظهر ، قابلتني تلك الانثى الصغيرة بصيحات الفرح والابتهاج وقدمت الى عقدا كبيرا من الازهار .. صنعته خصيصا لى ، فتأثرت لهذه المظاهر تأثرا بالغا . ولعل ذلك كان بسبب ماسيطر على نفسي من الوحشة والغربة ، فبذلت أقصى جهدي لأعبر لها عن تقديري العظيم لهديتها . وانتحيت بها جانبا، وجلسنا فوق مقعد حجري وانهمكنا فى حديث معظم عباراته نظرات وابتسامات . وكان لحركاتها وتوددها من الاثر فى نفسي مثل ما لحركات الاطفال وتوددهم من الاثر فى نفوسنا نحن .. وجعلنا نتبادل الزهر ، وهى تقبل يدى وتمرغ فيهما وجنتيها وشعرها ، وحاولت أن أبادلها الحديث فى الحدود الضيقة التى أعرفها من لغتهم .. فاكتشفت أن اسمها « وينا » ، ولم أعرف ماذا يعنى هذا الاسم عندهم ، ولكنه يبدو لى ملائما لها كل الملاءمة . وهكذا بدأت بيننا صداقة عجيبة دامت أسبوعا ، وانتهت على النحو الذى سأذكره لكم ..

« كانت « وينا » كالاطفال تماما فى كل شيء ، تتعلق بأذيالى وتصر على ملازمتى دائما وفى كل مكان .. فلما خرجت فى رحلتى الاستكشافية التالية حز فى نفسي أن أجهدها من شدة الجرى ورائى الى أن تركتها أخيرا ملقاة على الارض تنادى من خلفى باسمى فى صوت باك . ولكن

المشكلات الحيوية التى كنت أواجهها ، كانت أهم فى نظرى كثيرا من تلك المودة أو العلاقة الغزلية الغريبة .. ولم أعرف الا بعد فوات الاوان مبلغ قيمتى عند هذه المسكينة، والمكانة التى احتلتها فى قلبى بظرفهاورقتها وشدة ولائها. والحقيقة ان هذا التعلق من جانبها بشخصى وبكاءها عند ابتعادى عنها ، هو الذى جعلنى أشعر عنـــد العودة الى منطقة أبى الهول حيث تركتهـــا وكأنى عائد الى دارى الحقيقية . وكنت أظن كل مكان فى ذلك العالم ــ كأى مكان آخر ــ فيه الوحشة بالنسبة لى .. ولـــكن هأنذا أخيرا قد وجدت وجها أتطلع الى رؤياه ، وانقب بعينى باحثا عنه بين عشرات الوجوه .. بمجرد هبوطى الى سفح التل ..

« ومن « وينا » عرفت أيضا ان الخوف لم ينقرض من ذلك العالم ، فلم أعهد عليهـــا أدنى خـــوف فى النهار .. وكانت ثقتها بى لاحد لها . ولما خطر لى فى لحظة طيش أن أقطب وجهى متوعدا هللت لتقطيبى وضحكت منه .. ولكنها كانت تخشى الظلام ، وتخشى الظلال ، وتخشى كل شىء أسود أو معتم .. فالظلام هو الشىء الوحيد المرهوب لديها ، فكان ذلك غريبا أشد الغرابة فى نظرى . وحملنى ذلك على امعان النظر واعمال الفكر .. فاكتشفت عندئذ بين مااكتشفته من الحقائق عن هؤلاء القوم الصغار انهم يتجمعون فى تلك القصور الكبيرة بعد حلول الظلام وينامون زرافات ، فاذا دخلت عليهم وهم نيام بغير ضوء دب فيهم الذعر ..

« ولم يحدث أن التقيت بأحد منهـــم خارج الدور فى الليل ، أو نائما بمفرده داخـــل الدار . ولكننى كنت من الغباء بحيث لم أفد من درس هذا الرعب ، ولم تفلـــح توسلات « وينا » وأحزانها فى الحيلولة بينى وبين النـــوم

بمعزل عن هذه القطعان المتجمعة فى مراقدها ..

« كان اضطرابها عظيمـــا بسبب اصرارى على ذلك الانفراد فى النوم ، بيد أن تعلقها العجيب بشخصى تغلب فى النهاية على جزعها .. فقضت الليالى الخمس الاخـيرة من تعارفنا نائمة بجوارى وقد توسدت ذراعى ..

« وهنا يجب ان أذكر اننى فى الليلة السابقة على يوم انقاذها من الغرق ، تنبهت قرب الفجر على أثر حلم مزعج رأيت فيه نفسى غارقا فى لجة بحر ، وحيـوانات البحـر تتحسس وجهى بزعانفها الناعمة . وخيل الى وانا لم أزل تحت سلطان النعاس أن حيوانا رمادى اللون انفلت خارجا من الحجرة .. وحاولت بعدها أن أعاود النـوم ، ولكنى شعرت بعدم ارتياح غامض فى تلك الساعة التى يتداخـل فيها الليل والنهار بحيث تبدو المرئيات واضحـة الجرم ولكن لايتضح لها لون .. فكأنها اشباح تلم أطيافها بعالم الواقع ، وهى ليست من دنيا الواقع . فنهضت وغادرت الحجرة الصغيرة الى البهو الكبير ، واخترقت النيام الى مدخل القصر وفى نيتى أن أفيد من هـــذا الارق بامتاع ناظرى بروعة شروق الشمس ..

« ورأيت القمر فى لحظات الغروب الاخـيرة ، بحيث تلاقى الشعاع الاخير من نوره الباهت ببواكير نور الفجر الشاحب .. فبدت لى الاشجار والخمائل حالكة السواد ، والارض قاتمة ، والسماء ناصلة اللون لابهجة فيها للعين . ولما رميت بطرفى الى مرتقى التل خيل الى أنى أرى ثمـة أشباحا . وأينما دققت النظر بدت لى أجسام بيضاء ، بل خيل الى مرتين أنى أرى مخلوقا منفـردا ابيض اللون شبيها بالقرد يرقى التل فى سرعة حثيثة . ولمحت عند

الاطلال المبعثرة هناك شرذمة من تلك المخلوقات تحمل جسما قاتما وتجرى به مسرعة ، ثم لم اتبين ماذا كان من أمرهم بعد ذلك لانهم تواروا عن عينى بين الاشجار . . وكان ضياء الفجر لم يزل دون المستوى الكافى للرؤية الواضحة ، وبرودة الطل تسرى فى أوصالى .. فكذبت نظرى ..

« وظللت طيلة ذلك الصباح مشغول الذهن بما تراءى لعينى الى أن طرد انقاذى « لوينا » تلك الخواطر من رأسى ..

« وذات صباح شديد الحرارة ـ هو صباح اليوم الرابع من اقامتى فيما أعتقد ـ رحت أنشد ملاذا من الحرارة والوهج الشديد بين الاطلال الهائلة ، عن كثب من القصر الكبير الذى انام فيه وآكل . وعندئذ حدث شىء عجيب .. فاذ أنا أتسور تلك الانقاض الضخمة ، اكتشفت دهليزا ضيقا تراكمت الحجارة المنهارة فوقه فسدت نوافذه من الخارج ، وحجبت عنه ضياء الشمس وحرارتها . وبدا لى الدهليز ـ وأنا مقبل من وهج الضحى ـ وكأنه ديجور دامس ، فجعلت أتحسس طريقى وأخطو مترددا . ثم وقفت فجأة كالمأخوذ ، فقد رأيت عينين تلمعان فى الضوء المنعكس عليهما من الخارج وهما ترقبان حركاتى من أعماق الظلام ..

« وقاومت فزعى بعض الشىء وتقدمت خطوة الى الأمام ، وتكلمت بصوت اعترف لكم انه كان أجش مضطربا ، ثم مددت يدى فلامست شيئا ناعما .. وحينئذ نحت العينان المحملقتان نظراتهما ! ..

سلالة أخرى

« وبينما انا على تلك الحال ، انفلت جسم ابيض من جوارى .. والتفت وقد بلغت الروح منى التراقى ، فرأيت شكلا غريبا أشبه بقرد صغير رأسه مطرق بصورة غير عادية وهو يجرى مخترقا الرحبة الفارقة فى اشعة الشمس ، ثم ارتطم بكتلة من الجرانيت ، فترنح .. ولكنه بعد لحظة كان قد توارى بين الظلال تحت كومة اخرى من الانقاض ..

« ومن تلك النظرة الخاطفة المضطربة ، لم أستطع أن اكون فكرة واضحة عن ذلك الحيوان سوى بياضه الشاحب واحمرار عينيه الواسعتين ووجود شعر كتانى اللون فوق رأسه وعلى ظهره .. فلم أستطع أن أتبين هل كان يجرى على أربع ، أم ان ذراعيه لفرط طولهما مع اطراق رأسه الشديد كادا يلمسان الارض ..

« وشجعنى فرار الحيوان فتعقبته بعد لحظة الى مكمنه . ولم أعثر عليه لاول وهلة ، ولكنى بعد ان تعودت العتمة ، عثرت على فوهة بئر من تلك الابار التى حدثتكم عنها ، فخطر لى أن ضالتى ربما اختفت داخل تلك البئر .. فأشعلت عود ثقاب ونظرت ، فرأيت الحيوان الصغير الابيض يحملق فى وجهى وهو منسحب الى الاعماق المظلمة ، فاقشعر بدنى وكأنى أنظر الى نموذج جنس مزيج من العنكبوت والانسان ..

« وكان هذا الحيوان يتسلق جدار البئر بسرعة .. وعندئذ لاحظت لاول مرة درجا وحاجزا من المعـدن على طول البئر . واوشكت النار أن تحرق أصـابعى فألقيت الثقاب من يدى فانطفأ ، ولما أشعلت ثقابا آخر كان الحيوان قد اختفى ..

« ولست أدرى كم مضى على من الوقت وأنا جالس احدق فى أغوار تلك البئر ، فقد انقضت فترة غير قصـيرة قبل ان أوفق فى اقناع نفسى بأن ذلك المخـلوق الذى رأيته منذ قليل كائن بشرى . وشيئا فشيئا بدأت أضواء الحقيقة تتبلج امام بصرى .. وأدركت أن الانسان لم يظل بتوالى الاجيال نوعا واحدا ، بل تمايزت فيه فصيلتان من الكائنات البشرية . وليس الاطفال الظرفاء الحسان الذين يمرحون من حولى فى العالم العلوى هم السلالة الوحيدة لنوعنا .. بل هناك ايضا ذلك الحيوان المبيض البغيض الذى يعيش فى الظلام ، فهو الفصيلة الاخرى التى تشترك فى وراثة أجيالنا ..

« وانتقل بى هذا الى التفكير فى النظـريات والفروض التى خامرت ذهنى بصـدد التهوية والسراديب وتنظيم العمل الآلى تحت سطح الارض ، وعجبت كيف يمكن أن تكون العلاقة بين ذلك العالم السفلى القبيح وبين العالم العلوى النقى المشرق الجميل ؟ .. ترى ما الذى يكمن فى الظلام عند نهاية هذه الدرجات المعدنية ؟

« وجلست على حافة البئر ، أحدث نفسى بأنه لا مدعاة للخوف على كل حال ، وأننى يجب أن أهبط درج البئـر المعتمة لاصل الى الجواب الشافى عن جميع اسئلتى .. ولكنى فى الوقت نفسه كنت أشعر بخـوف شديد من

الهبوط الى ذلك المجهول !

« وبينما أنا حائر متردد ، أقبل اثنان من الاقوام الحسان الصفار يجريان ويلهوان فى وضح الشمس ويتطارحان الغرام بصورة عفوية لطيفة .. فكان الذكر يغرى الانثى بالقاء الزهور عليها وهما يعودان الى ظل بعض الاشجار القريبة ، فلما أبصرانى متكئا بذراعى على حافة البئر وأنا أحدق فى اعماقها ظهر عليهما الاسف والغم . ويبدو أن الاقتراب من تلك الفوهات يعتبر فى نظر هؤلاء القوم فساد ذوق !

وزاد احساسى بذلك ، عندما أشرت الى الفوهة وحاولت بما تعلمته من الالفاظ القليلة أن أسألهما بلغتهما عن مهمة تلك الآبار الى أين تؤدى ، فقد وضح لى استياؤهما وأشاحا عنى بوجهيهما ..

« وتراءى لى ، بصورة غامضة جدا ، شكل تخطيطى لاسس الحياة الاقتصادية لعالم المستقبل البعيد وهى المشكلة التى كانت تحير عقلى .. ومؤدى فكرتى الجديدة أن تلك الفصيلة الاخرى من البشر تعيش تحت الارض . وكانت عندى ثلاث قرائن محددة على ذلك الاعتقاد . . القرينة الاولى هى هذا البياض الشاحب الذى تتميز به الكائنات التى تعيش معظم وقتها فى الظلام . فما أشبه الوانهم بلون السمكة البيضاء التى تعيش فى كهوف كنتوكى مثلا .. ثم هناك اتساع العينين وقدرتهما على أن تعكسا الضوء ، وهى خاصة مشتركة لدى الحيوانات الليلية .. وخير مثال على ذلك البومة والقطة .. ثم هناك أخيرا ذلك الاضطراب الواضح ، والتخبط فى ضوء الشمس ،والفرار الى الظلام ، والاطراق الشديد بالرأس فى الضوء مما يدل على شدة حساسية شبكية العين . ويعزز القول بأن

ندرة خروج هذه المخلوقات الى العالم العلوى على سطح الارض ناجمة عن تعود الحياة باستمرار تحت الارض عشرات الاجيال أو مئاتها ..

« فالارض اذن تحت قدمى ، لابد أن تكون حافلة بالأنفاق والسراديب ..وهذه الانفاق هى مقر النوع الجديد من البشر . والدليل على تشعبها وجود ابراج التهوية والآبار فوق جميع سفوح التلال وفى كل مكان الا على طول مجرى النهر .. فمن الطبيعى اذن أن أستنتج تخصص ذلك العالم السفلى فى القيام بجميع الاعمال الضرورية لتوفير الرفاهية للنوع البشرى الاخر الذى يعيش فى ضوء النهار ..

« وهو استنتاج ليس هناك ما ينقضه .. ولذلك سلمت به اساسا لمواصلة التفكير . وكانت الخطوة التالية هى التساؤل عن كيفية انقسام النوع البشرى الى فصيلتين متمايزتين بهذه الصورة الواضحة .. فلا بد أن هناك عوامل كافية نتج عنها هذا الانقسام ...

« وعلى ضوء ما نعهده فى زمننا الحاضر ، وظروفنا الاجتماعية الراهنة ، من ازدياد شقة الاختلاف فى جميع الظروف بين العامل وصاحب العمل .. استطعت ان اتصور مفتاح ذلك التطور الضخم الذى تم تدريجيا فى الزمن المتطاول ، وخيل الى ان هذا التأويل واضح وضوح الشمس فى الضحي ..

« واعتقد انكم ستنظرون فى الغالب الى هذا التأويل نظرة انكار .. وسترونه مفرطا فى التعسف بصورة يأباها العقل ، ولكنى اطلب اليكم ان تستعينوا بما فى عقولكم من مرونة وما فى خيالكم من خصوبة .. ولا سيما أن تحت انظاركم فى ايامنا هذه بوادر تدل على هذا الاتجاه الى

استغلال باطن الارض على مدى واسع لتخفيف الزحام عن وجه الارض ولاخفاء المرافق القبيحة الشكل . فهناك المواصلات السفلية فى لندن وباريس (المترو) وجميع محطاتها تحت سطح الارض ، وبها مقاصف ومتاجر .. ثم هناك ايضا فى جميع مدن العالم دورات مياه تحت الارض . وهناك مطاعم ومراقص ومشاغل يزداد عددها كل يوم تحت سطح الارض ..

« وفى اعتقادى ان هذا الاتجاه الارضى السفلى ، أخذ يتسع ويستفحل بمرور الاجيال ، الى ان صارت المصانع كلها تحت سطح الارض . وزادت الاوقات التى يقضيها العمال فى الظلام الى ان وصل الامر فى المدة المديدة الى ما ذكرته لكم .. وانى اناشدكم ان تتجردوا من سلطان العادة المألوفة وتلقوا نظرة على العامل الانجليزى اليوم .. ألستم ترونه يقضى معظم الوقت فى ظروف صناعية تباعد ـ بصورة عملية ـ بينه وبين الظروف الطبيعية التى تتمثل فى وجه الارض ؟

« ثم اناشدكم أن تلقوا نظرة اخرى على الطبقة المترفة الثرية ، وسترون ان سلالاتها تزداد مع الزمن ترفا فى نشأتها وتربيتها .. وتزداد رخاوة وطراوة ..!

« وكلنا نعلم ان الخصائص المكتسبة ، اذا استمر الحال عليها أجيالا متعاقبة كافية انقلبت فجأة الى خصائص موروثة .. وهذا التفسير العلمى هو الذى يعلل انتهاء فوارقنا الاجتماعية مع الزمن الى فوارق نوعية موروثة تتبلور فى فصيلتين أو سلالتين من نوعنا البشرى الواحد .

« وهكذا ستتصورون على ضوء هذه الاعتبارات والقرائن كيف وقر فى ذهنى ان وجه الارض اصبح مقام المالكين .. وهم النسل البعيد لاصحاب العمل المترفين

المتعطلين الذين هم فى غنى عن كل عمل أو كدح أو كفاح، وان ما تحت سطح الارض هو العالم الذى انحصر فيه الموزون أو المحرومون ، وهم سلالة عمال عصرنا الذين تدور حياتهم كلها على الكدح والاجتهاد البدنى ...

« وعلى هدى المعهود فى احوالنا الاجتماعية ، تصورت سكان ما تحت الارض ملزمين بدفع أجر باهظ عن مساكنهم السيئة ، ولا بد ايضا من أجر اضافى نظير اجهزة التهوية .. وبسبب هذا الاجر ، يجب ان يعملوا ساعات اضافية .. ومن تمرد منهم خنق بمنع التهوية عنه ..!

« ومع توالى الاجيال انقرض المتمردون ، ولم تبق الا سلالة من المنقادين المستضعفين . وتم للسادة سكان العالم العلوى السلطان المستقر ، وتأقلمت كل من السلالتين مع ظروفها الجديدة ، واخلدت اليها مطمئنة . وخيل الى ان رقة هؤلاء وجمالهم ، وان شحوب اولئك وبشاعتهم ، مظاهر طبيعية لاحوال كل من السلالتين ...

« وهكذا بدا لى انتصار الحضارة الانسانية الذى طالما حلمت به وتمنيته ، وقد شاه منظره ومسخ مخبره .. وتبينت ان نوعنا البشرى لم يحقق للاسف شيئا مما تخيلته من ثمرات التربية العقلية الواعية والتعاون الاجتماعى الرشيد .. فاذا امام عينى للاسف طبقة ارستقراطية بكل معنى تلك الكلمة متسلحة بسلطان علمى لا حد له ، واتاح لها ذلك السلطان ان تستغل التنظيم الصناعى الراهن اكمل استغلال ، وان تستخرج منه نتائجه المنطقية القصوى . فلم يتحقق لهؤلاء الانتصار على الطبيعة والسيطرة على قواها فحسب ، بل تحقق لهم ايضا السيطرة على اخوانهم فى البشرية وتسخيرهم مثلما نسخر المعادن والطاقات والموارد الصماء سواء بسواء ..!

نحو مجهول جديد

« كان التأويل الذى وصلت اليه معقولا جدا فى نظرى .. ولكن احترامى للمنهج العلمى جعلنى اعتبر هذا التعليل مجرد ترجيح لا يرقى الى مقام الحقيقة المقطوع بصوابها .. وقد يدخل عليه البحث تعديلات جزئية او كلية ، وقد يثبت بطلانه المطلق ...

« وحتى على فرض صواب هذا الرأى ، لابد ان يكون نجم هذه الحضارة الجبارة قد جاوز منذ زمن طويل جدا أوجه .. وطال جموحه الى مغيب الحضارات فى مهاوى الانحلال ، بل ان هذه الحضارة كما شهدتها كانت ممعنة امعانا لا يستهان به فى التحلل .. فضمانات الحياة وامانها المستقر بالنسبة لسكان وجه الارض قد ادى بهم بالتدرج البطىء الى الضآلة فى الحجم وفى القوة وفى الذكاء . ولم يكن التطور ماثلا امامى بطبيعة الحال لانى لم اتتبع مراحله .. ولكن الثمرة الواقعية لذلك التطور كانت ماثلة امام نظرى ، وكان التعليل بالانحلال نتيجة الاسراف المستمر فى الحضارة والطمأنينة والترف هو التفسير الوحيد لخروج هؤلاء الاقوام الصغار من اصلاب بشرية يمثلها جيلنا الحاضر . .

« واما بالنسبة للعالم السفلى وسكانه ، فلم يكن الراى عندى قد استقر بعد .. فما رايته من اولئك « المورلوك » ـ وبهذا الاسم يدعى اشباه القرود سكان

ما تحت وجه الارض ـ تراءى لى بسببه أن التغيـيرات التى حدثت لفصيلتهم كانت أعمق واضخم مما حـدث للفصيلة الجميلة التى تمرح فى ضوء الشمس ، واسمهم كما علمت « ايلوى » ...

« ثم ساورتنى بعد ذلك شكوك مقلقة .. لماذا استولى « المورلوك » على آلة الزمن ؟ فقد خامرنى الاحسـاس القوى بانهم هم الذين اخفوها .. « فالايلوى » ليست لديهم القوة ولا الذكاء ولا الاكتراث للقيام بذلك العمل فى حالة اضمحلالهم الفكرى والبدنى .. وحتى لو انهم هم الذين اخفوها ، فصـداقتى لهم كان ينبغى ان تجعلهم يعيدونها .. ثم لماذا يخشى « الايلوى » الظلام بهذا الشكل؟

« ثم وجهت كل هذه الاسئلة الى « وينا » وحاولت كما ذكرت لكم آنفا أن أعرف منها شيئا عن العالم السفلى ، ولـكن خاب ظنى . وفى بداية الامر لم تفهم المـراد من اسئلتى .. ولما فهمته رفضت الاجابة . وأخذت ترتجف وكأن الموضوع الذى أخوض فيـه كريه بدرجة تفوق الاحتمال .. فشددت عليها ، ولعلنى اسرفت فى الالحاح ، فانفجرت باكية ..!

« وكانت هذه اول قطرات من الدمع اشاهدها فى هذا العصر الذهبى ، فيما عدا دموعى شخصيا بطبيعة الحال .. فلما رأيتها تبكى زايلنى كل اهتمام « بالمورلوك » واتجه همى كله الى تجفيف دموع «وينا» ومحو الاسى من نفسها اللطيفة البريئة . وسرعان ما اشرق وجهها بالابتسـام ، وراحت تصفق بيديها دهشة وطربا واعجابا عندما اشعلت امام ناظريها عود ثقاب ...

« وقد يدهشكم ان تعلموا انى قضيت يومين بعد ذلك محجما عن مواصلة الاستقصـاء والتحـرى عن اسرار

« المورلوك » وحياتهم الخفية فى الظلام ، فقد داخلنى نفور عجيب من تلك الاجساد الشاحبة التى يشبه ابيضاضها تلك الديدان وما اليها من الكائنات الحية التى نشاهدها محفوظة فى الكحول عندما نزور متاحف الحيوان . ثم ان ملمسهم بارد بصورة مقززة .. ولعل نفورى منهم راجع ــ الى حد كبير ــ الى ميل عواطفى نحو « الايلوى » .. وتقززهم من « المورلوك » شديد

« وفى الليلة التالية على كل حال لم أنم نوما طيبا .. ولعل صحتى كانت متوعكة بعض الشىء بسبب ما أعانيه من الاضطرابات والحيرة والشك . وخامرنى فى تلك الليلة ، مرة أو مرتين ، شعور عميق بالخوف لم أجد له مبررا واضحا . وأذكر اننى تسللت من حجرتى المنفردة بلا صوت الى البهو الكبير الذى تجمع القوم للنوم فيه تحت ضوء القمر .. وكانت «وينا» فى تلك الليلة نائمة بينهم ، فشعرت بالطمأنينة لوجودى معهم .

« وخطر لى عندئذ ان القمر سيتضاءل بعد بضعة ايام، ويدخل فى التربيع الاخير ،فتكون الظلمة فى الليل أشد. وتتسع الفرصة أمام « المورلوك » لارتياد وجه الارض اثناء الليل الحالك ، فقضيت اليومين التاليين وانا أتوجس مما سيحدث ، ولكنى أرى الاقدام واجبا تحتمه الظروف .. فان كان مقدرا لالة الزمان أن تسترد ، فالوسيلة الوحيدة لذلك هى هتك الستار عما يكتنف ذلك العالم السفلي من اسرار ، ولكني مع هذا كنت مشفقا من مواجهة ذلك المجهول ..

« وتمنيت لو كان لى فى مشروعاتى الكشفية التى أزمع القيام بها رفيق يؤنسنى .. بيد أن الوحدة التى أوجدتنى

الظروف فيها كانت من نوع جائر موحش . وكلماتخيلت نفسي وانا اهم بتسلق الدرج داخـــل البئر الى الاغوار المظلمة ينقبض قلبي ، لاني لم اشعر بأي نوع من الطمأنينة لما يمكن أن يجرى وراء ظهرى .. وتحـيرت كيف أحمى ظهرى من الغوائل فى الظلام ..

« ولعل هذا الافتقار الى الاستقرار والطمأنينة ، هو الذى قاد قدمى الى مناطق بعيدة عبر الخمائل والبساتين والتلال فى رحلات كشفية أحاول بها ان أسرى عن نفسى ما القاه من الشكوك والوجل ..

« واتجهت فى تلك الرحلات الى الجنوب الغربى صوب المنطقة المعروفة الان باسم غابة « كومب » . وهناك لمحت من بعيد بناء ضخما شامخا أخضر اللون ، يختلف طابعه العام عن جميع الابنية التى شاهدتها من قبل .. فهـو اكبر مساحة من أرض القصور والاطلال التى مرت بى، وواجهته ذات طابع شرقى ، يشع منها بريق أخضر شاحب ضارب الى الزرقة ذكرنى بنوع معين من الخزف الصينى

« وأوحى الى هـذا الاختلاف فى المنظر اختـــلافا فى الاستعمال ، فقررت أن أمضى فى استكشافى صـوب ذلك القصر .. ولكن الساعة كانت متأخرة ، والتعب كان قد نال منى . فاعتزمت تأجيل المغامرة الى اليوم التالى،ثم عدت الى « وينا » وما استقبلتنى به من ابتهاج وملاطفة

« وفى الصباح التالى اتضح لى أن ما أثاره قصر الخزف الاخضر من الفضول مدعاة لصدمة جـــديدة من خيبـة الآمال . وليس من الاكتشاف والرحلة اى جدوى سوى ارجاء الخطوة الحاسمة يوما آخر . وقررت على الاثر ان اهبط البئر من غير تضييع للوقت ، فاتجهت فى أول النهار

نحو بئر قريبة من الخرائب التى تكثر فيها كتل الجرانيت والالومنيوم ..

« وكانت « وينا » الصغيرة تجرى بجانبى ، أو لعله من الاوفق أن أقول انها كانت تتواثب وترقص فى أثرى ، الى ان بلغت البئر .. فلما رأتنى أنحنى فوق فوهتها واطل فى أغوارها ، بدا عليها الهم بصورة غريبة .. فرفعتها بين ذراعى وقبلتها ثم وضعتها على الارض قائلا :

ــ وداعا يا عزيزتى الصغيرة « وينا » ..

« ثم أخذت أتحسس حافة البئر بحثا عن الدرج ومقابض السياج . وكنت أفعل ذلك فى عجلة لانى خفت عند الابطاء ان تخذلنى ارادتى واعدل عن الرحلة ..

« وكانت « وينا » فى اللحظات الاولى ترمقنى بدهشة بالغة وحيرة شديدة ، ثم أطلقت صرخة فظيعة وجرت نحوى وتعلقت بى .. وراحت تجذبني وتشدنى بيديها الصغيرتين . وأعتقد أن معارضتها زادتمن توتر أعصابى ، وحفزتنى على المضى ... فدفعتها عنى ، وأخالنى كنت فظا بعض الشىء . وفى اللحظة التالية كنت قداعتليت الدرج وصرت فى حلق البئر . ورأيت الذعر البالغ على ملامحها الجميلة ، فابتسمتكى أوحى اليها بالطمأنينة .. ثم انصرف اهتمامىالى المقابض التى اتعلقبها فىهبوطى خوفا من أن تكون غير متينة ..

« واستمرت عملية الهبوط مقدارمائتى ياردة..والدرج عبارة عن قضبان من المعدن بارزة من جدار البئر ، على مسافات مخصصة لمخلوق أقل منى حجما وأخف وزنا . ولذا أدركنى التعب بسرعة .. وليت الامر وقف عند حد

التعب ، أذن لهان الخطب ! فقد التوى أحد تلك القضبان فجأة وكاد يلقى بى الى الأغوار السحيقة من تحتى ، وظللت لحظة وأنا معلق من يد واحدة .. ولكن الله سلم. وكان ذلك درسا لى كى لا أتوقف للراحة وأنا معلق بتلك القضبان ، وواصلت الهبوط بعد المائتى ياردة وعضلاتى تؤلمنى ألما شديدا . وكلما نظرت الى فوق رأيت من خلال فوهة البئر قرص السماء الزرقاء ووجه « وينا » يبدو كنقطة سوداء ..

صراع

« واخيرا لمحت كومة تبعد نصف خطوة عن يمينى فى جدار البئر .. وتنفست الصعداء وأنا أدس بنفسى فى فوهتها ، فاذا بى فى نفق أفقى ، فألقيت بنفسى على الارض والتمست شيئا من الراحة التى طال احتياجى اليها . والحقيقة اننى لم اشعر بمبلغ تعبى الا عندماالقيت بجسمى المجهد على أرض النفق ، وسمحت لعضلاتى المجهدة أن تسترخى .. والأعجب من هذا أن ذعرى من خطر السقوط ، وأنا أهبط البئر ، لم يتجسم أمامى الا بعد لحظة الوصول ! ..

« ولست أدرى كم مضى من الوقت وأنا مستلق بتلك الصورة على أرض النفق عند الكوة التى تصله بالبئر ، فلم أتنبه الا على لمسات يد ناعمة تتحسس وجهى !

« وهببت واقفا فى ذعر ، وعمدت يدى الى علبة الثقاب فأشعلت عودا منها على عجل .. فرأيت فى ضوئه المتوهج وسط الظلمة الدامسة ثلاثة مخلوقات مطأطئة شبيهة بذلك المخلوق الذى رأيته من قبل بين الاطلال فوق وجه الارض ، وكان الثلاثة يتراجعون أمام ضوء الثقاب. وليس فى هذا وجه للعجب ، فماداموا يعيشون فى الظلام الحالك .. فلابد أن تكون عيونهم كبيرة الحجم شديدة الحساسية لاشعة الضوء ، شأنهم فى ذلك شأن الاسماك التى تعيش فى الاغوار السحيقة من البحار . وحدقاتهم تعكس

الضوء بوضوح فى تلك الظلمة التى تبدو لى تامة خالية كل الخلو من أشعة الضوء .. ولم يبد عليهم أى خوف منى فيما عدا عود الثقاب الذى أشعلته ، فجعلهم يفرون بغير تفكير وبغير تردد ليتواروا فى منعطفات النفق المظلمة .. وهناك كمنوا ليرمقونى بنظراتهم بصورة غريبة كل الغرابة

« وحاولت أن أناديهم ليدنوا منى .. ولكن يبدو أن لغتهم كانت مختلفة كل الاختلاف عن لغة «الايلوى » سكان وجه الارض .وفت هذا فى عضدى بصورة واضحة ، حتى أننى فكرت فى العودة بعد ان صرت على أبواب اكتشاف ماثل لعينى ، ولكنى قلت لنفسى :

ــ لقد أمسى التراجع مستحيلا الان ، وليس أمامك الا المضى فى الاكتشاف ! ..

« ورحت أتحسس طريقى على طول النفق ، فوجدت ضجة الآلات تزداد بصورة ملحوظة .. ثم اتسع النفق ووجدت نفسى فى رحبة فسيحة فأشعلت عود ثقاب آخر ، ورأيت على ضوئه أننى داخل كهف هائل كثير الاعمدة والاقبية ، تمتد أبعاده فى الظلمة الحالكة فيما وراء النطاق الذى يصل اليه ضوء الثقاب ، فهذا الضوء الهزيل هو أقصى ماتيسر لى ..

« وأكاد أجزم أن ذاكرتى فى هذا الموضع يكتنفها الغموض .. فما بقى فى ذهنى من المشاهدات فى تلك اللمحة هو منظر أشكال ضخمة جاثمة فى الظلام أشبه ماتكون بالالآت الكبيرة ، تترامى ظلالها الضخمة فى ضوء الثقاب . وفى هذه الظلال توارى « المورلوك » من الوهج المزعج .. ولما أوغلت قليلا أحسست بالهواء يثقل على صدرى ، ولم يكن خاليا من الرائحة ، ولست أعنى رائحة الرطوبة

المفروض انها تفوح من اعماق الارض ، بل اعنى رائحة اخرى ايضا أجفلت منها ، لانها رائحة دم حديث عهد بالسفك ، وهى رائحة لم يعهدها أنفى فى ذلك العصر الذهبى من قبل ..

« وفطنت على الاثر لوجود مائدة صغيرة من المعدن الابيض وضعت فوقها صحاف وجبة من طعام .. فلما دققت النظر علمت أن « المورلوك » من آكلة اللحوم . ونظرت الى الفخذ الاحمر وتعجبت ، فما هو هذا الحيوان الكبير الحجم الذى ظل باقيا ولم ينقرض ؟ !

« وكان الموقف على الجملة رهيبا .. فرائحة الدم مثيرة ، ومنظر اللحم النيىء كريه . والظلال الضخمة يكمن فيها هؤلاء « المورلوك » فى انتظار انطفاء عود الثقاب كى يهجموا على ! وسرعان ما أتت النار على العود واوشكت أن تحرق اصبعى ، فألقيت به على الارض ..

« وشعرت بالسخط على نفسى لسوء تقديرى للفروض ، عندما بدأت هذه المغامرة الفذة .. فقد كنت من الطيش بحيث رتبت أمورى وأنا أستقل آلة الزمن على اساس واحد ، هو أن اهل المستقبل سيكونون أرقى منا من جميع النواحى ، ولم يخطر ببالى أن التطور قد يعنى فى مرحلة من المراحل الانحدار والانحلال ، وفاتنى كذلك أن لكل شىء اذا ماتم نقصان ، فمجاوزة الحد فى السيطرة على العلم وقوى الطبيعة مجلبة للراحة الطويلة التى هى باب الضعف والفساد ..

« وبسبب هذا التقدير المختل ، لم أجلب معى الى دنيا المستقبل أسلحة من أى نوع ، ولا عقاقير .. حتى الطباق لم أحضره معى ظنا منى أنه سيكون ميسوراً . وكم هفت

نفسى الى أنفاس من الطباق فى تلك الوحشــة المحفوفة بالحيرة والضيق .. بل أسوأ من هذا وذاك ، انى لم أحضر معى كمية كافية من الثقاب. وآه لو كنت فكرت فى احضار آلة تصــوير ! اذن لامكننى أن التقط فى طــرفة عين ذلك المنظر الفريد للعالم السفلى ، ولكان فى وسعى الا اعتمد على الذاكرة الخوانة ، فأنظر وأتمعن فى الصورة الان على مهل ، وأعرضهــا على أنظاركم .. ولكن الواقع المؤسف لاتغنى فيه الحسرات ، وهكذا وجدت نفسى واقفا هناك مجردا من كل سلاح سوى القوة التى زودتنى بها الطبيعة متمثلة فى يدى ورجلى وأسنانى ، بالاضافة الى أربعة أعواد من الثقاب بقيت فى حوزتى !

« وكنت خائفا من شـــق طريقى وسط كل تلك الآلات فى الظلام .. وندمت جدا على اسرافى فى اشعال اعــواد الثقاب لتسلية « وينا » ، ولكن لم يخطر ببالى من قبــل أن الحاجة ستكون ماسة للاقتصاد فى شىء زهيد كهذا ، ولا سيما أن منظر العجب البرىء على وجوه « الايلوى » اللطيفة عند رؤية النار الغريبة عن عالمهم تماما كان يغرينى بالاسراف فى تلك المتعة ! ..

« وهاأنذا الآن وليس تحت يدى الا أربعة أعواد ، وقد أطبق الظلام من حولى ..وهاهى ذى يد ناعمة تلمس يدى، وهاهى ذى أصابع رخوة تتحسس وجهى . وملأت خياشيمى رائحة نفاذة غير مستحبة ، وخيل الى انى اسمــع تنفس جمهرة من أولئك المخلوقات البغيضة . ثم شعرت بعلبة الثقاب تستل من يدى بلطف ، ولكنى اطبقت يدى عليها. وامتدت أيد أخرى وراء ظهرى تتحسس ثيابى ، فاستولى على اشمئزاز شديد . وزاد من وطأة الامر على نفسى ، انى كنت أجهل تمام الجهل أسلوبهم فى التفكير .. فلم ادر

ماذا يمكن أن يفعلوا فى أى لحظة بشخصى ..

« واول ماخطر ببالى هو الصراخ .. فجعلت أزجرهم بصوت مرتفع ، حاولت أن أجعله أضخم مافى وسعى .. فأجفلوا مبتعدين عنى ، بيد أن ابتعادهم لم يدم لحظة واحدة ، ثم أحسست بهم يقتربون منى وقد تعلقوا بى بجرأة أشد ، وهم يتهامسون بأشيـــاء لا أدرى ما هى ، فأصواتهم بدت غريبةجدا فى أذنى .. وارتعدت أوصالى ارتعادا قويا ، وصرخت فيهم صرخات متقطعة لا معنى لها . ولكنهم فى هذه المرة لم يفزعوا فزعا جديا ، وأخذوا يضـــحكون بنبرة غريبـــة منفـــرة وهم يزيدون من التصاقهم بى ..

« وأعترف لكم أنى خفت خوفا شديدا جدا .. ولذا قررت أن أشعل عود ثقاب ثم أفر هاربا محتميا بوهجه ، وهكذا فعلت .. فقد أخرجت ورقة من جيبى أشعلتها من الثقاب ، وبذلك استطعت الوصول الى مدخل النفق ..

« وما كدت أصل الى المدخل حتى احترقت الورقة عن آخرها ، وسمعت فى جوف الظلام حركات « المورلوك » ولغطهم كأنه وسوسة الريح بين أوراق الشجر أو سقوط المطر على زجاج النوافذ .. ثم جدوا فى أثرى ..

« وما هى الا لحظة حتى تعلقت بى أيد كثيرة .. وكان واضحا كل الوضوح أنهم يحاولون اعادتى الى داخـــل النفق ، فلم أجد بدا من اشعال ثقاب آخر لوحت بضوئه فى وجوههم . ولا يمكنكم أن تتصوروا بشاعة سحنهم عن قرب .. لقد أصابنى الغثيان من تلك الوجوه الشاحبـــة الخالية من الأذقان ، وتلك العيون الحمـــراء العاطلة من

الاهداب والجفون ، وهم يحملقون مذهولين وقد اعماهم ضوء الثقاب

« ولكنى لم أتريث لاعيد النظر ، بل أسرعت بالتراجع .. ولما انطفأ عود الثقاب الثانى أشعلت الثالث ، وأوشك ان ينتهى عندما وضعت يدى على أول مقبض فى جدار البئر . وفى تلك اللحظة امتدت أيدى « المورلوك » الى اقدمى ، وأخذوا يجذبوننى . فأشعلت العود الرابع بيد انه انطفأ . . فاستجمعت قوتى وجعلت أرفس ، وتخلصت منهم ماعدا واحدا تعلق برجلى وأوشك أن يستبقى حذائى غنيمة باردة فى يده !

« وخيل الى أن التسلق لايؤذن بانتهاء .. وأصابنى فى الثلاثين قدما الاخيرة غثيان فظيع ، ووجدت مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بتوازنى . اما الاقدام الاخيرة فكانت صراعا هائلا ضد الاغماء .. وكم مرة دارت رأسى وخيل الى أنى واقع لا محالة فى الجب ...

« وأخيرا قيض لى الصمود ، ووصلت الى سطح الارض . وما أن احسست بضوء الشمس يغمرنى حتى ارتميت على العشب .. وكانت التربة تبدو لى زكية الرائحة بعد تلك الفترة القاسية من التخبط فى الظلام والعفونة ..

« واذكر تماما اننى تنبهت على « وينا » وهى تقبل يدى واذنى ، ومن حولها جماعة من « الايلوى » يلغطون بأصواتهم المرحة الرخيمة .. ثم لم أذكر بعد ذلك شيئا ، لأننى فقدت رشدى فى نوبة اغماء طويلة ...

« والحقيقة أن حالتى بدت لى الآن ، وقد صارت اسوأ من ذى قبل ، لاننى كنت قبل تلك الخطوة لا اشعر

باليأس .. وكان قلقى وجزعى لضياع آلة الزمن يكتنفه دائما أمل فى الفرار والنجاة . بيد أن هذا الامل قدارتطم الآن على صخرة اكتشافاتى الجديدة .. وفيما مضى أيضا كنت اخالنى متحللا من الموانع والعوائق اللهم الا بساطة أولئك الاقوام الصغار وسذاجتهم الطفلية الى جانب بعض القوى المجهولة التى كنت أمنى النفس بأننى حرى أن أتغلب عليها متى أحسنت فهمها . أما الآن فقد برز الى الميدان عنصر جديد تماما ..عنصر مزعج مقزز هو هؤلاء « المورلوك » .. ففيهم شىء لا انسانى ، شىء يفيض بالشر .. !

الظلام

« والعدو الذى كنت أرهبه قد يدهشكم أن تعرفوه .. فما كان ذلك العدو سوى الظلام الذى يسود فى ليالى المحاق والهلال الوليد . وكانت « وينا » قد غرست هذه الفكرة فى ذهنى ببعض ملاحظاتها التى بدت لى فى اول الامر غير مفهومة ، وكلها ملاحظات بصدد ما سمعته « الليالى الحالكة الظلام » . أما الآن فلم يكن من العسير على أن أفسر تلك الاقوال ، وأتصور على ضوء تجربتى الرهيبة ما يمكن أن تعنيه الليالى المظلمة القادمة ..

« وكان القمر بعد اكتماله الماضى فى نقصان متواصل، وكل ليلة تزيد فيها فترة الظلمة الحالكة عن الليلة السابقة .. وهأنذا الآن افقه – دنو بوجه التخمين على الاقل – سبب خوف أولئك الاقوام الصغار من ظلمات الليل . وصرت أتساءل فى قلق، وأتخيل فى غموض ألوان الشرور الوبيلة التى قد يقترفها « المورلوك » فى ختام الدورة القمرية ومطلع الدورة التالية . ثم أسلمنى التفكير الى الاعتقاد اعتقادا جازما بأن تأويلى السابق لتحول السلالات البشرية الى فصيلتين من السادة والعبيد او الحكام والصناع كان عرضة للخطأ ..

« ان الفصيلتين اللتين نتجتا عن تطور الانسان فى المدى البعيد قد اتجهتا الى نوع جديد تماما من العلاقات، فاعترى الانحلال فصيلة « الايلوى » الحاكمين المسيطرين

حتى انتهت سلالتهم الى أولئك الافراد التافهين الذين استنزفت الرخاوة والترف قوة طباعهم وطاقة ذكائهم .. فهم وان بقيت لهم ملكية الارض على سطح كوكبنا ، لان أجيال « المورلوك » المتعاقبة ألفت حياة الظلام وصار الضياء يؤذيهم أذى أليما ، فان العلاقة لم تعد علاقة سيطرة .. بل الاقرب الى الرجحان أن « المورلوك » يخدمون « الايلوى » ويقدمون اليهم الاكسية الفخمة ووسائل الغذاء والحياة جريا على عادة قديمة موروثة .. مثلما ورث الجواد عادة نبش الارض بسنابكه ، أو مثلما يستطيب الانسان قتل الطير والوحش على سبيل الرياضة، لان الاجداد القدامى كانوا يفعلون ذلك عن ضرورة .. فلما زالت الضرورة والحاجة بقيت عادة الفعل المتوارثة تؤدى لغير غاية واضحة !

« ولكن من الواضح أن النظام القديم قد بقيت له آثار وظلال .. فالانسان الذى قهر أخاه الانسان قبل آلاف الاجيال ونفاه من عالمه المضىء الى عالم الظلام ، ها هو ذا يجد أخاه قد عاد اليه بعد الغيبة الطويلة ، وقد تغير كلاهما بحكم بيئة حياته . ولذا نرى « الايلوى » يستعيدون شيئا كانوا قد فقدوه ، ويتلقنون على يد « المورلوك » درسا يرد الى وجدانهم الاحساس بالخوف .. وهذا الاحساس الذى كانوا قد نسوه منذ مئات الآلوف من السنين ..

« وعندما وصلت فى تأملاتى وتقديراتى الى هذا الحد، تذكرت فجأة منظر ذلك اللحم الذى رأيته على المائدة المعدنية فى العالم السفلى .. وكان عجيبا فى الواقع أن تخطر ببالى هذه الفكرة وكأنها ليست جزءا طبيعيا من تيار أفكارى ، بل على صورة سؤال ملح اشد الالحاح على ذهنى

من الخارج •• وحاولت أن أتذكر منظر ذلك اللحم ، وخيل الى أن فى ذلك المنظر شيئا غير مألوف ، لست ادرى ما هو •• ولكننى عندما ربطت بين ذلك اللحم وبين انقراض الحيوانات من وجه الارض ، ثم وضعت فى كفة التقدير شـــدة الفزع الذى يشعر به « الايلوى » ازاء « المورلوك » ، بدأت الصورة العامة تزداد وضوحا وتكاد تبلغ حد اليقين •• وعلى الفور بدأ جهاز الغرائز والعقل عندى يعمل على المستوى المعهود فى حياة سلالتنا البشرية الراهنة ، ولئن كان الاقوام الصغار يشعرون أمام الخوف والجزع بالعجز والتهالك ، فما كان هذا هو شعورى •• لم يفت الخوف فى عضدى ، ولم يشل تفكيرى ، بل زاده توقدا ونشاطا ، وبدأت أفكر فى اتخاذ وسائل الدفاع وعدته • وقررت ان أستعد بالاسلحة المناسبة ، وأن يكون نومى فى موضع حصين ان لم يتيسر أن يكون فى موضع مأمون •• ففى استطاعتى متى وجدت هذا الحصن أن إتخذ منه قاعدة للدفاع والهجوم ، أواجه منها أعدائى، بعد أن عرفت مدى الخطر الذى اتعرض له فى ظلام الليل •• والحقيقة أنه لم يعد فى استطاعتى أن أنام ما لم يكن فراشى بمنأى من هؤلاء الاعداء ، وصرت أرتجف رعبــا كلما تخيلت كيف كانوا يفحصوننى وانا نائم لا أدرى عن وجودهم شيئا ••

وخرجت أهيم طيلة بعد الظهر على طول مجرى التيمز بحثا عن المأوى الامين المنشود •• فلم أعثر على شىء يفى بالغرض على الصورة التى تكونت فى ذهنى ،فجميع الابنية والاشجار تبدو قريبة المنال غاية القرب من أولئك المخلوقات الماهرة فى التسلق ، بعد الذى شهدته بالفعل من براعة « المورلوك » فى الصعود من الآبار العميقة أو الهبوط اليها ••

« وعندئذ خطر لى قصر الخزف الاخضر وجدرانـــه اللامعة الناعمة .. ورجحت أنه قد يكون ملاذا مناسبا . وكان الوقت أصيلا عندمـــا حملت « وينا » كما احمل الاطفال فوق كتفى ، ورحت أصعد التلال متجها الى الجنوب الغربى حيث ذلك القصر ..

« والمسافة الى ذلك القصر بدت فى نظرى بين سبعة أميال وثمانية ، ولكنها فى الواقع لم تكن لتقل عن ثمانية عشر ميلا .. وكنت قد لمحت ذلك القصر بعد ظهر يوم رطب . ومن شأن الرطوبة أن تقصر المسافات تقصيرا خادعا ، ويضاف الى هذا أن كعب أحد الحذاءين قد بلى ، وأن مسمارا أطل برأســـه من النعل .. فــكنت أمشى كالاعرج ..

« وكانت الشمس قد غربت منذ وقت قصير ، عندما بدا شبح القصر لنظرى من بعيد حالك السواد على صفحة من رقعة السماء باهتةالاصفرار .. وكانت« وينا »قد أبدت سرورا عظيما جدا عندما وضعتها فى بداية الامر فوق كتفى وأخذت أسير بها .. ولـــكنها بعد فترة من الوقت رغبت الى فى أن انزلها الى الارض وأنشأت تجرى بجانبى .. وتتركنى بين خطوة وأخرى لتبتعد عنى يمنة او يسرة كى تقطف الازهار ، وترشقها فى جيوبى ..

« والحقيقة أن جيوب ثيابى كانت مصدر حيرة مستمرة ل « وينا » ثم استقر رأيها أخيراً على أن هذه الفتحات نوع عجيب من الزهريـــات ، أو هى على الاقــل قــررت أن تستخدمها فى تلك الغاية ،وهــذا يذكرنى بشىء كدت أنساه ! .. فعندما غيرت سترتى وجدت .. »

وتوقف رحالة الزمن عن الكلام ، ثم وضع يده فى

جيبه وأخرج زهرتين ذابلتين القاهما على المنضدة الصغيرة تشبهان بعض الشيء أزهار الخبازى بيد أنها كانت كبيرة جدا وبيضاء .. وبعد ذلك استأنف حديثه من حيث انقطع :

« ومع انتشار الظلام ، وسكون المساء فوق التلال ، بدأ التعب يدب فى أوصال « وينا » الرقيقة ، وأرادت أن تعود الى القصر المبنى من الصخر الرمادى الذى تعودت أن تبيت فيه معى .. فجعلت أشير الى ناحية قصر الخزف الاخضر ، وحاولت أن أفهمها أننا سوف نلتمس هناك ملاذا أمينا لنا من مخاوفها ..

« وهل تعرفون ذلك الصمت الكبير الذى يرين على الاشياء قبل اشتداد العتمة ؟ .. حتى النسيم يكف عن تحريك ذؤابات الاشجار ، وانا احس فى لحظات ذلك الصمت بشىء من التوقع الغامض.. فالسماء تبدو صافية مترامية الابعاد ، خالية الا من البقايا الاخيرة لشعاعات الغروب . وفى تلك الليلة تملكت نفسى الوان جديدة من المخاوف .. فكأنما ارهف هذا الهدوء المعتم حواسى ارهافا خارقا للمعتاد .. حتى لقد خيل الى انى استطيع أن أشعر بتجوف الارض تحت قدمى ، وأكاد أيضا أن أبصر خلال الثرى غدو « المورلوك » ورواحهم فى نشاطهم الدائب وهم يتربصون انتظارا لحلول الظلام الدامس ..

« وخيل الى ايضا فى تلك اللحظة أن « المورلوك » سيتلقون غزوى لاوكارهم الغائرة البعيدة المزار وكأنه اعلان للحرب عليهم من جانبى .. ولكن لماذا على كل حال بدأوا هم العدوان بالاستيلاء على آلتى ، آلة الزمن ؟

« ومضينا فى طريقنا والضياء يختفى رويدا رويدا .. ثم أخذت شفافية آفاق السماء تقل ، وبرزت النجوم واحدا تلو الاخر • واشتدت عتمة الارض ، وبدت الاشجار ظلالا سوداء .. وثقلت على « وينا » وطأة الخوف والتعب، فأخذتها بين ذراعى وجعلت أتحدث اليها واداعبها واهون عليها وأنا سائر فى طريقى ، فلما اشتدت العتمة لفت ذراعيها حول عنقى وأغمضت عينيها ودست وجهها فى كتفى ..

عقوبة طبيعية

« على هذه الصورة ، هبطنا سفح تل الى واد عميق .. وكدت فى الظـــلام أتردى فى مجرى نهر صغير ، ثم خضت ماءه القليل الغور وخرجت الى الضفة الاخرى.. فاجتزت عددا من القصور المعدة للنوم فى وسطها تمثال أشبه بتماثيل اله الحقـول والرعاة ، لولا أنه بغير راس ومن حوله خميلة من اشجار السنط ...

« والى أن بلغت ذلك الموضع من مرحلتى، لم يظهر لى شيء من بوادر نشاط « المورلوك » .. ولكن الليل لم يزل بعد طفلا ، والساعات الشديدة الحلكة التى تسبق ظهور التربيع الاخير من القمر لم يحن وقتها بعد ، وفى كنف التل التالى ، استطعت أن ارى غابة كثيفة مترامية تمتد ظلالها امامى . وترددت كثيرا لانى لم أتبين لها آخرا عن يمين أو يسار ، وشعرت بالتعب .. وكان الكلال قد نال من قدمى بصفة خاصة ، فتوقفت عن السير وأنزلت « وينا » عن كتفى ثم جلست فوق العشب ...

« ولم استطع وانا جالس هناك ،ان ارى هيكل قصر الخزف الاخضر بعد اشتداد الظلمة .. ولم أعد على يقين من صواب وجهتى ، وأمعنت النظر فى كثافة الغابة الملتفة الأشجار وتساءلت عما عساه يكمن فى داخلها من المخاطر .. فمتى دخلها الانسان غابت النجوم عن عينيه كلية . وعلى فرض أنه لا توجد هناك مخـــاوف من نوع آخــر ، فحسبى أن جذور الاشجار وفروعها ستجعلنى أتخبط

فى طريقى . واشتد احساسى بالتعب بعد أن جلست ، فقررت الا اواجه متاعب السير فى الغابة ليلا ، وفضلت أن أقضى الليل على سفح التل ..

« وسرنى أن « وينا » كانت غارقة فى النوم ، فلففتها فى سترتى وجلست بجانبها انتظر طلوع القمر . وكان الهدوء سائدا والمكان خاليا تماما ، ولكن من أعماق الغابة المظلمة كنت أسمع أصواتا فى الحين بعد الحين تنم عن الحياة .. وكان وميض النجوم فى السماء الصافية يؤنس وحشتى ، وجعلت أتأمل صفحة السماء ، فلاحظت أن المجموعات الفلكية العتيقة المألوفة لنا قد تغيرت أوضاعها ونظمها وصارت منها مجموعات غير معهودة لنا .. اللهم الا « طريق التبانة » فقدظلت فيماخيل الى على حالها المعهود لنا نثارا من شذرات مضيئة . والى الجنوب رأيت نجما احمر كبيرا شديد اللمعان ليس لنا به عهد .. ونفعنى التأمل فى الكواكب ومساراتها لانه أظهر لى أن اهتماماتى ومخاوفى تافهة ضئيلة جدا بالنسبة لرحابة الكون .. بل قد بدا لى شأن الارض كلها، وما يتجاذب الحياة الارضية من المتاعب ، بالغ التفاهة فى ذلك الضوء الكونى الذى ينبعث من نجوم تتحرك بانتظام واطراد وعدم اكتراث من أغوار ماض مجهول الى غياهب مستقبل مجهول ...

« ان النجوم لم تزل على حالها، ولكن الانسان قد تحول من كائن ذكى قوى الى سلالة ضعيفة واهنة وسلالة اخرى متوحشة ضارية . وسرت فى اوصالى رعشة ، وزاد يقينى من أمر ذلك اللحم الذى رأيته على موائد «المورلوك» .. ونظرت الى «وينا» الصغيرة وهى نائمة بجوارى ووجهها الابيض يبدو مشرقا كالنجوم التى تلمع من فوقى ...

« واجتهدت طوال تلك الليلة العصيبة أن أبتعد بذهنى قدر الطاقة عن التفكير فى « المورلوك » وقصرت متن الليل بمحاولة العثور بين المجموعات السماوية على اثار تذكرنى بالمجموعات القديمة . واحتفظت السماء بصفاتها الا من سحابة عارضة بين حين وحين .. ولابد أننى هومت بضع مرات ، حتى اذا بدأت يقظتى تتداعى ظهر فى الافق الشرقى شىء أشبه بانعكاس نار لا لون لها . وعلى الاثر ظهر القمر كما يبدو فى أخريات دورته شاحب الضياء ...

« ولم يلبث القمر الا قليلا ، ثم أخذت تباشير السحر تغير عليه وتغمره بنور باهت فى أول الامر ، لم يلبث أن اصطبغ بلون أرجوانى دافىء ..

«ولم يظهر لنا «المورلوك» ولم ألمح أثرا فوق التل تلك الليلة .. وبطلوع النهــار ساورنى الريب فى مخاوفى ، ووقفت أتمطى فوجدت احدى قدمى متورمة قليلا عند كاحلى ، وكعبى يؤلمنى . فجلست مرة أخرى وخلعت الحذاءين وألقيت بهما بعيدا . ثم أيقظت « وينا » ودخلنا معا الى جوف الغابة ، فبدت فى ضوء النهار خضراء يانعة تشرح الصدر .. وقطفنا من شــجرها ثمــــارا وفاكهة اتخذنا منها افطارا شهيا . والتقينا فى جنبــــاتها بعدد من الاقوام الصغار يضحكون ويرقصون فى ضوء الشمس ، كأنما لم يوجد فى الدنيا شىء اسمه الليل يرهبهم ويفزعهم ومرة أخرى خطر لى ذلك اللحم الذى رأيتــه على موائد « المورلوك » وداخلنى اليقين من حقيقته ، وشعرت فى أعماق فؤادى بالشفقة على ذلك النسل الواهــن الخارج من صلب بشريتنا ...

« ولمع فى ذهنى أن مواردغذاء «المورلوك» قد نضبت منذ زمن طويل .. وربما عاشوا اعواما على لحم الجرذان

وما الى ذلك من الهوام . ويظهر أن نفور الجنس البشرى من اللحم الآدمى ليس نفورا غريزيا عميق الجـذور ، فانحدرت تلك السلالة فى طعامها الى مستوى ترفعت عنه القردة . ومما لاشك فيه ان أولئك « المورلوك » أبعد عن صفاتنا البشرية من أجدادنا القدامى سكان الكهوف أكلة لحوم البشر الذين عاشوا فى هذه البلاد قبل أربعة آلاف سنة ...

« فاذا أضفنا الى هذا ، أن الذكاء الراقى الذى يبغض الينا أكل لحم بنى جنسنا قد تلاشى ، لقدرنا ان أولئك « المورلوك » لم يشعروا برادع من أنفسهم وهم يمدون أيديهم الى بنى عمومتهم من « الايلوى » ليتخذوا منهم غذاء حيوانيا ...

« والايلوى » بهذا الوضع هم قطعان ماشية يسمنها « المورلوك » فى مراعى الارض ومروجها الخضراء ، ويقتنصون منها كلما احتاجوا الى طعام . ولعلهم يرعونهم ويشرفون على تكثيرهم كما نشرف نحن على تربية الدواجن وقطعان الثيران ! ..

« هذا كله يدور فى رأسى و « وينا » تتراقص فى قمة النشوة وهى تجرى بجانبى ! ..

« وشرعت احمى نفسى من سيطرة الفزع الذى بدأ يخيم على تفكيرى .. وعللت النفس بأن هذا الانحدار الشديد الذى أصاب البشرية انما هو عقوبة طبيعية للانانية الحمقاء التى انغمس فيها جنسنا . فقد رضى الانسان لنفسه أن يعيش مخلدا للراحة والترف على ثمرات كدح اخوته فى البشرية .. واتخذ شعارا له أن الغاية تبرر الوسيلة ، وان الضرورات تبيح المحظورات

فكان من الحق والعدل أن ينقلب سلاحه ضده .. وان يذبح ويؤكل باسم هذه الضرورة عينها التى بررت له الاسترقاق والاستغلال والاستعباد .. !

« وحاولت أن أحمل نفسي على شيء من الازدراء لتلك السلالة الارستقراطية المنحلة ، ولكنى لم أجد الى ذلك الاحساس سبيلا ! فمهما بلغ من الاسفاف العقلى لدى اولئك « الايلوى » ، فلم تزل لهم الصورة البشرية الواضحة .. فلا بد أن أشعر نحوهم بالعطف والرقة ، ومن الحتم أن اشاركهم آلامهم ومخاوفهم ..

« وكانت لدى فكرة غامضة جدا عن الخطة التى سأنتهجها مستقبلا .. وكانت غايتى الاولى أن أجد كما ذكرت ملاذا أمينا ، ثم احاول أن أتخذ من المعدن او الحجارة اسلحة استعين بها على الدفاع . وهذه الغاية الاولى لامناص من تحقيقها أولا وعلى وجه السرعة .. ثم بعد ذلك يستحسن أن أحصل على وسيلة أوقد بها شعلة من النار تكون تحت يدى ، فقد علمت أنه ما من شيء أفعل من تأثير النار فى أولئك « المورلوك » .. !

« وكانت غايتى البعيدة ، على كل حال ، ان اصل الى وسيلة اقتحم بها الابواب البرونزية فى قاعدة تمثال أبى الهول ، لانى كنت واثقا من عثورى على آلة الزمن داخل القاعدة لو استطعت أن افتح الابواب وادخل الى هناك وفى يدى شعلة مضيئة . ومتى حصلت على آلتى فلن أتردد فى الفرار ...

« ولا اكتمكم انى كنت انوى أن آتى الى زمننا الحاضر بالصغيرة « وينا » فوق كتفى ، وعلى هذه النية استأنفت السير نحو قصر الخزف الاخضر ...

متحف !

« وقرب الظهر وصلنا أنا و «وينا» الى قصر الخزف الاخضر ، فوجدته مهجورا مهملا وقد امتدت اليه يد الخراب تحيله أنقاضا واطلالا . ولم يبق من الالواح الزجاجية فى نوافذه الا بقايا متناثرة أكثرها مهشم والواجهة الخضراء تساقطت منها مساحات كبيرة من الخزف ، فتكشف عن هيكل معدنى متآكل ..

« والقصر قائم على ارتفاع ضخم فوق أرض معشبة ، تنتهى من جهة الشرق الى حافة تل .. أظنها كانت فيما مضى شاطئا صخريا ثم جف ماء البحر أو لعله تحول عن تلك البقعة ، وكان هذا الخاطر سببا فى اتجاه تفكيرى الى البحر وما فيه من أحياء مائية وماذا عسى أن يكون قد حدث لتلك الاحياء من التغير والتطور كفاء ماحدث من التغير الخطير للأحياء البرية والسلالة البشرية ..

« وبصعوبة رددت ذهنى عن الاسترسال فى هذا التفكير ، لاشغله بقصر الخزف الاخضر الشاهق المتداعى الاركان . ورحت أفحص مادة البناء القائم ، واقلب قطعا من انقاضه المتناثرة .. فصح عندى ان هذه المادة من الخزف . وعلى طوال الواجهة القائمة ، رأيت كتابة بحروف غير معروفة لى . ولفرط حماقتى سبق الى ظنى أن « وينا » ربما استطاعت أن تقرأ لى تلك الكتابة أو تفسرها ، ثم ثبت لى أن رأسها لم يدخله اى تصور

لمعنى الكتابة أو القراءة . والحقيقة أن « وينا » كانت تبدو لي على حظ من البشرية أكثر من حقيقتها ، وربما كان السبب في هذا الوهم عندى أن عواطفها كانت بشرية جدا ، فخيل الى انها ذات عقل بشرى أيضا .. مع أن الانحلال اصاب الجنس كله فتلاشى لديه كل أثر للتعلم كما نعهده .. !

« ولباب القصر مصراعان كبيران مهشمان .. تجاوزناهما فوجدنا شيئا يخالف البهو الكبير المعهود في سائر القصور .. وجدنا دهليزا طويلا جدا يصل اليه النور من نوافذ كثيرة جانبية . وأول نظرة ألقيتها على ماحولى ذكرتني بما رأيت بالمتاحف وكانت الارض مكسوة ببلاط مربع تعلوها طبقة كثيفة جدا من التراب .. وكذلك كانت سائر الاشياء المتباينة الغريبة المنظر مدرجة في أكفان من الغبار الرمادى السميك ، ثم لمحت في وسط الدهليز شيئا غريبا أمعنت فيه النظر فاذا به الجزء الاسفل من هيكل عظمى .. ومن منظر الاقدام المعوجة أدركت انه هيكل حيوان منقرض ثم وجدت « الجمجمة » والعظام العليا ملقاة في التراب ...

« وتقدمت في الدهليز قليلا ، فوجدت هيكلا عظميا ضخما آخر لحيوان منقرض من نوع مختلف ، فثبت عندى صواب ما افترضته من ان القصر أقيم ليكون متحفا . واتجهت الى الجدران الجانبية ، فوجدت ماخيل الى انه رفوف . ولما نفضت الغبار الكثيف ، بدت لعيني الصناديق الزجاجية المعهودة في زماننا هذا . وكان لابد أن هذه الصناديق كانت مفرغة من الهواء محكمة الاغلاق ، لان بعض محتوياتها ظلت محتفظة بكيانها الاصلى في حالة جيدة ..

« وصار من الجلى فى نظرى ،اننا نقف بين اطلال كنسنجتون الجنوبية فى عهد من عهود مستقبلها الزاهر .. وأن قصر الخزف الاخضر هو قسم الحفريات . ولابد أن النماذج والقطاعات كانت مجموعة بالغة الروعة فى حينها ، وان كان فعل الفساد الذى لابد منه على مدى الزمن قد أطاح بـ ٩٩٪ من قيمتها ...

« وهنا وهناك وجدت بقايا متناثرة مبعثرة من نماذج نادرة محطمة أو منظومة فى خيوط على شكل قلائد .. فأدركت أن هذا من أثر عبث أولئك القوم الصغار من « الايلوى » اما الصناديق الزجاجية الثقيلة التى نقلت من مواضعها بقوة وعنف ، فلابد أن الايدى التى عبثت بها هى ايدى « المورلوك »

« وكان المكان ساكنا يخيم عليه صمت القبور ، وبساط من التراب يخنق كل وقع لاقدامنا على الارض .. وكانت « وينا » قد تركتنى أفحص الصناديق والحفريات ، وانصرفت الى اللهو ببعض البقايا المبعثرة .. ثم تركت اللهو وجاءت ووقفت بجانبى ، وتناولت بهدوء شديد يدى بيدها

« ودهشت فى بداية الامر جدا لما رأيته حولى من بقايا هذا الصرح الشامخ الذى يقوم شاهدا على عصر منقرض من عصور العلم وتوقد الذكاء البشرى . وأوشكت هذه الدهشة أن تشغلنى عن التفكير فيما يمكن أن يستخدم فيه هذا الصرح ، بل أوشكت مسألة آلة الزمن نفسها أن تغيب عن ذهنى فترة من الوقت .. فاذا نظرنا الى حجم ذلك البناء الضخم ، وجدنا ان قصر الخزف الاخضر اكبر من ان يكون مجرد متحف للحفريات .. فلعله اقيم ليكون

متحفا تاريخيا ، بل لعله كان أيضا دارا للكتب ..

« وراقني هذا الفرض الاخير .. لانني في تلك الظروف على الاقل كنت مشوقا غاية الشوق بالاطلاع على كتب صدرت بعد زمننا بقرون .. فلا شك انها اطرف وأجدى على المعرفة من منظر كل تلك الحفائر المتحللة !

« وعلى هذا الاساس رحت استكشف اقساما أخرى من البناء الكبير .. فعثرت على دهليز آخر قصير يتجه اتجاها عموديا بالنسبة للدهليز الاصلي ..

« ويبدو ان هذا الدهليز الصغير كان مخصصا للمعادن . وما أن وقع نظري على كتلة من الكبريت حتى انصرف تفكيري في الحال الى البارود . وعبثا فتشت عن مساحيق البارود ، بل انى لم اعثر في ذلك المتحف على اثر للنترات من اى نوع .. ولابد أنها اختفت من الوجود منذ عصور بعيدة ...

« بيد أن الكبريت ظل مستوليا على تفكيري ، وقاد ذهني الى ضروب من الخواطر .. بحيث لم تظفر سائر محتويات هذا الدهليز رغم قيمتها العلمية واحتفاظها بكيانها بشيء كثير من اهتمامي .. فأنا لست متخصصا في علم المناجم ، ولذا وجهت خطاى الى جناح من القصر ثقلت عليه وطأة القدم ، وهو مواز للدهليز الاول ..

« ويظهر أن هذا الجانب كان مخصصا للتاريخ الطبيعي ، إلا أن محتوياته جميعا طمست يد العفاء معالمها .. فلم تبق الا اثار طفيفة غامضة مما كان يوما ما حيوانات محنطة أو نماذج لكائنات حية في حقاق من البللور كانت مملوءة في زمن من الازمان بالكحول !

« وقد ساءنى ما أصاب هذا القسم أيما اساءة ، لأنه كان يسرنى ان اقف على مراحل التكيف المتتابعة فى الكائنات الحية على مر العصور ..

« وانتقلنا بعد ذلك الى بهو ضخم مترامى الارجاء ، ولكنه سيىء الاضاءة جدا .. وارضيته تنحدر الى اسفل انحدارا يسيرا ابتداء من الطرف الذى دخلت منه هذا البهو .. وكانت تتدلى من السقف على مسافات متساوية كرات بيضاء ومعظمها مهشم ، مما أوحى الى بأن ذلك الموضع كان مضاء فيما مضى اضاءة جيدة بوسائل صناعية ...

« وشعرت اننى فى هذا الموضع لست غريبا كل الغربة ، فعلى الجانبين من ذلك البهو الضخم كتلة ضخمة من الآلات الكبيرة ، وجميعها قد تآكل الى حد كبير ، وفريق منها تحطم أو تداعى ولكن طائفة منها بقيت قائمة لم ينقص منها شىء ...

« وأنتم تعرفون شدة تعلقى بفنون الآلات وأسرار عملها .. ولذا ساورنى ميل شديد للتلكؤ والتسكع ، لا على سبيل الكسل أو الفضول الاجوف بل عسى أن يتكشف لى شىء من سرها . فمعظمها لا ينبىء مظهره عن الغرض منه .. وخيل الى اننى ان استطعت أن أعرف بعض أسرار تلك الآلات ، لاجتمع فى يدى سلطان لا يستهان به ، ربما نفعنى أعظم النفع فى كفاحى ضد « المورلوك » ..

« وعلى حين غرة التصقت « وينا » بجانبى . وكان ذلك منها حركة مفاجئة جعلتنى أجفل .. ولولا حركتها تلك لكنت حريا أكبر الظن الا افطن الى الانحدار الهين

الذى فى أرض القاعة . وربما كانت الارض غير منحدرة أساسا ، وانما جاء الانحدار من تشييد ذلك المتحف على جانب تل مثلا ..

« وعلى كل حال كان المدخل الذى نفذت منه مرتفعا فوق سطح الارض . وينفذ اليه ضوء قليل من كوات صغيرة قليلة ضيقة .. فلما تقدمنا فى البهو قليلا ، طغى سطح الارض على مواضع الكوات وصار المكان أشبه بالجب لا ينفذ اليه الضوء الا من قرب السقف المرتفع ..

« وتقدمت ببطء شديد ، وأنا فى عجب من أمر هذه الآلات الغريبة . واستغرق هذا العجب كل اهتمامى ، فلم أفطن الى تناقص الضوء تناقصا تدريجيا .. الى أن نبهنى التصاق « وينا » بى من استغراقى الذهنى ، وعندئذ تبينت أن القاعة يغوص سائرها فى ظلمة دامسة

« وترددت برهة وأنا أنظر فيما حولى ، فلاحظت أن التراب صار أقل غزارة فى هذا الموضع ، وأن سطحه ليس فيه استواء كذى قبل .. والقيت بنظرة الى الامام نحو الجانب المظلم ، فخيل الى أن سطح التراب الذى يغطى وجه الارض تتناثر عليه أقدام صغيرة ضيقة . فخامرنى على الفور الاحساس بوجود « المورلوك » عن كثب منى .. وشعرت اننى أبدد وقتى فى فحص تلك الآلات فحصا فنيا . وتذكرت أننا أوغلنا فى فترة مابعد الظهر ، فلم يتيسر لى بعد ان أدبر لنفسى سلاحا أو وسيلة لاشعال النار كى أخيف بها اولئك « المورلوك »

المعركة

« وفى هــذه اللحظة ، سمعت من جوف الظلام فى الطرف الاقصى للقاعــة صوت هــدير غريب مختلط بالاصوات التى سمعناها من قبل وانا فى اعماق البئر .. فتناولت يد « وينا » . ثم برقت فى ذهنى على الفور فكرة فتركتها والتفت الى آلة رأيت لها رافعة على شــكل قضيب مما يوجد فى اكشاك الاشــارة المستخدمة فى الخطوط الحديدية ..

« وقبضت على تلك الرافعة بيدى الاثنتين ، وضغطت بكل قوتى على الجهة اليمنى ثم اليسرى . وأخذت « وينا » تهمهم معربة عن قلقها .. ولكن لم تنقض دقيقة حتى كان القضيب الحديدى قد تحطم ، وعدت الى « وينا » وقد صار فى يدى سلاح - فيه الكفاية — وما فوق الكفاية — لتحطيم جماجم « المورلوك » عند حدوث اللقاء المنتظر ..

« ولا أكتمكم اننى كنت شديد الاشتياق لقتل واحد من اولئك « المورلوك » أو أكثر من واحد وهذا امر يبدو لكم منافيا للانسانية .. لانه بمثابة الاقدام عــلى قتل واحد من أفراد سلالته وذراريه !

« ولكنى أؤكد لكم أنه كــان من المستحيل على أن اشعر فى تلك المخلوقات بأى اثر للآدمية .. ولــذا لــم يمنعنى من شفاء غليلى بالدخول وسط الظــلام وقتل

أولئك الوحوش الذين أسمع أصواتهم الا كراهتى لمفارقة « وينا » وحدها واقتناعى اننى لورويت ظمئى لقتلهم فانهم قد يحطمون آلة الزمن ..

وانطلقت خارجا من تلك القاعة والقضيب الحديدى فى احدى يدى و « وينا » فى اليد الاخرى .. ودخلنا قاعة اخرى ارحب من الاولى ، ذكرتنى لاول وهلة بالكنائس العسكرية التى تكثر فيها الاعلام والرايات

« وكانت تلك الخرق الداكنة التى تتدلى من الجانبين عبارة عن البقايا المتحللة للكتب والاسفار ،وقد أتت يد الزمن على كل أثر فيها للطباعة . ولو كنت من رجال الادب والشعر لانشأت قصيدة موضوعها تفاهة كل لون من ألوان الطموح الادبى أمام سلطان الفناء ..!

« أما وانا لست الا رجل علم ؟ فماهزنى فى ذلك التحلل هو ضياع الجهود الضخمه التى تمثلها هذه الملايين من الاوراق المتحللة .. ولا أكتمكم أن ذهنى انصرف فى تلك اللحظة على الخصوص الى مذكراتى العلمية فى الفيزياء والبصريات ...

« وصعدنا بعد ذلك سلما عريضا ، أفضى بنا الى ماكان يوما ماقسما للكيمياء الصناعية .. فخامرنى الامل الكبير فى العثور على أشياء نافعة . وكان هذا القسم بحالة جيدة اللهم الا فى الموضع الذى انهار سقفه فى الناحية الاخرى من القاعة ..

« واتجهت بلهفة الى جميع الحقاق التى لم تتحطم .. والخيرا عثرت فى حق زجاجى مفرغ من الهواء على صندوق للثقاب . وبلهفة عظيمة جربت الثقاب ،

فوجدته بحالة صالحة للاستعمال تماما ، ولم تصل اليه الرطوبة . والتفت الى « وينا » وصحت بها فى لغتها :

ـ ارقصى !...

« فأنا الآن أملك خير سلاح يدفع عنا غائلة تلك المخلوقات الفظيعة ، ولذا رحت بين اطلال ذلك المتحف المقفر الموحش ، وفوق بساط من التراب نسجته يد الخراب فى مئات الاجيال والاحقاب أرقص رقصة مرتجلة وأنا أصفر لحنا من الالحان المرحة على قدر استطاعتى .. ولا شك أن تلك الرقصة كانت شيئا فطريا لا يخضع لاصول ذلك الفن الرفيع ...

« وانى أعتقد الان أن نجاة ذلك الصندوق من الثقاب من فعل الزمن المتوالى أجيالا لا تعيها الذاكرة ، أمر غاية فى العجب .. وان عثورى عليه كان من حسن طالعى

« ولكنى عثرت ايضا على شىء أغرب من الثقاب ، وهو الكافور .. وكان فى قدر من البللور مختومة ، وقد ظننت فى البداية انها قطعة من شمع البرافين الذى يصلح للاشتعال والاضاءة ...

« وحطمت القدر على هذا الاساس .. فلما وجدت مافى الداخل كافورا ، كدت ألقيه من يدى ساخطا لولا أننى تذكرت أن الكافور قابل للاشتعال ، وأن ضوءه وهاج .. فهو يصلح شمعة ممتازة عند اللزوم ، وعلى هذا الاعتبار وضعت قطعة الكافور فى جيبى

« ولم استطع العثور على أى نوع من المفرقعات ، أو اى وسيلة استعين بها على تحطيم البوابات النحاسية

فى قاعدة تمثال أبى الهول . وهكذا كان القضيب الحديدى الذى بيدى هو أقوى سلاح اتفق لى الحصول عليه ..

« ولكن هذا لم يقلل من عظمة ذلك الرواق ومحتوياته الكيماوية .. وليس فى استطاعتى طبعـا ان اقص عليكم بالتفصيل جميع المكتشفات التى وقفت اليها بعد ظهـر ذلك اليوم .. فهذا أمر يتطلب مجهوداً كبيرا فى التذكر وترتيب الوقائع وتسلسلها ...

« وأذكر اننى دخلت متحفا طويلا تكدست فيه أنواع للاسلحة وقد علاها الصدأ .. وأذكر أيضا اننى ترددت برهة بين القضيب الذى فى يدى وبين بلطة او سـيف . ولكنى تذكرت انى لا أعـرف كيف اسـتخدم البلطة أو السيف ، وأن القضيب يصلح لاغراض كثيرة ...

« ولم أستطع بطبيعة الحال أن أحمـل مع القضيب اداة اخرى ...

« وكانت هناك أيضا أنواع من البنادق والمسدسات .. ومعظمها صار كتلا من الصدأ المتراكم ، ولكن بعضا منها كان من معدن لا يصدأ ، ولكنى لم أجدمعها ذخيرتها .. ويبدو انها تحللت وصارت ترابا بمرور الزمن ..

« ولاحظت أن جانبا من ذلك المتحف متهدم متخرب بخلاف سائر المواضع فيه .. فاعتقدت أن انفجارا ربما حدث فى الذخيرة المخزونة هناك ...

« وفى قاعة منفصلة ، رأيت مجموعة غريبة جدا من التماثيل والاصنام منها الاغريقى والمكسيكى والفينيقى والافريقى وما ينتمى الى جميع شعوب الارض فيما أظن

« ودفعتنى رغبة قوية مجهولة ، فكتبت اسمى فوق

أنف صنم بشع الشكل من أصنام امريكا الجنوبية استأثر لطرافته باهتمامي ...

« وباقتراب المساء ، أخذ الفضول يتضاءل .. وكنت قد جست خلال أبهاء كثيرة ساكنة معظمها متهدم وكثيرا مما فيها صار أكواما من الصدأ والتراب . وأخيرا عثرت في دهليز منها على نموذج لمنجم من مناجم القصدير

« وفي حق زجاجي مفرغ من الهواء رأيت قالبين من قوالب الديناميت !.. وصحت في فرح جنوني صيحة أرشميدس :

ـ وجدتها !.. وجدتها !..

« وحطمت الحق الزجاجي واخرجت الديناميت بيد مرتعشة ، ثم تسرب الشك الى نفسي . وانتقيت دهليزا جانبيا صغيرا لاجرى فيه تجربتي .. ولا استطيع ان اعبر لكم عن خيبة املي ، وقد انتظرت خمس دقائق ، ثم عشرا ثم خمس عشرة دقيقة ، دون ان يحدث الانفجار المرتقب ..

« لقد كانت القوالب نماذج مقلدة .. ولولا هذا لاندفعت كالمجنون ونسفت تمثال أبي الهول وأبوابه البرونزية . ولو حدث هذا لكنت قد نسفت أيضا ـ كما اتضح لي فيما بعد ـ كل أملٍ في استرداد آلة الزمن .!

« وأظن اننا انتهينا بعد ذلك الى فناء مكشوف داخل أبنية القصر ، وأرضه مغطاة بالعشب الغزير ، وفيه ثلاث شجرات من أشجار الفاكهة .. وهناك جلسنا واسترحنا وأكلنا من الفاكهة ..

« وقرب الغروب ، بدأت أفكر فى موقفنا .. فها هو الليل يزحف نحونا ويوشك أن يطبق علينا ، وأنا لم أعثر بعد على الملاذ الامين الذى لا تصل اليه يد العدو

« ولكننى لم اضطرب لذلك كثيرا ، ففى حوزتى الآن شىء لعله خير وسيلة للدفاع ضد « المورلوك » .. الا وهو الثقاب ، وفى جيبى أيضا كتلة من الكافور استخدمها — اذا احتجت — شعلة متوهجة ..

« وخيل الى أن خير ما أصنعه فى هذا الموقف ، هو أن نقضى الليل فى العراء تحت حماية شعلة وفى الصباح أفكر فى استرداد آلة الزمن ، وأحاول تحطيم الابواب النحاسية بالقضيب الحديدى .. عسى ان يكون هذا مجديا ..

النار

« وفى ظلمة الغسق خرجنــا من القصر ، والبقايا الاخيرة من أشعة الغروب تلوح فى الافق الغربى .. وفى نيتى عند طلوع النهار أن اتجه بخطى سريعة الى موضع تمثال ابى الهول الابيض لابلغه فى وقت مبكر ، مخترقا تلك الغابة الـــكثيفة التى اعترضت طريقى فى رحلـة القدوم ..

« وتيسيرا لهذه الخطة ، قررت أن أقطع أكبر مسافة ممكنة فى هذا الاصيل قبل أن أعسكر للمبيت فى حماية نيران أشعلها فى الاعشاب الجــافة وفروع الشــجر الصغيرة ...

« وتحقيقا لهذه الغاية ، كنت أجمع وأنا منطلق فى طريقى العيدان والاوراق الجافة التى اصادفها ، الى أن تجمع منها ما ملأ ذراعى .. وكان هذا العمل سببا فى الابطاء من سرعة سيرنا عما قدرت من قبل ..

« وفضلا عن هذا كانت « وينا » متعبة ، ولا تنسوا اننى كنت اعانى بصورة خفية من حاجتى الى النعاس بعد مجهود ذلك اليوم الشاق ..

« وكان الظلام قد خيم تماما قبل وصولنا الى أطراف الغابة .. وعلى الاشجار المتناثرة عند سفح الجبل توقفت « وينا » عن السير ، وأظهرت خوفها الشديد من كتلـة

الظلام الجاثمة أمامها ممثلة فى الغابة الملتفة ..

« ولكن احساسا غامضا بالقلق ، جعلنى أتقدم صاعدا التل على حساب اعصابى وعضلاتى المجهدة .. فأنا لم اذق النوم مدى ليلة ويومين ، لذا كانت حرارتى مرتفعة وحالتى العصبية متوترة ..

« وشعرت بالنوم يطبق على اجفانى .. وشعرت فى الوقت نفسه أن « المورلوك » يتأهبون مع الليل والنوم للاطباق على ..

« وفيما نحن نتردد بين الاقدام والاحجام ، لمحت بين أشباح الاشجار من خلفنا ثلاثة اشكال رابضة بين الاعشاب الطويلة والشجيرات ، ولم أحس بالطمأنينة لهذا القرب ..

« وكنت قد قدرت فى النهار عرض الغابة بمقدار ميل تقريبا .. فلو اننا استطعنا أن نخترقها الى الجانب الآخر، وهو سفح خال من الاشجار تقريبا ، لكان هذا أدعى لامننا وسلامتنا عندما ننام ..

« وخطر لى أننى بفضل الثقاب والكافور ، ربما استطعت أن اشق أمامى طريقا مضيئا وسط الاشجار الكثيفة . وكان من البديهى اننى كى أستخدم الثقاب وأشعله سأحتاج الى يدى كلتيهما ..

« وفى هذه الحالة ، لا بد لى من التخلى عن أخشاب الوقود التى جمعتها . وعلى مضض ألقيت حملى على الارض ، ثم خطر لى وأنا واقف أنظر الى تلك الكومة بحسرة واسى أننى حرى أن أثير دهشة أصدقائى « المورلوك » باشعال النار فيها كى يضطربوا ويذعروا..

« وقد تمخضت هذه الحماقة البالغة عن عواقب وخيمة .. ولكننى في تلك اللحظة لم افكر آلا فى اســـتخدام النيران وسيلة لتغطية انسحابنا ..

« ولست أدرى هل لديكم فكرة عن غرابة منظر النار فى بقعة ليس فيها وجود للبشر ـ كما نعهدهم ـ معآعتدال المناخ ، وحرارة الشمس فى ذلك الجـو ليست لها القوة الكافية للاحراق .. حتى ولو عكست اشعتها وركزتها بللورات من قطرات الندى كما يحدث أحيانا فى آلمناطق الاستوائية ، وأما البرق والصواعق فقد تقصف الشجر وتصيبه بالاسوداد والتفحم ، ولكنهما قلما يتسببان فى اشعال حريق على نطاق واسع . والنباتات حين تتعفن وتتحلل ، يصيبها التفحم من جراء حرارة اختمارها .. بيد أن هذا ايضا قلما يفضى الى ايقاد شعلة ..

« ومن الواضح أن حقبة الانحلال التى أصابت الارض فى ذلك الزمن الموغل فى المستقبل ، أنست السكان كل ذكرى للنار والاشتعال .. وهذا قد يقرب من أذهانكم مبلغ الغرابة التى اكتنفت منظر الالســـنة الحمراء التى ارتفعت فى الجو من كومة الاخشاب الجافة . وقد قرأت هذا العجب البالغ فى سحنة « وينا » ..

« وأول ما خطر لهذه البريئة الساذجة أن تهجم على ألسنة النار لتلهو بها .. وأعتقد أننى لو لم أمســـكها بالقوة ، لالقت بنفسها فى تلك الالسنة الحمراء مفتونة بلونها وحركات تمايلها التى تشبه رقصة من رقصـــات الباليه .. !

« حملتها بين ذراعى بالقوة ، ولم أبال بمقاومتها العنيفة حين رأتنى أتقدم بها لاوغل بين أشجار الغابة .. وظل

وهج النار يضيء لي الطريق فترة وجيزة ، وبعد قليل نظرت الى الوراء فاستطعت أن أرى من خلال الاشجار شيئا لم يخطر ببالي من قبل •• فان النار التى اشعلتها قد سرت من الكومة الى الاعشاب الطويلة النامية فوق سفح التل ، ودبت في الشجيرات المتناثرة الجافة النامية وسط تلك الاعشاب ، حتى صنعت النار قوسا يزداد اتساعها وتمعن في زحفها نحو قمة التل ••

« وتحت ضغط تعبى وتوتر أعصابى ، قابلت الامر بالضحك كأننى غلام أبهج قلبه نجاح لعبته •• وانطلقت اشق الطريق لنفسى فى ظلام الاشجار من أمامى ، وكان الظلام حالكا جدا مما جعل « وينا » تتعلق برقبتى تعلقا شديداً • وتمكنت عيناى بعد أن ألفت الظلام من تمييز ما أمامى ، بحيث كنت أفلح في تحاشى الجذور التى تعترض خطواتى والفروع التى تتشابك امام وجهى • أما من فوق رأسى ، فكانت الظلمة تامة الا فى مواضع قليلة متناثرة تبدو منها زرقة السماء ••

« ولم اشعل شيئا من ثقابى لان يدى كلتيهما كانتا مشغولتين •• ففوق ذراعى الايسر كنت احمل صغيرتى العزيزة « وينا » وفى يدى اليمنى كنت احمل سلاحى الوحيد ، وهو ذلك القضيب من الحديد الذى انتزعته من آلة قصر الخزف الاخضر ••

« وظللت مسافة غير قصيرة لا يطرق سمعى شيء سوى صوت تحطيم الاغصان والاوراق تحت وطأة قدمى ، وحفيف الريح بين أغصان الشجر من فوق رأسى ، وتردد أنفاسى فى صدرى ، ودفقات الدماء مع خفقات العروق فى عارضى •• ثم خيل الى أننى أسمع وسوسة غريبة

عن كثب منى ، فزدت من سرعة سيرى وحثثت الخطى وقد ازداد تجهم وجهى ..

« وبدا ما حسبته ظنا يتجسد فى سمعى .. فها هى الوسوسة تزداد ، ووقع الاقدام يتضح .. واذا بى أسمع تلك الاصوات المهمهمة التى سمعتها من قبل عند رحلتى فى باطن الارض من سكان ذلك العالم السفلى ، فلم يبق عندى من شك فى أن بضعة من « المورلوك » بين اشجار الغابة ، وأنهم يدبرون خطة للاطباق على ..

« وبعد دقيقة شعرت بشىء يجذب ذيل سترتى من الخلف .. ثم تحسست ذراعى يد غريبة .. وارتجفت « وينا » فوق صدرى ارتجافة شديدة ، ثم لاذت بكتفى وجمدت حركتها تمام الجمود ..

« وادركت أن الوقت قد حان لاشـــعال عود ثقاب ، فلم يعد من ذلك مفر .. ولكننى لكى أخرج الثقاب من جيبى يجب أن أضع « وينا » على الارض . فوضعتها بين قدمى ، وفى حين كانت يدى تنقب فى جيبى عن الثقاب نشبت معركة فى الظلام عند مستوى ركبتى ..

« لزمت « وينا » فى تلك المعركة جانب الصمت التام ، أما « المورلوك » فكانوا يهمهمون باصواتهم المعتادة .. وكانت أيد صغيرة من أيديهم الناعمة تتحسس فى الوقت نفسه سترتى وظهرى وقفاى ، ثم فجأة اشـــعلت عود ثقاب ، ورفعته أمام وجهى فرأيت ظهـــور « المورلوك » البيضاء وهى تتوارى لائذة بالفرار بين الاشجار ..

« وبسرعة أخرجت كتلة الكافور من جيبى ، وشرعت أعدها للاشتعال من عود الثقاب .. ثم القيت على « وينا » نظرة فاذا بها راقدة على الارض متشبثة بقدمى ، وليس

بها حراك ، ووجهها الى الارض •• فانتابنى الفزع عليها وانحنيت فوقهــا أتحسسها فلم اكد أتبين فيها نفســا يتردد ••

« فاشعلت كتلة الكافور على عجل ، ثم القيتهــا على الارض فتصاعدت منها ألسنة متوهجة طردت أشــباح الظــلام وفلول « « المورلوك » وركعت على الارض فرفعت « وينا » وخيل الى عندئذ أن الغابة من خلفى كانت تزخر بهمهمة جيش كبير ! ••

« ويبدو أنها كانت مغشيا عليها ، فوضعتها بعناية ورفق فوق كتفى •• ثم نهضت لاستأنف طريقى ، وعندئذ فطنت الى حقيقة مروعة : فانشغالى باشعال الثقــاب ثم ب « وينا » جعلنى أتحرك حول نفسى بضع مرات ، فاذا بى الآن لا أدرى أطــلاقا أين كانت وجهتى التى أســير فيها ! ••

الكابوس

« وليس ببعيد اطلاقا أن أجد نفسى متجها الى حيث يقوم قصر الخزف الاخضر ، فأعود من حيث أتيت .. وتصبب جسمى بعرق بارد ، وكان ينبغى أن أفكر فى مخرج من هذا المأزق بسرعة فائقة ، وخطر لى أن اجمع أوراقا واغصانا ، وأشعل نارا نقضى فى حمايتها ما بقى من-الليل حيث نحن ..

« ووضعت « وينا » على الارض ، وكانت لم تزل فى حالة اغماء .. وبسرعة فائقة رحت أجمع العيدان والاوراق الجافة ، ولم يفتنى أن انظر هنا وهناك ، فى كل مكان بين الشجر من حولى .. الى عيون « المورلوك » المستديرة التى تتوقد كالجمر أو حبات الياقوت ..

« وما أن تجمعت لى كومة من الوقود ، حتى اتت النار على ما تبقى من كتلة الكافور .. فأشعلت على الفور عود ثقاب . وما أن توهج نوره حتى رأيت اثنين من «المورلوك» كانا بسبيل الانقضاض على « وينا » وقد افزعهما الضوء ففرا هاربين ..

« وبلغ من عمى أحدهما ، أنه اتجه فى فراره نحوى .. وسمعت صوت تحطم عظامه تحت اللكمة العنيفة التى أصابته من قبضة يدى .. وترنح فى مشيته بعدها قليلا ، ثم سقط على الارض بين الاشجار ..

« واخرجت من جيبى قطعة أخرى من الكافور،ورحت على ضوئها استكمل كومة الوقود .. ولاحظت أن الكثير من فروع الشجر من فوقى كانت جافة ، وتذكرت أن المطر لم يسقط منذ قدومى على متن آلة الزمن ، أى منذ أسبوع تقريبا ..

« وسهل هذا على العمل ، لاننى لم أعد بحاجة الى الانحناء فوق الارض لاجمع المتساقط من الورق والعيدان .. بل كنت أقفز واستنزل مجموعات من الاغصان الجافة ، وسرعان ما تجمع عندى رصيد كبير من الوقود الجاف الذى فيه بقية من الخضرة ، واشعلت نارا كثيرة الدخان اتاحت لى اقتصاد الكثير من الكافور ..

« وبعد ذلك التفت الى حيث رقدت «وينا» وبجوارها القضيب الحديدى ، وبذلت كل مافى وسعى لانعاشها ، ولكنها كانت شبه ميتة .. ولم أستطع أن أتبين أنفاسها، وكان دخان النار قد بدأ يملأ الجو ، وقدرت أن النار سوف لا تحتاج الى اذكاء لمدة ساعة أخرى على الاقل . وعلى هذا الاساس سمحت لنفسى أن أستجيب لرغبتى الملحة فى الجلوس لأظفر ببعض الراحة ..

« وجلست قرب النار ، وأخذت تمـــلأ سمعى تلك الهمهمات .. وكل ما اذكره بعد ذلك أننى كنت احملق حولى ورأسى يهتز ، ولكن الظلام كان شديداً ..

« ولابد أنى غفوت ، فلم أتنبه الا وأيدى « المورلوك» الصغيرة الناعمة على أعضاء جسمى .. فنفضت أصابعهم بسرعة عنى ، وادخلت يدى فى جيبى لاستخرج صندوق الثقاب .. فاذا به غير موجود ، والتحموا بى مرة أخرى فى الظلام ..

« وأدركت ما حدث .. فان النوم قد استغرقنى ، فلما خمدت النار هجموا علىّ . وكانت رائحة الدخان تملأ خياشيمى مختلطة برائحة خشـــب محترق ، وعشرات الايدى آخذة برقبتى وشـــــعرى وذراعى لتلقى بى الى الارض ..

« وكان فظيعا جدا أن أشعر بكل تلك المخلوقات البشعة متكأكئة على فى الظلام ، حتى كأننى ذبابة تتخبط بـــين خيوط عنكبوت أسطورى ..

« وغلبت على أمرى فهويت على الارض ، وشـــعرت بأسنان صغيرة تنشب فى عنقى .. فتــــدحرجت على الارض بسرعة ، وعثـــرت يدى فى الظـــلام بالقضيب الحديدى .. فبعث ذلك فى أوصالى تيارا جـــديدا من القوة ..

« واستجمعت شتات عزيمتى الى أن تمكنت من الوقوف فى وجه مقاومة عنيفة ، وأخـــذت أنفض تلك الجرذان البشرية عنى .. وأمسكت بالقضيب الحديدى من منتصفه ، ثم أخذت أضرب فى المستوى الذى قدرته لوجوه «المورلوك» وجماجمهم . وسمعت صوت تهشم العظام وتهتك اللحم تحت ضرباتى ، وسرعان ما انفضوا عنى ..

« وفى اللحظة التالية اشتد شعورى باليأس من نتيجة المعركة .. ووضح عندى اننى و « وينا » مقضى علينا لا محالة . ولكنى آليت على نفسى أن أســـتأدى أولئك «المورلوك » ثمن اللحم الذى سيأكلونه غاليا .. واسندت ظهرى الى شجرة ، ورحت أطوح القضيب الحـــديدى أمامى ..

« وامتلأت الغابة كلها بصيحات .. ومرت دقيقة ، ثم

خيل الى أن ضجة أصواتهم قد زادت .. وأن حركتهم قد اشتدت ، ولكن من غير أن يدنو أحدهم منى وانا واقف فى موضعى أحملق فى الظلام ..

« وبدأ الامل يداعبنى ..فماذا لو أن أولئك «المورلوك» قد شعروا بذلك الاحساس البشرى الذى انقرض ، الا وهو الخوف ؟ ..

« وفى أعقاب بارقة ذلك الامل ، لاحت لعينى بوارق محسوسة من النور .. واستطعت أن أرى جثث ثلاثة من «المورلوك» صرعى على الارض امامى ، ثم ازدادالضوء ورأيت عشرات وعشرات من فلول « المورلوك » وهم يولون الادبار .. وعشرات غيرهم يأتون سراعا من خلفى لتواريهم الاشجار من أمامى فى سيل لا ينقطع ..

« وأدهشنى أن أجد ظهور اولئك « المورلوك » حمراء لا بيضاء ، ووسط هذا الذهول الذى استولى على رأيت شرارة حمراء تطير فى الجو بين فروع الاشجارثم تختفى..

« عندئذ أدركت سر رائحة الخشب المحترق التى كانت تملأ خياشيمى ، وسر تلك الهمهمة التى تحولت الآن الى هدير ، وسر ذلك الضياء ، بل وسر لياذ « المورلوك » بالفرار ..

« فلما التفت ورائى « رأيت من خلال اعمدة الاشجار المتراصة ألسنة اللهب المشتعل فى أطراف الغابة وهى تحترق .. وأدركت أن هذه هى النار التى أوقدتها قبل أن أدخل الغابة ، وكأنها جاءت تتعقبنى .. !

« ونظرت الى الموضع الذى كانت ترقد فيه « وينا » فلم أجد لها أثرا .. ولكن الحريق ومنظر فلول «المورلوك» الهاربة وصراخهم لم تدع لى فرصة كبيرة للتفكير ..

« وكان أهول من هذا كله قرقعة النار وهى تشب فى كل شجرة جديدة ، فأخذت القضيب الحديدى فى يدى ثم انطلقت فى أعقاب « المورلوك » ..

« وكان سباقا رهيبا .. ففى احدى مراحله اندلعت النار بسرعة الى اليسار .. واخذت اجرى لابتعد عن حصار النار ، وأخيرا وجدت نفسى فى مساحة خالية من الشجر . وعندئذ أبصرت أحد « المورلوك » قادما نحوى وهو يتخبط ، واجتازنى ثم ألقى بنفسه فى النار القاء !.

« ورأيت على كتف التل عند الغابة عن كثب من تلك الساحة نحو اربعين من « المورلوك » اعماهم الضوء ، وأطاشت صوابهم الحرارة الشديدة .. فراحوايتخبطون بعضهم فى البعض الآخر وهم يحاولون النجاة ..

« فلم أدرك لاول وهلة أنهم فى حالة عمى .. فانهلت عليهم بالقضيب الحديدى بكل وحشية ، أو على الاصح مدفوعا بجنون الفزع منهم ، فقتلت منهم بضعة وأصبت عددا كبيرا باصابات بالغة

« ثم فطنت الى ما هم فيه من عجز بسبب الضوء والحرارة .. نبهتنى الى ذلك أنات المختبئين منهم بأشجار العوسج الشوكية . وبعد فترة تضاءلت ألسنة النار ، فخشيت أن يعود البصر الى تلك المخلوقات فتهاجمنى

« وبدأت أفكر فى مهاجمتهم قبل خمود النار تماما لاقتل منهم أكبر عدد ممكن .. ولكن تأجج النار مرة أخرى أعفانى من تلك العملية . ورحت أجوب أطراف الغابة من الخارج بحثا عن أثر ينم عن « وينا » ولكنى بؤت بالخذلان ..

« واخيرا جلست على قمة التل ، وجعلت أنظر الى

تلك المخلوقات العمياء وهى تغدو وتروح مترنحة متخبطة وأصواتها المبهمة ترتفع .. أو أنظر الى السماء ذات النجوم

« وقد اعترضت نظرى الى السماء سحائب من الدخان الاسود ، لم تعرفها أجواء ذلك العصر من عشرات الاجيال. وخامرنى الاحساس بأننى عشت فى تلك الليلة تحت سلطان كابوس طويل ثقيل ..

« وجعلت أضرب الارض بقدمى ، واضرب وجهى وأقرص فخذى واصرخ كى أوقظ نفسى من هذا السبات الفظيع .. !

« واخيرا بدأت أضواء الفجر الاولى تطل من الافق الشرقى ، فانتهزت الفرصة وقمت لابحث مرة أخرى – لعلها الاخيرة – عن « وينا » . وكان من الواضح ان قانصيها اضطروا الى التخلى عن جسدها الصغير وسط الغابة المحترقة

« ولست أدرى كيف أصف لكم شعورى بالارتياح لان النار قد جنبتها ذلك المصير الفظيع الذى كان ينتظرها على أنياب « المورلوك » .. وكان هذا التفكير فى حد ذاته كافيا لاغرائى بالقيام بمذبحة انتقامية ، لولا أننى فكرت فيما ينتظرنى من مهام ذات خطر ..

غشاوة خادعة

« وفى ضوء الفجر ، من وسط تلك الرحبة القائمة على ذروة التل ، استطعت أن أرى بوضوح موضع قصر الخزف الاخضر .. وبناء على تحديد موقعى حددت الاتجاه فيه لاصل الى تمثال أبى الهول ، حيث تكمن آلة الزمن داخل قاعدته ..

« وبدأت السير ببطء نحو غايتى ، لان الاعياء كان شديدا ، ولان فقد « وينا » بهذه الصورة كان قد نال من معنوياتى .. فهذه الصديقة كانت المؤنس الوحيد لى .. وفقدانها كارثة لا تكاد تحتمل .. !

« وبينما أنا فى طريقى وضعت يدى فى جيب بنطلونى على غير هدى .. ووجدت هناك بضعة اعواد من الثقاب لابد انها تسربت من الصندوق قبل ان يستولى « المورلوك» عليه . وفرحت بها كثيرا لانها البقية الباقية من سلاح حضارى ، لولاه لما تمكنت من النجاة من شر تلك الجيوش المتوحشة من أكلة لحوم البشر ..

« وهأنذا الآن ادرك ما وراء تلك الغشاوة البراقة من جمال ذلك العالم العلوى وجمال أهله اللطاف الصغار . ما أشد العناية التى يلقونها ، وما الطف الايام التى يقضونها ! .. انها شبيهة فى كل شىء ، بأيام المراح فى المراعى التى ينعم بها قطعان الماشية . وهم كالماشية لا يعرفون ان لهم عدوا يترصدهم ، وأن نيته القاتمة تكمن

وراء رعاية ساهرة .. وكالماشـــية أيضا ينتظرها مصير هو نصل السكين وصحاف الطعام أو الاسنان التى تنهش بغير صحفة أو سكين .. !

« وفى نحو الساعة الثامنة او التاسعة » وصلت الى البقعة التى رأيت منها العالم امسية وصولى .. وفكرت فيما جال بذهنى فى تلك الامسية ، ولم استطع ان أمنع نفسي من ضحكات السخرية بما كان مستوليا على من الثقة ..

« وهأنذا اشرف على ذلك المنظر الجميل بعينـــه .. لم يتغير فيه شيء من نضار خضرته والتفاف نباته ،وعلى مرمى البصر قصوره البواذخ واطلاله وابراجه الشوامخ.. والنهر الفضى لم يزل كالعهد به صافيا رقراقا ينســاب بين ضفتين تزهوان بنباتهما الزاكى ..

« والاقوام الصفار « ايلوى » يخطرون ويطفرون بين الاشـجار البواسق ، والازهار البوائق ، رافلين فى أبهى حلل الوشى .. وفريق منهم يستحم فى ذلك النهر الذى انقذت فيه حياة « وينا » .. وقد احسست لتذكارها وخزة ألم وجيعة ، وعن بعد تناثرت تلك القباب النحاسية .. ومن تحتها المسالك المؤدية الى العالم السفلى ..

« وأحزننى أن ينتهى الى هذا المصير حلمنا الضـــخم بازدهار العقل البشرى .. فالعقـــل البشرى قد انتهى بالانتحار » خنق نفسه بالاستغراق فى الراحة والترف فى مجتمع متوازن مكفول الحاجات مأمون الغــوائل منتظم كالساعة المضبوطة ، فكانت نهاية البشر فيما سعوا الى تحقيقه من آمال مزوقة .. وكانت وفاة الذكاء اشبه بمن كوم الازهار مبالغة فى التأنق فخنقت انفاسه وهو نائم !

« لقد استطاع الانسان فى فترة من مراحل تاريخـه

المستقبل أن يؤمن الحياة وضروراتها تامينا مطلقا . . فاطمأن الغنى على ثرائه وترفه ، واطمأن الكادح على حياته وعمله. واختفت في تلك المرحلة بلا ريب مشـــكلة التعطل ، بل لم تعد هناك مشكلة اجتماعية بغير حل . . وأعقبت ذلك فترة هدوء ، أخلد فيهـــا البشر الى مناعم حيـــاتهم المطمئنة . . .

« ان للطبيعة قانونا ، كثيرا ما نغفله . . وهو أن ازدهار الذكاء ثمرة الخطر والقلق والكفاح في ســـبيل البقاء والامان . . فالحيوان الذى يعيش فى تكييف كامل مستقر مع بيئته ، لا يعدو أن يكون آلة حيـــــة خاملة الذكاء والابتكار . .

« فالطبيعة لا تلجأ الى الذكاء الا عنـــدما لا تغنى فى مواجهة الموقف العادة المألوفة والغريزة بطرائقها المعروفة . . ولذا فلا ذكاء حيث لا تغير . .

« ويختلف نصيب الحيوانات من الذكاء بقدر ماتحتاج الى مواجهته من صنوف الاحتياجات وأنواع المخـــاطر التى تطرأ على غير انتظـــار ، والمواقف ذات الطـــرافة والمفاجأة . .

« وها أنذا الآن أرى أهل العالم العلوى قد انحدروا الى هذا الوهن وتلك الرخاوة بناء على ذلك القانون . . وبناء عليه أيضا ، انحدر أهل العالم السفلى حتى صاروا أشبه بالآلات . .

« بيد أنهم بسبب ممارستهم للصـــناعة المتطورة فى آليتهم ، احتفظوا بشيء ضئيل من التفكير يتجاوز حدود العادة . .

« ولذا بقيت لهم السعادة والسيطرة على أهل العالم العلوى ، فلما انقرضت الماشية والحيوانات من وجـــه

الارض اتخذوا من « الايلوى » السادة السابقين موردا لطعامهم .. أو هذا على الاقل هو تفسيرى لما رأيته بعينى فى ذلك المستقبل السحيق ، وعساى أن أكون مخطئا ..

« وبجوار ذلك المقعد المصنوع من المعدن الاصفر، تمددت على العشب تحت أشعة الشمس الدافئة .. واستسلمت للنوم أسترد به شيئا من قواى المبددة ..

« ولم أستيقظ الا قبيل الغروب .. فتمطيت وهبطت جانب التل ميمما شطر تمثال أبى الهول الابيض . وفى احدى يدى قضيب الحديد ، وكنت باليد الاخرى أعبث بأعواد الثقاب فى جيبى ..

« وكانت فى انتظارى مفاجأة لم أتوقعها، فحينما اقتربت من قاعدة التمثال وجدت البوابات النحاسية مفتوحة .. وقد هبطت فى جيوب لها داخل الارض ، فوقفت أمام تلك المفاجأة مبهوتا وترددت كثيرا فى الدخول ..

« وكانت أشعة الاصيل تمدنى برؤية واضحة ، فرأيت داخل القاعدة حجرة فى أحد أركانها منصة ، وفوق المنصة آلة الزمن .. وكانت رافعتاها فى جيبى ..

« وكان الاغراء شديدا .. فبعد استعدادى الطويل المضنى لمحاصرة أبى الهول الابيض ، ها انذا اجد من « المورلوك » تسليما واذعانا .. فألقيت بقضيب الحديد بعيدا ، وانا لا أكاد أخلو من الاسف لان الظروف لم تتح لى أن أستخدمه بما يشفى غليلى ! ..

« وخطر لى خاطر مفاجىء ، وأنا أنحنى لادخل من احدى البوابات المنخفضة .. فأدركت طريقة تفكير اولئك «المورلوك » ، وكنت أضحك بصوت مرتفع سخرية من مكرهم الضحل ..

« وتقدمت بخطى ثابتة نحو آلة الزمن .. فأدهشنى أن أجدها قد نظفت وغذيت لوالبها بالزيت ، وأكاد اعتقد أن « المورلوك » فكوا أجزاء منها محاولين الوصول الى سر تركيبها

« وبينما أنا أرقب آلة الزمن بفرح وأفحصها ، حدث ما توقعته .. اذ أغلقت البوابات فجأة ، وانصفقت بصوت مرتفع فوجدت نفسى فى الظلام تماما .. وقد وقعت فى الفخ الذى نصبه لى « المورلوك » أو هكذا خيل اليهم .. فقهقهت ضاحكا !

« وتبينت فى الظلام صوت همهمتهم الضاحكة وهم يتقدمون نحوى .. وبهدوء حاولت أن أشعل عود ثقاب بحكه فى الجدران كى أثبت الرافعتين واختفى بين سمعهم وبصرهم كالشبح ، ولكننى كنت قد اغفلت حقيقة صغيرة .. وهى أن ذلك الثقاب الذى وجدته فى المتحف من النوع الامين الذى لايشتعل الا اذا حككناه فى صندوقه » !

« وفى وسعكم أن تتصوروا مدى ارتباكى ، وكيف تبخر هدوئى فى لمح البصر .. فهاهم اولئك الوحوش عن كثب منى ، وها هو احدهم يتحسسنى .. فضربته والرافعة فى يدى ، ثم ركبت آلة الزمن ..

« وأحسست بيد توضع على كتفى .. وتلتها يد ناعمة مثلها على رأسى ، وانا منصرف بيدى الى تثبيت الرافعتين فى موضعهما .. ولكن أحدهم استطاع أن يستخلص احدى الرافعتين .. فألهمت أن انطحه فى الظلام برأسى ، فسمعت لجمجمته رنينا .. وأفلتت أصابعه الرافعة ، فكانت تلك المعركة أشد خطرا من معركة الغابة بالامس ..

« وأخيرا استقرت الرافعتان فى موضعهما وحركتهما .

وبدأت الايدى تتراجع عنى ، وأخذ الظـلام ينجاب عن عينى .. وسرعان ما وجدت نفسى وسط خليط رمادى يجمع بين الضوء والظلمة على النحو الذى بينته فى رحلة الانطلاق من عصرنا ..

« وقد حدثتكم أيضا من قبل عن الغثيان والاضطراب اللذين يكتنفان السفر فى الزمن .. وفى هذه المرة كان الامر أسوأ من المرة الاولى ، اذ لم اكن مستويا فى جلستى ، بل ركبت حيثما اتفق تحت ضغط الموقف الحرج . وظللت وقتا لا أعرف مداه ، متشبثا بالآلة وهى تدور حـــول نفسها وتهتز ولا أدرى أين أتجه ..

« وقاب عنى أن أنظر الى مقاييس السرعة .. فلمـا ألقيت عليها نظرة ، وجدت مؤشر الوف الســنين يجرى بسرعة عقرب الثوانى فى ساعاتكم .. موغلا فى المستقبل ، فى مزيد من المستقبل !

« وعندئذ أدركت اننى كان ينبغى أن أحرك الرافعتين فى اتجاه مضاد .. ولكنى أحببت فى الوقت نفســـه أن ألقى ـ قبل تغيير الاتجاه الى الماضى ـ نظـرة على ذلك المستقبل التالى للعصر الذى عشت فيه بين « المورلوك » و « الايلوى » ..

« وأمعنت النظر .. ولكن السرعة الفائقة جعلت تداخل الضياء والظلمة سريعا ، ولم يكن يخفف منـه الا مروق شهاب أو مذنب فى عرض السماء ...

« بيد أننى استطعت أن ألاحظ ان الشمس صــار قرصها اكثر اتساعا واميل الى الاحمـرار .. اما القمر فتلاشى ولم يعد له أثر ، ثم اتضـــح ان الارض صارت تدور بوجه واحد حول الشمس دون وجههـا الآخر ، على غرار ما يفعل القمر الآن وهو يدور حول الارض ..

القسم الرابع

العودة إلى الحاضر

نظرة الى المستقبل

« لم أكن اكتفيت بما رأيت من ذلك المستقبل الكونى الموحش .. وبحذر شديد أخذت أعكس اتجاه آلة الزمن عن طريق الرافعتين . وأخذ مؤشر الوف السنين فى الابطاء الى أن كفت حركته تماما . أما مؤشر الايام فبدأ يظهر بعد أن كانت سرعة دورانه الفائقة قد جعلته خافيا عن نظرى .. ومع ابطاء مؤشر الايام أخذ الشاطىء الموحش يرتسم إمامى . واعتدلت فى مجلسى والقيت نظرة متفرسة على ما حولى ..

« فاذا السماء فى ذلك المستقبل الكونى الذى لا يحصيه عدد من السنين قد تغير لونها الازرق ، فالافق الشمالى الشرقى أسود حالك السواد .. تلمع فيه النجوم الشاحبة كأنها الثقوب فى ثوب أسود . أما فوق سمت الرأس فى كبد السماء ، فاللون أحمر قان .. ولا نجوم هناك . وفى الافق الجنوبى الشرقى كان اللون قرمزيا وهاجا ، فهناك ما تبقى من كتلة الشمس الضخمة .. وقد استقرت فى موضعها شديدة الاحمرار ..

« وصخور الشاطىء من حولى لونها أحمر كالح .. ولم آنس أثرا للحياة كما اعهدها سوى نباتات شديدة الخضرة تكسو الجانب الشرقى من كل نتوء فى الارض أو الصخر .. انه ذلك اللون الاخضر الذى يرى فى طحالب الكهوف أو النباتات المتسلقة فى الغابات حيث لا يصل

من الضوء الا أقل القليل ..

« وكانت آلة الزمن مستقرة فوق الشاطىء المنحدر، والبحر يمتد أمامها الى الجنوب الغربى وقد خلت من صفحته الموج .. لانه لم تكن ثمة نسمة واحـدة من نسمات الريح ، اللهم الا خفقة كأنفاس النائم بقيت دليلا على أن البحر لم تزل فيه حركة الحياة ..

« واحسست فى رأسى صداعا أشبه بوطأة الضغط المرتفع .. ثم لاحظت أن تنفسى صار سريعا للغـاية ، فذكرنى ذلك بحالة من يتسلق جبلا عاليا . واستنتجت أن الهواء صار أكثر تخلخلا مما هو الآن بكثير ..

« ومن بعيد فوق قمة ذلك المرتفع ، سمعت صرخة ثاقبة .. ورأيت شيئا أشبه بالفراشة الضخمة البيضاء يحوم فى الهواء ويحلق نحو السماء فى دوائر كبيرة الى أن اختفى بين التلال .. وكان الصوت موحشا ، جعلنى أرتجف وأتشبث من موضعى فوق آلة الزمن ..

« والقيت نظرة اخرى حـولى .. فتبينت أن كتلة الصخر الحمراء الكالحة القريبة منى أخذت تتحرك ببطء نحوى ، ثم اذا بها فى الواقع سرطان « آبو جلمبو » ضخم .. أو هو أشبه ما يكون بالسرطان الذى نعرفه حيوانا مائيا يخرج الى الشواطىء .. حجمـه أكبر من حجم مائدة كبيرة ، وارجله الكثيرة تتحرك ببطء شـديد ، وقرون استشعاره أشبه بالسياط وهى تتحرك وتتحسس الطريق ، وعيناه تتوهجان على جانبى جبهته المعـدنية الصلبه ، وظهره تتناثر فوقه حدبات ونتوء وقد تزركشت بلطخ خضراء متناثرة هنا وهناك ..

وبينما انا أحملق فى هذا الوحش الزاحف نحوى ،

شعرت بدغدغة هينة فوق خدى كأنما حطت عليه ذبابة .. فحاولت أن أطردها بيدى ، ولكنها لم تلبث أن عادت بعد لحظة .. ثم حطت أخت لها فى الوقت نفسه فوق أذنى

« وكانت دغدغتها فى هذا الموضع الحساس أشد ، فضربتها بيدى فى غيظ .. واذا بى امسك بشىء كالخيط ، واذا بالخيط ينسحب على عجل من بين أصابعى فالتفت مذعورا . وتبينت أننى قبضت على قرن استشعار سرطان متوحش آخر استقر خلفى تماما .. وعيناه جاحظتان فى محجريهما ، وفمه يتلمظ متحفزا ، ومخالبه الكبيرة مرتفعة فى الهواء تنقض نحوى ببطء

« وفى مثل لمح البصر ، كانت يدى على الرافعة .. وفى طرفة عين صار بينى وبين تلك المخالب مقدار شهر على الاقل ! .. ولكنى لم أزل على ذلك الشاطىء ، فلما أوقفت الآلة رأيت تلك الكائنات المتوحشة مرة أخرى بوضوح ، وكنت مرتفعا عن مستوى الارض .. فرأيت عشرات منها تروح وتجىء بين خضرة النباتات الداكنة ..

« وليس بوسعى أن أصور لكم مبلغ الوحشة الفظيعة التى ترين على العالم فى ذلك المستقبل الرهيب ، تحت سماء أفقها الشرقى أحمر ، ورقعتها الشمالية سوداء .. والبحر شبه ميت يمج الملح على الشواطىء أكداسا .. والشواطىء لا يعمرها من الكائنات الحية الا ذلك السرطان الوحشى الذى يقطر السم من نظراته ومخالبه ، ويكاد يقطر السم من خضرة النبات الداكنة .. والهواء هزيل التكوين تتأذى منه رئة الانسان ..

« ورحلت بمقدار مائة سنة .. ثم ألقيت النظر فاذا

الشمس كما هى حمراء ، والبحر على مواته والهواء على تخلخله .. والسرطان الوحشي يملأ وجه الارض بين العشب الاخضر والصخر الاحمر،فحركت الرافعة وارتحلت حقبة اخرى الى الوراء ، وجعلت اسافر ساعة ثم اقف برهة فتأتى وقفتى على مراحل من ألوف السنين .. ومصير كوكبنا الارضى يشغل بالى ، ويعذبنى بتسقط أخباره وتتبع اطواره ..

« ورأيت الشمس تستعيد شيئا من بهائها ووهجها الناصع .. ثم رأيت الحياة تدب على وجه الارض . وعلى بعد نحو ثلاثين مليون سنة من عصرنا هذا ، أبهجنى ان تختفى من وجه الارض ظلال السرطان المتوحش . وحركت الرافعة ، وزدت من معدل السرعة .. وقد استبد بى الشوق الى الحياة كما نعهدها .. !

***

« وهكذا أيها السادة عدت .. ولابد أننى قضيت وقتا طويلا مغشيا على فوق مقعدى بآلة الزمن ، فتوالى الليل والنهار بسرعة فائقة مع اشتداد التفاوت بين الضوء والظلام أثر على خلايا أعصابى .. ووجدت نفسى حين أفقت اتنفس بمزيد من الراحة ، ورأيت الشمس قد استردت لونها الذهبى وسط سماء زرقاء . ومن حولى ظلال البيوت والشوارع .. ونظرت الى مؤشر المسافات ، فوجدت رقم الملايين قد انتهى ، وعلمت اننى ازحف الى العصر الراهن .. فأبطأت من سرعة الآلة قليلا ، وبدأت اتبين انماطا من العمارة ليست غريبة كل الغرابة ..

« وقليلا قليلا ، اقترب مؤشر السنوات من الصفر وهو نقطة الانطلاق .. وعندئذ تراءت لعينى جدران

معملى كما أعهدها ، وبحذر وعناية أوقفت الآلة ..

« وعاد الى هدوئى شـيئا فشيئا .. ورحت افحص دقائق المعمل ، فاذا بها على ما كنت أعهدها .. فداخلنى الارتياب وقلت لعلنى غفوت وانا جالس الى مكتبى . ولا يعدو الامر كله أن يكون حلما رأيته فى المنام ..

« وهناك مسألة تقطع بأن ما رأيته لم يكن حلم نائم!.. لأنى انطلقت بالآلة من الركن الجنوبى الشرقى لمعملى . وعند الاياب استقرت بى الآلة هذه المرة فى الركن الشمالى الغربى .. والمسافة بين الركنين هى بالضبط المسافة بين موضع هبوطى فى عالم المستقبل على العشب وبين قاعدة تمثال أبى الهول التى خبأ فيها « المورلوك » الآلة، ومن هذا الموضع كان انطلاقى فى رحلة الاياب ..

« وبمعنى آخر ، تحول المكان الذى فيه معملى فى سنة ٨٠٢٧٠١ الى موضع بعضه عشب .. وفى الطرف منه تمثال أبى الهول فوق قاعدة من البرونز ، فأنا عندما انطلقت من الـركن الجنوبى الشرقى وحططت فى ذلك المستقبل فى نفس موضع انطلاقى ، كان الموضع قد تحول الى خميلة معشبة. ونقل « المورلوك » آلة الزمن مقدار عشر خطوات داخل قاعدة تمثال أبى الهول ، ومن هناك انطلقت راجعا الى الحاضر . فحططت فى نفس موضع انطلاقى من ذلك الزمن . وكان هذا الموضع لا يبعد الا الخطوات العشر عن نقطة الرحيل الاولى من هنا .. اى من الزمن الحاضر ، وذلك الموضع هو الركن الشـمالى الغربى من المعمل ..

« وظل ذهنى راكدا كالماء الآسن برهة من الوقت ، وانا بين الشك واليقين .. ثم نهضت وجئت مخترقا

هذا الدهليز ، وأنا أعرج لان عقبى لم يزل يؤلمنى .. وفيه ورم خفيف من السير المجهد والمسمار الذى اخترق النعل البالى ..

« ورأيت على مائدة فى الدهليز بجوار الباب العدد الاخير من مجلة « بول مول » فنظرت فى تاريخ صدوره فاذا به تاريخ اليوم . ونظرت الى ساعة الحائط ، فاذا بها تشير الى قرب الساعة الثامنة .. وسمعت اصواتكم، وصليل الصحاف ..

« وخطر لى لأول وهلة أن أدخل .. ثم ترددت لانى كنت أشعر بدوار وغثيان واعياء شديد ، ولكن أنفى حسم الامر نيابة عنى .. لأن رائحة الشواء الجيد نفذت الى خياشيمى ، ففتحت عليكم الباب .. وأنتم تعلمون بقية القصة ، وكيف اغتسلت ثم جئت فتعشيت .. وهاأنذا أخبركم الآن بقصتى

حصيلة الرحلة

واستطرد رحالة الزمن قائلا :

« وانى لاعلم ان ذلك سيقع منكم موقع الانكار ، وانكم لن تصدقوا شيئا مما رويته لكم عن تلك الاسفار .. أما انا فالذى يعز على تصديقه شيء واحد هو انى موجود هذه الليلة فى هذه الحجرة المعهودة ، انظر الى وجوهكم المشرقة بالمودة واقص على مسامعكم تلك المغامرات العجيبة .. »

ووجه رحالة الزمن نظراته الى رجل الطب ، ثم قال له :

ـ كلا ! .. ليس فى وسعى أن اتوقع منك التصديق لما قلت .. فخذه ان شئت على محمل الاكذوبة .. وان شئت أيضا فعلى محمل النبوءة . وقل لنفسك ان هذا كله ان هو الا حلم حلمته وأنا فى معملى .. أو قل اننى كنت أفكر فى مصائر جنسنا البشرى وكوكبنا الارضى ونظامنا الشمسى . وظللت ماضيا مع التفكير والتقدير الى أن أفرخت هذه القصة . ولك أن تعتبر اصرارى على صدق ما قلت ، بمشابة قالب فنى أقدم فيه لكم مضمون فكرتى بطريقة طريفة مشوقة باعثة على الاهتمام ، ولكن ما رأيك فيما رويته كقصة ؟ ..

وتناول بعد ذلك غليونه ، وشرع على قديم عادته يدق

به سياج المدفأة المعدنى بحركة عصبية . وساد الصمت التام برهة من الوقت ، ثم بدأت الكراسى تتحرك والاحذية تحتك بالبساط .. فرفعت عينى عن وجه رحالة الزمن ، وأجلت طرفى فى وجوه الحاضرين . وكانوا جالسين فى الظل .. ورجل الطب يبدو مستغرقا تمام الاستغراق فى تفحص مضيفنا رحالة الزمان ..

أما رئيس التحرير ، فكان يثبت نظراته الثاقبة على طرف سيجاره .. وهو سيجاره السادس فى تلك الجلسة وأما المخبر الصحفى ، فكان يفتش فى جيبه عن ساعته .. والباقون فيما أذكر كانوا ساكنين عن كل حركة وكل تعبير

وأخيرا نهض رئيس التحرير واقفا وهو يتنهد ثم قال ، واضعا يده فوق كتف رحالة الزمن :

ــ من المؤسف أنك لا تحترف كتابة القصص !

ــ ألا تصدق ما قلت ؟ ..

« وابتسم رئيس التحرير ابتسامة ذات مغزى ولم يجب .. فقال الرحالة وهو يلتفت الينا :

ــ هذا ما كنت انتظره .. ولكن أين الثقاب ؟ ..انى فى الحقيقة اكاد لا اصدق نفسى .. ومع ذلك ..

وأعطاه أحدنا صندوق الثقاب ، فأشعل غليونه ثم القى نظرة تساؤل غامض على الازهار الذابلة التى اخرجها عند وصوله من جيبه ، وقال انها من أزهار المستقبل . ثم قلب يده التى يمسك بها الغليون ، وأخذ ينظر الى ندوب كادت تلتئم عند مفاصل أصابعه .. المفروض

انها من آثار معارك تلك الرحلة فى المستقبل

ونهض الطبيب ووقف تحت المصباح يفحص الازهار ثم اظهر عجبه من غرابة تكوينها .. وانضم اليه العالم النفسانى فى الفحص ، ثم وقف المخبر الصحفى وقال :

ـ ان الساعة تقترب من الواحدة صباحا .. فكيف نصل الى بيوتنا ؟ ..

فقال له العالم النفسانى ان عربات الاجرة كثيرة عند المحطة .. وهز الطبيب رأسه ثم قال :

ـ انى عاجز تماما عن معرفة النظام الطبيعى لهذه الازهار .. فهل تسمح لى بها ؟

وظهر التردد على رحالة الزمن ، ثم هتف فجأة مظهرا اعتراضه على خروجها من حوزته .. فسأله الطبيب :

ـ أين حصلت على هذه الازهار حقيقة ؟

فرفع رحالة الزمن يده الى رأسه ، وتكلم بطريقة من يجتهد فى التمسك بفكرة تراوغه وتتملص فعلته منه ، قائلا :

ـ وضعتها فى جيبى « وينا » وأنا مسافر فى المستقبل .. ان منظركم ومنظر الحجرة يكاد يطير صوابى . فهذا المنظر متصل بماضى حياتى كله ، ويتحالف مع ذاكرتى متآمرا ضد فترة رحلتى فى الزمن .. فهل صنعت حقيقة آلة الزمن ، أم ما صنعته هو مجرد نموذج لها ؟. انهم يقولون ان الحياة حلم ، بل وحلم هزيل فى بعض الاوقات .. ولكن ليس فى وسعى أن أتحمل فى داخل هذا الحلم حلما يناقضه ولا يأتلف معه ، لان هذا هو الجنون بعينه . ولكن من أين جاء هذا الحلم العجيب ؟.

يجب ان ألقى الآن نظرة أخرى على تلك الآلة .. ان كان ثمة آلة !

ووثب واقفا ، فأمسك بالمصباح الموضوع على المائدة ، وحمله بسرعة وقد اشتد احتقان وجهه .. ثم اخترق الباب المفضي الى الدهليز .. ونهضنا كلنا على أثره ..

وهناك .. فى ضوء المصباح المترنح رأينا الآلة قائمة لاشك فى أمر وجودها وهى ذات منظر قبيح .. بعض أجزائها من النحاس الاصفر ، والبعض الآخر من خشب الابنوس الاسود .. وفيها قطع من العاج ومن الكوارتز اللامع ..

وكأنما لم أصدق عينى .. فمددت يدى وجعلت أتلمسها ، فلم تكن وهما .. فهى صلبة الملمس . وتحققت من وجود لطخ بنية اللون أشبه بالطين على بعض أجزائها . وكان فى العاج خدش يدل على الاحتكاك .. واما الاجزاء السفلية فكانت عالقة بها أجزاء من العشب الاخضر والطحالب . وأحد القضبان كان ملتويا من أثر الارتطام بشىء ..

ووضع رحالة الزمن المصباح فوق مكتبه ، ثم تحسس بيده ذلك القضيب الملتوى .. مر عليه من أوله الى آخره فى تؤدة ، ثم انتصب قائما وقال لنا وقد زال من صوته ونظراته كل أثر للحيرة والتردد :

ــ الآن وضح كل شىء أيها السادة .. وانى آسف لانى أتيت بكم الى هذه القاعة الخالية من التدفئة

ثم تناول المصباح .. وفى سكون تام عدنا جميعا الى قاعة التدخين ..

وبعد قليل صحبنا الى البهو الخارجى ليودعنا ..

وأعان رئيس التحرير على ارتداء معطفه . ونظر الطبيب فى وجه الرحالة نظرة فاحصة ، ثم قال بعد شيء من التردد :

ـ انك مرهق من الاسراف فى العمل والسهر والتفكير ..

فضحك الرحالة ضحكة مجلجلة ، اعرابا عن عدم اكتراثه .. وانى لاذكر تماما منظره وهو واقف على عتبة باب داره من الخارج يلوح لنا بيده ويتمنى لنا ليلة سعيدة ..

وركبت عربة أجرة شاركنى فيها رئيس التحرير .. وكان رأيه الصريح ان القصة كلها « كذب فى كذب » .. أما أنا فكنت فى الحقيقة عاجزا عن القطع برأى . فهناك أشياء كثيرة فى لهجته وطريقة روايته توحى بالصدق . وكيف أنسى شدة لهفته وهو يلتفت بقلق ليسألنا عن صندوق الثقاب وهو يريد أن يشعل غليونه ؟ انها لهفة انسان مر بتجربة قاسية ، كان عود الثقاب فيها ذا اهمية بالغة الخطورة ! .. وقد يكون فيصلا بين الحياة والموت . وليس فى ظروف معيشتنا اليومية فى هذا العصر ما يبرر أدنى تبرير تلك اللهفة العميقة ! ..

ان القصة بلا شك أغرب من كل خيال .. ولكن أسلوب سردها خال من المبالغة ، وفيه ما يوحى بالصدق وليس فيه شيء يشعر بالتزييف

زهرتان ذابلتان

وفى دارى ، وعلى فراشى ، رقدت معظم الليل مفتوح العينين أفكر فيما سمعته تلك الليلة من ذلك الصديق العالم غريب الاطوار • ولم يطمئن خاطرى حتى قطعت على نفسى عهدا بان ازوره فى اليوم التالى لالقى نظرة أخرى على آلة الزمن ، وأجتمع بصديقى رحالة الزمن لاستوضحه .. ولعل المقابلة تحسم ما أعانيه من بلبلة ..

وفى اليوم التالى ، ذهبت لزيارته فعلا .. فقيل لى انه فى معمله . ولما كنت ممن يترددون على الدار بغير كلفة ، فقد تركونى أمضى اليه هناك .. ولكنى وجدت المعمل خاليا • وجلست انتظره قليلا وانا احملق فى آلة الزمن ، ثم اتجهت نحوها ومددت يدى فلمست احدى روافعها .. واذا بهذه الكتلة الضخمة الثقيلة من الآلات والاجهزة ترتجف كأنها غصن صغير فى مهب ريح عاتية ..

وأزعجنى ما حدث جدا .. لانه ذكرنى على الفور بتحذيرات أمى وأنا صغير من مد يدى الى شىء مجهول لا شأن لى به . وخرجت مسرعا الى الدهليز ، فالتقيت برحالة الزمن وجها لوجه فى قاعة التدخين .. وكان قادما من جهة حجرات البيت ..

ورأيت فى يده آلة تصوير صغيرة .. وتحت ابطه حقيبة

شـــــبيهة بحقائب الجنـــود . فلما رآنى أشرق وجهه بالضحك ، وقال :

ـ انى كما ترى مشغول جدا . . .

ـ بم ؟ . . .

ـ بذلك الشيء اللعين الموجود فى معملى . .

فضحكت وقلت :

ـ تعنى اختراعك العجيب : آلة الزمن ؟

ـ طبعـا . . .

فنظرت اليه مليا ، وقلت بجد :

ـ اتعنى أن المسألة ليست من اولها الى آخرها نوعا من المـــزاح ؟

ـ اطـلاقا ! . .

ـ هل تريد أن تقول انك حقا ترحل وتجـوب آفاق الـزمن ؟

فثبت عينيه فى عينى بنظرة صريحة وقال :

ـ انى حقا وصدقا أجوب آفاق الزمن . .

ثم ظهر عليه التردد قليلا ، وأجال عينيه في أرجاء قاعة التدخين وقال :

ـ أستميحك في نصف ساعة فقط . .

ـ لا تقيد نفسك بى . . انى كنت على وشك الانصراف

ـ أوه . . كلا . . انا أعرف السبب الذى حدا بك الى الحضور . .

ـ حقـا ؟! ..

ـ ومعنى هذا أنك تريد أن تصدقنى وتأخذ الصـدق مأخذ الامكان ، ولا تلقى بالقصة كلها فى عرض الطريق .. انك تطلب دليلا يساعدك على تصديقى لأنك راغب فى ذلك التصديق . وهذا كرم عظيم منك .. وعندى هنا عدد من المجلات ، تسـتطيع أن تقضى الوقت فى تصفحها .. فلو انك تكرمت بالبقاء لتناول الغداء معى لاتحت لى أن أقدم لك الدليل الدامغ على ذلك السفر فى الزمن ،مدعما بأسانيد من نماذج النباتات والصور الشمسية .. وربما ايضا بنماذج من الكائنات الحيـة ، فقد آتيك بأحـد « الايلوى » من فصيلة « وينا » فهل لك أن تأذن لى الآن فى مغادرتك

وأعترف أننى لم افهم المغزى الكامل لكلماته ، كأنما كنت واقعا تحت تأثير مغناطيسى من حماسته .. فقد وافقت على البقاء . وأومأ لى الرحالة برأسه ، ثم اجتاز الدهليز متجها الى معمله ..

سمعت باب المعمل وهو يصفق .. فاخترت مقعـدا وثيرا من مقاعد التدخين وجلست فيه ، ثم تناولت احدى الصحف اليومية الكثيرة وانا أقول لنفسى :

ـ ترى ما الذى ينوى أن يفعله هذا الرجل فى الفترة السابقة على موعد الغداء ؟ ..

وفيما انا أقلب الصـحيفة فى يدى ، وقع نظرى على اعلان عن احدى دور النشر .. فذكرنى ذلك عـلى الفور بوعد ارتبطت به أن أذهب لمقابلة الناشر «ريتشاردسون» فى مكتبه فى تمام الساعة الثانية .. فنظرت فى ساعتى ،

وأدركت انى يجب ان أنصرف على الفور لأصل فى الموعد المذكور .. فلا يمكننى أن أبقى لتناول الغداء ..

وفى الحال نهضت واخترقت الدهليز كى اخبر رحالة الزمن بالتغيير الذى طرأ على خطتى ..

وما أن وضعت يدى على مقبض باب المعمل حتى سمعت صيحة تعجب .. وكأنما خنق هذه الصيحة عن الاسترسال شيء ، وسمعت حركة احتكاك معدن بمعدن .. واهتزت الارض قليلا ، ولفتنى دوامة من الهواء وانا أفتح الباب .. وهبت من الداخل اصوات تحطم الزجاج من أثر ارتجاج الارض والبناء . وتناثر حطام الزجاج على الارض .. ولكن رحالة الزمان لم يكن موجودا بالداخل ..

وخيل الى أنى أرى شكلا غير واضح ، وكأنه شبح فوق قمة كتلة من النحاس والمعدن الاسود تدور فى الهواء بسرعة . وكان الشكل فى مجموعه شفافا ، بحيث ان المكتب وما عليه من أوراق ورسوم كان ظاهرا لعينى بوضوح من خلال تلك الصورة .. فجعلت أفرك عينى بأصابعى لاتحقق مما أرى ، بيد ان هذه الصورة الشبحية تلاشت عند انتهائى من فرك عينى واذا بآلة الزمان قد اختفت !

ودققت النظر فى موضعها حيث رأيتها عند حضورى منذ دقائق .. فلم أجد فى ذلك الركن من المعمل شيئا سوى دوامة من الغبار توشك أن تهدأ ، ومن فوقها مربع كبير من زجاج نافذة السقف وقد تحطم

وانتابتنى دهشة لا يتصورها العقل .. وأدركت أن

شـــيئا عجيبا للغاية قد حدث ، ولكنى لم أستطع التكهن بماهية ذلك الشىء ..

وفيما أنا واقف أحملق مبهوتـــا ، فتح بـــاب المعمل المفضى الى الحديقة ودخل الخادم .. ونظر كل منا الى الآخر ، ثم ثاب الى شىء من الرشد فسألته :

ـ هل خرج السيد من هذا الطريق ؟ ..

ـ كلا ياسيدى .. لم يخرج من هذا الطريق ..

وكنت قادما الى هنا لاتحدث الى السيد فى أمر ما ..

وعندئذ أدركت أن صديقى انطلق فى رحلته الثانية .. وقررت المجازفة بسخط الناشر « ريتشارد ســـون » وعولت على انتظار عودة رحالة الزمن ، مزودا هذه المرة بالنماذج والصور الفوتغرافيـــة .. ولـــكنى اخشى أن انتظارى سيطول الى نهاية العمر ، لان اختفاء رحالة الزمن دام حتى الان ثلاث سنين .. !

***

وليس فى وسع الانسان الا أن يعجب ويتساءل :

ـ أتراه سيعود يوما ؟ ..

لعله فى هذه المرة اقتحم الماضى .. ووقع بين براثن أجدادنا المتوحشين فى العصر الحجرى .. فأكلوه ، أو أمعن فى الماضى فتلقفته الحيوانات المنقرضة من طبقـــة الدناصور .. أو لعله رحل الى مستقبل قريب يبعد عنا ألفا أو ألفين من السنين ، فوجد البشر ما يزالون هم البشر .. ولكن مشكلاتنا جميعا وجدت حلهـــا الموفق عندهم ، فآثر البقاء على العودة .. !

لقد كان هذا على الاقل هو ايمان صديقى .. فقد كان مسرفا فى التفاؤل بالعلم والحضارة الى حد التشـــاؤم المطلق .. كان يرى أن الحضارة ستصل الى مداها من التنظيم العلمى بحيث تنقلب بفعـــل التـــرف والراحـــة والاستقرار الى الانحلال والاضمحلال .. أما أنا فالمستقبل فى نظرى مظلم لا يحصل فيه البشر على شىء من النور الا بالجهد الجهيـــد ، ولا يتغلبون على مشكلة الا وتنجم مشكلة اخرى تحتاج الى علاج ..

ان قصة صديقى لا تلقى من الضوء على غياهب المستقبل الا شعاعا ضئيلا جدا .. وكل ما بقى عندى من دليل على هذا الشعاع يريح بالى ، ويحد من طغيان الشك فى صدقه، زهرتان غريبتان بيضاوان .. أو هكذا كانتا ، فهما الآن شىء جاف داكن اللون ..

ولست أنسى ، حين أذكر هاتين الزهرتين ، تذكارا أبقى منهما واقوى على مقابلة الذبول والجفاف ، هو الاحساس الذى يملأ قلبى بالامتنان والرقة الشديدة لذلك الانسان الذى تغلب فيه حب المعرفة وحب البشريه على حب الراحة الشخصية وحب البقاء ..

فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــــراق :	السيد محمـــــــود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد
اللاذقيـــــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــــدة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣
البحـــــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١
البـــرازيل :	Dr. Michel Tohmé, Rua Basilio Jafet No. 127, 5" and Sal 54, SAO PAULO — BRASIL
ســـيراليون :	Messrs. Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Siera Leone
ســـنغافورة :	M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit, Almaktab Attijari Assharqi, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجـــلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU, 7, Bishopsthorpe Road, London S. E. 26, ENGLAND
نيجـــيريا :	Mr. Mohamed Said Mansour, Atlas Library Company, 126, Nnamdi Azikiwe Street LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

ان العصر الذى نعيش فيه لا يصدق عليه وصف أدق من وصفه بعصر الفضاء ، فان اسم عصر الذرة لم يعد كافيا للتطور الجديد الذى طرأ على مجرى تيار العلم والحضارة .. ولئن كان جاجارين هو أول رائد لرحلات الفضاء فى الواقع ، فان ويلز من أوائل رواد الفضاء فى عالم الفكر وبمنطق العلم

وكتابه هذا رحلة فى دنيا المستقبل ، لم يرحل فيه الى اجواز الفضاء ليستقر فى كوكب آخر ، بل رحل فيه ليشق أحقاب الزمن ويحطم حاجزالوقت

وهو فى رحلته هذه يقوم بدور البشير النذير ، فيصور فىسياق قصصى رائع وتشويق بديع مايمكن ان يصل اليه الجنس البشرى مع تقدم العلم السريع .. وينبه الى الاخطار التى تترتب على الاسراف فى الفوارق الاجتماعية ، وكيف يمكن أن تؤدى الى انحلال الانسانية وانحدارها الى درك احط احيانا من درك الحيوان البهيم ..

تاريخ الحب

ورسائله الخالدة

بقلم ابراهيم المصرى

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصـدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٤٢ ـ شعبان ١٣٨٢ ـ يناير ١٩٦٣

No. 142 — JANVIER 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربيـة المتحدة والسـودان جنيـه واحـد ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العـربى بالبريد البحرى جنيـه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١ر٧٨٠ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

تاريخ الحب

ورسائله الخالدة

بقلم

ابراهيم المصرى

دار الهلال



تقديم

الحب الصحيح عاطفة تلهب فينا خصائص القوة من حيث لا ندرى . فاذا كنا فقراء هزأنا بالجوع وتحدينا القدر ، واذا كنا بلهاء تفتقت اذهاننا واضطرمت فينا شعلة الذكاء . واذا كنا كسالى سرى الدم الحار فى عروقنا واقبلنا على العمل بعزم دائب عنيد ... وعندئذ نحمل ثمار العمل والجهاد ونلقي به عند قدمى محبوبنا . فينظر الينا المحبوب مبهورا ويقبلنا .. فنشعر فى تلك اللحظة ان هذا المحبوب العزيز القاسى هو الذى رفعنا وبدلنا واحيانا جعل منا نحن البشر الضعاف عمالقة وابطالا . فالحب الصحيح قوة لا تنشد المتعة الحسية فقط ، لان المتعة المجردة هى تبذل وتدهور وانانية . اما الحب الصحيح فجهاد وبذل وتضحية .. لهذا لا يثبت على الحب الصحيح الا كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون وطلب الملذات ، وكان فى طبعه وخلقه وروحه من المكتفين المتعففين الاقوياء . وكلما كان الانسان فقير العقل محدود افق الفكر والخيال ، كان شهويا وحسيا واقرب فى حبه الى الفطرة البهيمية . وكلما كان مستنير الفكر ، موفور الثقافة ، واسع أفق الخيال ، كان اكثر استعدادا الى الحب العاطفى ، وادنى الى اعتبار الحب علاقة لا تربط بين جسدين الا لتؤلف بين قلبين وعقلين وروحين فى عالم معنوى رائع تنعكس فضائله على الاسرة والمجتمع كله .

فالفكر يهذب الفطرة ويؤثر فى الجسد ، كما أن انعدام الثقافة والفكر يطلق الفطرة من عقالها ويجعل الانسان عبدا للجسد

بهذه الروح اهتدينا فى جمع مواد هذا الكتاب . وقد عرضنا فيه تلخيصا مركزا للمؤلف الشائق الذى وضعته الكاتبة الفرنسية « مارسيل تينير » عن « تاريخ الحب » ، وطائفة مختارة من أشهر رسائل الحب الخالدة ، وبعض قصص عالمية تعتبر من اروع قصص الحب فى الادب الغربى ، وبهذا يتم للقارىء استجلاء سر عاطفة الحب الابدية ، والوقوف على شتى العوامل التى ساهمت فى تكوينها ، ومتابعة تطورها وارتقائها منذ فجر التاريخ حتى اليوم

ابراهيم المصرى

الباب الأول

تاريخ الحب

عن كتاب
للكاتبة الفرنسية
مارسيل تينير



ما هو الحب؟

ان الحب العاطفى كما نفهمه اليوم ، لم يولد مع الانسانية كالجوع والظمأ والخوف والرغبة الجثمانية المحضة . والواقع ان الانسان الاول فى عصر المغاور والكهوف ، كان يخضع لغريزته الاصلية وكان يرضى عن نفسه متى امتلك الانثى امتلاكا طبيعيا عاديا . وكانت المرأة الاولى ذات الثدى المترهل والخاصرة العريضة تعيش تحت حماية الرجل وتطلب هذه الحماية مدفوعة الى ذلك بمتاعب الجنين الذى تحمله فى احشائها أو بمتاعب الحمل والوضع والارضاع . وكانت خاضعة للرجل كل الخضوع ، لا تتبرم بعبوديتها ولا تشعر بها ، لان الرجل كان شبيها بالحيوانات لا يضطهد امراته ولايعذبها ولايستبد بها الا متى فكر فى اختطافها وحيازتها لنفسه

والحقيقة ان اجتراء الزوج على التنكيل بامرأته وضربها، لم يظهر الا بعد أن قطعت الانسانية شوطا من الحضارة

ونحن مانزال نشهد حتى اليوم أزواجا يضربون زوجاتهم فيقول البعض منا ان هؤلاء الازواج قد عادوا الى حياة الفطرة وارتدوا الى قانون الطبيعة . ولكن هذا محض خطأ .. لان النمر لا ينكل بالنمرة والاسد لا يستبد

باللبؤة ، والمشاهد على النقيض أن القطة العاشقة هى التى تخدش بأظفارها أنف القط وهى التى تنكل به لتثيره وتجذبه اليها

وعليه ففى غضون الزمن الذى قضاه أسلافنا فى المغاور يحيون حياة الفطرة ، كانت العلاقات بين الجنسين بسيطة غير معقدة ..

كانت تتلخص فى المطاردة ، ثم الامتلاك ، ثم الحمل ، ثم الوضع ..

ولم يكن فى وسع الرجل والمرأة أن يتشبها بالحيوانات، فينفصل الواحد منهما عن الاخر بعد الانتهاء من تربية أولادهما وبعد أن يشب هؤلاء الاولاد عن الطوق . وذلك لسبب بسيط وهو أن الطفل لا يكبر بسهولة ولا يترعرع بين يوم وليلة ، ولا بد للأب والأم من السهر الطويل عليه حتى ينمو ويشتد ساعده ..

فالوالد كان والحالة هذه مضطرا الى حماية الام ، أو الى حماية الامهات زوجاته ، لانه كان يكثر فى الواقع من الزوجات ويتنبه آخر الامر الى أنه قد أعقب منهن عددا كبيرا من الأبناء ..

وكانت نساء الرجل فى العصور الأولى أشبه بقطيع مقدس . وكان مستقبل القبيلة منوطا بهن . وكان الزوج ولا شك يحبهن ، كما تحب الاشياء اللطيفة الثمينة التى يشتهيها الآخرون والتى جعلتها العادة ضرورة

ولقد زعم بعض الرحالة المستكشفين أن الغوريلا الافريقى يمتاز بكونه زوجا صالحا وأبا طيبا ، وأنه يبنى وكره فى الأغصان العالية ويحمل فى هذا الوكر عائلته

ويظل هو تحت الشجرة ساهرا عليها متأهبـــا للدفاع عنها

وفى استطاعتنا أن نعتقد أن الرجل الأول كان على هذه الشاكلة ، ولكنه لم يكن شبيها بالغوريلا لانه كان لا يعرف البساطة المطلقة التى يتمتع بها ذلك الحيوان

كان الرجل الأول يفكر ولا ريب او يجتهد فى التفكير والتروى . وكان يتلون ويتقلب ويستنكر نظام الاشياء ، ويطلب أحسن مما فى يده وهو لا يســـتطيع أن يعين فى شكل واضح حقيقة ما يطلب

وهكذا تطور هذا الرجل مدفوعا بسلطان عقله ، وتاقت نفسه الى معرفة الأسباب التى أوجدته ومعرفة المصير الذى سوف ينتهى اليه .. فتولد فى قلبه الشـــعور الدينى ، فشاد الهياكل لآلهته واخترع الفنون وهو يحفر الصخر ويشذب الاخشاب . وكما ابتدع الفن ابتدع الحب العاطفى أيضا

ففى اليوم الذى عدل الرجل الاول عن اختطاف الانثى الشابة ، وآثر أن يستميلها بالحسنى ويقدم اليها عقدا من العظم أو القواقع كى تعطف عليه وتمنحه ذاتها « من تلقاء نفسهـــا » فى اليوم الذى تمنى الرجل الاول أن يفوز من الانثى بابتسامة أو دعابة أو شبه احساس يدل على أنها عطفت عليه ومالت اليه بمطلق حريتها ، فى ذلك اليوم انبثقت عاطفة الحب وولدت من صـــلب البهيمية الوضيعة الاولى

وهذا طبيعى .. لأن الحب فى الاصل يقوم على التفضيل والايثار ، على تفضيل شخص على آخر تفضـــيلا يجهل

العقل بواعثه وأسبابه . ومن هنا كانت قوة الحب وتعلقه المفاجيء وسرعة تقلبه أيضا ..

ولكن تفضيلنا شخصا معينا يتطلب من هذا الشخص ان يفضلنا نحن أيضا على سوانا ليتم الحب .. فهـــذا التفضيل المتبادل يستلزم حرية فى الاختيار ، وحرية فى القبول والرضا

واذن فالرجل المتوحش الأول أراد على مر الزمن ان تختاره المرأة بملء حريتها .. أراد أن ينعم بهـــذه اللذة الجـــديدة .. أراد أن يعتقد ان المرأة اختـــارته لانه أقوى واجمل من سواه .. وهكذا ابتدع الحب ، وآراد أن يكون محبوبا ..

وشعرت الأنثى أن هـــذا الانقلاب جاء فى مصلحتها ومصلحة جنسها ، فماذا فعلت ؟ اســـتغلت موقف الرجل .. ارادت ان تزيده تعلقا بها فتمنعت وتدللت وأعرضت وتركت عقد العظم الذى قدمه اليها بصـــفة هدية ، يقع منها ، ثم فرت واختفت خلف الاشجار وقبعت هنـــاك وظلت تنظر الى الرجل وهو مقبل عليها ، وقد ثارت ثائرته واحتدمت كبرياؤهوعصف بهالغضب.. ولما دنامنها وقبض عليها قاومته واجترأت عليه وفعلت كما تفعل الهرة ، أى خدشته بأظافرها فى أنفه . ثم استسلمت له ولسان حالها يقول :

ـ أنت أجمل وأقوى وأفضل من الآخرين ! ..

وصدقها الرجل .. أما هى نفسها فلم تعـرف حتى الآن مبلغ صدق عاطفتها فىتفضيل رجل على رجلوانسان على انسان !

وهكذا ولد الحب أو جرثومة الحب الذى عرفته الانسانية فيما بعد ، وكان فيه فرحها ومنه شقاؤها .. !

وكان لا بد من انقضاء قرون طوال قبل أن يتخذ الحب المظهر الذى ألفته الحضارة الحديثة .. والواقع ان كل زمن وكل جنس وكل شعب ، جلب الى عاطفة الحب طابعا جديدا وأضفى عليها لونا معينا ولغة خاصة ..

والغريب أن كل عاشق حاول أن يخلق الحب خلقا جديدا ويبدعه ابداعا مستقلا يتفق مع أهوائه وميوله .. ومع ذلك فقد ظل الحب هو هو لا يتغير ..

ظل غريزة جنسية تجملها افانين الخيال وتخفف من حدتها ، وتحمل الانسان على تناسيها أو نسيانها ..

ولقد عرف الروائى « بلزاك » الحب بأنه « شعر الحواس » وقال عنه العلامة « لويس مينار » انه « طفل يريد أن يولد » ووصفه الفيلسوف « شوبنهور » بأنه « شرك نصبته للانسان غريزة النوع » . ولكن أليس فى وسعنا أن نقول بكل بساطة ان الحب هو المخيلة الشعرية مضافة الى الغريزة ؟ .. الحق ان الغريزة الجنسية ، أو غريزة النوع ، تكفى لنصب الشرك الذى يقع فيه الرجل والمرأة والذى يدفع بهما الى انتاج النسل . ولكن هناك حبا يظل حيا بين الرجل والمرأة ، بدون انتاج نسل ، وبدون أن تسيطر عليه غريزة النوع .. هناك حب يتغذى من نفسه ، ويعيش من المخيلة الشعرية والفنية أضعاف ما يعيش من غريزة النوع . بل ان غريزة النوع قد تهدمه ، وانتاج النسل قد يقضى عليه . كما نشاهد ذلك فى بعض العائلات التى قام فيها الزواج على أساس مادى محض ،

وبمعزل عن عاطفة الحب كما بسطناها باعتبارها وحدة مؤلفة من الغريزة والمخيلة أى من المادة والروح ..

وليس شك فى أن الحب يؤثر الفوضى على النظام ، ويفضل الحرية على التقيد بنظام الزواج وفروضه الثقيلة التى لا علاقة لها بالحب . ولكن الحب لا يسمو ولا يرقى ولا يرتفع الى فضائل الحنان الرائع والتضحية العظيمة الا فى دائرة الزواج الصالح ، حيث تفتر حدته الهدامة ، ويستحيل مع الزمن الى شبه صداقة ثمينة مفعمة بشعور التفاهم والولاء ..

ولقد تفرعت من عاطفة الحب عواطف أخرى أحدثت أبلغ الأثر فى حياتنا المتحضرة .. تفرعت منه عاطفة العفة عند النساء ، لان المرأة التى تحب حقا لابد أن تعف عن الرجال جميعا ما خلا الرجل الذى تحب . وتفرعت منه أيضا عاطفة الغيرة ، لا الغيرة التى كان يعرفها الانسان المتوحش والتى تنحدر من الشهوة ، بل الغيرة العقلية التى نشعر بها عندما نبصر المرأة التى نحب تمنح عطفها وحنانها ورقتها لرجل آخر ..

وتفرعت من الحب فوق ذلك عاطفة التسامى بالغريزة البهيمية والرغبة فى كبحها والارادة الصادقة فى الاتجاه بالحب نحو عالم أنقى وأطهر من هذا العالم ..

واذن فالحب ، بما تفرع عنه من عواطف رائعة ، ساعدنا على التحضر وساهم فى تهذيب نفوسنا وأجبرنا كلما قطعنا شوطا جديدا فى ميدان التحضر ، على نسيان أصله الوضيع وعلى اعتباره سرا أو معجزة !

فالرجل المتحضر حقا يؤخذ بالجانب الروحى من الحب وقد يتصل بالله نفسه على ضوء الحب ، وقد يقوم بأجل

وأخطر الاعمال مهتديا بهذا الحب ..

والحقيقة أن الرجل المتحضر لا يكتفي بالعلاقة الجنسية أبدا .. بل ينظر الى ما وراءها ، الى ما يمكن أن تسفر عنه من سمو الحياة وارتفاع بالنفس من حضيض الارض الى رحبات السماء ..

فبوساطة الحب الروحانى المسيطر على قوى الغريزة ، يطمح الانسان المتحضر الى التفوق على نفسه وطبيعته من طريق احتمال الألم والاقدام على التضحية والمثابرة على الولاء والاخلاص والتطهر من رذائل المواربة والختل والنفاق ، وهكذا يتقدم شيئا فشيئا نحو البحث عن الفضيلة المثلى أى عن الله !

الاباحية البغيضة ..

كان أهل القرن الثامن عشر فى فرنسا يؤمنون بنظريات جان جاك روسو ، ويعتقدون بأن الانسان الطبيعى المتوحش هو انسان طيب ، وأن زنوج افريقيا لا يختلفون عنهم الا فى اللون فقط . وكانوا لا يقومون برحلات يتحققون فيها من صدق هذه النظرية أو فسادها . فلما هبط بحارة «بوجانفيل» الى جزيرة « تاهيتى » وشاهدوا الأخلاق والعادات فيها أدركوا أن حياة الشعوب البدائية لا تمت الى حياتهم بأية صلة ..

تحققوا أن البكارة لا وجود لها ، وأن ولاء المرأة للرجل واخلاص الرجل للمرأة أشياء مستغربة لا تشرف صاحبها كما تشرف الفرد المتحضر ..

تبينوا أن العفة لا أثر لها وأن الحكم للغريزة الطاغية العمياء ، فعدلوا نظرتهم الى الانسان البدائى وأدركوا أنهم قد قطعوا شوطا بعيدا فى ميدان التحضر ..

أبصروا العلاقات الجنسية فى تلك الجزيرة متراخية واللذات سهلة والاباحية المرذولة منتشرة .. فأدركوا أن سهولة اللذات تقتل اللذة وتقتل الحب لأنها تمزق ذلك الثوب التخيلى الشعرى الجميل الذى يخلعه المتحضر على غريزته الحيوانية ليهذبها ويسمو بها ..

وفى الحق ماذا يصبح الحب اذا انتشرت الاباحية البغيضة ، وكانت كل النساء لكل الرجال ؟ ماذا يصبح الحب ، وكيف يتم الاختيار ، وكيف يتحقق التفضيل ، وكيف ينشأ بين الرجل والمرأة ذلك الاخلاص العميق المؤدى الى شتى الفضائل ؟ ..

لاشك أن الحب يظل رغبة جنسية تموت بمحض ارتوائها ، ولاتنتج للمجتمع أى فضيلة ..

وحيث لا يكون الحب العاطفى القائم على التفضيل والاختيار ، ينعدم احترام المرأة وتفقد كرامتها ..

والدليل على ذلك أن قبائل الاسكيمو التى لا تعرف الحب ، تقدم نساءها هدية للضيوف وتكريما لهم ، وان قبائل البوشيمان تتناسل فيما بينها دون ما قاعدة أو قانون ، ولا تعرف الزواج ولا تعرف العائلة لأنها لاتعرف الحب ، وكذلك كانت قبائل الهنود الحمر القديمة أيضا ..

ولقد ذكر الرحالة « كارفر » أنه شاهد فى أمريكا الشمالية فى احدى قبائل الهنود الحمر ، امرأة متوحشة غنية وقوية البدن عرضت نفسها بمقتضى عادة قديمة للزواج من جملة رجال دفعة واحدة . ولكن من الخطأ أن نسمى مثل هذه العلاقة زواجا لانها لا تلبث أن تنعقد

حتى تنحل بمحض رغبة الاقوى والاغنى من الطرفين ..

والذى لا شك فيه أن الشعوب التى فشت فيها عادة اقتران المرأة بعدة رجال ، هى شعوب لاتكاد تعرف الحب ولا نظام الاسرة ولا يمكن أن يستقيم فيها هذا النظام ، لان حب المرأة لازواجها لا يمكن أن يكون غير ضرب من ضروب غريزة الملكية فى أوضح أشكالها ..

والواقع ان المرأة – سواء اباعتها أسرتها للرجل ، ام اختطفها الرجل بعد معركة شكلية أو حقيقية كما يحدث فى بعض القبائل – لابد أن تصبح بعد الزواج عبدة للرجل ، لا حقوق لها على نفسه وقلبه . وعندئذ تضطر هذه المرأة للكذب والنفاق والتذرع بالدهاء والحيلة واستخدام محاسنها ومكرها الطبيعى للتغلب على الرجل ان استطاعت ، والاحتفاظ به لنفسها بأية وسيلة ما دام يرفض أن يحبها ويبادلها العواطف ويعترف لها بحريتها فى منح ذاتها

وعلى الرغم من كل هذا ، فالمرأة تتمتع عند بعض زنوج افريقيا بحرية نسبية نظرا لانصرافهم الى نوع من الحياة الزراعية شبه المتحضرة .. هؤلاء الزنوج يعرف الابناء منهم كيف يحترمون أمهاتهم، ويعرف الرجل كيف يتعلق بامرأته أم أبنائه ، ويعرف أفراد الأسرة كيف يتضامنون لانجاز العمل أو اتقاء الخطر . وقد لا يكون عطف هؤلاء الزنوج المقرون باحترامهم للمرأة هو الحب ولكنه على كل حال عاطفة أرقى من الغريزة واحساس أسمى من مجرد الشهوة ..

وهذا هو الفارق بين البدائى والمتوحش ..

فهؤلاء الزنوج ، ولا سيما زنوج السـنغال مثلا ، جاوزوا طور التوحش وأصبحوا بدائيين . وأما أولئك الذين أشرنا اليهم سـالفا ، فما يزال معظمهم فى طور التوحش الأول يعالج أحكام الغريزة ويجاهد للفـكاك منها ..



الحب فى مصر والشرق

منذ العصر الذى نقشت فيه أول الرسوم على الأحجار ، حتى العصور التى عرفها التاريخ ، وسجل حضاراتها القديمة ، تنبسط منطقة كبيرة مجهولة يبدو انها خالية من الاحداث . ولقد احتفظ التاريخ من العصر القديم بظواهر امتازت بها مصر منذ عهود الاسر القديمة .. وأهمها تكريس النساء لخدمة اله الحب أو الهة الحب . وهذا التكريس الدينى تقدم الزواج ، وحدد نظاما خاصا للنساء اللاتى كن ملكا مباحا لجميع رجال الطائفة أو القبيلة .. كان أبناء المرأة أبناء الجميع . وكانت صلة النسب ترجع الى المرأة لا الى الرجل . وكانت أرق وألطف عاطفة يتمثل بها عاشقان هى عاطفة الحب بين الأخ والاخت

ولقد كان العاشق فى مصر القديمة ينادى معشوقته ب « يا أختى » وهى اذ تخاطبه تقول : « يا أخى » .. وكل الشعر المصرى الغرامى القديم ينحصر تقريبا فى هذه الاخوة المضطرمة ..

وتطور المجتمع المصرى ، وظهر الزواج .. وكانت المرأة المصرية اذ ذاك مميزة عن جميع اخواتها الشرقيات واكثر منهن تمتعا بحريتها . كانت تتمتع حتى وهى

متزوجة بحقها فى التصرف بثروتها . وتحمل اسما خاصا معناه « سيدة البيت » . وكانت لا تسكن مع زوجها بل تستقبله فى بيتها هى كضيف مفضل ممتاز . ولكنها كانت تقبل ان يكون لزوجها عدة زوجات غيرها ، تحيا كل منهن فى بيتها المستقل . وأما ابناء هؤلاء النساء ، فكان يعترف بهم جميعا كأبناء شرعيين . وكان المصريون يحاولون اقرار العدل بين نسائهم ، رغبة منهم فى ضمان السعادة بعد الموت فى الحياة الأخرى ..

ولم تكن العلاقات الغرامية عند المصريين القدماء علاقات هوى مشبوب يمازجه القتل وسفك الدماء بل علاقات جنسية طبيعية يلطف من حدتها نوع من الحنان المداعب الرقيق ، كما تدل على ذلك اشعارهم التى كشف العلماء عنها ..

كانت أثواب الفتى والفتاة شفافة رقيقة ، وكانا لا يجهلان سر العلاقة الطبيعية . وانى لأتصورهما . . اتصور الفتاة المصرية شبيهة بمغنية معبد آمون ، اتصورها كالفتيات اللاتى رأيتهن فى صعيد مصر دقيقات التقاطيع رقيقات الملامح مكحلات العيون باسمات متفززات ..

اتصورها مثلهن ، واحاول ان آبعثها واضفى عليها غلالتها الشفافة القديمة التى يبرزمنها عنقها اللين وتتراءى من خلالها اوضاع بدنها الغض ..

احاول احياءها ، فأناولها القيثارة رسمت عليها مختلف الوجوه وشتى العصافير .. ها هى ذى حية ! وها هى ذى تغنى قصيدة من الشعر المصرى القديم .. فاستمع اليها تقول :

« يا صـــديقى الجميل .. اتمنى أن اعيش واياك كامرأتك ..

« أتمنى ان تضـــع ذراعك على ذراعى وتمضى وفق هواك . وعندئذ أشكو لقلبى المحبوس فى صـــدرك كل آلامى ..

« لو انك يا اخى الاكبر لا تزورنى الليلة فلابد أن اصبح كسكان القبور ..

« أولست أنت الصحة والحياة ؟ اولست انت حامل الفرح والصحة الى قلبى الذى يبحث عنك ؟ ...

« ان جماهير الاطيار تتلاقى على النهر ، ولكنى أنصرف عنها ولا أفكر الا فيك يا غـــرامى .. لأن قلبى معقود بقلبك أنت ! »

هذا ما غنته الفتاة المصرية العاشقة فاســـمع الآن اغنية الفتى المصرى العاشق :

« اريد أن أرقد فى حجرتى لانى مريض بسببك ولان الجيران قد وفدوا لزيارتى

« آه لو ترافقهم اختى ، اذن لاستطاعت رد الاطباء عنى لأنها وحدها تعرف سر مرضى ! »

هكذا كان العشاق فى مصر القديمة، يتبادلون الشكوى ويمزجون الاغانى بالورود والأطيـــار .. كان البط والسنونو واليمام يرفرف ويطير من خلال أغانيهم التى لا تمتاز بعظمتها ولا بعمقها ، بل بمـــلاحتها الســـاحرة ورقتها العميقة وعذوبتها الفاتنة ..

ولم يكن حظ الفارسيات والأشوريات والكلدانيات سعيدا كحظ المصريات اخواتهن .. كان الاستبداد شائعا فى تلك الممالك ، وكان جبابرتها يسحقون الشعوب كما تسحق فى الخابية حبات العنب .. وكانت نساؤها جد شقيات تعسات ..

ولقد تمتعت المرأة الكلدانية فى عهد بعيد بشىء من الاستقلال والحرية .. ولكن هذه الحرية لم تدم ..

تبدل طابع الزواج فكان الرجل يشترى المرأة ويعتبرها متاعا له ..

كان فى وسع الكلدانى أن يطلق بمجرد كلمة يقولها .. وكانت الزوجة تلقى فى الماء متى تجاسرت على انتهار زوجها فى ساعة غضب ..

وأما المرأة الزانية ، فكان يقطع رأسها أو تطرد ويلقى بها شبه عارية أمام الباب يستبيحها من شاء دون رحمة ..

ولكن الزوجات الموسرات كن يتقين هذه الاخطار ، بفضل مالهن ويستخدمن كتابا مهرة يعرفون كيف توضع فى عقود الزواج بعض نصوص تفسر على الدوام فى مصلحة الزوجة ..

وكان ملوك تلك البلاد يقترنون بالنساء ، ثم يغدرون بهن ويسلمونهن الى الجلاد .. كانوا من كبار الصيادين وكبار القتلة ، وأشكالهم المنقوشة على جدران قصورهم والبارزة منها عيونهم الوحشية الكبيرة وأثوابهم المجعدة ومظهرهم المروع ، وهم يسحقون أعداءهم تحت عجلات مركباتهم الحربية ، لا تبعث فى نسائنا عاطفة الأسف على أنهن لم يعشن فى تلك العصور حيث كانت المرأة تطرد أو

تذبح بعد أن يقضى الرجل منها لبانته ..

ومع ذلك فقد عرفت قصور نينـــوى وبابل ملكات عبقريات وضعن نعالهن الموشـيات بالحرير على رءوس ملوك كانت ترتعد أمامهم الفرائص ..

فالملكة اتوسا أخضـــعت الجبار قمبيز ، والملـــكة استريت سحرت لب الملك المزهو المريض كزرسيس ، واليهودية استير عرفت كيف تغزو قلب الملك احشورش



الحب عند الاغريق

استولت الدهشة على أول فوج من السياح الاغريق الذين زاروا مصر القديمة عندما شاهدوا المرأة المصرية. ولما عادوا الى بلادهم ، بالغوا كثيرا فى وصف ما شاهدوه على ضفاف النيل ، وقالوا ان المرأة المصرية سيدة مطلقة فى بيتها وأن الرجل متى تزوجها اقسم على طاعتها والاخلاص لها ..

وقد ترتب على هذه الدعاية ان حسدت الاغريقيات نساء مصر ، وتمنين لو استطعن الحياة على غرارهن ..

وكانت الاغريقيات محجبات فى البيوت على مثال الآسيويات فى دور الحريم . وكان الرجل الاغريقى غيورا كل الغيرة على حقوقه كمواطن ورب عائلة ..

ولم تكن لنساء الاغريق اذ ذاك اية حقوق عامة .. وكان رجالهم ينظرون نظرة الاستنكار الى اختلاط الجنسين فى لاسيديمونيا ، واشتراك الفتيات والفتيان فى الرقص والالعاب الرياضية . وكان ليكورجوس يرى فى هذا الاختلاط عاملا من عوامل تخفيف حدة الشهوات ورقى العادات والاخلاق ، وحفز الشبان الى التمسك بالعفة عن طريق الالعاب الرياضية . ولكن رجال الاغريق فى مختلف المدن الاخرى ، كانوا يرون غير هذا الرأى ولا

يؤمنون بتلك العفة التى لا حياء لها والتى لا تتحقق الا من طريق اختلاط الجنسين

وكانوا يربون المرأة الاثينية لتكون زوجا صالحة تسهر على اعمال البيت وتحتجب فيه .. ولم يكن يسمح الا للرجال أقاربها بالدنو منها والتحدث اليها ..

فهل كانت تفكر اذ ذاك فى الحب ؟ .. وفيم كانت تفكر ؟ ..

كانت تسترسل فى تأملات العزلة ، وكانت الاغانى والاساطير وقصص الآلهة تقوم عندها مقام الروايات آلتى تطالعها أو تشهدها النساء اليوم ..

ولاشك أن المرأة الاثينية كانت تلمح اثناء زياراتها لاقاربها أو صديقاتها عددا من الشبان ذوى الجمال الرائع ، ولكن التحدث الى هؤلاء الشبان كان متعذرا عليها . ومع ذلك فقد كانت لفرط عزلتها واحتجابها وتطلعها الى الحياة ، تسعى لمعرفة أسماء أولئك الشبان وأنسابهم ومواهبهم والنجاح الذى أحرزوه فى ميادين الالعاب الرياضية .. فكان ينتهى بها الامر الى الاقتران بواحد منهم ..

وكانت الاثينية تقبل على حياة الاسرة بنفس متأهبة للعطف والحنان ، لانه لم يكن فى مقدورها أن تتصور الحب دون زواج أو تختار بنفسها الزوج الذى تريد ..

كانت مهيأة للزواج بدون حب ، وكان والدها هو الذى يختار الزوج ويجبرها على قبوله فى بعض الاحيان حرصا على مصلحتها .. كما تفعل طائفة كبيرة من الآباء حتى اليوم

ولم يكن مسموحا بالتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولم يكن فى وسع الاثينى أن يقترن بغير الاثينية .. وكان لا يرث الوالد غير أبنائه الشرعيين ، وكان لا يعترف بأبناء المحظيات والمشيقات والسرارى ، بل يجتهد فى حماية الزواج الشرعى خدمة للعائلة نفسها ..

فالزوج الشرعى كان رئيس الاسرةوسيدها .. وكانت الزوجة تتولى شئون البيت ، وتبذل قصاراها فى الاحتفاظ بقلب الرجل واخضاعه لسلطانها .. تارة بالحيلة وتارة بالصياح والبكاء والاعتماد المطلق على محاسنها . وكان معظم أولئك الازواج ذوى القوةوالبأس فى ميادين القتال ، يستسلمون لزوجاتهم فى البيت طلبا للهدوء والراحة ثم يطلقون العنان لنزواتهم فى الخارج متى سنحت الفرص ..

كانوا يخدعون زوجاتهم لان الزواج لم يكن قائما على الحب ، ولان التعارف بين الخطيبين كان محظورا قبل الزواج ، ولان فكرة الزواج نفسها كانت بعيدة عن الحب كل البعد ...

ومع ذلك فقد كان يحدث أن يتولد الحب اتفاقا فى دائرة الزواج ، فيتم تقارب القلبين ويعيش الزوجان فى سعادة كما عاش ادميت والسيست ، وهيكتور واندروماك ، وفيليمون وبوسيس ..

ولقد قص علينا كزينوفون حكاية زوجين تمت لهما سعادة الحب .. حكاية المواطن الشريف ايشوماك الذى تحدث الى الفيلسوف سقراط عن زواجه ، وكيف انه اقترن بفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها فما زال بها يعلمها ويهذبها ويرشدها الى واجباتها البيتية ويهديها

الى خير طريقه تدير بها أمواله وتعامل بموجبهـــا خدمه وعبيده ، حتى أصبحت مثال المرأة الطيبة العاقلة الكاملة، وأدركت أن زوجها ليس بسيدها بل صديقها وأنها امرأة لها عقل وكرامة واحساس ..

والبديع فى هذه القصة أن روح المساواة بين الرجـل والمرأة ، وان اختلفت وظائفهما ، تتجلى فيها بأكمل معانيها .. فالزوجة كانت معجبة بزوجها الذى قدرها ، حريصة على طاعته ومرضاته ما دام ينشد سعادتها ..

والزوج كان يعتـــرف بشخصيتها ويخلص لهـــا .. ويتسامح معها فى مبدأ الامر ، متى ارادت تجميل وجهها بالمساحيق ، ثم يراجعها فى لطف ويجتهد فى اقناعها بأن جمـــالها الطبيعى أوقع فى نفسه ، وان اغتســــالها بالمـــاء النقى يزيد فى بهائها ويجعلها كالزهرة جلاها الندى ..

لقد فهمته الزوجة الشــــابة آخر الامر ، واذعنت لـــه واحست الحب والسعادة بقربه.. فأصبحا يمثلان الحب الزوجى كما ينشده الناس فى ربيع الحياة ..

ولكن كلّ الازواج فى ذلك العهد ، لم يشبهوا ايشوماك فى سعة عقله وحسن حظه ..

كان بعضهم يضــــجر من حياة البيت ، أو من رفقة زوجة لم يعرفها قبل الزواج ، أو من قرب امراة دميمة اقترن بها بدافع المصلحة ، أو من معــــاشرة أنثى غـــاض شبابها وعجلت الحياة الزوجية بشـــيخوختها .. فكان يغادر البيت ويقضى معظم الاوقات فى الخارج يتحدث الى المواطنين فى الشئون السياسية أو يقصـــد ــ متى كان موسرا ــ الى دور البغايا ..

وكان البغاء شراً كبيراً ، ونظاماً بغيضاً ، ونتيجة محتومة لأسلوب الزواج عند الاغريق ..

وكان الزواج المجرد من الحب والمعقود بين شخصين يجهل أحدهما الآخر ، مؤدياً في أغلب الاحيان الى انطلاق الزوج في فسحات العشق المحرم بين النســاء المتبذلات صائدات القلوب وبائعات الهوى ..

وكانت البغايا ذكيات العقــل ، ماهرات ، خبيثات ، يعرفن كيف يخاطبن الرجل المتعلـــم والشــاب الغنى والفيلسوف الكبير والفتى الوارث المغــرور الذى ينفق عليهن عن سعة ثم يبوء منهن بالصد والاعراض ..

ولقد حدث فى عهد الاغريق أن وجد بين أولئك البغايا نفر من النسوة الممتازات بالعقل النابه والفـــكر المتوقد والاحســاس القوى ، والرقة العاطفية الثمينة ، كاسبازيا التى عشقها بريكليس وتدله بها وطلق امرأته وتزوج منها .. ثم أحبها غاية الحب ، فكان لا يخرج من بيته الا آسفا على فراقها ولا يدخله دون أن يقبلها · وكان ســــقراط يزورها ويعجب الاعجاب كله بدماثة أخلاقها وحسن ذوقها ولمعان ذهنها ..

ولكن اسبازيا كانت نادرة بين أترابها .. وتفوقها بعقلها وذكائها لا يدل على أن نظام الحياة الزوجية الاغريقية كان صالحا ، أو على أن الرجل الاغريقى كان يجد فى مجتمع البغايا شيئا آخر غير الضعة والاســفاف والتعرض لشر المخاطر النفسية والبدنية ..

الحب عند الرومان

كانت روما ، فى عهد ملوكها الاولين ، لاتحفل بالحب على الاطلاق

كانت الزوجة تغزل الصوف ، وتحرس الدار ، وتجل زوجها اجلالها لوالدها

ولقد ظل الطلاق قائما من الوجهة النظرية نحو ٢٣٠ سنة ، ولكن أحدا من الرجال لم يفكر فى الانتفاع به والالتجاء اليه

كانت الزوجة الرومانية تابعة لزوجها ، ولكنها كانت من الوجهة العملية أكثر حرية من المرأة الاغريقية وأوثق اتصالا بحياة زوجها

كانت مواطنة مثله ، تقاسمه نفس البيت ، وتستقبل اصدقاءه ، وتهتم بحياته العامة وما يدور فيها . وتشعر شعورا بالغا بما عليها من واجبات ، وتعيش فى شبه فضيلة صارمة حازمة

ومن المعروف أن الرومانيين كانوا يخلصون للدولة كل الاخلاص ، ويضعون الدولة فوق كل شيء .. وكان الجنود منهم والمتشرعون وأرباب الاسر يحيون حياة متقشفة قاسية ، ويقتصدون حتى البخل ، ولا يعبدون غير القوة

لم يكن لهم شعراء ولا فنانون . كانوا رجال تشريع وتنظيم وقتال فحسب

ولقد ثارت منهم اليونان فيمابعد عندما انتصروا عليها، فانتشرت بينهم الاخلاق والعادات الاغريقية فأسرفوا فيها فأفسدتهم وعجلت بانحطاطهم .. وأما الشعراء فقد ظهروا فى روما بعد أن تغلبت روما على اليونان . وكان أولئك الشعراء أنفسهم تلامذة اليونان ، واما أرباب الفنون فكان معظمهم من صميم اليونانيين

والحق أن قيصر لم يكن مثلا أعلى فى الفضائل البيتية وكذلك أوكتافيوس .. ولقد استطاعت كليوباترة المصرية الاغريقية ذات الانف المتقلص الصغير ، والسحر النسوى النادر ، والذكاء العقلى المضطرم ، أن تفوز بحب قيصر ردحا من الزمن ، وأن تخضع لفتنتها ماركوس انطونيوس مدة طويلة ..

ويعرف القارىء ما وقع لذلك القائد الجميل ، وكيف كان مصيره بعد أن ضحى بشرفه كجندى ومواطن رومانى فى سبيل معشوقته كليوباترة

لقد غمرته بسحرها الشرقى ، وأوقدت أعصابه ، وافنت ارادته ، وعرفت كيف تتجدد على الدوام فى عينيه وتكون عدة نساء فى امرأة واحدة .

هكذا كانت المرأة الشرقية . أما الرومانية فكانت شديدة الصرامة باعثة على الضجر ، لاتحسن أخذ الرجل والتسلط عليه اذا ما قيست بالمصرية .

فعندما ترآمت اخبار كليوباترة الى روما ، أسىء فيها تفسير أخلاق نساء الشرق واعتقدت الرومانيات أن ظرف

المرأة الشرقية وفتنتها وقدرتها على امتلاك قلب الرجل. فضائل سلبية لاترمى الا الى التمتع ولاتنشد غير اللذة

ساد فى روما هذا الاعتقاد الخاطىء عن نساء الشرق ، فأرادت الرومانيات الاقتداء بهن فخرجن على تقاليد بيئتهن وطرحن العفة جانبا ، وعبثن بالفروض الزوجية وسخرن منها ومهدن لعصر الانحطاط

ولقد كانت ابنة قيصر أغسطس نفسها مضرب المثل فى فساد الاخلاق ، حتى أن والدها عجل بنفيها من البلاد ليحجب عاره ويخنق فضيحته

وتداعت المبادىء العالية شيئا فشيئا ، وتراخت العادات ، وانهارت التقاليد ، واختفت روح الصرامة القديمة ، وشاع الاستخفاف بفضائل التقشف والاحتمال والقوة ، وعم الفساد الطبقات الرفيعة التى كان يتطلع اليها الشعب ويهتدى بهديها ويتخذ من أسلوب حياتها مثلا أعلى ..

وهكذا دبت جراثيم التحلل فى جسم المجتمع الرومانى ، وأصيب رأس المجتمع بالمرض ، وشرع الكتاب والنقاد فى لفت النظر الى الخطر المحدق بالدولة والمنحدر من قادتها وعظمائها والممثل فى قصور الأباطرة ولا سيما فى بلاط نيرون الذى كان يشبه دارا واسعة حشد فيها رهط هائل من الهستيريين !

وكانت نتيجة هذا الاستخفاف المروع بكل فضيلة . وهذا السير المطرد الحثيث نحو الانحطاط ، ان استفاق الرومانيون ذات يوم واذا بهم يسمعون صليل أسلحة البرابرة على حدود امبراطوريتهم ؛ ويشعرون ابلغ شعور وأعمقه ان ليس فى مقدورهم الدفاع عن هذه الامبراطورية وانها صائرة حتما الى الفناء والعدم !

الحب والمسيحية

عندما آذنت شمس المجد الرومانى بالمغيب نشأت المسيحية . وكانت فى أول عهدها تلمع كمصباح محجب داخل الكنائس السرية وفى أعماق السراديب . ولم يكن فى وسع الرومان أن يميزوا بين الطوائف الدينية المتحمسة التى كانت تفد عليهم من البلاد الاسيوية . كانوا يفتحون لها أبواب المدن الرومانية ، ويستقبلونها فى شبه فضول بمازجة الترفع ، ويسمحون لها بالتجمع والتكاثر فى العاصمة على شرط الا تهدد النظام الرومانى القائم

ولكن سرعة انتشار المسيحية واقبال الناس — ولاسيما الطبقات الشعبية — على اعتناقها ، بعد تزعزع الاخلاق وانهيارها فى روما ، أشعر الرومانيين أن المسيحية اصبحت خطرا على نظام الدولة

من هنا نشأت روح الاضطهاد التى عصفت بالمسيحيين، وأودت بنفوس الكثيرين منهم حتى جاء عهد الامبراطور قسطنطين فأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى

وكان هذا الدين الجديد قد احتل على وجه خاص قلوب النساء ، وتمكن من أرواحهن ومشاعرهن لكثرة عدد الذين استشهدوا فى سبيله . والواقع أن المسيحية حملت الى العالم القديم فكرة واضحة عن الحب الروحانى ،

حب النفس البشرية لخالقها ، وحب الانسان لأخيه الانسان

وزاد فى قوة هذه الفكرة ، ان زعم بعض المفكرين ان اصولها موجودة فى العقائد الافلاطونية وفى مذهب الافلاطونية الجديدة الذى كان شائعا فى ذلك العصر

وهكذا انعكس الحب المسيحى على الحب البشرى الطبيعى ، وخلع عليه حلة من نوره ، وجمله وسما به . فأصبح هذا الحب احساسا شبه صوفى ، يوحد بين قلبين الى الابد ، وانفصل تمام الانفصال عن ذلك الحب الجثمانى الانانى الذى يرمى الى التمتع باللذة فقط ، والذى اعتبره آباء الكنيسة خطيئة كبرى

وكان علماء الكنيسة وجماعة الزهاد المسيحيين يقولون ان المرأة هى مبعث الشر والفساد ، فحذروا الشباب منها ومن قوة الاغراء المتمثلة فيها والمؤدية الى الخطيئة ..

وكان الحب فى نظرهم خطيئة ، ما دام لا يكلل بالزواج ، ولا يقتصر على امرأة واحدة

وافضى بهم خوفهم من جاذبية المراة ، وحبهم التقشف والزهد ، الى الحملة على فكرة الجمال نفسها وعلى مباهج الترف وأسباب النعيم التى تمتاز بها الحياة المتحضرة . وكانوا يفرون من الشهوة ، ويكبحون نزوات أبدانهم ، ويهرعون الى الصحارى تخلصا من شبح المرأة .. ولكن هذا الشبح كان يلازمهم ، ويعكر عليهم صفو تأملاتهم

مجدوا البكارة والطهر أعظم تمجيد ، ولم يسلموا بضرورة

الزواج الا كعلاج لضعف الجسد . وكانت الكنيسة تقدر الزواج وتعظمه ، وتجعل منه سرا دينيا ، وتريده اتحادا طاهرا نقيا تحف به الامانة الزوجية المتبادلة ويتوجه النسل . ولكن الكنيسة كانت تحرم الطلاق ، وتستنكر زواج الارمل والارملة متي كان لهما أبناء ، وتتقدم الى الشباب عامة بفكرة علوية عن الحياة الزوجية ، وتنادى بأن اللذة الجثمانية غيرمسموح بها فى هذه الحياة الا لانها الطريق الوحيد المؤدى الى الابوة المباركة

فالعفة والحالة هذه كانت المثل الاعلى . ولذلك كرم المسيحيون العذراء واقاموا تمثالها على هياكلهم . وظهرت اذ ذاك اعراض جديدة فى الحياة العامة ، بدلت الاخلاق والعادات القديمة تحت تأثير المسيحية ابلغ واتم تبديل ...

ظهر أزواج احتفظوا بطهارة ابدانهم فى صميم الحياة الزوجية ، وأحب بعضهم بعضا حبا عاطفيا خالصا كملائكة اطهار ..

ظهر جمع من البغايا أردن الاقتداء بمريم المجدلية ، فندمن على خطاياهن وجاهدن لمحو ذنوب شبابهن بالتطلع الى الحب الالهى الاسمى ..

ظهرت جماعات كثيرة لعنت الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة ، وآثرت القبح على الجمال ، والحزن على الفرح ، والالم بالغا ما بلغ من الشدة على ملذات البدن والحواس

وهكذا احست المرأة أنها مخلوق ممتاز شديد الخطورة ، واسع السلطان ، يمثل الملك متى كان طاهرا ويمثل الشيطان متى كان فاسدا منحطا ..

وراق المرأة ان تكون تارة زنبقة من زنابق الفردوس ،

والاخرى زهرة من أزهار جهنم ، فمالت الى المسيحية : باحساسها ، وشعرت ان هذا الدين الجديد يقدس العاطفة التى هى منبعها ، ويحمى فى دائرة الزواج الابدى مستقبلها ، ويبدل الحب ويتسامى به ويجرده من غلظته . فآمنت به وتغيرت شخصيتها على مر الزمن تحت تأثيره ، واستفاض هذا التأثير , وغمر العالم الغربى واعطاه فكرة جديدة عن الزواج وعن الحب



الحب عند البرابرة

كان للمرأة بعض السلطان عند الشعوب البربرية التى كانت تنمو فى مجاهل جرمانيا وغاباتها ، وفى البلدان الشمالية حيث الشتاء بطىء ، والليالى طويلة مضجرة

ومما يجدر ذكره ، أن جنود الرومان عندما فتحوا بلاد الغال بقيادة قيصر دهشوا كل الدهش اذ ابصروا الغاليين يسرفون فى احترام نسائهم ، ويعتقدون أن للمرأة المنحدرة من عنصرهم قوة خارقة تكادتكون سحرية

هذه المرأة كانت فى الواقع مساوية للرجل . كانت نصف الاملاك المشتركة بينها وبين زوجها ملكا لها . وكانت ترثها جميعا فى حالة وفاة زوجها . وكان لزوجها عليها حق الحياة والموت . ومع ذلك ففى وسعنا أن نقول استنادا الى ماكشف عنه التاريخ من أخلاق رجال بلاد الغال ، أن أولئك المحاربين ذوى الاعصاب السريعة الانفعال وذوى الخلق العنيف والزهو المتأصل والاحساس المتقلب والولع بكل جديد والغرام بالمرح والثرثرة واللفظ المنمق العذب ، كانوا بحكم هذه الطباع نفسها أقرب الى نسائهم مما يظن ، واقل استبدادا بهن ، واسلس لهن قيادا

وليس ثمة شك فى أن المرأة الغالية التى أوتيت مواهب

الفصاحة والرقة والمهارةوالشجاعة والامانة ، كانتتعرف كيف تستميل زوجها وتقنعه بسلطانه ، ثم تبسط هي سيادتها على الاكواخ الشبيهة بالخلايا ، وعلى البيوت الكبيرة فى المدن، وعلى القصورالصغيرة المزينة بالنقوش والتماثيل ..

ومن أبلغ الادلة على تفوقهـا حكاية « ايبونين » التى تمثلت فى حبها لزوجها عبقرية المرأة متى أحبت . كانت تعبـد قرينها « جوليوس سابينوس » فحـدث أن نفاه الامبراطور فسبازيان ، فاضطر الرجل الى الاختفـاء والحياة فى شبه سرداب أو مغارة بعد أن أشاع اهله انه قد مات . فكانت ايبونين تذهب لملاقاته فى المغارةكل ليلة، ولاتعود الى بيتهـا الا عند الفجر حيث تبدل شخصيتها وتمثل أمام الجميع دور الارملة البائسة

ولقد استطاعت فوقذلك ، بفضلمهارتها وشجاعتها وحنانها ، أن تجعل من المغارة مأوى رائعا لذلك الحب العظيم الذى صقلته الآلام وسمت به التجارب وأصبح غاية الزوجين الوحيدة فى هذه الحياة

وتولد من هـذا الحب توأمان ، سهرت الزوجـة والزوج على العناية بهما وتربيتهما فى الظلام وفىالخفاء. ولكن القدر الغادر أبى الا ان يقف الرومان على السر ، ويكشفوا عن المأوى ، فحملوا الام والاب والولدين الى روما ، وشرع الامبراطور نفسه فى محاكمة الزوج الذى كان مواطنا رومانيا ، وقيل انه منحدرمنسلالةيوليوس قيصر

وعندئذ ألقت ايبونين بولديها عند قدمى الامبراطور وصاحت :

ـ لقد حملت بهذين الطفلين فى المقابر، فخرجا الى النور ليزيدا فى عددنا . ونحن نطلب رحمتك ونستغيث بك

غير ان الامبراطور لم يرحم، فقضى على الزوج وأراد ان يعفو عن المرأة « الغالية » ولكنها رفضت الحياة وطلبت الموت مع قرينها فتم لها ما ارادت ..

ومما لا يقبل الريب ، أن حب ايبونين لزوجها تملك منها واستولى عليها واتخذ طابع هوى عنيف . فكانت هذه هى المرة الاولى التى أهملت فيها واجبها ، ونسيت انها لم تكن زوجة فحسب بل والدة ايضا ..

والحق أن ايبونين وسابينوس كانا قد تطورا ، وصقلتهما الحضارة أثناء تغلغلها شيئا فشيئا فى طبقات الشعب الغالى الرفيعة التى تلقت الثقافة الغالية الرومانية

اما قبائل الجرمان فى الجانب الاخر من نهر الرين ، فكانت ماتزال بربرية بكل مافى هذه الكلمة من معنى ..

كان الجرمان اذ ذاك لا يعرفون كيف تبنى البيوت بالاحجار ، ولا كيف يجملون أكواخهم ويزينون ابدانهم .. كان الرجل منهم لا يحس الرغبة الجنسية الا فى سن متأخرة ، ويتزوج وهو بكر من فتاة بكر . فيقدم هدية لعروسه جوادا مسرجا ، ودرعا ، وسيفا ، وفأسا من فئوس الحرب

وكان اولئك الجرمان الجبابرة ، ذوو الشعر الاشقر المسترسل ، يقاتلون طمعا فى الاسلاب ويجتازون النهر ويقومون بغزوات دورية لا تنقطع ، تتبعهم عائلاتهم فى

مركبات مكتظة ثقيلة . اما الجيوش الرومانية والغالية الرومانية الساهرة على حدود الامبراطورية ، فكانت تتلقى الوقت بعد الاخر هجمات تلك القبائل وتجتهد فى صدها . ولما كانت تطارد رجالها بعد المعركة وتدفع بهم الى معسكرهم ، كانت تدهش اذ ترى نفسها امام عدو جديد .. امام نساء الجرمان ، وهن يحاربن كالرجال ويقتلن اولادهن ثم انفسهن ، متى شعرن بالهزيمة وضاقت فى وجوههن سبل النجاة !

وعليه فالحب عند البرابرة من شعوب الغال كان فطريا ، حتى تلقحت العقول بالثقافة الرومانية فخالطت العواطف هذا الحب . واما الحب عند البرابرة من الجرمان ، فقد ظل وقتا طويلا مجرد علاقة جنسية ثانوية تجد فى الزواج غرضها الاول والاخير ، ولا يسمح لها بأن تطغى فى الفرد على فضائل القوة فتضعفه وتلطف من حدة مطامعه وتحول بينه وبين القدرة على مواصلة الحرب والقتال



الحب وروح الفروسية

واخذت اوربا تتكون على مهل ، وطبعتها المسيحية بطابعها . وشرعت امم الغرب المنقسمة المجتاحة تخرج من الظلمات ، وأصبحت القرون الوسطى فى نظر العقلاء عصور جهل وتخبط وفوضى ..

وقبيل عصر النهضة الاوربية ، لاح فجر جديد وانتعشت الفنون والآداب والفلسفة ، وتكون للمرأة وللحب مثل طريف أعلى لم يكن معروفا فى العصور السابقة ..

نشأ الحب المقرون بالفروسية ، والحب المقرون بالادب والظرف والرقة واحترام الانثى الضعيفة والاشفاق عليها

واخلص الفارس المسيحى لهذا الحب ، واستمد من تمجيد العذراء مريم لونا شعريا جديدا ، طبع به احساسه الغرامى وموقفه من المرأة

وكان الفارس يمثل القوة العادلة ، والبأس المنصرف لخدمة الدين والانسانية . وكانت المرأة تمثل الضعف الذى تجب حمايته ، والطهر الذى يجب التطلع اليه . فانحنى امامها الفارس وسماها « سيدته » ولم يجد فى ذلك اى عار لان الحب كان فى نظره مقيدا بروح الرجولة وفكرة الشرف

وصبح الحب فى البلاد الجنوبية حافزا من حوافز البطولة ، وباعثا من بواعث الالهام الشعرى ، وقوةتدفع الى جلائل الاعمال وتولد فى الاذهان الافكار السامية الجميلة

وحفت به العواطف وغمرته، وزهرت فى قصائدغرامية رقيقة شاعت فى اللغة الفرنسية القديمة ، وتناقلتها النساء فى الاكواخ والقصور

وكانت السيدات المثقفات يعتقدن ان فضائل الحب يجب ان تكون الشجاعة والامانة والمنطق الفصيح ، وأن الرجل الابله الغبى الالكن لا يجدر بالمرأة أن تحبه ولا يمكن أن يكون العاشق المنشود .. وأن الحب الصحيح يناقض الرغبة الحسية المجردة ، ويستنكر الدعارة ، وينشد الثبات ، ويتعلق بالروح لا بالجسد وحده ؛ ويهب كل شىء حتى ولو لم يفز بأى شىء ! ..

هذا الحب تجلى فى شخص « لانسلو » عاشق الملكة جينيفر ، وفى شخص السيد « دى كوسى » الذى مات بعد أن طلب أن ينتزع قلبه من صدره ويقدم تذكارا لمحبوبته .. !

وكان هو وأشباهه يجيدون فنون القتال ، ويحذقون فنون الكلام ، يعرفون كيف يخاطبون المرأة ، وكيف يختارونها ، وكيف يموتون غما وألما اذا اعرضت عنهم ولم تسمح لهم بحبها

اما عاشقات ذلك العصر ، فكن جديرات بعشاقهن لا من حيث الجمال فقط بل من حيث البطولة ايضا

كن رائعات الجمال ، شامخات الوجوه ، يجاهدن

جهاد المستميت قبل البذل والاستسلام ، وتظل الواحدة منهن تقاوم وتمتحن ثبات الرجل ، حتى اذا ماوثقت به وايقنت ان فضائل الحب المنشود متمكنة منه اذعنت له وخضعت لمشيئته ولم تعد تخشى فى سبيله خطر المغامرة وخطر الموت

وحدث اذ ذاك أن تضخمت فكرة الحب المثالى عند الشباب ، وأصبحوا لا يقرون عظمة هذه العاطفة ولا يؤمنون بها الا اذا كانت متأهبة على الدوام للاقتران بالموت . وهكذا مجدوا شخص العاشق تريستان الذى اولع باميرة أرلندا ايزولت ، واستهان فى سبيلها بكل شىء فاجابته هى الى حبه ، واسترخصت الحياة مثله ، وساقهما الحب الامثل الى الموت معا ، فانبثقت بعد أيام زهرة رائعة من قبر تريستان ، وامتدت فروعها وانحنت على ضريح أيزولت ثم انغرست فيه ..

وشاع تقديس هذه الزهرة التى تربط العشاق بعد الموت ، وتصل بين أرواحهم ، وتوحد بين أنفسهم فى العالم الآخر كما الفت بينها فى هذه الدنيا ..

ويجب أن نلاحظ أن فكرة الحب القوى المحتوم الذى يستمد سلطانه من سلطان القدر ، كانت فكرة اغريقية . وكان الاغريق يعتبرون هذا الحب كانتقام من الالهة فينوس المتبرمة الغاضبة .. فهذه الفكرة عادت الى الظهور فى القرن الثانى عشر ، وفى نظرة أهله الى الحب ، وفى أسطورة غرام تريستان وايزولت ، ومع ذلك فنظرة أهل القرن الثانى عشر الى هذا الضرب من الحب تختلف اختلافا كبيرا عن نظرة الاغريق ، لان هؤلاء كانوا يلعنون العذابات التى تقترن بالحب ويسخطون عليها كما فعل ديدون وفيدر ، ويتوقون الى الفرح الكامل المليء ،

أما أولئك ، فكانوا يحبون آلامهم ويرحبون بها ويجدون فيها لذة كبرى . وهذا هو الاثر الملحوظ الذى أحدثته المسيحية فى تطور عاطفة الحب

فهذا الحب المطلق الذى لايعرف الانفصال

هذا الحب المقدر المحتوم الذى يهيىء رجلا لامراة وامرأة لرجل

هذا الحب هو الحب الذى سوف ينمو شيئا فشيئا، ويزدهر ويظلل فيما بعد العالم الاوربى كله ويصبح مادة الآداب والفنون ..

ومن المهم أن نلفت نظر القارىء الى أن الحب المقرون بالفروسية والعفاف ، كان بوجه خاص مثلا أعلى فى أسبانيا الكاثوليكية التى تأثرت بالعرب ونزعتهم المشهورة فى الحرص على العرض

كان الاسبان يتساهلون فى أن يكون للسيدات الاسبانيات رهط من الفرسان المعجبين بهن ، يتطلعون اليهن ويحملون شعارهن ويقومون بجلائل الاعمال مرضاة لهن ..

ولكن لم يكن يسمح لاحد من أولئك الفرسان بالدنو من معشوقته ، او تقبيل يدها او لمس اطراف ثوبها

ولذا كان يكتفى العاشق بأن يحمل ربابته ويغنى تحت نافذتها .. وكان حبه على مر الايام يتسامى ، ويتجه نحو الخيال ونحو الروحانية المحضة خشية أن يصطدم — ان هو أراد الوصول الى شخص محبوبته — بزوجها الغيور أو شقيقها الجبار الذى يحرص على اعراض نساء الاسرة كل الحرص

والواقع ان الغيرة على العرض كانت شديدة اذ ذاك في أسبانيا . وكانت القصور محكمة الاغلاق ، والاسوار عالية ، والجدران سميكة ، وكبرياء الآباء لايقف دونها شيء ..



الحب من عصر النهضة
حتى القرن الثامن عشر

بدات النهضة فى ايطاليا قبل أن تبدأ فى المناطق الاوربية الاخرى بوقت طويل

وكانت قد شاعت فى ربيع النهضة الايطالية روح شبه وثنية تغلغلت فى الحب وجعلته لا يحفل كثيرا بقوانين الشرف والاخلاق

فسيدات ذلك العصر النبيلات اللاتى عشن فى قصور الامراء ، وتهذبن وتثقفن وتعلمن اليونانية واللاتينية ، وطالعن قصص بوكاشيو ، واشتهرن بالخفة والجسارة ولاسيما فى مدينة فلورنسا ، كن لا يخشين الحب ، ولا يتهيبن الاقدام عليه ، ولا يتورعن عن التمتع الصريح بلذائذه ، ولا يخجلن من التحدث فى اى موضوع يتصل به ..

وكانت ايطاليا المنيفة فى ميولها وشهواتها تحاول أن توفق بين انحطاط الاخلاق وازدهار الفنون ..

ولقد اختفت منها اذ ذاك الارواح الطاهرة الكبيرة ، والنفوس النقية العظيمة الشبيهة بنفس الشاعر دانتى، او القديس فرانسوا الاسيزى ..

ومع ذلك فحركة الفنون كانت رائعة فيها . . وكان العبقري ميكل انجلو يجاهد فى هيكل سيكستين جهاد الابطال ، وهو معلق على قطعة من خشب وقد ربط فى جبهته مصباحا وصوب نوره الى قبة الهيكل .. وجعل يبرز من تلك القبة أبدع صور الانبياء والقديسين ..

كان ذلك العبقري شيخا دميم الوجه ، مستوحدا فى عمله ، مستوحدا فى حياته ، يعيش على هامش عصره ويخرج التماثيل الخالدة كتمثال : الليل ، والسحر ، وعذراء الشفقة ، وغيرها

والغريب أن نظرة المجتمع الايطالى الى المرأة فى ذلك الوقت ، كانت نظرة حسية جثمانية فحسب .. أمانظرة ميكل انجلو فكانت شعرية تأملية روحانية ، أودعها مختلف شخصيات النساء اللاتى أبدعهن تصوره وخلدهن فنه

وكان ميكل انجلو يشعر بوحدته فى عصر اصابه جنون الحواس .. فكان اذ يرهقه النقش والنحت ، يهرع الى بيته الذى لم يدخله الحب السعيد أبدا ، ويأخذ فى أنظم القصائد فى جوف الصمت وهداة الليل ..

كان ينظم قصائد غرام ترن رنين الذهب ..

وكان يحب فيتوريا كولونا ، كما أحب الشاعر دانتى بياتريس

ولم يخطر على بال ميكل انجلو ، لحظة واحدة ، أن يدنس حبه لفيتوريا كولونا .. كان يعشقها عشقا طاهرا نبيلا ، وكان يعلم علم اليقين انها مخلصة لزوجها ، لذلك أحبها بلا أمل ولا رغبة .. هام بها لفرط هيامه

بالحب النبيل . وكان يعتقد ان مجرد وجودها على الارض هو قوة خارقة تسمح للانسان بالايأس من هذا العالم ومن صلاحيته للسمو والارتقاء ..

ولما توفيت فيتوريا كولونا فى شرخ شبابها ، ظلت حية فى قلب الفنان الحزين الذى لم يأسف الا على شىء واحد ... وهو أنه لم يستطع أن يقبلها فى جبهتها قبلة التمجيد والطهر ! ..

ولكن ميكل انجلو كان نادرا بين رجال عصره .. وكان الحب فى ايطاليا فى ذلك العصر قائما على خديعة الازواج، وعلى خداع العشاق ، وعلى استهتار النساء ، وعلى اقتناص اللذة . وكان الحب فى فرنسا هازئا ساخرا ، متهكما بالعواطف الكبرى ، ميالا الى النزول على أحكام الفطرة ، لاينكر الحنان ولا ينكر الالم ، ولكنه يشفعهما بالسخرية والمرح وعدم الاكتراث ..

فالحب الفرنسى كان لايبكى الا ليضحك ، ولا يرتفع عن المادة الا ليسرع بالانحدار اليها خشية أن يخدعه الخيال وتغرر به العاطفة . وهذه الظاهرة النفسية نجدها فى أعمال « رابليه » ممثلة أبلغ تمثيل ..

ولقد حدث فى ذلك العهد ، أن اعتقد الناس أن الحب الذى يخلق الجمال والفن والشعر ، لايمكن أن يخضع للقوانين الاجتماعية بل يزداد تمردا عليها كلما اشتد وقوى وعظم ..

هذا العارض الفكرى احس به المصلحون والاخلاقيون ووعاظ الكنائس ، فاستنكروه وبذلوا جهدهم لتحويل الحب من قوة عمياء لا تعرف الخير ولا الشر الى قوة بصيرة تتجه اخر الامر الى نفع الاسرة وخدمة الانسانية

ومع ذلك وبرغم الاصلاح الدينى الذى نادى به لوثر، وقامت به الكنيسة الانجليكانية ، لمكافحة الغرائز وكبح ميول الجسد ، لم يعدل الالمان ولا الهولنديون ولا الانجليز عن النظر الى الحب نظرة طبيعية مادية ..

والحقيقة أن هذه الشعوب ـ المعروفة بنزعتها التخيلية وميلها الى الدين والتصوف ـ كانت فى نفس الوقت شعوبا قوية الابدان ، ذات رغبات مادية جامحة ، وذات سذاجة مزهوة عجيبة ، فى محاولة تحقيق هذه الرغبات.

ولقد اشتهر أهل هولندا بالبدانة والنهم ، وكانت موائدهم حافلة على الدوام بمختلف ألوان الطعام ؛ ونساؤهم جد ممتلئات مترهلات ..

وكانت المرأة الالمانية ـ كما صورها الرسامون القدماء ـ مخلوقة بريئة المحيا ، ساذجة التقاطيع ، ضئيلة الصدر، ولكن بروز بطنها ، كان يدل أبلغ الدلالة على حيوتها الكامنة وعلى خصبها وقدرتها على الامومة ..

وأما فى انجلترا ، فقد ظهر الملك هنرى الثامن وتمثلت فيه نزعات الحب المادية ، فكان لايتزوج الا ليطلق ، ولا يعشق الا ليستمتع ثم يأمر بقتل معشوقته ..

فهذه الشعوب الشمالية كانت أقرب الى الفطرة فى شئون الحب .. ولكنها كانت مع ذلك شديدة الاحساس بالدين ، ميالة الى الخيال والتصور . ولقد استطاع فنانوها ابتداع شخصية فتاة عذراء صبيانية نائحة المظهر ، ارق وأعذب من شخصية العذراء الملائكية التى ابتدعها قدماء الفنانين الايطاليين ..

وعليه فقد اتخذ الحب عند الشعوب الشمالية

صورتين مختلفتين : الرغبة المادية الطبيعية والخيال الحالم الرقيق .. ثم تطور الحب تحت تأثير التعاليم الدينية الطهرية ، فتضاءل مظهره المادى الصارخ وابتردت ناره المتأججة ..

وامتد الاصلاح الدينى الكلفينى الى فرنسا من جنيف، واتفقت تعاليمه مع نزعة الفرنسيين الى المنطق وايمانهم بسلطان العقل . ولكن ذلك الاصلاح الدينى ضيق من آفاق الحب ، وعارض الطبيعة الفرنسية المولعة بالحرية والفنون ، واتخذ من التوراة مثلا أعلى ، وقاوم فتنة الحواس ، وحصر الحب فى دائرة العائلة واقره فقط لبقاء النوع ، وجعل المرأة الجديرة بالحب هى المرأة الولود مثل ساره ، وراحيل ، ورفقة . أما العذراء مريم ، فلم يعد لها أى هيكل تمجد فيه ..

ولقد ظهرت فى فرنسا فى القرن السابع عشر شعبة تدعى « الجانسينست » نادت بمثل تلك التعاليم،وحذرت الناس من تأثير الجمال ، ومن وطأة الحب ، ومن البحث عن اللذة فيه

ولكن الحب كان اذ ذاك مثار الحياة فى المجتمع الفرنسى الجديد فى قصر رامبوييه ، وكانت الحضارة الفرنسية قد خلعت عليه لونا جديدا هو العقل ..

كان الحب فى صالون المركيزة دى رامبوييه ، الحافل بالكتاب والشعراء وأعضاء الاكاديمية ، حبا مهذبا مصقولا دقيقا مركب العواطف غزير الافكار والتصورات أشبه بلهو عقلى رفيع تمازجه روح الفروسية ..

والواقع أن الاخلاق الفرنسية ، فى القرن السادس عشر، كانت جافة .. والاحساسات عنيفة ، والعواطف حادة ،

ولهجة الكلام نابية . وكانت الحروب الاهلية قد خلفت فى الطباع ضربا من الخشونة المنكرة ، فأرادت سيدات قصر رامبوييه تهذيب تلك الطباع ، وتمدين تلك النفوس وصقل أخلاق الطبقة العالية ، والاستعانة بالرقة والظرف وفصاحة المنطق وحسن الذوق وجمال التفكير للوصول الى ذلك الغرض ، والتلطيف من غلظة الرجل وغلظة العلاقات بين الجنسين ..

ولكن أولئك السيدات أسرفن فى الاناقة والفصاحة ، وسمين الاشياء بغير أسمائها ، وتحذلقن وترفعن ... فأصبح البعض منهن مشارا السخرية .. كن يقدسن الحب ، ولكن هذا الحب المسكين كثيرا ماتغذى على أيديهن بالكلمات المعسولة والعبارات المنمقة ، لا بالعاطفةالصادقة البسيطة . كان لهن عشاق من كبار الاشراف والادباء ، يحبونهن حبا طاهرا عقليا فلسفيا . وكان لهن عشاق من طراز آخر ، يحبونهن حبا مغامرا متباهيا مجنونا .. ويفاخرون بهن ، ويقاتلون فى سبيل شرفهن ، وينشدون المجد العسكرى من أجلهن ، ويدمجون روح الفروسية فى ابسط علاقة لهم مع امرأة ..

ولقد تركزت هذه الروح ، وهذا النوع من الحب، بعد مائتى عام فى رواية الفرسان الثلاثة ، وفى شخص الفارس دارتنيان ، الذى أبدعه خيال الروائى ديماس الكبير ..

وكان كل أولئك الاشراف والفرسان يغشون قصر رامبوييه ، ويطارحون السيدات المتحذلقات غراما رفيعا تكتنفه الخطب الطويلة ، وتحف به الجمل المختارة والمنظومات الشعرية ..

وكانوا يزورون صالون ماريون دى لورم ،وصالون

الحسناء الشهيرة نينون دى لانكلو ..

ولم تكن « نينون دى لانكلو » بغيا ـ كما زعم البعض ـ بل كانت امرأة حرة ، لا تمنح ذاتها للجميع مقابل المال .. بل تتخير من الرجال أحبهم الى نفسها، وأقربهم الى طبيعتها ، حتى اذا ماضجرت منه أعرضت عنه وانصرفت الى سواه ..

وكانت امرأة مثقفة ، حاضرة البديهة ، سريعة النكتة ، لا تعرف الثبات فى الحب وتعتقد أن من الممكن أن يستحيل الحب بعد موته الى صداقة منزهة عن الغيرة مجردة من الحقد والبغض ..

وكان فى وسعها أن تجعل من عشيقها الذى أعرضت عنه صديقا لها ، وفى وسعها أن تظل صديقة مخلصة للعشيق الذى أعرض عنها .. ذلك لانها لم تعرف الحب العنيف أبدا ، ولم تستسلم بمجموع قوى نفسها واحساسها لاى رجل . وكانت متفوقة فى نقدها الصارخ للاشخاص ، وفى عباراتها المتهكمة اللاذعة ، وفى قدرتها على تصوير جوانب الضعف فى الشخصيات الكبيرة ، وحصرها وتركيزها فى جملة مقتضبة سرعان ماتتناقلها الالسن وتذهب مذهب الامثال ..

ولقد عمرت « نينون دى لانكلو » طويلا ، وعاشت حوالى مائة عام ، وتوفيت محبوبة من الجميع .. وكانت واسطة العقد بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى فرنسا ..

ومع ذلك فقلب المرأة الفرنسية ، فى القرن السابع عشر ، لم تمثله « نينون دى لانكلو » .. بل مثلته

الكاتبة الذائعة الصيت مدام دى لافاييت فى بطلة قصتها الخالدة « البرنسيس دى كليف » ..

صورت الكاتبة فى هذه القصة ، شخصية امرأة نقية القلب ، خالصة النفس ، تحب حبا قويا عميقا .. وتذهب فى هذا الحب الى حده الاقصى ، وتشعر فى نفس الوقت بواجبها الزوجى وتريد أن تؤديه كاملا ، ولا تسمح للحب بأن يطغى على بصيرتها ، ويخضع عقلها ، ويحول بينها وبين تأديتها ذلك الواجب .. فهى مخلصة لحبها ومخلصة أيضا لزوجها وان كانت لاتحبه ..

هذه الشخصية النبيلة التى تحب على الرغم منها ، ولاتريد أن تسقط تحت تأثير هذا الحب .. بل تجاهد لتأدية واجبها مااستطاعت الى ذلك سبيلا،هى الشخصية التى تمثل نساء فرنسا الممتازات فى ذلك العصر ، والتى تنعكس فيها نزعتهن الغرامية السائدة ..

والواقع أن الحب ، على هذه الصورة المجاهدة ، كان فى عرف الصفوة من الفرنسيين اذ ذاك باعثا على صقل الاخلاق ، وعلو الهمة ، واستكمال نقص الطبائع ، والاتجاه بالفرد نحو حياة جميلة مجيدة ..

ولم يكن الشعب الفرنسى وحده ميالا فى ذلك العصر الى العواطف نزاعا الى الحب .. بل كان ملكه أيضا ــ لويس الرابع عشر ــ أولع مايكون بالغرام ، وافتن مايكون بالغادات الحسان ..

أحب لويس الرابع عشر فتاة فى الثامنة عشرة ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، رقيقة المظهر ، حيية خجولا ، يسحر جمالها الانظار ويأخذ بمجامع الافئدة ..

أحب الملك « لويزا دى لافاليير » ثم انصرف عنهـا بعد بضع سنوات .. أما هى فقد أخلصت له الود ، وأحبته حبا صادقا . وكانت فى خلال اتصالها به ، تعتقد أنها ارتكبت خطيئة مروعة ، وان الله لن يغفر لها هذا الذنب ، وان من واجبها أن تسمو بهذا الحب جهـد الطاقة وتخلص فيه كل الاخلاص كى تشفق عليها العناية وتمنحها الصفح والمغفرة ..

ولقد حدث عندما تبرم بها الملك ، ومال عنها الى مدام « دى مونتسبان » أن احتملت عذاباتها بنفس هادئة ، وصبرت على الاعراض والذل ، واعتبرت آلامها عادلة ، ورضيت بها تكفيرا عن خطيئتها ، ثم قدمت هذه الآلام الى الله واتجهت اليه بالصلاة والتقوى عساه أن يرحمها ويغفر لها ماضيها ..

واشتد بها العذاب ، وضاق صدرها ذرعا بخيانة الملك ، فوطنت العزم على الانقطاع لخدمة الله .. وودعت العالم ودخلت دير الكرمليات حيث ماتت بعد ست وثلاثين سنة ، قضتها فى الزهد والتقشف والعزلة والتكفير ..

ومن المهم أن نلاحظ أن بطلات الحب القديمات أمثـال ايزولت وفرنشيسكا دى رمينى ، كن لا يحفلن بنتائج هذا الحب ولا يندمن عليه ولا يشعرن حياله بتبكيت الضمير . أما بطلات القرن السابع عشر ، فكن يعتبرن الحب خطيئة مع اخلاصهن له وتفانيهن فيه ..

كن فى صميم قلوبهن مسيحيات كاثوليكيات ، يطالعن أعمال القديس فرانسوا دى سال ، ويذهبن الى الكنيسة فى بعض الاحيان لسماع الوعظ الدينى ، ويجـادلن أصدقاءهن فى البحوث الاخلاقية واللاهوتية ، ويفحصن ضمائرهن اذا ما اعتزمن الاعتراف الى القسيس ، ويذرفن

الدموع فى الكنائس كلما قام كاهن نابغ بتأبين شخصية عظيمة وشرع يتحدث عن القصاص الذى يعده الله فى العالم الآخر للمذنبين المستهترين ..

هؤلاء النسوة كن يقعن فى مستهل شبابهن تحت تأثير الحب المحرم ، وكن يعرفن اللذة والالم .. ولكن تقديسهن الحياة الروحية كان يستيقظ فى نفوسهن متى بلغن سن الكهولة وذبلت زهرة جمالهن ، فكن يلجأن حينئذ الى الله مدفوعات بقوة خفية لا تقبل المقاومة ، فيلوذ البعض منهن بالصلاة والتقوى ، ويدخل البعض الاخر الدير كما فعلت لويزا دى لافاليير ..

ولقد حفل القرن السابع عشر بهذا الصنف من النساء اللاتى بالغن فى التمتع وبالغن فى التدين والتكفير .. ولكن الظاهرة الهامة التى يجب أن نسجلها ، والتى مهدت لاسلوب الحب العابث فى القرن الثامن عشر تتلخص فيما يأتى :

عندما عصفت الشيخوخة بالملك لويس الرابع عشر ، ارتد الملك نفسه الى عقله وثاب الى رشده ، وعاد هو الاخر الى التدين والتقوى .. فاقتدى به رجال ونساء البلاط ، وطغت على الشعب موجة من التدين «الاجبارى» وأصبحت الفضيلة مفروضة على الناس فرضا .. فتولد من ذلك ضرب من النفاق واخفاء الذنوب تحت مظاهر الفضيلة ، وستر الملذات بقناع التدين . وهكذا مهد الطريق للحب النزق العابث الطائش الذى انفجر فى القرن الثامن عشر

الحب فى القرن الثامن عشر

عندما يذكر اسم القرن الثامن عشر ، يتصور المرء على الفور صالونا مملوءا بالتحف الفنية الشائقة ، والاثاثات الجميلة المقوسة الجوانب ، والاغطية والاستار الحريرية تتفتح فيها الازهار كما تتفتح فى الحدائق ..

كل شيء فى هذا الصالون يدعو الى الحب ويوحى بالتمتع ..

تحررت المرأة من الازياء الثقيلة التى كانت شائعة فى البلاط القديم ، وارتدت أثوابا فى شكل سلال تبرز تقاطيع بدنها ، وتظهر بياض عنقها وذراعيها ، وتزيد فى رونقها وبهائها ..

تعلمت المرأة كيف تستخدم المساحيق ، تضاعف بها جمالها وتخفى بوساطتها آثار السنين ..

وكان الرجل يرتدى أثوابا من المخمل ، ويرسل شعره خلف رأسه ، ويعقده بشريط أسود فيبدو ساحرا وعليه رشاش البودرة ..

كان الرجل فاتنا كالمرأة .. وكان كل منهما لا يعيش الا للتمتع باللذات والتمتع بأحاديث الصالونات ..

فقد الجنسان حب العواطف العظيمة .. وتبدل الزمن

واختفت « موضة » المجادلات اللاهوتية ، وحلت محلها بين الطبقات الرفيعة « موضة » المناقشة فى الموضوعات العلمية ..

وشاعت مطالعة القصائد الشعرية التافهة والقصص الصغيرة السطحية ، وأصبح الحب نزوة عارضة ..

تحللت الاخلاق وفسدت المشاعر ، وجرت العـــادة الا يحب الرجل امرأة واحدة ويخلص لها .. بل يتنقل من هذه الى تلك ، ولا غرض له سوى اللهو والتمتع ..

هذه هى الصورة الغالبة لما كان عليه القرن الثامن عشر ـ قبل ظهور الفيلسوف جان جاك روسو ـ صورة قوم طائشين عابثين يتخذون من الحب ملهاة لحواسهم وعقولهم ..

وهذه الصورة نراها واضحة المعــالم فى مسرحيات ماريفو ، وفى بعض روايات فولتير ، وفى بعض الاقوال المأثورة عن العلامة بوفون ..

وليس ثمة شك فى أن ادماج العواطف فى الحب ،كان اذ ذاك شيئا محتقرا وباعثا على السخرية .. كان دليلا على عقل قاصر ، وروح صبيانية ، ونفس ســاذجة ، لا تستحق غير الابتسام والشفقة ..

كان الشعور بأبدية الحب يعتبر نقصا فى الذكاء .. وكان الايمان بوفاء المرأة أو وفاء الرجــل برهانا على الحماقة والبله ..

وكانت فكرة استمرار الحب أبعد ماتكون عن النفوس والعقول ..

لم تكن الغاية من العلاقات بين الجنسين الا مرضاة احساس طارىء ، وولع وقتى ، وجاذبية مصيرهاالمحتوم الى الزوال السريع . لذا كان الرجال والنساء يحبون بالعقل فقط ، ومن المعروف أن العقل وحده لا يكفى للاحتفاظ بامرأة واحدة .. !

واذن فالتنقل من حبيب الى حبيب كان شائعا بين النساء والرجال ، وسهولة الاتصال كانت شائعة أيضا كسهولة الانفصال والقطيعة .. فترتب على ذلك ان فقد الحب لذته عند طائفة كبيرة من العشاق المستمتعين العابثين ، وعافته نفوسهم ، واشمأزت منه فى مظهره العادى ، وتاقت الى تبديله والتفنن فيه واضافة بعض العناصر الجديدة عليه كى لا يظل متشابها فى صوره والوانه

أولئك العشاق الذين أفسدت الملذات عقولهم لفرط انهماكهم فيها ، والذين ألفوا الحب المادى ولم تعد تقنعهم بساطته ، أرادوا تجديده فأدخلوا عليه لذة أخرى وهى لذة التعذيب .. تعذيب الشخص الذى يحبون ، تعذيب المرأة باشعارها بذلها وفضيحتها وعارها .. تعذيب المرأة تعذيبا جثمانيا يسيل منها الدموع والدماء كما كان يفعل المركيز دى ساد . ولا ريب ان هذا هو أحط أنواع الحب ، وأبلغها دلالة على التحلل والفساد ..

ولكن هل هذه الالوان كانت كل الوان الحب فى القرن الثامن عشر ؟ ..

وهل لم يكن الحب غير ذلك الهيكل العظمى الانيق الذى لا قلب له ولا روح ؟ ..

وهل لم تكن بين نساء أوربا اخوات للبرنسيس

دى كليف التى أشرنا اليها ؟ ..

كلا .. لم يتبدل جوهر الحب ، كان هنـــاك رجال ونساء عرفوا كيف يحبون بكل قواهم ، وكيف يرضون باستمرار الحب ، وكيف يخلصون فيه ، وكيف يحتملون عذاباته ..

كانوا قلة .. ولكن هذه القلة احتفظت بالمشـــعل المقدس ، وهى التى خلدت فى قلوبنا حتى اليوم ..

ومن بطلاتها الغادة « آيسيه » التى احبت الشيفاليه دايدى حبا عاصفا مبرحا ، ورفضت الزواج منـــه كى لا تكون عقبة فى سبيل تحقيق مطامعه المشروعة ، ثم ماتت وفية له مؤمنة بخلود حبها ومؤمنة بوجود الله ..

والانسة «دى لسبيناس» التى تحالفت عليها الكوارث وجردها القدر من عناصر الجمـــال والصحة والثروة ، والتى هامت بالحب المطلق وذاقت من عذاباته الوانا ، ولخصت قصة حياتها فى هــــذا الخطاب الوجيز الذى ارسلته الى من تحب ، والذى يعتبر فى اللغة الفرنسيـــة أجمل وأتم خطاب غرام :

« ياصديقى العزيز .. انى فى كل لحظة من لحظات حياتى لا أستطيع الا أن أحبك وانتظرك وأتألم ! »

ولقد تحقق أيضا هذا الحب الوفى الصادق بين الشيفاليه دى بوفلير ومدام دى سابران ، وبين سان لامبرت ومدام دودتو ، وبين الدوق دى ريشيليو ومدام ميشيلان التاعسة المسكينة التى انصرف عنها حبيبها فماتت غما وحسرة !

وهناك سيدة كانت تدعى مدام « دى لابوبلنير » وكان يعتقد الناس انها امرأة لاقلب لها ولا خلق ، ومع ذلك

فقد أحبت .. وانتزع الحب من صدرها أروع الصرخات في رسالة وجهتها الى من تحب وجاء فيها :

« يا فؤادى العزيز ·· لماذا تكتب الى فى عبارة جافة وأنا لا أتنسم الحياة الا من أجلك ، ولا أعيش الا لك ، ولا اعبد سواك ؟ .. »

« أناأعلم انشواغلك العديدة تحول بينك وبين الافضاء الى بما يقلق نفسك .. انا واثقــة من ذلك .. ولكنى وا آسفاه لم أجد فىخطابكتلك العواطف والعبارات التى تصدر عن القلب ، والتى يلذ للانسان مطالعتها بقـــدر ما يلذ له أن يكتبها ..

« انى لاحس وأنا أكتب لك بعاطفة غريبة ، تضرم نار الحمى فى بدنى ، وتبعث فى نفسى القلق والاضطراب .. انىلمشرفة على الموت لانى لستقريبة منك . وهذا البعد سيكلفنى حياتى .. انى ليائسة من حياتى ، فاعلم انى لم أحبب أحدا سواك وأنى أتعس امرأة فى هذا العالم !»

هذا هو الحبالصحيح الجدير بالبرنسيس دىكليف والذى نراه ممثلا أيضا فى العاطفة المشبوبة التى شعرت بها الاميرة لويزا دى كونديه نحو رجل منعامة الاشراف يدعى مسيو دى جرفيزيه ..

لم تستطع بالطبع أن تقترن به ، فهى تحبه بلا أمل ، وتكره أن يقول عنها الناس انهـــا جميلة لانها لاتريد أن تكون جميلة الا فى نظره فقط ! ..

ولقد اضطرت ــ نزولا على حكم الدين والواجب ــ الى قطع هـــذه العلاقة البريئة بمن تحب ، ثم انتهت حياتها الى الدير حيث لاذت هى الاخرى بحب الله الذى

يسع كل عاطفة ويعزى عن كل ألم ..

هؤلاء النساء ظهرن فى ذلك العصر الفاسد ، واشتهر معظمهن فى النصف الثانى منه ، وأولعن بحياة القلب والاحساس .. متأثرات بالفيلسوف جان جاك روسو الذى دعا الى العودة الى بساطة الطبيعة ، ونادى بطيبة القلب البشرى ، ومجد العواطف ، وقدس الحب مقترنا بالفضيلة مندمجا فى عبادة الله ، باكيا منتحبا مشرئب الوجه نحو السماء ..

هذه النزعة العاطفية المنحدرة من جان جاك روسو ، اثرت فيما بعد فى نابليون نفسه ، وفى رسائله الاولى الى جوزفين .. حيث نجد أسلوبا قريب الشبه من الاسلوب الذى ابتدعه روسو فى قصته المشهورة «هيلويز الجديدة» وفى الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها الفارس دى سان برو وحبيبته جولى بطلا هذه القصة ..

ومع ذلك فقد اختفى هذا الحب العاطفى المضطرم فى عهد امبراطورية نابليون ، وحلت محله غلظة الجنود ورغباتهم الفطرية وميلهم الى الاستمتاع المجرد قبل أن يعاجلهم الموت الواقف لهم فى ساحات الحرب بالمرصاد

وهكذا ارتد الحب الى دائرة الغريزة ، وتجرد من الشعر ، واتخذ طابعا شعبيا موسوما بالطلاقة والمرح وعدم الاكتراث . وكان الامبراطور يقر هذا الحب ، على شرط أن يعرف الجندى كيف يترك محبوبته متى دوى نفير الحرب ، وأن يقترن بها بعد عودته من ميدان القتال وأن يستولدها أبناء عديدين يصلحون لخدمة الوطن وخدمة الامبراطور ..

والواقع أن خيانة جوزفين لنابليون ، بدلت نظرته

الى الحب ، وأضعفت ايمانه بالعواطف ، وزعزعت ثقته بمبادىء جان جاك روسو . وكان بطبيعته مولعا بالقوة والعنف ، فعاد الى المبادىء الرومانية المتأصلة فى عنصره .. وبات يعتقـــد أن الحب مرض ينتاب النفس فى زمن الشباب ، ثم يصبح لدى الرجل الكامل ضعفا فى الذهن ونزعة بغيضة الى قتــل الوقت ، الذى يجب ان ينفق فى سبيل عظمة الدولة وقوتها ..

فالحب فى نظر نابليون رغبة لايفيد منهــا المجتمــع الا اذا انتهت الى الزواج والامــــومة ، فمتى تم الزواج وجب أن ينصرف الرجل الى القيام بواجباته العامة والمرأة الى حراسة البيت والسهر على النوع ..

وهكذا أراد الامبراطور أن يحصر المرأة فى دائرة البيت، وأن يجعل منها أما ولودا فحسب ، وان يجــدد عهــد الرومان .. ولكن ذلك العبقرى الذى ألم بكل شىء ، لم يفهم طبيعة المرأة الفرنسية التى رفضت الطاعة العمياء لزوجها ، وأبت أن تكون طوال حياتها أما ومرضعا فقط، وتطلعت الى شىء من الحرية فى عواطفهــــا ، وظلت فى خلال الحروب النابوليونية تطلب الحب . وعندئذ ظهر الاحساس الغرامى من جديد ، واتخـــذ طابع القــرون الوسطى ، وسرت فيه روح الفروسية لأن الحــرب كانت اذ ذاك غاية عليا وجهدا متواصلا منقطع النظير

الحب فى العهد الرومانتيكى
وفى العصر الحديث

لما ساد الهدوء أوربا بعد حروب نابليون ، وأصبحت البطولة بلا عمل ،وعادالملكيون الفرنسيون من المنفى حاملين معهم اسرافهم فى التدين واسرافهم فى الحرص على التقاليد ، استفاق الشباب الاوربى فألفى نفسه يحيا فى شبه حمى ، وفى شبه استنكار وتبرم واشمئزاز من كل شىء ..

كانت ريح البطولة المنبعثة من نابليون تطوح بالشباب، فاختفت البطولة واستولى على نفوس الشباب ضرب من الاضطراب الغامض المبهم ..

عدلوا عن مطالعة بلوتارخوس ، وانصرفوا عن تمجيد البطولة والابطال ، وجعلوا يدمنون قراءة شاتوبريان وبرون عواطفهم ممثلة فى شخص « رينيه » الذى ابتدعه هذا الكاتب ، وفى أمثال هذه العبارات التى صورهم فيها الشاعر الفريد دى موسيه :

« قضى سادة العالم على شباب اليوم بالحياة فى العطلة والضجر ، فتباعدت عنهم الامواج المزبدة التى كانوا قد هيأوا سواعدهم لمصارعتها .. انتشر النفاق فى الاخلاق، واقترنت الافكار الانجليزية الطهرية بنزعة التظاهر

بالتدين .. واختفت البشاشة ، وزال الفرح ، وأنكرت كل فضائل الارض والسماء . واضطرت النفوس الطلقة المتألمة المتحمسة الباحثة عن اللانهاية في الافكار والعواطف، أن تطأطيء هاماتها وتبكي . وأما الشباب فقد وجدوا لقواهم المتعطلة منصرفا جديدا هو اصطناع اليأس ! »

تلك كانت حال الشباب ..

اصطنعوا اليأس وبالغوا فيه فأصبح جزءا من طبيعتهم

فقدوا الايمان بفضيلة العمل ، وفقدوا الايمان بالعالم الآخر ، أو خيل لهم أنهم فقدوه .. فلم يعد لهم من عزاء في غير الشعر والحب ...

وهكذا نشأ الحب الرومانتيكي ..

الحب المفتعل المقرون بالعبارات الادبية المستظهرة من الكتب .. الحب الفصيح الثائر المريض الذي يتبرم بالحاضر فيفر الى الماضي .. الحب الذي لابد له من اطار وهمي ليعيش .. لابدله من ضوء القمر وجمال البحيرات واصوات البلابل وهبوب العواصف ورنين اجراس المساء .. الحب الذي لا يجد في نفسه كفايته ، بل يتطلع الى المظاهر الخارجية ليبحث عن عاطفة قوية غريبة عنه

ساد هذا الحب الموهوم ، وظهر عشاق خلدوه .. عشاق كانت لا تطيب لهم الحياة ، ولا يطيب لهم الحب الا في منابت اسكوتلندا أو سواحل ايطاليا أو بين حجرات غريبة التنظيم حافلة بالرسوم القوطية والاسلحة الشرقية والنارجيلات المفوفة وطنافس بلاد فارس وشعر الشرق البعيد ..

شغفوا بهذا الحب ، وشغفوا بهذه المظاهر ، ليميزوه

عن الحب الهادىء العاقل الذى كان شائعا بين الطبقات الوسطى والذى كان مجردا من كل ذوق فنى ..

ولقد حدث من فرط اهتمام أولئك الشباب بالشعر والحب والمرأة ، أن لاحت فى جو الادب شخصية نسوية جديدة تمخضت عنها عبقرية الكاتبة جورج ســـاند .. شخصية تمثل عددا كبيرا من نســاء ذلك العصر .. الا وهى شخصية المرأة الشاحبة اللون ، المسترخية البدن، المولعة بالخيال ، المصابة فى الغالب بعلة صدرية ، والتى تشكو على الدوام من أن زوجها لايفهمها ، وأنه غليظ الطبع مستبد الخلق معدوم الذوق ، يهتم بالمسائل العامة ويهمل امرأته غير مكترث بحاجتهـــا الى الحب القوى الملتهب ..

ثم لاحت بجوار هذه ، شخصية اخرى ابتدعتها عبقرية الفريد دى موسيه .. شخصية تمثل معظم شباب ذلك العهد .. شخصية العاشق « رولا » الذى يمتاز بنبوغه فى الخيال والشعر ، وبعجزه عن القيام باى عمل نافع ، وباعتقاده أنه ملك سقط من السماء فى عالم غير جدير به. وهو الى ذلك شاحب اللون ايضا ، ومصـــدور وغيور كمطيل المغربى .. ونفسه تحدثه على الدوام بالانتحـار أو بقتل عشيقته .. !

هــذا الشـــاب الذى نحتقره اليوم ونعتبره رجــلا فاشــلا ، هو الذى كانت تحبه تلك المــرأة ذات المزاج المريض وتتمنى الاقتران به ..

وجملة القول ، أن أولئك العشاق كانوا يطمحون الى حب مخيل لا وجود له .. كانوا ينشدون الحياة كمـــا يحياها أبطال القصص الوهمية .. كانوا يتعمدون الخروج

على اوضاع المجتمع ، لا بدافع طبيعي صادق بل لمجرد الولع بالتمرد ومخالفة العرف ..

تجاه هذه الطبقة ، ظهرت طبقة أخرى من الرجال العمليين .. اصبح المثل الاعلى عندهم ، الحصول على الثروة لا البحث عن الحب . غير انهم افرطوا في عبادة المصلحة وطلب المال ، وافرطوا فى اقامة صرح الزواج على المصلحة المادية وحدها واعتبار الفنانين والادباء صعاليك متشردين يجب الحذر منهم واجتناب التشبه بهم .. !

وظل الحب الرومانتيكي سائدا فى أوربا حتى عادت الامبراطورية ثانياالى فرنسا ، فتبدل شكل الحب وأصبح مزيجا من الخلاعة والعاطفة القلبية والنزوة الجثمانية .. وتمثل فى نساء مديدات القامة ، ممتلئات البدن ، منسرحات الاكتاف ، مستديرات الاعناق ، يبغضن النحافة ويكرهن الضعف ويجملن انفسهن بالاثواب الفضفاضة المصنوعة على شكل سلال ، وبيوتهن بمقاعد من طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ، ويتجهن بعاداتهن وأساليبهن فى الحب الى ما كان شائعا فى القرن الثامن عشر ..

وراق الامبراطورة أوجيني بهذا اللون من الحياة ، ولكن سيدات بلاطها لم يستطعن احياء العصر الغابر ..

ولم تكن بينهن امرأة كمدام دبيبينيه ، أو المارشاله لو كسمبورج .. وكن ناقصات الثقافة ، غير متوافرة لديهن عناصر الذوق الفنى الخالص . وكانت لهن فضيلة واحدة ، هى البشاشة الممزوجة بالظرف ..

وأما الحب الذى انحدر منهن ، فقد كان لهوا أنيقا تطور عند الشعب واستحال الى تفكه بدسائس الصالونات ومهازل المجتمع .. وأما بطلات هذا الحب الشهيرات : كمدام دي كاستليون ، ومدام بيلانجيه ، فقد كان ينقصهن ذلك السحر الشامخ الفطرى الذى امتازت به فيما مضى صوفى ارنو أو مدام دي بومبادور ..

وكان أن وقعت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا، وهزم فيها الفرنسيون ، فانحطت قواهم المعنوية اول الامر واحسوا مهانة الضعف والخذلان .. ولكنهم مالبثوا أن وحدوا صفوفهم ، وأيقظوا فى جماهير الشعب عاطفة الوطنية ، واتجه مفكروهم وعلماؤهم صوب المانيا يبحثون عن سر انتصارها ورقيها .. فأدركوا أن الروح العملية وسيادة النظام وفضائل الطاعة هى التى مكنت الالمان منهم وعقدت لهم لواء النصر ..

عندئذ ظهر فى فرنسا مذهب الادب الطبيعى « الناتور السم » . وكان غرضه تحرير الفكر الفرنسى من لوثات الخيال ، واحكام الصلة بينه وبين الواقع ، والقضاء على النزعات الرومانتيكية المريضة ، واشعار الجماهير بحقائق الحياة ..

وسادت الروح العملية هذا الادب ، واهتم زعماؤه وفى طليعتهم اميل زولا بتصوير الظواهر المادية المحسوسة غير حافلين برسم الحياة النفسانية التى كانت تبدو لهم مركز العواطف المجردة ، اى مركز الضعف والوهم والخيال ..

غير أن هذا الادب لفرط اهتمامه بالماديات ، لم يترك لنا صورة واضحة عن المرأة الفرنسية او الاوربية فى ذلك

العهد ، وعن طريقتها فى الاحساس واسلوبها الوجدانى فى الحب ..

والحقيقة انه نزع عن المرأة تاجها ، وصورها كأنثى خاضعة لاحكام الفطرة مستسلمة لقوانين الطبيعة بعيدة كل البعد عن الشعور بالعواطف الكبيرة والفواجع النفسية . فترتب على ذلك ان انقطعت الصلة بين مذهب الادب الطبيعى وبين المرأة كانسان حساس ، ثم بينه وبين عاطفة الحب كما كانت شائعة فى ذلك الوقت

ولكن انقلابا حدث فى سنة ١٨٨٠ بظهور الكاتب الروائى بول بورجيه الذى عاد بفنه الى تقاليد الادب الفرنسى ، واحدث أعمق الاثر فى أدباء عصره ، وأرصد صفوة جهوده على دراسة قلب المرأة ..

وتبين عقب ظهور بول بورجيه ، أن النساء الاوربيات فى ذلك العهد كن أغزر ثقافة من أمهاتهن ، وأرحب فكرا، واعمق عاطفة .. وكن يقدسن الحب ، ويطالعن اعمال الكاتب الانجليزى « راسكن » والقصصى الروسى «تولستوى» ويسافرن الى ايطاليا ، ويعجبن بجمال الفنون ، ويبتعن نسخا من صور الرسام بورن جونس .

هؤلاء النساء اقبلن اقبال الظامىء على مطالعة قصص بول بورجيه أمثال « جريمة حب » و « اكاذيب »وأخذن بها ، وروجن الدعوة لها ، واغتبطن اذ وجدن فيها الروائى الشاب يصور المرأة مخلوقا من جسد وروح تكتنفه الاسرار والالغاز ، لا مخلوقا من لحم ودم فقط خاضعا لاحكام الفطرة الوضيعة كما صوره أقطاب مذهب « الناتورالسم » ..

ولكن بورجيه أسرف فى تملق النساء ليفوز بالشهرة،

وأسرف فى تصوير الحب المحرم ليجذب اليه عامة القراء .. فتأثرت برواياتهطائفة من النسوةالعاطلات الموسرات فى باريس ولندن .. وطاب لهن السعى وراء ذلك الحب المحرم ، والتعلقباحساساته العنيفة ،وتضحية الواجبات الزوجية من أجله ..

ولقد حمل بعض النقـاد اذ ذاك عـلى بول بورجيه وتلامذته حملات شديدة ، واتهموا أدبهم بافساد الاخلاق وهدم نظام الاسرة .. فبدل بورجيه من طريقته ، ولم يكتف بالعدول عن تصوير أزمات الحب المحرم ورسم الفضائح البيتية والخيانات الزوجية فقط ، بل أسـرف فى سلوك طريق مضاد .. واعتنق المـذهب الكاثوليكى ، وجعل يبشر به ، وأصبح مفكرا اجتماعيا رجعيا محافظا

هذا اللون الصارخ من الحب المحرم الذى كان شائعا فى بعض الاوساط فى العواصم الاوربية الكبرى ، لم ينفذ الى الريف ولا سـيما الريف الفرنسى ــ حيث كانت الفتيات تنظر الى الحب الزوجى المشروع ، وهنجالسات الى نوافذهن يطرزن او يطالعن او يحلمن بالزوج الصالح والامومة السعيدة ..

وكانت الفتاة المنتمية الى الطبقات الوسـطى ، قـد تهذبت وتعلمت وشعرت بحقها فى الحياة والحـرية .. وادركت أن المرأة لم تخلق للالم فقط ، وانها مسـاوية للرجل فى الحقوق وفى الواجبات . وهذه الفتاة السائرة بخطى حثيثة نحو مبادىء وأفكار العصر الحديث ، كانت تطالع أعمال كبار الكتاب والشعراء وتقدر قيمة الحيـاة النفسانية ، وتقدر قيمة الحب المتبادل ، وقيمة الحيـاة الزوجية متى عقدت بين شخصين متفاهمين ..

ولكن موطن الضعف فى هذه الفتاة ، هو أنهـــا كانت على الرغم من يقظة عقلها الناقد ، عاجزة عن تصـــور حقائق الزواج اليومية ، وعــاجزة عن اختيــــار الزوج الصالح لها ومؤمنة أخلص الايمان بان استعدادها للحب والاخلاص والوفاء جدير وحده بجعلها امرأة سعيدة فى حياتها الزوجية ..

وكان والدها يزوجها فى الغالب زواج مصلحة بالرجل الذى يريد ، ويزفها الى كهل متهدم أفنت الملذات قــواه وتاقت نفسه الى الراحة ، فكانت المسكينة لاتكاد تهنـأ بعامها الزوجى الاول حتى تواجه الحقيقة المرة فتصبح حياتهـا سلسلة من عذابات تدفع بهـا آخر الامر الى التمرد والثورة ..

هذه صورة سريعة لما كانت عليه المرأة ، ونظرتهـــا الى الحب والزواج قبل الحرب العالمية الاولى ..

كانت مستنيرة مثقفة ولكنها كانت مع ذلك ضعيفة ..

كانت تهتم بالآداب والعلوم والفنون ، وتثق بزميلهـا الرجل ، وتؤمن مثله بمستقبل العلم ، وتعتقد مثله أن استخدام الآلات يمهد للسعادة ، وارتقـــاء فن الطيران سيمحو الحدود التى تفصل بين شعب وشعب ، وان المبادىء الانسانية لا بد ستفوز ، وان المخترعات العلمية ستوحد بين أجـــزاء العالم وتقضى على الفقر وتنشىء الفردوس فى هذه الدنيا ..

كانت تؤمن كالرجل بكل هذا ، ولا تستطيع لا هى ولا الرجل أن تتصور ما يمكن أن يأتى به الغد!..

ولقد حدث قبيل الحرب العالمية الاولى أن طغت على

أوربا موجة من الفرح بالحياة .. فأصبح الحب رقيقا لطيفا ، وتسامح الناس في أحكامهم على المحبين ، وأصبحت المرأة شبه ملكة في بيتها وفي المجتمع ، واعتقد الكل أن عصر السعادة يوشك أن يشرق .. وعندئذ تلبدت السماء فجأة ، واكفهر الجو السياسي ، واستفاقت اوربا عام ١٩١٤ مخبولة مذعورة على قصف المدافع وصليل السلاح



الحب فى الشرق الأقصى

١ ـ فى الهند

تشبه الهند شـجرة جبــارة ذات فروع لا تحصى ، وجذوع كثيرة التشعبات ، تتلاحق فى ظلها الحياة والموت وفى أعماق غصونها تزهر المدنيات والفلسفات والاديان المتعددة التى تحير العقل اذا مافكر فى احصائها وتبتليه بشبه دوار ..

والواقع ان سكان تلك الارض الهرمة عرفوا الحضارة قبلنا بآلاف السنين ..

كانت لهم ارافع واسمى حيـــاة روحيـــة محـــاطة بالاسرار ..

فكيف كانوا يفكرون فى الحب ؟ وكيف كانوا ينظرون اليه ؟ وأى طابع اتخذه الحب عندهم ؟ وما ذلك النوع من السعادة الذى كانوا ينشدونه فى المرأة ؟

ان الاوربى عندما يريد ان يتمثل حيـــاة الهنـــود الخاصة ، يتصور على الفور نساءهم المحجبـــات ، او أراملهم اللاتى يمتن على المحارق فى ملابار ، وابناءهم الذين يتزوجون فى سن الطفولة .. ثم يتصـــور بعد هذا حركة الاصلاح الاخـــيرة ، والجهـود التى بذلت لتحرير نساء الهند فى القرن العشرين ..

ويترامى الفكر بذلك الفرد الاوربى ، فيذكر انه التقى فى لندن او فى باريس بسيدات مهيبات الوجوه دقيقات الايدى كبيرات العيون .. عليهن غلائل صفراء أو زرقاء أو وردية اللون ، يحجب قسم منها شعرهن الحالك السواد ..

ويتذكر فوق ذلك ، ان اولئك السيدات هنديات متعلمات متحررات يعشن فى اوربا كأخواتهن الاوربيات، وتملأ نفوسهن عواطف وطنية متأججة ..

ولكن الاوربى يجهل كل شىء تقريبا عن حياة الهنود الغرامية ، ولايستطيع أن يفهم أو يتذوق أعمال فلاسفتهم وشعرائهم الخاصة بالحب ..

كانت المرأة الهندية فى العصور القديمة امرأة حرة فى التصرف بنفسها ، وحرة فى اختيار زوجها .. ولكن هذا المركز الذى كانت متمتعة به ، تغير كل التغير فى العصور التالية التى سجلها التاريخ ..

اصبحت العائلة هى التى تهيىء الزواج ، ولا ترى اية غضاضة فى تزويج الصبيان والبنات قبل دور البلوغ ..

كانوا يزوجون البنت ، وهى لم تزل فى المهد ، بصبى لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة من عمره .. فاذا توفى الصبى مصابا بمرض من أمراض الطفولة ، حكموا على البنت بالترمل الدائم وبحياة ذليلة وضيعة ملؤها العذاب .واذا أصبحت الزوجة أرملة ، وهى فى سن الشباب ، أرغمتها التقاليد على ترك نفسها تحرق حية على نفس المحرقة التى تلتهم جثة زوجها ..

ولقد ثار المجتمع الهندى العصرى على حرق الارامل ، وحجب النساء فى البيوت ، وعقد الزيجات بين الاطفال..

ولكن هذه الظواهر الاجتماعية ، لايجب أن تجعلنا نعتقد بأن الهند القديمة كانت تزدرى المرأة وتجهل الحب ..

والحقيقة أن فلاسفتها وشعراءها ، قد ابتدعوا شخصيات خيالية يتجسم فيها المثل الاعلى للجمال والحنان ..

ومنها شخصية « سيتا » ألتى أولع بها « راما » بطل الملاحم الشعرية ، وشخصية الغادة الساحرة العذوبة « ساكونتالا » ، وشخصية الحسناء الفاتنة « برفاتى » التى استطاعت أن تكون محبوبة من الاله الجبار سيفا ..

هؤلاء النساء الغامضات المحاطات بالاسرار ، يمثلن فى نظر الهنود جمال العالم ، ويتنقلن كالازهار أو كالنجوم فى حكايات وقصص معقدة الاجزاء حافلة بأروع الأخيلة وأفتن الاستعارات والمجازات ..

ولقد رسمتهن الاساطير كنساء ذوات سحر بدنى واضح ، واكتمال أنثوى ملحوظ ، وأجسام مرنة لينة تتثنى تحت أثداء وأرداف ثقيلة ..

ورسمتهن الاساطير أيضا كنساء ذكيات لبيبات ذوات قلوب يشيع فيها الحنان ، ونفوس تضطرم اخلاصا ووفاء لعاطفة الحب التى تشعر بها ..

ولقد ظهر فى القرن السابع شاعر هندى كبير يدعى « بارتر هارى » دخل الدير سبع مرات ، وخرج منه سبع مرات ، لفرط حبه المرأة وحبه مفاتن العالم وتردده بين نعيم الارض ونعيم السماء ..

هذا الشاعر الذى عرف الحب ، وخبر المرأة ، تحدث

عنها فى العبارات الآتية حديثا يمثل عقلية الهنود فى ذلك العصر :

« ان المرأة هى الفرح والالم .. هى القلق والراحة ، هى التى ترغمنا نظراتها على التوقف أثناء السـير ، ولولا اعتراضها طريقنا وتحويلها ايانا عن غاياتنا لكان من السهل علينا أن نسرع فى عبور أوقيانوس الحياة الزاخر بالالم !

« أن مشعل الحكمة يظل متألقا مادامت عيون النساء الجميلات لاتلقى عليه وهجها !

« ومع ذلك فأى غرض أعلى تنشده الطبيعة من حاسة البصر المركبة فينا ؟ لاشك هو رؤية المرأة ؟ ..

« وأى غرض لحاسة السمع ؟ .. لاشك هو الانصات لحديثها ! ..

« وأى غرض لقدرتنا على التفكير ؟ .. لاشك هو تأمل شباب المرأة وجمالها ! » ..

هذا ماقاله الشاعر ، وهذا أسلوبه فى تمجيد المرأة .. ولكن ظمأه الدائم الى الحب لابد تعقبه خيبة الاصطـدام بالواقع . وعندئذ نراه يلعن المرأة فى قصائد أخرى ، وينظر اليها فيجدها ناقصة العقل والخلق فيفر منها ويلجأ الى التنسك والتقشف والزهد ..

وهكذا الهندى يطمح الى احتضان الجمال ، ولكنـه لايلبث أن يرى الجمال سرابا فيهرع الى التصوف ويتطلع الى جمال الله ! ..

هو يحنو على المرأة التى يحبها ، ويحترمها ، ويشتهيها ، ويود أن يحب من خلالها الجنس البشرى كله .. ولـكن

هذه النزعة المتأصلة فى نفسه ، تشعره بأن المراة لاتكفيه ، وان هناك عالما آخر يكمن خلف جمالها المقيـــد بالارض أبدا !..

وفى وسعنا أن نتبين نزعة الحب ، ومركز المراة عنـد معظم الهنود المعاصرين من خلال القصـة التى وضعهـا الشاعر الكبير طاغور ، وهى « البيت والعالم » ..

فى هذه القصة نرى شخصيـــة امرأة هندية ذكيـة وحساسة تدعى « بيمالا » ، أقترن بها البرنس « ميكيل » وكانت زوجته الوحيدة .. فلم يحجبها بل وثق بهـا واطلق لها حريتها التامة . ونرى فى الوقت نفسه هـذا الزوج الذى تخرج فى الجامعات الانجليزية ، رجلا لارذائل له ولا سلطان للتقاليد عليه ولا اثر للميول العنيفة فى نفسه ، يحب امرأته حبا زوجيا عميقا خالصا من شوائب الاثرة والانانية ..

نراه يتحدث عن المساواة بين الرجل والمراة فى الحب ، ويريد تحقيق هذه المساواة ولكن زوجته « بيمالا »تخالفه فى الرأى وترفض تلك المســاواة ، ولاتريد أن يجلسها الرجل على عرش .. بل تطمح الى خـدمة من تحب ، وتؤثر اخضاع نفسها واحناء كبريائها أمام الحب ..

فالبرنس « ميكيل » المتشبع بالمبادىء العصرية ، يعتقد ان لاحق له فى أن يمنع امرأته عن حب رجل آخر مالت اليه ميلا قويا ، وان امرأته مساوية له فى الحرية ، وان تشبثه بها فى مثل هذه الحال يؤدى الى تضحيتهـا على مذبح أنانيته ..

ولكن الزوجة « بيمالا » تعتبر اسراف زوجها فى منحها

هذه الحرية دليلا على نقص فى حبه لها ، فتتبرم به ويروعها منه كمال أخلاقه وهدوء طبعه واتساع مدى عقله وحكمته ، فتميل الى شاب وطنى ملتهب العاطفة والاحساس يدعى « سانديب » . ولما ترى ان زوجها لم يحاول صد هذا الميل ، ولم يعتبرها متاعا له يجب أن يدافع عنه .. بل تركها مطلقة الحرية فى التصرف والاختيار ، يزداد تبرمها به فتهجره وتتبع عشيقها ممزقة النفس والقلب ، لأن زوجها لم يعرف كيف يحبها ويختصها لنفسه فقط ، ولم يفهم أنها ليست مخلوقا يطلب الحرية ، بل مجرد أنثى تنشد التفانى فى خدمة رجل واحد ..

واذن فنظرة الهند الجديدة الى المرأة والحب قد تبدلت وتطورت ، بل لقد جاوزت عند بعض الطبقات المثقفة حد المعقول . ومع ذلك فالمرأة الهندية الحديثة ـ كما يصورها لنا طاغور ـ ماتزال فى صميم أخلاقها امرأة شرقية ، تحرص على محبة زوجها لها واستمساكه بها ، ولا تطمح الا الى خدمة بيته وخدمة أولاده على الرغم من الحرية التى يريد الرجل المثقف أن يمتعها بها ..

والدليل على ذلك ان « بيمالا » ندمت كل الندم على تركها زوجها ، وحاولت التكفير عن خطيئتها ، وملأ نفسها الامل بأن روحها لابد ان تتناسخ بعد أجيال وأجيال وتعود آخر الأمر الى مقرها الاول بجوار زوجها الذى لم تطلب فى الواقع رجلا سواه ! ..

٢ ـ فى الصين

سهول تتخللها المقابر ، ومعابد حمراء مذهبة ، وسطوح وسقوف ملتوية على شكل قرون ، ومدن تنبعث منها

روائح كريهة ، ومتاجر مزدانة بالمصابيح ، ورجال صفر الوجوه لهم أنوف منسحقة وعيون متغضنة ورءوس محلوقة وجدائل شعر مرسلة فوق أثواب رسمت عليها صورة تنين تحف به الازهار ، ونساء متبرجات غمرت المساحيق وجوههن ، وحجبت رءوسهن تلافيف سوداء مثبتة بالدبابيس والورود .. يرتدين أثوابا قصيرة فوق سراويل طويلة ، ويمشين على أطراف أقدامهن مهرولات متعثرات ..

هذه هى الصورة التقليدية الشائعة التى كنا نتمثلها عندما نفكر فى الصين ..

أما اليوم فقد تبدلت تلك البلاد ، وأصبح يراهاالسياح المعاصرون فى شكل جديد ..

اصبحت اليوم جمهورية مؤلفة من عناصر مختلفة الالوان ، تنزع الى المبادىء الاشتراكية ، وتتمثل فى جماهير الطلبة المتقدين حماسة ، والذين تلقوا العلم الاوربى الحديث ، واحتفظوا فى الوقت نفسه بكبريائهم الاسيوية، وعملوا على تحرير نسائهم اللاتى يتبعن أزياء باريس ويحملن الشهادات العالية وينزعن كرفاقهن الى ترويج المبادىء الاشتراكية

والواقع أن أسلوب الصينيين فى الحب كان بعيدا فيما مضى عن الحنان والعطف ..

ان العلامة الرمزية التى تشير الى « المراة » فى الخط الصينى القديم تمثلها لنا باعتبار انها « مفتاح النقائص والرذائل »

وأما العلامة التى تشير الى « الرجل » فتمثله باعتبار أنه مفتاح العواطف والميول السخية الطيبة ..

ولقد لخصت الشاعرة الصينية « بانهويبان » التى عاشت فى القرن الاول للميلاد واجبات المرأة فى كتابها « المواد السبع » الذى وردت فيه هذه العبارة : « لايجب أن تكون الزوجة غير ظل وصدى ! »

وأشارت هذه الشاعرة الى تقاليد بلادها ، فذكرت أن العرف كان يقضى بأن يقدم الصينيون لكل رجل وضعت أمرأته بنتا ، بعض قطع من القرميد ، دليلا على نكبته وإشارة الى أن القرميد كالنساء يستهدف على الدوام لعبث الريح

فالفتاة الصينية كانت والحالة هذه منكودة الحظ .. كانوا يشوهون قدميها اعتقادا منهم أن تشويه أقدام الفتيات يساعدهن فيما بعد على الحصول على زوج ، وان الاقدام المشوهة هى موطن الفتنة فى النساء ومركزالاغراء، وان المرأة الشريفة العفيفة المهذبة لايجب أن تكشف عن قدميها الا أمام زوجها وسيدها

وهكذا كانت تصبح المرأة الصينية كسيحة شبهعرجاء، مشوهة الساقين ، مترهلة الفخذين ، لا تتحرك بل تثب ، ولا تمشى بل تتمايل .. وكان الرجل يجد فى هذا المنظر جمالا وسحرا

وكانت بعد أن تتزوج تصبح متاع زوجها الخاص . وأما هو فكان له الحق فى عدد آخر من الزوجات ، وفى أى عدد كان من المحظيات والسرارى . وكان من واجبزوجته أن تحسن وفادتهن ، وتعاملهن كاخوات لها ..

والعجيب أن مجرد اصابة الزوجة بمرض ، او ادمانها على الثرثرة ، أو انصراف قلب الرجل عنها .. كان يكفى لنبذها وطلاقها دون التجاء الى محكمة او اضطرار الى دفع تعويض .. بل كان من حق الزوج أن يبيع امرأته اذا شاء

ولم يكن للمرأة المسكينة حيال هذا الاضطهاد ، الا ان تهرع الى أحد الهياكل حيث تعلق صورة من ورق تمثل زوجها ، عاليه سافله .. ثم تبتهل الى الآلهة الرحيمة أن تبدل قلب زوجها الذى لم يعد يخفق فى موضعه ..

كان هذا هو حظ النساء الصينيات فيما مضى . أما اليوم فالجمهورية الاشتراكية تجاهد ما استطاعت كى ترفع من شأن المرأة الصينية ، وتحرر عقلها من خرافات الماضى ، وتساويها بالرجل فى الحقوق والواجبات .. وتضمن لها المعاش فى سن الشيخوخة ، وتحميها هى وأولادها من غائلة الجهل والفقر والمرض . وما قام به المصلح الكبير « صان ـ يات ـ صن » بالامس ، تحاول الحكومة الاشتراكية ان تستكمله اليوم ، واضعة نصب عينيها أن المرأة شريكة للرجل فى كل جهد يؤدى الى خير البيت ومصلحة الدولة ، وأن الدولة كالبيت ، لايمكن أن تعيش وتنمو الا اذا ساهمت المرأة فى توطيد دعائمها باعتبارها قوة يجب ان تكون مساوية للرجل فى حق الثقافة وحق العمل وواجب الانتاج ..

٣ـ فى اليابان

كان الرجل فى اليابان القديمة ينشأ على تقاليد الفروسية ومبادىء « الساموراى » وتمجيد روح البطولة .. وكذلك كانت تنشأ المرأة ..

وكانت فضائل المرأة اليابانية الاصيلة هى : الاحتمال ، والصبر ، وانكار الذات ، والطاعة المطلقة للأبوين ثم للزوج ووالدة الزوج ..

وقد اشتهرت اليابانية ، اذ ذاك ، بقدرتها على ضبط نفسها ، وكبح جماح أعصابها ، واعتيادها بحكم التربية اخفاء عواطفها تحت ابتسامة هادئة لاتتبدل ..

كانت مخلوقا صابرا بلا تضجر ، شجاعا بلا تكلف .. وكانت قوانين الساموراى تعلمها ان المرأة وضيعة كالارض ، وان الرجل عظيم كالسماء ..

ولم تكن حياتها الزوجية غير خضوع مطرد لزوجها ، واستسلام متواصل ، واخلاص تام لمصالح العائلة ..

وكانت اذا تبرمت بها حماتها وغضبت عليها ، أقصاها الزوج عن بيته وانفصل عنها ..

لم يكن فى هذا الزواج اى أثر من الحب . ومع ذلك ، فقد كان يحدث احيانا أن يتولد بين الزوجين ضرب من الشعور يوقظ فى قلب الرجل من نحو امرأته احساسا عميقا . ولكن الرجل كان يعتقد أن الاحساس الغرامى العميق نوع من الضعف غير جدير به ، وأن هذه العاطفة هى ميل وضيع يتفق وضعف المرأة ولا يليق برجل ..

فالرجل كان يكتفى بأن يوحى الحب الى المرأة دون أن يشعر به هو نفسه ..

كان يترفع عن الحب ولا يتحمل مسئولياته ..

فاذا اتفق مثلا أن وقعت امرأة تحت تأثير رجل واسلمته نفسها ، قالوا انها هى الفاسدة ، وهى التى أغرته ، وهى التى يجب أن تتحمل نتائج عملها ..

ولما كان يحدث ـ على النقيض ـ أن يرغب رجل فى امرأة ، ثم يراها تعرض عنه ويشعر بعجزه عن الظفر بها ، كان هذا الرجل يعتبر أنه أهين اهانة صارخة .. فيغضب ويثور وتزايله تلك الرقة المشهور بها أدب اليابانيين ..

ولقد مثلت فى باريس رواية عصرية يابانية ، شاهد فيها الباريسيون شابا يابانيا من خريجى الجامعات يلوك سيجارته بين أسنانه حنقا وغيظا ويبصق دخانها فى وجه فتاة رفضت أن تكون زوجا له ..

وكان الباريسيون يضحكون لانهم لم يفهموا سرالخلق اليابانى ، وعظم تقدير اليابانيين لكرامة الرجولة ..

وفى ذلك يقول الكاتب الفرنسى اندريه بلسور فى كتابه « المجتمع اليابانى » :

« لما كنت فى اليابان قص على بعضهم حكاية رجل من حفدة الساموراى ، أعرضت عنه ابنة أحد القضاة ورفضت الاقتران به .. فما كان منه الا أن انتزع سيفه أمامها ، وبتر به بعض أعضاء جسمه لفرط شعوره بالاهانة التى وجهت الى رجولته من شخص ضعيف !

« ولما التقيت فيما بعد ببعض اليابانيين العائدين من أوربا وحدثتهم عن ذلك الانتحار ، قالوا لى انهم شاهدوا هم أيضا حوادث كثيرة من هذا النوع »

ومع ذلك فهناك حوادث انتحار منشؤها الحب يسميها اليابانيون « موت القلب » أو « الموت بسبب العاطفة »

وهذه الحوادث تقع غالبا فى طبقة الغوانى المعروفات باسم « جورو » أو « جيشا » وقد تقع أحيانا فى طبقة أرقى من هذه ..

ويجب أن نلاحظ أن الغـــانية اليابانية التى تبيـع محاسنها للرجل لاتتخلى عن جميع الاخلاق والعادات التى تميز عنصرها ، بل تحتفظ بمظاهر الادب فى حركاتها وسكناتها واحاديثها ، ومن الممكن أن تشعر باحساسات رقيقة وعواطف عميقة ..

على أن اليابانيين اذا كانوا لا يعلقون على الحب أهمية كبرى ، فهم فى نفس الوقت لا يستنكرون المهنة الشائنة التى تتعارض والحب وتطعنه فى الصميم ..

والدليل على ذلك أن الغانية اليابانية أو « الجيشا » تهيأ طويلا للقيام بمهمتها ، وتدرب عليها منـــذ نعومة أظفارها .. فتتعلم مختلف آداب اللياقة وشتى ضروب الموسيقى والرقص والشعر والتصوير ، كما كانت تفعل الغانية الاغريقية ..

والواقع أن هــذه المرأة اليابانية التى تبيع محاسنها للرجال هى اكثر حرية عندهم من الزوجة الشرعية واكثر سعادة .. فهى تختار عشاقها بنفسها ، ومن المحـــال أن يزجرها أو ينتهرها أو يسىء معاملتها واحد منهم ..

وقد يحدث فى اليابان ان تتقدم فتيـــات لاحتـراف الدعارة لانقاذ آبائهن من وطأة البؤس . وقد عرف الكاتب الشهير « لافكاديو هرن » فتاة من هؤلاء تدعى « كان » مارست تلك المهنة ــ وهى فى السابعة عشرة من عمرهــا وضحت بنفسها فى ســـبيل رفاهية أبويها ، فعشقها نجل أحد الاطباء .. ولكن والده ثار عليه ولعنه وحـرمه من ميراثه واوصى بماله لشاب غريب تبناه . فما كان من العاشق الا ان استسلم لغرامه ، وانفق على معشوقته كل ما يملك .. ولما نفد ماله ولم يستطع اطلاق العنـان

لحبه اتفق مع عشيقته على ان ينتحرا معا ، فأجابته الفتاة الى سؤاله وتجرعت السم مثله ، وقضت نحبهـا بين ذراعيه ..

هذه الحادثة قد تقع فى أى بلد من البلدان ولكنها فى اليابان تتخذ لونا خاصا وطابعا مستقلا يتمثل فى العواطف التى أحست بها الفتاة قبل انتحارها ، فى اشفاقها على ابويها ، فى خوفها من أن يعصف بهما البؤس بعد موتها، فى اقدامها على الموت وعدم ترددها.. فى اعتقادها الراسخ بأنها عاشت مع حبيبها فى عالم سبق هذا العالم ، وأنه مقدر عليها ان تعيش معه فى العالم المقبل أى فى الـ «مايدو» موطن الارواح الخالدة

وهكذا ماتت « كان » شهيدة حبها ، ولكن الطبيب والد عشيقها رفض ان تدفن بجوار ولده .. فحرمهـا نعمة الراحة التى لايجدها العشاق ـ فى رأى اليابانيين ـ الا اذا دفنوا فى ضريح واحد جنبا الى جنب ..

أمثال هذه الحوادث فى اليابان كثير .. والعشـاق اليابانيون المنكوبون فى غرامهم يؤمنون اشد الايمان بأن عذاباتهم الحاضرة هى عقاب لهـم عن ذنوب منسـية اقترفوها فى العالم السابق ، ولذا تراهم يحتملون آلامهم بصبر عجيب وارادة قوية ، ورغبة فى التكفير ، وأمل فى اللقاء بعد الموت ..

فالحب عندهم هو التقاء شخصين تعارفا من قبـل وتفاهما فى عالم اخر .. هو عاطفة ليس فى وسع الانسان مقاومتها لان القدر هيأها فيما مضى وأبى الا ان تكون .. فكأن الحب عند اليابانيين هو الذكرى أو هو لقاء رائع بعد فراق طويل !

ومع ذلك ، فأخلاق اليابانيين تطورت اليوم تحت تأثير الحضارة الحديثة .. ومساواة المرأة بالرجـــل أصبحت شعار الطبقة المثقفة منهم ، وعاطفة الحب تبدلت فى نظر شبابهم واستحالت الى استجابة وجدانية وخلقية وعقلية لايمكن أن تتم الا بين رجل مثقف حر ، وبين امرأة عزيزة النفس وافرة الثقافة ، مكفولة الحرية ، تستطيع أن تفهم الرجل وتعـاونه وتكون شريكة له فى ميـدان الزواج ، وزميلة له فى ميادين الثقافة والعمل



الحب فى العصر الحديث

هذا فيما يتعلق بالتطور الذى تم فى الشرق ، والذى مايزال آخذا مجراه الطبيعى . أما فى أوربا الغربية ، فقد تبدلت العادات والاخلاق تبدلا ظاهرا عقب الحرب العالمية الثانية ..

سادت الاخلاق الامريكية سيادة تكاد تكون تامة . ولكن الاوربيين أسرفوا فيها ، فشاعت فى طباعهم فردية عنيفة مفتونة بكل ما هو « أسبور » أى مندفعة فى الحرية ، ثائرة على التقاليد ، مولعة بالتمتع ، متهافتة على النجاح المادى .. فسهل الطلاق ، وانتشرت العلاقات غير المشروعة ، وأمعنت المرأة الاوربية فى الاقتداء بالامريكيات الثريات المستهترات اللاتى لايمثلن شخصية الامريكية الاصيلة المشهورة بشجاعتها واستقامتها ونظرتها المتفائلة الى الحياة .. فابتذلت عاطفة الحب ، وفقدت شعرها القديم ، واستحالت الى مجرد نزوة تنقضى بانقضاء دوافعها الحسية ، ولا تخلف فى النفس أية رغبة فى الثبات والوفاء . ثم تبدل طابع الادب أيضا ، فاختفت فى انجلترا صورة تلك المرأة الصبية المحتشمة الخجول التى كانت تحب الاطفال والجياد والكلاب ، وتحسن الترتيل فى الكنائس يوم الأحد ، والتى رسمها لنا القصصيون

الانجليز فى القرن التاسع عشر . كما اختفت صورة امرأة انجليزية أخرى ملتهبة العواطف ، مضطرمة الميول ، قوية الارادة لا تخشى الموت فى سـبيل الحب . ثم ظهر فى انجلترا ، تحت تأثير أعمال القصصى لورانس ، أدب واقعى جديد لايتهيب رسم العلاقة بين المرأة والرجل فى شتى انفعالاتها الحسية . ثم ظهر فى فرنسا أدباء مبـدعون أدمجوا هذا اللون من الادب فى التحليل النفسى ، وذهبوا الى أقصى الحد فى تحليل عاطفة الحب .. فتطور الفـرد المثقف المتحرر ، وأصبح يعـرف أسرار الحب ، ولمـاذا يحب ، وكيف يحب ، وما هى خير الوسائل لجعل الحب عاطفة متزنة لا تطغى على الارادة ، ولا تلتهم حياة الفرد ، ولا تحول بينه وبين تأدية واجباته نحو نفسـه ، ونحو المجتمع ..

وهكذا تغلغل العقل فى الحب ، ولم يعد الحب فى العصر الحديث قوة قاهرة عمياء ، بل قوة فى وسـعنا أن ندرك جوهرها ، ونفهم تقلباتها واهواءها ، ونوجهها الى ضميرنا اذا كنا مثقفين ، أو نرتد بها الى حكم الفطرة اذا كنا جهلة أو متحللين . وصحيح أن العقل جرد الحب اليـوم من بعض شعره .. ولكن اسرافنا فى الخيال والشـعر هو الذى كان بالأمس يخدعنا ، وهو الذى كان يحجب عنـا مخاطر الحب ومزالقه التى نستطيع اليـوم أن نفهمها ونتقيها بعقلنا وثقافتنا . على أن ما يهدد الحب فى عصرنا العلمى الآلى ، ليس هو العقل المحلل الواعى .. بل هو انتشار الروح العملية النفعية فى العالم كله ، وتهـافت الناس على المادة ، وتفاخرهم بانتهاز فرص المصلحة ، واندفاعهم فى طلب الحرية بغية التمتع .. فالرجل والمرأة كلاهما لن يعرف الحب ، اذا آثر المـال على القلب ،

والمصلحة على العاطفة ، وحرية التمتع على ضبط النفس وكبح الشهوة ، والاخلاص والوفاء لانسان واحد عزيز ومختار

والواقع أن الحضارة الحديثة هى التى تغرى الفرد بالمادة ، أى تغريه بمتاعها الممثل فى مختلف الآلات السحرية التى تنتجها .. فالفرد الذى تفتنه هذه الآلات يتهالك على المال كى يشتريها وينعم بها ، فتصبح الآلات هى مطمعه .. فينسى قلبه وروحه ، ويستهزىء آخر الأمر بكل عاطفة سامية ونزيهة تتطلب جهدا وتضحية ولا سيما عاطفة الحب . غير أن الفرد الذى ينجذب الى المتاع المادى متمثلا فى الآلة ، سرعان ما ينقلب هو نفسه شيئا فشيئا الى آلة ، آلة للتمتع البدنى المحض ، آلة تشبه الآلات التى ينتفع بها ، آلة لا احساس لها ولاشعور ولا خيال

وذلك هو رد الفعل الذى لابد أن تحدثه فى الفرد حضارتنا العصرية ، ان هو استعبد لها ولم يعرف كيف يستخدمها .. فاذا شاء الفرد ألا تطغى الآلة عليه، وتجعله عبدا للمتاع المادى ، وتخمد قلبه وروحه ، وتجهز فيه على شتى العواطف العليا بما فيها عاطفة الحب ، فعليه أن يسهر على معنوياته ، ويستمسك بها ، ويذود عنها ، ويغلبها على عامل المصلحة وشهوة المال ، كى يظل الجانب الروحى فى نفسه حيا ، بحيث يمكنه أن يحب ، ويبذل فى سبيل حبه ، ويسمو بهذا الحب ، ويعيش ويسعد لا بالمتاع الآلى فقط بل بالقلب والوجدان أيضا ..

وما يسرى على الرجل يسرى على المرأة .. بل ان المرأة أحوج من الرجل الى ضبط مشتهياتها المادية

والاعتدال فيها ، اذ هي التي تبهرها الثلاجات والغسالات والمواقد والمكانس الكهربائية ، وهي التي تتهافت عليها وعلى كل مستحدث غريب من ضروب التجمل وأسباب الترف العصرية ، مما يجفف قلبها ، ويخنق عواطفها ، ويجعل المصلحة وحدها غايتها ، والحب في نظرها مثار هزؤ وسخرية ..

فالحب في هذا العصر يجب أن ينتزع من بين براثن المادة انتزاعا ، ويجب أن يكون تفوقا عليها وتحكما فيها .. فالرجل الذي يتفوق على مغريات المادة ، يحتفظ بعواطفه ، ويمكنه أن يحب ويعيش . وكذلك المرأة ، التي يجب أن تفهم فوق ما تقدم أن اسرافها في طلب المادة لن يسعدها ، واغراقها في طلب الحرية لن ينقذها ، وافراطها في الاقتداء بالرجل لن يجذب قلبه اليها ، وانها كلما بالغت في التشبه به نفرته منها ، وأضعفت حبه لها .. ونسيت أن الحب لا ينشأ في قلب الرجل الا من اعجابه بفضائل الأنوثة الخالصة ، اى بالرقة والعذوبة والحنان والحياء والعفة ..

فهذه الفضائل هي التي تلهب مخيلة الرجل ، وهي التي تنعش نفسه وقلبه ، وهي التي تدفع به الى الزواج ، وهي التي تضرم في صدره شعلة الحب الصادق الوفي الذي لا غنى للمرأة عنه ، والذي سيظل حيا خالدا ما بقي العالم ، وما بقيت فتنة الأنثى وجاذبية الجمال .. (١)

---

(١) بهذه الفقرة يتم تلخيص وعرض كتاب « مارسيل تينير » ونرى من واجبنا أن نتحول صوب ماضينا العربي المجيد ، وندرس عاطفة الحب عند العرب ، وكيف نشأت ، وأى طابع اتخذت ، وما يمكن أن نقتبسه منها ، كي نحرص على الصالح النبيل من تقاليدنا

الحب عند العرب

هل وجد الحب بين أبناء الصحراء ؟ .. هل وجد الحب فى تلك الصحراء المحلة بين الشمس المتوهجة والارض القاحلة وقسوة الحياة بين الوهاد والنجود ورحلة الصيف والشتاء ، والعصبية الجاهلية وعزة كل قبيل بقبيله وكل انسان بسيفه ورمحه ، بين الحروب المتواصلة ومطالب العيش القاسية وجفاء الطبيعة بما يشبه القحط ؟ ..

نعم .. لقد وجد الحب فى تلك الصحراء ، عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وظل الواحة والنخيل ، وعلى العشب الاخضر بين حداء الرعاة وغنائهم ، وتحت النجوم البعيدة اللامعة ، وبين الرمال الصفراء المترامية كأمواج المحيط ..

هناك بين الخيام والمضارب والطنب كانت تقع العين على العين ، ويعلق القلب بالقلب ، ويلتقى كل خليل بخليلته على الشرف والعفة ولو بعد الرقيب ..

١ ـ فى الجاهلية

كان عرب الجاهلية فريقين : فريق الاشراف والسادة من رءوس القبائل ذوى الشوكة والمال والفروسية والاتباع .. هؤلاء كان الحب بينهم كما هو طبيعى أن

يكون بين قوم مترفعين لهم من متاع الحياة والقدرة على ما يكون لذوى المال والسطوة والفراغ والجاه العريض

والذين يحكمون على حياة العرب فى الجاهلية ، بأنها كانت مقسمة بين الخمر والنساء والحرب ، يصدرون هذا الحكم لما يجدون من هذه الاشياء وحدها فى شعر امرىء القيس ومعلقته وفى بقية المعلقات ، ومن وضوح هذه النواحى الثلاث وحدها وبروزها فى شعرهم ، كأنها قوام حياتهم كلها . ولكن الفريق الآخر — أى سواد العرب — كانت فى حياتهم نساء غير نساء امرىء القيس، وكان فيها حب غير حب امرىء القيس واستهتاره وتبذله

كان الشرف عندهم فوق الحب ، والذود عن العرض فوق الحياة . ونحن نرى فيما روى عن حياة الجاهلية وصدر الاسلام عجبا من الأقاصيص عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتيانها .. حتى لقد كان بعضهم يذبل من فرط الهوى ويموت ، ثم هو لا يبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله ، بل مخافة أن يذكر اسمه بسوء ..

كان الحب عند العرب صادقا كفجر الصحراء ، طاهرا كنقطة الندى ، يقظا محاذرا كدليل القافلة ، صامتا كتوما كغار الجبل ، راسخا قويا كالطود ، عميقا كنبع الماء فى الصخر الأشم ! ..

وكانت قيود الحياة الاجتماعية شديدة القسوة ، فكانوا اذا عرفوا أن واحدا منهم عرض لذكر فتاة فى حديثه او شعره، حرموا عليه زواجها ورؤيتها أبد الدهر.. ولو كانت من ذوى قرباه ، خيفة أن يشهر بالفتاة ، ويقال

انه أحبها قبل زواجها وكانت بينهما مظنة ريب ..

لهذا السبب كان الحب عذريا كتوما .. وكان محنة للنفس والروح يشقى بها المحب ويموت دون الظفر بمن يهوى . ولكن هـذا الشقاء كان عذبا شهيا الى نفوس عشاق العرب ، لأنهم كانوا يعشقون الشرف أكثر مما يعشقون أحبابهم . وكان شباب العرب يفاخر بعضهم بعضا بهذا اللون من العشق ، حتى استعلى شباب قريش يوما على بقية القبائل واشتهروا بأنهم أعشق العرب ، وحتى فاخر بنو عذرة بطهارة عشقهم فنسب الهوى العذرى الى قبيلتهم .. وكانوا كما قال عروة بن الزبير عن نفسه : « انى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء ! » . وكانت نساؤهم تقول كما قالت ليلى الاخيلية فى شعرها المشهور :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولقد قامت بين العرب حروب ومواقع بسبب هذا الشرف وقداسته .. قامت بينهم حرب الفجار المشهورة، لأن شبابا من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى غرام .. فشاهدوا امرأة جميلة من بنى عامر محجبةالوجه تحدث شابا فسألوها أن تسفر ..

بل هذا امرؤ القيس نفسه ، طرده أبوه لأنه عشق ابنة عمة عنيزة ، وكان له معها يوم ــ ذكره فى معلقته ــ غير حافل ..

٢ ــ فى الاســلام

بقى العرب يحبون ذلك الحب العــذرى الطاهر ، فتحافظ الفتاة ويحافظ فتــاها على شرفهــا وشرفه كحفاظهم على دمائهم ، حتى جاء الاسلام وجاء محمد عليه الصلاة والسلام فجعل العاشق العفيف من الشهداء ..

ولقد روى عنه عليه السلام انه قال : « من أحب فعشق فعف فمات فهو شهيد ! »

وكان عليه السلام يجعل المكان الاول لعواطف الخطيب والمخطوبة ، ولم يجعل للأب ولا للولى أن يزوج فتــاة بغير من تريد .. بل كان يرد زواجهما عند عدم الرضا ..

وقد جاء فى الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها ــ وهى كارهة ــ فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت أن اباها زوجها وهى كارهة .. فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم

وجاءت فتاة اليه عليه الســلام وقالت : « ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خســيسته » فجعــل النبى عليه الســلام امرها اليهــا . فقالت : « قد اجزت انا ماصنع ابى .. ولكنى أردت أن اعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ! ... »

ولقد بقى الحب على عذريته وطهارته بين الاعراب فى الصــحارى والمدن ، حتى جاءت الفتــوح والاموال والغنائم من بلاد فارس والروم ومن مصر والعــراق والشام .. فأصــبحت بلاد العرب ســوقا مائجة بالاسلاب والجوارى ، فلقى اشراف العرب ورءوســهم من هذه الاموال والغنائم ما جرهم الى ترف الحيــاة

ومفاسد التحضر والنعيم. فظهر العشق الماجن المستهتر الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة ، والذى نجد اقاصيصه فى مصارع العشاق وتزيين الاسواق وبلاغة النسـاء ، وما دون أبو الفرج فى الأغانى ..

هذه القصص ، وهذا الشعر ، وهذه النوادر التى تدور حول اسماء فضل الشاعرة ، وعبيدة الطنبورية ، وحبابة ، وذات الخال ، وعشرات من أمثالهن ، لا تدل فى شىء على حب العرب وما عرف به من طهارة وعفة ، بل تدل على مجون وعبث الموسرين والاغنياء مع جواريهم اللاتى كن يشترين ببدرات الذهب ، ويجلبن من أسواق العبيد

والواقع أن حب العرب هو ذلك الحب الشريف الذى نجده بين قيس المجنون وليلاه ، وبين كثير وعزة ، وبين جميل وبثينة ..

ومما يذكر عن قيس انه بعد أن منع ليلى ، وبرح به حبها حتى أصاره رجلا تالفا مشرد العقل مشـوش الذهن .. كان لا ينفك عن ذكرها ، وترديد شـعره فيها ، وندائها فى الليل والنهار . فلما جاءته ليلى تطرق باب خيمته لم يجب ولم يلتفت الى الطارق لأنه كان مشغولا عنه بالتفكير فى ليلى !

وكذلك نجد فى أقاصيص العرب أمثلة عليا فى وفاء المحبين واخلاصهم وثباتهم ..

ولم تكن قسوة الحياة فى الاسلام ، ولم تكن سـطوة المجتمع على مثل ما كانت فى الجاهلية .. فرأى علمـاء الاسلام فى هذا النوع من الحب لونا من ألوان العبادة كما

قال بعضهم . فكانوا يشفقون على ابطاله ، ويقوم الاشراف بالوساطة والشفاعة حتى يزوجوهم بمن أحبوا ...

فمن هذا الحب الشريف ، ومما كان يسود المجتمع الاسلامى بعد الصدر الأول ، ظهرت الصوفية .. وهى نوع من الحب ازدهر أول الامر فى قلوب العاشقين الاطهار، ثم تطور ونما وتطلع الى الحب الاعلى أى الى حب الله !

***

وقد بقى بعد ذلك أن نختم بما كان يحسن أن نجعله مبتدأ . فنذكر ما كانت العرب تسمى به الحب والعشق وما تقصده من دلالة هذه الالفاظ . ومنه نجد أنهم كانوا يعرفون طهارة قيس وليلى ، ولا يعرفون نزوات العابثين والجوارى ..

قال ابن منظور فى لسان العرب : « الحب الوداد .. والعشق عجب المحب بمحبوبه أو افراط الحب . وسمى العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى ، كما تذبل العشقة اذا قطعت .. والعشقة شجرة تخضر ثم تذبل ثم تدق »

فهذا العشق الذى يذكره لسان العرب هو العشق النبيل ، هو عشق المجنون وكثير وجميل وعذاراهم الطاهرات ، وهو الذى قال فيه المجنون وصدق :

ولا خير فى الدنيا اذا أنت لم تزر
حبيبا ولم يطرق اليك حبيب

الباب الثاني

رسائل حب خالدة



تعريف

بعد أن أحاط القارىء علما بنشأة الحب وتاريخه ، منذ فجر البشرية حتى اليوم ، نقدم اليه طائفة من أروع رسائل الحب ، كتبها عباقرة ونوابغ من رجال ونساء ، أودعوها عصارة قلوبهم ، وصفوة أرواحهم ، وما الهمتهم اياه عاطفة الحب الصادق من عبارات ساحرة ، وأخيلة ناضرة ، وفضائل وجهود وتضحيات ، تهذب الفطرة وتصقلها ، وترتفع بنوازع الفرد من دنيا الجسد الى عالم الروح .. فهذه الرسائل المختارة ليست مجرد رسائل غرام ، بل هى أمثلة خالدة فى نبل العاطفة ونبل السلوك ، فى وسع كل منا أن يتطلع اليها ويهتدى بها ، اذا شاء أن يحقق فى فكره وقلبه فضائل الاستقامة والصدق ، وارادة التفوق والاستعلاء

عبادة وتقديس

« اولع الرسام الايطالي العظيم « جيوتو » صديق الشاعر دانتى ، بامرأة كانت هي القوة الروحية التى استلهمها معظم اعماله الفنية الرائعة . وقد فاض حبه ذات يوم ، فكتب اليها هذه الرسالة التى هي أشبه بقصيدة من خالص الشعر »

أتمنى أن أراك يا حبيبتى .. ثم أتمنى الا اراك او أخاطبك .. ثم أتمنى لو انى لم أعرفك أبدا لأستطيع فى غد أن أنساك .. ومع ذلك فليس فى وسعى الا أن أسعى اليك ملهوف الشوق مشبوب الحنين

فدعينى اغمرك بالقبلات ، كى يستحيل وجهك الرائع تحت فيض قبلاتى الى سماء صغيرة مرصعة بالنجوم ..

سأجعل من عظام بدنى صليبا ، أصلب نفسى عليه .. لافتديك بعذابى ، وأهبك السعادة كاملة من خالص عرقى ودمى ..

انى لأحبك حبا أود معه أن أحملك فى كيانى كالمرض العضال .. أو الجنون المفترس الذى لا يعرف غير خيال واحد وفكر واحد وفكرة ثابتة واحدة ..

لقد اشفقت على آخر الامر يا امرأة وأحببتنى ، ثم نقعت غلتى بماء قراح سكبته يدك الناضرة السخية فى اعماق قلبى .. وها هو ذا الماء ، ماء حبك ورحمتك ، قد استحال بسحر ساحر الى عسل الهى . أما قلبى أنا ، قلبى

الشاكر الخاشع ، فقد استحال الى هيكل حرام ، أسبح فيه بحمدك ومجدك وجمالك يا حبيبتي ..

فيا لهذا الجمـــال الذى يملأ قلبى وعينى ورئتى .. الهواء معطر حولى ، والســماء صــافية أمامى ، ونور الشمس لا ينصب على الا ليستغفرنى ، كى يســيل مشعشعا على محياك أنت ، ومقبــلا فى عبــادة وتقديس صدرك الطاهر الملىء الذى استحال الى طاقة زهر حية !.. من أنت ياحبيبتي؟.. وما سر سحرك ؟ ولمــاذا اصطفيتك من دون النســاء جميعــا نعمة لقلبى ، ورحمة لنفسى ، وهيكلا أبديا لعبادتى ؟..

هأنذا أجمع كل مولدات خيالى لاصف حسنك الخالد هذه أنت يا حبيبتى ..

أنت الغابة الكثيفة الشامخة ، والمرج الاخضر الفسيح، وينبوع الحياة الكبرى الذى تتدفق منه السعادة كالموج !

أنت الاملَ والفرح ، والصدق والشرف ، والحنــان والرقة ، والثقة والايمان ..

انت طريق رائع مجيد لم تطأه اقدام الناس حتى ولا اقدام الآلهة !

أنت واحة خلقت للراحة وأنت محراب خلق للصلاة !

انت الشعاع ، وأنت الشعلة .. أنت الحــافز وانت القوة .. انت الوحى وانت النعمة .. أنت الدم ، وانت العصب .. وانت النفخة التى انطلق من نسيمها جوهر المـادة وسر الروح !.

هذه أنت يا حبيبتى ..

حاولت أن أصفك فأعياني البيان ، وحاولت أن أمجدك فخانني العقل واللسان ..

فكيف أرضيك وأرضي نفسي ، وكيف أشكرك وأشكر حظي ، وماذا يجب أن أنشد أيضا وأقول لأسمع الناس جميعا جلجلة فرحي ؟ ..

لن أقول اكثر من شيء واحد : عبارة شاملة واحدة ، فيها صفوة عبادتي ، وغمرة نشوتي وشكر حياتي :

ما دام الحب قد اصطفاك من دون النساء طرا .. ومادام قد اتخذ مهبطا له قدس روحك ولون عينيك ، فذلك لأن الحب قد اختارك وحدك يا حبيبتي ليدل بجمالك الباهر على حقيقة وجود الله !..

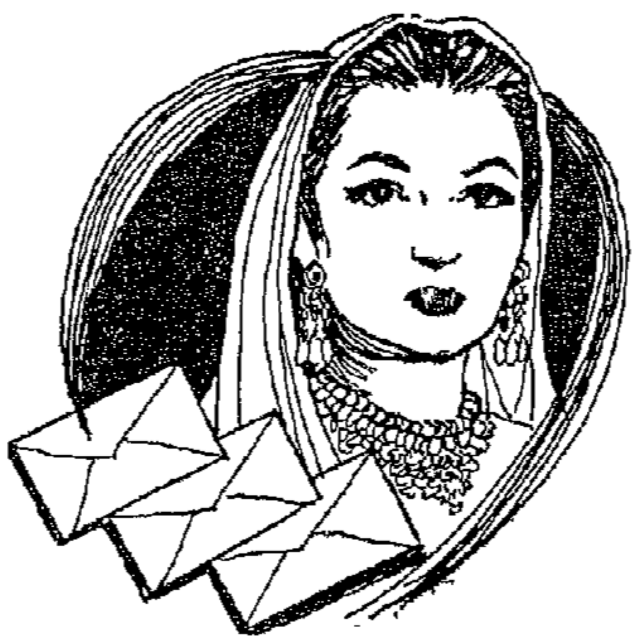


الحب وسلطان القدر

« الشاعر المسلم محمد اقبال من أكبر شعراء الهند المسلمين ، وهو فى هذه الرسالة التى بعث بها الى خطيبته التى كانت قد اعرضت عنه ثم رضيت به زوجا لها ، يرتفع الى قمة عاطفة الحب ، ويدمجها فى فكرة القدر توكيدا لصدقهـا وثباتها »

أكتب اليك هذا الخطاب لأقول لك أن القدر هو الذى جمع بيننا .. أجل هو القدر الذى أخضعنى وأخضعك ... ولقد كنت أنا هناك .. كنت حاضرا .. كنت حاضرا فى كل مرحلة من مراحل حياتك .. كنت أتبعك فى كل خطوة . كنت أسير معك .. كنت فكرك وظلك ، وفرحك وحزنك ، وابتسامك ودمعك ، ونهارك وليلك ، وتخبط قلبك الحائر وأمـل بصرك المضىء .. فعبثـا تحاولين اقصائى عنك . أفى وسعك أن تفصلى الجسد عن الروح ، والخمر عن المـاء ، والحرارة عن الشمس ، والعصـارة عن الربيع ؟!.. هو القدر الذى أخضعنى وأخضعك . فاحنى رأسك للقدر ولى .. أنت تشعرين بسطوة القدر ولذلك تحومين حولى .. أنت تعرفين أن القدر نار وأن النار أقوى منك ومنى !.. فاتجهى صوب هذه النـار المقدسة مختـارة يا فراشتى ، ودعى النـار تحرقك وتحرقنى ! .. انها لنار إلهية تحرق لتحيى ، وانها لنار سحرية لا أكاد أحس وقدها فى دمى ، حتى يلتهب كيانى كله فأرى جمالك الرائع كمـا لم تـره أبدا عينى ! ..

وها هو ذا جمالك يسطع ويتألق أمامى : جبينك الوضاح يا حبيبتى يشبه نجمة عجيبة لا تفتأ تتلألأ ليل نهار .. عيناك الكبيرتان اللامعتان تشبهان كوبين ذهبيين من أكواب عرس ملكى نادر . الزغب الناعم الرقيق غير المنظور ، النابت على صفحة خدك ، يشبه حرير بنفسجة راقدة على فراش من الورد والياسمين .. جسمك بستان أزهار تفتحت براعمها فى صدرك .. فطوقينى بذراعيك البضتين . وامسحى دموعى بأناملك المخضبة بالحناء .. أنت لى ، والقدر اقوى منى ومنك . وأنا ابكى من فرط جنونى وفرحى ، فرح الانسان التائه الشريد الذى حالفه القدر برغم بؤسه ، وابتسمت له السماء برغم شقائه ، فزفت اليه من ملكوتها الخالد حورية من حور الجنان !



نحو الكمال

« كان الموسيقى الالمانى العبقرى روبير شومان قد أحب الفتـــاة الحسناء كلارا . وكان قد عزعليه ان يلمس فى اخلاقها جوانب نقص بارزة . فاراد ان ينبهها اليهـــا ابقاء على حبه لها . فكتب هذه الرسالة البديعة ، وبعث بها الى الفتاة »

يقولون أن الحب أعمى ، ولكن حبى انا بصير ياحبيبتى وا أسفاه !.. والواقع الذى لا شـــك فيه أن الانســـان الذى اتسعت آفاق ثقافته وخبر الحياة ، وذاق حلوها ومرها ، لا يستطيع أن يندفع فى تيـــار الحب معصـــوب العينين .. ذاهلا تائها مشدوها ، جاهلا شخصية المرأة التى يحب !.. ان ثقافته تؤثر فيه من حيث لا يدرى ، وتسوقه بالرغم منه الى ملاحظة حبيبته ، وانعام النظر فيها ، ودراسة اخلاقها وطباعها ، والنفاذ الى أعمق وأبعد الاغوار التى ترقد فى أطوائها حقيقة شخصيتها ..

ولقد كانت مأساتى فى علاقتى بك أنى لم أكن أعمى ، وانى عرفتك حق المعرفة ، واكتنهت سر طبيعتك ومزقت الاقنعة عن جوهر نفسك .. ورأيتك امامى مجردة من كل زخرف ، عارية من كل طلاء ..

فهذه الحقيقة التى استكشفتها فى خلقك بعد عنـــاء طويل ، هى التى تقلقنى اليوم وتعذبنى ، وهى التى توشك

أن تخمد نار حبى ، وتجعل من شعلته المتوهجة كومة من رماد !..

والحق أنه قـد أصبح من المحـال على أن أحبك على علاتك ، وأرضى بالنزول على حـكم طبيعتك ، وأسـلس قياد فكرى وروحى لغرائزك التى اصبحت أنفر منها ، ولخلالك الفاسدة التى لم أعد أملك أية قوة على احتمالها

انى معـك الان فى مفتـرق الطرق .. فحبى المتنبه المتيقظ يريد ان يبدل طبعك ، ويغير نفسك ، ويصـوغ منك امرأة جـديدة . فاذا طـاوعتنى ، وأذعنت لى ، وصـدعت بأمرى ، ارتد حبـك الاول الى فـؤادى ، وضاعفت طاعتك اضطرامه وقوته . أما اذا أبيت الاصغاء الى ، وأبيت الاعتراف بنقائصك ، وتشبثت بتلك الخلال التى أبغضها والتى شوهت خيالك البـديع فى ذهنى وفى قلبى ، فمن المؤكـد أن علاقتنـا لابد أن تفتر ، ولابد أن تذبل ، ولابد أن تحتضر فى النهاية وتموت ..

والآن ارى لزاما على أن أبصرك بحقيقة نفسـك ، وان أميط لك اللثام عن جوهر روحك ، وان أصب ضـوءا ساطعا على تلك الخلال التى لاحظتها فيك ، والتى يجب أن تطهرى نفسك منها اذا شئت لحبنا الحيـاة والنماء والازدهار .. وأول تلك الخلال الفاسده التى ينبغى أن أصارحك بها هى الكبرياء .. فأنت فتاة متكبرة ، متكبرة فى حماقة ، متكبرة فى عناد ، متكبرة فى جنون . وكبرياؤك هذه تملأ قلبك بالقسوة على نفسك ، وعلى الآخرين .. فاحتقار الناس هو شعارك ، والاستبدادبالضعيف ــ رجلا كان أو امرأة ــ هو فى نظرك التسلية النـادرة والمتعة العميقة الكبرى . وليس شك فى أن هذه الكبرياء الطائشة

تولد فى فؤادك نشوة أمتع من نشوة الحب . حتى لقدخيل الى فى بعض الاحيان ، انك تؤثرين لذة الكبرياء على لذة الحب ، وتفضلين ان يعجب بك الناس فى المجتمعات على ان يعجب بك الرجل الذى وهبك حبه وقلبه وحياته .. على أن هذه الكبرياء بدل ان ترفع من شأنك فى عيون الناس تثير سخريتهم منك ، واستخفافهم بك ، وكراهيتهم لك .. فأنت فى الواقع فريسة للمجتمع لا سيدة له .. ولكن شخصيتك لفرط كبريائها ، لاتستطيع أن تفهم أو تسمع أو ترى .. فيجب أن تطهرى نفسك من لوثة الكبرياء أولا ، ثم من لوثة البخل ثانيا ... أجـــل أنت بخيلة .. بخيلة فى الماديات كما انت بخيلة فى المعنويات .. بخيلة فى نفقاتك كما أنت بخيلة فى عواطفك .. يحرص ذهنك المادى على النقود كما يضن قلبك الجاف بالعواطف .. فلا سخاء ليدك ، ولا سماحة لنفسك ، ولا رحابة لفؤادك ، ولا آفاق حرة واسعة مترامية يمكن أن تسبح فيها روحك .. فجوك الخانق هذا يخنق فكرى ، ويخمد انفعالاتى ، ويحفر هوة سحيقة بين قلبك وقلبى ! ..

وانى لاتساءل كيف يمكن لرجل مثلى أن يستوحى مادة جمـــال وفن من أرض صلبـــة ، وصـــحراء مقفـرة ، وينبوع جاف ؟ .. انى لانشد المـــاء والرى والواحـــة الزاهرة الخضراء فلا أجد غير التربة القاحلة والميـــاه الآسنة ، والصخور الصماء ! .. فانبذى البخل ياحبيبتى تنفتح أمامك أبواب الحياة ، وتشرق عليك شمس الدنيا ويفيض منك ينبوع العواطف ثم يرتد اليك صاخبا جارفا مزبدا ! .. ومتى كافحت فى نفسك رذيلة الكبرياء ورذيلة البخل ، أمكنك ان تكافحى رذيلتك الثالثة وهى الحســـد

ولا ريب فى أنك أفظع امرأة حســـود عرفتهـــا ! ..

لا تغضبي مني ولا تتبرمي بحديثي ، فالمحب الصادق هو الذي يؤنب أما المحب المنافق فهو الـذي يداهن ويتملق ! نعم انت امرأة حسود ! .. الحسد في طبعك ، والجشع في قلبك ، والطمع في دمك ! .. كل امرأة جميلة يفترسها لسانك .. كل امرأة غنية تأكلها نظراتك .. كل امـرأة سعيدة تفترسها غيرتك ..

فما كل هذا يا حبيبتي ، وهل يجدر بامرأة مثلك متعلمة وذكية أن تنحدر الى مثل هذه الرذائل التي تشوه جنسها ، وتحط من قدرها ، وتجعلها مضغة في الافواه

اني لأخجل لك ، وأشـعر من فرط حبي أن المجتمع يؤاخذني على رذائلك ، ويعدني مسئولا عنها ، ويطالبني بأن اقاوم وأكافح لاجعـل منك امرأة جديره بنفسـك وجديرة بي ! .. ولا ريب في أني اقاسي مر العذاب عندما أراك بعيدة عن مثلي الاعلى .. هذا المثل الذي من أجله أحببتك ، والذي ما زلت أومن أن في وسعك تحقيقه بشيء يسير من اليقظة والارادة وحسن النية ..

والواقع أنك امرأة جميلة جمالا يفتن الالباب . ولقد عشقتك لجمالك هذا ، ولكن كيف يمكن أن أعيش معك وأقضي الحيـاة بطولها في صحبتك ، وأنا ارى شـيطان كبريائك يمسخ هذا الجمال ، وشيطان بخلك يطعن هذا الحسن ، وشيطان جسدك يجهز على ما فيك من فنون الملاحة والسحر ؟ .. ان ذلك الشيطان المثلث اللعنة لابد أن يسمم في النهاية ينبوع روحي ، ويخنق ضوء حلمي ، ويقوض صرح غرامنا ، ويحيله في يوم من الايام الى أطلال

فأنقذي نفسـك وأنقـذيني .. طهري قلبك من تلك الرذائل وارحميني ! .. دعيني أفخر بك ، وأعتز بحبك ،

وازهو على الناس جميعا بصداقتك وقربك ! .. ثم اعلمى .. اعلمى أن الحب لا ينمو الا فى ظل الكمال أو فى ظل السعى المطرد نحو الكمال ! .. فالذى ينشد الكمال فى الاخلاق يستطيع أن يجد الثبات فى الحب ! .. فانشدى هذا الكمال فى أخلاقك ينتعش حبك وحبى ، واخلاصك واخلاصى ، ويظل منتعشا كلما ازددنا كمالا ، وازددنا سموا، واقتربنا من تحقيق وابداع مثلنا الاعلى ! ..

ففكرى الآن طويلا وتريثى ! فكرى فى الجهاد الشاق الذى ينتظرك ! .. فكرى فى الواجب المقدس المفروض عليك نحو نفسك . ثم فكرى فى أيضا .. واذا كنت حقا تحبيننى فلن يحول أى جهاد ـ بالغا ما بلغ من قوة ـ بينك وبين التسلط على نفسك ، والسيطرة على غرائزك، والاتجاه بفكرك وقلبك نحو ذلك المثل الاعلى من الكمال الخلقى المنشود ! ..

وانى لانتظر ردك ، فاذا لمست فيه رغبة صادقة فى التحول ، عدت اليك سعيداً بحبك فخورا بأن اقبل موطىء قدميك . أما اذا شعرت بأنك متشبثة بأخلاقك ، مستمسكة بأهوائك وميولك ، فاعلمى انى قد حزمت أمرى واستجمعت قوتى وعزمت أن أرحل كى لا اعود ! ..

***

ولم ترد الفتاة على هذا الخطاب ، بل ذهبت من فورها الى حبيبها ، وقطعت على نفسها عهدا مقدسا بتبديل أخلاقها .. فاقترن بها الموسيقى ، وظلت هى تكافح وتجاهد حتى استأصلت من نفسها رذائلها الثلاث ، وحققت فى شخصها حلم قرينها فسعد بها العبقرى ووجد فيها اخلص واوفى الزوجات

الحب وجنون الغيرة

كان القصصي الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير يحب الاديبة لويزكوليه .. وكان مشهورا بغيرته ، فلما عرض عليها الزواج، كتبت اليه هذه الرسالة تشرح فيها اسباب ترددها واحجامها

لماذا تغار على بمثل هذا العنف ؟ ..

أمجنون أنت ايهاالروائى .. ؟ أتظن أن فى وسعك ان تحرمني من التمتع برؤية الناس،والاتصال بهم ، والتحدث اليهم فى المجتمعات والصالونات ؟ .. كيف يمكنك أن توفق بين افكارك السامية ومبادئك الحرة ، وبين هذه الغيرة الطائشة الحمقاء التى تلاحقنى بها ، وتحاول أن توقعها على كحكم الاعدام .. ؟!

أنا لا افهم الحب على هذه الصورة ، ولا استطيع ان اتصور السعادة فى صحبة رجل الا اذا كان صدرى عامرا بالكرامة ، ونفسى زاخرة قبل كل شىء بنعمة الحرية ..

فالحرية عندى فوق الحب .. والكبرياء فوق السعادة ، واحترام النفس وتقدير الشخصية فوق كل متعة وكل نعيم ! ..

وانى لأسألك أية قيمة للحب بدون ثقة ، وأية قيمة للقبلة بدون ايمان ، واية قيمة للهبة الروحية والجثمانية الكاملة ان لم تقترن براحة فى النفس ، وسلامة فى النية ،

وبراءة فى الفكر والقلب والضمير ؟! ..

على ان الثقة المتبادلة هى التى تولد هذه الراحة .. ولاثقة بدون خبرة ، ولاخبرة بدون معرفة . ولقد عرفتنى وخبرتنى ، ونفذت بعقلك الثاقب الى أعمق أعماق نفسى .. فكيف تريد اليوم آن تستعبدنى ، وكيف يطاوعك ضميرك على ان تجعل منى ، انا المرأة التى تزعم أنك تحبها ، مخلوقا وضيعا حقيرا لا شخصية له ولا كرامة ولا احساس ؟! ..

انك بغيرتك المجنونة تنزل عن عرشك ، وتحط من قدرك ، وتنقص من قوتك ، وتجرد نفسك من كبرياء الرجولة التى من أجلها أحببتك ! ..

والحق أنك بهذه الغيرة تعلمنى الخبث ، وتدفعنى الى الكذب ، وتسوقنى الى الدهاء ، وتزين لى أن أخدعك انتقاما منك وجزاء لك على عدم الثقة بى

واخوف ما أخافه أن تسرف فى غيرتك اسرافا صبيانيا فاحتقرك ، أو أن تمعن فيها امعانا قاسيا وحشيا فاكرهك وابغضك .. !

فهل يرضيك ان تنتهى علاقتنا هذه النهاية ؟ .. هل يرضيك أن تذلنى وتمتهننى ، أنا التى كنت أصبو الى الحرية على يدك ، والى التفوق فى ظلك ، والى السمو الروحانى والفكرى أستمده من نبوغك وعبقريتك ؟! لا .. لا تقتلنى يا حبيبى ! .. لا تجردنى من ثوب كرامتى .. لا تنتزعنى من مقدس كبريائى . لا تنتهك بغيرتك الطائشة حرمة نفسى .. انك ان قتلتنى قتلت نفسك ، وان لوثتنى لوثت نفسك ، وان فقدتنى فقدت عقلك ، واطفأت الشعلة

المباركة التى تضرم فى ذهنك نار العبقرية وامل الخلود !

فثب الى رشدك واهدأ .. اكبح جماح غيرتك وفكر . كن ما شئت ولكن لا تتهور .. اقتل جسمى ولكن لاتتهم شرفى ، فانه لأحب الى ان أموت مرفوعة الرأس عزيزة النفس مكفولة الكرامة من ان اعيش يرمقنى الناس بالنظر الشزر ، ويجللنى من أحب بشبهة الخزى والعار .. !

ففكر طويلا وتأمل . اما أن تخنق غيرتك واماأن تتركنى .. اما ان تثق بى ، واما ان تنصرف عنى .. أما ان تحترمنى واما ان تفقدنى .. !

وينبغى أن تفهم يا حبيبى .. يا أعز الناس عندى ، ان المرأة لاتحب الرجل بقدر غيرته عليها ، بل تحبه بقدر اخلاصه لها ، واحترامه اياها ، وتنزيهه قلبها ونفسها عن جميع الشبهات ..

هكذا اريد أن تحبنى .. فان طاوعتنى فانا لك . وان اودعت الثقة فى نفسك ونفسى ، فانا متأهبة للتزوج بك منذ الغد .. والا فليس فى مقدورى الا ان اقول لك والخيبة تملأ نفسى والحسرة تمزق ضلوعى ، كلمة واحدة هى :

الوداع ، الوداع الى الابد يا حبيبى

***

وبرغم صدق هذه الرسالة ، فان فلوبير لم يستطع التغلب على طبعه ، فظلّ وحشى الخلق عنيف الغيرة .. فازدادت لويز كوليه تصلبا وتشددا ، وأبت اخر الامر ان تقترن به ...

صراع بين الحب والفن

« ظهرت فى ايطاليا فى مطلع هذا القرن مغنية عظيمة تدعى « ادلينا باتى » . وقد كانت فى شبابها مثلا رائعا للجمال والفن .. فاحبهـا شاب من النبلاء الايطاليين ، اراد ان يستأثر بها ويفرض عليهـــا التضحية بفنها ، والخضوع المطلق لسلطان الحب ، فكتبت اليه هذه الرسالة التى تمثل الصراع الذى كان قد نشب فى نفسها بين الحب والفن

انت احمق يا حبيبى ، بل أنت فى الواقع مجنـون ! .. كيف يمكن ان تخطر على بالك هذه الفكرة ، وكيف يمكن أن يستبد بك هذا الخيال ؟ .. لقد وعدتنى بأن تكـون رجلا ، ولـكن سرعان ما انقلبت الى طفل لا عقل له ولا ادراك ..

انك عندما أحببتنى كنت تعلم علـم اليقين أية امرأة انا ! ... كنت تعلم انى امرأة لاسلطان لى على نفسى ، ولاحكم لى على حظى ، ولاحيلة لى فى التخلص من مهنتى .. كنت تعلم انى ملك لفنى وملك للجماهير . ومع ذلك فقد أحببتنى ! .. أحببتنى لهذا السبب نفسه ، أحببتنى لأنى مغنية موهوبة ، اكسبنى اعجاب الناس مجدا عظيما .. فـكيف تنـكر اليوم ما قدست بالامس ؟ .. وكيف تجحد اليوم ماعبدت بالامس .. ؟ أجل .. انت تغـار اليوم من صوتى ، وتغار من شهرتى ، وتغار من مجدى ، وتغار من تلك الجماهير الصاخبة التى تستقبلنى فى المسرح كملكة ، وتظل الدقائق الطويلة تهتف وتهلل مرحبة بى !..

انت تريد أن تحرمنى من فنى ، وتحرمنى من مجدى ، وتحرمنى من جمهورى . . وتجعل منى ، أنا الفنانة المرموقة بعين الاعجاب والحسد ، امرأة تافهة ، تنقطع لحبك ، وتعيش لك وحدك ، وتذبل بين جدران بيتك . . ثم تموت آخر الامر قانعة وسعيدة بين ذراعيك ! . .

هذا حلمك . . أليس كذلك ؟ ولكنه حلم لاينبعث من نفسك الطيبة ، ولا من عقلك النير ، ولا من فكرك العادل . . بل يصدر عن غريزتك الجامحة ، وأنانيتك الطائشة ، ورغبتك المستورة فى أن تكون مجرما لتستطيع أن تكون سعيداً ! . .

هو ذاك . . فأنت تشعر على الرغم منك أنك لن تكون سعيداً الا اذا قتلتنى . . اذا اخمدت صوتى ، وخنقت فنى ، وضيعت مواهبى ، وانتزعتنى من بين جمهورى كما لو كنت تنتزعنى من بين احضان عشيق غافلك فجأة وسرقتنى ! . .

والعجيب أنك اصبحت تقول وتؤكد انى أخونك لأنى أظهر على المسرح ، وانى أخدعك لانى اغنى واطرب الناس، وانى أغرر بك لأنى اتلقى تحايا المعجبين . . فكيف يمكن والحالة هذه أن نتفاهم ، وكيف يمكن أن ينمو حبنا ويزدهر ويعيش ؟ . .

ان خيالك المريض يوسوس لك أنه من المستحيل أن تكون حبيبتك فى حياتها الخاصة ملكا لك ، مادامت فى حياتها العامة ملكا للجميع . ولكن هذه الفكرة خطأ مروع، كثيرا ماأشقى الرجال . . اذ الحياة العامة يا صاحبى شىء والحياة الخاصة شىء اخر . ونحن النساء نستطيع فى حياتنا العامة أن نظهر بشخصية غير شخصيتنا ، وفكر

غير فكرنا ، وعواطف غير عواطفنا كي نتمكن فى الواقع من أخفاء حقيقة ميولنا ورغباتنا .. وليس معنى ذلك اننا منافقات مخاتلات ، بل معناه ان المرأة انسان عملى وذكى يعرف كيف يفصل بين عالم المجتمع وعالم القلب ، وبين واجب المجتمع وواجب القلب

وانا بحكم مهنتى وفنى مضطرة الى مصانعة المجتمع ، كما انى بحكم غرامى وحبى مضطرة الى الاخلاص لك ! ..

على انى أخلص لك ياحبيبى فى كل لحظة وفى كل وقت .. فأنا عندما أغنى أفكر فيك ، وعندما أبدع فى غنائى استمد الوحى منك ، وعندما يهتف الجمهور أعجابا بى أتمنى لو استحال هذا الهتاف الى بخور كى أحرقه عند قدميك ! ..

فهل تستطيع أن تفهم ذلك ؟ .. وهل تستطيع أن تحبنى وتحب فى نفس الوقت مهنتى وفنى ، أم يجب على أن أنتحر كمطربة وممثلة وفنانة لأرضيك ؟ ..

لقد فكرت طويلا ، وانعمت النظر طويلا ، وأدركت .. أدركت بكل بساطة أنى يجب ان أنتحر .. يجب أن أموت .. والا فقدتك ! .. ولهذا وطنت العزم على الخضوع والتسليم ! ..

أجل .. عقدت النية على توديع فنى ، ونبذ جمهورى ، والمغامرة بشهرتى ، وتكريس البقية الباقية من شبابى للحياة معك فى غمرة العزلة التى تشتهيها ، وفى ظلمة الوحدة التى لا يضيئها غير الحب ! ..

فالوداع اذن للاضواء المتلألئة .. الوداع لصخب الجمهور وجلجلة الانغام وقصف الموسيقى ! .. الوداع لأمطار الورد ، وأمواج الهتاف ، وكبرياء النصر والعظمة

والتفوق ! .. سأترك كل هذا .. اتسمع ! .. سأتركه من اجلك غير آسفة . ومنذ اليوم ـ منـذ الليلة ـ لن اظهر لا على المسرح ولا فى الحياة . لن أعيش الا فى ظلك ، ولن اغنى الالك ، ولن انشد فى الحياة غير حبك يا حبيبى!.. فعسى أن تقدر تضحيتى ، وعسى أن تهبنى الى الابد قلبك كما وهبتك الى الابد كل شىء ! ..

***

وبرت ادلينا بوعدها ، فودعت المسرح وودعت المجتمع .. وانقطعت عن الفناء والتمثيل خمسة أشهر ، عاشت فى غضونها قانعة بحبها ، راضية بحظها ، سعيدة كل السعادة بانعقاد سحب الظلمة والنسيان حول شـــهرتها ومجدها ..

ولكن هذه الظلمة نفسها هى التى غدرت بها ، وهى التى بدلت على مرالزمن من أخلاق وعواطف حبيبها ..

كان يعبدها وهى ملكة ، وكان يقدسها وهى نصف الهة .. فلما أصبحت فى بيته امرأة كبقية النساء ، مجردة من فتنة المجد ، عارية من طلاء الشهرة ، تنكر لها وتبرم بها .. وأحس أنها غير تلك المخلوقة العظيمة المجيدة التى الهبت خياله ، وأضرمت حبه ، وأشعلت كبرياءه فيمـا مضى ..

وهكذا شعرت الفنانة المسكينة أنه قد بدأ يكرهها ، وأن تضحيتها قد ذهبت سدى .. فاستجمعت قواها وانفصلت عنه ، ثم عادت الى المسرح وقد وطنت عزمها على الا تهب قلبها وحياتها الا للرجل الذى تستطيع ان تجربة طويلا ، وتمتحنه طويلا ، وتثق اخر الامر بأنه يحب فنها المعنوى الباقى أضعاف ما يحب شـــخصيتها المادية الزائلة ! ...

قبلة من بعيد

« وهذه رسالة شائقة كتبهـــا الشاعر والروائى الصينى المشهور « تيان ـ تسن » ، وبعث بهـا الى حبيبته التى كانت تستكمل دراستها فى احدى جامعات أوربا»

انى فى هذه الليلة منقبض الصدر محزون ياحبيبتى!..

السماء زرقاء ، والبحر أخضر ، وسلسلة شاهقة من الجبال البيضـاء تفصل بيننا ! ..

حبذا لو اسـتطاع الحمام الامين ان يحمـل اليك رسائلى ! ..

حبـذا لو أسـتطاع النهر أن يحمـل اليك غمغمـة قلبى ! ...

ان الزهور تلمع فى الظـلام ، وأشـعة القمر تسـطع كالزهور .. والكون باسره يختلج حرارةونضارة وحياة..

ومع ذلك وبرغم حزنى ، أريد أن أنشد الشعر هـذه الليلة ، وأريد أن احلق واغنى ! ..

اريد أن أعيش فى هذا الحزن المروع الذى يمتلك لى ، وينفخ فى طيفك الروح ، ويصب فى روحك عصارة الدم البشرى ! ..

ولو تقلص هذا الحزن وزال ، فأخشى ما أخشـاه أن يطوح بى الدوار ويصيب الجنون عقلى ! ..

***

انت الآن أمامي .. لقد انبثقت من أعماق حزنى ، وانى لاراك من خلال هذا الالم العذب واضحة المحيا جلية القسمات ..

ان اشراق وجهك ليشبه اشراق الفجر فى ضـحوة الربيع ، وآن لمعة عينيك لتشبه لمعة اللالىء الصافية فى ظلمة البحر العميق..وان اختلاج شفتيك ليشبه اختلاج التينة الناضجة عصفت بها الريح فأبت ان تسقط على التراب ! ..

ان النبات ليعمر بالحياة فى عنفوان الربيع ، فكيف لا يعمر بك قلبى وانت فى عنفوان الحسـن وفى مجد الشباب ؟ ! ..

ان ابتسامتك لتنسينى سرعة زوال الربيع ، يا أيتها المراة التى لايكاد يراها المتسول حتى ينسى جوعه ! ..

ان صوتك أجمل من حفيف النسيم فى شجر الصفصاف، وأنفاسك أحر من الموقد المقدس حيث يحرق البخور !

أنت أجمل من زهرة يانعة غشاها ضوء القمر .. انت جميع ما فى الارض من ازهار وعطور والوان .. فدعينى أنتزع لك من صلب حزنى قبلة فياضة بالفرح كالامل العتيد ! .. قبلة أنضر من الفرح وأشهى من الامل ! ..

وستكون قبلتى من الرقة والعطف والحنان ، بحيث تشعرين كأن جناح فراشة سحرية يرف على وجهك ! ..

هذه هى القبلة ! .. فيها قلبى ، وفيها روحى ، وفيها عالمى ! ..

ومتى أضطرب النسيم ، وجن الهواء وانطبعت على شفتيك قبلتى .. فليس شك فى أن الريح المدوية سترحمنى ، وتحمل الى من أقصى العالم قبلتك أنت أيضا ! ..

وعندئذ ، وفى اضطرام جو الحياة واشراق شمس الدنيا ، ينبض قلبى وفكرى ، وتلتهب أعصابى وارادتى .. فتسجد لى الناس ، وتحسدنى الآلهة !



عندما يشقى العبقري

كان تولستوى شقيا بزوجته ، كما كان سقراط من قبل .. لم تؤمن زوجته يوما بتعاليمه ولم تفهمها ، فاعترضته فى تأدية رسالته .. واجتهدت فى ان تحول بينه وبين تحقيق مبادئه ، وأوغرت صدر أبنائه عليه ، وجعلت من افراد اسرته اعداء له ..

كانت امرأة مثقفة ، ولكنها كانت متعصبة لتقاليـــد بيئتهما ، مفتونة بحب العظمة والشهرة والمال والجاه العريض . فلما خرج تولستوى على وسطه الارستقراطى واعتنق حياة الفلاحين ، واندمج فيهم ، واشتغل معهم فى فلاحة الارض وفى مختلف الاعمال اليدوية المرهقة ،انقسم أبناؤه عليه .. فريق يؤيده ، وفريق يعارضه ، فذعرت الكونتس ، واستهولت من زوجها هذا التحول ، وناصبته العداء جهرة ، ورمته بالهوس والجنون . ولما كتب وصيته المشهورة التى نزل فيها عن جميع حقوقه فى مؤلفاته للشعب، نغصت عليه عيشه ، وسعت الى سرقة وصيته

والواقع ان الكونتس تولستوى ، عندما نشرت مذكراتها، ارادت ان تبرر مسلكها ، وتثأر من زوجها ، وتمثل ذلك الرجل الوديع الطيب السمح فى صورة الانسان الانانى المتكبر المتعصب القاسى . ولكن من ينعم النظر فى مذكراتها يحس على الفور أنها فشلت فى انتقامها ، وانها لم ترسم

صورة صادقة من زوجها .. بل رسمت فى الحقيقة صورة مروعة منها هى . فهى تعترف أنها لم تكن فى يوم من الايام سليمة الاعصاب ، متزنة العقل والعاطفة .. بل كثيرا ماكانت تفكر فى الانتحار عقب كل مشادة تقع بينها وبين زوجها . ولقد كانت فكرة الانتحار هذه مستولية عليها منذ صباها ، تراود ذهنها ، وتحتل خيالها وتبتليها بنوبات متعاقبة من الهستيريا ..

والعجيب فى أمر هذه السيدة الارستقراطية المثقفة ، أنها لم تستطع أبدا أن تسيطر بثقافتها على فكرها واعصابها .. فكانت لاتفهم كيف يمكن لزوجها أن يظهر فى بيته وأمام الناس بمظهر البشاشة والبهجة والفرح ثم يخفى فى الوقت نفسه حقيقة شخصيته ، ولا يحفل البتة بالاثر الخطير الذى تحدثه افكاره وتعاليمه فى محيط اسرته

كانت لا تفهم ان هذا التناقض فى مسلك تولستوى، بل هذا الازدواج فى شخصيته ، يرجع الى طبيعة عبقريته التى كانت تفرض عليه احتمال الحياة فى بهجة ومرح وهى تضطره رغم ذلك الى التشبث بفكره ، وستر هذا الفكر المتمرد الثائر خلف مظاهر الرقة والبشاشة التى يحتمها عليه مركزه ، بوصفه رب أسرة لاتشاطره اراءه ولا تعاونه على تحقيقها .. فأقصى ما كان يغيظها منه ، هو قدرته العظيمة على كبح جماح اعصابه واصطناع تلك الرقة والبشاشة بينما افكاره وتعاليمه تبذر بذور الفتنة والشقاق بينه وبين اولاده

ولقد كانت تعد ذلك منه قسوة وأنانية ونفاقا .. ولكنها لم تفهم ان بشاشة العبقرى الظاهرية التى تتعارض مع صرامة أفكاره ، ليست قسوة ولا أنانية ولا نفاقا .. وانما

هى رغبة نبيلة فى مسالمة أعداء يمتون اليه بأوثق الصلات ، أو هى منصرف يلطف من ألم التفكير ، أو هى اطمئنان الى الحقيقة التى انتهى اليها العبقرى ، أو هى فترة مهادنة يعقدها العقل لمصلحة العمل ..

ومما يدل على مبلغ تحامل الكونتس على زوجها ، انها تتهمه فى مذكراتها بالصلف والاعتداد بالنفس والظمأ الجنونى الى المجد ، ثم لاتدلل على ذلك ببرهان واحد أو بحادثة واحدة • وهى فوق ذلك لا تفتأ تنتقص من قدره ، وتعلى من شأنها هى . فتقول عنه بالحرف الواحد : « انه مخلوق قذر تنبعث من جسمه ويديه رائحة كريهة » . ثم تقول عن نفسها : « أنا امرأة مولعة بالطهارة .. وكل شىء طاهر هو شىء مقدس لدى . وانى فى أعماق نفسى أوثر الفنون والاداب والقيم المعنوية العليا على كل ماهو تافه ووضيع مما تهتم به معظم النساء .. » وفى هذا ، وفى غيره ، تميط الكونتس اللثام عن وجهها ، وتدلل على أنها كانت مزهوة بفضيلتها ، فخورا بذكائها ، غيورا من زوجها ، تعتقد أنها مساوية له فى التفوق ، وانها مصدر وحبه وسبب عبقريته ..

على اننا نشعر فى أقوالها بشىء من الصدق عندما تتحدث عن حب تولستوى الشديد لها •• بيد انها فى هذا الجانب الوثيق الصلة بأنوثتها ، كانت أيضا مغرورة ، وكانت واهمة •• لان تولستوى كان يحبها بجسمه ويكرهها بقلبه • كان يحبها بحيويته الجثمانية المتدفقة لا بفكره ولا بوجدانه •• كان معظم الازواج المحبين ، يتهلف على امرأته ،فتظن المرأة ان هذا التلهف الحسى المجرد هو الحب الكامل العميق ، فتأخذها نشوة الاستبداد والكبر ، فتحاول أن تمتلك زوجها ، وتحوزه ، وتخضعه ، وتسيره وفق

مشتهياتها . ولكن الزوج لايكاد يرتد الى عقله حتى يرى امرأته على حقيقتها ، فلايتردد فى محاسبتها على غلطاتها ونقائصها حسابا عسيرا ..

وهذا ماكانت تسميه الكونتس أيضا تناقضا .. اذ لم يكن فى وسعها ان تفهم ان تولستوى الذى احبها بجسمه كان يريد فى الوقت نفسه أن يعجب بها بعقله .. كان يريدها مخلصة لفكره ، أمينة على رسالته ، حريصة على مبادئه ، مشجعة له على تضحياته ، تشاركه فى مطالب العقل والروح كما كانت تشاركه فى رغبات الحس والبدن !

وهذا الخلاف هو الذى حفر الهوة العميقة بينه وبينها .. تلك الهوة التى نشعر بعمقها فى هذه الرسالة الفذة التى كانت اخر رسالة كتبها تولستوى الى زوجته :

قال الروائى :

لن ارجع اليك هذه الليلة يا عزيزتى ، وسأمكث فى بيت صديقى فيودور .. حتى أطمئن الى مستقبلى معك ، واثق بأن كل شىء فيك قد تغير ..

وقد تدهشك منى هذه الجرأة وهذا العزم .. ولكن ما حيلتى ، لم يعد فى وسعى أن أحتمل . ان حياتى بالقرب منك أصبحت بليدة خاملة بحيث بت أخشى منها على شخصيتى ، وعلى عملى ، وعلى كل ما كنت احلم به من عظمة ومجد ..

وأرى من واجبى فى هذه الساعة الفاصلة أن أشرح لك كل شىء ، واصارحك بالسبب الذى من اجله عقدت عزمى على مغادرة البيت ...

أنت يا عزيزتي امراة مصابة بجنون الحب والغيرة . لم يكد القدر يحقق أحلامك ويجعل منك زوجه لى ، حتى اضطرب عقلك ، واستعرت عواطفك ، وخيل اليـــك أن الزواج لم يخلق الا ليكون وسيلة مشروعة يجب ان تسخر لخدمة الحب والغيرة ..

فالحب في نظرك ، ولا سيما الحب المتقد غيرة وشكا ، هو المجهود الفرد الذى يجب ان تبذله المرأة فى ظل الزواج، وهو الغاية الوحيدة التى من أجلها تتزوج ، وهو المتعة الدائمة التي يجب أن يقدرها الرجل ، ويعب فيهـــا ، ويعيش منها ولها ..

وهكذا احببتني بعد زواجنا حبا صاخبا عاصفا .. زين لك خيالك الجامح انه لا يجب أن يضعف ، ولا يجب أن يفتر ، ولا يجب ان يسبقه شىء او يعترضه شىء او يقف فى وجه سيله الجارف اى شىء ...

وكنت أحبك أنا أيضا وما زلت أحبك . ولكنى شعرت، وا أسفاه ، انك تحبين حبك وغيرتك اكثر منى ، وتحبين ملذاتك ونزواتك أكثر من صـــحتى ، وتحبين غرائزك اضعاف حبك لواجبك البيتى ..

على أن واجب البيت عندك هو الحب .. فالعنـــاية بشئون زوجك لا تهمك ، وتربية أطفـــالك لا تهمـك ، ومسئوليتك حيال عملى وجهادى لا تهمك أيضـــا . كل هذه الواجبات المقدسة يخضعها جنونك لعـــاطفة الحب المقرونة بالغيرة . وما دامت هذه العاطفة مشـــتعلة فى صدرك ، فأنت مبتهجة ، وأنت سعيدة ، وأنت معتقدة — بل مؤمنة — بأن زوجك هو الآخر لابد أن يكون مبتهجا، ولا بد أن يكون سعيدا ، ولا بد أن يكون مثلك مؤمنـــا

بأن ملذات وآلام الحب والغيـــرة ينبغى ان تظل فوق مصلحة العائلة ، ومصلحة الابناء ، ومصـــلحة العمل ، وقانون الحياة باسرها .. تلك هى نزعتك الطائشة .. ذلك هو شيطانك . أنت عاشقة لا زوجة ، انت انثى لا امرأة ، انت غريزة تسعى لا مخلوق اجتماعى عاقل متزن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات ...

وانى لاصارحك هنا بأن حبك العاصف الغيور المخبول أرهقنى واضجرنى ولفنى فى شبكة مروعة من البـــلادة والكسل والخمول والظلام ..

والحق انى بت ابحث عن نفسى فلا اجدها ، وافتقد عقلى فيفر منى ، وأهيب بارادتى فلا اقع الا على أعصابى الخائرة ، وقواى المحطمة ، وعزمى المسلوب ! ...

نعم .. ان عدواك سرت الى .. فأنا اليوم خائف منك وخائف من نفسى .. خائف منك على شخصيتى وعبقريتى وعملى ، وخائف من نفسى أن أطاوعك فأجهز بيدى على احلامى ومستقبلى ! .. وهذا الخوف المزدوج هو الذى دفعنى الى الرحيـــل .. اذ كيف يمكن أن أعيش مـــع زوجة تأبى الا أن تمثل طوال حياتهـــا دور العاشـــقة المفتونة الغيـــور ؟ ...

ان الحب يا عزيزتى جميل ، ولكنه ليس كل شىء فى الحياة .. وأروع ما فى الحب هو التضحية ! ... فاذا لم تضحى ببعض حبك من أجل أسرتك وأولادك وزوجك، فأية قيمة لهذا الحب وأى نفع منـــه ؟ .. انه ليتحول اذن الى أنانية جنائية لا بد أن تقتل الاسرة ، وتقضى على الحب نفسه شر قضاء ! ..

وأنا احس ان حبى لك سيموت من فرط عنف حبك

وغيرته وجبروته المتسلط الاعمى ..

فثوبى الى رشدك وفكرى ..

انعمى النظر وافهمى .. افهمى أن على الرجل فرضا آخر غير الحب ، وعملا آخر غير العاطفة ، ورسالة اخرى غير الفناء والموت بين أحضان امرأة ! ...

الرجل يعيش للبيت والعالم ، للقلب والعقل ، للاسرة والانسانية . فلا تحبسيه بين جدران قلبك ، ولا تسجنيه بين حنايا ضلوعك ، ولا تقتليه فى حيوانية بدنك ! ...

انك ان أطلقت الرجل كسبته ، وان حررته انقذته ، وأن تعففت عنه ولو فترات ، سموت به وقويته وشجعته وأغريته بعظائم الاعمال ! ...

فأطلقينى من ربقة حبك المجنون والا أطلقت نفسى .. طهرينى من لوثة غيرتك الوحشية والا طهرت نفسى . مكنينى بتضحيتك فى سبيل أولادك وبيتك من أن أضحى أنا الآخر ببعض قوتى وشبابى فى سبيل انقاذ نبوغى وتوكيد عبقريتى وخدمة العالم ! ...

ان مجد المرأة لايتمثل فى حب الرجل ، بل فى استخدام حبها وحنانها لخلق الرجل ! ... فاخلقينى بحبك بدل أن تقتلينى ، انقذى البقية الباقية من قوتى بدل أن تجهزى على ! . ولكنك لو استرسلت فى غيك ، وأبيت الا أن تتبعى شيطان حبك وغيرتك ، فسيثبت لك الزمن ان فى مقدورى ان ادافع بمفردى عن شخصى ، وادافع بمفردى عن عملى ، واستغنى آخر الامر عن حبك كما استغنيت انت عن التفكير فى مصلحتى ! ..

هذه رسالتى اليك فاقرئيها بامعان وفكرى .. فكرى ولا تنتظرى .. لا تنتظرى أن أعود الى البيت قبل انقضاء شهر على الاقل ... فاذا عدت ووجـــدتك نفس المرأة الطائشة ، ونفس العاشقة المفتونة الغيور ، ونفس الزوجة المستهترة ، فسأقبلّ يدك شاكرا ، وأعتمد بعد الله عـلى نفسى وأودعك الوداع الاخير ! ...

***

وقد احدث هذا الخطاب أول الامر أبلغ الاثر فى نفس زوجة تولستوى .. فهذبت بعض الشىء من أخلاقهـــا ، ولطفت من غلواء حبها وغيرتها . ولكنها عادت فاستبدت بالرجل مما اضطره فى نهاية حياته الى هجر بيته مـــرة أخرى ، والموت وحيدا شريدا بائســـا فى غرفة عارية باحـدى المحطات ...



أول وآخر حب

« من الفنانة الاسبانية صانعة العرائس الشهيرة « كرمن نوفارو »
الى جارها « رامون »

عزيزى رامون :

لاريب أنك ستدهش عنـدما تقرأ هذا الخطـاب ، وسيأخذ العجب منك كل مأخذ فأنت تعرفنى .. ولكنك فى الحق لم تعرفنى أبدا ، ولم تهتم بى لحظة واحدة ؛ ولم تكلف نفسك ولو مرة عناء التحدث الى ، أو التأمل فى وجهى ، أو الوقوف بجوار مقعـدى المتحرك المخيف الذى يلقى الذعر فى قلب كل من تحدثه نفسه بالتطلع الى ..

نعم .. ان من تكتب اليك اليوم هى جارتك .. هى كرمن .. كرمن بعينها .. تلك الفتاة الشقية التاعسة المنكودة الحظ المصابة بشلل نصفى ، والتى عدا عليها القدر ، وقست عليها الدنيا ، وأجبرتها وهى بعد فى مقتبل العمر وشرخ الشباب ، على أن تقضى حياتها البائسة الموحشة فى مقعد متحرك صغير ذى أربع عجلات ...

هو ذاك يا عزيزى .. ان جارتك المشلولة ، جارتك المنبوذة ، جارتك التى لا أمل لها فى الصحة ، ولا أمل لها فى القوة ، ولا أمل لها فى التمتع بأية فتنة من مفاتن

هذا الكون الرائع البهيج ، هى التى استجمعت اليوم مدخر صبرها ، ومدخر عذابهـا ، ومدخر عواطفهـا ، وتجاسرت ، وكتبت اليك هذا الخطاب ..

فلاتغضب يارامون واسمع قصتها .. اسـمع ولا تحفل بها .. اسمع ولا ترث لحالها . اسمع ولا تفكر فى الاتصال بها ، أو العطف عليها ، أو محاولة انقاذها من شقائها

انى فتاة ، عشت أعواما طويلة فى ظل المرض . فالمرض احتوانى ، والمرض طوقنى ، والمرض أقام حاجزا مروعا بينى وبين الناس .. ليس لى غير عقل يفكر ، وصدر يتنفس ، وقلب يخفق ، وعيـون مفتحة ، ولهفة قلقة حائرة مذيبة ، تحطم نفسى وجسمى اضعاف مايحطمها المرض الذى شاءت الاقدار الغاشمة ان تبتلينى به ..

فالحياة تمر أمامى ، وقدماى عاجزتان عن اللحـاق بها . والناس يمرحون حولى وشـبابى عاجز عن ادراك خطواتهم ، والمسـافات والابعاد الشـاسعة تنادينى ، واعضائى الواهنة المشلولة عاجزة كل العجز عن تحقيق اية استجابة ، أو تلبية أى نداء ..

هكذا عشت فى صحراء نفسى ، وفى بحر خيالى ، وفى محيط أفكارى وعواطفى ، لا أرى غير ذاتى ، ولاأفزع الا اليها ، ولاأفرح الا بها ، كأنى قد خلقت من طينة غير طينة البشر .. وكأنى ماجئت الى هذا العالم الا لاعيش بمعزل عنه .. أود أن أندمج فيه فينهرنى ، واود أن ألمسـه فيزجرنى ، وأود أن أداعبه ولو بالنظر فيفرمنى ، ساخرا بحيرتى ، هازئا بألمى ، شامتا ومقهقها فى وجهى قهقهة وحشية مدوية هى حكم اعدام قاطع تصدره الطبيعة

على شبابى وحياتى ...

فالموت اليوم هو صديقي ، والوحدة الدائمة هى نصيبى ، وابتسامات الشفقة والرثاء هى كل ما جنيته حتى اليوم من حقل النفس الانسانية ومن القلب البشرى ..

فلكى أجد منصرفا لعذابى ، ومتنفسا لصدرى ، أولعت بفن عجيب .. مضيت أصنع عرائس من قماش بيضاء وزرقاء وحمراء ، أمثل فيها الحب والامل واليأس والهزيمة والعذاب ، وأعهد بها الى والدى الشيخ كى يبيعها فى السوق

ولقد أعجب الناس بعرائسى ، وقالوا عنى انى فنانة نابغة ، وأسرفوا فى مدحى وأطرائى اسرافا حاولت أن اقنع به وأكتفى ، وأن أجعل منه غاية أملى وقبلة حياتى فى هذه الدنيا ، ولكنى لم أستطع ...

أجل .. لم استطع ان أحل العرائس محل الحقائق ، وأن أرضى بالوهم دون الواقع ، وأن اعيش فى ضباب الحلم على حساب كل ماهو منظور ومحسوس .. فازداد ألمى ، وازداد شقائى ، وقربنى الفن من الدنيا بدل أن يقصينى عنها ، فشعرت بلوعة مرة وحسرة لاتطاق ..

وكانت نفسى تهفو الى شيء اقوى من الفن ، واعمق من الحلم .. واغزر من الخيال ، وكنت لا ادرى ما هو هذا الشيء الذى أصبو اليه حتى رأيتك يارامون وأدركت أنك تسكن بجوارى ، واحسست بومضات روحك تشع على . فاتقد وجدانى ، واحتدمت عواطفى ، وأحببتك حبا جارفا وأنا لا ادرى ..

أحببتك دون أن أخاطبك ، ودون أن أشعرك ، ودون

ان ادع نظرة واحدة من نظراتى اليك تفضحنى امامك ، وتمزق القناع الكثيف الذى أسدلته عمدا على وجهى ، وعلى قلبى ، وعلى كل جارحة فى ..

وكنت أنت تمر بى فى غدواتك وروحاتك ، وتلقى على نظرة آســـفة ، وتحيينى فى أدب وفتور . وكنت أنا اعشق عينيك الســـوداوين ، وأعبد شـــعرك المموج ، وأترامى صريعة تحت هيكل حسنك ، وأتمنى على الله الا يحرمنى من رؤيتك ، وأن يبقى لى نور عينى لأتملى من سحر طلعتك ، وبهاء رجولتك ، وفيض العزة والجلال الذى يسكبه الصبا الناضر عليك ! ...

ولقد اسعدتنى يارامون وانت لاتعلم ! .. جعلت منى أسعد مخلوقات الله طرا وانت لاتدرى ! فطفقت أصنع العرائس تحت تأثير وحيـــك ، وأبدع وأفتن فى غمرة الهامك ، فشعرت بالنعمتين الخالدتين : نعمـــة الفن ، ونعمة الحب .. نعمة الخيال ، ونعمة الحقيقة .. نعمة السماء ، ونعمة الارض ! ..

والواقع أنى ملكت الدنيا منذ أن عرفتك .. لم أعد أطمع فى شىء ، أو أحزن على شىء ، أو انظر متلهفة متحرقة الى شىء . نسيت قدمى المشلولتين ، وعجزى الشائن عن الحركة ، وذلى النفســـانى الفظيع ، وبدأت أرى الحياة فى حلة جديدة ، وأحسست أنى أتحرك ، وأنى اتحمس ، وأنى اختلج ، وأنى أعيش ألف مرة أكثر مما يعيش أوفر الناس صحة ، وأصلبهم قوة ، وأقدرهم على مواجهة السعادة ومجابهة النعيم

وكل هذا يارامون وأنت غافل عنى ، نافر منى ، غير مكترث لى ..

لم تكترث لى فى حين انك أنت الذى خلقتنى ! .. كل فكرة منى كانت رجع صداك ، وكل جمال ابدعته كان مستمداً من علاك ، وكل عاطفة خامرتنى كانت تتفجر من ينبوع حسنك ومن فيض بهاك ...

ومع ذلك فلم يخطر على بالى لحظة واحدة أن اكلمك أو انبهك ، أو أشعرك ولو من طرف خفى انى أعبدك ! .. كان الصمت يغمر حياتى ، وكان صمتا مليئا بك ، وكنت أسعد النساء بصمتى ، أحرص عليه حرصى على بصرى ، وأجد فيه نعيما لايمكن أن تشوبه شائبة الخيانة والغدر ، ولايمكن أن يتطرق اليه أى خوف واى قلق واى دنس ! ..

وكنت قد آليت على نفسى الا أتكلم ابدا .. فلماذا تكلمت اليوم اذن ، وما الذى أنطقنى ، وماهى تلك القوة التى أطلقت لسانى من عقاله ، ودفعتنى بالرغم منى الى طرح سر نفسى ، وجوهرة قلبى تحت قدميك ؟ ..

ان هذه القوة يارامون هى أيضا قوة القدر ! .. القدر الذى يشاء اليوم أيضا أن يطعننى فى شغاف قلبى ويسدد الى سهمه الاخير ! .. يجب .. يجب أن أرحل يارامون .. ان والدى سيغادر مدريد بعد عشرة ايام ، وسينتقل الى اشبيلية ليرأس الفرع الجديد الذى افتتحته الشركة التى يعمل بها ! .. ويجب أن أطيعه ! .. يجب أن اتبعه ! .. وهل فى وسعى الا أن أطأطىء الرأس صاغرة وأطيع ؟! ..

القدر اقوى منى ، واقوى من حبى ، وهو أبدا مسلط على ! .. فبعد عشرة أيام فقط لن أراك ياحبيبى ! .. سأحرم منك ! .. سأمزق فؤادى وروحى وعقلى

حسرة عليك ! .. فكيف كان يمكن أن ارحل دون أن اكاشفك بحبى ، وكيف كان يمكن أن ارحل حاملة سرى العميق فى أطواء صدرى ، وكيف كان يمكن أن أرحل دون أن اشعر ولو مرة واحدة فى حياتى بأنك هبطت الى قرارة نفسى ، واندمجت فى مقدس قلبى ، واصبحت زوجى بالعاطفة والفكر والروح ؟ .. زوجى ! .. يالها من نعمة لن أسعد بها أبدا ولابد أن تسعد بها يوما امرأة غيرى ..

أجل .. لهذا كتبت اليك ! .. لهذا اجترات واقتحمت حرمة حياتك ! .. فافهمنى .. افهمنى جيدا واذكرنى ! أنا أريد أن تكون سعيدا لأستطيع أن اشعر أن حبى العظيم لك تألق وازدهر وآتى أبرك الثمرات .. فتزوج يارامون وانسنى ! .. تزوج ، على أن تحب امراتك من أجلى ، وتخلص لاولادك من أجلى ، وتكون مثال الزوج النبيل الوفى من اجلى ! .. وكلما احببت امراتك اسعدتنى ، وكلما أخلصت لاسرتك أرضيتنى ، وكلما تفانيت فى البذل والتضحية من أجل أولادك ، أحسست أنا بالفكر والروح أنك اصبحت تحبنى ! ..

فاحمل قلبى بين يديك مشكاة تضىء امامك فسحة الدنيا وتهديك سواء السبيل .. واياك أن تتألم بسببى ! اياك أن تعكر صفو حياتك بالتفكير فى حظى ! .. سأعرف كيف أحتمل مصيرى ، وسأعرف كيف أخنق لوعتى ، وسأعرف كيف أعيش سعيدة بوحدتى ، سعيدة بحسرتى ، سعيدة بشللى ، مادمت على يقين من أنك قد عملت بنصحى ونفذت وصيتى ! .. ولسوف تعمل ولاشك بهذا النصح الثمين الغالى لان الطيبة متأصلة فى دمك ، والنبل طبيعة فيك ، وحب الخير للخير شيمتك ! ..

فتزوج وكن وفيا .. تزوج وكن سعيدا . ومتى وصلتنى انباؤك ، وعلمت علم اليقين أنك سعيد بقرب امرأتك ، سكنت لوعتى ، واطمأن قلبى ، وشعرت أعمق شعور وأبلغه انك أحببتنى أنا أيضا وتزوجتنى ! ..

فالوداع ياحبيبى واذكرنى .. اذكرنى واحرص على الوحى النبيل الذى اريد أن يخلفه فى قلبك صدق حبى . هذا الحب الذى هو أول واخر حب فى حياة فتاة تاعسة مشلولة قدستك وعبدتك وأنت لاتدرى ! .. الوداع !»

***

وتزوج رامون وأعقب طفلا ذكرا ، وكان مثال الزوج المخلص الوفى . ولكنه لم يوفق فى اختيار امرأته ، وقاسى الامرين من حدة طبعها وغلظة أخلاقها ، وأوشك أن يطلقها

ولكن كرمن التى كانت تتسقط انباءه ، كتبت اليه مرة أخرى تثنيه عن عزمه ، وترده الى رشده ، وتذكره بواجبه المقدس نحو ولده ، ونحوامرأته التى لابد له أن يصبر عليها ، ويكافح ما استطاع لتبديل أخلاقها ، وتهذيب طباعها ، حرصا على هنائه و راحته ومستقبل اسرته ..

ونزل رامون على حكم صانعة العرائس ، ولم يطلق .. ولكنه لفرط عذابه أحس فراغا فى قلبه ، وحاجة ملحة الى صداقة طاهرة بريئة تنقذه .. فشرع بدوره يكتب الى الفتاة المشلولة خطابات ملؤها اللوعة والحسرة والكمد ، يفرج بها عن نفسه ، ويتخلص بين سطورها من عبء همه ، ويصف فيها شقاءه الزوجى ، ثائرا على الحظ الفاشم الذى خان صديقته ، ونكل بها ، وحرمه قربها ، ووهبها النبوغ والفن ، ولكنه ضن عليها بالقدرة على الزواج ، والقدرة على الامومة ، والقدرة على الحياة

الشرق والغرب فى امرأة

الكاتب المفكر « كرومسوامى » يعتبر من أشهر ادباء الهند ، ويلي الشاعر طاغور فى الشهرة والمكانةالادبية. وقد تزوج هذا المفكر فتاة هندية محافظة اراد ان يجعل منها سيدة عصرية كاملة ، فكتب اليها يوما هذه الرسالة الطريفة :

أنا لم اقترن بك يا حبيبتى لأعيش بجوارك تلك الحياة الشائعة التافهة الرخيصة التى يحياها معظم الازواج .. كذلك أنا لم أقترن بك لأتمتع بجمالك فحسب ، وأنعم بقربك فقط ، وأرضى بك على علاتك ، وأتقلب فى جوك الناضر الساحر كما يتقلب كل رجل فى جو أنثى يحبها ، ويتمنى على الله الا يغير الزمن من أخلاقها وطباعها شيئا ..

الحق انى تزوجتك ، وانا أعلم انك فتاة محافظة ، شرقية المنزع والتربية والروح .. فتاة تخاف الرجال ، وتخشى المجتمع ، وترتعد فرقا من الحرية .. فتاة لم تعرف الحياة ، ولم تخبر الناس ، ولم تنطلق فى فسحة الدنيا .. فتاة كبلتها التقاليد البالية ، واستبدت بها العادات والنظم الرجعية ..

فأنا شاب شرقى الوراثة غربى الثقافة ، تزوجت فتاة شرقية لاصوغ منها مخلوقا على مثالى ، مخلوقا لا ينكر شرقيته اطلاقا ، بل يحاول أن يقبس منها أجمل ما فيها ،

ثم يضيف الى هذا الجمال أروع وأنبل ما فى النزعة الغربية من اتجاهات وميول وأساليب فى النظر الى المجتمع

وهذه الاساليب الجديدة هى التى أود أن أبسطها لك فى هذا الخطاب كى يتم التآلف بيننا ..

فاصغى الى يا زوجتى العزيزة : أنت امرأة تخـــاف الرجال وتتهيب المجتمع . ولكننى أقول لك ان قوة الانسان فى نظافته ،وان الانسان النظيف لا يخاف أحدا .. فأنت نظيفة لانك شريفة ، ولان غريزة تمجيد الشرف والمحافظة على العرض كامنة فى أعماق روحك الشرقى .. فتشبثى بهذه الغريزة واخــرجى الى المجتمع معى . ومـــا دمت تحترمين نفسك ، فلابد أن يحترمك الرجال ويتأثر أحطهم واوضعهم بهالة الشرف التى تطوق بها الفضيلة جمالك الفتان

ثم انك امرأة ضعيفة ، ضعيفة العقـــل والارادة . . ومنشأ هذا الضعف هو نقص ثقـــافتك ونقص اتصالك بالحياة ..

ففى وسعك استكمال ثقافتك بالمطالعة ، وفى وسعك استكمال خبرتك بملاحظة الناس ، وفى وسعك تربية ارادتك بالاعتماد على نفسك فى تصريف شـــئون بيتك تصريفا مستقلا تستعينين عليه بما أودعته فيك مطالعـة الكتب وقراءة الصحف ومخالطة المجتمع من آراء وأفكار ونظرات

ثم انك بعد ذلك امرأة تنفر من تحمل المسئولية ، وتلقى التبعات جميعا على عاتق الرجل . ولكن شواغل الرجل كثيرة يابنيتى ، وهو لايستطيع أن يجمع بين واجبـــات البيت وواجبات الحياة .. فكونى جســـورا مقـدامة

وفكرى فى شئونك بنفسك ، وعالجيها وفق اختباراتك ، ولا تنتظرى من زوجك أن يهديك ويرشدك الا بعد أن تكونى قد استنفدت عصارة جهدك ..

ثم انك فوق ماتقدم امرأة لاتهتم بالجانب المعنوى من شخصية زوجها قدر اهتمامها بالجانب المادى .. فعنايتك منصرفة الى طعامى وشرابى وكسائى ، لا الى فكرى ولا الى عقلى .. ولا الى الموضوعات الوطنية والانسانية الخطيرة التى تشغلنى

ان المشاركة الذهنية هى متعة الزواج الموفق ، وهى شعلة الحب التى لاتخمد ، وهى النسيم العليل الذى يلطف من حرارة الغريزة ويسمو بالرابطة الزوجية الى أفق رائع من التفاهم ..

ثم انك أيضا امرأة شرقية مضطرمة الخيال ، مشبوبة التصور ، نزاعة الى الغيرة الطائشة والحيازة المطلقة والتسلط الجارف المستبد ..

فعلام الغيرة وانت ترين حياة زوجك ، وتعرفين من هو ، وتلمسين عظيم حبه ، وعميق اخلاصه ووفائه ؟ .. وحتى لو شعرت ان زوجك يوشك ان يتبرم بك وينصرف عنك ، فواجبك أن تبحثى عن سر تبرمه لعله يكون صادرا عنك ، وواجبك ان تبذلى قصاراك فى منع هبوب العاصفة وفى الاستعانة بدماثة الطبع وكرم الخلق على استمالة الرجل ، وابقائه فى حوزتك ، وصرفه عن التفكير فى أية امرأة غيرك

هذه هى عبقريتك ، والعبقرية التى يمكن أن تتوافر فى كل أنثى ..

هذه أهم ملاحظاتى على شخصيتك . وأنا اعلم علم

اليقين ان اقناعك بوجوب تبديل أخلاقك وعاداتك ، ليس بالامر اليسير .. ولكنى مؤمن بحبك ، مطمئن الى رجاحة عقلك ، واثق من قدرتك على مجاهدة نفسك ، ومغالبة طبعك . وما حلمى الا أن أراك يوما امرأة فذة ، امرأة كاملة ، امرأة تمثل العاطفة والفكر ، القلب والعقل ، الشرق والغرب . امرأة شرقية بعفافها وحيائها ورقتها وتواضعها ودماثة اخلاقها وخفة ظلها ، وامرأة غربية بتوقد ذهنها وقوة ارادتها وجرأة شخصيتها وروعة كرامتها وعمق احساسها بمعنى المسئولية وقيمة الواجب وقداسة الحرية

***

وقد لبت المراة الهندية سؤل زوجها ، فعملت بنصحه، وظلت تروض نفسها على التحول حتى استطاعت ان تجعل من نفسها الشرق والغرب فى امرأة !



الكرامة فوق الحب

« كانت الرسامة الفرنسية الشهيرة مدام « فيجيه لوبران » قد احبت فى صباها شابا رائع الجمال اشـــتهر بالتقلب والتلون والعبث بقلوب النساء .. فلما حاول أن يغرر بها ، بعثت اليه بهذه الرسالة التحليلية الرائعة »

لماذا تخوننى ياحبيبى ، وأنا مخلصة لك ؟ .. لمـــاذا تخدعنى وتغرر بى وتسخر منى ، وأنا قد وهبتك ثقتى الكاملة وبادلتك الحب فى براءة دونها براءة العذارى ؟

لقد لمحتك بالامس فى تلك الحفلة الســاهرة تغــازل سيدة ، وتداعبها ، وتلاطفها ، وتوشك ان تختلس منهــا قبلة وموعد غرام ..

أليس كذلك ؟ لاتكذب .. هذا غير خليق بك ، فقل لى ما سر نفسك وما حقيقة شخصيتك ، وكيف يمــكن أن تكون مثال المحب الصادق الوفى وأنت معى ، ومثال المحب الصادق أيضا وأنت فى صحبة غيرى ؟!

هل أنت رجل أم ممثل ، هل انت انسان أم مهــرج ، أجبنى ؟

الحقيقة انك مخلوق صلف مغرور ، يود أن يستميل جميع النساء : ويستمتع بجميع النســاء ، ويشعــر بلذة

الزهو والخيلاء وهو يخضع لسلطانه جميع النساء !

انت رجل لا قلب لـــه ، ولا ضمير ، ولا عاطفة ، ولا احساس ، أنت كالنحلة ترف على جميع الازهار ، وتستخلص العسل من هذه وتلك ، دون ان تستقر على زهرة ، ودون ان تعرف للراحة او السكينة أية قيمة أو متعة !

والغريب أنك لفرط غرورك تعتقد أن جميع النساء غبيات وان ليس فيهن من تفهمك ، وان أذكاهن وأقدرهن لابد أن تقع فريسة لاطرائك وملقك ومجاملاتك وسـحر تظرفك ..

هو ذاك .. لا تغضب منى لانى افهمك ! .. فأنا لا أزعم انى خارقة الذكاء ، ولكنى أصارح فى غير خجل بأنى فهمتك حق الفهم لانى أحببتك ! ..

نعم وا أسفاه .. لقد أحببتك حبا عميقا ، حبا جارفا، ولم يكن فى استطاعتى أن أفكر فى أحد سواك . فلما احتل خيالك ذهنى ، وملك طيفك أحلامى ، أممنت النظر فى كل لمحة من لمحات نفسك ، وكل نظرة من نظرات عينيك، فأدركت اخر الامر أنى لم أعشق انسانا .. بل عشقت وحشا ضاريا يفترس للذة الافتراس ، ويعب فى الدم كما يمكن أن يعب المدمن فى نهر من الخمر ! ..

فيأيها الوحش الجميـــل .. ان ضعفك كامن فى أنك تنسى أنك وحش ، وتنسى أن العالم الذى تعيش فيـــه ليس هو عالم الغابة ، وتنسى أن هناك نساء غير متأهبات لمنح قلوبهن لوحوش !

وانا من هؤلاء النساء .. انا لا أؤكل ثم أرمى . . انا

لا اعتصر ثم أنبذ .. انا لا امتص ثم يلقى بى فجـأة فى عرض الطريق ..

كلا ياصاحبى .. ولهذا السبب عذبتك . لهذا السبب راوغتك . لهذا السبب تمنعت عليك ، وادميت قلبك ، وأبيت أن أكون زوجتك ..

وكيف ، كيف تريد أن امنحك نفسى وانا افهمك ؟ .. كيف تريد أن استسلم لك وانا اعرف غدرك ؟! لقد اردت اذلالك لتعرف نفسك ، وتعرف من أنا .. وتشعر ولو لاول مرة فى حيـــاتك ، بأنك اصطدمت بامرأة أقوى من سحرك ، وأقوى من ظرفك ، وأقوى من ألاعيبك ، وأقوى من غضبة الوحش المفترس الجاثم فى عمق نفسك !

والحق انى ماعذبتك وتمنعت عليك الا لتعـرف معنى الالم .. فأنت لم تتألم أبدا .. لم تبك ابدآ . لم تنهزم ابدا .. ولكنك تألمت بسببى ، وبكيت من أجلى وهزمت شر هزيمة امام ارادتى وجمالى وسحرى ! .. لا تنكر .. لا تشمخ بأنفك على ! .. انا القوية وانت الضعيف .. انا الثابتة وانت القلق .. انا المطمئنة وانت الحائر .. فابق هكذا وتألم .. ابق هكذا وتفطر .. واذا شئت أن تنصرف عنى فانصرف . اما اذا شئت ان تفوز بى ، وتظفر بحبى ، فعليك أن تحتمل طويلا ، وتصبر طويلا ، وتكافح طويلا ، وتثبت لى على مر الزمن انك أصبحت رجلا وفيا صادقا أمينا ، يمكن أن يحب امرأة واحـدة ، ويخلص لامـرأة واحدة ، ويرى مفاتن النســاء جميعا ممثلة فى امـرأة واحدة ! ..

هذا هو الحب .. وانا لا أقنع بغيره . فرض نفسـك عليه ان استطعت أو فارحل .. ولكنك لو تمكنت من كبح

غرائزك ، والتسلط على نزواتك ، واخضاع ميولك واهوائك لحكم الوفاء لا لحكم الشهوة الوضيعة الرخيصة المتقلبة الشائنة .. فعندئذ ، وعندئذ فقط يمكن أن أثق فيك ، وأقترن بك ، وأمنحك روحى وقلبى وجسمى الى الابد !

فالامتحان امامك ، والثمرة فى متناول يدك !. فاذا كنت حقا رجلا ، وكنت حقا تحبنى ، فجز هذا الامتحـــان عن طواعية واختيـــار والا فاذهب .. آخرج .. آخرج من العالم المتمدين .. اخرج من المجتمع المتحضر ، وانطلق الى محيطك المحبوب .. انطلق الى الغابة ثم ابحث لك هناك عن حيوانة خليقة بك ، حيوانة لا امرأة ، تقنع منك بمجرد اللذة ، وتنشد بقربك مجرد المتعة ، ولا تعطيك من نفسها فى لحظة عابرة أكثر مما تعطى الكلبة للكلب !

هذه كلمتى الاخيرة أيها الوحش الجميـــل . . فانعم النظر فيها ، واختر .. اختر بين الوفاء والغدر ، ثم أجبنى بكلمة .. بكلمة واحدة : اما وداعا واما ملتقى !..

***

ولقد أثرت هذه الرسالة فى نفس الشاب أول الامر ، فأخلص للفنانة اخلاصا أوشك أن يودع فى قلبها الثقـــة به .. ولكن طبعه كان اقوى منه ، فعاود سيرته الاولى ، فطردته شر طرد ، وظلت حريصة على نفسها حتى تزوجت!

خيانة واحتقار

« احبت الروائية المجرية روزموربسكو فى مطلع صباها شـابا خطبها ثم خدعها .. فلما اكتشفت الخديعة بعثت اليه بهذا الخطاب الذى كان آخر رسائلها اليه » :

لا أظن انك كنت تتـوقع أن أكتب اليك مثل هـــذا الخطاب • والحق انى أنا نفسى قد ترددت كثيرا فى كتابته • ولكنى بعد التفكير وانعام النظر ، رأيت من واجبى أن أكتبه ولو مزقت عباراته النارية قلبك وقلبى ! ..

من انت ياحبيبى ، وهل كنت اعرفك قبل ليلة أمس ؟. لا تضطرب .. لقد استيقظت فى النهـــاية وادركت .. ادركت انى كنت امراة سليمة النية ، صافية السريرة ، ذهب الحب بعقلها ، فلم تستطع أن تتبين حقيقة الرجل الذى كانت على وشك أن تقترن به وتهبه كل حياتها !.

عشرة اشهر وثلاثة اسابيع ! . تلك هى أيام خطبتنا !. ذلك هو الزمن الطويل الذى قضيته بقربك ، أنعم فيــه بحبك ، واعتقد اعتقاداً راسخا أنى قد وجدت فيك مثلى الاعلى ! ..

المثل الاعلى أم المثـل الادنى ياصـاحبى ؟!. عد الى نفسك ، وثب الى رشدك ، وفكر فى الشخصية التى كنت تظهر بها أمامى ، وتستخدمها للتغرير بى دون ما وازع من

خلق أو ضمير ! .. لم تكن فى حبك رجلا بل كنت عبدا ، عبدا ذليلا خاضعا ، يمثل الوفاء المطلق أروع تمثيل ، حتى انى مع نفورى من رغبتك فى اذلال نفسك ، ومع تبرمى بميلك الى امتهان رجولتك ، كنت أعتقد أن هذا الذل الاختيارى أبلغ وأعمق دليل على صدق حبك ! ..

وهكذا خدعتنى .. خدعتنى فى لؤم وخبث ودهاء ، خدعتنى فى لباقة وسفالة وانحطاط . خدعتنى بمظهرك وانا لا أعرف انك كنت تخدعنى أيضا بسلوكك ، ولا تكاد تختفى عن بصرى حتى تطلق لغرائزك العنان ..

ولكنى أدركت كل شئ ليلة أمس فقط ! . أدركت لانى رأيت ! .. ويا لهول مارأيت !. كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟. كيف طاوعك قلبك على تمزيق قلبى بمثل ذلك العبث المروع الذى هو والاجرام سواء ؟

كنت تعلم حق العلم انى مريضة ، وانى قد أصاب بالربو ، وانى أحوج ما أكون الى الراحة . وكنت تبصرنى منطرحة فى فراشى ، أقاوم المرض جهدى من أجلك .. فكيف فكرت فى ارتكاب جريمتك فى ذلك الظرف ، وفى تلك اللحظة ، فى تلك الليلة التى سهرت فيها بجوارى ، وطفقت تغنى وتنشد الشعر لى كى أنام على هدهدة أنغامك !

الا انك لفظيع ! . كيف اجترأت على مغازلة صديقتى فى بيتى ! .. كيف تجاسرت على ضمها الى صدرك ، وتقبيلها فى شعرها ، وفى عينيها ، وفى فمها ، تجاه فراشى ؟ ...
كنت تظن انى نائمة ، وأن أغانيك وأشعارك قد فعلت فى بدنى فعل اكسير خبيث ، وألقت بى فى ظلمة الرقاد الذى لا يشعر ولا يفهم . ولكنى كنت متيقظة .. كنت متنبهة

.. كنت من خلال عينى المغمضتين ومن خلال أهدابى المنهكة ، أراك على حقيقتك ، وأرى فيك شيطانا قدسته وهو يسخر منى ، ويلغ فى دمى ! ..

ولقد احترقت فى تلك الليلة أمس ، كما لم تحترق امرأة ! .. اكلت الغيرة صدرى ، ونهشت قلبى ، وحطمت ضلوعى ، وأسلمت للمرض قياد بدنى ، فبت اليوم اتخبط فى سعالى ، وأرى الموت رأى العين ، وأنا لا اعى ! ..

أجل .. حرقتنى الغيرة ، ولكن البغض اسعفنى فتفوقت على الغيرة وصرعتها ! . البغض ؟ . كلا .. بل هو الاحتقار ! الاحتقار هو الذى خنق غيرتى !.. الاحتقار البارد ، الاحتقار المتكبر ، الاحتقار المعتز ، الاحتقار الذى يحيل المرأة المخدوعة الابية الى ملكة ، ويجعلها تركل بقدمها الضعيفة حبيبها الخائن الذى كان بالامس كل حياتها .. وانى لاحتقرك اليوم يا صاحبى وألفظك ، احتقرك ولا اكرهك بعد الآن لانى لم اعد اشعر بوجودك !

فاذهب ، فقد قتل احتقارى حبى وغيرتى ، وأعلم انى سأبذل جهدى فى مقاومة مرضى ، حتى ترتد الى نضارتى ، ويرتد الى جمالى ، ويصبح فى مقدورى أن أستمتع بشبابى وحياتى فى صحبة رجل صادق ونبيل ، كلما أمعنت فى حبه ازداد احتقارى لك واشمئزازى ! ..

هذا خطابى الاخير .. وثق بأنى لو رأيتك مصادفة فى يوم من الايام ، فلن أعترض طريقك ، ولن أعاتبك بكلمة .. الوداع ..

قلب المرأة لا يموت

« هذه الرسالة كتبتها الاديبة الفرنسية « بلانش نادين » الى زوجها الكهل فى ساعة من أخطر ساعات حياتها . وقد انقذت بهذه الرسالة مستقبلها ومصيرها » :

إكتب اليك يازوجى العزيز وأنا خجلة من نفسى .. ولكن الطبيعة أقوى منى ، وهى التى تدفعنى ، وتملى على هذه الكلمات التى كنت اود من صميم قلبى الا أضطر الى كتابتها فى مثل هذه الحقبة من حياتى ..

انى الآن امرأة فى السابعة والاربعين من عمرى ، وقد انقضى على زواجى أكثر من خمس وعشرين سنة ، اصبحت فى خلالها أما وأنجبت ولدين تزوجا بدورهما وأوشكا أن يصبحا هما ايضا والدين ...

أجل .. هذه هى الحقيقة المرة . انا اليوم فى مهبط عمرى ونهاية طريقى ، تمتعت بكل شىء ، وعرفت كل شىء ، وسعدت بنعمة الزواج الموفق ، ونعمة الامومة المباركة ، ونعمة الطمأنينة والامن فى ظل حنان الرجل ووفاء الابناء .. ومع ذلك فانا اليوم اتعذب .. أتعذب عذابا لا حد له .. ولو انى تشجعت كما أريد أن أتشجع، وبحت لك بسر عذابى لاستولى عليك الدهش والذهول، واعتبرتنى امرأة مجنونة فقدت عقلها وفقدت كرامتها واستحالت الى مخلوق آخر عجيب غريب غير ذلك

المخلوق الذى كنت تعرفه بالامس ..

على انى احس انه يجب على أن اتشجع ، ويجب على ان اتكلم ولو سخرت منى ، وهزأت بى ، وإتخذتنى اضحوكة لك أيها الرجل القاسى القلب ، الانانى العاطفة، المتحجر الاهواء والميول ...

بيد أنك لو سخرت من اعترافى ، فلا بد أن اموت غما وكمدا وتكون انت قاتلى ! ... غير انى اعرف فيك جانبا من العطف والرحمة ما يزال حيا فى صدرك ، مضطرما تحت رماد أنانيتك وعبثك وقسوتك وعدم اكتراثك .. فهذا الجانب الحى هو الذى أريد أن اخاطبه الآن عساه ان يفهمنى ولو بعض الفهم ، كى يمد الى يد المعونة والغوث فينقذ البقية الباقية من حياتى وشبابى ...

فاسمع يا زوجى العزيز قصة نفسى ، واياك ان تضحك أو تسخر لان السخرية فيما يتعلق بمأساتى قد تعصف بعقلى ، وتقضى على شرفى ، وتجهز فى النهاية على

انى الآن وبعد ان زوجت ولدى الاثنين ، وانفصلت عنهما ، واصبحت أعيش معك وحدك ، اشعر بعزلة مروعة ، ووحدة قاتلة ، وفراغ هائل فى النفس تمرح فيه شتى الاخيلة والرؤى ...

لقد فقدت حب ولدى اللذين حملا الى زوجتيهما كل ماكانا يغدقانه على من آيات العطف والحنان . وهذا شىء طبيعى .. ولكنى احتملته أملا فى حبك أنت ، وعطفك أنت ، وحنانك أنت ، وشفقتك أنت .. كنت أنتظر بعد انفصال أولادى عنى ، ان أجد فيك ملاذا وموئلا ، ملاذا أهرع اليه ساعة ضجرى ، وموئلا أرتمى

فى حرارته الدافقة ساعة احس بفراغ نفسى وقلبى . هذا ما كنت اتوقعه ، ولكن ما اصطدمت به كان نقيض حلمى تماما ..

لم يلبث البيت أن أغلق علينا ، حتى أنصرفت أنت عنى ، وأهملتنى ، وانقطعت لاصدقائك ، والفت السهر بمفردك خارج البيت فى المسارح والملاهى ، كأنك لم تعش يوما ، ولم تكن بالامس شابا ، ولم تظفر فى مطلع حياتك بأى شىء من نعيم هذه الدنيا ...

وهكذا خلفتنى فى عزلتى ، أعيش مع خادمتى ، واقرض فى ظلام الوحدة همى ، وأتلهف عليك ، واصبو اليك ، وتمتلىء نفسى بفيض من العواطف لا أستطيع ان اجد له منصرفا فيرتد الى صدرى ويوشك ان يخنقنى ! ...

هو ذاك ياصاحبى .. انى فى حاجة شديدة الى الحب ! .. لاتضحك منى ولاتعتقد أن فى وسعى أن استغنى عن العواطف لانى قد بلغت السابعة والاربعين من عمرى ... ان المرأة ياصديقى تحب زوجها أولا ، ثم تحب أولادها وزوجها ثانيا . ثم تفقد أولادها بعد زواجهم ، فتجمع كل عواطفها وكل أحلامها وكل مابقى لها من شباب وجمال وترصده على شخص واحد هو زوجها ...

أجل .. انها تفعل ذلك وهى كهلة .. انها تنشد الحب ايضا وهى على أبواب الشيخوخة .. ذلك لأن قلب المرأة لا يذبل أبدا يا زوجى العزيز ، وهو لا يمكن أن يكتهل ويشيخ الا فى اللحظة التى تلفظ فيها المرأة آخر أنفاسها !

فانا اليوم أنزع الى الحب وان كنت كهلة .. أطلب

الحنان والعطف والرعاية والاهتمام أكثر مما كنت أطلبها وأنا شابة ٠ ان الحياة توشك أن تفر مني ، ولذلك أحبها أضعاف ماكنت احبها وأنا في مقتبل صباي وفي العشرين من عمري ! ...

هذا مالا تريد ان تفهمه أنت ٠ انك تقول في نفسك ان امرأتك قد انتهت .. تزوجت وأصبحت أما وشاخت وانتهت . ولكن لماذا تفرض النهاية على ولا تفرضها على نفسك ؟ .. لماذا تريد أن تلهو انت بالحياة وتحرمني انا منها ولاتشركني فيها ؟ .. لماذا تريد ان تعتبر نفسك انسانا ثم تنظر الى زوجتك نظرتك الى جماد ؟ ...

الواقع أن وحدتي قد بدأت تجثم على صدري كهم ثقيل ، وقد بدأت أشعر اني لابد أن أرزح تحت هذا الهم ، ولابد أن أنوء تحت عبء هذه الساعات الخطرة من حياتي ، الا اذا تداركني رجل مازلت أريد أن يكون هو أنت ..

انك الآن تسخر أيضا .. ولكن حذار من السخرية فهي التي تحفر الهاوية السحيقة بيني وبينك وأنت لاتدري ... فعد الى امرأتك ، عد الى وكرك ، واذكر انك انت أيضا في مهبط العمر ، وان حياة العربدة واللهو التي تحياها لاتتفق لا مع سنك ، ولا مع كرامتك ، ولا مع مكانتك الاجتماعية ، ولا مع واجب الحرص على البقية الباقية من صحتك التي لن تجد لك درعا غيرها عندما يعصف بك الضعف وتنشب فيك الشيخوخة مخالبها ...

فاخمد في صدرك جاذبية اللذائذ المحرمة ، تصن بدنك ، وتكسب نفسك ، وتمد في عمرك ، وتشعر بالقوة

والسكينة والصفاء وأنت فى شيخوختك ! .. ان الحرمان لمن كان فى مثل سنك هو سبيل التمتع .. فبقدر ما تحرم نفسك من الشهوات الرخيصة ، والعواطف العنيفة ، والرذائل المنحرفة ، بقدر ماتتمتع بالصـــحة والراحة ونعمة البقاء الطويل فى هذه الدنيا ، وخير طريق يهبك هذه السعادة هو طريق البيت لا طريق الشارع ، هو قلب الزوجة لا قلب الفانية ، هو حنان الشريكة الوفية المخلصة لا طمع البغى الكاذبة المخاتلة التى لايمكن ان تعرف الحب ولايمكن أن تقيم وزنا للاخلاص والتضحية

ان الحب فى بيتك ، فلا تتبرم به لأنك ألفته .. واعلم ان الشىء المألوف هو الشىء الباقى .. هو الشىء الذى صارع الايام واستطاع أن يتغلب على دورة الزمن .. هذه صرختى اليك .. فاسمعها ولاتضطرنى الى الرحيل . لأنى ساترك بيتى ، وألوذ بابنى الاكبر ، وأعيش فى كنفه ، ولو سامتنى زوجته شر ضروب الذل والهوان . أما اذا ضقت بعد ذلك ذرعـا بحيـــاتى وعجزت عن الصبر والاحتمال ، فسيكون التخبط والتشرد مصيرى ، وتكون أنت الرجل الذى خدمته العمر كله قد قضـــيت على بيدك وأهلكتنى ..

***

واحدثت هذه الرسالة أبلغ الاثر فى نفس الزوج .. فثاب الى رشده ، وأقلع عن رذائله ، وعاش بقرب امراته أهدأ وأسعد حياة

صورة المرأة المثالية

« واليك صورة المرأة المثالية الكاملة تختلج حرارة وحياة في هذه الرسالة الفذة التى كتبها الروائي المسرحي « جان ايكار » عضو الاكاديمية الفرنسية الى زوجته التى كانت تصطاف مع ابنهما فى احدى ضواحي باريس » :

فى يوم من أيام الشتاء ، والريح تزأر والمطر يهطل ، والبرد يجلد الدم والاعصاب ، سألتنى لماذا أحبك .. فاعرضت أنا عنك مقطبا حاجبى ولم أجب . كان الشتاء يخيفنى منك ومن الطبيعة ومن نفسى .. كنت لا أعرفك على حقيقتك ولا أثق بك . وكان هذا هو شتاء روحى .. كنت من فرط ما كابدت من نزوات النساء اعتقد انك مثلهن غشاشة كالسحاب ، كثيفة كالضباب ، خاطفة كالبرق ، قاسية مستبدة كهدير الموج أو زئير الريح أو زمجرة العاصفة . أما الآن ، وبعد ان عرفتك ، وأمضيت فى صحبتك اجمل وانضر اعوام شبابى ، استطيع فى هذا اليوم الربيعى الشائق ، ان أجيبك على سؤال الشتاء ، وأن أقول لك لماذا أحبك ، فى عبارات اتمنى من صميم فؤادى لو انها تصدح أمامك كالموسيقى ، وتدق حولك كطبول العيد ! .. لماذا أحبك ؟ .. احبك لانى كنت طائرا فاقتنصتنى ، وشريدا فآويتنى ، وضالا فهديتنى ، سكبت فى قلبى نعمة السكينة والاستقرار . أحبك لان بتسامتك الواضحة أخت الصراحة ، وضحكتك الرنانة

بنت البراعة ونظرتك الساطعة وليدة العزة والكرامة والترفع والاباء . أحبك لان ضميرك نقى لا يخالسه رياء ، وخاطرك ابيض لا يعكره دهاء ، ولسانك طاهر لا تلوثه النميمة ولا يعرف كيف ينفث السم فى الاعراض. احبك لان الناس يلهجون بذكرك فلا يأخذك الاطراء ، والقلوب تتبع طبفك فلا يفتنك الاغراء ، والكنوز تطرح عند قدميك فلا يستخفك مال ولا تذهب بلبك نشوة كبرياء . احبك لان العفة ثابتة فيك ثبات الايمان فى عمق القلب ، والوفاء راسخ فى صدرك رسوخ الشجرة فى بطن الارض ، والشرف شامخ فى نفسك شموخ المنارة فىعرض البحر ، والفضيلة متأصلة فى روحك تأصل الماء فى الينبوع ، أو النور فى الشمس .. لهذا كله احبك ، وأحب نفسى التى عرفت سر جمالك وقدرت فى عبادة وتمجيد نعيم حبك . فانا الآن انسان بفضلك .. انسان يقبل اروع وأنبل مافى الدنيا ، مادام يستطيع أن يضمك الى صدره ويقبلك !





الباب الثالث

من قصص الحب الخالدة

القربان



من أشهر قصص الحب فى الادب الروسى هذه القصة التى وضعها الكاتب الذائع الصيت مكسيم جوركى ، وتحدث فيها عن مأساة وجدانية غريبة وقعت له فى مطالع شبابه))

القربان

كنت فى مستهل شبابى واقعا تحت تأثير كاتبين كبيرين .. احدهما تولستوى والآخر فردريك نيتشه . وكنت ميالا بطبيعتى الى الاول .. أحب الشعب ، وأعطف على الفقراء والبائسين ، وأرى وجوب اقرار العدل والمساواة بين الناس واحلال المحبة والرحمة محل الانانية والعنف . ولكن عقلى النامى ، وذكائى المتقد ، وشعورى العميق بتفوقى ونبوغى ورغبتى الشديدة فى توكيد شخصيتى وابداع اعمال ادبية عظيمة تخلد اسمى على مر الاجيال.. كل هذه العوامل كانت تشيع فى نفسى البسيطة الساذجة ضربا من الزهو والكبرياء يقربنى من فردريك نيتشه ، ويحبب الى تعاليم هذا الفيلسوف الالمانى القائمة على كره المحبة ، وبغض الرحمة ، والسعى الى التفوق والسيطرة ، والاشادة بفضائل التخشن والقوة ، واحتقار الضعف والضعفاء ..

وكنت من فرط تأثرى بهذا الفيلسوف ، أومن ايمانا عقليا راسخا بأن من حق الانسان العظيم، أو الانسان الذى يصبو الى العظمة ، أن يعبث بالقوانين الموضوعة ، ويسخر بالعرف الاجتماعى ، ويسعى لخلق قانونه الخاص الذى يمهد له سبيل التفوق ، بحيث يستطيع ان يرغم الآخرين على احترامه ، ويجبرهم على الاعتراف بقيمته ، ويشعرهم بأن العبقرى مخلوق ممتاز ، وانسان اعلى ، لا يمكن أن يسرى عليه ما يسرى

على سواد الناس من آراء وأفكار وعادات ونظم ..

هذه الفكرة الطائشة الجامحة ، استبدت بى ردحا من الزمن ·· وملأتنى غرورا وزهـــوا ، وقطعت الصلة بينى وبين جوهر طبيعتى ، وأحالتنى مخلوقا قاســـيا مستبدا ، لا يكترث للعواطف ، ولا يقيم أى وزن للفضائل الرقيقة الوديعة التى تصدر عن القلب البشرى

وفى غضون هذه الازمة العقلية النفسية التى عصـفت بشبابى ، وأوشكت أن تخمد جذوة قلبى ، وتبـــاعد بينى وبين دنيا العواطف ودنيا الاحـلام ودنيا الحب : التقيت بفتاة ، كانت أول امرأة عرفتها ، وكان حبهـا الرائع الخارق العجيب هو الذى فصل فى مصير فكرى وفى مصير قلبى وحياتى ··

كانت تدعى ليزا سوكولوف ، وكانت بنت أحـــد المزارعين الاثرياء الاتقياء ·· وكانت فتاة شائقة الحسن ، مشرقة الروح ، ذات عينين زرقاوين صافيتين ، وشـــعر كستنى جعد ، ووجه بيضاوى كوجوه القديسات ، وصوت ناعم رخيم ، وفيض من الاسى ينسكب من هيكل نحيل دقيق ، علوى الفتنة ، شعرى المظهر والتأثير ··

شغفت حبا بهذه الفلاحـــة التى كـــانت تفوق أعرق السيدات الارستقراطيات فى نبل النفس ، ولطف الحس ورقة الشعور ·· شغفت بها ، وأردت فى الوقت نفســه أن تشغف بى ، وأن تسلس قيادها لسلطانى ، كى أمتحن بقربها قوتى ، وأخضعهـــا لحكم شـــــخصيتى ، وأطبق عليها تعاليم أستاذى نيتشه ··

وكانت الفتاة بريئة القلب والعقل ، ناضرة الاحساس والذهن .. فتفتح فؤادها للحب ، واستفاقت عواطفها

على دعوة الهوى ، فاستسلمت بجمع روحها وايمانها لى

ولم اكن جميلا ·· ولكنى كنت خلابا ·· كنت اتحدث اليها فيخيل لها أنى أضع العالم بأسره تحت قدميها · وكنت اخرج بها الى النزهة فى الحقول والمروج والوديان ، فتحس لفرط ما يخلع حديثى على الاشياء والاشخاص من خيال وشعر ، أن الكون قد ازداد جمالا ، وأن فى السماء وعلى الارض آيات من الحسن كانت تجهلها ، وكانت لا تراها ، فكشفت انا عنها النقاب ، وصببت عليها اضواء يخطف بريقها الابصار ·· وكنت احب ليزا بكل قوى قلبى وعقلى وجسمى ، ولكنى لم أفكر فى اغوائها ، لم يخطر على بالى لحظة واحدة ان انتهك حرمة هيكلها المقدس فأغرر بها واعبث بعفافها ·· كنت اتطلع الى امتلاك قلبها فقط ، الى احتلال هذا القلب والاستئثار به والتصرف فيه ·· الى اخضاع هذه النفس لارادتى ، وتطويعها لمشيئتى ، والشعور حيالها بمتعة القوة والسيطرة والتفوق التى ولدتها فى نفسى تعاليم الفيلسوف الالمانى أستاذى ..

واطمأنت ليزا الى ووثقت بى ·· احبتنى بكل طهرها ونقائها ، وجعلت تعلل نفسها بأن تصبح يوما زوجتى · ولكنى ابيت أن اتقيد بأى وعد صريح ، ومضيت احاور واداور ، واعرض واقبل ، وأفتن فى ابتكار وسائل الجذب والاغراء ، حتى آشتد ولع الفتاة بى ، وفنيت عواطفها وافكارها فى حبى ، وأصبحت ناضجة للتجربة الخلقية والنفسية التى عزمت أن

أطبقها عليها ، وأسومها عذاباتها ، تحقيقا لحلمى وتنفيذا لمبادئى ..

والواقع انى كنت اذ ذاك شاذ الميول والاهواء والنزعات . كان تأثير نيتشه قد استحوذ على ، وافسد خلالى الطيبة ، فأردت ان أمتحن قوتى لاعلم ليزا معنى القوة والتفوق وأجعل منها هى الاخرى تلميذة لاستاذى

وشرعت أقسو عليها لاعلمها كيف تقسو على نفسها وعلى الآخرين .. فرضت عليها البساطة المطلقة فى زيها والتجرد التام من كل اناقة ، وكل تبرج ، وكل رواء . زينت لها الخشونة باعتبارها رأس الفضائل .. اغريتها بالكبرياء والصلف والعزة ، والقيت فى روعها أن هذه الرذائل هى التى تميز الانسان الاعلى .. دفعتها الى ازدراء الفلاحين ، والسخرية منهم ، والترفع عليهم . رضتها على إحتقار الضعيف ، وعلى التحفظ الجامد الشامخ مع من هم دونها فى المركز الاجتماعى .. دربتها على غطرسة الارستقراطيين وعجرفتهم .. أجبرتها على المشى الطويل ، والعمل المرهق ، وتحمل الجوع والظمأ ، كى تألف التقشف ويصبح فى مقدورها ان تكون سيدة نفسها وسيدة الاخرين . وكانت ليزا العاشقة الصابرة المدلهة ، تعتقد أن هذه أخلاقى .. فكانت تطيعنى حبا فى ، ومرضاة لى ، وتدليلا على اخلاصها المطلق ووفائها العميق ..

ولم أكن لاقدر صدق حبها بقدرماكنت أعجب بسلطان ارادتى عليها .. كنت لا أنظر الى المرأة نفسها ، بل الى اثرى الواضح فيها . كنت لا أنظر الى قلبها الذى يحبنى ، بل الى عقلها الذى كان يجاهد تحت تأثير حبها كى يقلدنى ويقتدى بى ..

وزهانى هذا النصر ، وشعرت بلذة غريبة نادرة لم اشعر بها عمرى .. لذة التحكم فى فتاة جميلة ، ولذة التسلط على نفس بريئة ، ولذة صياغة شخصية وابداع فكر ، وخلق روح ..

ومع ذلك فقد لبثت اعتقد أنى مازلت أواجه ليزا الفلاحة الساذجة الطيبة ، وأن على أيضا أن أروضها ، وعلى أيضا أن أعلمها ، وعلى أيضا أن اصوغها ، كى ابدع منها مثلى العقلى الرائع المنشود ..

ومن فرط غرورى بنفسى ، وابتهاجى بفوزى ، وفرحى بطاعة الفتاة لى ، لم أستطع أن اتبين أول الامر على وجه الدقة عظم التحول الذى طرأ على أخلاقها ..

وفجأة ، وفى مثل لمح الطرف ، وجدتنى أمام فتاة أخرى ..

تبدل كل شىء فى شخصية ليزا .. نفضت عن كيانها غبار الضعف ، وأصبحت مخلوقا من عقل مجرد .. زايلتها عذوبة صوتها ، ودماثة أخلاقها ، ورقة حديثها ، وجاذبية وداعتها .. نشطت أعصابها ، واحتدمت قواها ، واتقد عقلها .. فغلظ قلبها ، وتحجرت عواطفها ، وغادرتها تلك الطيبة الصافية الساكنة الساحرة التى كانت مبعث فتنتها وسر جمالها ..

كانت أنثى فاستحالت الى انسان ، لا هو بالذكر ولا بالانثى .. استحالت الى منطق صارم جاف ، وفكر مستبد عنيد ، وعقل ضيق متغطرس .. فكانت تسرف فى التكبر على الناس ، وتسرف فى تحقير الجهلة وانصاف المتعلمين ، وتسرف فى اضطهاد الخدم ، وتسرف فى القسوة على الفلاحين الاجراء . وكانت تستبد بشخصها

هى أيضا ، وتحمل نفسها فوق طاقتها ، فتصوم عن الاكل الساعات الطويلة ، وترتدى الاثواب العاطلة الخشنة ، ولا تلزم الفراش اذا مرضت ، ولا تستقدم طبيبا ، ولا تعتمد على أحد فى دفع الاذى عنها ، أو فى تأدية واجب مفروض عليها ، أو فى معاونتها فى أى عمل من أعمال البيت ..

وليس شك فى أن ليزا اكتسبت من تعاليمى وتعاليم نيتشه فضائل ذات قيمة ملحوظة فى الحياة .. ولكنها لفرط ما أرادت أن تروق فى عينى ، بالغت فى توكيد تلك الفضائل.. فشوهتها ، وخرجت بها عن معناها ، واضافت اليها ما ليس منها . وهكذا بدآت لى هى وفضائلها ،هى وتعاليمى ، فى سلسلة من الصور المنكرة الدميمة المسوخة ، روعتنى وألقت فى فؤادى شتى عوامل القلق والاضطراب والذعر ..

وتبدد طيفها الاول ، وانهار هيكلها الجميل ، وانعقد حولها جو كثيف من الكآبة والجهامة والصرامة ، قتل فرحها الغرير ، وخنق شعورها الحالم ، وأجهز على البقية الباقية من سحرها العذرى الذى فتننى ، والذى عرف قلبى من خلاله معنى الجمال ، ومعنى الحب ، ومعنى الحياة ..

ولم أستطع الا أن أنظر اليها وأرتعد .. كرهت فيها المخلوق الجديد الذى ابتدعته يدى . ابغضت فيها الصورة الشائنة التى رسمها عقلى . لعنت فيها النزعة الشاذة الاثيمة التى أولع بها خيالى . وكنت أتمرد وأثور وأتمزق اذ أبصرها تنهر خادما أمينا ، أو تظلم فلاحا مسكينا ، أو تنهال ضربا على طفل صغير لانه تجاسر واقتحم حديقة بيتها ، وقطف منها ثمرة أو زهرة .

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن ، بدات أتبين الاشياء بضدها ، والمس خطر مبادئى ، وأراها كيف تنقلب الى رذائل وشرور عندما تطبق على الواقع المحسوس ..

وفى ضوء التحول الذى طرأ على شخصية ليزا ، استفاقت شخصيتى ، وتحرك جوهرها الاصيل ، وشرع يملأ نفسى ، وينتشر فى جوانب فكرى ، ويبكت ضميرى ، ويفعمنى شعورا بالاسى ، وميلا الى الندم والتوبة ..

وبينما كانت ليزا تقسو على الضعفاء ، كنت اشعر أنا بالشفقة عليهم . وبينما كانت تنهرهم ، كنت أود انا أن أستغفرهم . وبينما كانت تظلم أو تضرب أحدهم ، كنت انا أتمنى لو استطعت أن أخف لنجدته واذود عنه ، وأقبل فى خشوع واتضاع موطىء قدميه ..

ثبت الى رشدى وصحوت .. ارتددت الى طبيعتى وأدركت . اما ليزا فقد ابت الا ان تبقى حيث أردت لها فى مبدأ الامر أن تكون .. عبثا حاولت أن أصدها عن تيارها .. عبثا حاولت أن أردها عن غيها .. عبثا حاولت أن أقنعها أنى كنت مخطئا ومذنبا وأحمق وطائشا ومجنونا .. لم تصدقنى .. أوجست خيفة منى .. خشيت ان هى ارتدت الى طبيعتها الاولى أن اعود فأنفر منها وأكرهها وأغدر بها ..

والعجيب أنها هى نفسها بدات تلومنى على ضعفى ، وتسخر من طيبة قلبى ، وتدفعنى الى الاقتداء بها ، وتحذرنى من عقبى العواطف الرخوة الناعمة المستخذية ، وتمجد امامى فضائل القوة الغاشمة باعتبارها مثلا أعلى ..

وعندئذ هلع قلبى ، وارتعدت فرائصى ، ورأيت فى

ليزا الجديدة نقيضي ، وأيقنت أني مهما حاولت ومهما جاهدت فلن أستطيع أن أبدلها مرة أخرى ، ولن أستطيع أن احب فيها الصورة التي خلقتها أنا ، والتي أصبحت بالرغم مني أكرهها ، وأمقتها ، وأرى فيها رمز الرذيلة وعنوان الاثم والشر ..

واستهولت الفتاة تحولي ، واستغربت انقلابي ، وحارت وذهلت ، واستحوذ عليها شبه يأس مروع مخبول ... أما أنا فقد تباعدت عنها واختفيت تماما .. فكانت لاتدري ماذا فعلت ، وأي ذنب جنت ، وكيف تراني ، وأين تراني ، وفي أية بقعة من الارض يمكن أن تتصل بي .. فررت منها .. سافرت فجأة الى موسكو ، لم أودعها بكلمة ، ولم أبعث اليها بأي خطاب .. فجن جنونها واقتحمت داري وسألت عني . ولكن أهلي انتهروها وأوصدوا بابهم دونها .. ففضحت حبها ، وابتذلت نفسها ، وأراقت ماء وجهها ، وراحت تستفسر عني من أقاربي وأصدقائي ، وتتوسل اليهم أن يرشدوها الى مكمني ولكن على غير جدوى .. !

واذ ذاك فقدت حكمها على نفسها ، وعلى أعصابها .. فانخلع كيانها المعنوي ، واستوحشت ، ونفرت من الناس ، وهامت بالعزلة ، وأصيبت بشبه نورستانيا ..

وتطورت شخصيتها تحت تأثير حسرتها وخيبتها ويأسها .. فاتجهت بأفكارها وعواطفها وجهة دينية محضة . فكان يترامى الى أنها تصوم وتصلي ، وتقضي في الكنائس نصف نهارها ، وتشترك في أعمال الجمعيات الخيرية ، وتعيش في عالم روحاني علوي وجدت فيه العزاء والسلوى ..

وحز فى صدرى أن أكون أنا السبب فى حرمان تلك الفتاة من التمتع بحظها فى هذه الدنيا ، فحزمت أمرى ذات صباح وعدت الى قريتها ..

ولكنى قبل أن أصل اليها وقبل أن أرى حبيبتى ، كانت ليزا قد خرجت من بيتها ، وارتدت ثوبا أسود ، وأرخت على وجهها نقابا كثيفا ، واتجهت بخطى ثابتة صوب دير للراهبات كائن فى أقصى القرية ..

فلما بلغنى النبأ ، تاه فكرى ، وتفطر قلبى ، ورزحت تحت عبء مسئوليتى ، وانطلقت من فورى كمعتوه ، واتصلت برئيسة الدير ، والتمست منها أن ترحمنى وتسمح لى بمقابلة ليزا .. بيد أن ليزا كانت قد ودعت الحياة ، ونذرت العفة ، وأصبحت عروسا للمسيح .. فرفضت مقابلتى وأبت أن ترانى وأرسلت تقول لى انها لاتفتأ تصلى من أجلى ، وتبتهل الى الله أن يغفر لها ولى ...

وتشبثت بباب الدير ، ووقفت استجدى الرحمة .. غير أن الرئيسة انصرفت وتركتنى . فتقطعت نياط قلبى ، واحسست كأن يدا قوية تخنقنى ، فهممت بأن أصرخ .. ولكن سكون الدير أذهلنى ، وجلاله أرعبنى ، فحنيت راسى محطما متهالكا ، وخرجت وقد انفجرت من عينى الدموع !

***

ولبثت خاضعا لطيف ليزا كما يخضع الانسان لقدر محتوم يحلق ابدا عليه .. لم استطع أن انساها .. لم أحبب غيرها .. آمنت انها هى التى أيقظت فى نفسى روح المحبة ، وعلمتنى معنى الرحمة . فآليت على نفسى أن

أمجدها فى عملى ، وأن أخلدها فى فكرى ، وأن أكفر عن ذنبى بوضع عقلى وقلبى وفنى وعبقريتى ، فى خدمة كل مسكين ضعيف ، وكل بائس محروم من أبناء البشر اخوتى ..

وهكذا عشت فى ظل ليزا .. وهكذا سأعيش أيضا فى ظلها ، مكافحا مجاهدا مستبسلا ، حتى آخر نسمة من حياتى التى قدمتها قربانا الى الشعب ، كما قدمت ليزا حبها وشبابها وحياتها قربانا الى الله ! ..



عابد الحب والجمال



اشتهر الروائى الكبير جى دى موباسان بكتابة القصص الصغيرة، ولكنه نبغ فى القصص الكبيرة ايضا.. وهذه هى احداها وتعتبر من اروع قصص الحب فى الادب الفرنسى ..

عابد الحب والجمال

كان الرسام النابغة « أوليفييه برتان » فى نحو الاربعين من عمره ، ولكن روحه الساذجة كانت روح طفل تستكشف الحياة فى فضول دائم التجدد . وكان قد فتن باريس بلوحاته ، فأقبلت عليه العقائل النبيلات يتبارين فى أيهن تفوز بصورة لها من صنع يده ..

وكان خاوى النفس الا من حب الفن وحب الجمال ، لم يتعلق فؤاده أبدا بامرأة

وكاد أن يستقر ويرضى بهذا اللون من الحياة ، لولا انه دعى ذات يوم الى قصر الكونت « دى جيلروا » وعهدت اليه ارملة هذا الكونت برسم صورة لها ..

وكانت امرأة على جانب عظيم من الجمال ، رقيقة الاحساس ، سمحة الخلق ، فى عينيها الهادئتين حزن كمين ، وفى حديثها الخلاب ضرب من اليأس المتواكل المشوب بلوعة عميقة مرة ..

رسم لها المصور صورة بديعة أقر الجميع انها خير عمل فنى تتمثل فيها شخصيتها . ثم جعل يتردد على القصر فتوثقت بينه وبين المرأة عرى الصداقة ، وأحس على دهش منه ان هناك قوة خارقة تدفعه الى رؤيتها ، والجلوس اليها ، والاستمتاع بحديثها ..

واستعذب الجو الجديد الذى حبته به الاقدار كنعمة

غير منتظرة ، فأشربه وجدانه ، وراح يقف عليـــه كل ما وسعته احلامه من سعادة وهناء ..

كان يخيل اليه أنه لم يعش حتى هـذه الساعة ، وان ما صادفه فى طريقه من جمال لم يكن غير وهم بددته هذه الحقيقة الفاتنة

وكيف لا تذهب بلبه فتنة هذه المرأة وهو الذى أمضى شبابه يبحث عن المرأة الكاملة .. المراة التى تجمـع فى اطواء روحها فضائل الانوثة من حنان وطيبـة ورقة ، وفضائل الرجولة من استقامة ونزاهة وصراحة واخلاص .. وها هو ذا الان ، وقد اصـاب الهدف ، وعثر على الضالة المبتغاة ، يلقى عصـا الترحال ، ويحاول بكل ما أوتى من قوة أن يلهب فى كيان سيدة أحلامه تلك العاطفة العظيمة التى ظلت تعذبه السنين الطوال ..

***

وكان زوج الكونتس رجلا أرستقراطيا متغطرسـا جامد الحس ، غليـظ القلب ، منصرفا الى الشـئون السياسية وحدها ، لم يكلف أبدا نفسه عناء الاهتمـام بامرأته الجميلة الساحرة .. فعاشت الكونتس منطوية على نفسها خانقة ميولها ورغباتها ..

وكانت لهـا بنت تدعى « آنيت » ، تحبها الحب كله وتتعزى بها .. فلما مات الكونت ، احست ان حب ابنتها لم يعد يكفيها .. ولكنها جاهدت واحتملت وابت ان تفكر فى الزواج الا بعد ان تزوج ابنتها وتهيىء لها مسـتقبلا زاهرا

واحس أوليفييه أن الكونتس امرأة شقية ومحرومة .

وكان يعلم علم اليقين انها من المحال ان ترضى الزواج به حرصا منها على تأدية الواجب المقدس الذى استغرقها ، وخشية ان يؤثر زواجها بفنـــان على مستقبل ابنتها ، فازداد هياما بها وشفقة عليها ..

طارحها الهوى ذات يوم ، فثارت .. استنكرت منـــه جرأته ، كادت أن توصد فى وجهه ابواب قصرها . ولكن الفنان كان رحب الصدر ، جم الاحساس ، عذب العبارة ، مدلها حيران ، تبدو على وجهه امارات الضنى .. ويتفجر من حديثه ذلك الاسى العميق الذى كانت تحســـه المرأة ايضا فى قرارة نفسها ..

انه جاثيا عند قدميها ، يتوســـل ويستجدى ، ويلثم اطراف ثوبها ، ويدعوها لانقاذه من الوهدة التى لابـد لو حالفه اليأس ، ان يتردى فيها . وكان بارعا فى تصويره ، صادقا فى تهدج صوته ، ساحرا فى لون وجهـه الشاحب المكفهر الحزين .. فرثت المرأة لحاله ، ووقع من نفسها المه وعز عليها ان ترسل اليها الاقدار الرحيمة كل هذا الحب ثم تعرض عنه وتدعه لغيرها من النساء ..

وجاشت فيها العوامل المكبوتة التى حال المجتمع بينها وبين النماء ، وتصاعدت بغتة من حنايا ضلوعها وغمرتها .. فلم تستطع المقاومة ، وأقبلت على المصور ، واحتضنته وقبلته قبلة طويلة محمومة . فخيل الى الفنان عندئذ أن الطبيعة بأسرها قد عنت له ، وأن الحلم والحقيقة ، الفن والحياة ، المرأة والمجد .. كل هذه الروائع أصبحت ملك يمينه ، ممثلة اتم تمثيل وابلغه فى عينى هـــذه المخلوقة الشائقة التى لم يكن ليتصور منذ بضعة أشهر فقط أن فى وسعه ، وهو الرجل الشريد البسيط ، أن يرفع اليهـــا بصره لحظة واحدة ! ..

أما هى فكانت سعيدة كل السعادة بهذا الرجل النادر الوفاء والاخلاص الذى يجمع مفاتن العالم جميعا فى وجه واحد هو وجهها ، وطيف مختار هو طيفها .. وأما الفنان فقد تطور حبه واستحال الى عبادة حارة ، عبادة الحب والجمال ممثلين فى امرأة ممتازة ، لم يجد لها بين من عرف من النساء شبيها

ومرت الاعوام وتلتها أعوام أخر ، والمرأة تزداد ولعا ، والفنان يزداد هياما .. وعلاقتهما تتوثق ، والضجر أبعد مايكون عنهما ، والخلاف لاسبيل له الى قلبيهما

وسما بهما الهوى الى أوج المودة الهادئة ، فأصبح راحة كبيرة ، وحنانا غامرا ، ونعمة سابغة ، واتصالا بالفكر والروح لايعادله أى اتصال بالغريزة والجسد ..

ولكن الايام كانت تعمل فى الخفاء عملها ، وتحاول فى خبث وغدر أن يدمر صرح هذا البناء الرائع الذى شاده الوهم الخارق والحلم الجميل ..

لمحت الكونتس فى مفرقها أولى الشعرات البيضاء ، وأحس أوليفييه بالشيخوخة تنوء عليه ، وتنكر ملامحه ، وتكاد تقوض جسمه الرشيق . ولكن فرح الحياة كان مايزال يدوى فى صدره ، وعبادة الحب والجمال والشباب كانت ماتنفك تستأثر به ، وتخدعه عن حقيقة نفسه ، وتأبى الا أن تمثل أمامه الدنيا رافلة فى الحلل البهيجة التى كان يتعشقها أيام صباه .. وهل يستطيع فنان أصيل أن يودع الشباب على هذه الصورة ، أو أن يسمح للشيخوخة بأن تذله وتوصد دون أبواب النعيم ؟! ..

هذا العارض كان قوام شخصية أوليفييه .. هو

الذى دفع به الى حب الكونتس ، وهو الذى يعذبه الآن ويطارده ، ويحلق عليه كلعنة هائلة تحفر أمامه الهـــوة المظلمة السحيقة شيئا فشيئا !

***

وكان أوليفييه قد عرف آنيت ، بنت الكونتس ، فتاة صغيرة عابثة لاهية .. وحنا عليها حنو الوالد على ولده . وكانت الام قد أرسلت بها الى احدى المدارس الداخلية ، حيث مكثت الفتاة ثـلاثة اعوام لم يرها فى أثنائهـــا أوليفييه

وفى ذات يوم ، وقد أنبىء بأنها ســـتغادر المدرسة وتعود الى البيت ، فتح الباب بغتة ودخلت منه فتــاة آية فى الحسن ، بســـامة الثغر ، وضاحة الجبين ، فى عينيها الهادئتين صفاء ملائـــكى مشرق يأخذ بمجـــامع الالباب

اقبلت على المصور ، وحيته أحسن تحية وجعلت تروح وتغدو ، تقفز وتتحدث ، خفيفة النفس ، بريئة الروح ، يتدفق فى جسدها الناضر دم متحمس فوار ..

تفرس فيها أوليفييه ، واذا هى صورة حية لامهــا أيام كانت شابة !.. صورة عجيبـــة ومذهلة .. الفم القرمزى الصغير هو فم الام ، والصدر العريض صدرها ، والجبهة الناصعة جبهتها ، والصـــوت الرخيم صوتها ، والنظرة الوسنانة الحالمة هى نظرتها قبـــل أن تعكرها التجارب ، ويخمد جذوتها فعل السنين

أحس الفنان أن حياة حبيبته وحياته ، شبابهاوشبابه .. يتجددان أو هما قد تجددا بالفعل ، وبعثا فجأة فى هذه المخلوقة المقبلة على الدنيا بعـــزم ثابت ، وجأش

رابط ، وضحكة رنانة لاتحفل بهموم الحياة ، ولا تقيم وزنا لاى شيء ..

ودب فيه الذعر ، وسرت فى جسمه رعدة ، وطفق يتابع الفتاة بنظراته ، ويذكر بالرغم منه ساعات حبه الاولى ، شرع ينقل الطرف من الفتاة الى أمها ، وهو لفرط دقة الشبه بينهما يكاد يخلط بين ماضيه وحاضره ، ولا يدرى أهو يحب الأم أم البنت ، وأيتهما أجدر بالعبادة وأخلق بالاجلال والتقديس ! ..

راجع نفسه ، واستهول تحوله ، وجعل يفكر فى حبيبته وفى صمتها واتزانها وهدوئها المتواضع الكسير ..

هدوئها ! .. يا للخيبة الفاجعة .. انه لاشبه بالركود الآسن منه بالهدوء العميق الجذاب ! . أين ذلك الهدوء من هذه الحياة الجياشة المصطخبة التى تجرف فى غير مبالاة كل ما يعترضها ، وتصوب أبصارها بعيدا .. بعيدا .. هناك .. حيث المستقبل الزاهر يسطع عليه الشباب ويحميه ! ..

وشاع الاضطراب فى نفس أوليفييه ، وتنازعته عوامل الحيرة والقلق والخوف .. حاول أن يفر من هذا البيت ، ان يختفى ولو بضعة أيام ، أن يخلو الى قلبه الجاحد ويحاسبه حسابا عسيرا ..

ولكنه عبثا حاول .. كان طيف الفتاة لايبرح مخيلته ، وضحكاتها لا تفتأ ترن فى أذنيه ، وامتلاء بدنها الغض يلوح امامه ، فيقض مضجعه ويفعم ظلمة لياليه بالخيالات المروعة ..

وانصرف عن الام الى ابنتها ، يكذب على الاولى ، ويصطنع البساطة والبراءة والابوة ليظفر بنزهة أولحظة سمر مع الثانية ..

وأحست الكونتس بالخطر يهدد حبها ، ويهدد ابنتها على السواء .. كبر عليها ان تشـــيخ فلا تجد فيمن أحبته ملجأ ونصيرا . فكانت اذ تلفهـــا الوحدة ، تبكى وتتلوى حنقا وكمدا .. تبكى صباها الضائع ، ونكبة هواها ، وجنون حبيبها .. ثم تعاودها القوى فتثـوب الى رشدها ، وتهب من غفلتها ، وقد اعتزمت ان تفرق بين ابنتها واوليفييه مهما كلفها الامر من عذاب .. بيد أنها كانت لشدة عطفها عليه ، وتقديرها صدق عواطفه ، لا تبغضه بل ترأف به ، وترثى لحاله ..

اما هو ، فكان قد بدأ يحب الفتاة حبا عاصفا غلابا مبرحا دون أن يصارح نفسه جهرة بهواه ، ودون أن يتورع عن مقابلة الام ، ودون أن يشير أمامها ولو من طرف خفى الى ما قد يميط عن دخيلة قلبه اللثام .. ولكنها كانت تفهم كل شيء ، وتتجـــاوز عن كل شيء ، وتظن أنها لو تمكنت من تزويج ابنتها فقد تستطيع أن تنقذ كل شيء..

واقامت الحفلات ، وعرفت ابنتها الى نفر من الشباب واختارت لها من بينهم زوجا هو المركيز دى فاراندال .. فتى فى مقتبل العمر ، لا يمتاز عن أقرانه بشيء ، ثريا عاطلا ، يقضى معظم اوقاته فى الاندية والصالونات

ولم يكد اوليفييه يفطن الى تدبيرهـــا حتى التهب فى صدره غرامه الجديد ، وأحس الغيرة الممزقة الفاتكة . استولى عليه ضرب من الشلل الذهنى الفظيع ، فكف عن التفكير ، وكف عن العمل ولاذ بالوحدة والتأمل . فروعت الكونتس اذ ابصرته يشحب على مر الايام ، وينفر من الناس وتعتريه فى بعض اللحظات شبه غيبوبة .. فيظل مطرق الرأس ، مسبل الاجفان ، يختلج اختلاجـا عنيفا ،

ثم تتقبض عضـــلات وجهه ، وتــكاد تطفر من عينيه الدموع ..

ومع ذلك فقد كان يطمح فى قرارة نفسه الى تخليد حبه الجديد الذى يعيش اليوم من أجله والذى يبصره كل يوم متجددا حيا فى شـــخص آنيت ، والذى خان فى سبيله المرأة التى أحبته وأخلصت له أعظم اخلاص . اراد أن يفوز من الفتاة ولو بعمل فنى ينقع به غلته ، ويخمد النار المتأججة فى عقله وخيـــاله ودمه .. فدعاها ذات صباح الى بيته ، وثبت على القــاعدة لوحتـــه .. واعتزم ان يخلق من الفتاة صورة يودع فيها مأساة حبه ويسميها « حلم الحياة » !

واقبلت الصبية مصحوبة بأمها .. وشرع الفنـــان فى الرسم منهوك الاعصاب ، مرتعش اليد خائر القــوى وكاد يضل سبيله ، ويراكم الاضــواء والالوان فى غير حذق ويفتضح .. بل كاد يصرخ ألما ويأسا ويبكى ، فأسرعت الام وأشارت الى ابنتها بالخروج لحظة ثــم تقدمت الى حبيبها ، وجذبته اليها ، وحدقت فيه ، وكاشفته بالحقيقة كلها ..

قالت له فى صرامة يمازجها الحنان والعطف انه يحب ابنتها ، وان عليه ان يرتد الى صوابه ، ويشفق على حياته ، ويفكر فى مستقبل الفتاة ، ويبتعد أو يرحل أو يحتجب عدة أســابيع ريثما يتم عقد قران آنيت على المركيز .. فتهاوى الرجل ، وتــداعت البقية البــاقية من عزيمته واعترف للكونتس بأنه يحب ابنتها لأنه يحبها هى ، وأن مقياس حبه لها هو هذا الغرام المحرم الذى يشـــعر به اليوم نحو ابنتها .. واستحلفها بكل عزيز لديهـــا

الا تحكم عليـــه حكما قاسيا ، والا تحول بينه وبين رؤية آنيت ، وأن تمنع زواجها بضعة أشهر أيضـــا حتى يتم هو رسم صورتها ويستريح .. ولكن المرأة ثبتت فى موقفها ، وعادت تلتمس اليه الا يتهور ، وأن يناشد عقاله الحكمة .. ثم صارحته فى قوة وعزم بأن ليس فى وسعها ارجاء موعد الزواج خشـية أن يستفحل الخطب ، وتدرك الفتـــاة الحقيقة ، وتلغط بالحـادث المخجل السنة الناس ..

وكانت عبارات الكونتس تصدرعن نفس أبية شماء، لا تحس الاشمئزاز ولا تعرف الكراهيـــة بل تواجـه الواقع مواجهة جريئة ،وتفهم حق الفهم تقلبات الطبيعة ونزوات الفطرة وأحكام القلب البشرى ..

وانصرفت الام بعد أن وعدها المصور خيرا .. ولكنه لم يكـد يخلو الى نفســه ، ويفكر فى الفتـاة ، حتى عاد شيطانها يجثم على صدره وشرع يصليه مر العذاب . استعرض حياته الراهنة ، فألفاها خاوية من كل أمل ، مظلمة الا من هذا الضياء البعيد الثمين .. فطفق يصرخ ويجأر ويهذى هذيان محموم ، ثم أحس لاول مرة ــ لاول مرة منذ سنين ــ ان الام التى طالما احبها فى الماضى هى الآن العقبة .. العقبة الكؤود فى سبيل سعادته .. فجن جنونه ، ولم يطـق النزول على ارادتها ، فأسرع وارتدى معطفه واختطف قبعته ، وخرج ميمما وجهه شطر القصر، ينشد رؤية آنيت ..

ودخل وكان البهو غاصا بالزائرين .. فتلقته الكونتس بهدوئها العادى ، وانتبذت به مكانا قصيا . ولكنه تملص منها ودار بعينه باحثا عن الفتاة ، مرتقبا مجيئها مرهفا أذنيه لوقع خطواتها . ثم أقبلت آنيت فحياها وسمع منها

هى أن زواجها سيتم ، وانها سعيدة بعرسها ، وافرة الثقة بالمستقبل والحياة .. فأحس الفنان أن قلبه يتفطر ،وعاد يلتمس الى الأم ارجاء موعد الزواج . بيد أن الكونتس قطبت حاجبيها ، وفى لهجة جادة حازمة صارمة طلبت اليه ان يكف عن زيارتها ، والا يعود الا بعد أن يتم الزواج .. فاصفر لونه ، وتداعت قواه ، وكاد ان يتقوض ويسقط . فخشيت الكونتس أن يفتضح امره ، فأمرته أن ينصرف حالا والا ساءت العقبى ..

وأظلمت الدنيا فى عينى الرجل ، وشعر بأنه يطرد طردا .. فخرج مترنحا ، يتعثر بأثاث الغرفة ، والدم يغشى بصره ، ودقات قلبه تكادتخنقه . وما أن استقبله الشارع حتى انطلق هائما على وجهه لايدرى أين هو ، ولا الى أين يذهب ، ساهما تائها شريدا ، ينتحب ويبكى بكاء الاطفال ! .. فقد الشعور بأنه يمشى وسط الناس ، وأن الشوارع حافلة بالسابلة ، وانه يجب أن يتنبه ويستفيق ..

وفجأة صرخ أوليفييه بصرخة هائلة ، ومال على نفسه، ثم وقع على الارض لايعى شيئا ، وقد صدمته مركبة كبيرة ، ومرت عليه عجلاتها فأخمدت للفور صرخته وتركته مخضبا بالدماء ..

واسعفه نفر من السابلة ثم حملوه الى بيته وهو بين الموت والحياة .. اما الكونتس فلم يكد يبلغها النبأ حتى ملكها الرعب ، فأسرعت الى بيت حبيبها والدمع يترقرق من عينيها .. وماوطئت قدماها عتبة الغرفة حتى شاهدت الرجل الذى كانت تعبده مسجى امامها ، شاحب اللون ، ضامر التقاطيع ، غائر القسمات .. فارتعدت فرائصها ، ولم تستطع الا ان تقف مذهولة مبهوتة وقد عقل الرعب لسانها ..

وتقلب الجريح على فراشه ، والتقت أبصاره بأبصار حبيبته القديمة ، وتفجرت عيناه بالعبرات .. فاقتربت المرأة منه ، فأخذها بين ذراعيه ثم قبلها واستغفرها ،وقال انه لم يكن مسئولا عن عواطفه ، وأن القدر الغادر هو الذى أراد ما كان ..

وكان قد جمع رسائلها الغرامية ، فناولها اياها،ورجاها أن تحرقها هنا .. فى الموقدة .. حرصا على سمعتها !..

فأطاعت وألقت بالرسائل فى النار ..

وشاع السكون فى الغرفة ، ولم يعد يسمع فيها غيرأجيج النار فى الموقدة ، وزفرات الفنان الجريح ..

والتمعت جمرة من الجمرات .. فاستضاء بفتة محيا أوليفييه . فانحنت الكونتس عليه ، ولمست كفه المتدلية ، واذا هى رخوة باردة برودة الثلج . فنهضت والذعر يملأ قلبها ، وحدقت اليه .. فأبصرته ساكنا هادئا مستريحا، يبتسم ابتسامة عذبة صافية كأنما هو سعيد بأنه قد عاش وتألم ومات ، لا من أجلها ولا من أجل ابنتها ، بل فى سبيل الحب والجمال ..



فى مهب العاصفة



« هذه قصة من أبدع قصص الحب فى الادب الايطالي ، وهي للشاعر المشهور جبرييل دانونزيو »

فى مهب العاصفة

كان الفتى القروى « ريكاردو » لا يبلغ من العمر أكثر من ثلاث عشرة سنة . وكان يشبه الذئب الهائم فى المراع بحثا عن فريسة . ولكنه كان طيب القلب ، رقيق الحس ، فياض العواطف ، أعذب خلقا والطف نفسا من ماء الجدول الرقراق الذى ينساب فى وسط القرية التى يعيش فيها

وكان أسود الشعر ، ضيق العينين ، قذر الوجه ، يقتات من الثمار التى يسرقها من مزارع الفاكهة ، ويقضى سحابة نهاره فى الحقول ، متفيئا ظلال الشجر ، أو مرتميا على الارض الصلبة الحارة ، يمرغ بدنه اللين فى التراب تحت أشعة الشمس المتوهجة . .

وكان يرسل فى الوقت بعد الآخر ، صيحات متحشرجة تشبه عويل الطفل ، أو صرخات متقطعة مزعجة تشبه عواء الكلاب . . ذلك لانه كان أبكم لا يستطيع النطق بأية كلمة من تلك الكلمات الواضحة السحرية الجميلة التى ينطق بها جميع الناس . .

ولقد حدث أن سطت عصابة لصوص على كوخ فلاح فقير من فلاحى القرية ، فقام فى نفس ريكاردو أن يذود عن الكوخ ، ويمثل دور الرجل ودور البطل ، ويتحدى اللصوص . فانقض عليه اللصوص كالوحوش الكاسرة ، وقطعوا لسانه عقابا له على غروره وطيشه وتهوره

ولقد أوشك ريكاردو اذ ذاك أن يموت .. ولكنه نجا بأعجوبة . وما أن ارتدت اليه الحياة حتى ضاق صدره ذرعا بهمه ، واسخطه وأحنقه عجزه المطبق عن الكلام . فاسودت الدنيا فى عينيه ، فهجر المزرعة التى كان يعمل فيها ، وهجر كوخه المتحدب الصغير ، وهجر أمه العجوز البائسة .. وطفق يضرب فى انحاء القرية ، عارى القدمين، مشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، ملتمسا فى حضن الطبيعة عزاء لقلبه وسلوى ..

وهكذا أصبح من فرط اللوعة والحسرة والحنق شريرا .. اصبح شريرا بالرغم منه ، وبالرغم من عوامل الخير التى كانت تستيقظ فى نفسه فجأة ، وتنبهه وتحاسبه ، ولكن على غير جدوى ...

ومضى يتصيد الطيور والحشرات ، ويفتن فى تعذيبها كما انطلق يضرب الاطفال ضربا مبرحا ، أثار عليه ثائرة القرويين جميعا ..

وكان يجد لذة عميقة فى الحاق الاذى بالغير .. ولكنه كان لا يلبث ان يحس خطر هذه اللذة على حياته ، حتى يسرع بالفرار ممن يتعقبه .. فيتسلق الاشجار العالية ، أو يندس فى الغابات الكثيفة ، او يحتجب فى الصوامع النائية أو يرتمى كالحيوان المطارد فى اى مذود من المذاود القصية التى أعدت للماشية المريضة أو المصابة بالاوبئة

ولم يكن هناك انسان يعطف عليه غير الراعية اليتيمة المدعوة « كريستينا » ...

وكانت هذه الراعية فتاة فى مثل سنه ، ضامرة الوجه ،

نحيلة الجسم ، عذبة الصـــوت ، ذات عينين واسعتين متقدتين ، وخدين شاحبين غائرين ، وشعر أشقر مشنوش، يسترسل فى صخب لاهث مجنون على وجهها الداكن البائس المسكين ..

وكان ريكاردو قد أبصر كريستينا لاول مرة قابعـــة بجوار الجدول المتدفق وسط القرية ، تتأمل ماءه ،وتنصت الى خريره وهى تقضم كسرة خبز .. فدنا منها ، ورمق الخبز بنظرة متلهفة ولم يتحرك .. فرفعت اليه الفتــاة عينيها الوضاءتين ، وقالت وهى تقدم اليه كسرة الخبز :

ـ اليك هذه .. معى قطعة اخرى ..

فتناول ريكاردو كسرة الخبز فى هدوء واقترب أيضــا من الفتاة ، ولاح على شفتيه الدقيقتين المرتعشـــتين ظل ابتسامة ..

وشرع الصبيان يأكلان ونظراتهما تتلاقى ، وابتساماتهما تتجاوب ، وانفاسهما تتقارب وتتهافت وترتجف ..

وصاحت كريستينا فجأة وهى تحدق الى الفتى :

ـ من أنت ؟ .. ومن تكون ؟ ..

ففغر ريكاردو فاه المغضن ، وادلى بلســانه المقطوع ، وأرسل صرخاته المتقطعة المزعجة الشبيهة بعواء الكلاب .. فحولت الفتاة بصرها اشمئزازا ورعبا ، فامسك ريكاردو بها ، وربت على كتفها ، وترقرق الدمع من عينيه ، وغمغم كأنه يريد ان يقول لها :

ـ لا تذهبى ! .. ابقى بجوارى لحظة اخرى .. لاتنفرى منى أنت أيضا .. كونى طيبة يا كريستينا واشـــفقى على ! ..

فاختلجت الفتاة ، وجاهدت فترة لتبقى .. ولكن الرعب عاد فاستبد بها .. فنهضت مسرعة ، وتمتمت :

ـ الوداع ! ..

وظل ريكاردو يتبعها بنظره ، وهو ساهم شارد، وعيناه الزائغتان تتخطفان ذهب شعرها الاشقر ، وفضة بدنها الناضر ، ولمعة ذراعيها البضتين ، وأضواء قدميها المتوثبتين العاريتين اللتين لوثهما التراب

***

وألف ريكاردو التفكير فيها ، والبحث عنها ، والجلوس اليها .. فصدت أول الامر وتمنعت . فما زال بها يأسرها بصبره ويستعطفها بسحر ابتسامته ، ويستميلها بالحزن العميق الماثل فى عينيه ، حتى رق له فؤادها .. فراضت نفسها على قربه ، واستأنست فى النهاية به ،وراحت تجيبه ملهوفة الى سؤله ، أسعد ما تكون بشعور الرحمـة الذى استغرقها ، وبدد رعبها ، وأنساها منظـر الفم المغضن ، واللسان الاسود المشنوه المقطوع ..

وكان اذ يلتقى بها ، ويجلس على العشب الاخضر تجاهها، ثم يميل فجأة برأسه الضخم على ركبتيها ، يحس كأن قلب الطبيعة بأسرها قد تفتح له ، وكأن كل مافى الدنيا قد أقبل عليه ، وكأنه أصبح بين عشية وضحاها انسانا فذا خارقا عجيبا ، لا يتكلم فقط بل يصيح ويهتف ويهلل بلسان أوتى فصاحة كفصاحة النور ، وطلاقة كطلاقة الهواء ، واندفاقا رائعا كاندفاق السيل ..

وكانت كريستينا تنكمش فى حضنه كالهرة ، وتمـرغ صفحة خدها فى شعره المموج الغزير ، ثم تقص عليه بصوتها

العذب قصة الساحر البائس الذى عشقته بنت الملك .. فكان ريكاردو يصغى اليها ، وهو مهدهد على نغمات صوتها، ثم يضمها بغتة الى صدره ، ويلف ذراعه القوية حول خصرها .. ثم ينام وهو يحلم ببنت الملك ، وعبارات كريستينا تنصب فى أذنه ، وتخالط فكره وحواسه ، وتنساب فيه انسياب الخمر كى تذكى احلامه وتلهبهما وتنفجر فيها انفجار الشمس ..

واقتدت كريستينا بريكاردو ، وابت أن ترعى المواشي ، وانطلقت فى صحبة الفتى تقتات مثله بالفاكهة المسروقة ، وتقتحم مثله بساتين القرية ، وتنام مثله فى الازقة، والدروب، وتستهدف مثله لشتى المخاطر ..

وكان هو مأخوذا بجمالها ، مفتونا بصحبتها ، مزهوا بقربها .. يحملها تارة على كتفيه كأنها طفلة ، ويلقى بها على الارض أخرى كأنها لعبة . ويطلقها فى بعض الاحيان ثم يطاردها كأنها فريسة .. ثم ينقض عليها بغتة ، ويهم بتقبيلها ، فيحجم بالرغم منه وينثنى عنها وهو يضحك ويقهقه ...

ولما كان يضحك ، ويظهر فجأة لسانه الأسود المقطوع كانت كريستينا ترتجف ، وتحول البصر عنه مكرهة ، فيبتئس الفتى ويحزن .. فتكر عليه نادمة مستغفرة ، وتحتويه بين ذراعيها البضتين ثم تضحك هى الاخرى ..

واعتادت ان تفهمه باللمحة ، وتخاطبه بالنظره ،وتخضع له بالاشارة .. كما اعتاد هو ان يتكلم ويفصح بالحركة ، شاعرا ابلغ شعور واوفره وامتعه انه اصبح أقوى وأعظم من أى انسان ، وأن رأسه وعينيه ويديه وسائر أعضائه قد استحالت كلها الى ألسنة حية ، تنبض بالعاطفة ، وتختلج بالفرح والنشوة والحياه ..

وقبل ان يفد الشتاء استولى على الارض شبه فتور حالم .. وتجمعت فى السماء بعض السحب ، وتجردت الاشجار من أوراقها ، ثم غام الجو واحلولك شيئا فشيئا، وبات من المتعذر على الشمس ان تغالب فى عزم ضربات الغيوم .. وشاع هذا الفتور فى نفس الصبيين ، ومازجته برودة خفيفة منعشة . فكانت كريستينا لا تثب على العشب الندى بل تتمدد عليه ، ولا تتمدد عليه فقط بل تتقلب فيه .. تتقلب وتتأوه وتتمطى ، وهى تنظر الى ريكاردو نظرة جانبية منهومة ساذجة فى رغبتها ، بريئة فى تلهفها ، لا تدرى ماذا تريد ، وماذا تنشد وتبتغى ...

وفى ذات يوم ، وقد اسكرت النسمات الرطبة العليلة بدن الفتاة .. ارتمت كريستينا على العشب الاخضر ثم زحت تحت وطأة التعب ، فعقدت ذراعيها خلف رأسها ، واغمضت عينيها الواسعتين ، وراحت فى سبات عميق .. نامت كما ينام الوحش المجهد الضال ، فلبث ريكاردو يتأملها وهو يلهث ...

لم يفهم لماذا هى قد خلقت الى هذا الحد جميلة،وماذا تريد الطبيعة بجمالها الفتان ، ولماذا هى الآن راقدةبجواره تحلم وتئن وتتلوى ، ولماذا هو مندفع اليها ، منجذب الى جثمانها ، يتفرس فى كل فتنة من مفاتنها ، ويرتعش وينكمش ويتراجع ؟ ! ...

وأمضه هذا الاضطراب الذى لم يعرف مصدره.. فأراد أن يتحول به الى فرح خالص كى يتحرر منه . فتلفت حوله والدم يغلى فى عروقه ، ومشى بخطى وئيدة متلصصة، واتجه صوب شجيرة قطف منها بعض أزهار كبيرة .. ثم قفل راجعا وهو يزفر ، ونثر الازهار حول بدن الفتاة ، ثم دنا منها ، وانحنى عليها . وفى غفلة عن حواسه ، وقبل

أن تجرفه الموجة العارمة التى كان يحس سلطانها ويجهل سرها ويخافه .. أغمض عينيه التائهتين ، وتشـــجع ، واختلس من الفتاة أول قبلة ثم هرب ...

هرب وانطوى فى ركن بعيد وظل يضحك .. فاستفاقت كريستينا مذعورة ، وانتفضت ، ثم جمعت حول بدنها أطراف غلالتها البيضاء ، ثم عصف بهـــا الاضطـراب والجهل والخوف هى الاخرى .. فصاحت بالفتى :

ــ أمجنون أنت ؟! ..

ثم ابتسمت .. فتطلع اليها ريكاردو وتطلعت اليه . ولبث كلاهما ساهما شاردا محيرا .. يتفرس فى الآخـر ولا يدرى ما معنى هذه القبلة ، وما الغـــاية منها ، وما السر فى عنفها واتقادها ، ولماذا هى حارة وممتعة وشهية

***

وانقضت أسابيع طـــويلة ، وانتهت فترة التشـــرد الرائع فى الغابات والحقول ، وأقبل الشتاء ..

أقبل الشتاء بسمائه المظلمة ، ورياحه المدوية ، وبرقه الخاطف ، ورعده القاصف ، وأمطاره الغزيرة التى تجلد البدن كالسياط ..

وأحس الصبيان أنهما فى حاجة الى مأوى ، وفى حاجة الى نار .. فأظلمت الدنيا فى عينيهما ، واوجسا خيفة من هبوب العواصف وهجمات الجليد . فانكمشا ذات مساء تحت جذع شجرة كبيرة .. وتبادلا النظر الحـائر القلق وهما يرتجفان ، وشرع كل منهما يفكر فى مصير صـــاحبه

وكانت كريستينا قد استمرأت لذة الحرية ، ونعمـة الحياة الوادعة الرخية المستهترة فى صحبة ريكاردو ..

فعز عليها ان تنفصل عن صديقها ، وعز عليها أن تعـود وترعى المواشي ، فقالت للفتى الابكم وهي تنـزوى تحت أغصان الشجرة الكبيرة ، وأسنانها تصطك ، ولفحـات البرد القارس تسوط منها الجلد وتفرى العظام :

ـ لماذا لانذهب الى بيتك .. الى كوخك ؟. لمـاذا لا نقضى العمر هناك ، نزرع أرض سيـد من الاسيـاد ، ونعيش معا فى ظل أمك الطيبة العجـوز ؟ . أنا لم أرها ولكنى أشعر أنها طيبة .. لا .. لا أعتقـد أنها يمكن أن تكون قد ماتت ! .. لايمكن ان يكون الله قد اذن بموتها ، لان الله لايمكن أن يتخلى فى مثل هذه اللحظة عنا ! .. أجل يجب أن نذهب ! .. الطريق بعيدة .. فهمت منك أن الطريق بعيدة جدا ، وان لامفر لنا من أن ننام الليلة فى العراء ! .. ولكننا لابد .. لابد أن نصل ! .. لابد أن نقطع الطريق ونصل ! .. لابد أن أرى الكوخ .. أرى بيتك ! .. لابد أن نعيش فيه معا يا ريكاردو ! ..

ولم تكد تصمت وتتحفز حتى اكفهر الجـو ، وزأرت الريح ، وهبت العاصفة ، وتساقط المطر عنيفا متداركا كسيل من رصاص .. فأرسل ريكاردو صرخاته المزعجة المتقطعة ، وانهض كريستينا وهى تترنح ، وأومأ بيـده الى الحقول البعيدة المتراميـــة ، ثم تأبط ذراع الفتاة ، وانطلق بها وهو يثب ويهدر ويعوى عواء الكلاب الهائجة

واندفع الصبيان فى طريق الكوخ ..

اندفعا يغالبان العاصفة ، ويصارعان الريح ، ويتحديان البرد والمطر والظلام ..

وكلت أقدامهما من فرط العدو ، ورزحا تحت وطـأة السيل المنهمر .. فاحتميا فى أحد المذاود فترة ، ثم أحسا

ان العاصفة لن تقر سريعا ، ولن تهدأ .. فعيل صبرهما، ولم يحفلا ، واستطردا السير ..

وكانت كريستينا تدفع ريكاردو وتشجعه ، وتمنيه وتبشره ، وتحث خطاها وهى منهوكة كى تقويه وتحفزه

واصفر وجه الفتاة بغتة وتطوحت .. أصابها شبه دوار وأوشكت أن تسقط . فحدق اليها ريكاردو فألفاها جاحظة العينين ، ممتقعة الخدين ، مخنوقة الشفتين ، تتحسس بيدها المرتعشة اطرافها المتجمدة ، وتشير فى خجل ويأس الى قدميها الصغيرتين المنتفختين اللتين زايلتهما الحركة وأدماهما طول المسير ..

وتمزق قلب الفتى حنقا ورحمة ، فحمل الفتاة بين ذراعيه ، وأجال الطرف حوله وهو ذاهل ، وغامر وطرق بيتا من بيوت القرية ..

وما كاد صاحب البيت يفتح الباب ويبصر ريكاردو : ريكاردو الشقى الابكم المتشرد الباطش الشرير ، حتى انتهره فى حقد ، وسبه فى استنكار وسخط ، وهدده بالموت ان هو لم يرحل .. فتحول الفتى ، وأخذت عيناه عربة نقل كبيرة جاثمة بجوار البيت .. فأسرع اليها ، والقى بحمله تحتها ، وارتمى على الارض ، ومضى يتطلع الى كريستينا ..

ونظرت اليه الفتاة بعينين متقرحتين وغمغمت :

ــ انى جائعة ..

فتفطر قلبه ، وانخلع بدنه ، واحتواه اعصار جارف كالاعصار المنتشر حوله .. من أين يجيئها بكسرة خبز ، وهل من الممكن أن يتصدق عليه أحد من القرويين

بكسرة خبز ؟! . لقدأعماهم الحقد فلم تعد تعرف الرحمة الي قلوبهم القاسية سبيلا ! .. انهم يكرهونه ! . انهم يبغضونه ! .. انهم يتربصون به لقطع راسه بعد أن قطع اللصوص لسانه .. ومع ذلك فيجب ان يعثر على كسرة خبز ! .. يجب أن يسعف كريستينا ! .. يجب أن ينقذها !.. يجب أن ينقذ المخلوق الوحيد الذى ابتسم له وترفق به وعطف عليه ، وأصبح فى قلبه وروحه ولسانه وعينيه ملء الدنيا ! .. لا .. لابد أن يسعف كريستينا ولو هلك ! ..

واندفع وطرق بيتا آخر .. فزجره صاحبه أيضا ، فلم يتراجع واسترحمه .. فصرفه الرجل متوعدا ، فألح ريكاردو فى السؤال .. فاستشاط غضب الفلاح القاسي، ونادى أولاده الثلاثة ، وانهالوا جميعا على الفتى ضربا بالايدى ، وخدشا بالاظافر ، وركلا بالاقدام . ثم تركوه ملقى على الارض صريعا واوصدوا الباب

وتحامل ريكاردو على نفسه ونهض .. نهض ثم سقط، ولكنه لم ييأس . فاستجمع قواه ، وانشب أصابعه فى الوحل وزحف ..

زحف صوب احدى الشجيرات ، وانتزع منها بضع أوراق مصفرة جافة متآكلة ، ثم إستدار ، واتجه نحو العربة ، ودفع بالاوراق الى كريستينا .. فازدردت الفتاة ورق الشجر دون ان تتأفف . ثم لمع البرق فأضاء محيا حبيبها ، فأبصرت الدم يسيل من جبينه وخديه ويترقرق عليهاهى ، فأقشعربدنها وصرختصرخة مدوية. . وعندئذ فتحت نافذة البيت ، وأطل منها الفلاح وأولاده .. فخشى

ريكاردو أن يلحقوا به ويفتكوا أيضا بكريستينا .. فانحنى عليها ، وحملها بين ذراعيه ، وانطلق يعدو بها وقدارتدت اليـــه قواه واحس ان فى مقدوره أن يطوع الحظ ويصرع القدر ويجوب الدنيا ..

وطفق يعدو واللعنات تتبعه ، والريح تسوطه ، والمطر يعميه ، والدم ينزف منه .. حتى لمح عن بعد ــ فى زاوية قصية من الحقل الاغبر الفسيح ــ مدخنة فرن صغير . فطارت نفسه شعاعا ، وحث خطاه .. فأبصـــر الفرن تشتعل ناره ، وأبصر صبى الفران يستخرج من جـوف النار أرغفة مستطيلة متوهجة . فلمعت عينا ريكاردو ، وضم حبيبته الى صدره ، وهتف هتاف العزم والظفر ، واندفع يجمع قواه نحو الفرن وفى نيته أن يحصـــل على الخبز بالحسنى أو ينتزعه انتزاعا ولو اضطر الى مقاتلة صبى الفران . .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الرائعة المنشودة .. فى تلك اللحظة الساحرة الخلابة التى رأى فيها ريكاردو رأى العين أمل نفسه وقوة حبه وخـــلاص حبيبته ، اشتدت جلبة العاصفة ، ثم هدأت بغتة ، ثم سمع فى الجو صوت زافر يشبه غمغمة طويلة مخنوقة .. ثم اضطربت السماء وماجت ، وتساقط منها الجليد على الارض خيوطا متعاقبة متناثرة ، سرعان ما اســـتحالت الى كريات مروعة يلمع بياضها فى الظلام الدامس ..

وهبط قلب ريكاردو فى صدره ، وحث الخطى جهده .. ولكن صبى الفران الذى استشعر انقلاب الجو وخشى تراكم الجليد ، اسرع واطفأ نار الفرن . ثم انسل منه ، واغلق بابه بالمفتاح ، وتلفت يمنة ويسرة وهو مـــذعور وانطلق يعدو ..

وغشى الدم عينى ريكاردو ، وتخاذلت ركبتاه ..

فقد الامل في لحظة كما كان قد خالسه واقتنصه في لحظة .. بيد أن حرصه على حمله الثمين أثاره واستنهض ميت قواه . فاندفع أيضا .. اندفع وهو مخبول .. ولكن الجليد الغاشم اعترضه ، وكسا الارض حواليه ، وحط عليه وعلى حمله كالطيور الجارحة .. فنظر الى كريستينا وهو تائه ، فألفاها متشبثة به كالغريق ، ساكنة الحركة ، جامدة النظرة ، محطمة البدن .. فحنى رأسه عليها، وطفق يهزها هزا عنيفا . ولكن الفتاة لم تتنبه .. لم تتحرك .. لم تستيقظ .. فاستهول جمودها ، ومددها على الارض ، وارتمى عليها ، وجعل يتحسسها .. وما أن أنعم النظر فيها وخالطت برودتها الصماء بدنه الثائر المتقد ، حتى جن جنونه وأرسل صيحة قاصفة وأدرك .. ادرك ان كريستينا النادرة ، كريستينا الغالية ، كريستينا الحبيبة الوفية المخلصة ، قد ذهبت .. ماتت .. اختفت في لحظة .. في لحظة واحدة .. ولن .. لن تعود ! .. فهدر كأن شريانا قد انفجر في صدره .. ثم ارتمى على جثة حبيبته ، وعاد فاحتواها بين ذراعيه ، وانطلق بها يريد أن يحملها الى بيته ...

وظل يثب كالذئب الجائع ، والريح تسوطه ، والبرد يحزه ، واللوعة تحرقه ، وقطع الجليد تتساقط عليه ، حتى يبست اعضاؤه ، وجمد الدم في عروقه ، وانهار فجأة بحمله وتقوض وانسحق واختنق ..

وغمر الجليد الارض وكساها حلة كبيرة بيضاء ..

وطلع الفجر وسمعت دقات اجراس كنيسة القرية ..

ومات ريكاردو الابكم تحت الجليد ، وفي حضنه حبيبته الراعية ..

مات الفتى وهو بكر .. وماتت الفتاة وهي عذراء !

فهرس

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هي سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج
٣ ـ هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور احمد أمين
٤ ـ أبو الشهداء (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . يان
٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى
٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر
٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد
١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
١٢ ـ اشعب أمير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم
١٣ ـ نفرتيتي ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله
١٤ ـ حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى
١٥ ـ عبقرية خالد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج
١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور
١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبدالعزيز جاويش
١٩ ـ لا تخف (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد
٢٢ ـ زينب (نفد)
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل
٢٣ ـ مذكرات عرابى
الجزء الاول (نفد)
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٤ ـ مذكرات عرابى
(الجزء الثانى)
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٥ ـ عبقرية عمر (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٢٦ ـ آمنة بنت وهب (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم
٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى
٣٠ ـ البؤساء (نفد)
تأليف فيكتور هيجو
٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب
٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى
٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم
٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيتر شتاينكرون
٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب (نفد)
لنخبة من كبار الكتاب
٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف : جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان
٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر
٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى
٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم
٤٢ ـ الله (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز
٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان
٤٥ ـ نساء النبى (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور
٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم
٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب
٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج
٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد
٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم
٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول نفد)
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ــ مدينة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
٥٧ ــ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)
٥٨ ــ معاويه بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ــ ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)
٦٠ ــ اعرف نفسك (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولنز
٦١ ــ ألف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)
٦٢ ــ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ــ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)
٦٤ ــ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٦٥ ــ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ــ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ــ عبقرية الامام على (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ــ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ــ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٧٠ ــ بطل الكفاح: الشهيد محمد فريد (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ــ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ــ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ــ محمد الرسول البشر (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ــ القصر المسحور
تأليف طه حسين ــ توفيق الحكيم
٧٥ ــ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٧٦ ــ اسرار الثورة المصريه
تأليف أنور السادات
٧٧ ــ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ــ البؤساء (طبعة جديدة)
تأليف فيكتور هوجو
تعريب حافظ ابراهيم
٧٩ ــ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ــ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ــ قصة الوحدة العربية (نفد)
تأليف انور السادات
٨٢ ــ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ــ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ــ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ــ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ــ ســــارة
بقلم عباس محمود العقاد
٨٧ ــ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد ابو حديد
٨٨ ــ ياولدى .. هذا عمك جمال
بقلم أنور السادات
٨٩ ــ ابليس
بقلم عباس محمود العقاد
٩٠ ــ جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
٩١ ــ روائع شكسبير (الجزء الاول)
تلخيص شارل ومارى لام

٩٢ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطىء
٩٣ ـ روائع شكسبير (الجزء الثانى)
تلخيص شارل ومارى لام
٩٤ ـ روائع شكسبير (الجزء الثالث)
تلخيص شارل ومارى لام
٩٥ ـ آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
٩٦ ـ دروس من القرآن الكريم
بقلم الامام محمد عبده
٩٧ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الأول)
بقلم محمد المويلحى
٩٨ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الثانى)
بقلم محمد المويلحى
٩٩ ـ مذكرات نجيب الريحانى
بقلم نجيب الريحانى
١٠٠ ـ ليالى سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
١٠١ ـ اعترافات شبابى
بقلم ليوتولستوى
١٠٢ ـ عجائب وأساطير
تأليف الدكتور شوقى ضيف
١٠٣ ـ المرأة فى القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٤ ـ الملك والثوار فى عربة
تأليف فتحى رضوان
١٠٥ ـ الدكتور زيفاجو (الجزءالاول)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٦ ـ الدكتور زيفاجو(الجزءالثانى)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٧ ـ مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هوجو
ترجمة لطفى سلطان
١٠٨ ـ الاسلام فى القرن العشرين
تأليف عباس محمود العقاد

١٠٩ ـ تيودورا الممثلة المتوجة
تأليف شارل ديل
ترجمة حبيب جاماتى
١١٠ ـ وثبة الاسلام
تأليف ابراهيم المصرى
١١١ ـ طريقك الى السعادة
تأليف الدكتور جون ا ، شندلر
ترجمة عبد المنعم الزيادى
١١٢ ـ أنت وغذاؤك
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
١١٣ ـ قلب وتاج
تأليف اميل لودفيج
١١٤ ـ الاسلام بين العلم والمدنية
للاستاذ الامام محمد عبده
١١٥ ـ ابو نواس الحسن بن هانىء
تأليف عباس محمود العقاد
١١٦ ـ عش مطمئن النفس
تأليف الدكتور فرانك س . كابريو
ترجمة عبد المنعم الزيادى
١١٧ ـ الحب ابو العجائب
بقلم فكرى أباظه
١١٨ ـ عاصفة فى قلب
بقلم صوفى عبد الله
١١٩ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد
١٢٠ ـ الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة
بقلم الدكتور محمد حسين هيكل
١٢١ ـ مذكرات الامام محمد عبده
طاهر الطناحى
١٢٢ ـ الزواج السعيد
بقلم عبد المنعم الزيادى
١٢٣ ـ ذكريات الصبا والشباب
تأليف بوريس باسترناك
١٢٤ ـ المرأة فى حياة العظماء
تأليف ابراهيم المصرى

١٢٥ ـ **هذا طريقنا**
للرئيس جمال عبد الناصر
١٢٦ ـ **الانسان فى القرآن الكريم**
تأليف عباس محمود العقاد
١٢٧ ـ **سعادتك فى ضوء علم النفس**
تأليف د . لسلى ويذرهيد
١٢٨ ـ **غراميات فيكتور هوجو**
بقلم لطفى سلطان
١٢٩ ـ **يوميات طبيب**
بقلم د . كامل يعقوب
١٣٠ ـ **الساعات الاخيرة**
بقلم طاهر الطناحى
١٣١ ـ **قصة حياتى**
بقلم أحمد لطفى السيد
١٣٢ ـ **ضوء القمر وقصص اخرى**
تأليف أحمد حسن الزيات
١٣٣ ـ **فن الزواج**
تأليف الدكتور أمير بقطر

١٣٤ ـ **الفلسفة القرآنية**
تأليف عباس محمود العقاد
١٣٥ ـ **خديجة أم المؤمنين**
بقلم السيد عبد الحميد الزهراوى
١٣٦ ـ **الحب عند شهيرات النساء**
تألیف ابراهیم المصری
١٣٧ ـ **تفسير الاحلام**
بقلم سيجموند فرويد
تبسيط وتلخيص الدكتور نظمى لوقا
١٣٨ ـ **أسطورة حب وقصص اخرى**
تأليف فتحى رضوان
١٣٩ ـ **طريقك الى الشباب الدائم**
بقلم الدكتورة مارجرى ويلسون
١٤٠ ـ **الاسلام دين الهداية والاصلاح**
تأليف محمد فريد وجدى
١٤١ ـ **رحلة فى دنيا المستقبل**
بقلم هـ . ج . ويلز

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، واكشاك الصحف ، ماعدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــراق : السيد محمـــود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jalet No. 127,
5" and Sal 54,
SAO PAULO — BRASIL

ســيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Saman
Almaktab Attijari Assharqi
P.O Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S. E. 26.
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

الحب الصحيح جهاد وبذل وتضحية .. انها لا يثبت على الحب الصحيح الا كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون وطلب اللذات ، وكان فى طبعه وخلقه وروحه من المكتفين المتعففين الاقوياء

بهذه الروح اهتدى المؤلف فى جمع مواد هذا الكتاب ، وقد ضمنه تلخيصا مركزا للمؤلف الشائق الذى وضعته الكاتبة الفرنسية « مارسيل تينير » عن تاريخ الحب وطائفة مختارة من اشهر رسائل الحب الخالدة ، وبعض قصص عالمية تعتبر من أروع قصص الحب فى الادب الغربى

كتاب الهلال

الشيخ محمد عبده

رسالة التوحيد

تقديم وتحقيق وتعليق

طاهر الطناحي

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٤٣ – رمضان ١٣٨٢ – فبراير ١٩٦٣

No. 143 — FEBRUARY 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان جنيه واحد – فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى جنيه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١٫٧٨٠ – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الكتاب الرابع من المجموعة الإسلامية
لتراث الأستاذ الإمام

رسالة التوحيد

تأليف
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي

دار الهلال



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

تقديم

بقلم طاهر الطناحي

هذا الكتاب « رسالة التوحيد » هو الكتاب الرابع من المجموعة الاسلامية لتراث حكيم الاسلام الاستاذ الامام محمد عبده ، التى عنيت بتقديمها وتحقيقها والتعليق عليها واخراجها فى ثوب جديد ، احياء لذكرى هذا الامام، وتعريفا بالاسلام فى عصرنا الحديث عن طريق هديه وارشاده وكشفه عن حقيقة هذا الدين الحنيف ، الذى قال عنه رحمه الله فى بعض مواقفه : « الاسلام محجوب بالمسلمين » !

وقد الف هذه الرسالة ايام نفيه ، بعد محاكمته،كزعيم من زعماء الثورة العرابية ، وقد حكم عليه بابعاده عن القطر المصرى ثلاث سنوات فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م . فسافر الى بيروت ، واختارها مقاما لمنفاه . ولكنه مالبث أن تلقى دعوة من أستاذه السيد جمال الدين الافغانى ، للحاق به فى باريس ، فسافر الى هذه المدينة ، وأنشأ فيها معه جمعية سياسية سرية باسم « جمعية العروة الوثقى » لخدمة العالم الاسلامى وتحريره من ربقة الاستعمار والمستعمرين . وقد لبى دعوتهما الى عضويتها كثير من زعماء المسلمين. . ثم أصدرا جريدة أسبوعية كانت لسان حال هذه

الجمعية ، هى « العـروة الوثقى » تولى رياسة تحريرها الاستاذ الامام

جهاد قبل الرسالة

وقد أخذت هذه الجريدة بجهود هذين الزعيمين المفكرين تدافع عن الاسلام وأقطـاره ، وتدافع عن الشرق وأهله ضد الاستعمار الاوربى واستبداده بالوطنيـين مسلمين ومسيحيين على السواء . وكان لصوت هذه الجريدة تأثير عظيم فى الشرق والغرب ، حتى خافها الانجليز وسـائر المستعمـرين . واجتمـع مجلس النظار فى مصر بايعاز المحتلين ، وقرر مصادرتها ، ومنعها من الدخول فى البلاد المصرية . وقد بعث تأثير هذه الجريدة وما فيها من مقالات بليغة الشاعر العربى الكبير شكيب ارسلان الى أن يقول فى مدح السيد جمال الدين :

ومعـان لو أوحيت لجمـاد
هزه الشوق نحوها والغرام
حيرت كل ذى حصاة الى أن
قيل لاشـك أنهـا ألهـام

ثم يقول فى مدح رئيس تحريرها ، والاشادة بأسلوبه وبيانه القوى الرائع :

كـلام اذا ألقيتـه فى جمـاعة
غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينسق
عليه من النـور الالهى مسحـة
تكـاد على أرجائه تتـألق

وقد احدثت « العروة الوثقى » انقلابا كبيرا فى الافكـار والعواطف بالاقطار الاسلامية حتى ندم المستعمرون على نفى الامام محمد عبده ، لانهم أتاحوا له مجالا أوسع لنشر

آرائه الوطنية ، وايقاظه للغافلين الذين يسيطر عليهم الاستعمار ، وأخذوا يحاربون هذه الجريدة بكل وسيلة ، حتى أغلقت فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ الموافق لشهر اكتوبر سنة ١٨٨٤ م

عاد الاستاذ الامام الى بيروت ، واتخذها دارا لتعليم الناس امور دينهم وارشادهم الى خير دنياهم . وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على خمسة وثلاثين عاما . وقدبدأت فى ذلك الحين نهضة علمية اسلامية بهذه المدينة ، فتأسست جمعية المقاصد الخيرية ، التى أنشأت عدة مدارس ابتدائية وثانوية بلبنان ، ثم أسست مدرسة عالية تدعى « المدرسة السلطانية »

وكانت دار الامام بعد اخفاقه فى باريس وعودته الى بيروت ، مرادا لطلاب العلم ومحبيه والمريدين له ،يقبلون عليه من انحاء لبنان وسائر بلاد الشام ، فكان يلقى عليهم فى داره دروسا فى اللغة والدين ، ثم ناشدوه أن يلقى دروسا فى مجال أوسع ليستفيد من علمه وآرائه أكبر عدد ممكن من الناس ، فأخذ يلقى دروسا فى تفسير القرآن الكريم وبعض علوم الدين فىالجامع الكبير ، وجامع الباشورة . وكان أثناء درسه فى التفسير يمسك المصحف وحده ، لا يعتمد فى تفسير آياته الا على علمه وذكائه والهامه . وكان الناس يقبلون عليه اقبالا كبيرا ، حتى غبط المسيحيون عليه المسلمين ، واستأذنه بعضهم فى دخول المسجد ، والاستماع الى دروسه ، فأذن لهم ، واصبح الكثيرون منهم له مريدين !

فى المدرسة السلطانية

وقد رأى رئيس جمعية المقاصد الخيرية واعضاؤها ،

انهم فى حاجة الى أستاذ جليل يقوم باحياء اللغة العربية وأحكام الدين الاسلامى على طريقة تربوية نافعة تلائم روح العصر ، وتتفق وهداية الاسلام ، فدعوه الى التدريس فى هذه المدرسة العالية .. فلبى الدعوة فى أول عام ١٣٠٣ هـ الموافق عام ١٨٨٥ م ، ووضع لها بالاتفاق مع مديرها منهاجا حديثا ، وتولى هو تدريس قواعد النحو والصرف ، وعلوم التوحيد ، والمنطق ، والمعانى ، والتاريخ الاسلامى ، والانشاء والمعاملات والعبادات من الفقه الحنفى ، حتى كانت دروسه تستغرق فى بعض الايام ساعات النهار كله

وقد دخل هذه المدرسة معلما ، ولكنه مالبث ان أصبح هاديا ومرشدا ، وقدوة حسنة فى العلم والدين والاخلاق ، وحكيما يهدى الى الحقيقة والى سواء السبيل

وكانت طريقته فى التدريس لا تعتمد على قراءة الشروح والحاشية على نحو ما كان يفعل مدرسو العلوم الدينية فى الجيل الماضى ، الذين كانوا يضيعون الوقت فى المناقشات اللفظية ، بل كان يكره قراءة الشروح والحواشى ، ويعتمد على تفسيره وتدريسه للمتون ، أو كان يلقى دروسه محاضرات يكتبها تلامذته أثناء القائه ، أو يأخذون منها مذكرات يعودون اليها . وكان يتوخى فى تدريسه الاسلوب المناسب لكل صف من صفوف الطلاب

وقد أحبه تلامذته ومريدوه ، واستفادوا من دروسه ولكنه لم يمكث فى هذه المدرسة غير ثلاث سنوات ، فقد خشيه حكام الترك فى ذلك الوقت بلبنان ، فأخذوا يضايقونه وعزلوا مدير المدرسة صديقه الشيخ احمد عباس ، وعينوا خلفا له .. فجاء هذا الخلف بايعاز من هؤلاء الحكام ، فغير وبدل فى منهاج المدرسة الذى وضعه الامام ، فاضطربت بها الحال ، فآثر رحمه الله

الاستقالة • ولم يمض غير قليل ، حتى استقالت فى مصر الوزارة النـــوبارية ، وتولت وزارة الرئيس مصـــطفى رياض باشا ، وصدر اذن الخديو توفيق بعودة الاستـــاذ الامام الى وطنه بمصر

عودته الى مصر

كان صدور اذن الخديو بعودته فى عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٨ م ، بعد ان انتهت مدة الحكم عليه بالنفى بثـلاث سنوات أخرى ، ولكن الخديو توفيق لم يأذن له الا فى ذلك الحين . وقد كان فى هذه السنين الثلاث مجدا فى تربيته لنشء جديد بالمدرسة السلطانية ، وكانت دروسه عامرة بالهداية والارشاد فى كل علم من العلوم التى يدرسها كما ترى فى « رسالة التوحيد » . وكان يهدف الى بث الروح الوطنية والاصلاح الاسلامى بين طلابه ومريديه ، وخاصة بعد تعطيل جريدة « العروة الوثقى » وتخاذل المسلمين دون مساعدتها المساعدة الواجبـــة .. وقد قال للسيد جمال الدين الافغانى على اثر تعطيلها :

ـ ما دمنا قد اخفقنا فى عملنا هـــذا ، فأرى ان نترك السياسة ، ونذهب الى مجهــل من مجاهــل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد من المستعمرين ، ونختـــار من أهله عشرة غلمان ، أو أكثر من الاذكيـــاء السليمى الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ، ونوجههم الى مقصـــدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين ، فلا تمضى بضع سنين حتى يكون لدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيـــل الاصلاح . ومن امثال هؤلاء يرجى الفلاح !

فقال له السيد جمال الدين :

ـ انما انت مثبط .. نحن شرعنافى العمل ، ولابد من المضى فيه ، مادمنا نرى له منفذا

وكان ذلك آخر عهد الامام بصحبة السيد فى باريس . ثم عاد الى بيروت ، وقضى بها أربع سنوات معلما لمريديه بداره أو فى بعض المساجد ، ثم مدرسا بالمدرسة السلطانية الى أن عاد الى مصر ، فتلقاه أصدقاؤه المخلصون بالترحاب والاجلال ، وأعرض عنه الجبناء وتجاهلوا وجوده ، فأخذ يدرس علوم الدين واللغة فى الازهر الشريف .. فخشى الخديو توفيق ان ينشر افكاره الاستقلالية بين الطلبة ، فأراد أن يشغله عن ذلك افعينه قاضيا بالمحاكم الاهلية . وكان يؤثر التعليم على القضاء بالرغم من أن الارتقاء فى القضاء أسرع وأجدى .. وقد مكث فى القضاء الى أن صار مستشارا فى محكمة الاستئناف .. ثم عين مفتيا للديار المصرية ، فأتاح له هذا المنصب أن يفيد الناس بعلمه وآرائه السديدة ، ثم اخذ فى ذلك الحين يدرس فى الازهر الشريف دروسا فى العلوم الدينية وعلوم الفلسفة واللغة

رسالتان فى التوحيد

وقد وضع عدة مؤلفات ورسائل منذ نفيه حتى وفاته ، منها رسالتان فى علم التوحيد :

الاولى ــ رسالة « الواردات فى سر التجليات » وكانت أولى مؤلفاته ، ونتيجة من نتائج دراسته الاولى على السيد جمال الدين الافغانى . وقد كتبها فى عام ١٢٩٠ الهجرى الموافق ١٨٧٣ الميلادى ، وعمره وقتئذ لا يزيد على ٢٤ سنة . وقد أتبع فيها الطريقة الصوفية الفلسفية واسلوبها فى اثبات الوجود لواجب الوجود مع اثبات كمال الصفات له تعالى ، كما تلقى ذلك على السيد جمال الدين حين مقامه بمصر . وقال فى مقدمة هذه الرسالة :

« .. فبينما أنا حول الرياض أحوم اذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ، ولكن لم أجد من هى له طوية ، فحرت فى أمرى ، وأخذت أجيل فكرى وكلما سألت أجابونى بأن الاشتغال بها حرام ، فتعجبت شدة العجب .. وبينما انا كذلك اذ أشرقت شمس الحقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم ، استاذنا السيد جمال الدين الافغانى ، فرجوناه فى شىء من ذلك ، فأجاب والحمد لله على ذلك ، فنلنا طرائف التحف ، فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها ، وآيات هذه بيناتها . وذلك فى فترة من الحكمة ، فكأنها غيث أرسل لاحياء تلك النعمة ، وسميتها « الواردات فى سر التجليات»

الثانية ــ « رسالة التوحيد » . وهى الرسالة التى أملاها على طلبة المدرسة السلطانية ببيروت بمنفاه . وهى تتناول علم التوحيد ، وهداية دين التوحيد وبيان مزاياه ، ونشأة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوته لجميع طبقات البشر ، وبيان بلاغة القرآن ، وتحديه للعرب وغير العرب بأقصر سورة منه ، ولهذا آثر رحمه الله أن يسميها « رسالة التوحيد » ، ولم يقل « رسالة علم التوحيد » لتكون شاملة وافية لموضوعه وأهدافه

تقديم جديد

وقد قدمتها فى هذا الشهر للقراء تقديما جديدا ، لا يختلف فى شىء عن الاصل الذى وضعه الاستاذ الامام ، ولكنه يتفق وروح العصر فى عرض هذه الرسالة عرضا منسقا فى تبويب وتقسيم علمى مفيد . وقد سبق للمرحوم السيد محمد رشيد رضا أن طبعها عدة طبعات ، وعلق عليها تعليقات منذ نحو ستين عاما ، ولكننا وجدنا انها بعد هذه الحقبة الطويلة تحتاج الى تحقيق وتعليق أوضح ؛

وأكثر تفسيرا لما أجمل فى هذه الرسالة النفيسة . وقد اثبتنا فى هامشها الضرورى مما علق به السيد رشيد أو صححه ، وحذفنا منه مالايحتاج اليه المثقفون فى هذا الجيل من تعليق نحوى أو لغوى ربما قد فات الامام ، أو كان فيه قولان ، واثبتنا مثل هذا التصحيح فى أصل الرسالة ، وزدنا فى هامشها تعليقات جديدة يحتاج اليها القراء فى هذا الجيل

وقد اشتملت الرسالة ـ كما وضعها الامام ـ على عدة فصول معنونة بعدة عناوين ، فأبقينا العناوين على أصلها . ولكننا قسمنا هذه الفصول الى تسعة أبواب تقسيما يتناسب مع موضوعاتها ، ويوضح الغاية منها ، ويزيدها وضوحا وتفسيرا ، وييسر تصفحها للقراء

وغاية كاتب هذه السطور من هذه الخدمة أن يزداد انتشارها بين المسلمين فى كل جيل من الاجيال ، وفى كل قطر من الاقطار الاسلامية ، فقد كانت لها فوائدها الجمة حين وضعها ودرسها الاستاذ الامام فى الجيل الماضى ، حتى مدحها الكثيرون من علماء الاسلام فى مصر والشام وسائر بلاد المسلمين ، بل أن أحد المسيحيين الذين حضروا دروسها أو قرأوها فى ذلك الزمان قال لاحد تلامذة الامام : « اذا كان الاسلام هو كما بينته هذه الرسالة ، فأنا أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف دينى ، يقول : « ينبغى ان يكون الاسلام كذا وكذا . . » فرد عليه قائلا : « ان مؤلفها من أكابر علماء الازهر ، وهو يقرؤها فيه ، ولم ينكر أحد من علمائه شيئا منها ، ولا قال انها زادت فى الاسلام ماليس فيه » ! . وقد قيل أن أحد أدباء طرابلس بلبنان تمنى على مطران هذه المدينة أن تقرأ هذه الرسالة فى جميع المدارس المسيحية ، بعد حذف الكلام

عن نبوة محمد (ص) كي يقف ناشـئة المسـيحيين على سر المدين المطلق

وقد ترجمت « رسالة التوحيـد » الى بعض اللغات الاجنبية من شرقية وغربية ، وعنى بها المستشرقون عناية كبيرة ، وطبعوها بلغتهم . وقال عنها العالم اللغـوى المسيحى الشيخ سـعيد الخورى الشرتونى ، صاحب معجم « أقرب الموارد » فى خطاب بعث به الى الاستـاذ الامام :

« .. وردتنى هديتكم التى كشفتم بهـا عار العصر ، وجلبتم بها الفخر ، وهى مؤلفكم الفريد فى علم التوحيد ، الذى لاريب عندى أن الله يثيبكم عليـه بكرامة الدنيـا ، وسعادةالاخرى بعد طول العمر

« ولم أتعجب مما وقعت عليه من البدائع ، ورأيته من الجواهر ، لصـدوره ممن كشف الله عن بصيرته وميزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقـول .. وما أظن ذوب العسل المصفى أحلى عندى منه . أقرؤه ولا أمـل ، ثم أعيده متلذذا به .. فياشرف العصر الاسـلامى بك ، ويافخر آدم بمثلك

« ما أنت فى كل ما تشرع فيه الا رجل جديد عندنا مع طول معاشرتنـا ، وكثرة مخالطتنا ، فلا غرو ان يكون دماغك مادة لكل بديعة وفخرا لكل دقيقة .. والخلاصة أن مثلك اية من ايات الله ، تشهد بقدرته وجوده ، وتصدع بأن بين الناس فروقا بعيدة المدى »

وقال الاستاذ العالم المرحـوم محمد فريد وجـدى تقريظا لهذه الرسالة :

« ان هذه الرسالة لايمكن شرحها الا فى عدة مجلدات ،

لانها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة فى الاديان ، مع تقرير مايوافق الاسلام منها ، ورد مايخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة » .. ثم نقل منها الفصول الاولى فى مؤلفه : « دائرة معارف القرن العشرين » . واتبعها ببحث عن « مذهب وحدة الوجود » ــ ذلك المذهب الذى انتشر فى بلاد المسلمين فى القرن الثالث الهجرى وهو مذهب صوفى مؤداه : « ان لا موجود غير الله ، وكل ما فى الكون مما سواه ، ليس الا مظاهر وجوده وصفاته وأسمائه ، وهو الاول والآخر ، والظاهر والباطن» وقد أشار الاستاذ الامام فى رسالته الى هذا المذهب

وقد حرص الاستاذ الامام فى « رسالة التوحيد » على الا يصرح بالخلاف بين المذاهب الدينية ، ولا بين الدين الاسلامى وغيره من الاديان ، لانه لم ير من الحكمة ، الخوض فى مطاعن الطاعنين ، بل كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد ، وكان من الكياسة بحيث لايسمع منه أحد كلمة تسوءه أو تشير الى تخطئته ، سواء كان سنيا أم شيعيا ، مسلما ام مسيحيا ، ولكنه كان يغضب ويحتد ، وقد يمرض من الغضب حينما يرى حال المسلمين من التهاون بشعائر الاسلام أو التعاون مع الظلمة والمستعمرين

مقالان ليسا من الرسالة

ولقد حدث ذات ليلة أنه فكر فى حال المسلمين ، وما أصابهم من الشقاء والتهاون والغفلة عن أمور دينهم ، واطال التفكير فى ذلك ، فاعتورته آلام عصبية كانت تعتاده كلما فكر فى هذه الحال ، حتى خطر له أن ينزل ليلا ، ويذهب الى نوادى اللاهين ، وأماكن الفاسقين ، ويصيح بهم :

« ايها الناس .. ماذا رأيتم فى دينكم حتى تركتموه؟!»

وقد طال تفكيره وحـــزنه فى تلك الليلة ، ثم لم يجد ما يسكن آلامه الا الكتابة ، فكتب مقالين سننشرهما فى الكتاب الخامس من هذه المجموعة الاسلامية من تراثه وهما: « انتشار الاســـلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التــاريخ واسباب ذلك » وما يليه وهو : « ايراد سهل الايراد »

وقد الحق المرحوم السيد رشيد رضا هذين المقالين فى طبعاته لرسالة التوحيد ، وهما ليسا منهـــا . ولهذا راينا نشرهما فى الكتاب الخامس الذى سنصدره قريبا بعنوان « المسلمون والاسلام » للاستاذ الامام

وقد كان يهدف فى « رسالة التوحيد » الى ان تكون وسيلة لمعرفة الله عن طريق العلم والتفكير ، وان يفهم القراء علم العقائد بعيدا عن الجدل والخلاف بين أهل المذاهب ، ويتبين المسلمون حقيقة دينهم ، وجوهر تعاليمه ، وما ينبغى عليهم من التمسك بشعائره والحرص على العمل بأوامره ونواهيه ، والسير على هديه الذى يوقظ فى نفوسهم حب الخير والدفاع عن كرامتهم وانسانيتهم ويزيدهم ايمانا بالله وانبيائه ورسله وما انزل عليهم من وحى وبيان يهدى الى صراط مستقيم فينصرفون بذلك عن اللهو والفساد ، ويخلعون عن اعناقهم نير الذل والاستعباد ، ويعيشون فى بلادهم احرارا كرماء

طاهر الطناحى

مقدمة الرسالة

بقلم الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

وبعد ، فلما كنت فى بيروت من أعمال سورية ، أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ الهجرية (١) . ودعيت فى سنة ١٣٠٣ الى تدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد ، رأيت ان المختصرات فى هذا الفن ربما لاتأتى على الغرض من افادة التلامذة ، والطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات الفت لزمن غير زمانهم ، فرأيت من الاليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم ، فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها الى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الاولى فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ، تمهيد مقدمات ، وسير منها الى المطالب ، من غير نظر الا الى صحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التآليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد ، غير ان تلك الامالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ولم استبق لنفسى منها شيئا وعرض

---

(١) سنة ١٢٩٩ هـ ، تبدأ بيوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٨١ م وتنتهى فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، فهو يشير الى حوادث تلك السنة ١٨٨٢ — و ١٣٠٣ هـ الموافقة ١٨٨٥ م

بعد ذلك ما استقدمنى الى مصر . وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التصاليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، الى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسى ، ويصبو اليه عقلى وحسى ، وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علما منى أنه ركن العلم الشديد ،فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الامل ، وعزمت أن أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الى ، ما تلقاه بين يدى ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه . وذكرت لاخى (١) فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الاولى فطلبته وقرأته فاذا هو قريب مما احب ، قد يحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه الكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مطليه عن أعاصير المشاغب ، لكنى وجدت فيه ايجازا فى بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع واغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ماأغفل وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله فى نشره ، راجيا أن لا يكون فى قصره ما يحمل على اغفال امره ، او يغض من قدره . فما من احد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان ..

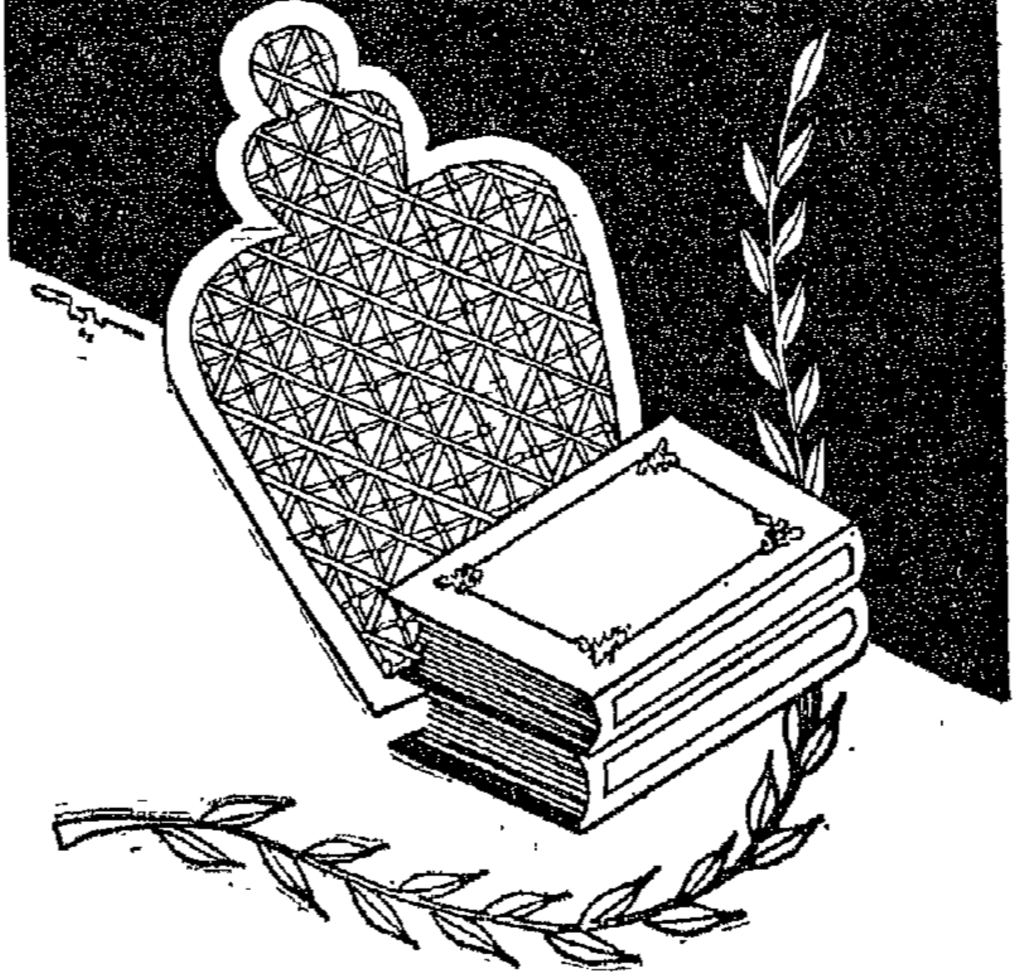
والله وحده ولى الامر وهو المستعان

---

(١) هو شقيقه حمودة عبده ، وكان تلميذا فى المدرسة السلطانية لهذا العهد

الفصل الأول

مقدمات في تاريخ علم التوحيد



علم التوحيد

التوحيد : علم يُبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يُثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد لاشريك له . وسُمِّى هـذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز .. وسيأتى بيانه ..

وقد يسمى علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله

المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقـل اللهم الا بعـد تقرير الأصـول الأولى ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وان كان أصلا لما يأتى بعدها ، واما لأنه فى بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وسمى الكلام بدل المنطق للتفرقة بينهما

***

هـذا النوع من العلم ـ علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبـوات ـ كان معروفا عند الأمم قبـل الاسـلام ، ففى كل أمة كان القـائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك .. لـكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشـتمل عليه نظام الكون .. بل كانت منـازع العقول فى العلم ومضـارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض .

وكثيرا ما صرح الدين على لســان رؤســائه أنه عدو العقل : نتائجه ومقدماته .. فكانجل ما فىعلوم الكلام تأويلا وتفســيرا ، وادهاشــا بالمعجزات ، أو الهــاء بالخيالات .. يعلم ذلك من له المام بأحوال الأمم قبــل البعثة الاسلامية

منهج القرآن فى التوحيد

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه .. فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة .. بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقصّ علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم .. لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولــكنه أقام الدعوى ، وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما

فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه ، حتى انه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر للخلق سنّة لا تتغيّر ، وقاعدة لا تتبدل ، فقال : « سنّة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا » . وقال : « ان الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم » . و « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » . واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال : « ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل ..

وتقرر بين المسلمين كافة ــ الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ــ أن من قضايا الدين ما لايمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل ، وعلمه بما يوحَى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشىء قد يعلو على الفهم ،

فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات ـ وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ـ فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم أو فى الجنس، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر . وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها فى الانسان ، كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه فى هذه المقدمة

فاعتبار حكم العقل، مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل ، أفسح مجالا للناظرين ، خصوصا ان دعوة الدين الى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه ، بلا غلو فى التجريد ، ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى

الحيرة ، والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء . ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل ردّ اليهما .. وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة . وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة (١) الثالث وأفضى الى قتله .. هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائما على صراطه .. « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وفتح للناس

(١) يعنى بالخليفة الثالث عثمان بن عفان الذى وقعت الفتنة فىعهده

باب لتعدى الحدود التى حدّها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم . وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم . وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم، فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودى أسلم وغلا فى حب علىّ كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه (١)

وأخذ يدعو الى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان .. فنفاه فذهب الى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها . فذهب الى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفى منها .. فذهب الى الشام فلم يجد فيها ما يريد ، فذهب الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد

---

(١) ان ابن سبأ قبل ما فعل بغضا فى الاسلام لا حبا فى على ، فاسلامه كان خديعة . وله نظراء فى ذلك من اليهود ، مثلهم بعض مجوس الفرس الذين تظاهروا بالاسلام ، وتستروا بالتشيع لعلى ولآل البيت عليهم السلام : كلهم كانوا يقصدون افساد الاسلام وازالة ملكه بالتفريق بين أهله ، وأشار المؤلف الى ذلك فيما يأتى

على ، فنفاه الى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد تصدّع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذت الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، الى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين ، وانتشرت فارّتهم فى أطراف البلاد ، ولم يكفّوا عن اشعال الفتن ، وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب (١) وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليًّا ،

---

(١) قال السيد محمد رشيد رضا فى طبعته تعليقا على ذلك : انه يعنى بهذه البقية ، الاباضية الذين فى طرابلس الغرب وصحراء ←

أو بعض ذريته الى مقام الألوهية أو ما يقرب منه (١) وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

الاشتغال بعلم التوحيد وظهور المعتزلة

غير أن شيئا من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع . وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس ، والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين ، والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام ، وآن

الجزائر من افريقية : وفى عمان من جزيرة العرب . ولكن الاباضية يتبرأون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصفرية والازارقة . ويفرقون بالامامة ، ولكن لهم تشديدا فى قاعدة الولاية والبراءة فيتولون الشيخين وجميع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس علي عثمان وما انكر عليه الصحابة « رض » وفتنة علي ومعاوية ويقولون ان عليا هو الامام الحق ، وان معاوية كان باغيا بخروجه عليه . ولذلك يخطئون عليا فى قبول التحكيم فى الامر ، وهو يعلم انه صاحب الحق ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة اقوال: البراءة منهم ، والوقف فيهم ، وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة ، وهو قول أهل السنة . وهم فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الاشاعرة والمعتزلة . واما العمل بالاوامر والنواهى فهم أشد الفرق الاسلامية آذعانا وطاعة لها ، كالوهابية من أهل السنة لا يكاد يوجد فى بلادهما تارك صلاة أو مانع زكاة او مجاهر بكبيرة

(١) منهم الذين رفعوه الى الالوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة فى بعض ذريته وهم الباطنية ، ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته : وغلوا فيهم على درجات مختلفة

لهم أن يشتغلوا فى أصــول العقائد والأحكام ، بما هداهم اليه سير القرآن ، اشتغالا يحرص فيه على النقل ، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر . ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر فى العلم والقيام بفريضــة التعليــم ، ومن أشــهرهم الحسن البصرى (١) ، فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة ، يجتمع اليه الطــالبون من كل صــوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع . وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمــد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة

(١) الحسن البصرى «٢٢ ــ ١١٠هـ» ولد بالمدينة ثم استقر بالبصرة وتوفى فيها . كان ورعا تقيا متفقها،أثر فى الحــركة الدينيــة فى صدر الاسلام تأثيرا كبيرا

من ارتكب الكبيرة ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء ، وأستاذه الحسن البصرى ، واعتزله يعلّم أصولا لم يكن أخذها عنه .. غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن ــ على قول ــ كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته . وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية ، كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ، ثم يذهب كل الى ما شاء ، سوى أن عمر بن عبد العزيز أمَر الزهرى بتدوين ما وصل اليه من الحديث ، وهو أول من جمع الحديث

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها عنها ، والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية ، حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ــ على ما سبق بيانه ــ ثم غالى آخرون ــ وهم الأقلون ــ فمحوها محوا ، وخالفوا فى

ذلك طريقة الكتاب عنادا للأولين ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد ، كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى

تفرقت السبل بأتباع واصل (١) ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم . فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم

(١) هو واصل بن عطاء المعتزلى تلميذ الحسن البصرى السالف الذكر ولد بالمدينة وانتقل الى البصرة وهو زعيم المعتزلة (٨٠ — ١٣١ هـ) سمى الغزال لتردده على سوق الغزل وتصدقه فيها على الفقيرات .

وحواشيهم .. فعلا أمر كثير منهم ، وهم ليســوا من الدين فى شيء . وكان فيهم المانوية ، واليزدية ، ومن لا دين له ، وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم .. فظهر الالحاد ، وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وابطال مزاعمهم

***

فيما حوالى هذا العهد ، كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه .. وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أوأزليته ، وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول أو صرح بالأزليــة عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى. وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعــدى القوم

حدود الدين باسم الدين (١)

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل ، وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع : ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مسّ بواطن القلوب وماسكات النفوس فرض توطين النفس عليه . وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول ، أو الدهريين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم بالاسلام وأفرطوا فى التأويل .. وحوّلوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين ، وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة

الاشعرى ومذاهب الفلسفة

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء

(١) فى هذا الكتاب بابان : احدهما عن الوحى والثانى عن القرآن .

الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا، وكانت الأيام بينهم دولا .. ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرّر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبى بكر الباقلانى وامام الحرمين والاسفراينى وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة .. فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر . ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين الا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم

(١) هو ابو الحسن على الاشعرى الفقيه من مؤسسى علم الكلام ولد سنة ٢٧٠ وقيل : ٢٦٠ وتوفى سنة ٣٣٠ ونيف وقيل : ٣٢٤ ناصر أهل السنة على المعتزلة ، وله مؤلفات عديدة منها : « الابانة من اصول الديانة »، و « اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع »

ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان .. ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول ، ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالى (١) والامام الرازى ، ومن أخذ مأخذهما ، فخالفوهم فى ذلك .. وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها ، فلا وجه للحجر فى الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكتنفهم بحمايته ، ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة

(١) هو ابو حامد محمد الغزالى، او الغزالى بتشديد الزاى ، ولد فى طوس سنة ٤٥١ هـ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ ـ أما الرازى ، فالمراد به فخرالدين الرازى ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفى سنة ٦٠٦ هـ الفقيه المحدث له كتاب « أساس التقديس » فى علم الكلام وكلمة « الرازى » اسم لستة من علماء الاسلام

وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا . وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق ، أو يضع العقاب فى سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صحّ من قوله عليه السلام : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وبعد ما سنّ لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء ..

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم :

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان، خصوصا أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادىء الأمر .

الثانى : الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى

كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم

وجاء الغزالى ، ومن على طريقته ، فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات ، وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ، ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام ، وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبانى الدين واشتدوا فى نقده . وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامى من سعيهم

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلاسفة فى كتب المتأخرين ، كما تراه فى كتب البيضاوى (١) والعضد وغيرهما ، وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا ، والذهاب بمقدماته

---

(١) البيضاوى هو عبدالله بن عمر احد مفسرى القرآن . تولى القضاء . وتوفى سنة ٦٨١ هـ فى تبريز ، وهو من علماء اهل السنة

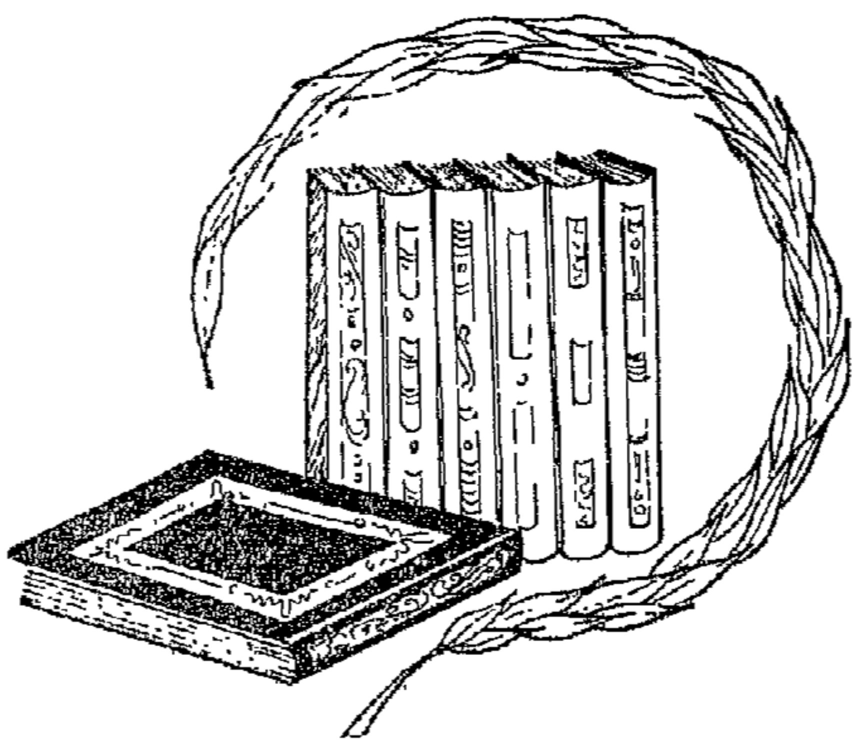
ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر .. فوقف العلم عن التقديم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الاسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين الا تحاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب.. على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله .. غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير .. وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر

وهذا اسلام . والدين من وراء ما يتوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون .. ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ .. شر عظيم ، وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية الأمر أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ! ..



الاسلام دين توحيد فى العقائد

والذى علينا اعتقاده ان الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد ، لا دين تفريق فى القواعد . العقل من أشد أعوانه ، والنقـــل من أقوى أركانه . وما وراء ذلك فنزعات شياطين ، وشهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله

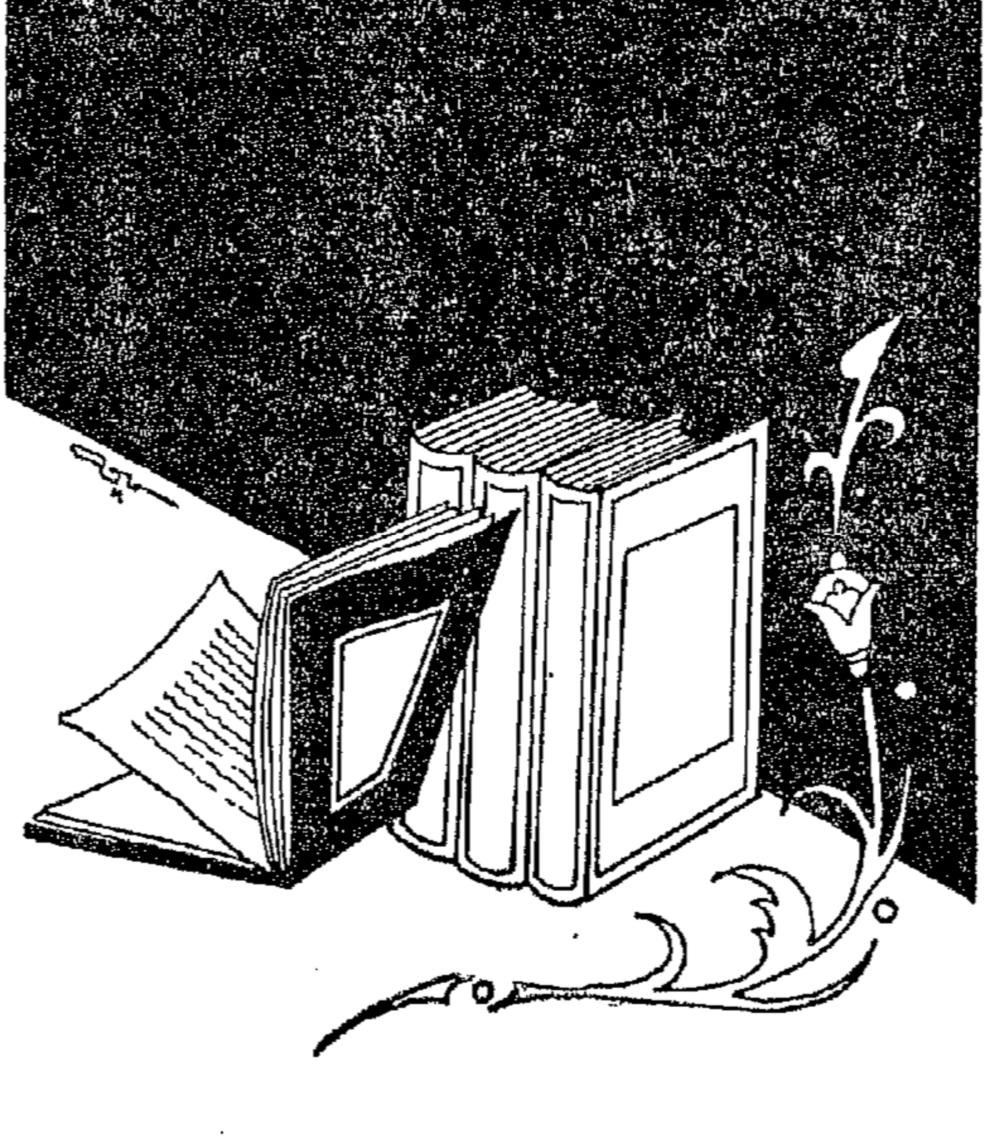
الغاية من هذا العلم ، القيام بفرض مجتمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل، لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب . فقد أمر بالنظر ، واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهـــر الكون ، وما يمكن النفوذ اليه من دقائقـــه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخـــذ بما عليه آباؤهم ،

وتبشيــع ما كانوا عليــه من ذلك واستتبــاعه لهدم معتقداتهم ، وامحاء وجودهم الملى .. وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار ... فهو خصلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الانسان



الفصل الثاني

أقسام العلوم



أقسام المعلوم

يقسّمون المعلوم الى ثلاثة أقسام : مستحيل لذاته ، وممكن لذاته ، وواجب لذاته (١) ، ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته ، وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة

---

(١) قال السيد محمد رشيد رضا : هذه القسمة عقلية وهى للحصر ، لأن ما يتعلق به العلم اما ثابت قطعا لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، واما ضده وهو المستحيل، واما واسطة بينهما وهو ما لا تقتضى ذاته الثبوت ولا الانتفاء، بل يجوز لها الأمران بحسب العلل وهو الممكن . فمعنى كون الشىء ممكنا أو مستحيلا أو واجبا لذاته، هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته .. أى ان ذاته اذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن الا كذلك ، والمراد بالامكان والوجوب والاستحالة ماكان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة، فمثال المستحيل : اجتماع النقيضين، ككون الشىء موجودا معدوما فى آن واحد اى موجودا غير موجود فهذا معلوم — أى متعلق للعلم — يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته، أى ان ذاته لا يمكن ان تكون ثابتة ، وليس منه مشى الانسان على الماء ، أو طيرانه فى الهواء بلا أداة للطيران .. وانما هذا مستحيل عادة، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للأربعة فانك لا يمكنك أن تتصور العدم المحض ولا كون الاربعة ليست زوجا ، ومثال الممكن ظاهر . فان جميع هذه الموجودات التى ندركها بحواسنا ممكنة الوجود ، كما يعلم مما يأتى فى الرسالة

لغيره ــ واطـلاق المعلوم على المستحيــل ضرب من المجاز ، فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هــذا القبيــل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه ، فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته (١) من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ،

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشىء هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا ان ماهية الشىء ترادف حقيقته فى الجملة ، مثال ذلك : أن مايتصوره الذهن من معنى الانســانية الكلى الذى يوجد فى كل انسان غير مصاب بعلة ، ككونه حيــوانا ناطقا عاقلا يسمى ماهية الانســان وحقيقته ، ولكن تختلف التســمية باختــلاف الاعتبار .. فما يتعلق فى الذهن من معنى الشىء الذى تتقــوم به ذاته ويجاب به اذا سـئل عنه بما هو ذلك الشىء ؟ يسمى ماهية ، وانما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه فى الــواقع . ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة، ولازم الشىء ما لاينفــك عنه كلزوم الانقســام الى متساويين للزوج

وكلمــة الماهية ، وتفســيرها ، والسـؤال عن الشىء بمــا هو ، وما خصوه به واشترطوه فى جوابه، كل ذلك من اصــطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة .. فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هــو كذا ، وقــد يجيبون عنه بأى صفة تميز الشىء المسئول عنه عن غيره

وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها (١) بالبداهة.. فالمستحيل لايوجــد فهو ليس بموجود قطعــا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه . فهو ليس بموجود لا فى الخارج ولا فى الذهن

احكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء . فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (٢)

ومن أحكامه : أنه ان وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة ، وهو ابطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها

(١) قال المؤلف الاستاذ الامام : من القضايا التى قياساتها معها لأن سلب اللازم انما يكون بسلب الملزوم، وهو كون الماهية هى، أى فهو كسلب الانقســام الى متساويين عن عــدد الزوج وهو نفى لكونه زوجا فكأنك قلت : انه زوج غير زوج

(٢) أى لانه جمع بين النقيضين ، اذ معنــــاه أنهما متساويان غير متساويين فى ان واحد ، فهو من القضايا التى قياساتها معها

فيؤدى الى خلاف المفروض ، والثانى كذلك والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود [1] فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح.. وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه .. فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثا .. اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة ، لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود ،

---

(1) اى ان وجوده قبل سببه يؤدى الى الجمع بين النقيضين ، وهوكونه اى الممكن محتاجا فى وجوده الى السبب غير محتاج اليه . وقوله: والثانى كذلك ظاهر ، فان وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضى أن ما فرض سببا لا يكون سببا ، وأن الممكن محتاج الى السبب غير محتاج اليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود . مثاله : أن يوجد الاب والابن اى يولدا فى وقت واحد. ومن البديهى أن الشخصين اللذين يولدان فى وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا

فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد .. وذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن الى السبب فى وجوده ابتداء يحتاج اليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ، ولا يرجح لها الوجود على العدم الا للسبب الخارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود على العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا : منشأ الايجاد ومعطى الوجود ، وهو الذى يعبِّر عنه بالموجد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ، وبالفاعل الحقيقى ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها . وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيىء الممكن لقبول الايجاد من موجده . وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه .. ومن

هذا القبيل ، وجود البناء فانه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البنــاء واهب الوجود للبيت ، وانما حركات يديه وحركات ذهنــه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ..

وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء ، وبين استفادته الوجود من شيء .. فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم ، كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى .. فان الأولى ليست واهبــة الوجود للثانية ، والا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الأولى ، وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه ، وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به .. فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات .. فهذه الكائنات اما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة .. لا سبيل

الى الأولى لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته .. (١) وما بالذات لايزول ، فلا يطرأ عليه العدم ، ولا يسبقه كما سيجىء فىأحكام الواجب فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعا

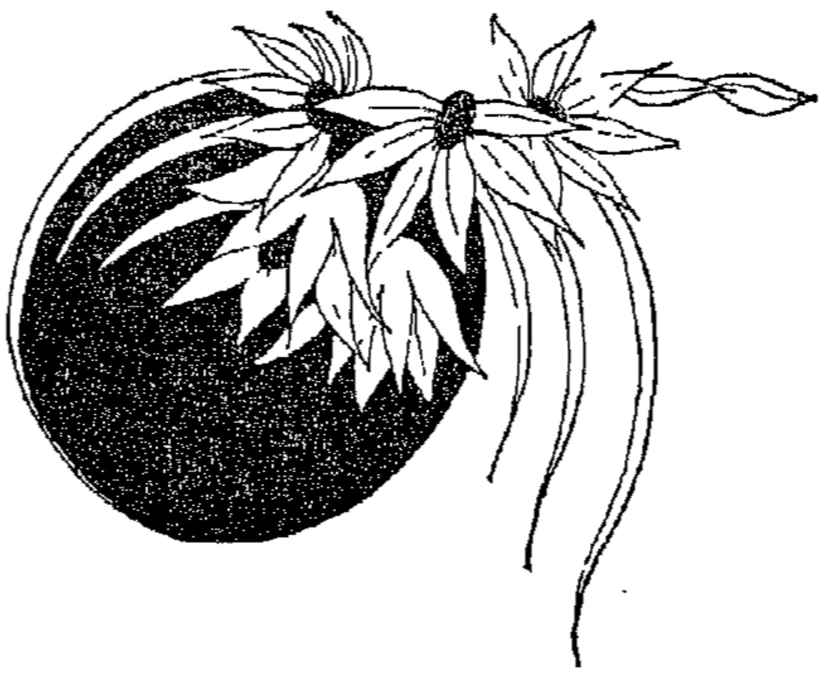
وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها ، فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشىء على نفسه ، واما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشىء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ، ولنفسه فقط ان فرض أول ، وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والمستحيل لايوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات

(١) قوله « له الوجود من ذاته» جملة هى خبر أن

الموجودة موجدا واجب الوجود (١)

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كات متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود اما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل ، لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شىء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة



(١) هذه مقدمة ونتيجة على طريقة « علم المنطق » وقد سبق أن قال فى الفصل الاول أن علم الكلام أوعلم التوحيد أشبه بالمنطق فى طرق الاستدلال بالعقل لا بالنقل عند أهل النظر

احكام الواجب

القدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديما أزليا لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال .. فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا واجبا وهو تناقض محال . ومن أحكامه أن لايطرأ عليه عدم ، والا لزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود الىسلب الشىء عننفسه وهومحال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا ، اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته .. وكل جـزء من أجـزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره . وقد سبق أنالواجب ماكان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب

لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا انه لذاته من حيث هى ذاته ، ولأنه مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه

ونفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية (١) أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج والا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

وكما لايكون الواجب مركبا لايكون قابلا للقسمة فى احد الامتدادات الثلاثة أى لايكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا لعدم أو تركا وكلاهما محال

---

(١) قوله « حقيقة عقلية » مبنى على القول بها على سبيل التوضيح والا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له، وقد نفاها المؤلف فى الدرس حينما كان يقوم بتدريس هذه الرسالة بالازهر بعد عودته من بيروت ,وقد أثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة الا ادراكها ، أى الصور التى ينتزعها الذهن من الوجود الخارجى ، وبين فى درس المنطق لتلامذته بطلان مذهب أفلاطون فى الوجود العقلى ومذهب ارسطو فى كون الصور الذهنية هى حقائق هذه الموجودات الخارجية

صفة الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ، يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود ، تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ..

ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر . وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام ، والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا كان فى النوع أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام ، كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها ، وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدركل وجود ممكن، وظاهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها .. ولأنه يستتبع من الصفات الوجودية مايلائم تلك المرتبة العليا

وكل ما تصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له ، وجب أن يثبت له . وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه ، يعدّ من كمال الوجود . فيجب أن يكون ذلك ثابتا له .. فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له ..

فمما يجب أن يكون له ، صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة . وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر

النظام وقاموس الحكمة (١) وهى فى أى مراتبها مبـــدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب ، وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به ، وجب أن يثبت له ..

فواجب الوجود حى وان باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجـــودا . وقد تقـــدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه .. فهل لو كان فاقـــدا للحياة يعطيهـــا ؟ .. فالحيـــاة له كما أنه مصدرها .. !



(١) دليل فيه اضمار تقديره : وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودى فالحياة كمال وجودى

صفة العلم

ومما يجب له صفة العلم . ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود . ويمكن (١) أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال . ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده (٢)

(١) كتب الامام فى حاشية نسخة الدرس هنا : اى بالامكان العام

(٢) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة ، وأما الصفات التى لا تعد كمالا ولا نقصا وهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القبيل « فيمكن » هبتها مع فقدها

علم الواجب من لوازم وجـوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجـوده على الوجـودات .. فـلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه ، والا تصور العقل علما أشمل ، وهو انما يكون لوجود أكمل ، وهو محال

ما هو لازم لوجـود الواجب يغنى بغنـاه ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شىء ما وراء ذاته : فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظـام الممكنات من الاحكام والاتقان ، ووضع كل شىء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه .. وذلك ظاهر لجلىء النظر بما يشاهد فى الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على

قاعدة تكفل لها البقــاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظــام عمله أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية .. كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتهــا قواها ، وايتــائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها ، وايداع غير الحســاس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبــه من الغذاء دون ما يلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة.. ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق ، وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق ، وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وســوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له . فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفــة أو علقة ويعلم حاجته ــ متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ــ الى

الأيدى والأرجل والأعين والأنوف والآذان وبقيةالمشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ، ويقيه من العوادى عليه ، وحاجته الى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع

هو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا ، وأنها متى كبرت تلد أجراء(1) متعددة فيمنحها أطباء كثيرة ، وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه . وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم ، وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث ..

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء ؟ .. الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ ..

(1) الاجراءجمع: جرو ، والاطباء جمع طبى بالكسر : وهى حلمات الضرع

هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالمصادفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ؟ .. وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؟ ..

كلا .. بل مبدع ذلك كله هو من لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم



صفة الارادة

مما يجب لواجب الوجود وهو الله : الارادة . وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة

بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم ، وأن ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه انما يفعل على حسب علمه .. ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب .. فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم ، وعلى حسب تردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

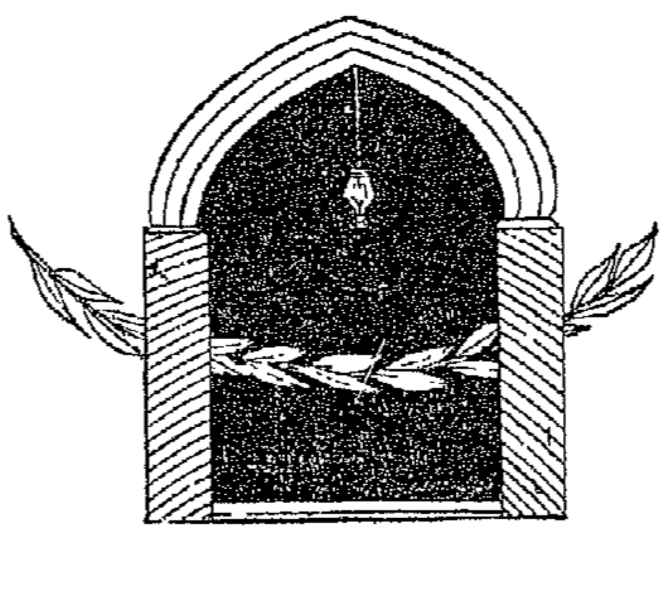
القدرة والاختيار

ومما يجب له ، القدرة . وهى صـفة بها الايجاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته، فلا ريب يكون قادرا بالبداهة ، لأن فعـل العالم المريد فيمـا علم وأراد ، انما يكون بسلطة على الفعل . ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

وثبوت صـفات العلم والارادة والقـدرة يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لا معنى له الا اصـدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ، ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلمية المحضة والاسـتلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة . وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه اليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر لوجـود الواجب الذى هو

أكمل الوجودات وأرفعها . فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكوّن ، واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع

وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل . والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هـذا النمط الرفيع : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ .. » وهـذا هو معنى قولهم : ان أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولـكنها تنزه عن العبث . ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وان خفى شىء من حكمتها عن الأنظار



صفة الوحدة

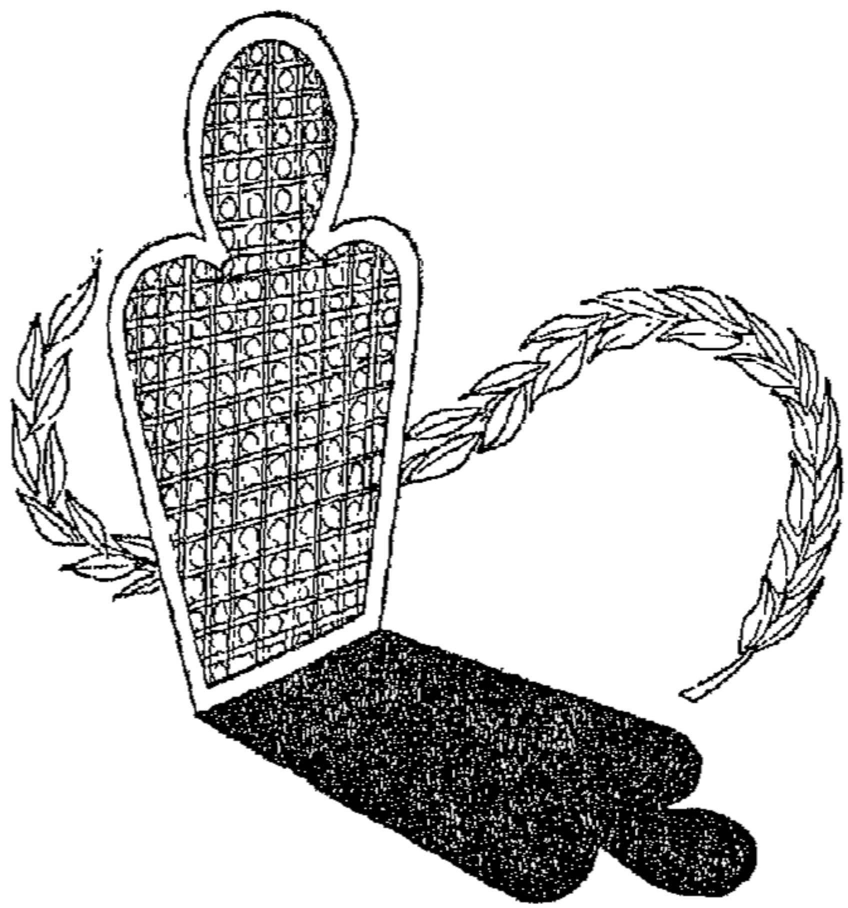
ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجا وعقلا. وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لايساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات

وأما الوحدة فى الوجود ، وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات ، فهى ثابتة لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعيُّن يخالف تعيُّن الآخر بالضرورة ، والا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعيُّنات اختلفت الصفات الثابتة .. للذوات المتعينة ، لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعيُّن ما ثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات

الواجبة ، اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الأخرى وارادتها ، ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعيّنها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته ، لا لأمر خارج . فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما ، وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته ، فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وارادتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات . فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وارادته ، ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن وجود كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم

.ں يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال..
فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا . لكن الفساد ممتنع
بالبداهة . فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته ،
لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله



صفات الله السمعية

التى يجب الايمان بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الايمان بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد اليه البرهان ، وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لايهتدى اليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات : صفة الكلام . فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر

الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه (١)

(١) قال السيد محمد رشيد رضا تعليقا على ذلك :

ان الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم ، واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم ، فالعلم هو القوة أو الصفة التى تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب ، وفيها قوة أخرى تتصرف بها فى المعلومات وتصورها بصور قابلة لاعلام قابل العلم بها ، فبها يتمكن الانسان من افادة غيره ما شاء من علمه وهى صفة الكلام ، فما كان منه فى النفس يسمى كلاما نفسيا ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت فى نفسى كذا ، وحدثتنى نفسى ، وقال عمر يوم السقيفة : زورت فى نفسى كلاما .. وما تحصل به الافادة والاعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه الى من يراد اعلامه به فيعلمه يسمى كلاما لفظيا ، وقد استعير لفظ العلم الذى يستعمله البشر فى أنفسهم للعلم الآلهى المحيط بكل شىء ، واستعير لفظ الكلام للشأن الالهى الذى به يوحى الله الى ملائكته ورسله ما شاء من العلم ويكلم من شاء وحيا من وراء حجاب، فقيل : ان الله كلاما هو صفة له أى شأن من شئونه هو مصدر الوحى وافادة العلم للانبياء والملائكة ، وسمى مايوحيه اليهم كلاما أيضا . وليس فى اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل فى كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسى عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم ، فالكلام النفسى صورة للعلم الذاتى فى النفس كما أن العلم صورة للمعلوم فيها . ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل مافى علمه ويكشف ماشاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم . كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شىء تعلق انكشاف وادراك من غير سبق خفاء ، فالكلام كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا (سبحانه) بفقده فى الازل له ، ولكان غيره من الموجودات كالانسان أكمل منه على ما سبق بيانه فى صفة الحياة تعالى الله عن ذلك . فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان ، وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بنى اسرائيل بقوله (أفلايرون الا يرجع اليهم قولا ※ ولايملك لهم ضرا ولا نفعا) وانما الاله الحق هو الذى يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته ، ولو خلق الله تعالى فى نفس الملك أو النبى علما بما أراد اعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسى ومرآة له لما صح ان

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر: وهى ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع : وهى مابه تنكشف

يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ،كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التى لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له . وكذلك الكسبية بالاولى

هذا وان لايحاء كلامه تعالى الى الملائكة صورة روحية غير الصورة التى يوحيها الملك للرسول من البشر، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هى كلامهم اللفظى ، والمعنى للكل الذى هو العلم الذى أراد الله تعالى اظهارهم عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ، ولا يصح أن يعزى الى غيره . فالشاعر الذى علم أن كل شيء ماخلا الله باطل (لأنه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وأن كل نعيم فى الدنيا زائل ، ولمثل له هذا المعنى بقوله :

الا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه ، بعد أن تمثل فى نفسه ، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرنا بعد قرن ، وكلهم يعزونه اليه وأنه من كلامه ، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفى أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرنا .. فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذى أوحاه الى محمد رسوله (ص) صادرا عن كلامه النفسى ، وأن حدوث الوحى به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالالسنة وكتابته وطبعه فى المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافى كونه هو كلامه وأنه قديم بقدمه ، على أن السلف لم يقولوا انه قديم لأن نص الشارع لم يرد به ، وقد أغلظوا النكير على من قالوا انه مخلوق وحادث بشبهة حدوث ايحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه انكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام اثباتها لتعدد القدماء وهي نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها فى صفات الله تعالى وكلامه المنزل ، غلوا فى التنزيه انتهى بهم الى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود ، وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وانما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ، ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل . وقد اهتدى البشر الى بيان ما فى أنفسهم من الكلام لمن يريدون اعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الاميال بلا صوت وذلك ما يعرف بالتلغراف السلكى واللاسلكى ، وما يؤدى به يسمى

المسموعات ، فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا



كلاما ايضا، فهذا أظهر مثال يضرب للوحى ، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق ، ثم اهتدوا الى اختراع الة أخرى تنقل الاصوات والكلام من قطر الى قطر وان بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة فى مسألة الخلاف فى خلق القران عملا بأمر المؤلف اذ كتب بخطه فى طرة نسخته ما نصه (فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القران) وبين لنا السبب فى ذلك فى الدرس فقال : انه التزم فى الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التى ليست من مذهبهم . وكان الذى ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطى (رح) فأذعن وذكر ذلك فى الدرس وقد نوهنا بذلك فى مقالة للمنار عنوانها (سجايا العلماء) وما شرحناه تصوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد

اجمال الكلام فى الصفات

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكرحديث ان لم يصح، فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (١)

اذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى الى كماله ، انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض

---

(١) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها ، قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الاحياء : روى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه باسناد ضعيف، ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه اخر اصح منه ، ورواه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر . قلت : فيه الوازع بن نافع متروك ا هـ زاد الزبيدي فى الشرح : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا فى الاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والطبرانى فى الاوسط ، وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعه والاصبهانى وأبو نصر فى الابانة ، وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح . كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة ا هـ

« كاتب الهلال » لا حاجة الى كل هذا التحقيق الذى أورده السيد رشيد رضا على هذا الحديث ، فالرواية بالمعنى جائزة . وأكثر الاحاديث رويت بالمعنى .. !

الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجـدانا أو تعقلا ، ثم التوصـل بذلك الى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . وأما الوصـول الى كنه (١) حقيقـة ما فمما لا تبلغـه قوته . لأن اكتناه المركبات (٢) انما هو باكتنـاه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضـه وآثاره

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة ، فصلوها فى علم خاص به ، ولكن لم يسـتطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنـه معنى الاضاءة نفسـه ، وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس

---

(١) كنه الشيء : جوهره وحقيقته وغايته ، ومعرفة الكنه هى معرفة الاحاطـة التى ليس وراءها غاية يبحث عنها

(٢) الاكتناه معرفة الكنه ، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه ، وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل اليه علم من اكتشف هذا التركيب ، يسمونها الاوكسـجين والادرجين على نسبة معينة . فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ، ولكن اكتناه البسيط كالادروجين مما لا سـبيل اليه كما قال المصنف

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص . ولذة عقله ان كان سليما انما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وادراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه وهى نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر ؟ .. هل هى قبل الجسم أو بعده ؟ .. هل هى فيه أو مجردة عنه ؟ ..

كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حى له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة ، فهو راجع الى تلك العوارض التى وصل اليها ببديهته . أما كنه شيء من ذلك ، بل كيفية اتصافه ببعض صفاته ، فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانسانى مع ما يساويه فى الوجود

أو ينحط عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر . وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ .. ماذا يكون دهشـه بل عجزه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟ ..

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها الى معرفة مَن هـذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، والى اتصـافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظـام ، وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطـل ، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطـل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف

وأما الفكر فى ذات الخالق : فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاسـتحالة التركب فى ذاته ، وتطاول الى ما لاتبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى الى ما لايدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لايصح حصره

لاريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غيرما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف فيها النظار ،

وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه ، اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه .. والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى .. وانما تلك مذاهب فلسفة ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع ، فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين



الفصل الثالث

أفعال الله وأفعال العباد



أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وارادته ، وكل ماصدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته .. فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته ، فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق واعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص .. فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل من علم وارادة أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا .. فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبقت الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد ، ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر . فظن كل أن الآخر

عدو يريد مقارعته على مابيده ، فاستحر بينهم القتال وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ماأملوا ، ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين

نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الايجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية مالزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علوا كبيرا

وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لايرضونه الا قلبا (متغيرا) يبرم اليوم مانقضه بالأمس . ويفعل غدا ماأخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لايشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين ، وأصدق

القائلين .. جبروت الله وطهـارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لاتخلو من حكمة . وصرح الغلاة والمقصرون جميعـا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ، والكذب فى أقواله ثم بعـد هـذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ، ويتمارون فى الأوضـاع . ولا ندرى الى أى غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد الى حقيقة واحدة مااختلفوا فيه

معنى الحكمة

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما ، أو يدفع فسـادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لايرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل ــ لايسمى مايترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان مايتبع العمل مرادا لفـاعله بالفعل ، والا لعد النـائم حكيما فيما لو صدرت منه حركة فى نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط

فيهـا ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجمـاوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصـة أو العامة ، والبداهة تأباه

من القواعد الصـحيحة المسلمة عنـد جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لاتصدر الا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وان كان هذا فى العاقل الحادث فماظنك بموجـد كل عقل ، ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لاينازع فيها أحد

صـنع الله الذى أتقن كل شىء ، وأحسن خلقه ، مشحون بضروب الحكم .. ففيه ماقامت به السموات والأرض ومابينهما وحفظ به نظـام الكون بأسره ، وماصانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه مااستقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصا ماهو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضـع كل شىء فى موضعه وايتاء كل محتاج ماله اليه الحاجة ، اما أن تكون

معلومة له مرادة مع الفعل أو لا .. ولا يمكن القول بالثانى ، والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة ، أوبالغفلة ان لم تكن مرادة . وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته ، فهو يريد الفعل ويريد مايترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، اذ لو صح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته ، وهو مما لانزاع فيه بين جميع المتخالفين . وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ما أوعد ووعد به ، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين(١) ، وماجاء فى الكتاب أوالسنة مما قد يوهم

(١) كتب الاستاذ الامام فى هامش نسخته ما نصه : « ولا يقال : ان غاية حكمته الوجوب عليه ، لانه هو جاعل الغايةوذو الغاية وكون الغاية غاية ، لانه المبدع الذى لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر ما اراده »

خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ماهدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى مايليق بكمال الله وبالغ حكمته ، وجليل عظمته . والأصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على البـاطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »

وقوله « لاتخذناه من لدنا » أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لايشـوبه نقص وهو محال . و « ان » فى قوله « ان كنا فاعلين » نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقى أن الناظرين فى هـذه الحقائق ينقسـمون الى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته .. فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ، ولا يبالى جوز شرع اطلاقها فى جانب الله أو لم يجوز ، فيسمى الحكمة غاية وغرضـا وعلة غائبة ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق

اسم متى صح عنده معناه . وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لاله عظيم ، يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها ، فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم اعمال النظر واجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائية والغرض ، توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته ، وفيها مافى سوابقها . ولكن — الله أكبر — هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف فى المقال ، سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ماصاروا اليه من سوء

أفعال العباد

كما يشـــهد سليم العقل والحواس من نفســـه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده .. كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة مافيه ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد لذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفســـه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوســـائل أحكم ، وينقد غيظه على من حال بينه وبين مايشتهى ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى

مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره ، أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بعين فمات أو بذى منصب فعزل . يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى .. ولكن مع ذلك لاينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات . ويشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ـ عقلية كانت أو جسمانية ـ قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه ، فقالوا « هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ماخلق لأجله »

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف .

ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ماقام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته ، وبين ماتشهد به البداهة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لاتكاد تصل العقول اليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين .. ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدأوا . وغاية مافعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وابطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى الى الاشراك بالله ــ وهو الظلم العظيم ــ دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ماجاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ماوهبه الله من

الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ماخرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقـــاد من يعظم ســـوى الله مســـتعينا به فيما لايقدر العبـــد عليه .. كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا

هـــذا هو الشرك الذى كان عليـــه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأســـباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول ـــ أن العبد يكسب بارادته وقدرته ، ماهو وسيلة لسعادته

والثانى ـــ أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى اتمام عمله بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد فى تصحيح الفكر واجادة العمل .. ولايسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك

وهذا الذى قررناه قد اهتدى اليه سلف الأمة ، فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخرى أهل النظر امام الحرمين الجوينى (١) رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

***

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لايقتضى من المكلف الا اعتقاده أن الله صرفه فى قواه ، فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاده أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى

---

(١) امام الحرمين لقب أبى المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى الذى نصر مذهب السلف بالصراحة التامة . ولد فى نيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفى سنة ٤٧٨ هـ اتبع مذهب الاشعرى ، وهاجر الى الحجاز ، وعلم فى مكه . ومن مؤلفاته : « البرهان فى أصول الفقه »

اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لايعلمه ولايدخل تحت ارادته

وأما التطلع الى ماهو أغمض من ذلك ، فليس من مقتضى الايمان كما بينا ، وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار . ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى مااطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم .. على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ماهى عليه فى العيـــان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ماهى عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه

ومن تلك الأنواع الانسان ، ومن مميزاته ــ حتى

يكون غير سائر الحيوانات ـ أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان اما ملكا أو حيوانا آخر . والفرض أنه الانســان ، فهبة الوجود له لاشيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب (الله) محيط بما يقع من الانسان بارادته ، وبأن عمــل كذا يصــدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر . والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة على الكسب والاختيار فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون مافى العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لايتبدل

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة ، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختيــاره لابالمنع ولا بالالزام . فانكشاف الواقع للعالم لايصح فى نظر العقــل ملزما

ولا مانعا ، وانما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ، ورجوت أن لايبعد عن عقل يألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالماحكات اللفظية ، ولكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان ، وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فانجاءهم بما يخالف مااعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته

فأكبرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فىخلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه » عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا الا على معروف . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

حسن الافعال وقبحها

الأفعال الانسانيه الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنـــا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أن اســتحضار صورها ، يشابه كل المشابهة ماتنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أوحضورها فى تخيلاتنا .. وذلك بديهى لايحتاج الى دليل

نجد فى أنفســنا بالضرورة تمييزا بين الجميــل من الاشياء والقبيح منها ، فان اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء ، أو مشارب النســاء فى معنى جمال الرجال .. فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض .. ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجابا

ومن القبيح اشمئزازا أو جزعا ، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات ، يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبح فى الأشياء . ولكن لايخالفنا أحـد فى أن من خواص الانسـان ، بل بعض الحيوان ، التمييز بينهما . وعلى هذا قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن ، وان اختلفت الأذواق .. ففى الأشياء جمال وقبح

هذا فى المحسوسات واضح ، ولعله لاينزل عن تلك الدرجة فى الوضـوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وان اختلف اعتبار الجمال فيها .. فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصـائر لاحظيه . وللنقص قبح لاتنـكره المدارك العالية ، وان اختلف أثر الشـعور ببعض أطواره فى الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات

وهل فى النـاس من ينكر قبح النقص فى العقل ،

والسقوط فى الهمة ، وضعف العزمة ؟ . ويكفى أن أرباب هذه النقائص فى الهمة يجاهدون فى اخفائها ، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به . فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، ولكن أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته أو احسانه اليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلايشعر الوجدان منه الا بالجميل .. ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أضر ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

***

هل يمكن لعاقل أن لايقول فى الأفعال الاختيارية ، كما قال فى الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها .. وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية اما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ . كلا .. بل هى قسم من الموجودات ، حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الأفعال الاختيارية ماهو معجب فى نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العازف بها . ومنها ما هو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع المذعورين (١)

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الألم ، وماهو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم . فالأول : كالضرب والجرح ، وكل ما يؤلم من أفعال الانسان . والثانى : كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألما مما لايحصى عده . وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ ، والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد

---

(١) نقعهم : صياحهم . يقال: نقع الصوت اذا ارتفع ونقع الصارخ (كفتح) نقعا ونقوعا :رفع صوته

مرتبة الجمال والقبح

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، ومايقبح بما يجر اليه من الضرر .. ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى ، اذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم الا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل ، وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ مايقبح لشؤم عاقبته ، كالافراط فى تناول الطعام والشراب ، والانقطاع الى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات ، فان ذلك مفسدة للصحة ، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل

وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة مايجر اليه عادة من الآلام التى ربما لاتنتهى الا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم

ومن المؤلم مايحسن ، كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق ، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ، ليتوفر للقوى البدنية

والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لايخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ان عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا : مقارعة الانسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه ، أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه ، أو قبيلته ، أو شعبه ، أو أمته ـ حسب ارتقائه فى الاحساس ـ ومخاطرته ولو بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه ، وان لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب فى كشف ماعمى عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لايرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس الى مايحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ماكسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه ، أو ماله فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المعتدى ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

التمييز بين الفضيلة والرذيلة

كل هذا عرفه العقل البشرى ، وفرّق فيه بين الضار والنافع .. وسمى الأول فعل الشر ، والثانى عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده ، وعزة الأمم وذلتها ، وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملّى ولا فيلسوف ، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده فىأفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع ، وما وصل الينا من تاريخ الانسان ، وما عرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل .. قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل ، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان الى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من أنقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع .. فمن زعم أن لاحسن ولا قبح فى الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أقل ذكاء من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل .. وأنها انما تسقط فى الشقاء

بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ماهونافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقـاعها فى الشقاء .. فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليـه أن يقول بعـد ذلك بحكم عقله : ان معرفة الله واجبة ، وأن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وأن الرذائل ومايكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشـاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، والى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه

اما أن يكون ذلك حالا لعـامة النـاس ، يعلمـون بعقولهم أن معرفة الله واجبـة ، وأن الفضائل منـاط السعادة فى الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها. فمما لايستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه

حاجات الانسان ومخاوفه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محـدودة ، كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا ، وكان ما وهب له من

الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته ، وتخلص كل من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لـكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ، ولا بوضع من الاوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أى اقليم وعلى أى حال ، وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته .. ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة ، وعرض الأظفار

وهب الله الانسان أو سلـّط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة ، والمخيلة ، والمفكرة .. فالذاكرة : تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى.. والخيال يجسّم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى

يصير كأنه مشاهد ، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه .. فتلجأ الى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه

على هـذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر ، هادىء الخيال ، صحيح الفكر .. ينظر مثـلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألمـا لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سـد حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره باعطـاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعنـد ذلك يوجّه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبـه الله من القوى فى نفسـه ، وما سخّره له من قوى الكون المحيطة به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هـذا

المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولايزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستتر عنه ما طــاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطّل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسنّ سنّة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين .. فلقوة الذاكرة وضعفها ، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته ، أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضــار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر

فالنــاس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح .. ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصــابة وجه الحق فى

معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جرّ الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وان عظمت لذته الحاضرة.. ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنفهم .. فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه ، وكلٌ يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا . فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة .. اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر ..

تفاوت العقول وحاجتها الى هدى النبوة

وليست عقول الناس سواء ، فى معرفة الله تعالى أو فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة . فليس فى سعة العقل

الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يُعرف ، ولا أن يفهم من الحيـــاة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة . وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقــل ونور البصيرة ، وان لم ينل هــذا القليل شرف الاقتــداء بهدى نبوى . ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه . وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهى

ثم منأحوال الحياة الأخرى ، مالا يمكن لعقل بشرى أن يصــل اليه وحده . وهو تفصيـــل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما

ومن الأعمــال ما لايمكن أن يعرف وجه الفــائدة فيه (١) لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور بعض

---

(١) أى لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه ، غير كونه تعبدا مع ظهــور فائدبه التعبدية ، وهو فعــله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظــة منفعة خاصة به ، ويعبرون عن هذاالقسم منالعبادة بغير معقول المعنى، ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلاكالوضوء والغسل وطهارة البـــدن والثوب . فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحةالنفس وهناء المعيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصـــلاة فى جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملهـــــا المؤلف فى الكلام على الدين الاسلامى ومن المستغرب قوله هنا : لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها

العبادات كما يرى فى أعداد الركعات ، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية ، وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية (١) وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية — كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له فى الحياتين — الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال ، وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الالوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة

وبالجملة يستعين بهذا المعين فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على

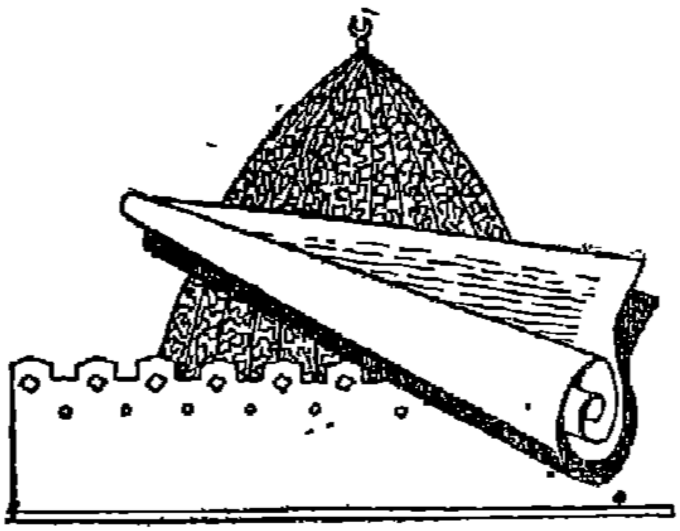
---

(١) يظهر أن حكمة بعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية هى محاكاة ما ألفه اليهود فى مصر ثم فى فلسطين من رؤية احتفالات الامم الوثنية مع توجيه الانفس فيه الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه وحده حتى لا يعودوا الى امثاله ما فعلوا فى التيه من اتخاذ عجل كعجل المصريين (ابيس) والى مثل عبادتهم

وأما المبالغة فى الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة فى مقاومة غلو اليهود والرومان فى عصره فى عبادة المال والشهوات البدنية تمهيدا لدين الاسلام الوسط المعتدل الدائم الذى يجىء به البار روح الحق محمد (ص) الذى بشرهم به وقال انه هو الذى يعلمهم كل شىء

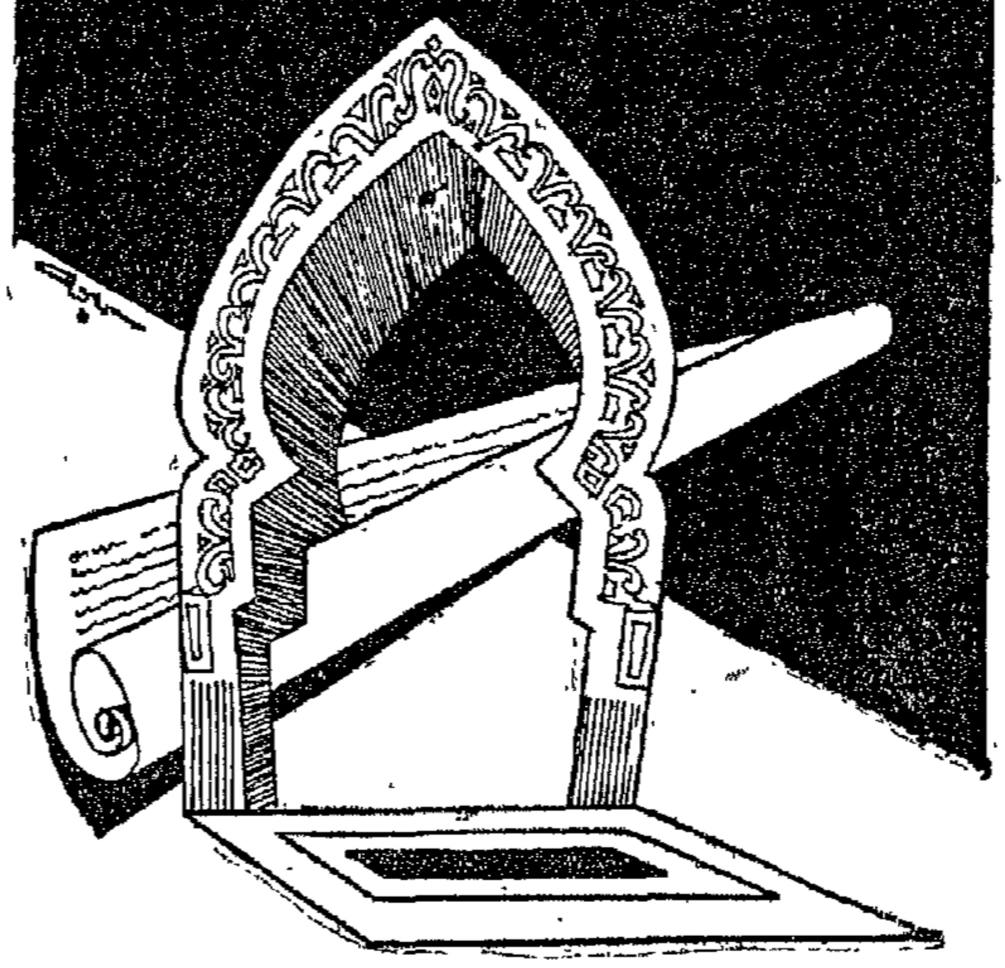
نفسه ، حتى يكون من بنى جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة . ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه . ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منهـا ، والحيـاة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقـة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبـط ما تشتت عليه ، وعلى ادراك ما ضعف عن ادراكه

هذا المعين هو : « النبى » ! ..



الفصل الرابع

النبوة والرسالة العامة



النبوة وتحديدها للعقائد

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ فى جانب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك ، ونشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم ، لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة .. فجاءت النبوءات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله، وبوحدانيته ، وبالصفات التى أثبتناها علىالوجه الذى بيّناه . وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك

فوجوب المعرفة علىهذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبّحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس

ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق

العقوبة التى نصَّ عليها .. كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها ، وانما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك

وأذكر مثالا من كثير: قال تعالى على لسان يوسف : « أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار؟» يشير بذلك اشـــارة واضحة الى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجّه قلبه اليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيـد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام اخوتهم ، وهى قاعدة ســعادتهم ، واليها مآلهم فيما أعتقد وان طال الزمان [1] .. فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوضع الحسن فيه

---

(١) كان المؤلف رضى الله عنـــه يعتقد أن ارتقاء الامم من طـــريق علوم الكون والنفس والاجتمـــاع سينتهى بهم الى التوحيد وســـائر ما قرره القرآن من أصـــول الدين « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحـق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ، الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شىء محيط » ـ من هامش السيد محمد رشيد رضا

تحديد النبوة للاعمال

والنبوة تحدّد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه ، فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أوأخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة ، أو فى صحة البدن ، أو فى حفظ النفس ، أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الاحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال ما لايمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لايعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لا حسن له الا الأمر ، ولا قبح الا النهى .. والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل (١) لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفّى غيره من الكائنات سداد حاجاتها وقاء وجودها على القدر الذى حدّد لها فى رتبة نوعها من الوجود

والكلام فى هذا البحث من وجهين :

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم ، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان .. فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشّرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه..قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه ، فى فضائل أعمال

---

(١) الرسل هم الانبياء الذين اختصهم الله بالوحى وارسلهم بالهداية الى البشر . والانبياء هم الذين اختارهم الله من بين البشر لمكانهم القدسى ولم يرسلهم الى البشر . فالرسول فى معناه أعم من النبى

وصفات يطالبهم بها ، وفى نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها .. وأن يعتقد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلّغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق .. وأن يؤمن بأنهم مؤيّدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه .. فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ما عُهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوّه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزّهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهى بما لايمكن

معه لنفس انسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية

أما فيما عدا ذلك ، فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده : يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسهون ، وينسون ، فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام .. ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء (١)

المعجزة وناموس الطبيعة

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته .. بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة ، لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف

فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى

قلنا : ان واضـــع الناموس هو موجـــد الكائنات ،

---

(١) قال تعالى على لسان السـيد المسيح : « قال انى عبد الله اتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا » . وفى آية اخرى فى سورة الكهف : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى إلى انما الهكم اله واحد .. »

فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات .. غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصّه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث ـــ على أى هيئة وتابعا لأى سبب ـــ اذا سبق فى علمه أنه يُحدثه كذلك

المعجزة والنبوة

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند اليها فى دعواه أنه مبلّغ عن الله .. فاصدار الله لها عند ذلك يُعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى . ومن المحال على الله أن يؤيّد الكاذب ، فان تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله (١) .. فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم

(١) يشير الامام الى أن دلالة المعجزة وضعية ، لانها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور .وقيل : عقلية وقيل : عادية ومن هذه المباحث ماقرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية

بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده ، وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله ، فان سلّم أن مظاهره فاقت آثار الأجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شىء (١)

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء ، فلأنهم لو انحطت فِطَرهم عن فِطَر أهل زمانهم ، أوتضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أو مسّ عقولهم شىء من الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للمنكر فى انكار دعواهم . ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلّين لامرشدين .. فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم

(١) يريد أن يقول ان المعجزة مدد الهى يخص الانبياء. أما السحر فهو علم يقتدر به الساحر على التأثير فى النفوس . وفى مقدمة ابن خلدون فصل نفيس عن علوم السحر والطلسمات . وقد فرق فيه بين السحر والمعجزة ، واشار فيه الى وجود السحر كما نطق القرآن فى غير موضع

السهو أو النسيان فيما عُهد اليهم تبليغه من العقائد والأحكام

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله، ولا له مدخل فى التشريع ، فجوَّزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره فى الاثمار ، فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعيَّة ، والفضائل محميَّة ، وماحكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه .. وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم ، كأن النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار

(١) « تأبير النخل » تلقيحه ، والحديث فى صحيح مسلم والروايات صريحة فى تأييد قول المجوزين دون الجمهور ، منها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعا « ان كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل » ورواية رافع بن خديج « انما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » ورواية عائشة « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ـ « م . ر . ر . »

آدم عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود ، والله أعلم (١) .. ومن العسير اقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور

(١) للمؤلف رحمة الله كلام مفصل فى هذه المسألة ، قرره فى تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الاول من تفسير المنار ، فهو مما لم يحم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا : ان آدم عليه السلام لم يكن فى الجنة نبيا رسولا، ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به . وقد صح فى حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الارض ، وهو ظاهر عدة ايات فى القرآن لا محل هنا لذكرها . وانما الغرض هنا ان قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظرى الذى استدلوا به على عصمة الانبياء . والجمهور يقولون بأن عصمتهم انما تثبت بعد النبوة لا قبلها ، والمجمع عليه منها العصمة فى التبليغ أو عما ينافى الرسالة وعن الكفر . قال السعد فى شرح المقاصد : والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقا ، والصغائر عمدا لا سهوا ، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون . ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) كيف ولم تكن فى الجنة أمة وكان من نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ « م . ر . ر . »

حاجتنا الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل . والكلام فى هذا الفصل موجّه الى بيـــان الحاجة اليهم .. وهو معترك الأفهام ، ومزلة الأقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام . ولسنا بصـــدد الاتيـــان بما قال الأولون ، ولا عَرض ما ذهب اليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر الى ما مال اليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق.. اللهم الا اشارة من طرف خفى ، أو الماعا لايستغنى عنه القول الجلى

وللكلام فى بيان الحاجة الى الرسل مسلكان :

الأول : وقد سبقت الاشـــارة اليه ، يبتـــدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانســـانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم ، أوتشقى

فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية ، معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

الحياة بعد الموت

اتفقت كلمة البشر : موحّدين ، ووثنيين ، مليين ، وفلاسفة ـ الا قليلا لا يقام لهم وزن ـ على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء (١) .. وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه .. وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال : انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من

(١) أى موت عدم ، لان فنى بكسر النون معناها عدم بكسر الدال وهلك

هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم

وتضارب آراء الأمم فيه قديما وحديثا ، لا تكاد تحصى وجوهه (١)

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيّها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لايمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزغة وهمية .. وانما هو من الالهامات التى اختصّ بها هذا النوع ، فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا ، وان شذّ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما .. أو الى أنه لايمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا انه لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال ، وانهم شاكّون حتى فى أنهم شاكّون .. ولم يطعن شذوذ

---

(١) فى كتاب «الساعات الاخيرة» لمقدم هذه الرسالة فصل طويل عن هذا الموضوع بعنوان « نظرات فى الحياة والموت »

هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأسّ البقاء الى الأجل المحدود .. كذلك قد ألهمت العقول ، وأشعرت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود .. بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيًّا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ..

ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيّقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيّأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرّضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الجواء (١) والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد .. الهام يلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع ، انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ، ولم يُعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان

(١) الجواء بكسر الجيم جمع جو . ويجمع أيضا على أجواء

استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات ، لايصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالأرواح الى تحسُّس هذا البقاء الأبدى ، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت اليه . وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ .. شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد ، وقضاء الأزمنة والأعصار ، فى تقويم الانظار وتعديل الافكار واصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال الى الآن من همٍّ هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى نتنهى اليها

***

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ .. هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب؟ وهل فى طوق الفكر ما يوصِّل كل أحد الى معرفة

ما قدر له فى حيـاة يشعر بها ، وبأن لا منـدوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو الى معرفة بيـد من يكون تصريف تلك الشئون ؟..

هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمار ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبـة اليك ؟ .. كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشـاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت ، فالنظر فى المعلومات الحـاضرة ، لا يوصـل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصـانع الحكيم ، الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليـم ، الذى خلـق الانسـان ، وعلّمه البيـان ، علمـه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم بحيث يجعـل رسـالته ؟ .. يميزهم بالفطر السليمة ، ويبـلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه

للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها . ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه .. معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد من متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدّد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، فى ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله . ويدخل فى ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من

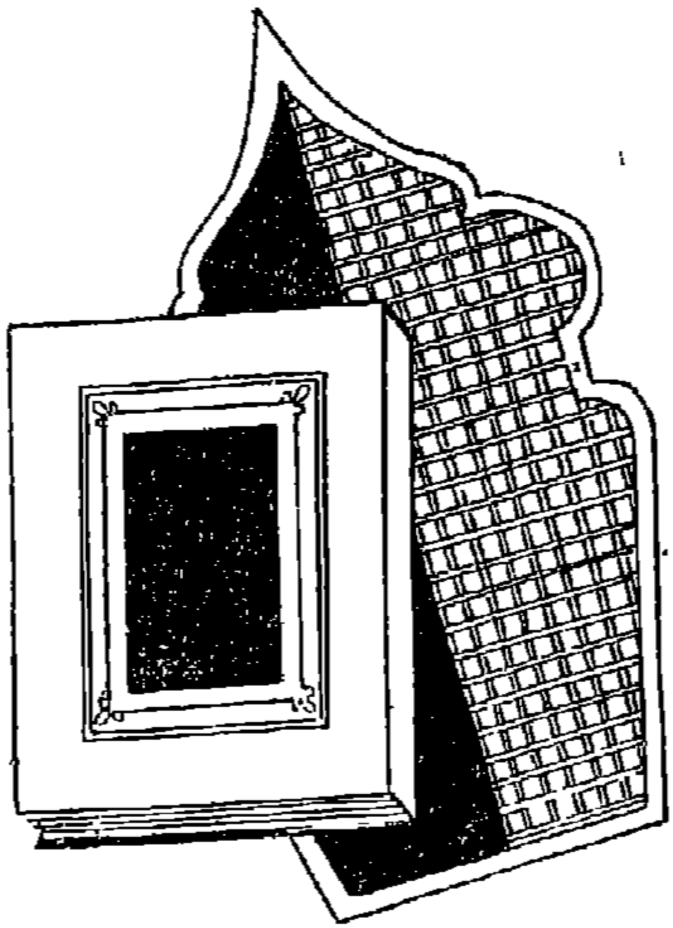
الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصــدق الرســالة ، فيكونوا بذلك رسلا من لدنه الى خلقــه مبشرين ومنذرين

لاريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حى بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل : ولِم لَم يودع فى الغرائز ما تحتــاج اليه من العلم، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الاخرى ؟.. وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ ..

وهو قول يصــدر عن شطط العقــل ، والغفلة عن موضوع البحث ـ وهوالنوع الانسانى ـ ذلك النوع على ما به ، وما دخــل فى تقويم جوهــره من الروح المفكر ، وما اقتضــاه ذلك من الاختــلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه

مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان اما حيوانا آخر كالنحل والنمـل ، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض



المسلك الثانى
فى الحاجة الى الرسالة

هذا المسلك يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه ، فقد أرتنا الأيام — غابرها وحاضرها — أن من النـاس من يختزل نفسـه من جماعة البشر ، وينقطـع الى بعض الغابات ، أو الى رءوس الجبال . ويستأنس الى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى الى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والاشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر ، أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا

ولكن مَثَل هذا مَثَل النحلة تنفرد عن الدبر (١) وتعيش عيشـة لا تتفق مع ما قُدِّر لنوعهـا ، وانما الانسـان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن

(١) الدبر بالفتح والكسر: جماعة النحل وكذا الزنابير

تعيش مجتمعة وان تعددت فيهـا الجماعات .. على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لاغنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور ما بالحاجة الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد .. وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك ، فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه . وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا فى جملة ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى .. فى الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشـتداد الحـاجة الى التفاهم ، وليس الاضـطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر ، الا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدى العاملة ، فتشتد الحاجة .. وعلى أثرها الصلة من الأهل الى العشيرة ، ثم الى الأمة ، والى النوع بأسره . وأيامنا هـذه شاهدة على أن الصـلة التابعة للحاجة قد تعمّ النوع كما لا يخفى

هذه الحاجة خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها ،

لها صلات وعلائق ميَّزتها عما سواها : حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

حاجة الانسان الى المحبة

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يُشعِر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل .. فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخَّرة لمنافعها ودرء ضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منها للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنَّة الكون ، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب ، فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابَّين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو

فيها لايفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفـارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصـول فى نفس الاتصـال لا فى عارض يتبعـه . فاذا عرض التبـادل والتعارض ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحولت المحبـة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع . وقام بين الشخصين مقام المحبة ، اما سـلطان القوة ، أو ذلّة المخافة ، أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ، ويخلص له ، ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه فى سـداد عوزه ، فصورة شبعه وريّه وحمايته مقرونة فى شعوره بصـورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقـدها بفقده .. فيحرص عليه حرصـه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته الى حـوزة آخر وغاب عنه السـنين ثم رآه معرّضا لخطر ما عادت اليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا ، واندفع الى اخلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لأن الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتمتع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الاحسان

ومصدره ، وليس وراءهما مذهب .. فحاجته فى سدّ عوزه هى حاجته الى القائم بأمره ، فيحبه محبتة لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة

أما الانسان — وما أدراك ما هو — فليس أمره على ذلك . ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة ، وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه الى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية قوله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسّه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا »

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا . يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك

الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده . ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل . ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل ، اعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان اما الحيلة واما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا فى وصول كلٍّ الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية ؟ .. كلا ! .. ولكن قدِّر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همِّه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس كادت تتغلب على جميع

الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليها من الأرواح مكانا لا تكاد تصعد اليه سائر اللذات .. وهى من أفضل العوامل فى احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله (١) ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا اليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة ، حتى خيّل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته فى القلوب باخافة الآمن وازعاج الساكن ، واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بُنى نظامهم وعلّق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الأعمال ؟ .. أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سببا فى تفانيهم ؟ .. لاريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

محبة العدل

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل ،

---

(١) فى الجزء الثانى من تاريخ الاستاذ الامام فصل مسهب بقلمه بعنوان « حب المحمدة الحقة » ص٣٠١ من مقالاته

وظنوا كما ظن بعض العارفين ، ونطق به فى كلمة جليلة « ان العـدل نائب المحبة » .. نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضـع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟.. قيل : ذلك هو العقل .. فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيّله المخاوف .. فيعرفون لكل حقٍّ حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسّموا أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته وهومايجب اجتنابه ، والى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد اخلاصه فى دعوة قومه الى مايحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقـلاء هم الذين يضـعون قواعد العـدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سُمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنَّته أن يخضع كافة افراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب؟

وهل كفى فى اقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : انهم مخطئون وان الصواب فيما يدعوهم اليه ؟ وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ ..

كلا ! .. لم يُعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنَّته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقل والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل ..

فمجرد البيان العقلى لايدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها

الشعور بالسلطان الغيبي

أضف الى ما سبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها .. كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ماهو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق اليها ارادة المختارين .

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر .. فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع الها

ولكن كلما رقَّ الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلَّت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى أنه قدرة واجب الوجود

غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا

اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم واثارة أعاصير الشقاق فيهم ، ومن اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك ، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفان بذات

ذلك القاهر ولا صفاته ، وانما ألقى به فى مطارح النظر، تحمله الافكار فى مجاريها ، وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منِيِ هذا النوع بالنقص ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ ..

نعم .. هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه .. يصعد بقوة عقله الىأعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت (١) ، ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل ، وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين

(١) « الملكوت » صيغة مبالغة للملك ولا يطلق الا على مالله تعالى منه دون ملك البشر ، ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذامن الجبر وهو اصلاح الكسر ، وللملكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية تراجع فى تعريفات السيد الجرجانى وغيرها

من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه ، بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده (١) .. وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع

منَّ عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة ، بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنّته فيه . ومن بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه . وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميّزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم .. وأيّد ذلك زيادة فى الاقناع

---

(١) أى أكمل للمجموع مالا يصل اليه كسب الافراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للافراد ــ رشيد رضا

بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل ، فيرجع الى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل ، فيرتد عن غيه ..

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته ، وكمال صفاته — وأولئك هم الأنبياء والمرسلون — فبعثه الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص — نعمة أتمها الله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

وسنتكلم على وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

الفصل الخامس

الوحي

ووظيفة الرسل



الوحى

تعريفه وكونه ممكن الوقوع

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه ، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه .. ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان

ولنذكر من اللغة ما يناسبه . يقال : وحيت اليه وأوحيت ، اذ كلمته بما تخفيه عن غيره والوحى مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة ، وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى الى الأنبياء من قبل الله . وقيل : الوحى اعلام فى خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى (١)

وقد عرّفوه شرعا : أنه اعلام الله تعالى نبى من

(١) قوله ويطلق على الموحى ، يريد أن الوحى اصطلح على أنه تعليم الله لانبيائه أمور الدين بواسطة الملائكة يرسلهم اليهم . وهو بهذا المعنى عام فى جميع الاديان الثلاثة الاسلام والمسيحية واليهودية

أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على رأينا أنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة

والأول يكون بصوت يتمثّل لسمعه (١) أو بغير صوت . ويفرّق بينه وبين الالهام ، بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

أما امكان حصول هـــــذا النوع من العرفان « الوحى » (٢) وانكشاف ما غاب عن مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عنـد العقل ، فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لايريد أن يدركه ، ويحب أن يرغم نفسه الفهّامة على أن لا تفهم

---

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك ، كما ورد فى الحديث الثانى من صحيح البخارى ا هـ من هامش نسخة المؤلف

(٢) فى دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادى) للمرحوم محمد فريد وجدى بحث ضاف عن « الوحى » بدأه بهذا الفصل من هذه الرسالة . ثم اتبعه بأحاديث الوحى ، ثم برأى الفلاسفة الاوربيين فى الوحى ـ ارجع اليــــه فى مادة « وحى » بالجزء العاشر ص ٧٠٦

نعم يوجد فى كل أمة ، وفى كل زمان ، أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس .. بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسرّه ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الاطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم الى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارنة ما لايليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان

فاذا عرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان

ما لاينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفته (١) العناية بهذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لايدرك ما عليه الأعلى الا على وجه من الاجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط .. بل لابد معه من التفاوت فى الفِطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه

ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ، ما هو بديهى عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها (٢) قريبا فيسعى اليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى لايتنازع ، والظاهر الذى لايتجاحد

(١) حفاه معناها أعطاه . ويقال حفاه الله به أى أكرمه . ومعنى قول الامام « حفته العناية بهذه النعمة » أى أكرمته وخصته عناية الله بهذه النعمة .

(٢) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريبا عنده .

فاذا أنكره متنكر ثاروا عليه .. ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم اليه . ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة الى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » (١) ما أسلفنا من المقدمات

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ، أن لا يُسلّم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله العيان ما لم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم .. ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنّة الله فى كل أمة ، وفى كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته ، الى أن

---

(١) لان العقل يقر ذلك ويؤيده كل التأييد

يبلغ النوع الانسانى أشده ؛ وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته الى سعادته كافية فى ارشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة ، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

ظهور الملائكة للرسل

أما وجود بعض الأرواح العالية ـ وهم الملائكة المكرمون ـ وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وان غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشىء من العلم الالهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته (١)

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة ، فقد عهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم .. فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل

---

(١) قال فى الاساس : أذعن له سلس وانقاد . وأذعن فلان بحقى : أقر به ا هـ وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه فى الاول أظهر

فى خيالهم ، ويصل الى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع

فان جاز التمثل فى الصورة المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس ، وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلمَ لايجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس . وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لايوجد فى مزاج غيرهم ؟ .. وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم (١) وهو مما يسهل قبوله بل

---

(١) بل ثبت بتجارب الاطباء ــ حتى الماديين منهم ــ أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالامور قبل وقوعها فيصدق . قال مريض منهم ، كان بمصر : ان فلانا ــ من اقاربه ــ فى الاسكندرية خرج من داره الى محطتها قاصدا السفر الى مصر لعيادتى .. ثم أخبر انه وصل الى محطتها ودخل القطار ، ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى اذا ما جاء موعد وصول قطار الاسكندرية الى مصر قال المريض : قد وصل القطار ونزل فلان منه .. ها هو ذا خارج من المحطة وركب مركبة تحمله الى هنا . ثم قال : ها هو ذا قد وصل ، فاذا هو بالباب وقد دخل (م.و.د)

ونقول نحن ان هذه الحال هى ما اطلق العلماء عليها الان اسم الجلاء البصرى . وقد أثبت العلم الحديث ان هناك حالتين قد يمتاز بهما بعض الافراد من الاخرين وهما : قراءة الافكار ، والجلاء البصرى (ط. ا. ط)

يتحنثم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة

وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به ، وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه : أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس .. لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء فى عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .. ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة

أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فِطَرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجّه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألىء فى بصائرهم ، الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا بخلو العالم من متشبّهين بهم .. ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ، ومآل من غرّروا به . ولا يكون لهم الا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، الا أن يتداركهم الله بلطفه .. فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبئوا به وبوقوعه الا حجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ، ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة ، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر (١) : رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود مكة ، أو بأن للصين عاصمة تسمى « بكين »

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك الى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

---

(١) يريد بالعلم الآخر « علم الحديث »

لا نزاع بين العقلاء فى أن هـذا النوع من الاخبار يحصِّل اليقين بالمخبر به ، وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به . ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر ، كابراهيم ، وموسى ، وعيسى . ومما جاء به الخبر : أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه ، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الناس الى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادَّعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى

لا يصلح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لايعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لابقاء له الا فى الغفلة عنه ،كالنبات الخبيث فى الارض الطيبة ينبت باهمالها ، وينمو باغفالها .. فاذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون

وأما بقية الرسل مما يجب علينا الايمان بهم ، فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .. فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته

وظيفة الرسل

تبيّن مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميّز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه .. ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكاتها ، أو ايداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات

اليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لاينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشرٍّ فى نفسه، أو عِرضه ، أو ماله ، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حُدِّد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يُعرف من صفاته ، ويبينون الحدّ الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لا يشقّ عليه الاطمئنان اليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على اله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ماضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا

يبيّنون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصـــــالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيّدون بما يبلغون

عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة

يعودون بالناس الى الألفة ، ويكشفون لهم سرّ المحبة ، ويلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كلٌّ حق الآخر وان كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز فى الطلب حده ، وأن يعين قويُّهم ضعيفهم ، ويمد غنيُّهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالَّهم ، ويعلِّم عالمُهم جاهلَهم ..

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير الا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرَّم من الأبضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة : كالصدق ، والأمانة ، والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء ، والاقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، الى طلب الرغائب السامية .. آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظارا لجزيل الأجر ، أو ارضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل (١) فى الاجتماع الانسانى لايزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

---

(١) يشير الى مشكلة رأس المال والنزاع بين العمال وأصحاب الاعمال ومانشأ من العراك القائم بين الاشتراكية والراسمالية

الرسل ليسوا مدرسين

ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ، ومعلمي الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ.. ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الارض، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم .. فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك .. يزيد من سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه الوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

وأما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ، فانما

يُقصد منه النظر الى مافيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لايجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة فى ارسالهم

ولهذا قد يأتى التعبير الذى سبق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجّه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم (١)

على كل حال لا يجوز أن يُقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميّزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان .. بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان ، مطالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من

(١) أمر الله تعالى جميع البشر خاصتهم وعامتهم ، بالنظر والتأمل فى الكائنات ليهتدوا بذلك الى الخالق ، فقال فى عدد كثير من الآيات : « قل انظروا ماذا فى خلق السموات والارض .. » .. الخ ماجاء من ذلك فى القرآن الكريم ، كما أمر بالمعرفة وحض على العلم ، فقال : « .. هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . وندد فى كثير من المواضع بمن لايعلمون وبمن لايعقلون ولا يهتدون ويستوى فى ذلك الخاصة والعامة

الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لايغفرها له رب العالمين



اعتراض مشهور

قال قائل : ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالا لنظام اجتماعهم ، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون .. كل يستعد للوثبة ، ولا ينتظر الا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء قلوبهم الطمع ، عدّ أهل كل ذىٍ دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة لا للحق

والدين .. فها هو ذا الدين الذى تقول انه جامع الكلمة وروسول المحبــة ، كان ســببا فى الشــقاق ومثضرما للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟ ..

نقول فى جوابه : نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمــه ويغلو فيه ، أو لا يغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبيــاء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعتهم ، والا فقل لنا : أى نبى لم يأت أمّته بالخير الجم ، والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها ، فىأفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس ــ بل الكل الا قليلا ــ لايفهمون فلسفة أفلاطون ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرســطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبِّر لما أدركوا منها الا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى اصلاح العمل . فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات

بها ، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأى الطرق أقرب اليك فى مهاجمة شهواتها وردها الى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهى أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان (١) مضار الاسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وانما تجد أقصد الطرق وأقومها فى أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر قهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه اليه، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق اليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر .. ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، تنعش روحه بذكر رضاء الله عنه اذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم

عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم

(١) الجار والمجرور فى قوله « فى بيان » متعلق بقوله لاتجد

يفهم من ذلك كله الا أنه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ، ويسخطهم اذا عصى .. ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يَسِم نفسه أنه ليس منهم

كم سمعنا أن عيونا بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبا خشعت لواعظ الدين .. لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ .. هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للأمرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة ، بل فى أخلاق الخاصة .. وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا : ان منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العلَم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول :

منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟.. ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردّى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه

يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها .. ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله .. كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء .. فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم اليه : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين »

ألا ان الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به

يرضى كلٌ بما قُسِم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة ، والى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الالهية ..

وظيفة الدين ووظيفة العقل

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى .. وكل ما وجّه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ، ويرجعوا الى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع اليه قوته وتظهر للأعمى حكمته

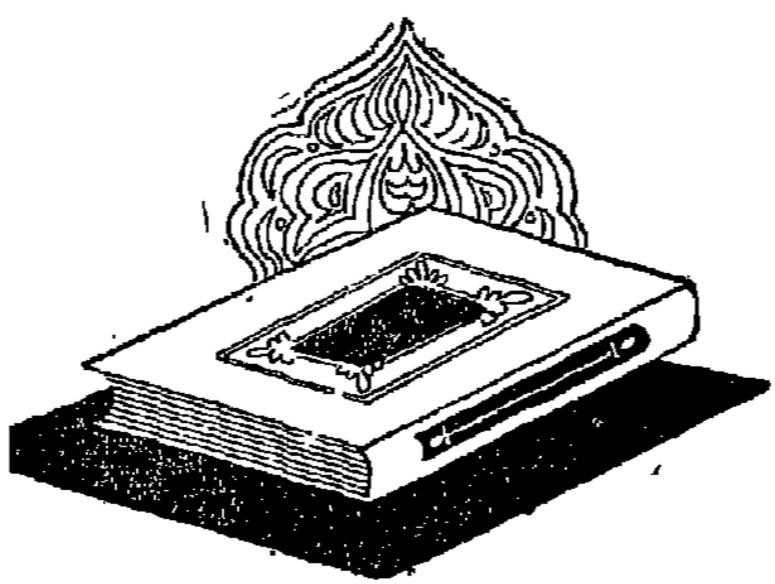
ربما يقول قائل : ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق

على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به ، وانما الذى سبق تقريره : هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد الهى ، كما لا يستقل الحيوان فى ادراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا (١) كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال

كيف يُنكر على العقل حقه فى ذلك ، وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها ، وأنها آتية من قِبَل الله .. وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبيٍّ أن يصدّق بجميع ما جاء به ، وان لم يستطع الوصول

(١) قال المؤلف فى الدرس : هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلايناقضها ان بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل مايحتاج الى ادراكه (م.ر.ر)

الى كُنْه بعضه والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين ، أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به .. فان جاء ما يوهم ظاهر ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض الى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى



الفصل السادس

رسالة محمد والقرآن الكريم



حاجة الامم الى قارعة

ليس من غرضنا فى هذه الرسالة أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لتبيّن كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسّة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سـلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء (١) الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقضّ من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ماعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين الى أنهم ليسوا بأبعـد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين .. وبالجملة تثوب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنّها الله له « انا هدينـاه السبيل (٢) » ليبلغ بسلوكها كماله ،

---

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف فى الدرس ، وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قال المؤلف فى الدرس : ←

ويصل على نهجها الى ما أعدّ فى الدارين له ، ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف

حالة الامم حين البعثة

كانت دولتا العالم : دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الرومان فى الغرب ، فى تنازع وتجالد مستمر.. دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شَرَه هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان

← المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التى فطر الناس عليها . من هامش رشيد رضا . واذا صح مايقوله السيد رشيد من ان هذا تفسير الاستاذ الإمام لقوله تعالى : « انا هديناه السبيل .. » فان باقى الآية فى قوله تعالى : « اما شاكرا واما كفورا » لاينسجم مع أولها . ولعل الاستاذ الامام يريد بفطرة الله نشأة الانسان وحياته الاولى قبل أن تشغله مطامع الدنيا ومافيها من لهو وفساد . وقد سار المفسرون على أن قوله هديناه السبيل ، بمعنى اوضحنا له طريق الحياة من خير وشر (ط . ١ . ط)

القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم ، فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل

ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات ،

ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم مايريدون من المغلوبين لهم ، وصرّح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت الى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنّة الطهارة ، والشر حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام .. مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معا ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ،

وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

حالة العرب

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت روابط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة (١)

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الامم بصفات واخلاق كانت سبب ظهور المصلح الاعظم منهم : كاستقلال الفكر ، وقوة الارادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والايثار ، وحماية الجار .. اذ لم يستعبدوا لرؤساء دينيين ولا سياسيين . وما ذكر من العيوب فيهم كوأد البنات لم يكن كله فاشيا فى جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر نادرا ويعد من أنكر المنكرات

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدّبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معـه من كشف تلك الغمم التى أظلّت رءوس جميع الأمم ؟ .. نعم كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد

نشأة محمد (ص)

فى الليلة الثانية عشرة (١) من شهر ربيع الأول عام الفيـل « ٢٠ ابريل عام ٥٧١ من ميـلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة .. ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمس جمـال وبعض نعاج وجارية ، ويُروى أقـل من ذلك . وفى العام السادس من عمره ، فَقَدَ والدته أيضـا فاحتضـنه جدّه عبد المطلب . وبعد عامين من كفالته ، توفى جدّه فكفله من بعده عمه أبو طالب .. وكان شهما كريما غير أنه كان

---

(١) هذا هو المشهور الذى درج عليه الناس فى تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوى وهو أحد الاقوال . والاصح عند المحدثين أنه ولد فى الليلة التاسعة منه . وفى رأيى أن هذا ليس خلافا يستحق الذكر ، وقد سار المسلمون جميعا منذ زمن بعيد على أن النبى ولد فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول

من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول (١) ، ولم يقم على تربيته مهذّب ، ولم يُعْن بتثقيفه مؤدّب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام.. غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا ، وفضيلة وأدبا ، حتى عرّف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوّام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعا والقوم منحطّون ، وموحّدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم

---

(١) المعروف المتواتر أن عبد المطلب كان عميد بنى هاشم وسيد قومه ، وقد خلفه فى ذلك أبوطالب .. وكانا يشتغلان بالتجارة ، ولم يكونا من الفقر بحالة تتسم بالعوز والحاجة الى الناس ، وان لم يكونا من الاغنياء اصحاب الضياع ورءوس الاموال . وقد أراد الامام فى وصفه لنشأة النبى (ص) فى هذه الحال أن الله أكرمه مع ذلك بنعمه الكبرى (ط ، ١ ، ط)

واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أمّيا مثله ، تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما ان كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبّهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده .. فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١).. ولكن الأمر لم يجر على سنّته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة .. وما جاء فى الكتاب من قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم .. حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين ، وانما هى الحيرة تلمّ بقلوب أهل

(١) كأمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل

الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشـاد الضالين . وقد هـدى الله نبيّه الى ما كانت تتلمسـه بصيرته ، باصـطفائه لرسالته واختياره من بين خلقـه لتقرير شريعته

وجد شيئا من المال يسد حاجته ـ وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفّه معيشته ـ بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها .. وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا .. ولم تغرّه زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلمـا تقدّمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة ، والتحنث (١) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه فى طلب المخرج من همّه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه .. الى أن انفتق له الحجاب عن

---

(١) التحنث من تحنث أى تعبد ، واعتزل الاصنام

عالم كان يحثه اليه الالهـام الالهى (١) ، وتجلى عليه النور القدسى ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى .. فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك ، فيطـالب بما ساب من ملكه . وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قنـاعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دلّ عليهما ما فعل جدّه عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم .. جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيهـا لعبد المطلب مائتا بعير(٢) ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك

(١) أي من غير شعور منه . ويظن الباحثون فى سيرته «ص» من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه «ص» كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولاسيما فى عهد تحنثه فى غار حراء . ولكن الله تعالى يقول : (وماكنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك) أى لكن ألقى اليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عندما فاجأه ملك الوحى فى حراء كما ثبت فى حديث الصحيحين — من هامش (م . د . ر)

(٢) هذا يؤيد ان عبد المطلب لم يكن فقيرا ، بل كان غنيا ، وان لم يكن من أصحاب الضياع ورءوس الاموال . أما أبو طالب فقد كان كثير العيال .

فاستدناه وسأله حاجته . فقال : هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : « أنا رب الابل ، وأما البيت فله رب يحميه .. ! »

هذه غاية ما ينتهى اليه الاستسلام — وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش — فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا ؟.. لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شىء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ .. ما الذى أعلى رأسه على الرءوس ؟ .. ما الذى سما بهمّته على الهمم ، حتى انتدب لارشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم .. بل واحياء الرمم ؟ ..

ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم .. ما كان ذلك الا وجدانه ريح

العناية الالهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء الى أمله ، قبل بلوغ أجله

ما هو الا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ، ويكفيه مئونة الدليل .. ما هو الا الوحى السماوى ، قام لديه مقام القائد والجندى ؟ ..

أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد . والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟ ..

دعوة محمد لجميع البشر

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى الثانوية بافراد اله واحد بالتصرّف فى الأكوان ورد كل شىء فى الوجود اليه ..

أهاب بالطبيعيين ليمدّوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة ، فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به

صاح بذوى الرغبة ليهبطوا الى مصاف العامة ، فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات

والارض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربّهم الأعلى .. فبيّن لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

وخَز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقاليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلّوا أغلالهم التيأخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل

مال على قرّاء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكّت (١) الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدّد النكير على المحرّفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم

---

(١) بكت بتشديد الكاف من التبكيت وهو التعنيف والتقريع

ولفَت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا ، عامة وخاصة، الى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصّه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرّفه بهما ، وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلّطهم على فهمها والانتفاع بها ، بلا شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بلا واسطة أحد ، الا من خصّهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أولئك المصطفين انما هى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده .. وقرّر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه ، الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل .. ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة

دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كانا ممتزجين .. وأنه مطالب

بخدمتها جميعــا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية عن الحق

دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هــذه الحيــاة لما سيلاقون فى الحيــاة الأخرى ، وبيّن لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة .. كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا ، وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة .. كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيدشهواتهم، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقــول الخاصة بغرور العزة عن النظر فىدعوىفقير أمّى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطــاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فىفقره وضعفهكان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخــذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ..

كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ .. ما هذا السلطان فى مظنة العجز ؟ .. ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟ .. ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ .. ان هو الا خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ .. أمى قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان

جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب الى

سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى سننه البديعة ، أخـذ يقرّر للعالم أجمع أصـول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها ..

ما هذا الخطاب المفحم ؟ .. ما ذلك الدليل الملجم ؟.. أأقول ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ؟ ..

لا .. لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه ، نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحيّر الحواس ، أو يدهش المشاعر. ولكن طالب كل قوة بالعمـل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسـلطان البلاغة وصحة الدليـل مبلغ الحجة وآية الحق الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق اليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرناها ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : انه أنزل عليه ، وأن ذلك الكتاب هو القرآن الكريم المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة .. نقّب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبّه على وجوه العبرة فيها

حكى عن الأنبياء ماشاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرّأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من

عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرّفوا بالتأويل فى كتبهم .. وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة فى اهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح الذى أودعته .. ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم

وقد جاء فى ذلك بحِكم ومواعظ وآداب ، تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم (١)

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة ، وتواترت الأخبار، على أنه أرقى العصور عند العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدّمه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء : هو الغلب فى القول ، والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك ، مما لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه

---

(١) الامم بالفتح : الطريق الواضح المستقيم

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحـرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، وتكذيبه فى الاخبار عن الله ، واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزّة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته ، والخطباء والشـعراء والـكتاب الذين يشـمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسـلافهم .. وهومع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفّه أحلامهم ، ويحتقر أصنـامهم ، ويدعوهم الى ما لا تعهده أيامهم ، ولم تحقق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله الا تحديهم بالاتيـان بمثـل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سـور من مثله (١) وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء

---

(١) كان التحدى بعشر سور مثله ردا على الذين قالوا « افتراء » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) وقد بنيت حكمة هـذا العدد فى تفسير الآية من سورة هود ـ من هامش (م . د . ر)

والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أوتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

اعجاز القرآن

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدى ، أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه على جميع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمّى أعظم معجزة ، وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمّى صلوات الله عليه ؟..

هذا ، وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون ، كالخبر فى قوله : « غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » وكالوعد الصريح فى قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية . وقد تحققجميع

ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا ، يحيط به من يتلوه حق تلاوته

ومن الكلام على الغيب فيه : ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه ، بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها . ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة ، كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا . ومن الصعب ، بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ، وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته (١) وانما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على

---

(١) يشير الى قوله تعالى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ✻ فان لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار » الخ . بالاخبار بالغيب فيه قوله « ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ←

لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له ، وبلوغ ما حثهم عليه

← قد يقال : ان بعض دعاة الضلال فى بلاد الفرس والهند قد تحدوا مثل هذا التحدى فى بعض ماكتبوه لاثبات مادعوه من الوحى اليهم أو الالوهية لانفسهم ، ولم نعلم أن أحدا تصدى لمعارضتهم . ونقول فى الجواب على تقدير تسليم الدعوى : ان أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالى بدعوتهم وتحديهم ، بل من الموسوسين (كالباب والقديانى مسيح الهند الدجال) وكان جل ماجاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين ، وماكان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ أن يحاكى هذيان المحمومين والمصروعين ، ولايزال يظهر أمثالهم فى تلك البلاد وغيرها ، ولا يبالى بهم أحد ، ولكن رزق بعضهم الحظوة فى بلاد أعجمية .. أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه بعضهم من اعجاز بعض ماكتبه فهو ليس كتحدى الانبياء ، بل كمبالغة بعض الادباء والشعراء ، كالشيخ أحمد فارس الذى قال فى مقدمة كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به

عهد الى ولدى أن يتحديا أسلوبه وبدقتيه يطيفا

على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفة ، ولهذه الكتب اللطيفة ؛ ولو قيل لهم أو لبعض أشياعهم : انها مثلها أو أمثل منها فى بابها لأنكروا . ومن ذا الذى يبالى بهم وباقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ، ثم مع سائر الامم كذلك ، واعجازه من وجوه كثيرة فى نفسه ، وفى كون من جاء به أميا بلغ الاربعين . ومن المحال أن يبتكر أحد من البشر فى هذه السن علما لم يستعد له ، ولم يزاوله . وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصى الغايات من أعلى العلوم ، لم يسبق له اكتساب شىء ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمة العملية ولا العلمية ، ولا التاريخ وفلسفته ، ولا كان ممتازا قبله بالبلاغة فى الشعر والخطابة ، ولا الجدل ، ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى فى هذه العلوم . وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير مافيه من أنباء الغيب ، وكانت الدواعى لمعارضته قويه ، فانه زلزل سلطانهم الدينى والدنيوى ، حتى قوضه من أساسه ، ولم يكن لهؤلاء الادعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على أن أدهاهم فى الدعاية ــ وهم البهائية ــ يخفون كتابهم الذى سموه الاقدس بدلا من التحدى به ، ولو أظهروه لافتضحوا به ــ من هامش (م . ر . ر .)

يقول واهم : ان العجز حجّة على من عجز .. فان العجز هو حجة الافحام والزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بما يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، اذ لايوجد من المشابهة بين اعجاز القرآن وافحام الدليل الا أنه يوجد عند كل منهما عجز .. وشتّان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فان اعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة

وقلنا : « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة .. وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بيّنا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم . فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجزعنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى جميعها

عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشـــأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة

هـذا دليـل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، على ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الأجل .. كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشـهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهـذه المعجزة العظمى ، وقام الدليـل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل ، أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسـول الله الى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقـاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى ، وسنّة متبعة ، وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء .. فوجب علينا الايمان بذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامى ، وما دعا اليه على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعـوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين



الفصل السابع

الإسلام

حقيقته ورسالته



حقيقة الاسلام ورسالته

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم .. وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وانى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول : الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلمية ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم ، وأنهم له واليه راجعون : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » وما ورد من ألفاظ

الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وانما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى ، الذى لايعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح .. بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وغاية أمرهم : أنهم عباد مكرمون (٢) وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص ، وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة

---

(١) يعنى الانبياء والرسل
(٢) اشارة الى قوله تمالى : « اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون »

خاصة . ولا يُعرف شأن الله فى شىء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دلّ هذا الدين بمثل قول الكتاب الكريم : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون» (١) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لأجله .. دلّ بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة .. فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها ..

وأما ما تتحيرفيه مداركنا وتقصردونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المسخّرة لها .. وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه

---

(١) قال المؤلف فى الدرس «لعل» فى القرآن تعبر دائما عن الاستعداد ، أى جعل لكم هذه الآيات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أى وهذا ماخلقت لاجله ، بقرينة « لاتعلمون شيئا » قال « والافئدة » العقول أين كان محلها ، سواء أكان الدماغ أو القلب ــ هامش « م . ر . ر . »

والاستعانة به ، فذلك (١) انما يُرد الى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع الا له ، ولا تطمئن الا اليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لايسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة .. وتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم . وارتفع شأن الانسان، وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لايخضع لأحد الا لخالق السموات والارض ، وقاهر الناس أجمعين . وأبيح لكل أحد ، بل فُرض عليه أن

(١) قوله : فذلك الخ الجملة : خبر قوله ، وأما مالتحيرالخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية فى الكون هو مما أودع فى غرائز البشر ولكن هذه القوة هى لله وحده . فلا يجوز أن يتوجه أحد الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ، ولو كان نبيا أو وليا ــ من هامش (م.ر.ر.)

يقول كما قال ابراهيم : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « ان صلاتى ونسكى ومحيـاى ومماتى ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

تجلّت بذلك للانسان نفسه حركة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره ، سواء كانت ارادة بشرية (١) ظن أنها شعبة من الارادة الالهية ـ أو أنها هى ـ كارادة الرؤساء والمسـيطرين ، أو ارادة موهومة اختـرعها الخيـال ، كما يظن فى القبور والاحجار والاشـجار والكواكب ونحوها . وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد بينـه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسـطة النجاة ، وبأيديهم الاشقاء والاسعاد . وبالجملة فقـد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين

صار الانسان بالتوحيـد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سـواه ، فكان له من الحق ما للحر

(١) قال المؤلف : كارادة القديسين والكهنة الذين يأتى ذكرهم مرتبا

على الحر ، لا علىّ فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كلّ قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، « وأن ليس للانسان الا ما سعى »

وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيّبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم

يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس . واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك .. ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم (١) صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبّت به من نومة طال عليه الغيب فيها .. كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق ، خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم ، فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ــ أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبّهون ومرشدون والى طريق البحث هادون

---

(١) ذكر المؤلف منها فى الدرس ثلاثا : ١ ــ احترام المرء لآبائه ومربيه ٢ ــ اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣ ــ الحذر من انكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فمن لم يحترم نفسه ، واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الاخذ بما يعتقد أنه الحق ، وان خالف الآباء والمعلمين والاحياء والاموات غير المعصومين من الخطأ ، فلايمكنه ان ينطلق من قيود التقليد ، وسيأتى فى كلامه مايهدم تلك القواعد والاركان ــ من هامش (م.ر.و.)

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه .. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجّل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبّه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان .. بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما

اقترفه سلفهم : « قل سـيروا فى الارض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم : « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ، « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قد قيّده ، وخلّصه من كل تقليد كان قد اسـتعبده ، وردّه الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حدّ للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

أمران عظيمان

بهذا وما سـبقه تمّ للانسان بمقتضى دينـه أمران عظيمـان ، طالمـا حرّم منهما ، وهما استقلال الارادة واسـتقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السـعادة ما هيـأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها

وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقـــائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سـطع عليهم من آداب الاسـلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان

***

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتـدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثارا من أولئك الرؤسـاء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنًّا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم ، لنيل تلك الرتب المقدسة .. ففرضوا على العـامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعـا من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها ، وأن لا يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه . ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزيّة الفهم الا قليـلا ، ورموا عقولهم

بالقصـــور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبـــدا بالأصوات والحروف (١) .. فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال : «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانىّ وان هم الا يظنون » .. « مثـــل الذين حـمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثـــل القوم الذين كذبوا بآيات الله . والله لا يهدى القوم الظالمين »

أما « الأمانى » ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أنْ يتلوه ، واذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيّلوه عقيدة وظنوه دينا . واذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك ، جاء فيما يقول بما ليس منه على بيّنة ، واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله « فويل للذين يكتبون

(١) أى ووقفوا بأنفســهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند الفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقا لما أنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تعبـــدنا بالقرآن فهو لاجل تدبره والاهتداء به ، ثم لاجل حفظه وتبليغه . فهما مقصدان ـ هامش (م٠ر٠ر)

الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »

وأما الذين قال : انهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها (١) ، فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها ، فحقّ عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس .. وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سببا فى اسعادهم — وهو التنزيل والشريعة — أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة

وبهذا التقريع ونحوه ، وبالدعوة العامة الى الفهم ، وتمحيص الألباب للتفقه واليقين — مما هو منتشر فى القرآن العزيز — فرض الاسلام على كل ذى دين أن

---

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه فى القرآن : « فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها »

يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تخص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات

***

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا — الا قليلا — فى جانب (١) عن اليقين، يتنابزون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الاسلام ذلك كله ، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان ، وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . قال الله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .. « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .. « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى

(١) أى بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى كلامه

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .. « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الرسالة . والآية الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه ــ معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

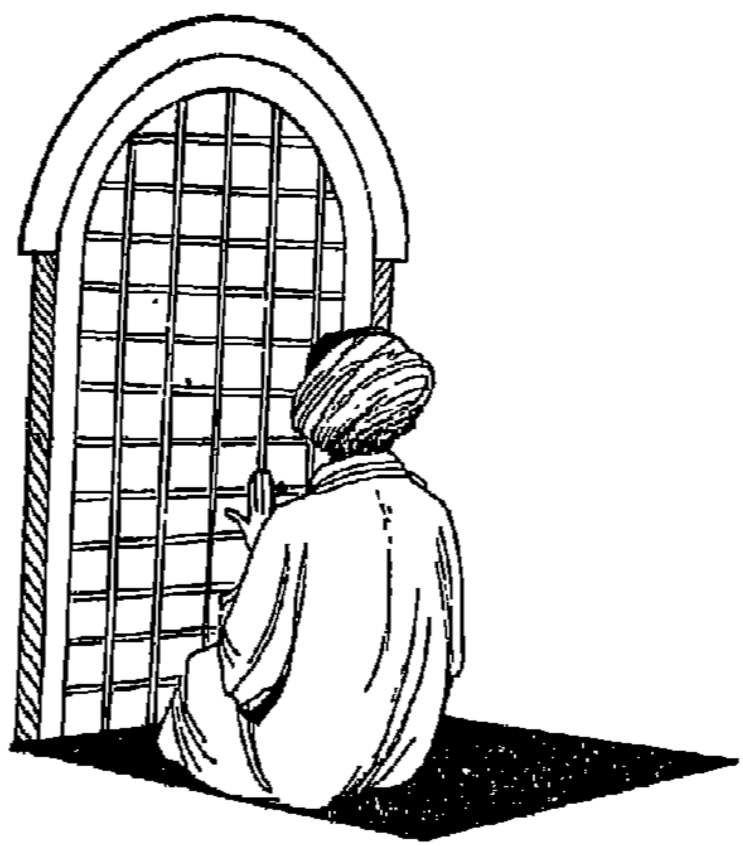
نصّ الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو افراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر(١) وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمّنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وأن هذا المعنى من

(١) قوله « مما هو الخ » ، صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها ، والسياق استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » مع الالمام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التى لم يسبقه اليها سابق

الدين ، هو الأصل الذى يُرجع اليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وأن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبُعد عن سنّته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على المبشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين

وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنّته — وهو رب العالمين — بالتدريج فى تربية الأشخاص ، من خارج من بطن أمّه لا يعلم شيئا ، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنّته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم .. فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال

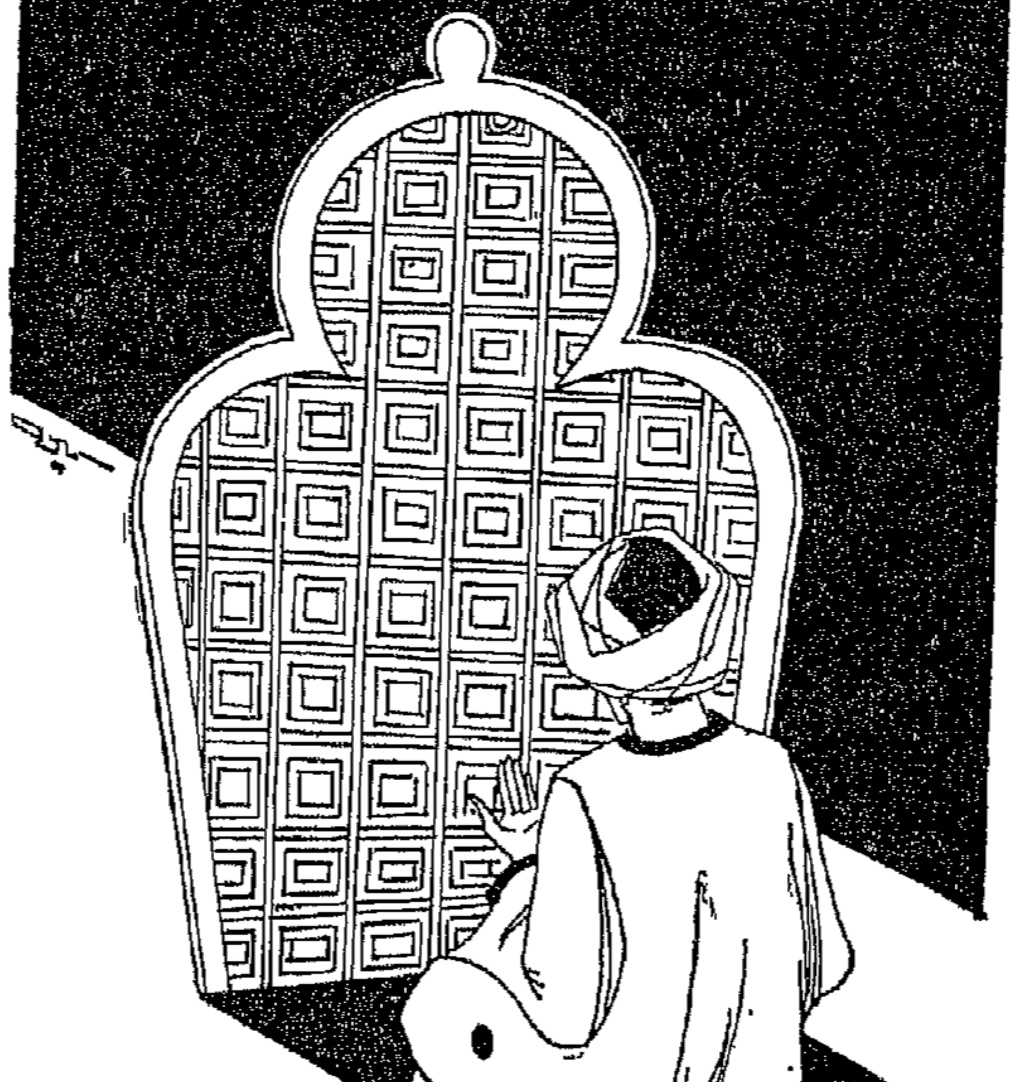
منتهاه .. بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها ، وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرّع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه هنا



الفصل الثامن

الإسلام

مزاياه وحكمة عباداته



الاسلام والاديان الاخرى

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، فيطور أشبه بطور الطفولية للناشيء الحديث العهد بالوجود .. لا يألف منه الا ما وقع تحت حسّه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو بنى جنسه .. فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه ، فى همٍّ شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى اليه بسلّم البرهان .. بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لايأتيه الا من قِبَل ما يحسّه بسمعه أو ببصره .. فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ،

وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة.. كلّفتهم بمعقول المعنى جليّ الغاية ، وان لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث، ولقن الكوارث ، شعورا أدق من الحس وأدخل فى الوجدان ، لايرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان .. فجاء دين يخاطب العواطف ، ويناجى المراحم ، ويستعطف الأهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرّع للناس من شرائع الزهادة مايصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجّه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسنّ للناس سننا فى عبادة الله تتفق وما كانوا عليه ، وما

دعاهم اليه.. فلاقى من تعلّق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتّباع وصاياه ضرب من المحال ، فهبّ القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال .. نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرّقوا شيعا ، وأحدثوا بدعا ، ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشدّ أركانها ، وتوهّموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل فى غيره من دقائق الأكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ الى شىء من سرائر الخلقة.. فصرّحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكفِ الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جدّ فى حَمْل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو

فى ذلك بالأنفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين .. فتقوّض الأصل وتخرّمت العلائق بين الأهل ، وحلّت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام . وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

مزايا الاسلام

كانت سنن الاجتماع البشرى قد بلغت بالانسان أشدّه ، وأعادته الحوادث الماضية الى رشده .. فجاء الاسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبيّن للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ، ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح ، انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لاينظر الى الصور ، ولكن ينظر الى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه

باصلاح سرّه ففرض نظافة الظاهر ، كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين طهرا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال ، انما هو لما أوجب من التحلّي بمكارم الأخلاق « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسّه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا الا المصلّين » ورفع الغنى الشاكر ، الى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضّله عليه .. وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة .. وصرّح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضاء الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى ، الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم : «قل هاتوا برهانكم انكنتم صادقين».. وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونصّ على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن

يتزوج من أهل الكتاب ، وسوّغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه ، قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونصّ على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدّمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية (١) عن كل اكراه فى الدين ، وطيّب قلوب المؤمنين فى قوله : «يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضلّ اذا اهتديتم»

---

(١) فيه أن النهى عن الاكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية ، فالاكراه فى الدين ممنوع فى الاسلام مطلقا . ولكن اذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم ، أو تهديدهم لدعوتهم مثلا ، وجب عليهم أن يدعوهم أولا الى الاسلام بالاختيار ، فان أسلموا حرم قتالهم ، وان لم يسلموا دعوهم الى أداء الجزية ان كانوا من أهلها ، كأنهم يقولون لهم : انكم ألجأتمونا الى حربكم فنحن نقدم عليها الا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية ، وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان ـ هامش (م.ر.ر.)

فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب. وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ..كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية.. وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى فى الجنس والفصل والخاصة.. وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

حكمة العبادات

هـذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح

السنّة ، تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة.. فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرّع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير(١) .. وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخلّ بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير

وأما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس ، وتُعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب

(١) شبه الغزالى ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل ، وكون هذا التفاوت فى القلة والكثرة يفوض الى علم الطبيب الذى وصف الدواء ، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه ، فاذا قال بعد ذلك : أنا لا أقبل منه الدواء الا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره ، كان أحمق ومات بدائه ، وان ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلى وسواهما ، وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات فى تطهير النفس من الشرور ونهيها عن الفحشاء والمنكر ـ هامش

(م· ر· ر·)

على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

وأما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده — ولو فى العمر مرة — يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع فى معرض واحد مكشوفى الرءوس متجردين عن المخيط، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين. ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين، واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع. وهذا الاذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه، وتقديس الله عما يوهم التشبيه (١)

أين هـذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين، يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض

---

(١) عبارة الرسالة الاولى هنا : وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » وكان المؤلف قد صحح العبارة فى حاشية نسـخة الدرس هكذا « وهم مع هذا الاذعان الكريم فى كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم » ثم صححها ثالثة فى الجدول بما اثبتناه هنا

من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارىء الجزئية .. غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلى» . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها

الانسان ونعم الله

ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم ، التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزأون بها ، ففصل بين الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما

فأما النعم التى يمتّع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ، فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة ،

والضعف والفقد ، ربما يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان .. وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا نذيرا لهم ، حتى يتلقاهم ما أعِدَّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ..

وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم : « انا لله وانا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ، ولا فى تلك النعم الخاصة .. اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم ، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر ،

وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ؛ والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل .. ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره ، واستبدل الله بعزة القوم ذلا وبكثرتهم قلة ، وبنعيمهم شقاء ، وبراحتهم عناء ، وسلّط عليهم الظالمين أو العادلين ، فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجئوا الى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر ،

والصبر والشكر « ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. « سنّة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا » وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقــائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة »

على هــذه السنن جرى سلف الأمة .. فبينمــا كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشــق الفلــك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا (١)

***

حثّ القرآن الكريم على التعليم وارشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك فى قوله :

---

(١) يعنى أن المسلمين لما كانوا فى القرون الاولى يجرون على سنن الله تعالى فى أسباب السيادة والقوة ، كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم ينالون كل شىء وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم ، ثم انقلبت الحال كما ترى

«ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم ؟.. فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضّت وجوههم، ففى رحمة الله هم فيها خالدون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور »

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصّرين ، أبرز حال الأمّارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمّة فقال : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع أن الايمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفا لتلك الفريضة واعلاء

لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

الاسلام والعدالة الاجتماعية

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الغنى على الفقير، سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لكربة الغارم ، وتحريرا لرقاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل .. ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ، ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضّلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس

الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هــذا ؟ .. « ذلك فضــل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

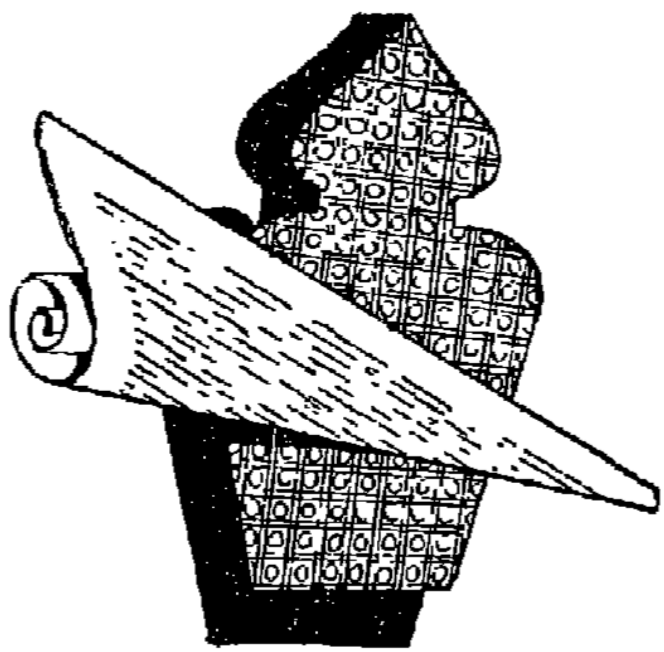
أغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر ، والمقامرة ، والربا ، تحريما باتا لا هوادة فيه

لم يدع الاســلام بعد ما قررنا أصــلا من أصــول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أمّا من أمهات الصالحات الا أحيــاها ، ولا قاعدة من قواعد النظــام الا قرّرها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشــده كما ذكرنا حرية الفكر ، واســتقلال العقل فى النظر ، وما به صــلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه انهاض العزائم الى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى

هل بعد الرشــد وصاية ؟ .. وبعــد اكتمال العقل ولاية ؟ .. كلا .. قد تبين الرشد من الغىّ ، ولم يبق الا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمــة لبلوغ الغاية من السعادتين

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرّح بذلك الكتاب وأيّدته السنّة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدّعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : «ماكان محمدا أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيّين ، وكان الله بكل شيء عليما »



الفصل التاسع

خاتمة

* التصديق بما جاء به النبي محمد (ص)
* مسألتان : جواز رؤية الله . ووقوع الكرامات
* خاتمة : آيات من القرآن الكريم

التصديق بما جاء به محمد (ص)

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيّناه ، وأنه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والايمان بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرّح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس .. ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة ، وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى .. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمسّ التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر ، اما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن

الظاهر غيرمراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة(١)

أما أخبار الآحاد ، فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها . وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه ، وعرضت له شبهة فى صحته — وهو ليس من المتواتر — فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به ، والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئا (٢) وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره ، فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها .. ويلحق به من أهمله بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنّة فى العمل (٣)

---

(١) الواجب ان يحمل الخبر على معنى يتفق والتنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه اساليب اللغة ، مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه ، فهو كاصطلاحات العلوم والفنون ، فلا يقتضى ان يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخلق من كل وجه ، بل يكفى ان يكون مناسبا له .. فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الاحوال والاعراض النفسية ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية ، وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : والاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومنه مسألة الرؤية الاتية ، وقاعدتهم فى ذلك ان نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم فى الكلام على الصفات — هامش « م.ر.ر. »

(٢) أى من أمر الدين هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى

(٣) اكثر السنن المتواترة هى العملية: كصفة الصلاة والحج ، واما الاحاديث القولية المتواترة ، فقيل : انها لا تبلغ اقصى جمع القلة

من اعتقـد بالكتاب العزيز وبما فيـه من الشرائع العملية ، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول ، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقـاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمنا حقـا .. وان كان لايصلح اتخاذه قدوة فى تأويله (١) ، فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك الا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل

---

(١) يعنى ان التأويل بهذه الشروط لا ينافى صحة الاسلام ، فلا يبـاح تكفير صاحبه الا انه لايقتدى به فيه وهذا مذهب اهل السنة والجماعة ـ هامش « م.و.ر. »

مسألتان هامتان

رؤية الله ، ووقوع الكرامات

بقيت علينا مسألتان وضعتنا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه الا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه :

الأولى — جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة

والثانية — جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة .. بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة

الدنيا (١) .. وهو ما لايمكننا معرفته ، وان كنا نصدق بوقوعه متى صحّ الخبر، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم .. ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف، والله فوق ما يظنون

وأما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحق الاسفراينى من أكابر أتباع أبى الحسن الأشعرى (٢) ، وعلى ذلك المعتزلة ، الا أبا الحسن البصرى فقال بجواز وقوعها .. وعليه جمهور الأشاعرة ، واستدلّ الذاهبون

---

(١) الادراك فى الحقيقة للروح ، وانما الحواس الات لها ، وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب فى هذا العصر : ان من الناس من يبصر ويقرأ ، وهو مغمض العينين ،فيما يسمونه قراءة الافكار ، ويبصر بعض الاشياء دون بعض فى العمل النومى ، ومنهم من يبصر الشىء مع الحجب الكثيرة ، والبعد الشاسع ، كمن ابصر وهو بمصر قريبه فى الاسكندرية خارجا من داره الى المحطة « وهو ما يسمى عند العلماء الان : الجلاء البصرى ويكون فى اليقظة والنوم « ط . ا . ط »

فاذا كان هذا قد ثبت فى هذا العالم على خلاف المألوف فى الرؤية لكل الناس ، فهل يليق بعاقل ان يستشكل ما هو أغرب منه ، وابعد عن المألوف فى الجنة ، وهى من عالم الغيب المخالفة سنته ونواميسه لعالم الشهادة ، وهل كان استشكال منكرى الرؤية الا بسبب قياس عالم الغيب على الدنيا فى الرؤية والمرئى (وهو قياس باطل وبطلانه فى المرئى أظهر، وقد حررت هذه المسألة فى تفسير المنار بتفصيل أثرى سلفى عصرى طويل فيراجع فى تفسير الاية ١٤٢ من سورة الاعراف ص ١٢٢ ـ ١٧٨ ج ٩ تفسير . ـ هامش «« م . ر . ر . »

(٢) وكذلك الحليمى من آكابرهم

الى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى خبر بلقيس من احضـاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، وأولوا ما جاء فى الآيات : أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، فليس بصحيح ، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولابد أن تكتنفها حوادث تميِّزها عما سواها

وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن ما فى قصة مريم وآصف (١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهـد الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون

(١) قال بعض المفسرين فى تفسير « قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » انه وزير لسليمان اسمه اسف بن برخيا ، فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلا ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع ، وانما هو من الاسرائيليات ، وقال بعضهم : انه سليمان نفسه ، ورجحه النيسابورى ، وقال بعضهم انه جبريل ، وبعضهم انه ملك اخر . وجملة القول : ان احضار العرش معجزة لنبى الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات

كذلك ما قالوه فى مسأله الرزق عند مريم، وانه كان فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه ، لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الاسرائيليات كما بينته فى تفسير ــ هامش « م . ر . ر . »

الله فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا

وأما قصة أهل الكهف ، فقد عدّها الله من آياته فى خلقه ، وذكّرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز .. فصار البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختصّ بعلم آخر

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صـــدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقــلاء ، وانما الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنّة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام ، فيجوز لكل مسلم باجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أى ولى كان، ولا يكون بانكار هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنّة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المســتقيم .. اللهم الا أن يكون مما صحّ فى السنّة عن الصحابة

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جُمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء (١) وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون



(١) مما تطمئن اليه روح الاستاذ الامام ان جهاده فى خدمة الاسلام ونشر تعاليمه الصحيحة فى حياته ، قد أثمر بعد وفاته واصبح جمهور المسلمين الان لا يؤمنون بما كان شائعا بين عامة أهل الجيل الماضي عن كرامات الاولياء ومن يسمونهم الاقطاب الاربعة المتصرفون فى شئون العالم وغير ذلك من الخرافات

آيات من القرآن

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصـالحـات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبـدوننى لا يُشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

وقد فسّر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخسا ولا رهقـا . وانّا منا المسـلمون ومنا القاسـطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشـدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذابا صعدا . وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا . وانه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا

يكونون عليه لبدا . قل انما أدعو ربّى ولا أشرك به أحدا . قل انّى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل انّى لن يجيرنى من الله أحـــد ولن أجد من دونه ملتحدا . الا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورســوله فان له نار جهنـــم خالدين فيهـــا أبدا . حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل ان أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لـــديهم وأحصى كل شيء عددا » . صـــدق الله العظيم ، وبلغ رســوله الكريم ، وخسيء الشـــيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

تنبيــه

نشر المرحوم السيد رشيد رضافى آخر الطبعات التى اصدرها لهذه الرساله مقالين احدهمـا بعنـــوان« ايراد سهل الايراد » . يتناول أحوال المسلمين ، والثانى بعنوان «انتشار الاسلام بسرعة » . وهما ليسا من موضوع هذه الرسالة . ولذلك راينانشرهما فىالكتاب الخامس من « تراث الاستاذ الامام » الذىسيصـــدر قريبا بعنوان « المسلمون والاسلام »

فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــــراق :	السيد محمـــــــود حلمي ــ المكتبة العصرية بغداد
اللاذقيـــــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــــدة :	السيد هاشم بن علي نحاس ــ ص٠ب ٤٩٣
البحـــــرين :	السيد مؤيد أحمد المؤيد ــ ص٠ب ٢١
البـــرازيل :	Dr. Michel Tohmé, Rua Basilio Jafet No. 127, 5" and Sal 54, SAO PAULO — BRASIL
ســـيراليون :	Messrs. Allie Mustapha & Sons. P.O. Box 410, Freetown Siera Leone
ســـنغافورة :	M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samn Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجـــــلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU, 7, Bishopsthorpe Road, London S. E. 26, ENGLAND
نيجـــــيريا :	Mr. Mohamed Said Mansour, Atlas Library Company, 126, Nnamdi Azikiwe Street LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

هـذا هو المؤلف الـرابع من المجموعة الاسلامية التى عنى رئيس تحرير هذه السلسلة بتحقيقها ، والتعليق عليهـا ، وتقديمهـا ، وعرضها بطريقة تتفق وروح العصر .. احياء لذكرى الشـيخ محمد عبده ، وتراثـه الحـافل بشتى البحوث والدراسات الجادة الرصينة .. لكى يفيد منها ابناء الجيل الحاضر كما افاد منها ابناء الجيل الماضى

و « رسالة التوحيد » من اشهر مؤلفات الامام ، وقد ترجمت لعدة لغات ، وصادفت تقديرا من كثير من العلماء والمستشرقين . وكان مما قاله عن هذا الكتاب أحد علماء اللغة المعروفين فى ذلك الحين : « .. ما اظن ذوب العسل المصفى احلى عندى منـه . اقرؤه ولا أمل ، ثم اعيده متلذذا به »

أزمات الشباب

تأليف
الدكتور اوجست ايكورن

تقديم
سيجموند فرويد

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٤٤ — شوال ١٣٨٢ — مارس ١٩٦٣

No.144 — MARCH 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر أنحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

أزمات الشباب

Wayward youth

تأليف

الدكتور أوجست أيكورن

Ougust Aichorn

تقديم

سيجموند فرويد

دار الهلال

مؤلف الكتاب

ولد هذا العــالم النمســوى النابغــة « أوجست آيكورن » August Aichorn فى السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٨ بمدينة فيينا عاصمة النمسا ... ومات بها فى سن الحادية والسبعين ..

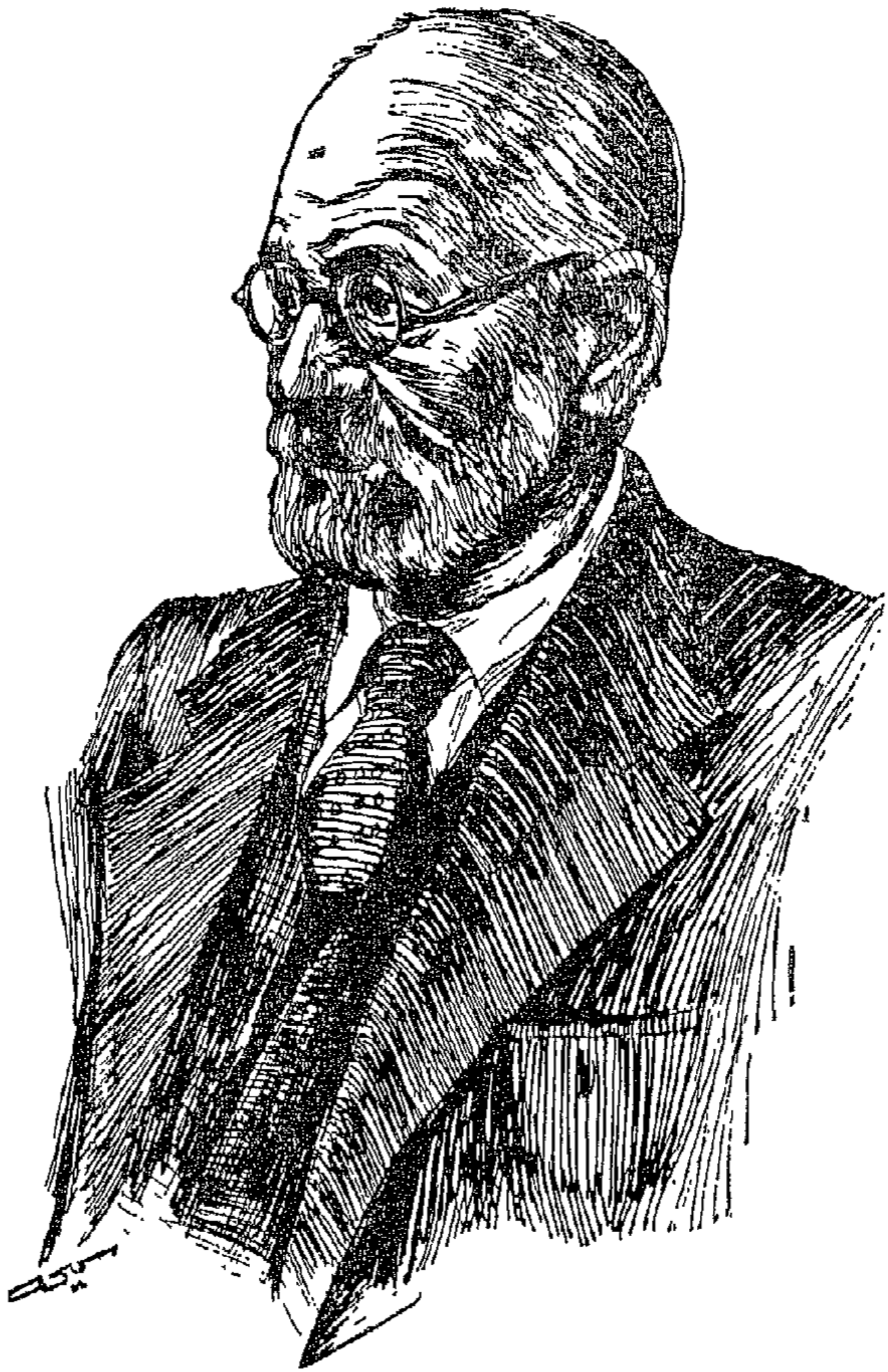
وهو سليل أسرة كبيرة محافظة .. واحترف التربية والتعليم منذ تخرجه فى سن العشرين . وكانت النظم شبه عسكرية فى جميع المؤسسات التعليمية والاصلاحية فهز ذلك وجدانه ودعاه للثورة ، وقام بحملة أمام الرأى العام لادخال نظام أقرب الى العلم والفهم والعــلاج الواعى للمشــكلات والأزمات التى يتعــرض لهــا الأحداث والشبان ..

وأسس مع عدد من صحبه أول معهد لهــذا الغرض التربوى والاصلاحى فى نهاية العقد الأول من هــذا

القرن .. فكان عملا مبتكرا فى ميـــدانه لم يسبق الى مثله من قبل . ثم عرف أثناء الممارسة باكتشافات فرويد فى التحليل النفسى فوجد الكثير منها يلائم منهجـه العملى ، فأفاد منه كثيرا واستغله فى توضيح أفـــكاره النظرية ووسائل علاجه العملى .. حتى وصفه العارفون بأنه الرجـل الذى « طوع » أسـلوب فرويد العلمى لأغراضه ، ولم يتشكل هو بأسلوب فرويد تشكلا أعمى كما فعل الكثيرون من المعالجين النفسيين

ومما لاشك فيه أن نفاذ بصيرته ورهافة حسه وقدرته على « تقمص » شخصية المريض هى العامل الأكبر فى نجاح أعماله وأفكاره ...





سيجموند فرويد

تقديم

بقلم سيجموند فرويد

العالم النفسى المعروف
ومؤسس التحليل النفسى

مامن ميدان من ميادين التحليل النفسى آثار الاهتمام، وأنعش الآمال ، واجتذب العدد العديد من العاملين الأكفاء مثل ميدان التربية نظريا وعمليا .. وهو أمر يسهل علينا فهم أسبابه ، فلن يبدأ التحليل النفسى باتخاذ المصابين بأمراض عصبية موضوعا أساسيا له ، فقد انتهى الى أن استبدل بأولئك المصابين فى أعصابهم الأطفال والشباب الأسوياء ...

وقد اكتشف التحليل النفسى أن « الطفل » يبقى على حاله بغير تغيير تقريبا داخل سريرة المريض العصبى ، وداخل سريرة الحالم ، وداخل سريرة الفنان .. وأدى هذا الكشف الى القاء ضوء كثير على القوى الغريزية

والدوافع التى تضفى على الشخص خصائصه المميزة ، وهو فى أوج نضوجه .. فلا عجب أن يتطلع الناس الى التحليل النفسى ويعقدوا الرجاء عليه كى يحقق فى ميادين التربية الشىء الكثير .. بحيث نعرف على ضوئه كيف نسوس الناشىء ونصل به الى سبيل النضج السوى ، ونشجعه ونحميه من تنكب سواء السبيل ...

ولم تكن لى فى هذا الميدان التطبيقى مشاركة كبيرة. وكنت فى صباى أعتقد أن المهن الثلاث المستحيلة هى التربية والعلاج والحكم .. ثم استغرقتنى المهنة الثانية استغراقا كافيا . وليس معنى هذا طبعا أننى لا أقدر الميدانين الآخرين حق قدرهما متى اجتذبا عناية العاملين الأكفاء .. ولاسيما ميدان التربية

وكتاب « أوجست آيكورن » يتناول جانبا خاصا من جوانب التطبيق العملى للتحليل النفسى فى ميدان التربية .. فذلك الميدان على اطلاقه فسيح الأرجاء ..

وقد عمل المؤلف سنوات طويلة فى منصب رسمى كمدير لمؤسسات حكومية للعناية بالجانحين من الأحداث والشبان قبل أن يتصل اتصالا مباشرا بمنهج التحليل

النفسى .. فكان يعتمد فى علاجه لأولئك الشبان على حبه وعطفه القلبى على حالاتهم ، ويهتدى ببصيرة نافذة وفهم فطرى سديد لاحتياجاتهم النفسية ..

ولما وصل أسبابه بأسباب التحليل النفسى ، لم يكن لدى التحليل النفسى شىء كثير يعلمه اياه لم يكن قد عرفه من قبل بصورة عملية . وكل ماهنالك أن التحليل النفسى أتاح له مزيدا من النفاذ النظرى والتوضيح ، وبرر له انتصاراته العملية تبريرا منهجيا .. ويسر له أن يشرح للآخرين نظريته بصورة علمية مقنعة

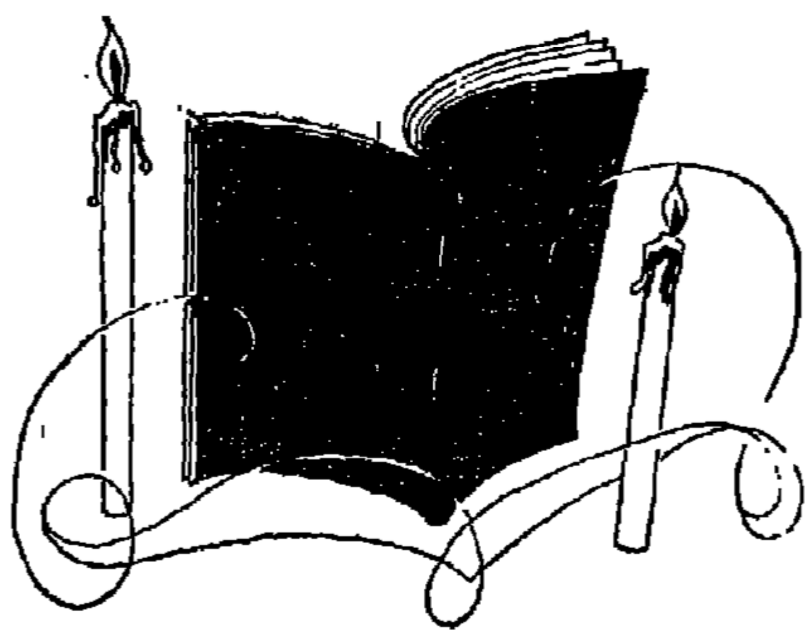
وليس فى مقدورنا بالطبع أن نفترض أن كل مُرَبٍّ لديه هذه الموهبة الفطرية .. ولكن تجربة « أوجست آيكورن » وما حققه من انتصارات أكدت لنا أمرين :

أولا : أن المربى بمعنى الكلمة يجب أن يتدرب على التحليل النفسى ، والا ظل الناشىء الذى فى كنفه لغزا مستعصيا على فهمه . وخير تدريب على التحليل ماجربه المعلم فى نفسه ، أى أن يخضع للتحليل النفسى فيفهم على ضوء حالته الخاصة المغزى الحقيقى لمنهج التحليل . أما التعليم النظرى للتحليل النفسى ، فلا يتغلغل فى العقل

بما فيه الكفاية ولا يؤدى الى الاقناع التام

ثانيا : أن العمل التربوى نوع قائم بذاته .. فهو ليس نوعا من التحليل النفسى . وكل ماهناك من صلة بينهما أن التحليل النفسى قد يساعد فى حل مشاكل التربية ، أما عملية التربية نفسها ــ ككل ــ فعملية مستقلة . وهذا ليس صحيحا لأسباب عملية فحسب ، بل ولأسباب نظرية أيضا .. فالتربية هى الأساس ، والتحليل احدى وسائلها ولا سيما فى حالات الجنوح والأزمات ..

سيجموند فرويد



تمهيد

غايتنا فى هذا الكتاب هى بيان مدى فائدة علم النفس والتحليل النفسى فى علاج أزمات الشباب . وسيكون كلامنا على الخصوص استعراضا لما عن لى من المقترحات وأساليب الدراسة والفهم وطرق المعاملة ..

وسنبين كذلك الى أى مدى يتكفل التحليل النفسى بمساعدة المعنيين بأزمات الناشئين عن طريق تمكينهم من الفهم المستنير واعطاء التفسيرات النفسية لمظاهر الجنوح التى نسميها أزمات ..

فالتحليل النفسى هو الذى يصل بالمربى الى معرفة اى أنواع السلوك المستهجن راجع الى اضطراب فى القوى النفسية . ويوصله أيضا الى العثور على أصل هذا النوع من السلوك ومصدره فى اللاشعور . وتكون الخطوة التالية هى هداية المربى الى أنجع الوسائل لاعادة الشاب المضطرب أو الجانح الى سواء السبيل بحيث يتلاءم مع الاوضاع الاجتماعية السوية

ومن المستحسن ، ونحن فى بداية الكلام ، أن نميز بين أنواع متباينة من السلوك « اللااجتماعى » .. ذلك أن كل طفل يكون على العموم فى الفترة الاولى من عمره مخلوقا لا اجتماعيا . ونعنى بهذا أنه يرمى الى اشباع احتياجاته

الغريزية بطريقة مباشرة ، وبغير اكتراث بالعالم من حوله ولا بما قد يراه فى سلوكه من استحسان أو استهجان . واذا كان هذا هو السلوك العادى للطفل بالنسبة للطفل نفسه ، فانه فى نظر الكبار يعتبر سلوكا لا اجتماعيا .. لأنه غير متقيد بالمجتمع وأوامره ونواهيه

ودور التربية ينحصر فى نقل الطفل من هذه المرحلة اللا اجتماعية الى مرحلة توافق وتلاؤم مع المجتمع الذى يعيش فيه ..

وليس فى استطاعة التربية أن تحقق هذا الغرض الا اذا جعلت النمو الغريزى والحس عند الطفل يسيران فى اتجاه سليم ، فيتم تحويل ميوله الفطرية الى الاتجاهات الصحيحة ، بحيث ينقطع الطفل عن أنواع السلوك الغريزى الممنوعة ، ولا يستخدم لارضاء ميوله الفطرية الاشكال والاساليب المسموح بها فى المجتمع ..

واذا لم تتمكن التربية من تنظيم الميول الفطرية على نحو يرضاه المجتمع ، فمعنى ذلك أن يبقى الطفل مخلوقا لا اجتماعيا .. وحتى اذا عدل أساليب سلوكه فيما بعد فسيبقى تلاؤمه مع المجتمع مسألة شكلية سطحية . اما فى اعماق نفسه فيظل لا اجتماعيا ، لايهضم قيود المجتمع ومطالبه .. وذلك لأنه لم يتخلص من الجذور الغريزية لميوله بل قمعها . وعملية القمع لا تستأصل ، ولكنها «تعتقل» ومتى سنحت الفرصة للقوة المعتقلة أو المقموعة، انطلقت من عقالها تطلب الاشباع بحدة .. وهذا مايسمى بالانحراف الكامن

وهذا الانحراف الكامن لا يلبث ان يغدو انحرافا ظاهرا متى وجد مايثيره بصفة مستمرة

واذا جعلنا من همنا علاج هذا الجانح أو المنحرف ، فيجب أن نضع نصب أعيننا أن ذلك العلاج انما هوبمثابة اعادة لتربيته وتهذيبه من جديد

والآن يجب قبل ان نخطو خطوة أخرى الى الامام فى اتجاه استخدام العلاج النفسى فى التربية، ينبغى ان نتمهل قليلا لنعرف أهداف التربية على العموم .. تربية الناشئين جميعا لا المنحرفين فقط

واذا استعرضنا نظريات التربية بوجه عام وجدنا فيها نظريتين هامتين .. النظرية الاولى ترجع نمو الطفل الى عوامل الوراثة دون غيرها ، وفى هذه الحالة لا تستطيع التربية مهما صنعت أن تعدل من تكوين الطفل الوراثى . اما النظرية الاخرى فدعواها ان التربية تستطيع ان تحقق أى تعديل فى وراثة الطفل ، وأن تصل به الى أى صورة نريدها .. فمشكلات الوراثة لا تقف فى سبيل التربية الصحيحة

وليس فى استطاعتنا ان نفصل فصلا معقولا فى هذا النزاع بين النظريتين قبل ان نلم بتاريخ التطور البشرى الماما عاجلا ..

وأول ما يلفت النظر فى الانسان البدائى أنه عنى اول ما عنى بتنمية قدرته المحدودة كى يستطيع مواجهة الواقع القاسى من حوله ويتجنب الفناء . وكان هذا الدرس هو أول ما تعلمه البشر من دروس الحياة .. ومفاد هذا الدرس ان الانسان ينبغى أن يتعلم كيف يتحمل الآلام ، وأن يمتنع عن اشباع رغبة عاجلة اما امتناعا مؤقتا او نهائيا ، وأن يستخدم دوافعه الغريزية فى اتجاهات معينة تجنى له النفع أو تحميه من الاذى

وكان الدرس الثانى ـ بعد تكييف غرائزه لتلائم الواقع المادى من حوله ـ ان يلائم بين سلوكه الغريزى وبين المجتمع الذى يحيط به من الناس الذين يشاركونه فى بيئة مادية واحدة

وفى هذا الاتجاه تعاقبت اجيال كثيرة على الانسان ، وظهرت بالتدريج معالم المدنية القديمة .. وهى فى خلاصتها تمثل الخطوات الثابتة المنتظمة التى خطاها الانسان القديم بمجهود شاق فى طريق السيطرة على الطبيعة . وفى هذا السبيل دفعته الحاجة الى الابتكار والاختراع والتفنن .. فكان هذا التراث من الخلق الفنى والكشف العلمى والتنظيمات الاجتماعية

وفى هذا المستوى البدائى من الحضارة لا توجد الا قيود قليلة هينة على الاشباع المباشر للغرائز . ولكن هذه القيود تزداد قوة وعددا مع ازدياد مراحل الحضارة وارتفاع مستواها ، لأن المطلوب من الفرد فى هذه الحالة ليس الاسهام فى منافعه الخاصة فحسب ، وحماية نفسه فقط من الغوائل .. بل يكون المطلوب منه هو الاسهام ايضا فيما يعود على جيله كله بالخير والتقدم ..

وهذا ما يمكن ان يسمى بالطاقة الحضارية للانسان ..

وهذه الطاقة الحضارية يختلف مقدارها بحسب مستوى الحضارات .. أما الطاقة الانانية وهى مجهود الفرد فى الانتفاع من الواقع المحيط به والاحتماء من اخطاره ، فهى طاقة ثابتة لا تتغير تغيرا كبيرا بتقدم الحضارة

واذا نظرنا الى الطفل وجدناه فى صغره قليل القدرة على منع نفسه بنفسه من اشباع غرائزه والتكيف بقيود الحياة الاجتماعية وأوامرها .. ولكن التجارب المتوالية

ـ وهى تجارب لا تخلو فى الغالب من ألم له ـ تعلمه شيئا فشيئا كيف يحد من اندفاع نفسه نحو تحقيق غـرائزه تحقيقا مبـاشرا ، وأن يرضخ لأوامر المجتمع ونواهيـه ويمتنع عن المقاومة شيئا فشيئا حتى يصبح بالتدريج فى نهاية الامر مخلوقا اجتماعيا بمعنى الكلمة

وهذا الطريق الطويل الذى يتدرج فيه الطفل من اللذة الغريزية الاولية ـ وهو رضيع ـ حتى يصل الى النضج وحسن التكيف مع الواقع ، شبيه جدا بالطريق الذى درجت فيه الانسانية من طفولتها الاولى قبل التاريخ حتى عصرنا الراهن

والطفـل حين يولد يخرج الى عالمنـــا مزودا بآثار التجارب والخبرة التى حصلتها الاجيـال السابقة على ولادته . وهذا هو ما يسمى بالمواهب الوراثية .. ولكـن هذه المواهب الوراثية لا تكفيه كى يتكيف بسـهولة مع المجتمع الذى يولد فيه وينشأ فى اطاره .. بل على الطفل أن يستغل مواهبه الوراثية وقـدراته الفطرية ويوجهها مهتديا بالتجربة والخبرة والتربية . فالطريق الوحيـد لتحضر الانسـان هو طريق التجربـــة والتدريب ، ليس الا .. فالحياة تدفع الانسان وتحمله على أن يتكيف مع الواقع المحيط به . والتربية هى التى تمكن ذلك الانسان من تحقيق هذا التكيف عن طريق تحصيل الحضـارة ..

ومصداق هذا ما نلاحظه فى حياتنا اليومية ..

ان الطفل الصغير حين يحاول الصعود فوق مقعـد فيسقط على الارض ويتألم .. يتعلم عن طريق هذا الالم بصورة مباشرة درس الحذر والحرص من غير حاجة الى تدخل المربى بعبارات لفظية خارج اطار هـذه التجربة المباشرة

وبهذا القبيل من استخدام غريزة الطفل فى المحافظة على ذاته وتجنب الالم ، يتعلم الطفل شيئا فشيئا مزيدا من التكيف الاجتماعى

والتربية فى جوهرها ان هى الا وسيلة للكشف عن الامكانيات الموجودة لدى الطفل فعلا واستغلالها .. وليس فى وسع التربية ان تضيف شيئا جديدا الى هذه الامكانيات لم يكن موجوداً من قبل . والطفل الذى ينشأ بغير تهذيب لائق هو الطفل الذى لم تستغل التربية امكانياته الفعلية استغلالا مناسبا بحيث يتجه الى التكيف بالنظام الاجتماعى وهذا الطفل الذى ساء تهذيبه ، أو أهملت تربيته ، يجد نفسه فى حالة صراع مع المجتمع الذى يعيش فيه

وهذا هو ما يتمثل بوضوح فى الطفل المنحرف وفى ازمات الشباب . وتبدأ مهمة التربية العلاجية عندما نشعر بأن ثمة مشكلة تربوية ، أى عندما نتبين ان الوسائل التربوية العادية المجدية مع بقية الاطفال أو الشبان لا تفلح فى تنمية القدرة الاجتماعية اللائقة لدى طفل معين او لدى شاب بالذات

***

والتربية العلاجية هى اعادة للتربية الخاطئة على اساس سلبى . وهى لا تختلف فى هدفها عن التربية العادية ، لأن الغرض فى الحالتين هو وضع الناشىء فى موضع متلائم مع سائر النظام الاجتماعى من حوله . ولكن كى نهتدى الى موضع الخلل فى تربية الناشىء ، يجب أن نستخدم منهج التحليل النفسى

ومنهج التحليل النفسى ابتكار علمى اهتدى اليه سيجموند فرويد ، وهو يقوم بعلاج المصابين بأمراض عصبية .. اذ اكتشف أن الانفعالات القوية التى لها سند

من الغريزة اذا ما كبتناها لم تنعدم ولم تتلاش ، بل تكمن فى داخلنا وتتحين الفرصة للتعبير عن نفسها بصورة منحرفة ، مختلفة الاشكال والالوان

ولاحظ هذا العالم النابغة أيضا أن الانفعالات المكبوتة حين تختار صورة للتعبير عن نفسها من صور السلوك ، انما تصدر فى ذلك الاختيار عن قانون معروف من قبل فى عالم الميكانيكا ، وهو ان الطاقة تسلك أقل الطرق مقاومة .. وهو القانون المسمى بقانون المجهود الاقل

وتختلف هذه الصور باختلاف الاشخاص والمواقف.. فهناك مثلا شخص ينفس عن انفعالاته المكبوتة فى صورة نشاط مفرط فى افراز الغدد .. كالبكاء والعرق. وهناك شخص آخر ينفس عن انفعالاته المكبوتة فى صورة نشاط حركى كالصراخ والضرب والتلويح باليدين . وهناك شخص ثالث ينفس عن هذه الانفعالات عن طريق أوعيته الدموية فيحمر وجهه خجلا أو يصفر . أما الشخص المتزن فلا يليق به أن يسمح بهذه المظاهر الحركية أن تفضح سريرته .. وهذا ما يسمى بكبت الموقف الانفعالى

ومعنى الكبت هو أن يزج الشخص بالموقف الانفعالى من مستوى الشعور الى اغوار اللاشعور . ومتى دفن الموقف فى اللاشعور لم يلفظ أنفاسه ، بل حاول أن يسلك فى التنفيس عن نفسه سبيلا آخر غير السبيل المباشر الذى اقفل فى وجهه

والقوة الخاصة التى نستعين بها لاقصاء الاشياء غير المرغوب فى التعبير عنها من الشعور الى اللاشعور ، هى بعينها نفس القوة التى تحول بين الاشياء المكبوتة وبين الدخول الى مسرح الشعور .. وهى التى تسمى بقوة المقاومة الشعورية

وكما اكتشف فرويد اللاشعور ، اكتشف أيضا عندما تعمق فى البحث أن العمليات العقلية كلها متداخلة فيما بينها مرتبط بعضها ببعض .. وأن كل عملية عقلية وكل موقف نفسى انما هو نتيجة لتفاعل بين مختلف القوى النفسية

وهذه النظرية ضرورية جدا لفهم كيفية تحكم العمليات اللاشعورية فى سلوك الشخص . وعلى ضوء هذا الفهم يسهل على المربى أن يكشف عن المصادر الخفية للانحراف وأن يضع يده على النقطة الاولى التى يبدأ منها العلاج الصحيح

وتكون الخطوة الاولى من خطوات العلاج بعد ذلك هى استخراج العمليات اللاشعورية التى سببت الانحراف الى مسرح الشعور ..

وليكن فى علمنا أن المصاب بانحراف نفسى ، أو بمرض نفسى ، كلاهما لا يدرك على الاطلاق سر العلاقة بين سلوكه الظاهرى المنحرف واسباب هذا السلوك الغائر فى اللاشعور

***

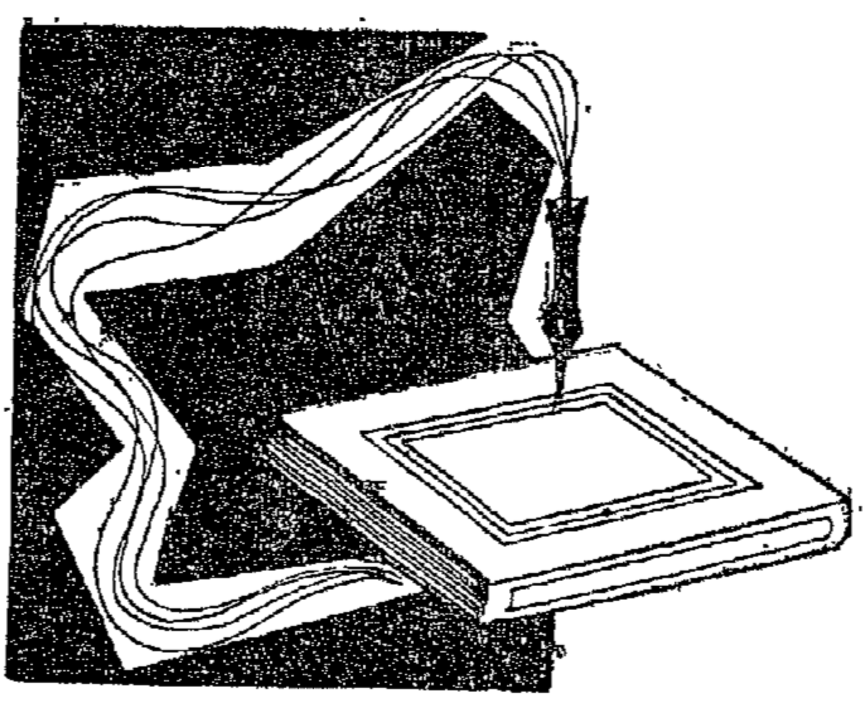
ان التربية فن .. واهم عناصر هذا الفن هما البصيرة وصدق الالهام أو الحدس ..

واذا كان هذا صحيحا فى التربية بوجه عام ، فهو أصح وأكثر انطباقا على التربية العلاجية .. فبقدر ادراك المربى المعالج لمشكلات الشاب المنحرف ، ونفاذ بصيرته يكون نجاحه فى مهمته ، وتوفيقه فى العلاج . ومما لا خلاف عليه أن مهارة المربى والمامه بأصول التربية من عوامل تمكينه من النجاح وزيادة حظه من التوفيق .. فاذا

ما تزود المربى فوق هذا كله بالدراية بخفايا الحيل النفسية التى اماط اللثام عنها التحليل النفسى فانه يبلغ من التوفيق غاية مداه

ومع هذا فواجب الامانة يدعونى فى ختام هذا التمهيد الى كلمة تحذير :

يغالى المربون فى تجسيم أهمية علم النفس فى التربية العلاجية حتى انهم يعتبرونه أحيانا العامل الاخطر ان لم يكن الاوحد .. ويجب ألا يغيب عن ابصارنا أن العمل العلاجى الكامل فى التربية ، شأنه فى ذلك شأن التربية العادية الكاملة ، يجبأن يحسب فيه حساب عناصركثيرة اخرى منها العامل الطبى ، والعامل الاجتماعى ، والعامل الاقتصادى ، والعامل الثقافى



الفصل الأول

القوة الكابتة والقوة المكبوتة



أحد الاعراض

ويجدر بي أن اعترف هنا أن العمــل مع الاطفـــال والناشئين قد استغرق الجزء الاكبر من حياتي العملية .. ولهذا صرت أعتقد أن بيان الناحية النظرية من غير تطبيقات عملية واقعية سيكون غامضا وعديم القيمة . ولذا ســـألجأ مباشرة الى مواجهة موقف من المواقف الواقعية فى تحديد احد أعراض الأنحراف لدى الشـــباب

والحالة التى سنبدأ بها تعتبر من الحالات العـــادية البسيطة التى يفد أصحابها على العيــادات الخارجية ، ولا يحتاج الامر فيها للاحالة على الاصلاحيات ..

جاءتنى أم ومعها ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما .. ولما استقبلتها فىعيادتى أخذت تشكو من سوء سلوكه، وبلغ من ضيقها به أنها أصرت على أن تحيله الى احــدى الاصلاحيات !

وعلى حسب عادتى ، بدأت بمقابلة الام أولا علىانفراد حتى لا تكون شكواها من ابنها على مسمع منه ، ولمـــــا سألتها عن فحوى ما يســخطها على أبنها ، سردت على مسامعى قصة كاملة متناسقة الاحداث . ولذا لم أجد داعيا لتوجيه أسئلة كثيرة اليها أثناء السرد ..

قالت الام ان ابنها اشترى من الســوق فى يوم الاربعاء صابونا وزجاجة صودا وصحيفة يومية .. وأنها عندما عادت من عملها فى المساء ألفت باب المسكن مغلقا ، وابنها

غير موجود بالداخل . ثم اكتشفت انه ترك لها المفتاح لدى الجيران .. واستطردت الام تقول :

ـ وخطر لى أنه هرب .. فقد سبق له الهروب جملة مرات من قبل من غير سبب ظاهر ـ ولا تظنن أننا نسيء معاملته ، فنحن نعامله فى البيت معاملة طيبة ـ ونظرت فى كيس نقودى الذى كنت قد تركته على المائدة وبه مبلغ صغير من المال ، فوجدت محتويات الكيس كاملة لم ينقص منها شيء . وتأكدت أيضا أن النقود التى يدخرها زوجى فى سترة قديمة معلقة فى حجرة النوم باقية على حالها . مع أن الغلام يعرف هذا السر تمام المعرفة .. ولكنى اكتشفت بعد ذلك أنه أخذ شيئا من النقود من درج منضدة المطبخ ، كما استولى على جميع ما كان فى حصالة أخته

ولما لم يعد الى البيت حتى الليل أبلغت قسم الشرطة .. فسجلوا هناك مذكرة باعتباره مفقودا . ولم يعد الغلام يوم الخميس باكمله . ولكنى عندما رجعت من عملى بعد ظهر يوم الجمعة ، وجدته واقفا قرب المنزل مقطب الوجه متجهم الاسارير ، ولكن لفت نظرى ان ثيابه نظيفة .. وأن آثار الاستحمام عليه واضحة . ولم يحاول أن يبادرنى بالكلام . ولما سألته لم أستطع أن أستخلص منه أين كان مختفيا أو ماذا صنع بالنقود . ولم أزل جاهلة بهذه الامور حتى الآن . وصحيح اننى لم أزجره ولم أؤدبه بالضرب، ولكنى أشعر انى صرت عاجزة عن عمل أى شيء فى سبيل تقويمه .. وأن الواجب يقضى بايداعه مدرسة تابعة لاحدى الاصلاحيات

وبعد أن فرغت الام من حكايتها استفسرتها عن ظروف بيتها .. فكانت صريحة معى كل الصراحة ، فأخبرتنى

انها تزوجت منذ خمس عشرة سنة من رئيس (مقدم) عمال فى احد المصانع ، وأن زواجهما موفق .. وانها شخصيا تشتغل فى احدى مؤسسات المدينة فى تطريز المفروشات المنزلية

ولما سألتها بتدقيق :

ــ الا تحدث اطلاقا اى خلافات عائلية بينك وبين زوجك ؟

أجابتنى ببساطة :

ــ خلافات عارضة مثل التى تنجم بين أى زوجين ..

ولما سألتها عن علاقة ابنها بها قالت :

ــ علاقة طيبة .. فأنا واثقة انه يحبنى اكثر من حبه لابيه . مع ان زوجى يتهاون معه اكثر مما يجب ، فيتركه يعمل مابدا له ولايضربه مهما صنع .. حتى أننى كثيرا ما كنت اصطدم بزوجى لهذا السبب ،ولكن بلا فائدة .. فزوجى رجل عصبى المزاج اذا اثاره شىء من كلامى غادر المنزل ، وغاب عنه بضع ساعات قد تطول الى منتصف الليل . ثم اننا لا نجد من وقتنا متسعا كبيرا للاهتمام بأمور أولادنا لان كلا منا مشغول معظم الوقت فى العمل

ــ وايام الآحاد ؟

ــ الحقيقة ان زوجى شغوف بصيد السمك .. ولذا يخرج كل يوم أحد للصيد . وأحيانا يصطحب الفتى معه .. اما الفتاة فتلازمنى فى البيت لتقوم بقضاء الحاجات والتنظيف واصلاح الثياب

ومسكن الاسرة يتكون من ثلاث غرف .. الفتى ينام وحده فى حجرة صغيرة ، وتنام الفتاة مع ابويها . ولما سألت الام عن أحوال الفتاة ومبلغ رضاها عنها قالت :

ـ انها صغيرة تبلغ من السن سبع سنوات . وتسير في مدرستها سيرا مرضيا . وعندما تعود من المدرسة تبدي همة كبيرة في معاونتي لانجاز أعمال البيت ، وهي دمثة الخلق .. فاذا نجم بينها وبين أخيها شجار ، أبدت الفتاة ميلا للاذعان لاخيها بسرعة قد أراها أحيانا أكثر مما ينبغي

ورأيت أن أستوضحها نقطة أخيرة .. وهي :

ـ هل يوجد أي سبب مباشر لهروب الفتى هذه المرة ؟

ـ لم يحدث شجار أو شقاق من أي نوع على الاطلاق قبل هروبه هذه المرة .. ولم يقترف اي شيء يخشى بسببه العقاب

ـ الا يوجد أي سبب آخر يمكن أن يكون قد أدى لبث الخوف في نفسه ؟

ـ لا أعرف أن سببا كهذا له وجود ..

ـ الا يوجد لديك اي تفسير لهروبه هذه المرة من المنزل ؟

ـ كلا ..

ـ الا تعتقدين ان غلمانا آخرين أغروه بالهرب مثلا ؟

ـ لا أعتقد هذا .. اذ ليس لابني أصدقاء ..

ـ ولا واحد ؟

ـ واحد فقط .. وهو من عائلة طيبة . وأحب أن انوه في هذا الصدد بأن ابني ليس مغرما بالنزول الى الشارع

واستطعت أن أضيف من استجوابها الحقائق التالية ايضـا :

١ ــ صحة الابوين سليمة ..

٢ ــ لا توجد فى أصول الام أو الاب حالات جنون ، أو ادمان الخمر ، أو أى سوابق جنائية ، أو ميل الى الانحراف

٣ ــ كان نمو الغلام عاديا فلم يصـــب فى طفولته بالتشنج العصبى ، ولا يوجد ما يدل على الاشتباه فى اصابته بمرض نفسى

وبعد أن فرغت من الام ، طلبت اليها أن تبقى فى غرفة الانتظار ريثما أدعوها بعد الانتهاء من مقابلة الغلام . وأكدت لها أنه سيكون فى وسعى بعد الانتهاء من الاجتماع به ، أن أفتيها فى أمر ابنها وأرشدها الى ما ينبغى عليها أن تقوم به لعلاجه

***

وابادر فأقول ان الفتى ترك فى نفسى منذ الوهـــلة الاولى أثرا طيبا .. فمظهـــره ليس فيه ما يدل على انحراف ، بل انه على نقيض ذلك تماما كان يبدو نموذجا حسنا للمهذبين من ابناء الطبقة الوسطى

وأول ما لفت نظرى فيه أنه أطول بكثير من المفروض فى سنه .. ولكنه رغم طوله المفرط ، لم يكن هزيلا .. بل كان قوى العود . وكان وجهه فوق جسمه النامى ، مستديرا كوجوه الاطفال الصغار ، يشرق بالابتســـام باستمرار .. ولاحظت انه شديد العنـــاية بتصفيف شعره الاسود اللامع . وألقيت نظرة خاطفة على يديه ، فوجدتهما يماثلان وجهه فى شدة النظافة . وكان يرتدى كسوة من طراز البحارة ناصعة البياض ، فزاد ذلك من شعورى اننى بازاء فتى ناضج ..

وبدأ الفتى بتحية مهذبة .. ثم جلسنا معا الى منضدة جانبية فى حجرة مكتبى . وسأذكر هنا الجانب الهام من حديثنا بحروفه ، أما الجانب الآخر فسوف اكتفى فيه بالتلخيص

وأحب أن اذكر بهذه المناسبة أن جميع المقابلات التى تتم فى العيادة مقابلات « مقفلة » لا يحضرها أى انسان مع الفتى موضوع الفحص ..

وكانت وجهة نظر الفتى فى علاقة كل من أبويه بالآخر ، ان الانسجام بينهما لم يكن موفورا .. لان التفاهم بينهما كان متعذرا فى مناسبات كثيرة لاختلاف وجهتى نظرهما فى معظم الامور

وروى ان أمه أسرع الى الغضب من أبيه .. وحينما تغضب الام يغادر الاب المنزل ولا يعود اليه الا بعد ساعات طويلة

وذكر الفتى لى احدث مشاجرة بين الابوين .. وكان ذلك يوم السبت . فما كان من الرجل الا ان حمل أدوات صيد السمك ومضى بها الى الريف . وكان المفروض أن يرجع فى المساء كالمعتاد كلما خرج للصيد ، ولكنه فى هذه المرة لم يرجع الا مساء الاحد

وصور الفتى بدقة قلق أمه البالغ لغياب زوجها ، وكيف انها كانت تخشى أشد الخشية أن يكون قد ألم به مكروه

ولما وجهت اليه الحديث نحو علاقته بأبويه ، عرفت منه أن شعوره متأرجح بين الحب والبغض .. فحينما تشتد عليه وطأة الام يتجه بعواطفه نحو الاب . وعندما يأبى الوالد ان يصحبه عند خروجه لصيد السمك يتذمر

ويسخط ويشكوه لامه . ولكن كان واضحا حتى بالنسبة للفتى أن حبه لأمه أكثر من حبه لابيه

ولفت نظرى أنه كان حريصا بعد تأكيد تفضيله لامه أن يذكر لى ان هذا لا يمنـع من أن يرى اباه على حق عندما يترك لها المنزل على أثر المشاجرات السخيفة التى تثيرها فى البيت

وانتقلت الى سؤاله عن أخته ، فذكر لى أنها ليست دائما على ما يرام بالنسبة له .. وكثيرا ما يغاضبها . وذكر أيضا أن أمه تنحاز دائما الى صف الفتاة كلمـا اختلف معها

وفى مساء الثلاثاء .. وهو اليوم السـابق على يوم هروبه مباشرة ، قدمت الام للفتاة مبلغا من النقود كى تبتاع حذاء جديدا . ولم يخطر لها أن تعطيه مبلغـا مماثلا ليشترى حذاء لنفسه .. مؤكدا أن احتياجه الى حذاء جديد أشد من احتياج أخته الى الحذاء . ولمـا غضب لم تستطع أمه أن تتبين لغضبه مبررا

وانتقل الحديث الى الدرجات المدرسية .. فصارحنى ان أخته تحصل فى المدرسة على مستوى من الدرجات أعلى من مسـتوى درجاته . أما هو فكان صريحا فى التطوع بالاعتراف لى بأنه يكره الذهاب الى المدرسة ، ويتمنى لو هجرها ليشتغل ميكانيكيا

ولمـا سألته عن أصدقائه ، قال انهم قلة .. ولكنه حرص على أن يذكر بحرارة أنه يحب واحدا منهم يماثله فى العمر محبة شديدة

وسألته عن نزوله الى الشارع ، فقال انه قلما ينزل .. بل أنه من الناحية العملية لا ينزل اطلاقا الى الشارع

ما لم يطلب منه هذا الصديق المحبوب النزول للنزهة بعض الوقت

وسألته اين يتنزهان عادة ، فقال انهما يذهبان احيانا الى السينما .. فسألته عن أحب أنواع الافلام اليه . فقال انه يفضل افلام الرحلات ، وقال بهذه المناسبة أيضا أنه يهوى قراءة كتب الرحلات

ولما سألته عن علاقة الرحلات برغبته فى أن يشتغل ميكانيكيا اتسعت ابتسامته وصارحنى بأن السبب الوحيد الذى يجعله يختار مهنة الميكانيكى هو يقينه من عدم ترخيص أبويه له بالاشتغال بحارا على ظهر احدى السفن

وعند هذا الحد ينتهى الجانب الملخص من الحديث الذى دار بينى وبين الفتى . ويهمنى أن أذكر بعد ذلك تفاصيل الحوار الحرفى الذى دار بيننا حول موضوع هروبه من البيت ، لان هذه التفاصيل ستبين طريقة الفحص المتعلق بتلك الحالة ..



خيوط اللغز

ودار بيننا الحديث على هذا النحو :

ـ فى أى يوم هربت من المنزل ؟

ـ فى يوم الاربعاء ..

ـ فى أى وقت بالضبط ؟ صباحا أم مساء ؟

ـ لا أذكر بالضبط .. وعلى كل حال لم يكن هذا فى ساعة مبكرة . ولعله كان قبيل الظهر ، قبل وقت الغداء

ـ وأين كنت عندما فكرت فى الهرب ؟

ـ فى البيت .. ومن هناك انطلقت

ـ وهل كان معك فى البيت أحد ؟

ـ لا .. كنت وحدى ..

ـ وأين كان الباقون ؟

ـ أمى كانت فى الخارج ، وأبى كان فى المصنع ، وأختى كانت فى المدرسة . وليس هناك سوى هؤلاء ..

ـ وهل اغضبك شىء فى هذا اليوم أو كنت تخشى شيئا ؟

ـ كلا ..

ـ لعل شيئا حدث فى مساء الثلاثاء عشية الهرب ؟

ـ كلا ..

ـ وماذا صنعت مساء الثلاثاء ؟

ــ ذهبت الى مخزن البقالة .. لان أمى كانت قد أعطتنى نقودا وكلفتنى بشراء أشياء معينة فجئت بها ووضعتها فى درج المنضدة .

ــ جميل .. والآن حاول أن تتذكر جيدا .. ألم يحدث شقاق بين أبيك وأمك مساء الثلاثاء أو صباح الاربعاء ؟

ــ كلا ..

ــ ألم يكن أبواك ساخطين عليك مساء الثلاثاء أو صباح الاربعاء ؟

ــ كلا ..

ــ ألم يحدث سوء تفاهم بينك وبين أمك ؟

ــ كلا ..

ــ ولا نزاع بينك وبين اختك ؟

ــ آه حصل ...

ــ ما موضوعه ؟

ــ غضبت منها لانها كانت ستشترى حذاء لها قبل أن يشتروا لى حذاء جديدا ..

ــ أذكر التفاصيل كلها ..

ــ أعطتها أمى مبلغا ، فوضعته أختى فى حصالتها ..

ــ ولماذا ؟

ــ لا أدرى .. وهذه النقود أخذتها أمى من درج المنضدة

ــ وهل فكرت فى الهرب مساء الثلاثاء عقب هذا الغضب ؟

ــ كلا ..

ــ متى فكرت اذن فى الهرب ؟

ـ لم أفكر فيه قبل يوم الاربعـاء ثم انطلقت على الاثر
ـ وماذا فعلت قبل الهرب ؟
ـ أخذت بعض الاشياء واوصلتها الى مكان وجود أمي فى الخارج
ـ ما هذه الاشياء ؟ ..
ـ صودا وصابون وجريدة يومية ..
ـ وأين كانت أمك ؟ ..
ـ فى محل الغسيل .. وبعد أن أعطيتها هذه الاشياء عدت الى المسكن مباشرة ..
ـ وهل القيت نظرة على الصحيفة قبل أن توصلها اليها ؟
ـ نعم ..
ـ وما الذى قراته فيها ؟ ..
ـ قرأت موضوعا عن رجل ضل بين الجبال ..
ـ وعندما حملت الى أمك هذه الاشياء هل أسخطك منها شيء ؟
ـ كانت ساخطة بسبب مسألة الطوابع ..
ـ وما مسألة الطوابع ؟
ـ سرق من صـديق لى بعض الطوابع .. فظنوا انى انا السارق ..
ـ ومن هم الذين ظنوا هذا الظن ؟
ـ الجميع .. حتى امى أيضا ..
ـ وهل كنت ساخطا على امك ؟
ـ طبعا .. وقلت فى نفسى « انها متعبة للغاية »
ـ وماذا فعلت عندما عدت الى المنزل ؟

ـ صنعت « ساندوتش » من الخبز والجبن .. وأكلته

ـ وأين كنت واقفا بالضبط ؟

ـ أمام النافذة ..

ـ فى المطبخ أم فى البهو ؟ ..

ـ فى البهو ..

ـ هل لفت نظرك شىء فى الطريق ؟

ـ النافذة تطل على الفناء .. ولم يكن فيه الا كلب صغير ، فألقيت اليه بقطعة من الساندوتش ..

ـ ارنى كيف كنت واقفا أمام النافذة ..

فوقف الفتى واعتمد على المنضدة بمرفقه .. وتركته فى هذا الوضع كى يساعده على استعادة الذكريات . وسألته :

ـ وماذا حدث بعد أن رميت اللقمة للكلب ؟

ـ خرجت بعد ذلك وذهبت ..

ـ تمهل قليلا ، ولا تسرع فى خطوات السرد هكذا .. لقد وقفنا ـ فى سرد الحكاية ـ عندما كنت مطلا من النافذة وأنت متكىء على حافتها . وقد فرغت من أكل الساندويتش ، ورميت لقمة منه للكلب .. والآن حاول أن تراجع نفسك وتتذكر لماذا بالضبط خطر لك فجأة أن تهرب ؟

ـ لا أدرى

ـ هل طرأت لك الفكرة وأنت تأكل ؟

ـ طرأت بعد ان انتهيت من الاكل ..

ـ ماذا قلت لنفسك بالضبط ؟

ـ قلت لنفسى : سأذهب الى جهة « تولن »

ـ ولكن لماذا الى جهة « تولن » بالذات ؟

ـ لان هناك غابات ، وكنت أريد الذهاب الى الغابات
ـ ولكن ألا توجد غابات فى جهة أخرى غير «تولن» ؟
ـ توجد .. ولكنى كنت أنوى أن أحضر من هنـاك شيئا من ثمار الكرز لاجل امى ..
ـ ولمـاذا تحضر هذه الثمار من « تولن » بالذات ؟
ـ لان أبى يملك هناك أشجارا للكرز ..
ـ ومن أين لك أن تعرف هذا ؟
ـ لانى كنت مع أبى عندما عاينها واشتراها .. والى هذه الجهة كنت أصحبه عادة كلما خرج لصيد السمك
ـ والآن فهمت .. ولكن ما الذى جعلك تفـكر فى احضار ثمار الكرز لامك فى هذه اللحظة ؟
ـ لانى رأيت عـلى حافة النافذة بضـعة من نـوى الكرز ..
ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟
ـ ذهبت الى المطبخ واعددت لنفسى أربعة ساندوتشات كبيرة من الخبز والجبن
ـ وبعد ذلك ؟
ـ أخذت شيئا من نقود أمى .. وأخذت معى حقيبة صغيرة
ـ وأين كانت نقود أمك التى أخذتها ؟
ـ فى درج منضدة المطبخ ..
ـ هل أنت واثق مما تقول ؟
ـ نعم ..
ـ فكر جيدا ..
ـ استوليت على كل ما كان فى الدرج من النقود
ـ وهل كان هذا المبلغ كل ما استوليت عليه ؟
ـ استوليت على نقود أخرى من حصالة أختى ..

ــ وأين كانت الحصالة ؟
ــ فى صندوق بالبهو ..
ــ وهل كان هذا الصندوق مقفلا بالمفتاح ؟
ــ نعم ..
ــ وكيف اذن فتحته ؟
ــ كنت أعلم ان المفتاح فى كيس نقود أمى
ــ وأين كان كيس نقود أمك ؟
ــ على منضدة فى البهو ..
ــ وهل كان بالكيس نقود ؟
ــ نعم ..
ــ كم ؟
ــ لا أدرى ..
ــ هل أفرغت كل ما فى حصالة اختك من نقود أم تركت لها شيئا من المال ؟
ــ لم استول عليها كلها . .
ــ لماذا ؟
ــ لانى لم اكن بحاجة الى اكثر من ذلك لمصاريف رحلتى ..
ــ وهل كنت تعرف أن هناك مبالغ أخرى فى مواضع أخرى من البيت ؟
ــ نعم .. ففى حجرة النوم سترة قديمة لابى يحتفظ فى جيبها الداخلى بمدخراته داخل محفظة قديمة ..
ــ وهل كان باب حجرة النوم مغلقا ؟
ــ نعم ولكن مفتاحها كان فى القفل ..
ــ اليست لك أنت ايضا حصالة ؟
ــ بلى ..

ـ لماذا اذن لم تأخذ ما فيها من نقود ؟
ـ لانى كنت حريصا على ادخارها ..
ـ وكيف سمحت لنفسك أن تستولى على نقــود أختك ؟
.. وهنا لاذ بالصمت .. ولم يجب .. فقلت له :
ـ الا تريد أن تخبرنى ؟
واستمر فى صمته .. فعاودت سؤاله :
ـ وبعد أن أخذت النقود من حصــالة أختك ، ماذا حدث ؟
ـ وضعت الساندوتشـــات فى جيبى واغلقت باب المسكن
ـ وهل أخذت معك المفتاح ؟
ـ كلا .. لقد أعطيته للجيران .. ثم انصرفت
ـ الم تكن تخشى أن تقابلك أمك على السلم ؟
ـ كلا .. لأن أمى قالت لى عنـــدما حملت اليها الاشياء فى المغسلة انها يجب أن تسرع عسى أن تنتهى فى وقت يسمح لها باعداد الغداء
ـ وماذا كان المفروض أنها ستصنع لاعداده ؟
ـ لا أدرى بالضـــبط .. ولكنها كلفتنى أن أضع الطعام فى القدر على الموقد ريثما تعود
ـ وهل نفذت ذلك ؟
ـ كلا ..
ـ والى أين ذهبت عقب مغادرة البيت ؟
ـ الى المحطة ..
ـ هل ذهبت اليها سائرا على قدميك أم فى الترام ؟
ـ سائرا على قدمى ..
ـ وماذا فعلت هناك ؟

ـ اكتشفت انه يجب أن انتظر ساعتين ..
ـ فماذا فعلت ؟
ـ جلست فوق أحد المقاعد وتناولت ساندوتشا ..
ـ وهل كان من عادة أبيك أن يحمل معه طعاما عندما يصحبك للصيد ؟
ـ نعم .. وكان على دائما أن أحمله ..
ـ ألم تكن تخشى وانت جالس هذه المدة الطويلة فى المحطة أن يضبطك أحد هناك ؟
ـ كلا ..
ـ لماذا ؟
ـ لأن أحدا من أهل بيتنا لا يذهب الى هذه المنطقة
ـ ولما ركبت القطار كيف عرفت أنك بلغت « تولن » ؟
ـ أنا أعرف محطتها جيدا ..
ـ وماذا صنعت عندما وصلت الى « تولن » ؟
ـ لا شيء ..
ـ هل جلست طول الوقت بالمحطة ؟
ـ كلا .. بالطبع ..
ـ ماذا صنعت اذن واين ذهبت ؟
ـ ذهبت مباشرة الى الغابات
ـ وهناك ماذا صنعت ؟ لابد أنك صنعت هناك شيئا ؟
ـ أدرك ما ترمى اليه . . انك تريد أن تسألنى هل ارتكبت هناك شيئا ما ..
ـ أنا أسألك ماذا صنعت فى الغابات ؟
ـ وجدت هناك أشجار الكرز ..
ـ وهل جنيت شيئا منها ؟

ـ كلا ..

ـ لماذا ؟

ـ لانه لم يكن قد تم نضجه ..

ـ ولما لم تحقق الغـرض من رحلتك ؟ .. مـــــاذا فعلت ؟

ـ خفت أن أعود الى البيت ..

ـ فماذا صنعت ؟ ..

ـ أخذت أجوس خلال الغابة ..

ـ لمــاذا ؟

ـ لأجمع ثمار الشليك .. وهناك أيضــا وجـدت أشجار كرز أخرى غير التى يملكها أبى فجنيت منها بعض الثمار الناضجة وأكلتها

ـ وهل جئت لامك بشىء من هذه الثمار ؟

ـ كلا ..

ـ وكم من الوقت قضيت فى الغابة ؟

ـ بقيت الى أن ساد الظلام، وأخذ المطر يتساقط..

ـ وأين قضيت ليلتك ؟

ـ فى حظيرة وجدتها هناك ..

وعندئذ انطلق لسانه من تلقاء نفسه يسرد تفاصيل دقيقة عن كيفية قضائه تلك الليلة ، وكيف كان يحاذر أن يكتشف وجوده أحد من أهل المزرعة .وصور شعوره بالوحدة والوحشة لانه قضى الليل راقدا بمفرده فوق كومة كبيرة من القش ..

وكان فى أول الليل يخشى على الخصوص ان يستغرقه النوم فلا ينهض فى ساعة مبكرة ويكتشفه المزارع نائما فى

حظيرته .. فأدى هذا الخاطر الى أرقه طول الليل . وما ان ظهرت اولى تباشير الصباح حتى غادر الحظيرة . وبقى فى الغابة مختفيا رغم استمرار المطر طول النهار ، خشية أن يضبطه أحد اذا دخل أى مبنى ..

ولما سألته ، هل فكر هذا اليوم فى البيت أو شعر بالحنين اليه ، قال ان البيت لم يخطر على باله كثيرا .. بل كان كل همه منحصرا فى امكان قضائه الليلة التالية أيضا فى نفس الحظيرة فوق كومة القش

وبعد أن ساد الظلام تسلل بالفعل الى الحظيرة ، وصعد فوق كومة القش من غير أن يحس به أحد . وفى تلك الليلة — على خلاف الليلة السابقة — نام نوما هادئا ، ولم يستيقظ الا بعد طلوع الشمس ..

واضطر لهذا السبب أن ينتظر مغادرة المزارع للبيت الى الحقول ، ثم يتسلل الى الغابة ..

ولما سألته عن النقود التى بقيت بعد ثمن تذكرة السفر ، قال لى أنه لم ينفق منها شيئا بل أبقاها لتذكرة العودة . وكان غذاؤه مقتصرا على بعض ثمار الشليك والكرز والساندوتشات الثلاثة . وقد أكل الاخير منها فى يوم الجمعة صباحا .. فوجد الخبز صلبا

واعترف أن الجوع هو الذى حمله على العودة الى البيت . وأنكر أنه شعر بأى ندم أثناء العودة .. اما الخوف من العاقبة فلم يشعر به الا حينما اقترب من البيت

ولما دخل المسكن لم يجد هناك أحدا سوى أخته .. فأخبرته أن أمهما ستعود بعد قليل من عملها ، وأن

والديه ساخطان عليه سخطا شديدا بسبب هروبه

وترك أخته ودخل الحمام لانه كان بحاجة شـديدة الى تنظيف نفسـه ، ثم ارتدى ثيابا نظيفة ونزل الى الشارع ليقابل أمه عند قدومها . فلمـا أقبلت وابصرته لم توبخه بكلام كثير ، بل كان كل ما قالته له بهدوء :

ـ أنت ابن عاق وينبغى أن أودعك الاصلاحية ...

وهكذا انتهت مقابلتى مع الفتى .. وتجمعت فى يدى خيوط اللغز . وبقى على أن أقابل أمه ، وأن أصل الى حل اللغز



وراء السر

وأطلعت الام على المبررات التى أدلى بهـا الفتى .. فأظهرت ميلا الى التهوين من شأن ما أقدم عليه من سرقة وهرب . ولكن الامر الذى لم تستطع أن « تهضمه » هو لماذا لم يصارحها شخصيا بجميع هذه المبررات

وهذا هو السؤال الذى تحتاج الاجابة عنه إلى اعـادة النظر فى القصة كلها تحت ضوء جديد ..

وأول ما يلفت نظرنا أن ما أقدم عليه الفتى ليس هينا الى الدرجة التى تتصورها امه . ولا نحتاج الى تفـكير طويل كى نميز فى سـلوك الفتى بين ناحيتين مختلفتين تماما تدلان على مصدرين نفسيين مختلفين

وفى استطاعتنا أن نقول ان الفتى لا يبدو عليه دليـل على المرض . وليس هناك ما يدعو للقول بوجود استعداد فطرى للتشرد لديه . وكـذلك ليس فى وسـعنا أن نعلل هروبه بالخوف من توقيع عقوبة معينة عليه ، او نتيجة لشعور حاد بالقـلق . وليس لدينـا فى الوقت نفسه الا حقيقة واحـدة مقطـوع بهـا .. الا وهى تفسير الفتى لمسلكه كله على انه تحقيق لرغبة استولت عليه فى أن يأتى لأمه بشىء من ثمار الكرز

وليس خافيا انه ما من طفل فى الدنيا يجـوز لنـا أن نثق فى جميع اقواله ثقة مطلقة . وليس هنـاك ما يدعو

للاعتقاد بأن هذا الفتى شاذ عن هذه القـاعدة العـامة . ولذا ينبغى ان نفحص اقواله بتدقيق شديد .. فما الذى يدرينا أنه قال الصدق فعلا ، ولا سيما أن أكثر المنحرفين يبعدون فى اعترافاتهم عن الصـدق كثـيرا . ولكن حتى عندما يتبين لنا الكذب بوضوح لا ينبغى أن نوبخ الطفـل على أساس أنه نسى أو اختلط عليه الامر . ولذا يكفى أن نقول للكاذب فى هذه الحالة :

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

أو نقول له :

ـ فكر قليلا .. تمهل فى الاجابة ثم اخبرنى

والان نعود الى صاحبنا الصغير .. ونسأل انفسـنا ما هو السر الكامن وراء سلوكه المتنـاقض ؟ هل كان فى نيته فعلا ان يأتى لامه بقدر من ثمار الكرز ؟ أم ان المسألة لا تعدو التبرير المقبول لتصرف يعلم أنه غير مقبول ؟

من المحتمل جدا انه كذب عليها ... فلو كان هـذا هو السبب الحقيقى لمـا كان عنده مانع من الافضاء به الى أمه .. رغم شدة غضبها ، وادراكه تمـام الادراك انها جاءتنى به كى أوسله الى احدى الاصلاحيات ..

ولعل هـذا التبرير خطر له وهو ينتظر مقابلتى ، لانه اعتقد أن مثل هذا الدافع سيقنعنى بأنه « ولد طيب » . وفى هذه الحالة لا أجد أمامى المسوغ الكافى لارسـاله الى الاصلاحية . فمن الجائز جدا انه تدبر الامر وقال لنفسه:

ـ الموقف دقيـق .. ولكن لو أنى أظهرت شـيئا من البراعة والذكاء لامكننى أن أخرج من المـأزق ، واكسب عطفهم واضحك عليهم ..

فان صح هذا لدل على انه يفهم عقلية أمه فهما صحيحا للغاية .. فهاهى قد عدلت عن رأيها السيىء فيه ،عندما علمت أن دافعه الى الهروب كان تفكيره الطيب فى ارضائها واتحافها بثمرات الكرز ..

ولكن علينا أن نتساءل أولا : هل بقية سلوكه تؤيد هذا الفرض ؟

والجواب : نعم .. فمما يدل على أن فكرة احضار الكرز لأمه مجرد تدبير طرأ على ذهنه فيما بعد ، انه قال فى البداية :

ــ كنت أريد الذهاب الى « تولن » ..

ولما دققت عليه فى ذكر السبب ، قال :

ــ لانه هناك توجد غابات ..

ولم يذكر أشجار الكرز الا بعد ذلك .. ولو أنك رجعت معى الى تفاصيل هذا الجزء من الحديث بينى وبين الفتى لرأيت أننى حاولت أكثر من مرة أن أعرف منه متى بالضبط استقر رأيه على الذهاب الى « تولن » . وأن الحوار بيننا كان على النحو التالى :

ــ هل طرأت لك فكرة الذهاب الى « تولن » وأنت تأكل ؟

ــ طرأت بعد أن انتهيت من الاكل ..

ــ ماذا قلت لنفسك بالضبط ؟

ــ قلت لنفسى سأذهب الى جهة « تولن » ..

ــ ولكن لماذا الى جهة « تولن » بالذات ؟

ــ لأن هناك غابات .. وأنا كنت أريد الذهاب الى الغابات

ولم يذكر على لسانه موضوع أشجار الكرز الا عندما سألته :

ــ ولكن توجد غابات فى جهــة أخرى غير « تولن » ؟

ــ توجد .. ولكنى كنت انوى أن أحضر من هناك شيئا من ثمار الكرز لأجل أمى ..

ــ ولمــاذا تحضر هذه الثمار من « تولن » بالذات ؟

ــ لأن ابى يملك هناك أشجارا للكرز ..

والآن فلنحاول أن نتبين بنزاهة ، هل ذكر لى الحقيقة أم لا . ومن الجائز أن يكون صــادقا ، لأن المطــابقة بين روايته وروايتها للوقائع تامة .. وهى غير متواطئة معه قطعا . ثم قد يضيف الى شواهد الصــدق لدى الفتى اعترافه من تلقاء نفسه باقدامه على سرقة بعض ثمــار الكرز من أشجار أخرى غير التى يملكها أبوه . ولا شك أن فتى فى ذكائه يدرك أن الاقرار بالاقــدام على السرقة قد يسىء كثيرا الى تقريرنا لمصيره ، ونحن نبحث احتمال ارساله الى الاصلاحية

ويضاف الى شواهد الصــدق أيضــا ، ما ذكره عن استعداده بحقيبة صغيرةالمفروض أنه سيستخدمها لجلب ثمار الكرز ، وأنه لم يستول على نقــود أكثــر ممــا يلزم لمصروفات الرحلة المــادية . مع أن الحصــول على مزيد من النقود كان ميســورا له بكل ســهولة ، وحتى المبلغ المحدود الذى استولى عليه لم ينفق شيئا منه على ملذاته أو طعامه .. بل ادخر ما كان معه هناك لمصروفات العودة

ويضــاف الى هذا ما ذكره من اســتيلاء الخــوف على نفســه عندما اكتشف أنه ليس فى وسعه تحقيق غايته لأن

ثمار الكرز لم تصل بعد الى درجة النضج

ولا ينبغى أن نسقط من الحساب ذلك التاثير الحسن الذى أحدثه الفتى فى نفسى لاول وهلة عند دخوله على ..

هذا كله خليق ان يوقع فى نفوسنا أن الفتى صادق ، وان احتمال كذبه فى روايته فى حكم المستحيل ..

ولكن يجب أن ننظر ايضا الى الموضوع من زاوية اخرى ، فليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الفتى كان مشغول الفؤاد بمحبة أمه المفرطة فى ذلك الموقف . بل الحقيقة ـ وباعترافه هو أيضا ـ أنه كان عندئذ ساخطا عليها منذ الليلة السابقة ، لانها فى اعتقاده تحيزت لاخته وفضلتها عليه ، فأعطتها نقودا تشترى بها حذاء جديدا .. وهو يرى انه أولى منها واحوج الى شراء حذاء جديد ..

بل انه كان بعد هذا السخط ، والى ساعة هربه أو قبلها بقليل ، يشعر بحزازة نحوها .. ظهرت آثارهاوهو يحمل اليها مطالبها فى محل الغسيل . وذلك بسبب مسألة الطوابع المسروقة من صديقه

ورب قائل ان الغلام طيب القلب ، وانه لطيبة قلبه سرعان ما هدأت ثورة نفسه . وساعد الساندوتش على تهدئته باخماد جذوة الجوع . وعلى اثر ذلك ندم على مغاضبته لامه المسكينة التى تعمل من اجله طول النهار ، وفكر فى استرضائها .. فجاءت فكرة احضار ثمار الكرز تحقيقا لهذا الاسترضاء

وهو فرض لا بأس به لولا وجود شواهد تناقضه . وأهم هذه الشواهد وأولها فى ترتيب الحدوث انه استولى

على ــ أو بمعنى أدق سرق ــ نقودا مملوكة لأمه فضـــلا عن نقود أخته . فلو صح أن جلب ثمار الكرز لاسترضاء امه هو الدافع الوحيد الذى كانمستوليا عليه لكانالاولى به ان يشترى لها شيئا من تلك الثمار من نقوده الخاصة التى اعترف انه يدخرها فى حصالته ، ولم يرد انفاقها فى مشروع الرحلة الى « تولن » ..

بل وهناك شاهد آخر : فهو اذ لم يجد ثمار اشـــجار أبيه ناضـــجة ، كان جـــديرا الا يعـــود الى أمه التى يريد بصـــــــورة قوية اهداء الكرز اليها وهو خـــال الوفاض ، ولاشترى لها بما تبقى معه من النقود عند عودته للمدينة شيئا من الكرز يغطى به موقفه بعد الغيبة الطويلة القلقة

بلّ وأكثر من هذا .. لقد اســـتباح لنفسه أن يسرق ويأكل ثمار الكرز من اشـــجار الغير ، فكان فى وسعه بكل سهولة أن يملأ لها الحقيبة التى معه بثمار تلك الاشجار عينها ..

فهل نستنتج من ذلك أن الفتى كذب علينـــا رغم كل شئ ؟

ربما كان من الظلم له أن نرميه بهذا الحكم الشديد ، وأن يكون الدافع له الى التفكير فى الكرز ، وبالتالىالذهاب الى « تولن » .. هو مجرد أن نفسه اشتهت الحلوى ..

وأعنى بهذا أن الغلام بعـــد أن أكل الخبز بالجبن فكر فى شىء حلو يتناوله .. وأقول فكر . وقد لا يكون التفكير فى هذه الحالة واضحا ، وانما هو مجرد رغبة أو أمنية أو اشتهاء . وفى هـــذه اللحظة وقعت عينه على نوى الكرز فوق حافة النافذة ، وأراد أن يبرر لنفسه الحصول على الكرز فاخفى رغبته فى صـــورة ملتـــوية ذات مظهر طيب

جميل ، ألا وهى احضار ثمار الكرز ارضاء لأمه ..

وعلينا فى هذه الحالة أن نسأل أنفسنا :

ـ هل كان اشتهاء الفتى للكرز من القوة بحيث يحمله على السرقة ؟

وهو سؤال تحوط الاجابة عنه صعوبات كثيرة ، اذا كان الجواب هو نعم .. فنحن نعلم أن الفتى تحمل متاعب ينفد منها الصبر ، أولها اضطراره للانتظار ساعتين فى المحطة ريثما يحل موعد القطار الذاهب الى « تولن » .. واى رغبة غير عنيفة وغير مصحوبة بالاصرار الشديد لا تستطيع أن تثبت أمام ملل الانتظار الطويل لدى غلام فى سنه . وتأتى بعد هذا مشاق الرحلة نفسها .. فكان من السهل عليه قطعا أن يحقق شهوته الكرز بطريقة أقل عناء . ونحن نعلم أن الشهوة تسلك الطريق الاقصر الذى يحتاج الى جهد أقل .. ففى وسعه مثلا أن يشترى بشىء من النقود التى كانت معه أى كمية يشاء من الكرز ، أو انواعا أخرى من الفاكهة أو الحلوى .. بل كان فى وسعه منذ البداية ان يحصل على مبلغ اكبر يشبع به من شهواته ما يشاء بدلا مما عاناه فعلا فى المعيشة زهاء ثلاثة أيام على ثمار الكرز البرى ، وعلى ثلاثة ساندوتشات جافة

ونحن نعلم أن هناك سرقات يكون الدافع اليها الجوع أو اشتهاء نوع معين من الطعام اشتهاء جامحا .. ولكن الدلائل توحى بأننا فى هذه المرة لسنا أمام حالة من هذا النوع ..

وبالتالى ليس من السهل ان نجزم بأن الفتى كذب علينا .. وليس سهلا من جهة اخرى أن نقطع بأنه لم يقل الا الحق .. ولابد من تحديد موقفنا بحيث نوفق بين هذين الحكمين

والاولى أن نقول ان الفتى ــ وان لم يخبرنا الحقيقة بحذافيرها ــ الا أنه كان يعتقد أن ما ذكره لنا هو الحقيقة بحذافيرها

وهو كما ترى موقف متأرجح يزيد من حيرتنا بدلا من أن يقضي عليها .. ولا سيما اذا تذكرنا عنصرا هاما في القضية ــ أعترف اني تعاميت عنه مؤقتا وأنا متعمد ــ وهو : لماذا أنفق الفتى النقود التى استولى عليها من حصالة أخته ، ولم ينفق شيئا من ماله الخاص أو مال أمه او مال ابيه .. مع انه كان في استطاعته أن يستولى من تلك الاموال على ما يشاء ؟

ولحل هذا اللغز يجب أن نوجه عنايتنا الى ناحية اخرى من قصة الفتى .. فنحن نذكر أن الفتى عندما ذهب الى أمه ، وهى في محل الغسيل حاملا اليها الصودا والصابون ، سمع منها ملاحظة لم تبعث السرور في نفسه عن الطوابع التى فقدت من صديقه . وان الفتى غضب لالقاء التهمة أو الشبهة عليه ، وكان تعليقه على ذلك انه قال لنفسه عن أمه :

ــ انها متعبة للغاية ..

وهذا مرادف لقوله أنها لا تحبه .. وهو تمهيد كاف كي يضمر في نفسه طلب الراحة من مضايقاتها بالبعد عنها

والان فلنحاول ان نتعقب فكرة هذه الرغبة بحرص ودقة .. ولنذكر أنه في الليلة السابقة سخط على امه أيضا بسبب موضوع الحذاء الجديد ، وانها تمارى في جدية احتياجه للحذاء .. ومجموع المناسبتين يدعوه طبعا الى عمل شيء لتغيير الموقف السخيف الذي يجد

نفسه فيه .. ولا يكون ذلك الا بالهرب ، وبالهرب الى مكان يبلى فيه ما تبقى من رمق فى حذائه ..

بيد أن هذا لا يكفى لتفسير ما أقدم عليه من السرقة عموما .. ولا لاستيلائه على نقود أخته وأمه دون أبيه . ولا يفسر أيضا انه اختار الذهاب الى « تولن » بالذات . ولا يفسر تبريره لهذا الاختيار برغبته فى احضار الكرز لأمه

قد يكون من الجائز لنا ان نعتقد ان الفتى لم يكن شاعرا بالغرض الحقيقى من هذا المسلك الذى أقدم عليه .. واذا لم يكن الفتى عالما بحقيقة أغراضه ودوافعه ، فمعنى ذلك أنها بعيدة عن دائرة شعوره .. وان كانت طبعا موجودة فى نفسه . فيتحتم فى هذه الحالة أنها كامنة فى اللاشعور

فان صح ذلك ، فمن العبث أن نحاول الوصول الى هذه الدوافع والاغراض عن طريق توجيه الاسئلة الى الفتى .. فهو لا يستطيع أن يعلمنا بما لا يعلمه هو شخصيا . وعلينا نحن أن ننقب عن بغيتنا داخل دائرة لاشعوره

ويبدو أن التفسير التام للسلوك غير الاجتماعى عند هذا الفتى رهن بالتوفيق فى كشف الصراع الكائن داخل اللاشعور . ويجب قبل اتخاذ هذه الخطوة أن نحيط بصورة اجمالية بالعمليات النفسية المتعلقة باللاشعور عموما ..

وأول شىء ينبغى ان نضعه نصب اعيننا ، الا نعتبر اللاشعور فرضا وهميا نستغله فى حل المشكلة النفسية .. بل يجب أن نعتبره شيئا له وجوده الفعلى فى النفس

.. شأنه فى ذلك شأن الشعور تماما . وبالتالى فله كيانه الخاص ووظائفه الخاصة

ولكن ليس معنى تمايز اللاشعور من الشعور ، اننا نعتبرهما مثل غرفتين فى مسكن واحد .. وكل منهما مستقلة عن الاخرى . وانما المقصود حقا أن العمليات النفسية تنقسم الى نوعين ، فما يعرفه الشخص أو يشعر به فهو خاص بالشعور .. ومالا يعرفه أولا يشعر به فهو خاص باللاشعور

واللاشعور هو المخزن الاساسى لرغباتنا وميولنا .. فما نشعر به من ميل نحو شخص ما لابد أن يصدر عن اللاشعور قبل أن يدخل فى دائرة الشعور فنحس به ونعرفه ..

ومن ملاحظة فرويد لانفعال الطفل الحديث الولادة ، وطريقة سلوكه لتحقيق حاجاته العضوية واستجابته للمؤثرات الخارجية ، استخلص أن العمليات اللاشعورية فطرية ولادية ، يولد بها الانسان ..

وفى هذه المرحلة الاولى من الطفولة ، تكون جميع الاستجابات تقريبا لاشعورية . ويظل الوليد فترة غير قصيرة واستجاباته الشعورية جزء ضئيل جدا من حياته النفسية . أما الغالب عليه فهو التصرفات اللاشعورية ..

وبالتدريج تزداد لدى الطفل مع النمو القدرة على تمييز احساساته الجسدية . وبذلك يجوز لنا أن نعتقد أن الشعور يخرج أو ينمو من اللاشعور ، ويصدر عنه كما تصدر الفروع عن الجذع ، والزهرة عن الساق فى النبات

ومن وظائف اللاشعور أيضا ، ميل الطفل الى المحاكاة

.. فاذا أضفنا الى ذلك أن حب الطفل لوالديه ينمو معه دون أن يشعر ، أدركنا السبب فى أعجاب الطفل بصفات معينة وتصرفات معينة لدى والديه . وشيئا فشيئا يمتص بعضا من هذه التصرفات ، وهذا هو ما نطلق عليه تعبير أن الطفل تقمص شخصية والديه أو أحدهما . والتقليد أو المحاكاة انما هو القيام بما يقوم به عادة من تقمص شخصياتهم ..

ان الطفلة الصغيرة تعامل دميتها بنفس الطريقة التى ترى امها تعامل بها شقيقها أو أختها . وقد تمثل الطفلة أيضا دور ربة البيت ، وهى تلهو بالآنية وأدوات المطبخ . وفى الحالتين نعتبر أن الفتاة الصغيرة قد تقمصت شخصية أمها ..

والصبى قد يضع على رأسه قبعة أبيه ، ويتمشى فى البيت ممسكا بقطعة خشب صغيرة ان لم تصل يده الى احدى العصى الكبيرة . وفى بعض الاحيان يرفض الصبى أن يأوى الى فراشه ، لا لشىء الا لأن والده لم يذهب الى حجرته بعد . وفى هاتين الحالتين نعتبر أن الصبى قد تقمص شخصية أبيه

واذا راقبنا جميع الاطفال باهتمام ، لرأينا لديهم فى معظم الاحوال وفى معظم الاوقات صورا مختلفة للتقمص

ويجب الا نتوهم ان الاطفال يتقمصون شخصيات الوالدين فحسب ، بل أنهم لا يتقمصون شخصيات الذين يخالطونهم وكفى .. بل يتقمصون أيضا شخصيات الحيوانات ـ من منزلية وغير منزلية ـ والشخصيات التى يشاهدونها فى السينما والتليفزيون .. وحتى الاشياء الجامدة التى لا حياة فيها يتقمصون شخصياتها .. وعلى الخصوص الدمى واللعب !

ولعلك الآن تتساءل : وما الداعى الى الاهتمام فى هذا الوقت بالذات بشرح ميل جميع الاطفال لتقمص الشخصيات ؟

والحقيقة أن فهم هذه الظاهرة الهامة ضرورى للاهتداء الى الاسلوب الذى اتبعه الفتى الذى نبحث حالته فى حل النزاع بينه وبين أمه ..

***

والآن لنرجع الى الوراء قليلا .. الى معلوماتنا عن احوال أسرة الفتى ..

لقد كان مما عرفناه من الأم ومن الفتى ، أن الاب من عادته اذا نجم شقاق أو شحناء بينه وبين الأم فانه يغادر البيت ويظل بعيدا عنه ساعات طويلة ..

وهكذا يكشف لنا عن المفتاح الرئيسى لسلوك الابن مع هذه الام بعينها .. فان الفتى يتقمص شخصية الاب ، ويقوم بمثل ما يقوم به الاب . وبهذا يتخلص من ذلك الموقف بينه وبين نفس تلك السيدة . وكان الاب قد فعل مثل ذلك فى عطلة الاسبوع السابقة مباشرة .. وهذا فيه اغراء قوى للابن

ويجب ألا نخرج من حسابنا أن هذا السلوك التقمصى لشخصية الاب ، أتاح للفتى أن ينتقم من أمه بما سببه لها من قلق . وقد خبر فى عطلة الاسبوع السابق مقدار ما أصيبت به أمه من النكد لغيبة ابيه ومبيته فى الخارج على اثر مغادرته للبيت غاضبا ..

وربما تذكرت أن الفتى قرأ فى الصحيفة ، وهو يحملها الى أمه فى محل الغسيل اخبار الرجل الذى ضل فى الجبال

وفقـد أثره .. وكيف ان ذلك اقلق خواطر ذويه ونكد عيشـهم

ومما يتسق مع الرغبة الكامنة فى الانتقام من أمه ومن أخته ، انه استولى على نقودهما .. وأما عدم مساسه بنقود أبيه فيتسق تماما مع فكرة تقمصه لشخصية أبيه

وبهذه السرقة شفى حقدا آخر .. أو أصاب عصفورا اضافيا علاوة على العصافير السابقة التى أصابها بحجر واحد . أعنى أنه سوى حسـابه مع أخته .. فسلبها النقود التى أخذتها من أمها فى الليلة السابقة بقصد شراء حذاء جديد ، ورآها تضعها فى حصالتها .. وفقدانها لهذه النقود يترتب عليه تضييع فرصة اقتناء حذاءجديد لها قبل أن يحصل هو على حذائه

ولعلك لا تمانع فى قبول هذه النتائج التى رتبتها على فرض أن الفتى كان متقمصا شخصية أبيه . ولكن لعلك أيضا لا تدرك لمـاذا لم يصارحنى الفتى بذلك ، ولا لمـاذا زعم أن غايته هى البر بأمه واحضار هدية من ثمار الكرز لها .. بدلا من الاعتراف برغبته فى ازعاجها بعد أن اعترف فعلا بأنه كان ساخطا عليها ..

وهى اعتراضات وجيهة .. فالتقمص لشخصية الاب اذا فسر الابتعـاد عن البيت مدة طـويلة ، فانه لا يفسر السرقة .. كما أن العملية التى ذكرتهـا لك تبـدو لأول وهلة أشد تعقيدا مما تحتمله طاقة فتى فى مثـل هـذه السن الصغيرة

وقـد يكون الاوفق ألا نبحث عن حل اللغز لدى دافع واحد .. وقدرنا أنه قد تكون لدى الفتى جمـلة دوافع هى التى تعين تصرفاته وتوجهها وتصوغها

وتوضيحا لهذه الفكرة ، نترك مؤقتا بطلنا الفتى ..

ونفترض وجود طفل صغير بالقرب من منضدة فوقها صندوق حلوى . وهذا الطفل لم يذكر له أحد أنه لا يجوز له أن يمد يده ويأخذ الحلوى بغير اذن .. ففى هذه الحالة سيستولى الطفل على ما يشاء من الحلوى ، ويتلذذ بتناولها من غير أن يحدث لديه صراع بين النواهى وبين رغبته واشتهائه لتلك الحلوى .. فالاشتهاء فى هذا الموقف لا تقابله مقاومة

ولنفترض أن طفلا آخر حذر من أكل الحلوى بغير اذن .. ولكنه نسى هذا التحذير عندما رأى الحلوى . وكل ما هنالك انه سيشعر بعدم ارتياح غامض ، يجعله يتردد قليلا .. ثم لا يلبث أن يمد يده فيأخذ الحلوى ويأكلها دون ندم . وفى هذه الحالة أيضا لا يحدث صراع لدى الطفل بالمعنى الصحيح ، لأن رغبته لم تجد الا مقاومة طفيفة

ولكن لنفرض أن طفلا ثالثا يدرك تمام الادراك أن أكل الحلوى بغير اذن ممنوع .. ولم ينس هذا التحذير كما نسيه الطفل السابق ، الا أنه يحب الحلوى حبا جارفا فيمد يده اليها رغم كل شىء ويأكلها . ولكنه يشعر بالندم ووخز الضمير ، لأنه يشعر بالذنب الذى اقترفه .. لأن رغبته أو اشتهاءه تغلبت على عامل الامتناع

ومن الجائز ان هذا الطفل بعينه تتغلب عليه — رغم شهوته القوية للحلوى — عوامل التربية الشديدة ، فلا يمد يده اليها .. وتنزح هذه الرغبة الى اللاشعور ، لأن الاحساس بعدم لياقتها سيمنع ظهورها فى دائرة الشعور ..

وما حدث بالنسبة لصندوق الحلوى ، يمكن أن يقال

بصفة عامة عن موقف أى شخص بين رغباته القوية وبين المبادىء الاجتماعيةوالدينية والاخلاقية .. فهذهالمبادىء هى التى تبذل طاقة قوية لاقصاء الرغبات غير اللائقة عن مجال الشعور ، وعندئذ نقول ان هذه المبادىء « تكبت » الرغبات فى اللاشعور ..

وهناك قوتان هامتان لهما نشـــاط جوهرى فى عملية الكبت ..

القوة الاولى هى اللاشعور الذى غايته الحصـــول على الاشباع الكامل للرغبة الموجودة فيه ..

والقوة الثانية هى الشعور الذى يصر على الحيـــلولة دون هذا الاشباع ..

ومعنى هذا بعبـــارة أخرى أن هنـــاك قوة كابتة وقوة مكبوتة .. ومن النشـــاط المزدوج لهـــاتين القوتين ينتج الصراع .. وهو صراع ليس فى الامكان التنبؤ بما يسفر عنه ، فقـــد يكون الشىء المكبوت قـــويا بحيث يتغلب على مقاومة القوة الكابتة . وقد تكون القوة الكابتة أقوى من الشىء المكبوت مهما بلغت درجة شدته

والمشكلة الخطيرة ليست فى حالة تغلب احدى القوتين على الاخرى بصورة حاسمة ، وتسيطر عليها .. بـــل المشكلة الحقيقية تحدث عندما لا تتوفر لاى من القوتين الشدة الكافية للسيطرة على القوة الاخرى . ويظـــل الموقف مائعا مضطربا ، لا يسمح بأى نوع من الاستقرار للشخص .. ففى هذه الحالة لابد له ان ينهى الصراع الى نتيجة كى يستقر على حال من القلق الذى يعانيه ..

ونحن جميعا نصادف منغصات فى أشغالنا .. وقـــد يريحنا ان نخلص أنفسنا من آثار هـــذه المنغصـــات ،

فنصب جام سخطنا على أى شخص حيثما اتفق .. الا ان قواعد التهذيب التى ربينا عليها تمنعنا من الاقــدام على ذلك ، فنجد انفسنا موزعين بين الاستســلام لحدة الطبع وبين الاخلاد للصمت .. وكلاهما حل واضح معناه سيطرة احدى القوتين على الاخرى . ولـــكن فى بعض الاحيان لا يحدث هذا او ذاك ، بل يصاب المرء مثلا بنوبة شديدة من السعال أو من الفواق !

فما معنى هذه النوبة ؟ ..

انها مجرد منفس للتخلص من الحالة المائعة ، فالرغبة فى التوبيخ او الصياح لها ادوات تتحقق بها وهى عضلات الكلام والصوت عموما . والسعال يستخدم هذه الادوات والعضلات بعينها ، وبذلك تكون نوبة السعال تنفيسا عما يراود هذه العضلات من اثارة قوية للعمل تقابلهـــا قوة مكافئة لها تماما من الكبت الصادر عن حسن التربية او الخوف من العواقب ..

مثل هذا المسلك غير المباشر ، أو الملتوى ، هو الذى يسمى فى التحليل باسم العرض .. أى أنه عرض مثـــل اعراض الامراض الجسمية المعروفة ، يـــدل على صراع متكافىء بين شىء مكبوت وقوة كابتة .. كما تدل درجة الحرارة المرتفعـــة على وجود صراع بين جـــراثيم المرض وكرات الدم البيضاء

ومثل هذه الاعراض هى التى تدلنا على وجود امراض نفسية طارئة أو آفات نفسية ملازمة .. ولكنها تظهـــر أيضا لدى الاصحاء من الناس حينما يجدون أنفسهم فى مواقف صراع عادية . وقد درس «فرويد» بعض هذه الاعراض التى تحدث لنا جميعا فى حياتنا اليومية ،والتى

نعبر عنها عادة بأنها هفوات عفوية او فلتات لسان.. وهى فى الواقع اشياء ذات دلالة محددة عميقة فى التحليل النفسى

وبعد أن احطنا بأهمية الصراع ، وبالطرق الثلاث التى ينتهى اليها ، والى أهمية الطريقة الثالثة او الحل الوسط المسماة « بالعرض » ، وكيف انه حيلة نفسية للتوفيق بين قوتين متكافئتين متصارعتين ، نعود الآن الى بطلنا الفتى لنحاول على هذا الضوء حل لغز سلوكه المحير، ان كان ذلك ممكنا ..

ونسأل انفسنا أولا :

ــ هل نجد عند الفتى نزعتين متعارضتين يلزم للتوفيق بينهما حل وسط بالطريقة التى تسمى بالعرض لانهما متكافئتان فى شدتهما ؟

ولا ريب فى أن الفتى كان ساخطا على أمه قبل أن يقدم على الهرب .. وفى وسعنا أن نفترض الآن أن رغبته فى الهرب ، أو رغبته فى أن يصنع مثلما صنعه أبوه ، هى احد الدافعين الكبيرين ..

وهذا الدافع كان من المحتمل ان يظل فى مجال الشعور ، كما كان من المحتمل أيضا أن تتصدى له عوامل كبت من تربيته . وهذا الاحتمال الاخير هو الذى حدث بالفعل للفتى ، فزجت رغبة الفرار من البيت فى اللاشعور.. وهذا ما حمله على البقاء فى المنزل بعد العودة اليه من محل الغسيل ، ويمكننا تلخيص هذه المقاومة الكابتة فى قاعدة اخلاقية من قبيل « الفتى المهذب لا يهرب من البيت » أو « اذا هربت ستلقى جزاء صارما »

ولو كان هذا المانع الاخلاقى قويا بدرجة كافية، لوقف

الامر عند هذا الحد وبقيت الرغبة فى الهرب او محاكاة الاب مدفونة فى اللاشعور .. ولكن الذى حدث فعـــلا أن الرغبة فى الهرب تحققت بعد ذلك ، فما معنى هذا ؟

معناه أن رغبة الفتى فى الانتقام من أمه أو معاقبتهـا على ايلامها اياه ومضايقاتها قد بلغت أقصاها .. ولـكن يقابل هذه الرغبة الحب الفطرى للام . ولو أن أحدهما تغلب على الآخر بوضوح لشعر الفتى بحقيقة دوافعه ، وأمكنه أن يصارحنى بها .. ولكن احد الدافعين لم يستطع السيطرة على الدافع الآخر

***

ونستطيع أن نتصور ان هذا الصراع المتكافىء بـــين الدافعين بلغ الذروة فى الوقت الذى قضاه الفتى متكئـا بمرفقه الى حافة النافذة وهو يأكل الساندوتش . ولم يقف الصراع عند حد الا عندما وقع نظره على نوى الكرز فوق حافة النافذة ، فشعر فى الحال برغبته فى الذهاب الى «تولن» ، لارتباط ثمار الكرز بذلك المكان فى ذهنه ..

اننا نعرف الآن انه كان راغبا فى الانتقام ، وأن تقمصه شخصية أبيه يتيح له أن يقلده فى الطريقة التى يتبعهـا الاب لازعاج الام وتنغيصها . وفى الوقت نفسه لابد من مظهر برىء أو طيب يخفى به هذه الرغبة القبيحـة عن رقابة الشعور الاخلاقية الكابتة ، فغطى رغبة الانتقـام بقناع من الطيبة والبر بالام .. وهو قناع تجيزه الاخلاق وترضى عنه ، وبهذا يكون السلوك المنحرف من الفتى «عرضا» يوفق بين القوتين المتصارعتين .. وهما حب الام والوازع الاخلاقى من جهة ، والرغبة فى معاقبـــة الام وتنغيصها من جهة اخرى

وليس من المأمون أن نندفع فنقـــرر ان كل حالة

انحراف يمكن ان تفسر على هذا النحو .. ولكن مما لاشك فيه أن تحليل هذه الحالة يضيف الكثير الى معرفتنا بأسرار الانحراف العادية التى تبدو على كثيرين من الغلمان والشبان الصغار ، ويبدو لنا أنها مجهولة السبب غير مفهومة .. ولا سيما لان الشباب المنحرف فى هذه الحالة قد يكون فيما عداها سويا مهذبا

وهذا يعلمنا أيضا الا ننزلق وراء المظاهر السطحية فنسمى الولد لصا ومتشردا .. مكتفين بالوقائع الظاهرية، وبسؤال الوالدين . بل يجب البحث والتدقيق كى نصل الى البواعث الحقيقية التى يجهلها الشاب نفسه كما يجهلها والداه .. ولا نعتقد — بجهالة — أن الفتى ملتو خبيث يصر على كتمان ما فى نفسه ، مع أن المسكين ليس أكثر منا علما بما نرهقه بالسؤال عنه ونصر على التصريح به لنا ..

وهذه الحالة تبين الاهمية القصوى للثقافة النفسية ، ولدراية الوالدين والمربين عامة بمبادىء التحليل النفسى ووسائله الاولية .. حتى بالنسبة للاطفال الاصحاء نفسيا وجسديا

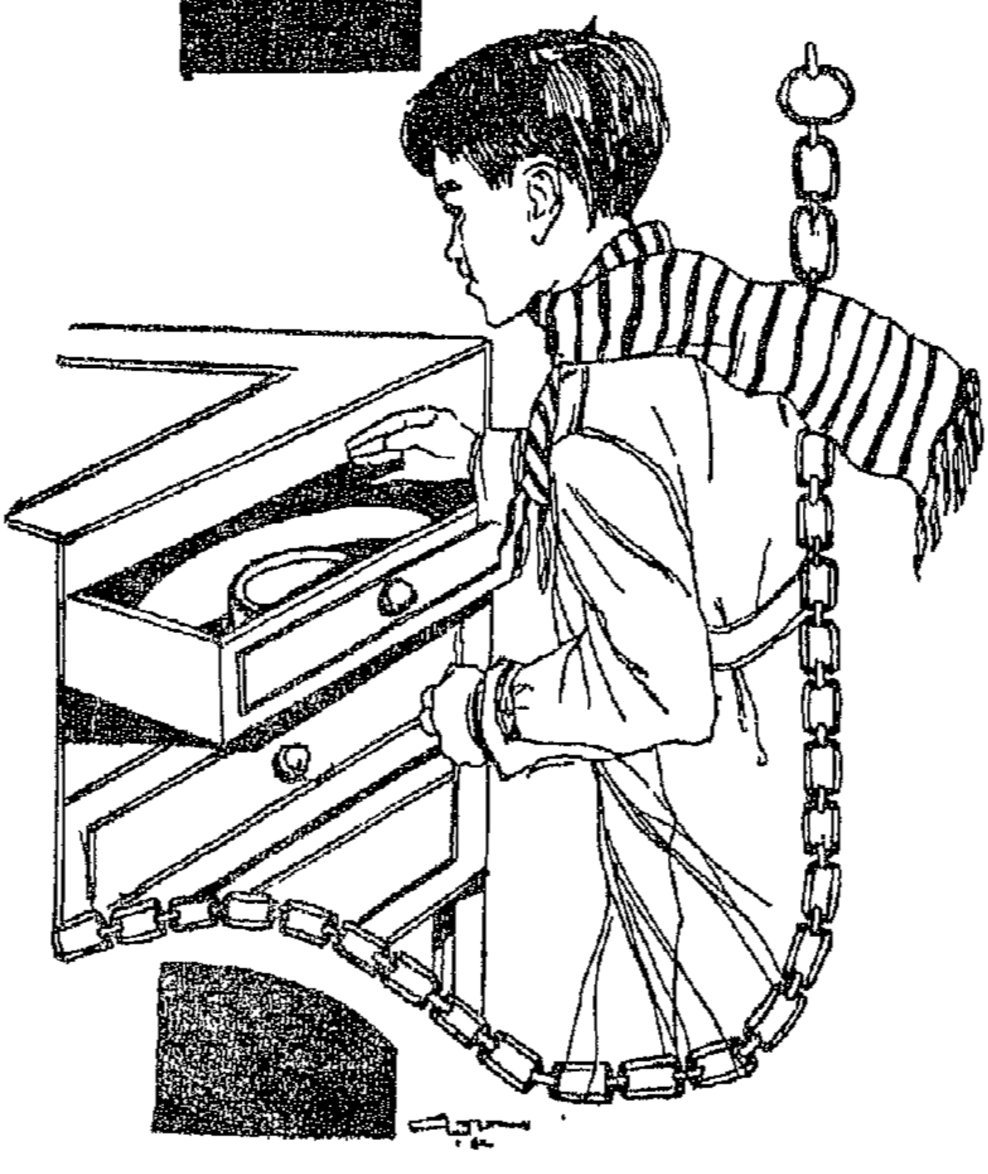
أما من يتعرضون لدراسة المشكلات ، سواء كانوا مربين للمنحرفين أو مشرفين اجتماعيين لغير المنحرفين .. فهؤلاء يجب أن يدرسوا التحليل النفسى دراسة جيدة، لانه لا شباب بغير أزمات . بل ان معنى فترة الشباب أنها فترة يقظة الدوافع القوية فى النفس .. ومن شأن هذه اليقظة ان تصطدم بالمبادىء الاجتماعية والاخلاقية . وليست الازمات سوى «المعارك» التى تدور رحاها بين الرغبات والموانع ..

فلا غنى لكل من يدخل الشبان فى مجال مسئولياتهم عن دراسة التحليل النفسى دراسة دقيقة ، لانهم بدونه لا يصلحون لمعالجة أخص خصائص الشباب ـ مهما بلغوا من الصحة النفسية ـ الا وهى الازمات !



الفصل الثاني

الصدمات النفسية



الصدمة النفسية

ويهمنا الآن أن نعرف هل من المستطاع ان نستخلص قاعدة عامة تنفعنا من دراسة الحالة السابقة ؟ ..

اذا قررنا أن كل سلوك هو نتيجة لقوى نفسية ،يمكن ان تكون موضوعا للتحليل النفسى ، فلابد فى هذه الحالة أن نعتبر السلوك غير الاجتماعى نتيجة أيضـــــا لنفس هذه القوى ، شأنه فى ذلك شأن السلوك الاجتماعى ..

وبعبارة أخرى يمكننا أن نقـــــول أن السلوك غـــير الاجتماعى دليل على ان العمليات النفسية من شعورية ولا شعورية ليست فى حالة وفاق ..

وهذه القاعدة تساعدنا على تحديد معنى الانحراف ـ من ناحية التحليل النفسى على الاقل ـ كما تهدينا الى حل لهذه المشكلة ..

فسرقة النقود التى اقدم عليها الفتى فى الحالة السابقة، وهربه من البيت ، انما هما مظهران للانحراف ناتجان عن قوى نفسية لم تستطع الحصول على اشباع بصورة مقبولة اجتماعيا .. فاضطر الفتى الى أن يسلك سلوكا لا يقبله المجتمع .. ولذا وصفنا هذا السلوك بأنه غير اجتماعى أو سلوك منحرف

والتشرد والسرقة وما اليهما ، انمــــــا هى اعراض للانحراف .. شأنها فى ذلك شأن ارتفاع درجة الحرارة

والآلام والاورام التى تعتبر اعراضا للامراض الدفينة . وبطبيعة الحال اذا اكتفى الطبيب بعلاج الاعراض الظاهرية كان مقصرا ، لان فاعلية علاجه لا تمتد طبعا الى المرض نفسه ..

وهكذا أيضا يمكن أن يكون موقفنا من أعادة تربية الطفل المنحرف ، فمن الواجب عند قيامنا باعادة التربية أن نعنى بازالة أسباب الانحراف أكثر من اهتمامنا بأعراض الانحراف ..

ورب قائل يقول : ان هذا أمر بديهى .. وانه لكذلك فعلا ، الا أنه للاسف كثيرا ما يغيب عن الاذهان شأن معظم البديهيات . وقد جربت مرارا كثيرة ، عواقب الخلط أو اللبس بين أعراض الانحراف والمشكلة الجوهرية التى تكمن وراء مظاهر الانحراف ..

ومن أكثر الناس خلطا فى هذا الامر الوالدان ، لانهما بوسائل الاصلاح والتأديب والعقاب ينصرفان غالبا الى كبت السلوك غير الاجتماعي الذى هو مظهر الانحراف أو العرض .. ويخيل اليهما أن اختفاء هذا السلوك المستهجن معناه ان المشكلة قد انتهت

والحقيقة ان اختفاء العرض ليس دليلا على زوال المرض ، فقد يتخذ المرض لنفسه اعراضا جديدة مختلفة عن الاولى . وعندما يحال بين احدى العمليات النفسية وبين الظهور او التحقق او الاشباع ، تظل هذه الطاقة النفسية كامنة تتربص الفرص للتنفيس عن نفسها من سبيل لا تعترضه الحوائل .. وبالتالى يظهر عرض جديد للانحراف نظنه انحرافا جديدا ، وهو فى الواقع صورة جديدة أو لون جديد أو قناع جديد للانحراف القديم ..

واذا فهمنا هذه المسألة جيدا استطعنا ان نصحح وهما شائعا يعشش فى أذهاننا .. فعندما كنت اسأل الوالدين عن تفسيرهم لسلوك ابنائهم سلوكا غير اجتماعى ، كثيرا ما كنت اسمعهم يعزون هذا السلوك الى عشراء السوء والتسكع فى الطرقات أوقاتا طويلة ، واللعب فى الحوارى والازقة .. واسمع كلاما كثيرا عن المعاشرات الرديئة

وهذا الكلام قد يكون صحيحا — فى حد ذاته — ولكنه لا يكفى لتفسير ما نسأل عنه ، لان ألوفا مؤلفة من أطفال وشبان آخرين نشأوا فى مثل هذه الظروف المستهجنة بالذات .. ومع ذلك لم يظهر على سلوكهم الانحراف ، فلابد أن يكون فى الطفل المنحرف نفسه شىء كامن تقوم الظروف غير المناسبة باظهاره على شكل انحراف .. فاذا كان هذا الشىء الكامن المجهول هو ما نسميه بالاستعداد للانحراف ، فهناك اذن عنصر نفسى فى الطفل لولا وجوده لما كان للبيئة السيئة أى تأثير عليه ..

ونحن نرجح ان هذا الاستعداد للانحراف وراثى، ولكن التحليل النفسى بين بوضوح ان الوراثة لا تصلح لتفسير كل شىء ، وان الاحداث المبكرة فى الطفولة الاولى لها أهمية كبرى فى تحديد شكل واتجاه النمو الذى يعقب ذلك..

والاستعداد للانحراف لايوجد مكتملا عند الولادة ، بل تحدد قوته ومداه التجارب الاولى التى تصبها البيئة على الوليد .. ولذا ليس من الحتم ان كل طفل يولد — ولديه استعداد للانحراف — مقضى عليه ان يغدو فتى منحرفا ..

وبعد مرحلة الطفولة الاولى التى لها الاهمية الكبرى، يأتى تأثير اقل أهمية لعشراء السوء ورفاق الازقة وماالى ذلك .. فهذه الامور لا يمكن اعتبارها أسبابا أصلية

للانحراف ، بل الاصح انها تثير الانحراف اما بصـــورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة

والمنحرف يعرض نفسه لانواع من العقوبة ؛ منهـــا النبذ والاســتهجان .. ومع ذلك يصر عـــلى سـلوكه المنحرف ، لانه كما فهمنا مدفوع اليه .. ولكن يهمنـا الآن أن نركز انتباهنا على مناهضة الســلوك المنحرف لمطالب المجتمع ، ومناقضته لعالم الواقع

وهذه المناقضة لعالم الواقع لا تبدو أمرا عجيبا فى نظر العارف بالتحليل النفسى ، لانه يدرك ان المصاب بمرض نفسى عموما يصنع عالما خاصا به يعيش فيه .. فلاغرابة أن يكون للمنحرف أيضا واقعه الخاص الى حد ما .. وهذا يفسر اشياء كثيرة تتعلق بالانحراف ، ويخضـــعه لمناهج التحليل النفسى ..

وفى وسعنا أن نسمى السلوك السيىء الســـــافر «انحرافا سافرا» . اما السلوك السيىء الذى لم يظهر أثره بعد فنسميه « انحرافا كامنا » ..

والانحراف السافر هو السلوك المناهض للمجتمع .. فالغلام الذى «يزوغ» من المدرسة ، او الذى «يلطش» أدوات زملائه يعتبر منحرفا انحرافا سافرا او ظاهريا.. اما الغلام الذى توجد لديه هذه الميــول فى حالة نوم او خمود ، فهو منحرف انحرافا كامنا .. وتحول الانحراف الكامن الى انحراف سافر مسألة ظروف ليس الا . وهنا تبدو خطورة رفقاء السوء ..

واذا كان يهمنا ان نعرف الاسباب الحقيقية للانحراف، فينبغى الا نكتفى بالبحث عن المثيرات المباشرة للانحراف ، وهى تلك المثيرات التى حولت الانحــراف الكامن الى

انحراف سافر .. بل الواجب ان نفتش عن العوامل التى أوجدت الانحراف الكامن أساسا ..

والمهمة الاساسية لاعادة تربية المنحرف هى اضعاف الميل الكامن نحو الانحراف ، وليست القضاء على المظاهر السافرة لذلك الانحراف .. فهى اشبه بانتزاع الحشائش الضارة من جذورها ، لا مجرد اجتثاثها من فوق سطح الارض ، لانها فى هذه الحالة ستعود الى الازدهار ..

ان العلاقة بين العرض السافر والميل الكامن للانحراف أشبه بالعلاقة بين ارتفاع الحرارة او الصداع وجرثومة المرض .. وفهم هذه المسألة ضرورى للقضاء على كثير جدا من الاوهام المسيطرة على الناس فى تربية الاطفال والشبان .. ويفسر لنا فى الوقت نفسه علة فشل العلاج فى كثير من الاحيان .. كما يفشل علاج الصداع الناجم عن تعب فى الكبد بتعاطى اقراص من الاسبرين مثلا ..

***

والآن سنستعرض حالات توضيحية من نوع آخر ..

والفتى فى هذه المرة عمره ستة عشر عاما .. ماتت أمه فذهب ليعيش مع شقيقته وزوجها .. فأهملت اخته شأنه ، وصار يقضى معظم وقته فى الازقة والطرقات حتى صار فتى منحرفا ..

ومصدر الشكوى من انحرافه يتمثل فى حب التشرد « الصياعة » وعدم الرغبة فى الالتحاق بعمل .. فذهبت به أخته الى العيادة النفسية الحكومية ، وجاءت نتيجة الفحص أنه من الضرورى ارساله الى اصلاحية ..

ولم يرد فى التقرير الذى كتبه الاحصائى بالعيادة ، اى

دليل على الاشتباه فى اصابة الفتى بمرض عقلى .. اما تقرير المدرسة التى كان بها ، فيدل على تخلفه عن اقرانه فى جميع العلوم .. وانه دون المستوى العادى كثيرا لانه لم يلتحق بالمدرسة الا فى سن متأخرة . ومع ذلك فان منسوب ذكائه بناء على الاختبـــــارات المألوفة حــول العادى ..

ونظرت الى خانة «المواظبة» فوجدت درجته فيهـــا عالية .. اى انه طالب مواظب . ومعنى هذا ان تشرده طرأ عليه بعد انتهائه من المدرسة ..

وأعدت اختبار ذكائه .. فوجدته عاديا فى كل ناحية الا فى احد الاختبارات اللغوية فقـــد كان ضعيفا ، لان المفروض فى هذا الاختبار ان يأتى الطالب بمحصول لغوى مقداره «٦٥» كلمة على الاقل مما يرد على ذهنه «عفوا» ولكن فتانا لم يأت الا بـ «١٦» كلمة وبعد تردد كثير .. مما يدل على وجود «مقاومة» فى هذه الناحية

واذا اضفنا الى هذا انه رغم وسامته ونموه الحسن ، خجول وبطىء الحركات ومتحفظ ، استطعنا ان نقـول انه شديد السلبية ، وانه دمث ، وان انحرافه ليس من النوع الذى يخشى منه على الناس ، وانه من السـهل اصلاحه ..

والآن سنذكر بعض العبارات التى وردت على لسانه أثناء مقابلات تمت بيننا على مدى ثلاثة شهور ، لمـا فيها من مغزى خاص :

ــ أبى كان عاملا ..

ــ مات ابى فى المستشفى ..

وحدد تاريخ وفاة أبيه بالضبط وبلا تردد ، وأردف ذلك بقوله :

ـ ورثيت لحالة امى كثيرا .. لانه تركها وحيدة ..

ـ لى اخت تكبرنى بخمس عشرة سنة ..

ـ كان لى اربعة اخوة بين ذكور واناث ماتوا جميعا ولم ارهم ..

ـ كنا نسكن غرفتين ..

ـ كنت أنام فى السرير بين أبى وأمى .. كلنا معا ..

ـ اختى كانت تنام على أريكة ..

ـ كان عمرى ١٢ سنة عندما تزوجت شقيقتى ... وظللت انام مع أمى وأبى

ـ لما مات أبى حللت محله وصرت أرعى شئون أمى ..

ـ كنت أقوم بخدمة البيت من تنظيف واعداد طعام قبل ان تعود أمى من المصنع

ـ وماتت امى بعد ذلك ..

وكان هادئا تمام الهدوء ، وهو يذكر وفاة امه لاول مرة .. كأنما هذا الامر ليس له تأثير عنده . ولم يذكر التاريخ بالضبط كما ذكر تاريخ وفاة أبيه ، ولا أين ماتت، ولا كيف ماتت

ولكنه ذكر كل هذه التفاصيل فيما بعد .. وذكرها وهو ينتحب فجأة .. مع انه قبل ذلك مباشرة لم يكن يبدو عليه أى انفعال ..

ذكر أنها ماتت « ميتة بشعة » .. « فرمتها آلة المصنع فرما » .. وجاءه بالبيت من استدعاه « لان أمه مغمى عليها فى المصنع » .. فذهب الى هناك مع اخته

فأخبرتهما الادارة بما حدث ، فسقط فاقـــد الوعى . وبعدها ذهب مع أخته الى البيت ، حيث ظلت اختـه ساهرة عليه طول الليل لان حالته كانت سيئة جدا من فرط الرعب .. ولذا لم تسمح له بتشييع الجنازة . وحاول ان يبكي فاستعصت عليه الدموع ، فجعل يتشاغل بلعبة له كانت امـــه تتعجب دائما من براعتـــه فيما يفعله بها ..

ـ ثم انتقلت الى بيت أختى ، وبعنا أثاث منزل أمنا ، وقاسمت أختى ثمنه . وأبت أختى أن تتقاضى منى مقابلا لاقامتى عندها ، وسأجزيها على هذا الصنيع يوما ما ، وعملت « صبى ميكانيكى » شهـرين ولـكن لم يعجبنى العمل فتركته . ولم تفارقنى صورة أمى لحظة واحدة ، ولا فكرة ميتتها البشعة .. وعملت فى فندق . ولـكن كان من عملى ذبح الحيوانات فنفرت من هذه المهنـــة وتركتها الى النجارة ، ولكنى لم أحبها ايضا ولم يرض معلمى عن كسلى فطردنى . والتحقت بعمل آخر ففشلت فيه أيضا ولا أدرى لهذا سببا ، مع أن هـــذا التعطل يؤلمنى .. وصرت أقضى وقتى فى الحديقة العامة أرقب تدريبـات الجند بلذة وشغف ، ولا سيما موسيقـــاهم العسكرية .. وكان زوج اختي ـ ولى امرى ـ لا يكف عن مطالبتى بالالتحاق بعمل وتعلم مهنة ، ولذا لم أكن أعود الى البيت فى المساء واقضى الليل تحت قنطرة .. فقبض على مرارا بتهمة التشرد ، وساقنى زوج أختى الى اصلاحية الاحداث ..

ولم يتخذ له اصدقاء فى الاصلاحية .. بل انه لم يكون معى انا ايضا صلة وثيقة رغم طول المدة وكثرة اللقاء ، وان كان قد صار اكثر تبسطا فى الحديث ومع أن ذكاءه كان أعلى من ذكاء اقرانه بالاصلاحية ، الا انه لم يحاول

الوصول الى مكانة الزعيم بينهم .. وكان بارعا فى تسوية الخلافات بطريقة ودية

وتدريجا زال انقباضه ، واصبح أقل نسيانا ، وزاد اهتمامه بالعمل ولا سيما فى الفلاحة .. الا انه كان بطيئا جدا فى حركاته .. وبعد مدة التحق بالعمل فى مدرسة كبيرة ، ولم تظهر عليه بعدها اعراض الانحراف ..

والآن يجمل بنا أن نستفيد من هذه الحالة لتفهم ما يسمى « الصدمة النفسية » .. وهى احدى العناصر الهامة فى العصاب أو المرض النفسى :

بعض الناس عاجزون عن «هضم» التجارب المؤلمة التى تحدث لهم ، اذا حدثت لهم بصورة مفاجئة وعنيفة .. بحيث يكون التكيف معها شيئا فوق طاقتهم ..

وعندما يكون للتجربة الانفعالية هذا التأثير الشديد الوطأة نسميها « صدمة نفسية » . وهذه الصدمة قد تتمخض احيانا — فى ظروف معينة — عن عصاب أو مرض نفسى شامل ..

ومن المفيد أن نورد هنا تعريف فرويد للصدمة النفسية :

« ان عصاب الصدمة عبارة عن تثبيت وقع على الحادث الذى نجمت عنه الصدمة ، بحيث يبدو المصاب بالصدمة النفسية وكأنه لم يصل بعد الى التصرف المناسب فى الموقف العسير الذى ألم به .. وكأنه لم يزل مطالبا بالوصول الى هذا التصرف المناسب »

واذا رجعنا الى فتانا ، لوجدنا أن التشرد ورفض العمل علامتان أو مظهران للانحراف .. وهذان المظهران كانا هما سبب ارساله الى الاصلاحية ..

ونلاحظ أن هذه الاعراض لم تظهر عليه الا بعد وفاة الام بهذه الطريقة الشنيعة .. وبعد اقامته مع أخته ازدادت حالته تفاقما ، بحيث أدى الامر الى ارساله للاصلاحية ..

واذا كان ما قررناه صحيحا عن الانحراف الكامن والانحراف السافر ، فلابد ان الانحراف الكامن كان موجودا لدى الفتى قبل ان يذهب للمعيشة مع شقيقته .. أو بعبارة أخرى قبل أن يغدو سلوكه غير اجتماعى بصورة سافرة ..

واذا كان ذلك صحيحا ، فيجب أن ننقب عن أساس هذا الانحراف الكامن فى فطرة الفتى ، وفى مرحلة طفولته ثم فيما مر به بعد ذلك من أنواع التجارب ..

وبحثت فلم أستطع ان اعثر على استعداد للشذوذ فى فطرته .. واما تجارب طفولته الاولى فلا نستطيع الوصول اليها الا بتحليل نفسى دقيق طويل .. وهذا أيضا لم يتيسر

ولكن هذا لا يمنعنا من الاستفادة من امور اخرى معلومة لنا بدون عناء : ومنها أنه بوغت بفاجعة أمه ، وان المفاجأة كانت مؤلمة حتى لقد اغمى عليه . وقضى الليلة فى فزع ، فسهرت أخته عليه طول الليل ..وحالت بينه وبين شهود الجنازة لفظاعة وقع الصدمة عليه .. وانصرف الى احدى لعبه فى الوقت الذى كانت فيه أمه الغالية توارى التراب ..

وهذا كله ليس عاديا ــ على الاطلاق ــ ان يصدر عن فتى كبير عمره يومئذ ١٤ سنة ، مع انه لم يشاهد أمه فى تلك الحالة .. بل سمع فقط بما حدث من أفواه رجال

المصنع ونسائه .. وهو نفسه قد عبر عن هذه الصدمة بقوله :

ـ لم أستطع أن أنقطع عن التفكير فى أمى لحظةواحدة، أو عن تخيل منظرها الفظيع بعد هذا الذى حدث لها ..

ثم ماذا حدث ؟ ..

حدث انه « كبت » كل ماله صلة بهـذا الحـادث المؤلم ..

وربما سألت :

ـ وما الدليل على أنه «كبت » الحادث ؟

ودليلنا انه استعاده بصورة تدريجية .. أى أن هناك مقاومة ضد استعادته ، لان تلك الاستعادة تسبب له ألما ممضا . ولولا ذلك الكبت ، وتلك المقاومة ، لكانت هذه الاستعادة أسهل شىء وأهم شىء ينكره .. كما حدث بالنسبة لذكره ظروف وتاريخ وفاة أبيه بالضبط

ومن هذا الكبت ، وهذه المقاومة للتذكر ، نتجت كل الالتواءات فى سلوكه ، وتفاقمت الانحرافات يوما بعد يوم ..

ولكن يجب ألا نغلو فى تجسيم أهمية التجربة المسببة للصدمة .. فنفس التجربة التى تحدث الصدمة عندفتى معين فيصير عصابيا « مصابا بمرض نفسى » لا يكون لها اثر تقريبا عند فتى آخر ..

ومهما يكن من شىء فالتشرد عند فتانا حل محل المرض النفسى « العصاب »، ولعله بهذا التشرد كان ينجو بنفسه من مرض الكآبة « الملانخوليا » الذى أصاب هاملت .. ولا ندرى هل يفيد التحليل فى علاج مثل هذه الحالة ام لا .. ولكنه كان حريا ـ لو تم ـ أن يطلعنا على تجارب

طفولته الاولى ، وما فيها من عوامل ادت الى الانحراف ..

وليس أمامنا — مادام التحليل لم يتم — الا ان نلجأ الى الفروض ..

ونرجح أن موت الام بهذه الصورة ما كان ليحدث هذا الاثر ، لو لم يكن الفتى متعلقا جدا بامه ومرتبطا بها تمام الارتباط

ومن أقواله نعرف انه كان مرتبطا بوالديه ينام بينهما فى فراشهما .. وهو واخته بقية « نصف دستة » من الاطفال ، وبينه وبين شقيقته الكبرى ١٥ سنة .. وبعد ان اخلت اخته الاريكة التى كانت تنام عليها وذهبت الى بيت زوجها لم يحل محلها على الاريكة بل ظل ينام بين أبويه ، مع أن عمره يومئذ ١٢ سنة . وبعد وفاة ابيه ظل ينام مع أمه ، ويعنى بها بدلا من أبيه ..

كل هذا يوحى بان الفتى كان متقمصا شخصية أبيه بصورة غير عادية .. ولذا كانت صلته بأمه غير عادية .. كأنه أبوه ، وليس معنى هذا طبعا أنها علاقة شائنة .. بل المراد أنها علاقة أعمق من علاقة الامومة العادية .. ولذا كان وقع « اختطافها » عليه يعنى أكثر من مجرد فقدان الام ..

ونحن لا نمارى فى أن اتجاه الطفل بمحبته نحو افراد أسرته — ولا سيما الوالدين — أمر ضرورى جدا لنموه الانفعالى السليم .. ولكن من الطبيعى ايضا أن تقل هذه العواطف العنيفة قرب المراهقة ، ويقل الارتباط بالوالدين وأفراد الاسرة قبيل هذه المرحلة ، لان مرحلة المراهقة هى أوان انتقال موضوع الحب من داخل الاسرة الى خارج محيطها .. ومن الام والاب والاخوة الى أفراد

من الجنس الآخر غرباء عن هذا المحيط القـــريب من الذات ..

ولذلك نرى أنه فى حالة استمرار التعلق بأفراد الاسرة فى النمو ، وعدم توقف هذا النمو قبل المراهقة ، يتعرض الفتى المراهق لمـا يسمى « تثبيتا » على موضـــوعات حبه . ولا يستطيع ان يتحول بحبه من أمه أو أبيـــه الى شخص غريب عن الاسرة .. المفروض انه الزوجة..

وهذا التثبيت هو الاصل الكامن فى بعض انواع العصاب أو الانحراف ، وتكفى الظروف أو المناسبات لجعله عصابا ظاهرا او انحرافا سافرا ..

وفى حالة هذا الفتى كانت « الصدمة النفسية » بموت الام فجأة هى هذه « المناسبة » السيئة ..



نموذج آخر للصدمة

والحالة التى أمامنا هذه المرة ، حالة فتاة منحرفة فى الخامسة عشرة من عمرها .. بعثتها المدرسة بتقرير جاء فيه ان الفتاة تعانى من سوء المعاملة فى البيت .. والبيت ليس لأبويها ، فهى يتيمة يعولها خالها وزوجته . وهذا الخال من صغار التجار فى أقاصى المدينة

وقد بدأت بمقابلة الكافلة ـ وهى زوجة الخال ـ فلم تترك هذه السيدة فى نفسى فكرة قاتمة عنها .. ففكرت أن الحالة ربما لم تكن ناجمة عن سوء معاملة بالمعنى المألوف . ولذا فمن الواجب أن أعيد النظر فى الموضوع من أساسه قبل أن أمضى فى العلاج

وشكت لى زوجة الخال من الفتاة ، فقالت انها فتاة صحيحة البدن ، موفورة العافية ، ومع ذلك لاتقوم بنصيب من أعمال البيت .. بل وليتها تسكت عن اثارة الشغب والازعاج والفوضى . وهى على الجملة لا تبدى عرفانا لقدر مايبذله لها خالها وزوجته

وعلمت منها أيضا ان الفتاة فقدت والديها كليهما .. ولو لم يبد خالها استعدادا لايوائها وكفالتها ، لوجدت نفسها تحت رحمة الغرباء .. ثم ان خالها يقوم بهذا العمل لوجه الله ، لان الفتاة فقيرة لم يترك لها أبواها شيئا على الاطلاق .. فلا مصدر لمعيشتها ونفقاتها الا عطف

الخال . وكان الخال قد وعد أمها ــ شقيقته ــ وهى على فراش الموت أن يكفل البنت اليتيمة .. وكان عند وعده

واكدت لى السيدة أيضا أنها وزوجها يعاملان الفتاة ، وكأنها ابنتهما فعلا .. الا أن الفتاة لا تبدى تعاونا . . وعند عودتها من المدرسة تبقى فى الشارع أمام البيت ، وترفض أن تقوم بأى عمل من أعمال البيت لمساعدة زوجة خالها . واذا قامت بعمل صغير ، لاتقوم به عن طيب خاطر .. بل مرغمة تحت ضغط الزجر والانتهـــار . وغالبا ما تتراخى فى العمل الذى تجبر عليه ، فلا تفرغ منه ولا تتمه .. الى أن تضطر زوجة خالها لأخذه من بين يديها كى تتمه هى .. وهى ــ على الجملة ــ شديدة العنـــاد كثيرة المكر ، لايوثق بها ولا يعتمد عليها .. يغلب عليهـــا الشرود والسهو ، حتى أن زوجة خالها لاتطمئن على طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات وهو معها ، خشيـــــة أن ينزل به مكروه وهى ساهية عنه

ومما أكدته زوجة الخال أيضا ، أن هذه الفتاة لم تذرف دمعة واحدة أو تظهر امارة من أمارات الحزن والجـــزع حين مات والداها ، مما يدل على مبلغ تبلد احساسها .. فلم تند من فمها صرخة واحدة فى جنازتهمـــا . ولم تزل الى الآن لا تبدى اى تأثر اذا جرى ذكر والديها بمسمـــع منها

وبدأت أسأل زوجة الخال عن عائلة الفتاة .. أعنى عن والديها . فعلمت منها أن والد الفتاة كانت حالته المالية ميسورة نوعا . وكان يقيم فى احدى القرى ، الا أنه كان يدمن الخمر ، ومريضا بالسل . وكانت الفتاة فى حيـــاة أبويها موضع رعاية وحدب وحب لاحدود لها ..

ولما مات الوالد صفت الام متروكات زوجها .. وكانت

امرأة قليلة الخبرة ، فأدركت بعد التصفية والبيع مباشرة انها غبنت ، وأنها اخطأت فى بيع هذه الممتلكات .. فحاولت أن ترجع فى البيع ، ولكن دون جدوى

وادت هذه الصفقة الخاسرة الى تدهور حالتها المالية .. وسرعان مالحقت بزوجها بعد ستة أشهر عاشتها فى فقر وضنك

وفى نهاية الحديث ، عادت زوجة الخال تؤكد أنه ليس فى وسع أحد أن يرميها بالتقصير فى حق الفتاة أو اساءة معاملتها .. مع أن الفتاة لا تطاق وتتحـــدى قدرة أى انسان على الاحتمال

واعترفت انها كانت تضطر عندما تفرغ جعبتها من اللوم والزجر بلا فائدة ، أن تعاقب الفتاة عقابا بدنيا .. بيد أنها أكدت عدم مغالاتها فى ذلك العقاب ، وعدم الوصول به الى حد القســـوة فى أى وقت من الاوقات ، وعززت تأكيداتها لصدق هذه الاقوال باليمين . وأعربت عن ارتياح ضميرها ارتياحا تاما من جهة بنت أخت زوجها

وبعد ان انتهيت من زوجة الخال ، دعوت الفتاة لمقابلتى .. فبدأت تتحدث عن المدرسة ، وأعربت عن حبها لها ، وتعلقها بمعلمتها .. وان كانت صلاتها بزميلاتها لا تصل الى حد تكوين صداقات وثيقة

وعندما انتقل الحديث الى البيت ، اخذت تتكلم عنه بتحفظ شديد .. مع أنها تدرى تماما أن تقرير المدرسة يتضمن شكوى ضد معاملة زوجة خالها لها .. وان هذا الاستجواب الذى أجرى ، المفروض انه لصالحها ولانصافها من زوجة الخال القاسية ..

بل انها لم تشر ، من قريب او بعيد ، الى مااعترفت به

زوجة خالها من توقيع عقوبات بدنية عليها أحيانا .. ولكنها ذكرت بوضوح أن زوجة خالها تكثر من زجرها وتقريعها

واتهزت هذه الفرصة ، وسالتها عن السبب الذى يدعو زوجة خالها الى الاكثار من لومها وزجرها .. فسكتت برهة ثم قالت :

ـ كان التفكير فى أمى وابى يستغرق حواسى .. فكنت مشغولة دائما بالتفكير فى حالنا عندما كنت فى بيتنا ، وكيف كنا سعداء ..

وما أن نطقت بهذه العبارة حتى اختفت من وجهها امارات التردد والحرج ، وظهرت عليها بوضوح امارات الالم .. بل والتفجع ، فعلمت ان هذا الكلام لمس وترا حساسا جدا من نفسها ، وان من المفيد السير فى هذا الاتجاه بعد أن عرفت أن الفتاة كانت مستغرقة طول الوقت فى التحسر على الحياة مع ابويها ، وأن استرجاع تلك الصور السعيدة هو الملجأ الذى كانت تأوى اليه من منغصات حاضرها المؤلم . ولم تلبث أن صرحت لى أيضا بأن هناك حلما مخيفا يراودها باستمرار .. وفى هذا الحلم ترى والديها على فراش الموت

ووصفت لى وصفا دقيقا كيف كانت وحدها بالبيت . وكان ابوها فى المرحلة الاخيرة من مراحل مرض الدرن ، وطلب منها أن تأتيه بكوب ماء .. وجاءته بالكوب فتجرعه ، ثم سعل وشرق ، ولم يلبث أن سقط على سريره ميتا ..

وصاحت الفتاة مستغيثة ، ولكن أحدا لم يسمع استغاثتها ولم يخف لنجدتها .. ومع ذلك لم تجسر على الهرب من البيت حتى لا تتركه وحيدا . واضطرت للبقاء

تحدق فيه مرتاعة ، وهو ميت ، الى أن حضرت أمها من الخارج ..

هذه حادثة وفاة أبيها .. وبعد نصف عام تقريبا ، حل عيد الفصح .. فبعثت بها أمها الى الكنيسة . وبعد ان قبلت الفتاة امها وهمت بالانصراف ، والام واقفة بجوار النافذة وفى يدها خرقة ، سمعت الفتاة صوت شيء يبدو أنه فى داخل « الخرقة » .. فعادت أدراجها مسرعة ، وتناولت من يد أمها « الخرقة » لتعرف ما الذى بداخلها .. ففوجئت داخل « الخرقة » بقطعة من الحبل مكورة. وكانت الام قد أقدمت قبل ذلك اليوم على الانتحار شنقا بمنديل كبير . وانتزعت الفتاة الحبل من يد أمها وألقته بعيدا ، وقد أدركت ماتفكر فيه ..

وانصرفت الفتاة الى الكنيسة .. وعند عودتها منها وجدت أمها مدلاة من قضبان النافذة والحبل يحيط بعنقها !

ولاحظت ان الفتاة عندما بدات تستعيد أمامى هذا المنظر ، اتخذت وضعا ادهشنى !.. اذ جلست متشابكة الاصابع وقد مالت براسها الى وضع جانبى واستسلمت للتفكير ، فأيقنت أنها انتزعت نفسها تماما من العالم الخارجى ، لتعيش فى ذكرياتها .. ولذا يصعب عليها أن تعود الى العالم الواقع لتواصل عملا بدأته ، أو لتفكر فى ضرورة القيام بأى عمل

وعندئذ سألتها :

ــ هل تجلسين فى بيت خالك مثل هذه الجلسة باستمرار ؟

ـ اننى فى العادة لا أنظر فى وجه زوجـة خالى عندما تكلمنى ، واشيح بوجهى بعيدا .. حتى اذا دعت الضرورة أن أوجه اليها الكلام . وبذلك أتجنب طرد الافكار التي تستولى على ذهنى طول الوقت ، لانى أفضل أن أستغرق فى هذه الافكار

ـ وهل تتنبهين بسهولة عندما تناديك ؟

ـ اذا نادتنى بصوت مرتفع .. وفى هذه الحالة انتفض منزعجة ! .. ويضايقنى أننى لا أستطيع العودة بسهولة الى ماكنت مستغرقة فيه من التفكير ..

وعلمت من الفتاة أيضا أن زوجة خالها كثيرا ما تغادر البيت بعد الظهر ، وتترك لها مهمة تنظيفه وحدها . . فتنتهز الفتاة فرصة هذه العزلة ، وتمضى الى حجـرة قليلة الضوء وتستلقى فوق أريكة ،وترخى العنان لخيالاتها وأحلام يقظتها . وعندما تستولى عليها هذه الحالة من الشرود العميق ، لايسعها أن تسمع شيئا أو تعى مايجرى حولها .. حتى أن زوجة خالها عندما عادت من الخارج ذات مرة ظلت تطرق الباب بكل قوتها نصف ساعة دون أن تسمعها الفتاة . ولما سمعتها أخيرا ، دخلت السيدة وهى تكاد تنشق من الغيظ .. وجعلت ترمى الفتاة بالمكر والخبث ، ورفضت أن تصدق أنها لم تسمعها !

وبطبيعة الحال لايمـكن أن تطمئن الفتـاة الى زوجة خالها ، ولا أن تفضى اليها بموضوعات احلام يقظتها .. ولذا تعتذر للسيدة كلما شردت بأعذار وهمية غير معقولة، تزيد من اقتناع زوجة الخال بأن ربيبتها خبيثة ماكـرة ناكرة للجميل كذابة عنيدة !

وحرصت الفتاة على أن توضح لى أن الافكار التى تنهال

عليها فى أحلام يقظتها ، ولا تريد أن تتخلص منها ، ليست على الدوام أفكارا محزنة أو مخيفـــة .. بل فى كثير من الاحيان يكون لها طابع سار ، وذلكعندما تحملها الذكريات الى أيام طفولتها السعيدة ..

وهذه الذكريات « الطفلية » واضحة كل الوضوح .. وممكن أن تسيطر على ذهنها فى أى وقت ، أثنــاء قيامها بعمل ، أو اثناء ملاعبتها للطفل ابن خالها .. بل وربما أثناء سيرها فى الشارع . وأكثر مايكون ذلك وهى سائرة فى الطريق صباحا ، خصوصا اذا كانت أثناء الليل قد رأت حلما من الاحلام المتعلقة بماضيها فى بيت ابويها .. وهو امر كثير الحدوث فى معظم الليالى

وبسؤال الفتاة ، تأكدت ان هــذه الحالة من الشرود وأحلام اليقظة لا تستولى ــ بذكرياتها البعيدة القوية ــ عليها أثناء وجودها فى المدرسة ، وأنها تكره أعمال البيت .. بل وتكره ملاعبة ابن خالها الطفل ، وتشعر من ملاعبتــه بضيق شديد

ــ ولكن هل تكرهين الطفل ؟ أو الاطفال عموما ؟

ــ لا .. اننى اكره ملاعبة الطفــــل لان زوجة خالى تزجرنى عند أول بادرة تذمر من ابنها ..

ومهما حدث للفتاة من متاعب ، فانها كانت لا تشكو حالها الى زوجة خالها .. لان نتيجة الشكوى دائما أن تغضب زوجة الخال ، وتصب عليها الشتائم والنعــوت القبيحة مثل الغباء والعناد والحقارة . ولما أعدت عليها السؤال ، أكدت لى ذلك بكل ثبــات .. وأحسست أن رواية الفتاة أجدر بالتصديق من رواية زوجة خالها ، لان طريقة السرد ولهجة البنت تبعثان على الاقتناع

وقررت الا أبت فى الامر قبل أن أحصل على تقرير آخر مفصل عن حالتها المدرسية وسلوكها واجتهادها ..

وسرعان ما جاء لى التقرير .. ومنه يظهر بوضوح أن مسلك الفتاة فى المدرسة يختلف تماما عن مسلكها فى البيت ، فمعلمة الفصل تصفها فى التقرير بصفات النشاط والفطنة والتيقظ وحسن الاصغاء والاعتماد على النفس والامانة فى العمل

وجاء فى التقرير أيضا بند خاص بعلاقاتها بزميلاتها .. فهن يرين فيها المرح والتهذيب . وعندما عرفن من فمها أنها تعانى من سوء المعاملة فى بيت خالها ، نقلن ذلك الى المعلمة .. وعلى هذا الاساس أرسلت المدرسة الشكوى الينا لتحقيقها

وهكذا اجتمعت لى ثلاثة تقارير .. التقرير الاول من زوجة الخال التى كانت تشرف على تربيتها ، والتقرير الثانى من الفتاة ، والتقرير الثالث من المدرسة . وهى تتضمن مجموعة ضخمة من المعلومات ، الا أنها لاتكفى لتكوين رأى قاطع

اننا مثلا اذا عمدنا الى مقارنة أقوال زوجة الخال بأقوال الفتاة ، لم نستطع أن نقطع بأن هناك سوء معاملة بمعنى الكلمة .. لان الفتاة نفسها تعترف بطريقة غير مباشرة بأن سلوكها فى البيت غير اجتماعى ، فهى دائما « تبدو » لمن لايعرف حقيقة أحوالها شاردة ، مشاغبة ، عنيدة ، كسولا .. فى حين أن سلوكها فى المدرسة لا غبار عليه اطلاقا . وما عرفناه من المامنا السابق بموضوعات الانحراف ، يجعلنا ندرك أن زوجة الخال قد خلطت بين العرض والمرض ، وان اهتمامها كان موجها نحو التغلب

على مظاهر الانحراف لا نحو علاج أسبابه ..

والواقع أن حالة هذه الفتاة أكثر صعوبة من حالة الفتى الذى درسناه فى الفصل السابق .. فالفتى كان ينفس عن انحرافه الكامن بمظاهر التشرد والتسكع ، أما هذه الفتاة فانحرافها الكامن لايسفر عن وجهه الا فى البيت .. أما فى المدرسة فلا . وهذا فى حد ذاته أمر محير ، لان من خصائص الصدمة النفسية عادة أن تجعل الانحراف الكامن يتحول الى انحراف سافر بشكل واضح ومستمر .. فى حين أن الصدمة التى حدثت للفتاة بموت أبويها لاتظهر أعراضها الا فى اطار معين هو البيت .. وتلك ظاهرة لا ينبغى أن نتركها تمر بغير تفسير

واعادة النظر فى حالتها ، تطلعنا على أن الذكريات المؤلمة التى تراودها تسبب لها أحيانا عذابا شديدا .. أما احلام اليقظة واسترجاع الذكريات السارة ، فكان يشعرها بلذة عظيمة ..

واحلام اليقظة شىء مألوف .. كلنا نجربه فى بعض الاوقات . وكل واحد منا اذا اشتد سخطه على ظروفه الواقعية يهرب منها الى عالم الاحلام . وهذا مايعبر عنه فى التحليل النفسى بأننا نسحب جانبا من طاقتنا الحيوية من عالم الواقع ، فيزيد ذلك من قوة الاوهام والتخيلات ، ويجسم أهميتها .. وهى عملية طبيعية لا غبار عليها بشرط أن تظل علاقتنا العادية بالعالم الواقع من حولنا مستقرة . اما اذا كان الجانب المسحوب من طاقتنا الحيوية المخصصة لعالم الواقع ضخما للغاية ، فلابد فى هذه الحالة ان يختل ميزان علاقتنا بالواقع ، ويصبح تكيفنا معه أمرا اشق من المعتاد

والمفروض ان الشخص السوى يستطيع أن يطرد

التخيلات اللذيذة التى تستولى على ذهنه متى دعاه نداء الواجب للقيام بأعماله العادية ، فيطوى أحلام اليقظة جانبا ويتركها الى وقت يكون أكثر ملاءمة لها .. مثل ساعة النزهة ، أو عندما يكون راكبا قطار المترو ، أو عندما يأوى الى فراشه لينام

الا أن من الناس من يلجأون الى احلام اليقظة مكرهين ، لان الحياة الواقعية صارت مثار آلام شديدة لهم .. يعجزون عن احتمالها . ومتى هربوا الى أحلام اليقظة ، فقد لايتيسر لهم التخلص من سلطانها .. ويفقدون بالتالى كل اهتمام بالحياة الواقعية العادية ، بعد أن تجمع اهتمامهم كله فى عالم الاحلام والاوهام . وهذا هو مايعتبر « حالة مرضية »

وقد مر بنا من قبل أن التجربة الانفعالية الشديدة الوطأة تحدث أحيانا مايسمى بالصدمة النفسية ، وأن الصدمة النفسية تسبب اضطرابا شديدا فى العمليات النفسية .. هذا الاضطراب قد يؤدى الى انحراف كامن تحوله المناسبات الى انحراف سافر

وفتاتنا لم تكن استجابتها للصدمة النفسية مثل استجابة الفتى الذى درسنا حالته آنفا .. فهى متجهة الى امتصاص هذه الصدمة وهضمها . أما الفتى فقد كبت الصدمة ، وأدى الكبت بعد تغير البيئة الى ظهور الانحراف فى صورة سلوك غير اجتماعى . وليس فى وسعنا أن نجد تعليلا لتباين طريقتهما فى الاستجابة للصدمة المؤلمة .. ولكننا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن الفتاة وقفت فى منتصف الطريق المؤدى الى التغلب على الصدمة ، فهى لم تستطع أن تنسى تمام النسيان الكوارث المؤلمة التى نزلت بها . ولذا كانت هذه الكوارث تبرز الى مستوى

الشعور على شكل ذكريات أليمة مثيرة للانقباض والفزع
وفى الوقت نفسه جاء تغيير البيت بعامل جديد ، اذ أبعدت عن الجو المألوف لها العزيز عليها .. فراحت تحاول تعويض هذا الحرمان عن طريق أحلام اليقظة

والظاهر أن هذه الاوهام الجميلة يسرت لها ، بعد مدة كافية من الزمن ، أن تتغلب على الصدمة المؤلمة وتهضمها .. فجعلت تستزيد من هـذه الاوهام . وقد رأينا كيف كانت تستغرق فى أحلامها وشرودها أياما متعاقبة ، ولا تستطيع الرجوع الى عالم الواقع الا بجهد جهيد

وكان من الممكن أن نعلل هذا التناقض بأن الفتاة تعانى من اضطراب نفسي ، لولا أن سلوكها فى المدرسة يختلف تماما عن سلوكها فى البيت . والفتاة نفسها تعترف بأنها لا تمارس أحلام اليقظة وهى فى المدرسة ، ولا تشعر متى دخلتها بأى علامة من علامات الاضطراب الداخلى

وهذا من شأنه أن يدعونا الى القول بأن الفتاة على عتبة الاصابة بعلة نفسية خطيرة لا شأن لها بالانحراف ، وانها اذا لم تكف تماما عن أحلام اليقظة ستنقطع كل صلة لها بعالم الواقع .. وتصير نهبا لتيارات الاوهام ..

والآن سنتتبع كيفية حدوث النوبات لها :

انها كلما شعرت بالارتياح فى عالم الواقع وأمكنها ان ترتبط بصلات الصداقة الودية ، لم تجد فى نفسها حاجة الى الاوهام التى تبعدها عن ذلك الواقع اللطيف . وهذا تماما هو حالها فى المدرسة .. أما فى البيت فلا تستطيع ان تشبع رغبتها فى الصداقة والطمأنينة والارتيـــاح ، فضلا عن أنها تشعر فى بيت خالها بأنها عالة على الرجل وزوجته ، وانهما يحتملانها على مضض .. وهى التى كانت

معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها • ولا تطيق ان تتصور نفسها شبه خادم ، تقوم برعاية الطفل الصغير وتنظيف البيت والارميت بالجحود من زوجة خال لاتفهم همومها ولا تدرك آلامها ولا تعطف عليها • وفى هذا الاطار تهرب من الواقع لتشبع كل رغباتها المكبوتة فى عالم الاوهام اللذيذة

وأدركت أنه من المحال أن أدخل فى رأس زوجة الخال حسن التفهم لحالة الفتاة ، بحيث تغير اتجاهها نحوها .. ولم يبق أمامى الا أن أعمل على اقصاء الفتاة عن جوالبيت بسرعة

ولم يتردد خالها فى الموافقة .. ولكن المشكلة صارت : أين نجعلها تقيم ؟ فاذا عهدنا بها الى أسرة أخرى كنا كمن استبدل النار بالرمضاء ،لان الوضع لن يتغير بالنسبة لنفسية الفتاة •• فلم يكن هناك بد من ادخالها مؤسسة تحت أشراف معلمة ذكية عطوف لها دراية بالتحليل النفسى

واستطاعت هذه المشرفة ان تستدرج الفتاة الى التحدث عن فجائعها بافاضة •• فأدى ذلك الى تخلصها من آثارها الباقية . وفى الوقت عينه ، مهدت للفتاة عقد صداقات مع بنات من سنها بحيث تشعر معهن بالرضا والارتياح والسرور •• فلا تلجأ الى احلام اليقظة • وبالفعل لم يمر سوى عام واحد حتى ظهر عليها تطور حسن جعلنا نطمئن عليها ••

ومما تقدم ندرك أن هذه الفتاة لم تكن منحرفة ، وان الصدمة النفسية عرضتها لخطر المرض النفسى أو العصاب .. لا لأزمة الانحراف العادى

وهذا يوضح لنا أن نتائج الصدمة النفسية ليست واحدة

فى جميع الاحوال ، وان الانحراف ليس هو ثمرتها الوحيدة ..

***

وكى نزيد الامر وضوحا فيما يختص بالصدمة النفسية ومايترتب عليها ، سنتناول حالتين آخريين .. أولاهما لفتاة فى الخامسة عشرة طردتها المدرسة لتغير احوالها ، مع أنها كانت قبل ذلك مجتهدة جديرة بالثقة وشديدة الشعور بالمسئولية . أما الحالة الثانية ، فلفتاة فى الثانية عشرة من عمرها لا هم لها الا ان تدخل الرعب على قلوب زميلاتها فى المدرسة !

وحاولت المشرفة مع الفتاة الاولى كل ما فى وسعها .. ولكن هذه المحاولات لم تؤد الا الى تفاقم الحالة ، وازداد عناد الفتاة وشغبها حتى لم يعد من الممكن بقاؤها مع زميلاتها

ولما أرسلوا الفتاة الى مكتبى ، أخذت تبكى بشدة وتولول من غير ان يكون هناك أى داع لذلك . وجلست هادئا الى أن قالت لى بين زفرات النحيب المتقطع أن الاضطراب بسبب حلم فظيع يراودها باستمرار أثناء نومها

وبطبيعة الحال سألتها عن مضمون ذلك الحلم ، فعرفت أنها ترى امها التى ماتت منذ مدة وجيزة تظهر فجأة فى أحد اركان حجرة النوم .. ثم تتقدم نحوها وتجلس بجانبها على حافة الفراش ، وترفع يدها ببطء كأنها تهم بخنقها .. وفى كل مرة كانت تصحو من نومها مذعورة وهى تصرخ صرخات الاستغاثة قبل أن تزهق أنفاسها !

وبعد ان انتهت من سرد الحلم ، أخذت أسـأـلها عن الاحـوال فى البيت ، وهل كانت أمهـا الراحلة تشـملها بالرضا .. فأخذت تسهب فى وصف البيت بمـا يوحى بأنها كانت أسعد فتاة فى العالم . وأطنبت فى وصـف علاقة حب أمها لها اطنابا جعل ذهنى ينصرف الى العكس تماما .. ولكنى لم أظهر شيئا وسألتها :

ـ ولكن ألم تكونى أنت مصدر مضايقات لها احيانا ؟

فسكتت طويلا وتجاهلت السؤال .. فلم أعده عليها ، ووجهت الحديث الى موضوعات أخرى . ثم فجأة رجعت الى موضوع الام ، ولكن بصـورة هادئة كأننى غير متعمد . فقالت الفتاة ان أمها مرضت مرضا ألزمهـا الفراش مدة طويلة قبل موتها ، ثم ذكرت فى معرض الكلام أنها سرقت بعض ملابس أمها وهى مريضة .. فلم أترك هذه المسألة تمر ، وطلبت منها أن تروى لى جميع تفاصيل هذه السرقة

وذكرت لى أن أمها كانت فى المرحلة الاخيرة من مرضها ، عندما وقفت الفتاة امام باب المنزل مع صاحبة لها .. واذا بصاحبتها تدخل فى رأسها انه لا لوم عليها اذا استولت الآن على بعض ثياب أمها ، لانها ستموت قريبـا . وبعد موتها لن يكتشف أحد هذه السرقة ! ويمكنهما التصرف فى الثياب وبيعها واقتسام ثمنها !

وفى صباح الغد كانت الفتاة مشـغولة بأعمال المطبخ حين حضرت صاحبتها لتأخذ الثياب .. وكانت لم تزل فى صندوق الام بحجرة نومها . ولكن الفتاة كانت مترددة لاتستطيع أن تستقر على رأى فى الموضـوع ، وحاولت ان تقاوم اغراء صاحبتها لها بالسرقة .. الا ان صاحبتهـا استطاعت أن تقضى على ترددها وهونت عليها المسـألة :

ـ المسألة بسيطة للغاية ·· فالصـــندوق أمامك فى الحجرة ، وليس عليك الا أن تتسللى على أطراف أصابعك ، وان تتنبهى جيداً حتى لا تصطدمى بشىء ، أو تتعثرى فى البساط لكى لا تتنبه لدخولك ثم افتحى الصندوق بهدوء فلا تسمعك ولا تشعر بك ، لان وجهها فى هذه اللحظة الى ناحية الحائط فلا يمكن أن تراك

وانقادت الفتاة لهذا الاغراء ودخلت حجرة أمهـــا ·· وبقيت صديقتها عند باب المطبخ تستحثها وتشدد عزمهـا باشارات من رأسها كلما رأتهـــا مترددة ، أو تفكر فى الرجوع · وكانت الفتاة قد أخذت مفتاح الصندوق معها ، ولكنها وجدت قفله مفتوحا ·· فرفعت الغطـــاء ، واذا به يحدث صريراً أزعجها فسقط المفتاح من يدها · واستولى عليها ذعر شديد خشية أن تتقلب أمهـــا وهى على فراش الموت فتراها ، وخطفت على عجل ما وقع تحت يدها من ثياب أمهــــا واسرعت نحو المطبخ فألقت بالمسروقات الى صاحبتها التى جعلت تضحك منها

وانصرفت صاحبتها بالمسروقات بعـــد ان وعدتهـــا بالحضـــــور فى اليوم التالى ، ريثمـــا تبيع الثياب ·· وفى اليوم التالى كانت الصديقة قد باعت الثياب فعلا وحضرت فى الموعد ، ولكنهما بدلا من ان تتقاسما الغنيمة قررتا التوجه معا الى مدينة الملاهى لركوب الارجـوحـة وقطار الرعب وما الى ذلك من الالعاب المســلية الموجودة هناك ·· وما تبقى بعد ذلك من النقود انفقتاه فى أحـــد محال الحلوى

ولم تفكر الفتاة فى أمها التى تركتها بمفردها على فراش الموت ·· بل انصرفت انصرافا تاما الى أسباب اللهو مع صاحبتها · ولما عادت الى البيت وجدت أمهـــا قد لفظت

أنفاسها ، ولم يحزنها موتها .. الا أنهـــا غضبت لوجود اقاربها فى البيت وانقضاضهم عليهـــا باللام والتقـريع لقسوة قلبها • وبدلا من ان تخجل من نفسها ، صـعرت خدها ورفضت ان تخبرهم أين كانت •• ولم تشعر بأى تأنيب لما أقدمت عليه من السرقة •• ولما اكتشف الاقارب العبث بالصندوق واتهموا أشخاصا آخرين بالسرقة ، لم تشعر بوخز ضميرها ولم تكترث لاتهام الابرياء

وقد ذكرت الفتاة كل هذه الحقائق وهى فى نوبة بكاء حادة ، وصارحتنى بأنها لم تعد تطيق هذه الذكريات المؤلمة ولا ذلك الحلم المزعج الذى صار يراودها بعد ان أظهرت المشرفة النفسية عطفا خاصا عليها ، وقالت فى سياق حديثها عن المشرفة :

ـ ولكن لم اذكر لها متاعبى لانى خشيت ان تقلع عن حبى بعد ذلك بسبب قسوتى على أمى

وجمعت الفتاة بالمشرفة •• وبينت لها الموقف ،فأظهرت المشرفة استعدادا حسنا للادراك والعطف . ولما تخلصت الفتاة من عبء ذنبها بالاعتراف عادت الى المدرسة واظهرت انتظاما واستقامة ، ولم يحدث منها اى ازعاج بعد ذلك

ولكن عمل المشرفة لم ينته .. فكانت تقضى معها كل ليلة فترة طويلة قبل النوم تشجعها فيها على التحدث عن أمها ، مما جعل خوفها من الحلم المزعج يقل تدريجيا •• وساعدها تقمصها لشخصية المشرفة على أن تغير سلوكها وتتكيف بالواقع وتثق بنفسها

***

أما الحالة الثانية فهى حالة الفتاة التى لاهم لها الا بث الفزع فى قلوب زميلاتها •• وقد لاحظت أنها تختار دائما الاشياء ذات اللون الاحمر لتصنع منها الاقنعة المخيفـة ،

وأنها تميل الى كل ما هو احمر •• سواء كان ورقـــا أو خرقا أو أشرطة

وبعد محاولات طويلة ، اكتشـــفنا أنها فزعت فزعا شديدا وهى فى باكورة طفولتها • وقد حدث ذلك فى احد الاعياد « الكرنفال » فقد كانت تهبط سلم البيت لتشترى شيئا من البقال ، فقابلت عند المدخل شخصا متنكرا بقناع أحمر •• فصرخت وعادت مرتعدة الفرائص الى المسكن ، والشبح المقنع يجرى وراءها ويضربها بمذبة فى يده ، وتقول انه تبعها الى داخل المسكن . ولما هربت منه تحت السرير دخل وراءها تحته .. ولم تزل تذكر كيف جذبها من تحت السرير ، ولا تذكر شيئا عما حدث لها بعد ذلك

ولم يكن هذا الاكتشاف كافيا لشفاء الفتاة او تحسن سلوكها ، فواصلنا البحث فى ذكرياتها القديمـة الى أن تذكرت تجربة مرت بها وهى فى الرابعة من عمرهـــا • وكان ذلك قبل انفصال والديها بمدة وجيزة •• فقد جاءت بها أمها الى سيدة ذات شعر أحمر ، وأخذت السـيدتان تتحدثان •• ثم زادت حدة الحديث فتشاجرتا ، وشدت أمها شعر السيدة الاحمر • وكانت الفتاة بجوار أمهـــا •• فترتب على العراك سقوطها على وجهها وسيل الدم الاحمر من جرح أصابها . وبعد ذلك طردتهما السـيدة ذات الشعر الاحمر والوجه الملطخ بالدم من أثر خرابيش الام !

ولما عادت الفتاة وأمها الى البيت ، نشب شجار بين الوالدين •• وتذكر الفتاة أن هذه كانت المرة الاخيرة التى رأت فيها أباها ، اذ ان هذا الشجار ترتب عليه انفصـال والديها

وبذلك اتضحت العلاقة الوثيقة بين الاشياء ذات اللون الاحمر وبين فزعها • وتبين أنها تحاول أن تتخلص من هذا الفزع بتسليطه على زميلاتها

المشاكس

وذات يوم جاءتنى أم ومعها ابنها البالغ من العمر ١٨ سنة .. وشكت لى من اصراره على التعطل والكسل والاعتداء والشغب ، فأشرت بعرضه أولا على طبيب الامراض العصبية .. فقرر ذلك الطبيب انه خال من علامات الاضطراب العصبى ، ورجح أن سبب انحرافه هو عدم استقرار أحوال الاسرة

والام هى التى تعول الولد وأخوته بعد موت زوجها منذ سنوات . وظلت تعانى من الضنك الى ما قبل عام حين التحقت ابنتها الكبرى بمشغل للحياكة نظير اجر أدخل على حياة الاسرة شيئا من الرخاء النسبى . وهذه الابنة أكبر من الغلام بسنة .. وهنالك أخوات ثلاث أصغر منه ، أعمارهن ١٥ و ١٣ و ١٠ سنوات

ولما جاءنى التقرير طلبت من الام ان تنتظر فى القاعة الخارجية ، ريثما أقابل ابنها على انفراد . ودخل الغلام فاذا به فتى أشبه بالفتيات فى خجله وارتباكه . ولم تنحل عقدة لسانه معى بسهولة .. فكان من العسير أن أصدق فى مثل هذا الغلام صفات الشراسة والعدوان . ورجح عندي من اول وهلة أن العدوان عنده ليس مرده الشراسة . وبدأت من هذه النقطة ، فحاولت أن استدرجه وأن أظهر ما قد يكون في طبعه من جوانب الدماثة .. وبدأ يقص على سيرة حياته :

ــ لقد أتممت الصف السابع فى المدرسة ..

ــ وكيف جاء آخر تقرير عنك ؟

ــ لا بأس به ..

ــ هل تنوى متابعة الدراسة فى المدرسة الثانوية ؟

ــ ان وفاة أبى لم تدع لهذا التفكير محلا ..

ــ ماذا صنعت اذن بعد الصف السابع ؟

ــ بحثت عن عمل ..

ــ أى عمل ؟ ...

ــ كنت أحب أن أصبح نقاشا .. أطلى الجدران . ولكنى لم أجد من يقبلنى صبيا فى هذه المهنة

ــ فماذا صنعت ؟ ..

ــ وجدت بعد قليل وظيفة ساع فى مخزن أدوية ..

ــ وكم مكثت بها ؟ ..

ــ أربعة أسابيع أو خمسة ..

ــ لماذا تركتها ؟ ..

ــ أمى هى السبب .. لم أكن أرى بأسا فىهذا العمل، ولكن أمى كانت تجده بلا مستقبل . كانت تريد لى أن أتعلم حرفة ، فتركت مخزن الادوية وألحقتنى بورشة نجارة .. وهكذا غدوت صبى نجار

ــ وهل كنت تحب هذه الحرفة ؟

ــ انها حرفة جميلة .. وبقيت فيها نحو عام تقريبا ، الى أن اتضح أن صاحب الورشة ليس متخصصا فى هذه الصناعة ، ولا يسمح له القانون بتخريج الصبيان

وتعليمهم .. فتركته وأنا متألم . وعـافت نفسى حرفة النجارة ، فلم أقبل الالتحاق بورشة نجارة أخرى . ثم وجدت لى أمى عملا هنا وعملا هناك .. فكنت انتقـل من مكان الى آخر ، الى أن أصبحت موظفا صـغيرا فى شركة . ولكن الشركة أفلست بعد مضى أقل من عام .. وعادت أمى تلح فى أن أعود للنجارة .. ولكنى كنت قـد سئمت جميع أنواع الحرف ولم أعد أرغب فى أن أتعـلم شيئا جديدا .. فرأيت أن أفضل عمل يناسبنى هو عمل الساعى .. وفعلا اشتغلت ساعيا ..

ـ ولماذا تركت هذا العمل الاخير ؟

ـ بعد ستة أسابيع سعيدة ، وجدت رئيسـا سمجا صار يتعمد اصدار أوامر مهينة الى ، لم تقبلها كرامتى .. فتركت العمل . وهنا بدأت أمى تقيم الدنيا وتقعـدها بسبب ما تسميه رذيلة الكسل وحب المشاغبـة .. وتوسط أحد أقاربى بيننا ، وأوجد لى عملا فى مطحن اقيم فيه بعيدا عن البيت ..

ـ وماذا حدث لهذا العمل ؟

ـ بقيت فيه ثمانية أسابيع .. ثم وجدت أنه لا يلائمنى. فعدت الى البيت ، ومرة اخرى ثارت أمى .. وخصـوصا لان بقائى بلا عمل هذه المرة استمر نحو ستة أشـهر قبل ان أجد وظيفة فى مخزن للبقالة ، كنت أقوم بتوصيل طلباته للعملاء

ـ ولماذا تركت هذه الوظيفة ؟

ـ وجدت فيها صعوبات ..

ـ وماذا تصنع حين تكون بلا عمل ؟

ـ أنا لا أريد أن أكون عالة على امى ... ولى جسـد

قوى واعضاء سليمة . وفى فترات خلوى من العمــــل أساعدها فى أعمال البيت وأجد فى ذلك لذة كبيرة

ــ وما أحب أعمال البيت اليك ؟

ــ غسل الاطباق وتنظيف المنزل ..

ــ ولكنك لا تستطيع أن تغسل الاطباق وتنظف البيت طول الوقت

ــ بقية الوقت أقضيه فى القراءة ..

ــ أى نوع من القراءة ؟ ..

ــ كل ماهو مطبوع أحب قراءته بلا تمييز أو تفضيل..

ــ والآن حدثنى عن علاقتك بأخواتك وأمك ..

وعندئذ ظهر على وجهه الانفعال .. وفهمت من مضمون كلامه أنه ينفر نفورا شديدا من أخته الكبرى ، وأن اخواته على العموم يتخذن منه مادة للسخرية بسبب فشله فى حياته العملية فشلا متلاحقا .. والاخت الكبرى تتزعم هذه المظاهرات !

ــ وماذا يكون موقف أمك فى هذه الحالة ؟

ــ تقف فى جانب بناتها عندما أثور عليهن .. وذلك بدلا من ان تدافع عنى ، مع أن جميــع الاسرات تجعل للغلام مكانة لا يمكن أن تقل أبدا عن مكانة الفتيات .. بل هو أهم منهن !

ــ وهل تكره أمك لهذا السبب ؟

ــ كلا .. بل أحب أمى جدا ..

ــ وأخواتك ؟ ..

ـ أحب الصغرى أكثرهن .. ثم التى أكبر منها .. ثم التى بعدها . أما أختى الكبرى فهى شيطانتى وسم حياتى !

ـ وما شكل أختك الكبرى ؟ ..

ـ أطول منى .. ولها وجه صغير وعينـــان زرقاوان وشعر أشقر

وكانت هذه هى أوصاف أمله كما رأيتها ..

ـ وهل تشبهها أخواتك الصغيرات ؟ ..

ـ كلا .. بل يشبهن ابى شبها كبيرا ..

ـ وهل هناك أسباب أخرى للخلاف ؟ ..

ـ هناك حب أختى الكبرى للسيطرة .. وهــذا شىء اكرهه ، وهو السبب فى تركى لكثير من الاعمال ، لانى لا أطيق أن يتسلط على أحد .. ثم هناك مســـــألة الدين ..

ـ ماذا تعنى بمسألة الدين ؟

ـ أمى واخواتى شديدات التدين .. ويرغمننى دائما على الذهاب معهن الى الاجتماعات الدينية التى أكرهها كرها شديدا ، فأنا من أنصار الافكار التقدمية ..وآرائى فى الحياة أشتراكية متحررة

ـ وهل تتناقش معهن فى آرائك ؟

ـ كلا بالطبع ... فأنا لااجرؤ أن افاتح أمى فيما يدور برأسى من الافكار . وأتعذب كلما رأيت مبلغ الفرق بين أفكارى وأفكارهن ..

واحببت ان استدرجه للكلام عن الناحية العاطفية .. وبعد ان احمر وجهه وارتبك ، صرح لى بأنه يحب بنت

احدى صديقات أمه ، وأنه لذلك يسر بمصاحبة أمه عندما تذهب لزيارة صديقتها تلك

ـ وهل هذه الفتاة جميلة ؟ ..

ـ انها تعجبني .. وان كان اخواتي ومعظم الناس يسخرون من شكلها ، ويتندرون به !

ـ وهل هذه الفتاة هي أول حب لك ؟

ومرة أخرى ارتبك الفلام ، ثم صارحني بأنه عندما كان في الثالثة عشرة من عمره أحب زميلة لشقيقته الكبرى ..

ـ وهل كانت جميلة ؟ ..

ـ أوه .. كانت تشبه أختي الكبرى كثيرا ، الا أن شعرها أشد شقرة وعينيها اكثر زرقة ..

ـ وهل تقابل الفتاة التي تحبها هذه الايام ؟

ـ أحيانا .. في أوقات مختلفة متباعدة ..

ـ وفي هذه المقابلة الانفرادية .. هل تقبلها ؟

فاحمر وجهه احمرارا شديدا ، وقال :

ـ هذا شيء لا يجوز ان نفعله

ـ صف لي هذه الفتاة بالضبط ..

ـ لها شعر أسود وعينان سوداوان ..

وأدركت على الفور أنها نقيض أخته الكبرى في الاوصاف .. ثم عرفت أيضا بعد قليل انها تشبه أخته الصغرى . وعندئذ بدأت أسأله عن ذكريات طفولته .. فأخذ يسرد على مسامعي مشاهد متفرقة ، كان أولها ما حدث ذات يوم .. وكان من عادة الاسرة أن يسمع

الصغار المحفوظات والنصوص فى مباراة للالقاء فى يوم العطلة ، وتنافس ذات مرة مع أخته الكبرى وهو صغير فى القاء مقطوعة عن عيد الميلاد . وخصص والده مجموعة من الصور الملونة جائزة للفائز منهما . وظفرت أختـه الكبرى بالجائزة ، فاغتاظ ومزق الصور .. فانهال عليه أبوه ضربا بالسوط عقابا له على فعلته .. !

ومن الجدير بالذكر أن الغلام عندما ذكر هذه الحادثة بدأها مقلوبة .. فبدأ بأن أباه ضربه بالسوط ، ثم تدرج راجعا الى السبب فى الضرب

وكانت الذكرى الثانية أنه هو وشقيقته الكبرى ،كانا يفضلان فى طفولتهما لعبة العروسين .. وتقوم الاخوات الصغار بدور الذرية الصالحة لهذا الزواج !

واكتفيت من مقابلة الابن بهذا القدر ، فأخرجتـــه وأدخلت الام .. فوجدتها فى حالة غضب شديد لانى قضـــيت اكثر من ساعة مع ولد خائب ، مع أنى أعرف القصة من لسانها من قبل .. فادركت أنها تعتبر مراجعة أقوالها على أقوال ابنها نوعا من التجريح لسلطانها المطلق على الغلام . وهى سيدة نحيفة ، متوسطة الطول، صغيرة الملامح ، نفاذة النظرات ، فياضة الحيوية ، ثابتة الحنان .. عرفت خشونة الحياة منذ طفولتها . ورغم رخاء الحالة المادية بعد زواجها الا أن علاقتها العاطفية مع زوجها لم تكن على ما يرام .. فلما مات كان عليها ان تكافح وحدها طويلا لتعول الاطفال الخمسة ..

وعرفت منها أن ابنتها الكبرى هى احب الجميـــع اليها .. وهى راضية عنها تماما لانها تعطيها كل ماتحصل عليه من عملها . وبفضل تعاونها صارت الحياة لينـــة المهاد .. ولولا شذوذ هذا الولد الوحيد لما كان عندها

فى الدنيا ما تشكو منه ..

ـ وكيف كان زوجك ؟ ..

ـ كان رجلا قليل الاحساس بالمسئولية .. لا يهتم بالجانب الجدى من الحياة كثيرا .. فكل مافى الدنيا هين بسيط فى نظره ، وهمه من الحياة جلسة مرح وكأس شراب .. يعيش لينتهب اللذات السهلة

ـ حتى النساء ؟ ..

ـ حتى النساء ..

ـ وكنتما تتشاجران لهذا السبب ؟

ـ اطلاقا .. لم يحدث بيننا شجار صريح فى أى وقت ، لانى كنت أبتعد بنفسى عن هذا الجانب من حياته ابتعادا تاما . نفضت يدى منه واعتصمت بتدينى وصومى وصلاتى . ولا أدرى لماذا كان الناس يضيقون بتدينى الشديد ، واعتكافى عنهم وعن ضجتهم ، مع أننى لا اتدخل فى حياتهم التى لا تعجبنى ولا ترضى مبادئى السامية

ـ ولكن لماذا ساءت أيضا علاقتك بابنك ؟ ..

ـ انه ولد تافه لاقيمة له .. ولولا مشاحناته مع أخواته لما ازعجنى أمره . ولكنه لا يكتفى بخيبته ، ويحاول دائما ان يملى ارادته ويفرض سيطرته عليهن .. فمن الطبيعى أن يرفضن ذلك ويثرن ضده

ـ ولكنهن يسخرن منه ..

ـ هذا لانه أبله .. وتصرفاته وتعبيراته البلهاء تثير ضحكهن ، فيثور وينقض عليهن بشراسة هوجاء . ولا يستثنى من ذلك شقيقته الكبرى التى يعيش من فضل كدها .. فأبادر بابعاده عن البيت حتى لا يحدث مالاتحمد عقباه

ـ وهل يرتدع ويغادر البيت منقادا لاوامرك ؟

ـ أوه .. انه يطيعنى طاعة تامة ولا يعصى لى كلمة ، ولا يتجاسر أن يتحدانى كما يفعل بأخواته ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لانه يعلم تماما انه لو فعل لاعطيته علقة ساخنة بالسوط ..

ـ حتى فى هذه السن ؟ ..

ـ حتى وهو فى ضعف هذه السن ! .. انه أمامى يتصرف تصرف الطفل . وعندما يكون بلا عمل يهتم بخدمة البيت ونظافته أكثر من أى فتاة

ـ وهل هو بارع فى النظافة ؟ ..

ـ انك اذا رأيت حجرته ستدرك انه اقدر من جميع اخواته الفتيات على الترتيب والتنظيم والتنظيف . وهو ولد مرتب وانيق فى جميع عاداته .. ولا تخلو اخواته من فوضى ، وعندئذ يثور عليهن . ولكن نظافة جسمه ـ ولا سيما رقبته واذنيه ـ تحتاج الى اشراف مستمر من جانبى .! هذا فى الوقت الذى يقضى ساعات امام المرآة وهو يصفف شعره أو يسوى رباط عنقه . وهذا يثير عليه اخواته لانه يستأثر بالمرآة دونهن ، غير مفكر الا فى ذاته . وحين يكون متعطلا يسترخى طول الوقت فى البيت بلا مبالاة ، وكأن هذا الوضع طبيعى بالنسبة لفتى كبير فى مثل سنه . وليس من المناسب أن أنفق أنا وابنتى الكبرى على شاب طويل عريض خصوصا وانه غير أمين ..

ـ هل يسرق ؟ ..

ـ انه يغالط فى مبالغ صغيرة ، كلما كلفته باحضار شىء من دكان البقالة ..

ـ وماذا يصنع بهذه المبالغ الصغيرة ؟ ..

ـ يشتري بها حلوى كما يصنع أطفال الروضة ، ويأكلها خلسة ..

***

وكلام الام قد يجد صدى فى النفوس .. والكثيرون سيعذرونها لشكواها من هذا الولد البليد . ولكن مهمتى ليست مهمة القاضي ، بل مهمة المعالج المرشد .. فالمشكلة هى مشكلة الغلام قبل كل شيء . وهذه المشكلة هي التى يجب ان نعالجها لنقوم انحرافه

ان سلوك الغلام لا اجتماعي .. فيجب أن نبحث عن « الموقف النفسي » الذى أدى الى هذا الانحراف . ولذلك يجب الا تهمنا الاحداث فى حد ذاتها .. بل من حيث تأثر الولد بها .. فعلى ضوء طريقة تأثره سنعرف حالته النفسية ..

ومعنى هذا بالطبع أننا يجب أن نقف الى جانب الغلام حتى نفهم تصرفاته .. وكأننا نقول لانفسنا :

ـ يجب أن نفترض أن الغلام على حق فى تصرفاته ، وان نفتش عن الاسباب التى دفعته الى هذه التصرفات ..

أما الزجر والنهر والمواعظ فلا تؤدى الى نتيجة ..

وأول ظاهرة تلفت النظر هى شراسته فى المنزل نحو أخته الكبرى .. فهذه الشراسة لابد أن تكون مظهرا لشعور كامن فى نفسه من جهتها .. ولابد أن هذا الشعور من القوة بحيث يدوس على الاعتبارات الاجتماعية والنواهى الخلقية .. !

وقد لاحظت أن الولد دمث رقيق ، ليس شرسا

بطبعه .. وهذا يرجح ان غضبه على أخواته يحدث فى نوبات انفعالية لها علاقة بالاخت الكبرى بالذات دون سائر الاخوات ..

واذا رجعنا معه الى تاريخ طفولته ، وجدنا جذور التنافس بينه وبين أخته الكبرى .. والتفوق الذى أحرزته البنت عليه ، مما أدى الى تمرده حتى عاقبه أبوه بالكرباج !

ومن خبرتى أنا وغيرى فى التحليل النفسى ، نعلم أن الذكريات التى من قبيل هذه الحادثة تكون فى الغالب ستارا لذكريات كثيرة مماثلة لا تظهر الا مع التقدم فى التحليل . والمهم ان الوالد فى هذه الحادثة كان قاسيا على الطفل ، ونصر أخته عليه بلا هوادة . وقد يكون الطفل مخطئا ، ولكن الواقع الذى لاشك فيه أنه آمن بمحاباة أبيه لأخته محاباة ظالمة أصلت الكراهية فى نفسه ضدها ..

اما بالنسبة للاخوات الصغيرات ، فتفسير موقفه راجع الى شعوره بعدم التقدير أو هوان القيمة .. فواضح أنه الأم تفضل البنات على الولد . ومن شأن هذا التفضيل أن يغرس فى قلب اى ولد نوعا من العداء للبنات ..

ومن الثابت بتجارب التحليل النفسى ، أن كل طفل يعتبر أخوته ذكورا واناثا منافسين له فى عطف أبويه . ولكن هذا التنافس لا يترك آثارا عميقة ، اذا تحلت الامهات والآباء باللباقة الكافية . ولكن يحدث أحيانا أن تبدر منهم أخطاء لا يلتفتون اليها ، تؤدى الى فتور العلاقة بين الاخوة والاخوات حتى بعد أن يكبروا وتنتهى مرحلة التنافس ..

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، نلاحظ أن والد الفلام لم

يكن يشمله بعطفه ، وان أمه جافية الطبع بالنسبة له ..

وكل هذا قد يكفى لتعليل الكراهية البعيدة المدى بينه وبين شقيقته الكبرى ، لولا أن هناك حادثة أخرى من حوادث الطفولة تناقضها وتدل على أن الفتاة لم تكن دائما عدوته .. فهناك لعبة العروسين ، وهو يعترف أنها كانت لعبته المفضلة فى الصغر . وهذا لا يحدث اذا كانت هناك عداوة بين الاطفال بصورة حقيقية

وهذه اللعبة ليست من البراءة على الدوام كما يبدو عليها .. بل هو دليل على وجود انفعالات عميقة ليست بعيدة كل البعد عن الصبغة الجنسية . ولذا قد يترتب عليها احساس داخلى بالاثم ، ينتج عنه رد فعل مضاد صادر من اللاشعور فى حالة تضخم الخوف وتأنيب الضمير ، لان الطفل فى هذه السن لا يعرف كيف يتخلص من رغباته التى يشعر بأنها محرمة او فيهاعنصرمحرم.. فيكبت هذه الرغبات وينسى كل ما يتصل بها ، بمافىذلك شعوره نحو شركائه فى اللعبة المحرمة .. لان مشاعر المودة بهم تذكره لاشعوريا بالشىء المكبوت ، فتحدث من ذلك غواية خطيرة . وهكذا لاتجد الرغبة المحرمة المكبوتة نحو الاخت سبيلها للظهور صراحة ، فتظهرعلى صورة نوبات من الكراهية والحقد !.. وفى هذا الثوب المتنكر تجد الطاقة الانفعالية المكبوتة متنفسا فى هيئة تنكرية ، لا يعترض عليها العقل الواعى وما يفرضه من رقابة اخلاقية واجتماعية

وقد زادت هذه الحالة تعقدا عند الغلام فى مرحلة البلوغ .. ومن المعلوم ــ بفضل تجارب التحليل النفسى ــ أن الشاب فى هذه المرحلة يجب انيتخلىعنموضوعات حبه داخل الاسرة ، كى يتوجه بحبه الى موضوعات خارج

الاسرة فان لم يحدث ذلك فى الوقت المناسب نتج مايسمى فى علم النفس بالتثبيت الذى لا يمكن التحلل منه بعد البلوغ ...

وواضح من مناقشة هذا الفتى ، أنه قبل البلوغ فشل فى تحويل موضوعات حبه من داخل الاسرة الى خارجها.. بدليل أن الفتاة التى كان يقابلها على انفراد لم يكن يبدى اى محاولة نحو تقبيلها مثلا .. واحمر وجهه وهو يذكرنى أن هذا العمل يعتبر عيبا لا يليق صدوره . والتعبير بالعيب فى هذه الحالة ، انما هو صورة مقنعة لاحساسه بأن طاقة عواطفه كلها متجهة الى داخل الاسرة

ونلاحظ أن الفتاة التى أحبها قبل البلوغ مباشرة، وهو فى الثالثة عشرة ، كانت زميلة لاخته الكبرى وتشبهها كثيرا شكلا وسنا وموضوعا وطباعا . واما الفتاة التى يحبها حاليا ، فهى على عكس ذلك تماما .. اى لا تشبه أخته فى شىء . وهذا يعزز القول بأنه عندما كبت لعبة الزواج ، وكل ما يتصل بها ، كبت ايضا شعوره نحو اخته وكل ما يذكره به . وتحول من الاعجاب بفتاة تشبه أخته الى فتاة اقل جمالا ، ومختلفة عن اخته تماما فى كل شىء ، حتى ولو كان الجميع يسخرون من شكلها .. !

وكأنما كان هذا الاحتيال غير كاف للتحصن ضد عشقه المكبوت لاخته الكبرى .. فلجأ اللاشعور الى حيلة أخرى هى العداء المستمر لتلك الاخت ، كى يكون التشاجر والتناحر عازلا اضافيا بينهما . فكانت الكراهية الشعورية الواعية بمثابة صمام أمن ضد هذا العشق اللاشعورى المكبوت . ونستطيع أن نقول ان خوفه من الوقوع فى العشق المحرم قد اتضح فى سن الثالثة عشرة .. وبدأ احتياطه ضده بالتحول من حب شبيهة أخته الى حب

لفتاة تناقضها تماما ، فكان شعوره بالاثم شمل أيضا شبيهات أخته لا اخته وحدها .. ومع ذلك لم يبتعد تمام الابتعاد عن محيط الاسرة العام ، لان الفتاة الاخيرة تشبه اخته الصغرى التى يحبها الآن أكثر من سائر الاخوات .. لان شعوره نحوها لاينطوى على عنصر العشق المحرم أو الاشتهاء !

وهذا التعليل يفسر لنا مسلكه العدوانى نحو شقيقته الكبرى على الخصوص ، فى نوبات متقطعة تختلف فى طبيعتها عن السلوك العام لذلك الشاب .. مما يدل على انه عدوان نتيجة اسباب نفسية معينة ـ ويؤيد وجهة نظرنا سلوكه مع الفتيات عموما ، فهو سلوك ناقص أو مكفوف

وهذه الحالة تبين لنا نوعا غير نادر من انواع الانحراف عند الشباب . ويتبين لنا اكثر من ذلك الى اى حد يجب أن نتعمق فى البحث عن أسباب الانحراف والى اى مدى يجب أن نتجنب الحلول السهلة السطحية

واذا عدنا الى الفلام ، وراجعنا أقوال أمه عنه وجدناها تصفه بالطفولة ، وتعامله على أنه طفل ، وتأبى ان تعتبره رجلا .. فهو ينقاد لها فى خنوع ، وينظف المنزل ويغسل الاطباق . وذلك من أعمال النساء .. ثم ان حجرته انظف من حجرات أخواته ، ووقوفه امام المرآة اكثر من وقوفهن أمامها دليل آخر على أنوثة .. يضاف الى ذلك خجله الشديد وارتباكه

ولعل السبب فى هذا انه الولد الوحيد فى أسرة كلها اناث ، فالمشاهد ان الولد الذى ينشأ فى مثل تلك الاسرة يتخذ كثيرا من مظاهر الانوثة وصفاتها . وهذه الصفة هى التى تنفر منها أمه وتحتقره من أجلها .. فيحاول الفتى

المسكين ان يثبت وجوده ، ويفرض ارادته على اخواته انتقاما من احتقار أمه أو تخلصا منه .. فيقع فى موجب جديد لاثارة غضبها عليه !

ولكى نفهم هذه الظاهرة جيدا ، يجب أن نلم بأساليب التقمص عند الاطفال بالنسبة لوالديهم ..

ــ ففى الطفولة الاولى ، يكون شعور الطفل أقرب الى التعلق بأمه وان كان يحب أباه ايضا .. ثم يشعر بالغيرة من حب أمه لابيه ، ويتمنى فى سريرته لو تخلص من الاب لتخلص له الام . وهكذا تشوب محبته لابيــــه لطخ من الكراهية .. وهذا ما يسميه التحليل النفسى بالتعارض الوجدانى نحو الاب . وقد اطلق « فرويد » على هـــذه الظاهرة اسم « عقدة أوديب » .. اشـــــارة الى زواج أوديب من أمه بعد ان قتل أباه ، مع أنه كان يجهـــــل شخصيتهما ..

ومع نمو الطفل ابتداء من السنة الثالثة من عمره يشتد التصارع بين حب أبيه وكراهيته . ويشعر أن هـــذه الكراهية آثمة فيكبتها .. وهذا ما يحـــول « الموقف الاوديبى » الى عقدة حقيقية مكبوتة تعمل عملها من أعماق اللاشعور ولكن اذا نمت نفسية الطفل نموا طبيعيا، جاءت مرحلة فى العام السادس من العمر تقريبا تنحل فيها عقدة أوديب .. لانه فى هذه السن يبدأ فى تقمص شخصيــة والديه ، فان تقمص شخصية الام على الاخص غلبت عليه صـــفات الانوثة وقد يكون هذا الميل لاسباب وراثيــة أو لاسباب تتعلق بالبيئة ، وفى هذه الحـالة يقل تقمصـــه لشخصية الاب ، ويقل ميله الى جميع صفات الرجال ، ويشب ناقص الرجولة .. وعندما يصل الى المراهقــة تطول مرحلتها كثيرا !

وهذا ما حدث بالنسبة لفتانا .. فقــد مات أبوه ـ وهو في العام الثالث عشر ـ وكان عليه أن يغــدو رأس الاسرة في موضع أبيه . وهو شيء طبيعي لو ان نموه النفسي كان صحيحا ، وكان تقمصه لشخصية الاب هو الغالب عليه ..

وقد حاول المسكين ذلك التقمص في تلك الســـن المتأخرة .. وهذا هو سبب محاولته الســيطرة على أخواته ، الكبرى والصغريات . ولكنه فشل .. وساعد موقف امه منه على ذلك الفشل . فحدث في داخـــل نفسه صراع بين صفات الانوثة وصفات الرجولة، ومطالبها ومقتضياتها . ولمست أخواته انه أقرب الى جبن النساء وانقيادهن منه الى صلابة الرجال ، فكن يسخرن منه .. فتصيب هذه السخرية النقطه الحساســة فيثور غضبه ويهجم عليهن في نوبات تفسر بأنها سلوك عدواني .. مع ان فشله في تقمص شخصية ابيه ناتج بوضـــوح عن تقمصه الشديد لشخصية أمه

ولم يقف الامر عند هذا الحد .. فهناك نوع اضافي من الصراع حدث لديه هو الصراع بين مبادئه الاشــتراكية المتحررة وبين التــدين المتزمت الذى تتصــف به أمه واخواته . فهو غير مقتنع بمعتقدات أمه ، ولكنه أضعف من أن يجاهر بمعارضتها . وينقاد لها حين تأخذه الى الجمعيات الدينية ، مما يترتب عليه توتر مكظوم يجد متنفسا في نوبات من الغضب تفسر على أنها سلوك عدواني .. ثم يكفر عن تمرده الوقتي ، بالخضوع والانقياد لها في كل شيء ، الا في أمر واحد يحتفظ به كموضع أخير يحمي به كرامته امام نفسه . وذلك هو العمل .. انه لا يريد أن يتعلم حرفة تجعله في المستقبل عاملا قليل القيمــة اجتماعيا ، وعندما اكتشف أن أول معلم نجارة التحق

بورشته لم يكن متخصصا مؤهلا للتعليـــم والتــدريب رفض العمل عنده . ثم ظهر كرهه للوضــع الاجتماعى للعمال عموما فى صورة عدم استقرار فى أى ورشـــة أو حرفة تلحقه بها أمه !

وهكذا تم الكشف عن الاسباب الحقيقية لانحراف هذا الغلام الطيب الخجول .. ومنه يتضح ان كسـله ليس كسلا حقيقيا ، فهو نشيط فى أعمال البيت ومنظم وكثير القراءة . ولو أمكن تعديل علاقته بأمه واخواته ، وأوجدنا له فى الوقت نفسه عملا يبشر بمستقبل اجتماعى محترم لأدى ذلك الى اختفاء أعراض انحرافه شيئا فشيئا

وكانت الخطوة الاولى هي معــالجة فشـله فى تقمص شخصية الاب .. وهو ما كان يراه واجبا عليه كى يملأ المكان الشاغر بعد وفاة أبيه . فقررت أنا أن أشغل ذلك المكان الشاغر ، وأقوم بدور الاب لهــذه الاسرة مدة من الزمن . وبذلك ألغينا أول ميــدان من ميادين الصراع الناشب فى نفسه . وأمكننى ــ وأنا أقوم بدور الاب ــ أن أعمل على تحسين علاقته باخواته ، وان أجعل أمه تعدل من تطرفها وقسوتها نحوه .. لأن هذه الام كانت تجد فى الحديث معى متنفسا للشكوى واستجلاب العطف ، مما ساعد على تصريف طاقات سخطها ومرارتها

وبعد فترة وجيزة ، عثرت له على مكان لدى مصنع للاثاث متخصص لتدريب الصبيان على أعمــال النجارة وتخريجهم رسميا . وسعيت فاحتسبت له مدة السنة التى قضاها فى الورشــــة الاولى مع أنها غير رسمية . وسرعان ما أقبل على العمل والتعلم بنفس راضية ، ولم يظهر عليه أى ميل للتراخى أو الهروب من العمل

وقضيت على المجال الاخير للصراع الفكرى والعقائدى

عنده ، بأن استخدمت سلطتى على افراد الاسرة ، وأنا أقوم بدور الاب ، واقضى سهراتى بينهم ، وأهتم بشئون الجميع .. فعرضت على بساط البحث بصراحة موضوع العقيدة الدينية ، وتمكنت من اقناع الام أن تترك لابنها الحرية التامة فى هذا الشأن .. فلم يعد يشترك معهن فى الجمعيات الدينية ، ولا فى الزيارات الاجتماعية ، الا اذا كانت تلك الزيارات سبيلا لمقابلة فتاته

ومن الطريف أنه فى الفترة الاولى من العلاج ، كان ينتهز فرصة انفراده بى ليسب أخواته .. ولكن عندما يلتئم الشمل فى حجرة واحدة ، كان يقوم بدور الاخ الاكبر بكل نجاح ويتغاضى عن هفواتهن وهو ينظر الى من طرف خفى ، كأنه يشهدنى على صغر عقولهن !

وبعد أسابيع قليلة ، اعترفت الام نفسها بالتحسن الكبير . وساعد انضمامها لصفه فى مواقف كثيرة على تهدئة ثورته وتباعد نوبات غضبه .. ثم بدأت اكتفى بمقابلة الفتى على انفراد ثلاث مرات أسبوعيا مدى نصف سنة بعيدا عن جو المنزل . وأخذت أشرح له بالتدريج الاسباب الحقيقية لحالته ، فكان ذلك أشبه بتحليل نفسى ساعده على فهم نفسه وتعديل ما كان باقيا من انحرافاته .. فلم تنقض الفترة حتى كان قد شفى تماما شفاء ثابتا لا نكسة فيه

أسباب أخرى للانحراف

والآن سأتحدث عن فتى آخر كانت مقابلة واحده كافية لحل مشكلته ، وذلك بفضل استعانتنا بثمرات التحليل النفسى

وهذا الفتى فى السابعة عشرة من عمره ، صبى نجار أخذ هذه الحرفة عن أبيه الذى يمتلك ورشة للتجارة . وفى البداية كان انحرافه يتمثل فى اختلاس مقدار من السبرتو الاحمر من الورشة وكمية من الخشب . وانزعج ابوه لهذا الانحراف ، وحاول اصلاحه بالوعيد . ولما لم يجد معه الوعيد لجأ الى العقوبة البدنية فصار يضربه . ولما لم يقلع عن انحرافه جاءنى به على أمل أن تصلح الاقامة فى المؤسسة الاصلاحية من حاله

واسترعى انتباهى قول ابيه ان الولد عندما كان يسرق السبرتو الاحمر ، كان يبول فى الزجاجات كى يخفى النقص . ولم يقنعنى السبب السطحى ، وهو القول بأن التبول كان وسيلته لاخفاء معالم السرقة لتشابه لون البول ولون الكحول غير النقى . وفكرت فى أسباب أخرى لذلك السلوك بالذات ، على ضوء التحليل النفسى .. وما لديه من تفسير لاستخدام الجهاز التناسلى فى اعمال عدوانية تبدو لاول وهلة بعيدة عن الجنس !

وعندما جىء بالفتى قابلته على انفراد كعادتى ..

ووجدته فارع القامة ، جش الصوت . وتركته بعد ذلك فترة غير قصيرة من غير أن ادعوه لمقابلة ثانية ، كى اتركله فرصة التكيف بجو المؤسسة والاندماج فيها ..

وبعد نصف شهر ، جاءت سيدة جميلة صغيرة الجسم لايمكن ان تزيد سنها على خمسة وعشرين عاما للسؤال عن صاحبنا ذى السبعة عشر ربيعا .. فسبق الى ظنى انها اخته الكبرى . وكم كانت دهشتى عندما عرفت انها زوجة أبيه .. وعرفت من المشرف ان الفتى كان كثير الحديث عنها الى رفاقه ، وانه ارسل اليها فى هذه المدة لا أقل من خطابين !

ولا ندرى ماذا كتب اليها ، لاننا لا نتجسس على مراسلات نزلاء المؤسسة الاصلاحية . وانتهزت الفرصة فدعوت الشابة الجميلة للتحدث معى عن ابن زوجها الشاب ، فرحبت بذلك وتحدثت عنه بفهم ومودة رغم الوضع الذى يوحى بالتنافر بينهما كأى ابن وزوجة اب ..

وكان أول ما قالته لى أن الجيران يعتبرونها ــ بصفتها زوجة الاب ــ المسئولة عما نشب بين الابن وابيه من عداء وسوء تفاهم ، مما أدى الى انحراف الفتى . وما أن صارحتنى السيدة الصغيرة بهذا ، حتى تأثرت وبكت وهى تقسم لى انها ليست كبقية زوجات الآباء ، وانها تعامله أرق معاملة ، بدليل أن الفتى نفسه متعلق بها جدا فى الوقت الذى ساءت فيه علاقته بأبيه ..

وعندئذ سألتها :

ــ ومن اين لك انه يحبك هكذا ؟

فارتبكت وقالت :

ــ أوه .. أخشى أن تسىء الظن بما سأقول ..

ـ اطلاقا .. بل سأصغى لك بكل انتباه ، بذهن خال من اى فكرة سابقة

ـ عندما نخرج معا ، كان يقول لى : « انظرى يا أماه كيف يتطلع الناس الينا » فأشعر انه مزهو بنموه المبكر وبلوغه مبلغ الرجال بحيث يظنه الغرباء صاحبا لى .. ووصلتنى منه وهو نزيل لديكم رسالتان . وفى كل منهما كان يلح على أن آتى لزيارته وأنا مرتدية الثوب البنى اللون الذى يحبه كثيرا ، كى يرآنى زملاؤه فى أحسن صورة !

ـ أهو هذا الثوب الذى اراه الان عليك ؟

ـ طبعا .. فما كنت لأرفض له طلبا يسيرا كهذا يدخل عليه السرور فى وحشته

ـ وكيف علاقته بابيه ؟

ـ حسنة .. وكذلك بالولد ، حتى انه كثيرا ما كان يقول لى : « لاترددى ان كنت فى حاجة الى اى مبلغ صغير لنفقاتك الشخصية ان تخبرينى .. ففى استطاعتى أن أبيع جانبا مما فى الورشة من الاخشاب واعطيك ماتشائين ! » وكنت أظنه يمزح . وبالطبع لم أطلب منه نقودا ، ولم آخذ منه اى مبلغ .. وظللت مدة طويلة لا أعلم انه كان جادا في كلامه ، وانه كان يختلس الخشب والسبرتو فعلا الى أن عرفت ذلك منه . . وحاولت ان اصلحه بالنصح فلم يرتدع .. فوجدت من واجبى أن أطلع والده على الحقيقة ليتدارك الامر بنفسه

ـ وماذا فعل أبوه .. ؟

ـ نصحه .. ثم لجأ الى التهديد عندما تبين له أن النصح لم يثمر . ولما اعيته الحيلة صار يضربه ، ولكن

للفتى ازداد اعوجاجا . تأصلت العداوة بينه وبين أبيه ، وقد أحزنني هذا بصفة خاصة ..

ـ لماذا ؟

ـ كنت اشعر دائما ان الولد يحبني .. حبا اكثر من الحب المعتاد بين أى فتى وزوجة أبيه . واردت ان استغل هذه المكانة فى التأثير عليه لمصلحته ولكنه لم ينتصح .. حتى صرت غير واثقة من أنه يحبني فعلا

ـ ومنذ متى وأنت متزوجة من أبيه .. ؟

ـ منذ ثلاث سنوات .. وكنت صديقة لامه رحمها الله ، وكنت اكثر من زيارتها فى مرضها الاخير ...

ـ ومنذ متى وأنت صديقة لأمه ... ؟

ـ منذ أكثر من خمس سنوات .. أى عندما كان الفتى فى الثانية عشرة من عمره . وكان منذ البداية يحبني كثيرا ، مما سهل على قبول الزواج من والده

وهذه التواريخ المحددة تساعد كثيرا على تصور ماحدث للفتى من صراع عنيف .. ففى فترة الاقدام على المراهقة ، صارت هذه الشابة التى لاتجاوز العشرين صديقة لأمه تتردد كثيرا على المنزل . وفى ذروة المراهقة ـ وهو فى الرابعة عشرة ـ وجد ذلك الفتى الفاره الجسم صاحبته الشابة التى يستظرفها عضوا فى أسرته ، ملازمة له بلا تكلف ولا احتشام . والفرق بينهما فى السن لا يخرجها من دائرة رغباته الخفية .. فصارت موضوعا سريا لهذه الرغبة وهو لا يدرى . واستمر ميله نحوها عامين اكتمل فيهما بلوغه .. ولو أن أمه لم تمت لظلت صاحبتها الغريبة عن البيت موضوعا لهواه سرا بعض الوقت الى أن يتعلق بفتاة اقرب الى سنه . ولكن وفاة

الأم أعقبها زواج الاب من هذه الفتاة ، وهى لم تزل هدفا لهواه المراهق .. فى سن لا يستطيع الفتى فيها أن يتحكم فى رغباته اللاشعورية تمام التحكم .. وأدرك ان حبها صار محرما عليه ، فبدأ الصراع بين المانع الاجتماعى الشعورى والرغبة اللاشعورية

ومسئولية الاب هنا مضاعفة .. فالاب ليس هو الذى اختطف منه حبيبته فقط ، بل هو أيضا قد أتى بها الى عقر البيت ووضعها دائما أمام عينيه بحيث يتضاعف الاغراء .. وجعلها فى موضع أمه فصارت محرمة عليه تماما . وبذلك تسبب زواج أبيه منها فى مضاعفة الرغبة ، كما تسبب فى قطع الامل منها ! .. فهو اذن السبب المباشر فى عذابه المستعر وصراعه المستمر ..

وهذا هو سر حقده على أبيه .. وليس عجيبا بعد ذلك أن يلجأ اللاشعور الى الانتقام من ذلك الاب ، مستخدما الاداة التى استخدمها الوالد فى ايذاء الابن وهو لايدرى .. فصار يجد لذة خاصة فى التبول بالذات فى زجاجات الكحول التى يملكها أبوه وكأنها حرمة من حرماته .. !

***

وكان أيضا فى السابعة عشرة من عمره ، ذلك الفتى الذى أتى به أبوه العامل فى أحد المصانع كى أعالجه فى المؤسسة ، وكان الفتى صبى اسكاف .. ومن الوالد عرفت ان الفتى كان الى الصيف السابق مثلا يحتذى فى الاستقامة وحسن الخلق ولطف المعاشرة سواء فى الورشة أو فى الدار ...

وبلا سابق انذار حدث منه ما يأتى :

سأل اباه ان يعطيه مبلغا يشترى به خامات ليصنع

لنفسه حذاء رخيصا فى الورشة .. واعطاه ابوه المبلغ ، وفى ذلك اليوم لم يعد الى الدار ، وقضى ليلته فى الخارج وفى اليوم التالى ، علمت الاسرة انه لم يذهب كذلك الى الورشة . . فانزعجوا وظنوا أنه أصيب فى حادث من حوادث الطريق ، لانه لم يسبق له الاقدام على مثل تلك الفعلة من قبل . وأبلغوا الشرطة عن غيابه ، وطال البحث والقلق أسبوعا . وفى نهايته أبلغت الشرطة الاهل القلقين ان ابنهم موجود فى مدينة أخرى . وقد عثروا عليه خالى الوفاض من النقود تماما ، وأنهم سيرحلونه الى مسقط رأسه على نفقة الحكومة . . ففرحت الاسرة فرحا شديدا لانهم كانوا قد سلموا بوفاته ، واستقبلوه استقبالا صاخبا . . .

ولكن فرحهم انطفأت جذوته تماما بعد قليل ، لان الفتى عاد واجما كاسف البال .. لايريد ان يتحدث الى أحد عن ظروف هذه الغيبة الغريبة . وكل ما اعترف به هو أنه كان فى مدينة « جراتس » . وهو أمر معروف من قبل لأن الشرطة عثرت عليه هناك . . .

وبعد قليل انقطع الولد عن عمله ، وصار يقضى سحابة يومه فى الحدائق والطرقات متسكعا ، ولا يعود الى البيت الا فى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكتف بهذا الاعوجاج بل صار يكثر من طلب النقود من أبيه . ولما قبض الأب يده عنه صار يذهب الى صاحب المصنع الذى يعمل به والده ، ويطلب منه مبالغ باسمه على الحساب !

ونفد صبر الوالد ، فصار يضربه ضربا موجعا عسى أن يرتدع . ولكن ذلك العلاج زاد حالته سوءا . وفى الوقت نفسه جنحت أمه الى العطف عليه ، وانحازت الى جانبه، وراحت تطالب الأب بالعدول عن القسوة الى الرفق واللطف !

ورضخ الاب لرغبة الام .. وخيل اليهما ان سياسة اللين مجدية ، لان سلوكه تحسن .. بيد أن هذا التحسن لم يدم طويلا .. وعاد الى سيرته الاولى بعد قليل ، فنفضت الام يدها منه وعاد أبوه الى سياسة التشدد والقسوة . ولم تجد هذه السياسة ، فعاد الى اللين ، ثم الى القسوة ..

ولخص الوالد الموقف بقوله :

ـ لم أعد أدرى ماذا أصنع به .. لقد جربت اللين وجربت القسوة ، ولكن بلا جدوى . وصرت موقنا أنه لا حيلة لى فيه .. فلعل الاصلاحية تقوم اعوجاجه

وكان حديث الاب حتى ذلك الحين منصبا على أحوال ابنه ، وما عاناه من اعوجاجه ، وما تكبده فى سبيل تقويمه .. ولم يحدثنى عن نفسه وعن جو البيت واحوال الاسرة ومابين افرادها من علاقات .. وهى معلومات لابد منها لتفسير سلوك الفتى

وسألته عن تلك الامور ، فعرفت منه ما يأتى :

تتكون الاسرة من الاب ، وزوجته التى اقترن بها منذ ١٢ سنة ، وابن كبير يتأهب لدخول الجامعة ، وهذا الفتى ، وأخت صغيرة فى الخامسة من عمرها . وهذه البنت هى ثمرة الزواج الثانى .. والعلاقات بين الزوجين حسنة ، واحوال الاسرة المادية طيبة

وسألته عن علاقة الولد بأخيه الاكبر الذى يتأهب لدخول الجامعة ، فأكد لى أنه لا يشعر بأى نقص من من جهته .. لأنهما يتمتعان بمعاملة واحدة ومساواة فى كل شىء . ولكن الفتى منذ اعوج سيره ، صار مشاغبا ويكثر من مشاحنة أخيه الكبير بلا مبرر ..

وسألته عن علاقته بأخته الصغيرة ، فأكد لى أنه لايغار منها لأنها أصغر منه بكثير .. وخصوصا لان الاب لايهتم بأمرها كثيرا ، فلا يدللها ولا يقصيها عن قلبه

وتحسر الرجل على حياة المحبة والصفاء والسهرات الجميلة فى البيت حيث الجميع يغنون ويمرحون ويسمرون ... وكيف صار لا يسمع الآن الا الشكوى المتكررة من سلوك ابنه المعوج

وعلمت كذلك أن الاب كان يريد أن يستمر ابنه الثانى فى التعليم ، ولكنه أصر على تعلم حرفة الاسكاف . وبدأ فيها من غير رضاه ، منتهزا رسوبه فى الصف الثانى الثانوى كى يرفض العودة الى المدرسة رفضا باتا لم تنفع معه توسلات الاب وزوجته والابن الاكبر فى ارجاعه عن تصميمه ...

ــ ولكن لماذا اختار هذه الصناعة بالذات ؟

ــ انها صناعة والد زوجتى الثانية ...

ــ وهل لابنك علاقة بفتيات ؟ .. ان هذا قد يلقى ضوءا على هرب الفتى فى البيت أول مرة ...

ــ أنا متأكد تماما من أنه لا علاقة له بالبنات ...

ووجدت أن الوقت قد حان لاستقصاء معلوماتى من الفتى مباشرة ، فقابلته على انفراد .. فاذا بى أمام فتى قصير نحيل يبدو على وجهه المهموم انه أكبر من سن السابعة عشرة ، وثيابه نظيفة .. ودار بيننا الحوار التالى :

ــ صارحنى ابوك بما كان من أفعالك .. وأنا أريد أن أساعدك ...

ـ أوه ... لن يكون ذلك في وسعك !

ـ طبيعي انك لاتثق بي كثيرا .. فنحن لا يعرف أحدنا الآخر بعد ..

ـ ليس هذا هو السبب .. بل لأنه لا فائدة في محاولة مساعدتي .. !

ـ هل ترفض أن تتحدث معي عن نفسك ؟

ـ وما المانع ؟ لنتحدث ! ..

ـ بشرط واحد اذن ..

ـ وما هو الشرط ؟

ـ ألا تجيب على اى سؤال لا ترتاح للاجابة عنه !

فظهرت عليه امارات الدهشة ، وقال بلهفة :

ـ ماذا تعني ؟..

ـ أعني أن تقول لي جوابا عن أى سؤال لا يعجبك : « ليس هذا شأنك » !

ـ ولماذا تشترط على هذا الشرط ؟..

ـ لأني لا أريد أن أكرهك على الافضاء بأى شيء لا ترغب في الافضاء به .. فأسرارك ملك خاص لك ، وأنا لست محققا ولا مخبرا ولا جاسوسا .. ثم أنا أعلم أنك لن تكون صادقا تماما في الاجابة عن أى سؤال لا يروق لك .. فما فائدة الاجابة اذن ؟

ـ وما أدراك انى سأكذب ؟

ـ هذا هو التصرف الطبيعي الذى نقدم عليه جميعا .. ولماذا تكون أنت مختلفا عن بقية الناس في هذا الامر ؟

ــ وهل ستعرف انى أكذب اذا كذبت ؟

ــ ليس هــذا فى اســتطاعتى .. ولكنى أريد أن أثق بك ، وخصوصا ان الكذب لا لزوم له ما دمت قد صرحت لك بعدم الاجابة عما لا تحب من أسئلتى

ــ أوه .. كانوا فى البيت يقولون لى دائما : قل الحقيقة ولن نعاقبك .. وأقول الحقيقة فيؤذوننى اذى شديدا !

ــ ليست هذه طريقتى شـخصيا .. فأنا أكتفى بمـا تريد أن تقوله لى عن طيب خاطر ، وأتوقع منك ان تلتزم الصدق فى الجانب الذى توافق على مصارحتى به ..

ــ ليكن لك ما تريد ..

ــ فلنتصافح اذن ابراما للاتفاق ..

فشد على يدى بحرارة توحى بالثقة ..

ــ والان .. فى أى صف كنت عندما غادرت المدرسة ؟

ــ فى الصف الثانى الثانوى ..

ــ ولمـاذا لم تستمر فى دراستك ؟..

ــ لانى رسبت فى ثلاث مواد .. فزهدت فى المدرسة

ــ وهل أقرك والدك على ذلك ؟

ــ كان يريد منى أن أعيد الصف ..

ــ ولمـاذا اخترت صناعة الاحذية ؟

ــ كانت هذه صناعة جدى لابى ..

ــ لنترك هذا الان .. وخبرنى لمـاذا ذهبت الى مدينة « جراتس » ؟

ــ لا أدرى ..

ــ هناك سبب حتما لاختيارك « جراتس » بالذات !

ـ أنا حقيقة لا أدرى ..

ـ فكر قليلا .. فقد حدث ذلك منذ أقل من سـنة ، فلا يعقل أن تكون قد نسيت فى هذه الفترة الوجيزة ..

ـ لعل السبب أن أخى ذهب فى رحلة مع رفاقه الى هناك قبل ذلك بمدة وجيزة فى يوم من أيام العطلة ..!

وسكت وظهر عليه التردد .. وبعد برهة سألته :

ـ ألا تريد أن تزيدنى ايضاحا ؟

فنظر الى وجهى فجأة ، ثم أطرق برأسه وبكى بحرقة شديدة وقال :

ـ هل تعدنى ألا تخبر أبى ؟..

ـ أعدك بشرفى .. وهاك يدى ..

وشد على يدى بقوة ، وقال :

ـ كنت أفكر فى الانتحار ..

ـ متى ؟..

ـ فى الصيف الماضى ..

ـ قبل أن تأخذ من والدك النقود لشراء خامات للحذاء الجديد ؟

ـ نعم .. قبل ذلك ..

ـ وما السبب ؟..

ـ صحب أخى الكبير زوجة أبى لزيارة قريبة لنـا .. وبقيت فى المنزل ، ولم أسافر معهما لانى مـرتبط بالعمل فى الورشة . وذهبت خلال ذلك الى العمل بضعة أيام ، ثم انقطعت عنه ثلاثة أيام بغير علم أبى .. وركبنى الخوف

فى أن يبلغه نبأ غيابى حتى لقد فكرت فى الانتحار ..

ـ وهل شرعت فى الانتحار فعلا ؟

ـ كلا .. فقد عدلت عن ذلك الى التفكير فى الهرب من البلدة نهائيا . وطلبت من أبى ذلك المبلغ ورحلت ، ولكن المبلغ نفد بسرعة وأعادونى الى البيت .. .. ومن ذلك اليوم ساء موقفى وساءت معاملتى ..

ـ وما علاقتك بأخيك الكبير ؟

ـ لا بأس بها .. أو هكذا كانت ، الى ان صار ينحاز الى صف أبى فى الفترة الاخيرة ..

ـ الا يحز فى نفسك أن يتمم أخوك تعليمه فى الجامعة وتصير أنت صبى اسكاف ..؟

وامتنع عن الاجابة عن هذا السؤال ..

وانتقلت بسرعة الى أسئلة أخرى عرفت عن طريقها المعلومات التالية :

ماتت أمه وهو فى الرابعة من عمره .. ولم يلبث والده الا سنة واحدة ثم تزوج . وكانت زوجة أبيه شديدة الاعجاب بأبيها وهو اسكاف . والفتى شخصيا يشاركها فى هذا الاعجاب به ، لانه ـ على حد قوله ـ رجل رزين جدا ولطيف للغاية .. واما علاقته بأبيه فظلت طيبة جدا الى الصيف الماضى

ولما سألته عن رأيه فى أبيه ، صرح لى بأنه على الرغم مما بينهما من سوء تفاهم فى الوقت الحاضر الا أنه رجل طيب ، محب لاسرته ، يقضى سهراته فى البيت .. ولا يتردد على الحانات الا فى أوقات قليلة جدا ، وهو قائم بمطالب الاسرة .. فلا يشعر أفرادها بضائقة أو نقص

ولما سألته عن الدافع له على طلب المال من أبيه بحجة شراء خامات للحذاء الجديد ، برر ذلك بأن أباه أعطى أخاه مبلغا مساويا لهذا المبلغ من قبل كى يذهب مع اخوانه فى رحلة الى « جراتس » فشعر ان من حقه ان يأخذ ذلك المبلغ .. ولكنه شعر أيضا انه لو صارح أباه بذلك لرفض أن يعطيه تلك النقود ، فلجأ الى الكذب مضطرا ...

والعجيب انه أعتبر والده مسئولا عن سوء مستقبله واتخاذه صناعة الاسكاف حرفة .. رغم أن هذه كانت ارادته شخصيا ، وعلى غير مراد أبيه .. وكان منطقه كما يأتى :

ـ أن الوالد أدرى بمصلحة الابن .. فسن الرابعة عشر لا تسمح له عقليته بحسن الاختيار فى أمر خطير كهذا .. فكان واجبه أن يرغمنى على اعادة السنة الدراسية ارغاما ، ولو فعل لكنت الان تلميذا محترما سائرا فى طريق قويم !

واستأذنته فى أن أقوم بتوضيح كل شىء لأبيه .. فبدا عليه التردد وقال :

ـ لا فائدة من التفاهم معه .. لقد حاولت ذلك أكثر من مرة بلا جدوى

ـ ولكنى واثق أنه لم يكن يعرف كل الحقائق ، وواثق أنه سيحسن فهمك اذا أنا شرحت له كل شىء .. بشرط ان تحلنى من وعدى لك بكتمان ما افضيت الى به ، وانا سأضمن لك تصفية الموقف على ما تحب

ووافق بعد تردد قصير ، فصرفته على أن يرسل أباه من حجرة الانتظار ويبقى هو هناك ..

واستلزم الامر منى وقتا طويلا كى أدخل فى ذهن الوالد أنه أنجب ابنه وعاش معه هذه السنوات من غير أن يعرفه على حقيقته .. وكان يهـز رأسه أو يحملق بعينيه فى دهشة بالغة ، وأنا أفسر له سلوك ابنه .. ثم انتهى به الامر الى البكاء تأثرا لما حدث لابنه . فأدركت أن هذه هى اللحظة المثلى للتقريب بين الاب والابن ، فناديت الابن وتركتهما معا بعض الوقت

ولما عدت بعد ثلث ساعة ، وجدتهما واجمين تماما .. وقال الاب فى أسف :

ـ انه مصر على الصمت ..

وشعرت بغيظ شديد من هذا الاب الذى قضيت ساعتين فى تفهيمه حالة ابنه ، واذا به بعد ان بكى تأثرا لا يعرف كيف يشعر ابنه بأن قلبه صار مفتوحا له .. ولذلك تحولت عن الاب ، ووضعت يدى على كتف الفتى وقلت :

ـ لا تبتئس يا بنى .. وليس من المهم أن تقول شيئا، ففى الامكان أن يتفاهم الشخصان المتحابان من غير أن يتبادلا كلمة واحدة ..

وكأنما كانت هذه الكلمة عصا سحرية ، فسرعان ما ارتمى كل منهما فى أحضان الاخر وهو يبكى .. !

وبعد أن هدأت عواطفهما الثائرة ، وجدت من واجبى أن أخلو بالأب لأقول له شيئا على انفراد ، فأرسلت الفتى كى يشترى لى سجائر .. وقلت للأب :

ـ ربما عاد ابنك الى الانحراف ، فلا تجزع .. وعد فى الحال الى لتأخذ رأيى فيما تصنع . أما الان فاذهب به توا الى صاحب الورشة كى يستأنف عمله .. وعاملوه

من الان كأن شيئا لم يبدر منه ..

ولم يطل انتظارى .. ففى الصباح الباكر من اليوم التالى وجدت الاب على باب عيادتى ، وقد استبد به اليأس من تقويم هذا الولد المعوج .. وبهدوء سألته ما الذى حدث بعد انصرافهما ، فقال :

ـ خرجنا فى خير حال .. وفى الطريق انتهزت فرصة الصفاء ، ورحت ألقى عليه عظة حسنة تنفعه . وقلت له ان ينتهز رضاى عنه فلا يعود الى أغضابى بمثل ما كان يقترفه . وذهبت به الى صاحب الورشة ، ولكنه لم يقض بعد الظهر هناك كما هو مفروض ، بل تسكع كسابق عهده بين المقاهى والحدائق الى نصف الليل !

وأدركت أن الوالد بموعظته أحرج الفتى وتحداه فانتكس ، وأيقنت أن هذا الرجل لن يكون عونا لى على علاج ابنه .. وطلبت منه أن يرسل ابنه الى فى المساء وحده ..

وجاءنى وعلى وجهه البراءة .. وسألته عن أحواله ، فزعم أنها على ما يرام .. وكتم عنى ما فعله ، ولما سألته عن أبيه قال :

ـ انك تحسن به الظن أكثر مما يستحق .. فقد ظل يعظنى فى طريق العودة ، ويملى على شروطه كى يصفح عنى ويحبنى ..

وهذه هى غلطة ذلك الوالد فعلا .. لأنه لم يظهر لابنه بمظهر الرجل العطوف الذى يمنحه حبه بلا قيد ولا شرط لانه فهم مشكلاته ..

وتركت هذا الموضوع كأنه ليس مهما ، ورحت أتحدث معه فى أشياء أخرى عامة .. ولما جرنا الحديث عفوا

الى الموسيقى ، قال ان والده يعزف الكمان ، وأن جميع أفراد الاسرة يعزفون على آلات موسيقية شتى ، وأنه يعزف الناى

وعند منزلى الذى قطعنا الطريق اليه فى هذا الحديث ، سألنى من تلقاء نفسه :

ـ لقد سعدت بهذا السير معك .. فمتى نتقابل ؟

فضربت له موعدا بعد ثلاثة أيام .. ولكنه قال :

ـ هذا بعيد جدا ..

ـ ليكن غدا اذن .. فى مثل موعد الليلة ..

ـ شكرا .. أبلغ تحياتى واحترامى الى زوجتك يا سيدى ..

ولم أكن ذكرت له زوجتى اطلاقا .. وليس المفروض انه يعرف ان كنت متزوجا أم لا ، فكأنه افترض انمسألة زواجى قضية مسلمة

ووقفت أمام عتبة دارى أرقبهوهو منصرف .. فرأيته بعد بضعة أمتار يقف ويستدير الى ويلوح بيده ويرفع قبعته ، فقابلت تحياته بمثلها .. وبعد خطوات أخرى تكرر منه ذلك ..

وفى الليلة التالية ، اقترح أن نمشى من طريق طويلة كى نقطع وقتا أكبر فى السمر . ودام السير ساعة .. ودعانى ان أزوره فى البيت كى أحضر احدى السهرات الموسيقية مع الاسرة ، فقلت له اننى ناقد موسيقى مر ، وانه يجب أن يعد برنامجا جديرا بالاعتبار ..

وكان هدفى من هذا الكلام أن أوجه عنايته نتيجة لاهتمامه برضاى الى ميدان يهذب عواطفه ، ويساعد على تقويمه وبقائه فى المنزل وتعاونه مع بقية أفراد الفرقة

الموسيقية التى ستقدم البرنامج

وظللت اضرب له موعداً لمقابلتي كي يصحبني في طريقي الى البيت مساء بعد مساء ، ثلاث ليال فى الاسبوع . وغرضي من ذلك أن أنمي علاقته العاطفية بي ، بصورة غير مباشرة من غير أن أعبر عن تلك العاطفة بالالفاظ

وأردت أن أختبر مدى تعلقه بي ، فضربت له ذات مرة موعداً تخلفت عنه ساعتين .. فلما حضرت وجدته قد انصرف ، وعلمت من الساقي فى المقهى انه انتظرني اكثر من ساعة ونصف ولم يظهر السخط عند انصرافه .. بل ترك لي رسالة مع الساقي يسألني عن زمان ومكان لقائنا القادم

وقابلته في اليوم التالي ، وشكرته على طول انتظاره .. فأبدى تسامحا كبيرا ، وقال انه يدرك ازدحام وقتي بالمشاغل والاعمال . وتحدثنا في تلك الليلة عن الترقية التي حصل عليها فى عمله نتيجة لاجتهاده وقد ظهر عليه الزهو . وعرج فى الحديث عن موضوع السهرة الموسيقية، واثنى على أخيه الاكبر لتعاونه معه باخلاص على انجاح ذلك البرنامج . ورأيت فى ذلك تلميحا كافيا ، فحددت له موعداً للزيارة بعد اسبوعين .. فكاد يطير سروراً بهذا الموعد ، ثم لزم الصمت فجأة وظهر عليه الشرود فسألته عما يشغله فقال :

ـ فكرة سخيفة .. فقد خطر لي أن أبي لو أنه كان يعاملني كما تعاملني أنت لما أقدمت على شيء يغضبه !

وفي ليلة الزيارة ، وجدت جميع أفراد الاسرة في انتظاري . وكان الفتى أكثرهم اهتماما .. فأردت أن أختصر عذاب القلق الذي يعانيه ، وطلبت أن يبدأ العزف فورا . والحقيقة أن الاداء الموسيقي كان أفضل مما كنت

انتظر ، وقد أعربت عن سرورى بأجلى صورة .. ولكنى لم أخصه شخصيا بالثناء حتى لا يبدو أننى أرمى الى مكافأته أو التقرب اليه . وبعد العزف جلسنا الى المائدة، وتحدثنا فى أحوال الاب وعمله ، ومتاعب ربة البيت ، ولكنى لم اتعرض من قريب او بعيد الى سلوك الفتى سواء فى الماضى أو الحاضر .. مع أن السمر زاد على ثلاث ساعات

وبعد ذلك باعدت بين مواعيدى مع الفتى .. وكنت أتسقط أخباره من أبيه فتزيدنى اطمئنانا ، الى أن حلت أجازتى السنوية فسافرت ، وجعلت أراسله ،ثم باعدت بين الخطابات . ولما رجعت من الاجازة ، لم أكن أقابله الا صدفة .. أو عندما يزورنى فى المناسبات ، وأصبح واضحا أنه شفى ..

وحالة هذا الفتى ــ هى بلا شك ــ حالة سلوك انتقامى موجه ضد الاب ، فهو يشعر بالنقص بازاء شقيقه الاكبر الذى يتم تعليمه . ولكن الغامض فى الامر هو سر سخطه على أبيه ، بعد أن بلغ السابعة عشرة ، لعمل حدث وهو فى الرابعة عشرة .. ومع أن هذا العمل كان برغبة الفتى ورغم ارادة أبيه !

والجواب أن اتجاه الفتى فى سن الرابعة عشرة لصناعة الاحذية ، لابد أنه كان نتيجة لرغبة خفية أقوى لديه فى ذلك الحين من الرغبة فى اتمام الدراسة .. ولابد أن هذه الرغبة الخفية زالت بعد ثلاث سنوات ، فرجحت كفة الرغبة فى اتمام الدراسة ، وحدث الندم على فوات تلك الفرصة والسخط على من ساعد على فواتها ولو من بعيد

وهذا التطور فى المراحل النفسية شىء طبيعى .. فابن

السادسة عشرة لا يكون فى نفس الموقف السيكولوجى الذى كان فيه ابن الرابعة عشرة

وسنجد مفتاح اللغز فى عبارة جاءت على لسان الفتى عرضا ، وهو يودعنى عند باب دارى فى أول ليلة قطعنا فيها الطريق الى منزلى معا :

ـ بلغ تحياتى الى زوجتك ..

فهذه العبارة ليست من باب المجاملة المفروغ منها ، لانه لا يعرف زوجتى .. بل ولم يكن يعرف عندئذ أن لى زوجة اطلاقا ، الا أنه كان يعتبر زواجى أمرا مسلما به . وتعليل ذلك انه كان يضعنى نفسانيا موضع البديل من ابيه ويسقط على كل الخصائص المفروضة فى ابيه أو التى يتمناها فيه . ويتمم ذلك ما قاله لى فيما بعد من انه كان يتمنى لو أن أباه عامله مثلما أعامله .. !

وعلى ضوء هذا الموقف ، ندرك أن تحيته لزوجتى كانت فى الواقع تحية موجهة منه الى أمه . ولما كان هذا السلوك قد صدر بغير مثير خارجى خاص ، فهو اذن نابع من اللاشعور .. ويحمل فى هذه الحالة شحنة وجدانية قوية ، مما يوحى بأنه شديد التعلق بأمه ، وأن ارتباطه بها كان ارتباطا ينطوى على « التثبيت » فى المرحلة « الاوديبية » .. ومما يساعد على هذا الظن أنه خجول قلق فيه مسحة أنوثة

ونحن نعلم أن أمه ماتت وهو صغير ، وأن زوجة أبيه حلت محلها بسرعة . ومن المعتاد فى هذه الحالة ، أن ينتقل التعلق المحرم بالام الى بديلتها وهى زوجة الاب . وقد علمنا أن علاقته بزوجة أبيه كانت طيبة ، وأنها كانت تنحاز الى صفه فى كثير من الاحيان ، وتطالب أباه أن يترفق به ..

فاذا اضفنا الى ذلك أن الفتى فى تلك السن ، لم تكن له أية علاقات غرامية خارج الاسرة ، أدركنا أن هذه علامة اخرى على تأخر تحول العواطف من داخل الاسرة الى خارجها .. وهى من العلاقات «الاوديبية» القوية

ومن العلاقات « الاوديبية » أيضا ، أن يكون احساس الابن دائما نحو أبيه هو احساسه بمنافس لاشعورى فى حب أمه . ولكن هذا الاحساس بالكراهية يكبت فى اللاشعور لان العرف والاخلاق تحرمانه .. وبذلك نفهم أن اصرار الفتى على هجر المدرسة ، انما كان نكاية فى أبيه بدافع من عدائه اللاشعورى المكبوت نحوه .. فهو يعلم أن والده ــ وهو رئيس ادارة فى الحكومة ــ سوف يؤلمه ويجرح كبرياءه أن يصبح ابنه صبى اسكاف !

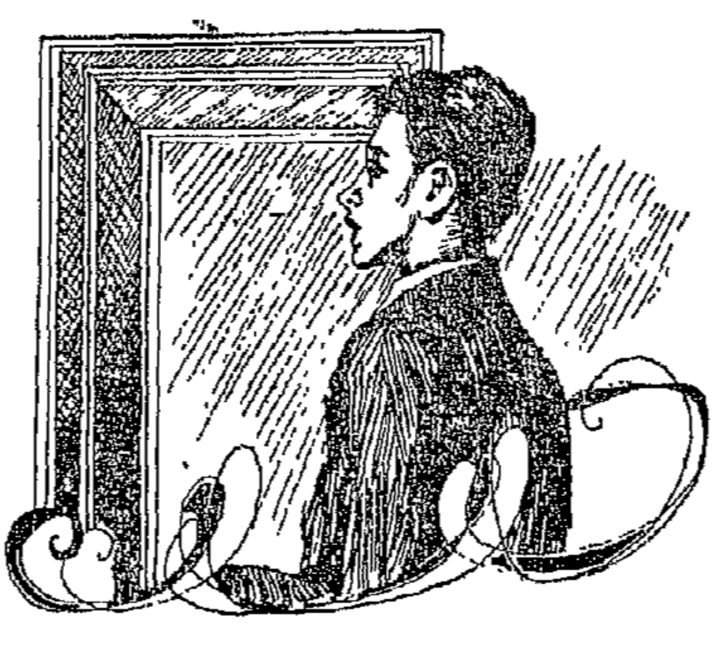
وهو اذ تخير هذه الصناعة ، أصاب عصفورين بحجر واحد : فهو من جهة قد بالغ فى ايذاء شعور أبيه بهذا الاختيار . ومن جهة اخرى اختار حرفة والد زوجة أبيه .. ونحن نعلم أن زوجة أبيه كانت شديدة الاعجاب والتعلق بأبيها ، وأنه كان يعجب به أيضا .. فهو اذ يختار حرفة أبيها سيربح تقديرها له ، لان هذه الحرفة ستضعه فى مثل موضع أبيها لا فى مثل موضع أبيه هو ؟

وبعد أن أرضى فى نفسه هذه الرغبة ، بدأ يعانى من الواقع يوميا .. وهو واقع مرير بالنسبة لابن أسرة من الطبقة الوسطى ، لا شك أن اشتغاله صبى أسكاف ينطوى على هبوط شديد وايذاء لاحترام الذات .. فشعر فى سن السادسة عشرة أن كرامته هو قد جرحت اكثر من كرامة أبيه . وبدأت الرغبة فى الانتقام من والده تبحث عن أسلوب جديد يسىء الى الاب ويرفع مهانة العمل الحقير عن الابن !

يضاف الى ذلك أن تضحيته اللاشعورية باختيار حرفة والد زوجة ابيه ـ تقربا اليها ـ ثبت انها ذهبت هدرا ، لان هذه السيده اصطحبت أخاه من دونه عند سفرها لزيارة قريبتهم !

ولكن هذا النمو فى مدى السنتين أو الثلاث قد ساعد على تحرر الفتى من الرغبة المحرمة الخفية فى اللاشعور ، بازاء بديلة أمه ، وهذا هو ما ساعدنا على التقريب بينه وبين ابيه .. فلو أن المرحلة « الاوديبية » ظلت مسيطرة على الفتى لكان من المحتوم ان تظل كراهيته لابيه مسيطرة على لاشعوره !

ان الصراع الذى كان فى نفس الفتى ، وهو ينتقل من المرحلة « الاوديبية » الى ما بعدها ، أشعره أن مستقبله ضاع .. فخطر له أن ينتحر ويضع حدا لحياته . ومن المعروف فى التحليل النفسى أن الهروب من المنزل هو سلوك رمزى للانتحار ، ولا سيما عند أصحاب الميول النرجسية .. أى الذين يتجه حبهم الى ذواتهم بدلا من الاتجاه الى أشخاص الاخرين



الفصل الثالث

دور العلاج النفسى فى حياة المريض



التحويل

يتيح العلاج بالتحليل النفسي للمعالج المحلل ، أن يقوم بدور هام فى حياة مريضة الوجدانية .. ولهـذا الدور أهمية أساسية فى عملية التحليل نفسهـا ، لان المريض يشعر أثناء العلاج اما بحب شديد أو نفور شديد نحـو المحلل . وقد استرعت هذه الحقيقة اهتمام رواد التحليل النفسى الاوائل ، حتى ان « فرويد » نفسه درسها دراسة عميقة وأطلق عليها لفظ التحويل . وسأحاول أن أبين الاسباب التى حملت « فرويد » على اختيار هذا اللفظ الاصطلاحى لتلك العملية الوجدانية ..

وهناك نوع من التحويل ـ مضاد للنوع السابق ـ هو التحويل العكسى .. ونعنى به أن يشعر المدرس أو المعالج أو المرشد نحو من تحت اشرافه ، أو ولايته ، أو نحـو مريضه ، بعلاقة وجـدانية غـير عادية اما بالارتباط أو النفور

وأساس التحويل هو وجود علاقة قديمة بين المريض أو الطفل أو الناشىء المراهق أو الشاب بشخص آخر .. بحيث يحل المرشد أو المعلم محـل الشخص الذى كان موضوعا لتلك العلاقة القديمة

ومن المعلوم أن الطفل يتخذ من والديه موضـوعات لحبه .. ونعرف أيضا أن هناك مرحلة « أوديبية » تنحل

مع النمو الطبيعى ، ثم يتقمص الطفل شخصية ابيــه . وقبيل البلوغ لابد أن يتحول الطفل بطاقته الحيوية من داخل الاسرة الى خارجها .. وتذكر هذه الاطوار ضرورى لفهم عملية التحويل

وليس من العسير أن نعرف ما حمل « فرويد » على اختيار اصطلاح التحويل علما على العلاقة العاطفية بين المريض والمحلل . ولابد لكل من يشتغل بالتربية والارشاد للاطفال والشباب ، أن يعرف أسرار عملية التحويل معرفة تامة .. فالطفل المنحرف يستقيم حاله اذا عرفنا كيف نوقفه فى موقف التحويل ، ونستغل عاطفته الجديدة نحونا بتقويم سبيله

وقد أثبتت التجارب أن الانحراف عند الشاب ، يرجع الى ما أصاب حياته الوجدانية من اضطراب فى مرحــلة الطفولة المبكرة .. اما لافراط فى المحبة أو لتفريط فيها .. فالتــدليل المفرط كالجــفوة المفرطــة يؤديان الى الانحراف . .

وخير ما يساعد على تنشئة الشاب تنشئة سوية نافعة اجتماعية ، أن يتزود من طفولتــه الاولى فى البيت زادا وجدانيا ينفعه فى المدرسة .. وأن يتزود من المدرسة زادا وجدانيا وعقليا ينفعه فى معترك الحياة . .

وسبيل ذلك أن تتكون لديه منذ الصغر عواطف نحو أبيه تصلح اساسا لحلول معلميه محل الاب حين يذهب الى المدرسة ، وأن يتكون من علاقته باخـــوته وأخواته أساس عاطفى ينفعه حين يحل زملاؤه فى المدرسة محــل اخوته واخواته .. وكل علاقة جديدة تعتبــر اعادة فى ثوب جديد لعلاقة سابقة مع تحوير ضئيل ..

ونلاحظ أن من تكيفوا فى بداية حياتهم تكيفا طبيعيا بالوسط الذى يعيشون فيه لاتصادفهم فيما بعد صعوبات كبيرة فى علاقاتهم العاطفية بالآخرين . ولذلك نجدهم ينشئون العلاقات الجديدة ، أو يتخلصون من العلاقات القديمة ، من غير أن يعانوا بسبب ذلك صراعا لافائدة منه

ولعل هذا يفسر لنا سر المقاومة التى يقابل بها دواما كل مصلح يحاول تغيير النظم الاجتماعية القديمة . . فموقفنا نحو النظام الاجتماعى يستمد قوته من تركيب الاسرة ، ومن تمكن أعضائها من قلوبنا .. ونظام الدولة أو النظام الاجتماعى الراسخ له من المكانة الوجدانية عند الانسان بقدر ما لأسرته ــ وهو طفل ــ من مكانة واعتبار فى وجدانه . وهذه مسألة يجب أن يحسب المصلحون حسابها ، وأن يعرفوا أن النضج النفسى السليم يحول الشاب من التعلق العاطفى بأسرته الاولى الى تعلق عاطفى بالمجتمع الخارجى . ومتى سهل عليه التحرر من عواطف الطفولة ، فسيسهل عليه ان ينظر الى المسائل الاجتماعية بقسط وافر من الموضوعية والتعقل

واذا أصيب الطفل باضطراب فى عواطفه ، نتيجة حرمان عاطفى واضح أو حنان مفرط ، فان تطوره يكون ناقصا وتكيفه يكون ضعيفا فلا يقوى على مواجهة مصاعب الحياة ومشكلاتها .. لانه سيعجز عن تكوين علاقات المحبة الطبيعية التى هى لباب جميع العلاقات الاجتماعية ..

وهذا العجز خليق أن يجعله فريسة للشعور بعدم الطمانينة الى الناس .. وهذه هى بداية الطريق الى الانحراف ، فليس الانحراف الاسلوكا اجتماعيا هو المظهر الخارجى لعدم التكيف بالمجتمع .. أى عدم سير

التطور الوجدانى للشاب فى الطريق الذى يفترضه المجتمع ويتطلبه من أعضائه

وسأذكر فيما يلى توضيحا عمليا لاستغلال التحويل فى علاج الانحراف ..

هاهو ذا شاب يدخل حجرة مكتبى .. فأدرك لاول وهلة انه مشاكس عنيد ، فلو أننى اتخذت منه موقف الجفاء لنفر منى نفورا تاما ، وامتنع حدوث أى تحويل لديه ــ فيما بعد ــ بالنسبة لى ..

وفى الوقت نفسه ، لو أننى تهالكت على طلب وده وصداقته لكان ذلك سببا فى اثارة ارتيابه وتوجسه مما يزيد الهوة بينى وبينه .. أو قد يعتبر توددى اليه ضعفا يغريه بالامعان فى سوء الادب !

فالمشكلة الاولى هى كيف نتخذ موقفا ملائما من مثل هذا الفتى ..

انى افضل دائما أن ابدأ بالقاء طعم على سبيل جس النبض .. كأن أقول بلهجة ودية تبسمية وانا أمد يدى للمصافحة :

ــ اهلا بك .. ليس عندنا مايدعو لتوجسك ، ومؤسستنا ليست مركزا للشرطة ولا محكمة للأحداث ..

وربما ألقيت دعابة تمهد الجو وتزيل التهيب .. وعلى أساس رد الفعل الذى يحدث من الشاب أقدر خطواتى التالية ..

وهكذا يتضح أن شروعى فى عملية التحويل يختلف بحسب كل حالة .. ويتوقف على الاثر الذى يحدثه الشاب فى نفسى عند دخوله مكتبى لاول مرة . فلهذه

الوهلة الاولى أهميتها الاساسية .. وهذا مايوجب أن نجعلها مشحونة بدواعى الثقة والطمأنينة ، وأن نخليها من التردد والارتباك

وينبغى ألا يفوتنا أن الفتى عندما يأتى لهذه المقابلة الاولى يكون لديه مثل مالدى من التطلع .. فهو متلهف على معرفة كنه هذا الشخص الجديد ، ولا يقلل من هذا الفضول انه مشغول بمشكلته الخاصة أو صراعه الوجدانى

وليس أصعب هؤلاء الشبان قيادة هو الشاب الذى يواجهنا من البداية بالتحدى السافر ، بل أصعب منه قيادا ذلك الفتى الذى يظهر استسلاما تاما ، مقرونا بالتهذيب الزائد عن الحد .. فذلك السلوك ــ فى الغالب ــ خدعة لو أننى اغتررت بها لاعتقد الفتى انه غرر بى وسلبنى زمام الموقف ! ..

فالفترة الاولى من أول مقابلة هى ــ فى الواقع ــ معركة بينى وبين الشاب المنحرف حول السيطرة وفرض الارادة .. وقد تطول هذه المعركة وقد تقصر ، ولكنى أبادر فأعترف أن النصر لم يكن يلازمنى مائة فى المائة فى جميع الاحوال

ومما يزيد فى صعوبة موقفى بالنسبة للشاب المنحرف، أن رغبتى فى السيطرة عليه ليست تجربة جديدة ــ بالنسبة اليه ــ كل الجدة . فقد جرب مثل ذلك الصراع على السيطرة من قبل مع أبيه ، ومع أمه ، ومع معلميه.. فأنا فى الغالب أمثل فى وجدانه منذ البداية دور الاب ، مع كل مايتصل بدور الاب عنده من علاقات متعارضة أو معقدة !

وهذا هو الذى يجعلنى أعامله فى أقرب فرصة معاملة

مختلفة عن معاملة الاب .. فاذا كان لديه ما يتأذى منه بالنسبة لابيه ، فسوف لايشعر بمثل هذا التأذى بالنسبة لى ..

ومن أهم دلائل اختلاف مسلكى عن مسلك الاب ، حرصي على أن أوضح له انى لا أؤاخذه بما فعل ، ولا ألومه عليه ، ولا أجبره على الاعتراف بأشياء يريد أن يحتفظ بسريتها .. وأبادر الى هذا الاعلان اذا وجدت من الفتى ميلا الى استدراجى لاستجوابه ، فهذا الاستدراج يراد منه أن تسنح الفرصة لمجابهتى بمقاومته كأنه يتحدى ارادتى ..

واجتهد دائما أن أجعل هذا الاعلان فى صورة طبيعية :

ـ من حقك أن تمتنع عن الجواب على أى سؤال لايروق لك .. وأنا مقتنع أن كل شخص لا يستريح الى افشاء أسراره لانسان يقابله للمرة الاولى .. وأنا شخصيا أفعل ذلك

وفى هذه الحالة ، يظهر الفتى استعدادا للتحدث معى فى مسائل بعيدة عن مشكلته الاساسية .. كأنه يمتحن فضولى واخلاصى لمبدئى ، وهو يجهل أن حديثه عن شئونه الاخرى يفيدنى فى معرفة طباعه وميوله عموما ..

ان السياسة التى أتبعها هى أن أقف موقفا سلبيا ، كلما وجدت الشاب ينتظر منى أن أهاجمه ويتأهب لمقاومتى .. فيجد نفسه أمام سلبيتى ، وقد أسقط فى يده لا يدرى أى موقف يتخذ منى ، ويشعر اننى لست خطرا عليه ، واننى قد أغدو حليفا معقولا ..

وينبغى أن أنبه القارىء الى اننى لا أستخدم معه فى تلك المرحلة كلمة « صديق » بل كلمة « حليف » ، لان

أمثاله من المنحرفين لايشعرون أن لهم أصـــدقاء . . فانحرافهم نفسه انما هو مظهر لعـــدم اطمئنانهم الى الآخرين وثقتهم بهم ، وانما هو صاحب مصلحة يتحالف مع أناس لتحقيق بعض رغباته .. وفى حدود تحقيق تلك الرغبات . ومن عدا هؤلاء من الحلفاء فهم مندرجـون تحت عنوان الاعداء !

وبعد هذه المرحلة الاولى من « تخدير » الريبة فى نفس الشاب ، اتحدث معه حديثا طبيعيا فى أمور عامة تهم جميع من فى سنه ولا صلة لها بمشكلته الاساسية ..

ولما كان معظم فتيان هذه الايام مغرمين بكرة القدم مثلا .. فلابد لى من معرفة أسماء الفرق الرياضية المشهورة واللاعبين البارزين وأرقام المباريات الاخـيرة والاهداف التى حصل عليها كل فريق ..

ومن المعلومات الضرورية أيضا أسماء نجوم السينما المشهورين واهم ادوارهم .. ولا سيما من يقومون بأدوار الفروسية والمغامرات والفكاهة

وبالنسبة للفتيات ، يجب ان أكون ملما بآخر تطورات الموضة .. وقد تكون ملاحظة عابرة عن ثيـاب الفتاة أو طريقة تصفيف شعرها بداية طيبة لحـديث ودى يزيل بقية الحواجز بينى وبينها !

أما بالنسبة للاطفال الصغار ، فخير موضـــوع هو مايتصل بأنواع الحلوى .. لان لذات الفم لم تزل عندهم هى المسيطرة !

وقد يكون العمل فى هذه المرحلة سهلا جدا يفتح لى الطريق مباشرة الى قلب الفتى أو الفتـــاة .. ولكنه فى

بعض الاحيان يتكشف عن صعوبات غير متوقعة ، وعندئذ يجب أن أتذرع بالصمت حتى لايكون فضولى عقبة جديدة فى طريقى ..

والمرحلة التى تتلو ذلك هى تجميع المعلومات بطريقة لبقة عن شعور الفتى نحو أفراد أسرته وأعضاء بيئته المباشرة عموما . وقد لاحظت أن المراهقين وما فوقهم يجيبون عن هذه الاسئلة بصراحة فى أحيان كثيرة .. أما الاطفال الصغار ، فيرفضون الاجابة أو تكون اجاباتهم غير شافية . وهذا يضطرنا الى الكشف عن عواطفهم فى هذا المجال بحيل ملتوية .. كأن نحدثهم عن الالعاب التى يلعبونها ، فنعرف من الذين يشاركونهم فيها ، ومن الذين يكره الطفل مشاركتهم فى العابه ..

وسأذكر محاورة من ذلك النوع .. وزائرتى فى هذه المرة طفلة فى العاشرة .. سألتها :

ـ هل تحبين القراءة ؟

ـ نعم .. كثيرا ..

ـ اى نوع من الكتب تفضلين قراءته ؟

ـ القصص الخرافية ..

ـ وما أحب تلك القصص اليك ؟

ـ بائعة التفاح ..

ـ وما احب مواقف هذه القصة اليك ؟

ـ حين باعت الساحرة للفتاة الصغيرة تفاحامسموما

ـ وهل فى هذا الكتاب صور ؟

ـ نعم ..

ـ وهل فيه صورة للساحرة ؟

ــ نعم ..

ــ صفى لى الساحرة .. لا كما تبدو فى الصــــورة بالضبط ، بل كما تتخيلينها ..

فاخذت الفتاة تصفها لى وصفا مفصلا من حيث قامتها ولون شعرها وملامحها وثيابها .. وعندئذ سألتها :

ــ من أين استقيت هذه التفصيلات ؟

ــ هذا سهل .. القامة قامة فلانة .. والشعر شعر فلانة أخرى .. والملامح ملامح فلانة ثالثة .. والثياب ثياب فلانة رابعة ..

وكان بديهيا أن هــؤلاء الاربعة أشخــاص مكروهون لديها ..

وليس من الضرورى أن يكون طريقنا الى معرفة حقيقة مشاعر الفتى أو الفتاة بمثل هذه السهولة .. فهنــــاك فتاة أخرى سنها ١٢ عاما .. جلست أمامى جامدةالملامح لا يبدو عليها اى انفعال .. وسألتها :

ــ ما احب الالوان اليك ؟

ــ الاحمر ..

ــ ما الذى يقترن فى ذهنك باللون الاحمر ؟

ــ قاطرة العربات فىمدينة الملاهى ..

ــ وماذا يقترن فى ذهنك باللون الاسود ؟

ــ رباط عنقك .. وحذاؤك ..

ــ ولكن لابد أنك رأيت أشيــاء أخرى سوداء قبــل هذين ؟

ــ نعم .. مدخل النفق الذى يدخله قطار الملاهى ..

ومما يستلفت النظر طبعا ان ينتقل ذهنها من نفق

قطار الملاهى المعتم الى شخصى .. وكأنها تريد أن تعرف ماذا سيحدث لها منى ـ بعد ذلك ـ مثلما يتملكها الفضول الرهيب لمعرفة ماسيحدث لها بعد أن يغيب بهـــا قطار الملاهى داخل فوهة النفق المظلمة !

ومما يزيد فى هذه الدلالة ان رباط عنقى لم يكن أسود اللون حقــا .. بل كان رماديا داكنا ، ولكن الارتبــاط الوجدانى بين علامة الاستفهام الخاصة بموقفى منها وبين علامة الاستفهام الخاصة بفوهة النفق السوداء جعلهــا تقرب اللون الرمادى الى الاسود .. كى تتم المطابقة بين الرمزين

وهذا نموذج مناسب للكيفية التى نستنبط بها حقيقة الحالة النفسية لشخص يحرص على اخفاء مشاعره نحونا .. فلو انى سألتها مباشرة عن شعورها نحوى لما ظفرت بطائل ..

ومن الواضح اننى متى اكتشفت ان مشاعر الفتى أو الفتاة نحوى فى مثل هذه الدرجة من التوتر والتخوف ، فمن الواجب ان أتريث ولا اقدم على خطوة جديدة . . بل يجب أن اقضى على هذا التوتر أولا ..

وكانت خطوتى التى أقدمت عليها مع هذه الفتاة هى انى سألتها :

ـ وماذا رأيت فى جولتك بالقطار داخل النفق ؟

ـ رأيت أشباحا متوهجة تبرز فجأة فتشق الظـلام وتمرق من امامى .. ورأيت الأبالسة وهم يقلدون الارواح الشريرة وأجساد الخطاة فى نيران جهنم . . ورأيت أيضا العفاريت الصغار يحفرون الارض ليحصــلوا على الكنز الذى أخفاه القرصان ..

وهى كلها صور مرعبة .. اكدت لى فزعهـــا منى ، فحولت الحديث الى الكلام عن روايات القرصان . ومن هناك تدرجت بها الى روايات « شارلى شابلن » و«لوريل وهاردى » .. ثم انتقلنا الى الاراجيـح . . فضحكت وقالت :

ــ على فكرة .. فى المولد مع الاراجيح يأتى رجل له عمامة كبيرة ولحية .. وهو يكشف للناس عن مستقبلهم

واخذت أستزيدها ، فاذا بها تحدثنى عن جوانب من مدينة الملاهى عكس الجانب السابق تمـاما ، فهى جوانب مفرحة . ولمعت عيناها وهى تسرد لى ذكرياتها فيها . . فادركت ان حالتها النفسية تغـــيرت ، وان الوقت قد صار مناسبا للابتداء بعملية التحويل . ورحت أوجه اليها الاسئلة المباشرة ، على اعتبار أننى فى موضع يسمح لى بذلك .. فتجيبنى ببـراءة وبلا تحفظ ، حتى اذا بدأت تتحفظ أدركت أن ثقتها بى قاربت النفاد ، فألجأ الى طريقة جديدة لتقوية هذه الثقة

وسأذكر الان حالة فتـــاة ، استطعت أن أقضى على شعورها بالتوجس بنجاح ، وأقتلع اسباب ريبتها من جذورها ...

وهذه الفتاة فى السادسة عشرة من عمرها .. وكانت تحت الاشراف فى الاصلاحية ، لانها كانت تصر على الظهور بكل مظاهر الاستهتار والمجون الفـــاضح .. واذا بها تنقلب فجأة من الوقاحة والتبـذل الى التـزمت فى كل شىء ، مما أدهش المشرفين فطلبوا منى أن أتولى أمرها لمعرفة أسباب هذا الانقـلاب المفـاجىء من النقيض الى النقيض ..

ولما دخلت مكتبى لاول مرة ، بدا عليها بوضوح انها لا تثق بى .. فكلما سألتها عن أحوالها ، أو عن قراءاتها ، سكتت ولم تجب .. فسألتها عن أحلامها فلم تفتح فمها .. ولكنى كتمت غيظى وضحكت قائلا :

ـ انا مقدر طبعا أنك تتوهمين أننى خطر عليك .. ولكن ثقى انه لا ضرر اطلاقا من أن تحكى لى رواية رايتها فى السينما يوما من الايام ..

وعندئذ ضحكت .. وبدأت تكلمنى عن بهلوان كان عليه فى الفيلم أن يقفز من ارتفاع كبير ويمر داخل حلقة من النيران .. وأن هذا البهلوان كان يحب امراتين ، فأقدمت احداهما على قطع السلك بدافع الغيرة فسقط وسط النار ، ولكن المراة الاخرى انقذته مضحية بنفسها ..

ومن البديهى انها لم تذكر لى قصة الفيلم كما هى .. بل كما تصورتها ، ولذا سألتها :

ـ ما أحسن موقف فى هذه الرواية فى نظرك ؟

ـ حين ضحت الفتاة بحياتها فى سبيل حبيبها ..

وكانت هذه هى الاجابة التى انتظرها منها بالضبط ..

ـ هل تتذكرين ملامح هذا البهلوان ؟

ـ نعم ..

ـ اذكرى الملامح التى يجب أن تتوفر للبطل حتى يظفر باعجابك ..

ـ أن يكون شابا رشيقا أسود الشعر حليق اللحية لامع العينين ..

ـ والان خبرينى ماهو شكل فتاك ؟

فارتبكت قليلا ، ثم قالت :

ـ هذا هو شكله فعلا ..

وكان هذا كافيا لنزع السداد عن القارورة .. فقد اندفعت فى حديث متدفق من تلقاء نفسها عن حبيبها ، فذكرت لى أنه يدرس الكيمياء ، وأن امها لا تأذن لها فى الخروج معه وحدهما ..

وكان من السهل بعد ذلك أن تعرف أن حبها لهذا الشاب الخجول اللطيف ، كان هو السبب فى انقلابها من التبذل الى الدماثة والاحتشام الشديد

***

والان سأذكر حالة اخرى لفتى فى الثالثة عشرة من عمره .. كان يتخلف عن المدرسة يوم الثلاثاء ، ويوم الجمعة ، من كل أسبوع شهورا متوالية .. ثم اتضح انه فى هذين اليومين يذهب الى سباق الخيل ، لا لانه يحب السباق ، بل لتعلقه بأحد الجوكية . ولم أحاول أن أصرفه عن ذلك .. بل وجدت أن أفضل طريقة للتحويل هى اظهار الموافقة على سلوكه المستهجن من الجميع . وشيئا فشيئا تحولت عواطفه من مدرب الخيول الى شخصى .. وبعد ذلك وجهته بلطف الى التعلق بالمدرسة . ثم بدأت أنسحب من حياته ، واقلل من مقابلاته ..

***

واصعب مايكون التحويل بالنسبة للمصابين بالنرجسية .. أى الذين يعشقون أنفسهم . وسأذكر هنا حالة شاب فى السابعة عشرة من عمره ، ضارب فى السوق السوداء حتى كون لنفسه ثروة طائلة . وكان فى بداية حياته العملية صرافا يعمل فى تبديل النقود على قارعة الطريق لحساب رجل كان يأتمنه .. فاستغل الظرف ، وعقد صفقات مع مهربى العملات الاجنبية ربح منها رأس مال

لا بأس به .. غامر به فى السوق السوداء . وقام برحلات كثيرة لهذا الغرض خارج الحدود حتى جمع مالا طائلا يسر له الانتساب لأفخم النوادى .. وجمع حوله رفاق السوء ، فلم يلبث أن أفلس . وعندئذ انقلب الى بلطجى .. فباع أثاث بيت أمه الارملة وثيابها ، وهى سيدة مسكينة مات زوجها بعد حياة غير موفقة معها .. ولما يئست من اصلاح هذا الابن لجأت الينا ..

ولما أدخلناه المؤسسة ، لم يثر فى وجهنا اى نوع من الصعوبات .. بل حاول أن يقلب المؤسسة الى ميدان جديد للنجاح والتسلق ، فأبدى نشاطا كبيرا وهمة فى معاونة المسئولين على حفظ النظام وأداء الخدمات الصغيرة ولا سيما فى الاعمال الكتابية .. كما أحسن معاشرة زملائه ، فسرعان ما وصل الى مرتبة الزعامة بينهم ..

ومثل هؤلاء الشبان ينبغى الحذر من نعومتهم المفرطة .. فتحت ظاهرهم الصافى أعماق زئبقية مضللة بحيث لا يستطيع الانسان أن يعرف الجانب الحقيقى من نفوسهم .. فتهذيبهم الظاهرى قناع متقن للغاية ، أساسه التصنع التام . وهذا التصنع يحجز عنا عواطفهم الحقيقية ، وبذلك تظل علاقتنا ـ نحن المعالجين ـ بهم علاقة سطحية تماما . ويكون من المحال قيام اى علاقة وجدانية حقيقية صادقة ـ من أى لون ـ بيننا وبينهم ، حتى ولو كانت علاقة كراهية . وهكذا يتعذر الشروع فى عملية التحويل بالنسبة لهم .. وبدون عملية التحويل ، لا يمكن أن نغير اتجاه تيارهم الوجدانى والعقلى ..

وينخدع قليلو التجربة فى سلوك هؤلاء النفر ، فيظنون انهم شفوا بسرعة مذهلة من انحرافهم .. ولكن متى أطلق سراحهم عادوا الى الاعوجاج ..

وهذا الشاب الذى أتحدث عنه ، بقى فى الاصلاحية عدة أشهر من غير أن تنفذ من الطبقة العازلة التى احاط بها وجدانه فى صورة هذا المسلك المهـــذب المنقاد .. فقررت أن أبعده عن بيئته الجديدة على سبيل التجربة ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أرد أن أطرده .. بل فضلت الاحتيال عليه كى يسعى هو للهرب . وفعلا بلغنى ذات يوم أنه انتهز الفرصـــة التى اتحناها له وانطلق من الاصلاحية ، ولم يكن المشرف المباشر يعلم أننى دبرت تلك الفرصـــة ، لأن هؤلاء الذين يخالطون الشبـــان لا يستطيعون فى الغالب ان يكتموا الاسرار عنهم ..

وكنت أتوقع ان يعود بعـــد يوم أو يومين من الجوع والتشرد مقتنعا بأفضلية الحياة الناعمة فى الاصلاحية.. فتكون لحظة عودته هى لحظـــة الضعف والهزيمة التى يتحطم فيها القنـــاع العازل ، وتتكشف فيها حقيقته الوجدانية .. وبالتالى فهى لحظة مناسبة للشروع فى التحويل !

وانقضى اسبوع ولم يعد صاحبنا .. فبدأت أرتاب فى صدق فراستى . ولكن فى اليوم العاشر ـ وفى الساعة التاسعة مساء ـ سمعت طرقا خفيفا على باب بيتى الملحق بالمؤسسة .. وكان الشاب الهارب هو الطارق ، وقد نال منه الاعياء بدرجة اقنعتنى آنى استطيع ان احقق معه الآن أكثر مما كنت اتصور ..

ولم أوجه اليه اى لوم على هربه .. وبذلك خيبت ظنه ، واكتفيت بأن نظرت اليه نظرة جادة وسألته :

ـ متى تناولت آخر وجبة ؟

ـ مساء أمس ..

ـ منذ اربع وعشرين ساعة ؟ اذن تعال معى ..

واخذته الى حجرة المائدة ، حيث كانت أسرتى جالسة لتناول العشاء . وأمرت له بطبق كى يأكل معنا .. واذا بهذا الشاب الذى كان مضرب المثل فى الثبات يفقد سيطرته على نفسه حتى يعجز عن ابتلاع الطعام .. وتجاهلت انى أدرك ما اعتراه ، وسألته ببساطة :

ــ لماذا لا تأكل ؟ ..

ــ لا استطيع .. هل يمكننى ان آكل على انفراد ؟

ــ يمكنك أن تتناول طعامك على مائدة المطبخ ان شئت ..

وحمل طعامه الى المطبخ والتهمه بسرعة .. وملأنا له صحفته مرتين بعدها الى أن شبع .. ثم قلت له بهدوء :

ــ لقد تجاوزت الساعة الآن العاشرة .. فلا يمكنك أن تعود الليلة لتبيت مع زملائك .. ولكن لا مانع من أن تنام هنا فى البهو

وأعددنا له فى البهو فراشا .. ثم ربت رأسه وتركته لينام . ولما أصبح الصباح ، كان التحويل قد سار شوطا بعيدا . وبعد مدة وجيزة ، صرت أرسله الى المدينة ليشترى للمؤسسة الاغذية بمبالغ لا بأس بها .. فلم يحاول الهرب ، وعندئذ أدركت أنه شفى ..

وسعينا فألحقناه بالعمل مندوبا تجاريا متجولا .. وهو عمل يحتاج الى أمانة شديدة فى المال وأسرار الصفقات. وظللنا نتعقبه ونستقصى اخباره ست سنوات، تدرج فى خلالها من عمل الى عمل أفضل ، فى شركات أكبر بكل نجاح واستقامة ..

الفصل الرابع

مبادئ في العلاج النفسي



مبدأ الواقع

يولد الطفل ومعه زاد كبير من قدرات ضرورية ، يعيش بها في دنيانا .. وعلى أساسها يبنى تكيفه مع المجتمع المعين الذى سيعيش فيه . ومن الواضح أن التربية فى البيت والتربية بالمعنى الواسع (أى كل مايتعلمه الشخص عن طريق الخبرة والتجربة ودروس الزمن) تقوم بدور هام جدا فى تنمية هذه القدرات الوراثية التى يولد بها الطفل .. وليس هذا الكلام من قبيل النظريات المجردة أو الفروض، وانما هو واقع ملموس لنا فى كل يوم .. كما نلمس أيضا التأثير المتبادل بين التربيـــة فى الطفولة وبين خبرات الحياة طول العمر ..

ان الخبرة مثلا هى التى تدلنا على كيفية المحافظة على ذواتنا ، لان المحـافظة على الذات ميل غريزى وراثى . وهذه المحـافظة غير ممكنـــة الا اذا عرف الطفل كيف يتكيف تكيفا بدائيا مع الواقع الجديد خارج أحشاء أمه .. ثم يأتى دور التربية فيعرف الطفل كيف يستغل خبرته وقدرته كى يتكيف مع مطالب المجتمع الكبير ..

ومع أننا ندرك تداخل التربية والخبرة تداخلا عميقا فى تكوين الطفل ، الا أننا نفضل لتوضيح المسائل امام القراء أن نفصل أثر الخبرة عن أثر التربيـــة .. فذلك الفصل الذهنى ، هو الذى سيتيح لنا فهم عمليات التربية

فهما يمكننا من علاج الانحرافات التى تطرأ على الشباب من الجنسين

ومن الواضح أن التربية تقوم بعملية انتقـــائية ٠٠ بمعنى أنهـــا تحول دون نمو القدرات الفطرية التى لا يرضى عنها المجتمع ، لان مهمة التربية هى تنمية العمليات النفسية التى تمكن الطفل الصغير من الانتقال بالتدريج الى شخص ناضج ٠٠ وهى بالضبط عملية تحول كائن حى كل همه اشباع دوافعه الغريزية ، الى كائن حى قادر على الاشتراك فى العمليات والنظم الاجتماعيةبنجاح وتوفيق

وقد اهتم « سيجموند فرويد » فى كتابه « محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى » بالبحث عما اذا كانت هناك فى أعمال الجهاز العقلى غـــايات أو أغراض متميزة ٠٠ ووصل فى النهاية الى أن غاية الجهاز العقلى الاولى هى اللذة ، فنادى بأن كل أنواع النشاط العقلى لا غاية لها فى النهاية سوى تحقيق اللذة وتجنب الالم ٠ ثم شرح « فرويد » كيفية انتظام العملية العقلية انتظاما آليا على أساس هذا الميل الجوهرى الذى سماه « مبدأ اللذة »

وقد أثارت هذه التسميةاستياء الكثيرين ٠٠ فما أكثر الذين سمعوا كلمة « مبـدأ اللذة » لاول مرة ، فكان رد الفعل لديهم هو النفور من الاعتراف به فضـــــلا عن تطبيقه ٠٠ ولذا لقى « مبدأ اللذة » استنكارا ومعارضـــة شديدين

وكان أول اعتراض بالبداهة على هذا المبـدأ ، هو أن تجارب كل واحد منا تدله على أن نتائج كثير من الاعمال العقلية مرتبطة بالالم لا باللذة ٠٠ وهذا لو صح كاف لهدم نظرية « فرويد »

ولكن ليس من اللائق أن يتسرع الانسان فى الحكم

على أعمال رجل دقيق عميق فى أبحاثه مثل « فرويد » ..
بل الواجب قبل أن ننقده ان نتأكد أولا من حسن فهمنا لمقاصده .. والسبيل الوحيد لهذا الفهم ، هو تتبع ما قدمه للتدليل على صحة نظريته من البراهين والاسانيد

ان « فرويد » يرى أن اللاشعور هو أهم مصدر لنشاطنا العقلى .. والغرائز ، والرغبات ، تنبع من اللاشعور أيضا ، والمبدأ الوحيد الذى يسيطر على اللاشعور بأكمله هو « مبدأ اللذة » ..

ومن حقنا طبعا أن نتساءل عن مغزى هذا الكلام ..

يلاحظ « فرويد » أن كل ما يصدر عن اللاشعور ليس له هدف الا الحصول على اللذة . ويلاحظ فى الوقت نفسه ان العالم الخارجى لا يكترث بما نطلبه من اللذة ، أو هو لا يعترف بحقنا فيها .. والعالم الخارجى حين يمنحنا اللذة أحيانا أو يحرمنا منها ، لا يبالى بنا بل يخضع فى ذلك لظروف خاصة بالعالم الخارجى لا باللاشعور عندنا ..

وعلى هذا الاساس كثيرا ما توجد مواقف تحول بين الانسان وتحقيق اللذة .. بل وتعارضه فى ذلك معارضة حاسمة . ومن أقرب الامثلة لذلك : الطفل حديث الولادة الذى يخضع خضوعا تاما لوظائفه اللاشعورية .. وهو فى حالة ارتياح مستمرة ، لا يضطرب الا عندما يشعر بضغط احتياجاته الجسمية .. تلك الاحتياجات الناشئة عن غرائزه المتعلقة بحفظ الذات والتى لابد لها من الحصول على الاشباع المناسب ، كى تتجنب هذا الالم المترتب على الحرمان والاحتياج .. فهذا الطفل حديث الولادة لا يسير وفق أى قانون سوى حاجاته الغريزية ،

تلك الحاجات التي لاهدف لها الا تحصيل اللذة أو الارتياح بصرف النظر كلية عن الواقع الخارجي ..

وهذا هو السر فى تعرض الطفل الصغير فى كثير من الاحيان للفشل أو العجز عن اشباع غرائزه . فيشعر بأنه لم يحصل على ما كان ينشده أو يتوقعه ، ويترتب على هذا شعور شديد بالالم بدلا من الشعور باللذة التى كان ينشدها عن طريق الاشباع ..

ومع التدرج فى النمو ، تتكيف العمليات النفسية لدى الطفل شيئا فشيئا بالواقع الخارجى الذى يعيش فيه .. لانه يتبين بالتجربة أن مراعاة الواقع ، ومسايرته والتكيف به ، هى وسيلته الوحيدة لحصوله على أقصى ما يمكنه الحصول عليه من رغباته الشخصية ..

وبديهى ان هذا التكيف لا يتحقق دفعة واحدة ، لانه نتيجة عملية طويلة جدا من عمليات النمو ..

ومن أعماق اللاشعور تصدر جميع المعلومات المتعلقة بوظائف الجسم ، فيتلقاها الشعور كما يتلقى من العالم الخارجى جميع ماتنقله اليه أجهزة الحواس المعروفة . وبمرور الوقت يصبح الشعور أو « الأنا » قادرا بالتدريج على التوافق والانسجام مع مطالب الحياة البدنية والخارجية . ومن أهم علامات هذا النمو نمو النضج والاتزان والتوافق ، أن يعدل الشخص سعيه الفطرى الاول وراء لذته المباشرة

ومن مقتضيات هذا التعديل أن يؤجل الشخص بعض رغباته ، أو يصرف النظر عنها ، لما يحول دون اشباعها من عقبات لا يمكنه التغلب عليها .. أو لما قد يترتب على هذا الاشباع الغريزى من متاعب وآلام ، اذا كان هذا

الاشباع غير مشمول يرضى المجتمع .. فذلك كله يدفع الشخص الى اتباع القمع لرغباته الغريزية ..

وبعد فترة ، يجد الطفل ان تجنب الالم أمر ضرورى لاتقل أهميته عن أشباع الرغبات للحصول على اللذة المباشرة . وهكذا تتقلص سيطرة مبدأ اللذة على نفسية الطفل فى الجانب الشعورى أو الواعى ، مع تقدمه فى التجربة والنمو .. لان مبدأ آخر مصدره الشعور سيزاحم مبدأ اللذة اللاشعورى فى النفوذ والسلطان . وهذا المبدأ الشعورى هو تجنب الالم عن طريق كبح دوافع اللذة اللاشعورية الجامحة ، وتركيب لجم لها تعدل طريق سيرها المندفع ، بحيث تسلك سبلا الى الاشباع لا تؤدى الى ألم أو اصطدام بنظم المجتمع ولوفى الظاهر ..!

ومبدأ تجنب الالم ومراعاة الظروف الخارجية ، قد اختار له « فرويد » اسم « مبدأ الواقع » . ونشوء هذا المبدأ يعتبر خطوة حاسمة فى مراحل النمو العقلى والنفسى عند الطفل .. اذ بعد رسوخ هذا المبدأ الجديد تصبح لمركبة النفس عند الطفل جوادان : أحدهما مبدأ اللذة اللاشعورى ، والآخر مبدأ الواقع الشعورى .. فهذان المبدآن يوجهان جميع العمليات العقلية ، فيتحكم مبدأ الواقع فى العملية الشعورية ، ويتحكم مبدأ اللذة فى العمليات اللاشعورية

وهكذا يكون فى الشخص ازدواج ضمنى .. فذاته اللاشعورية تجرى وراء اللذة دائما ، وتعمل على تجنب الالم . أما الذات الواقعية فهدفها الحصول على المنافع العملية بجميع أنواعها وحماية صاحبها من الاخطار والمضار .. ولو عن طريق كف أو كبت المطالب الغريزية ..

ولهذا يتفاوت الناس كثيرا فى قدرة ذاتهم الواعية ـ الخاضعة لمبدأ الواقع ـ على مقـــاومة الرغبات الغريزية اللاشعورية ، وقطع الطريق عليها تماما او تحويلها الى طرق لاتغضب المجتمع ..

ومن مصلحة كل شخص ان يعرف ـ فى وقت مبكر من حياته بقدر الامكان ـ مدى الاخطار التى تتهدده نتيجـــة التعارض بين رغباته الغريزية ومطالب الواقع .. فهـــذا الوعى المبكر لتلك الاخطار يجعل الشخص أقدر على مواجهة الواقع والتجاوب معه ، وعلى التوافق الذى يسمى توافقا اجتماعيا

هذا هو مجمل وجهة نظر « سيجموند فرويد » .. ومنه ندرك أن مبدأ الواقع هو الذى يوجه الطفل فى نموه التدريجى من عالم اللذة اللاشـعورى الوهمى الى عالم الواقع ، ويمكنه من تعديل مطالبه واحتياجاته الفطرية التى هدفها اللذة بحيث تتوافق مع مطالب الحياة ..

وحينما يكون الطفل صغيرا ، تكون بالطبع قدرته على التوافق مع الواقع محدودة جدا وضعيفة . وفى هـــذه الحالة تجرى الذات وراء الاشباع الغريزى السريع المباشر ، وتكون عاجزة تقريبا عن نبذ اللذة وعن تحمل الالم على حد سواء . ولذا فمن احسن الوسائل لتحديد مراحل نمو الطفل ، أو مستويات نموه ، أن نقيس مدى تفوق مبدأ اللذة اللاشعورى عنده على مبدأ الواقع

ان مبدأ الواقع هو صمام الامان الذى تستخدمه الذات ضد تهور مبدأ اللذة .. ولكن صمام الامان هـــذا ليس معناه أن تنكر الذات على نفسها كل حق فى طلب اى لذة ، فمبدأ الواقع لا يلغى اللذة .. بل انه يوفق بينها وبين

الواقع ، فكأنه الصانع الذى يصب المادة الخام فى القالب المطلوب

ومبدأ الواقع تمشيا مع مراعاة الظروف الخارجية ـ ومنها الاوضـــاع الاجتماعية ـ يضحى باللذة المباشرة العاجلة ، فى سبيل لذة آجلة أو لذة من نوع غير مباشر ..

وعلى أساس هذا الفهم ، ندرك السر فى القول بأن المرء قد يتحمل الالم وهو يخضع لمبدأ اللذة .. اذ أن الانسان حين يتحمـــل الالم ، يكون مسيرا بمبدأ الواقع لا بمبدأ اللذة ، وأملا فى أن يتمخض تحمله للالم عن حصوله فيما بعد على لذة من نوع آخر ..

وفى بعض الاحيان ، يحدث الالم نتيجة لصراع الذات التى لم تنضج بعد مع مقتضيات الواقع . ومعنى هذا أن الرغبات الغريزية التى يسيطر عليها مبدأ اللذة ، قد تندفع بالفرد فى وقت لا يكون قادرا فيه على التحكم فيها بحسب مبدأ الواقع ..

ثم يجب الا ننسى أن التجربة المؤلمة شعوريا ، قد تكون فى الوقت نفسه ذات جانب سار لا شعورى ..

ويجب الا يغفل المربى عن حقيقة ذات أهمية كبرى فى علم النفس ، وهى أن نشوء مبدأ الواقع ونموه انما هو نتيجة لعوامل العالم الخارجى ، التى تلزم الطفل أن يسيطر على حاجاته الغريزية ويتحكم فيها ..

ولكن ليس معنى هذا القول بأن مبـــدأ الواقع يزداد تمكنا ورسوخا كلما اشتد الحرمان المفروض على الطفل ، فان عدم اغفال الواقع واحترامه لا يجب أن يكون ثمنه هو اغفال شىء آخر هام جدا الا وهو العوامل الفطرية الموجودة فى سريرة الطفل نفسه ..

ان القول بأن العوامل الداخلية واللاشعورية هي المهمة وحدها ، قول خاطيء .. وكذلك القول بأن العوامل الخارجية هي المتفردة بالاهمية قول خاطيء أيضا ، فلابد من اعطاء الجانب اللاشعوري والجانب الواقعي حقهما معا ..

ومن واجب المربي في هذا الصدد ، الا يهتم بالمشكلات الخارجية من حيث هي .. بل ينبغي أن يكون اهتمامه منصبا أيضا على ادراك مدى احساس الطفل بهذه المشكلات وطريقة استجابته لها ..

وتوضيحا لذلك نقول أن الحرمان من شيء معين قد يكون عميق الاثر على طفل معين .. ولكن الحرمان من هذا الشيء نفسه قد لا يكون له أثر على الاطلاق لدى طفل آخر ، فاستجابة كل طفل تختلف بحسب استعداده الفطري .. وهذا هو ما يسمى نسبية الاستجابة والحساسية

والى هذه النقطة من النسبية ، تستند الام بطلة القصة المشهورة التي يرويها الناس على سبيل النكتة .. حين قالت لمعلم ابنها في المدرسة :

ـ ان ابني طفل حساس جدا .. يكفي حين يرتكب خطأ ، أن تعاقب الطفل الذي بجواره فيفهم هو ويتأثر .. وقد يبكي !

وكل خطأ السيدة أنه فاتها أن تذكر ان الطفل الذي بجوار ابنها ، قد يكون شبيها به في حساسيته ، وله اعتباره الكامل الذي لا يسمح بأن يحمله المعلم مسئوليات وعواقب ذنوب الطفل الذي بجواره .. !

ونحن على كل حال لا نستطيع أن نتحكم في نفسيات

الاطفال كما نتحكم فى الآلات .. ولذا ليس فى وسعنا أن نحدد قدر الحرمان اللازم لطفل ما كى يتكيف مع الواقع تكيفا مناسبا . ولكن يجب الاعتماد على الفطنة والملاحظة المستمرة كى نتعرف على الجرعة الصحيحة من الحرمان المناسب ، لأن هذه الجرعة اذا زادت على حد معين أو نقصت عن حد معين كانت لها نتائج عكسية !

وما أكثر أنواع الانحراف التى يتعرض لها الطفل ، ويكون سببها فى نهاية الامر انه كان هدفا للقسوة الباطشة أو الحنان والتدليل قبل الاوان المناسب !



التعويض

ومن حقنا ان نتساءل الآن عن الفرد وهو ينمو نموا عاديا ، أليس من حقه ان يعوض نفسه عن الحرمان من اللذة التي يحرمها عليه عالم الواقع ؟

واذا كان هذا من حقه فكيف السبيل الى ذلك التعويض ؟

والحقيقة أن الذات أو « الانا » لا تخضع باستسلام تام لمقتضيات الواقع ، لمجرد أن هذه المقتضيات عنيفة طاغية باطشة .. بل يلجأ « الانا » الى اقتطاع جزء من الواقع يجعله خاضعا لمبدأ اللذة اللاشعوري ..

وقد يبدو هذا الكلام غريبا أو غامضا .. ولكن كلامنا في الواقع قد جرب ذلك في نفسه ، لان هذه العملية هي بالضبط عملية التوهم والتخيل وأحلام اليقظة وما الى ذلك .. فهذه كلها قطع من الواقع يتصرف فيها « الانا » على حسب هواه بما يرضى لذته اللاشعورية الممنوعة من الاشباع !

وكل من يعرف شيئا عن حياة الأطفال ، يدرك الاهمية الكبرى لهذه العمليات التي نسميها عمليات التوهم .. فدلع الطفل باللعب ليس الا تنفيذا لمبدأ التوهم ، والطفل اذ يلعب يخلع على الاشياء من حوله صفات لا أصل لها سوى ذاته .. بل ويقوم هو بأدوار ، ويجعل لنفسه صفات لا أصل لها الا رغبته وهواه . وهذا متنفس ضخم للذات والرغبات اللاشعورية التي لايمكن للصغير اشباعها في عالم الواقع

ومع نمو الطفل وانقطاعه عن اللعب ـ بمعناه الضيق ـ تجد هذه العملية متنفسا فى أحلام اليقظة التى تلازم الانسان فى جميع مراحل عمره ..

ولذا يمكننا القول ان الشخص الذى يخطئه اشباع رغباته فى حدود الواقع ، يستطيع ان يعوض نفسه عن هذا الحرمان بما يشاء من الاستمتاع الحر من جميع القيود فى دنيا الخيال ..

وأول انواع التكيف مع الواقع يكون بالضرورة تكيفا بيولوجيا ، أى خاصا بوظائف الطفل البدنية .. وهذا التكيف البيولوجى البدائى مع عالم الواقع ، يتوقف على الظروف المحيطة بالطفل

ويتلو ذلك التكيف البدائى نوع أصعب كثيرا ، ويستغرق مدة طويلة جدا .. وذلك هو التكيف الاجتماعى الذى لا يمكن أن يتم الا بفضل التربية . وعلى أساسه يصير الشخص مدركا لمطالب مجتمعه قادرا على مسايرتها .. اما بالخضوع لها أو الاستفادة منها . وبفضل هذا التكيف ، يصل الشخص الى المشاركة فى تراث الحضارة سواء بالاستفادة أو تقديم الفائدة للآخرين .. كأفراد أو كمجموعة تعيش فى مجتمع معين وعصر معين

ولكن يجب ألا ننسى ان قدرة الفرد على التكيف بالواقع قدرة غير مطلقة .. بل تحدها قدرة الذات أو « الانا » على احتمال الحرمان ، فطاقة الاحتمال أهم بكثير من كمية الحرمان المفروضة على الشخص .. فالشخص الذى تتوفر له شجاعة مواجهة الحرمان ، يكون أكثر احتمالا لقدر أكبر من الحرمان .. بعكس الشخص الذى لا تتوفر له تلك الشجاعة ، فان أى قدر من الحرمان يكفى لادخال الاسى والحزن عليه وتثبيط همته

وفى ميدان التربية ، نجد أن قدرة الشخص على التعلم محدودة بما لديه من مواهب وراثية وقدرات فطرية . وأقصى ما يملكه المربى هو تهيئة الظروف الموافقة فى بيئة الطفل لمساعدة تلك المواهب الطبيعية على النمو والازدهار

وليس هذا كل شيء .. بل من الاهمية بمكان ان تكون لدى الطفل قدرة على الاستفادة من الفرص التى يهيؤها له المربى فى المجتمع والبيئة ، فيقبل على تنمية مواهبه .. ولا يشغله عن ذلك نوع آخر من اللذات الوقتية اللاشعورية

والصلة بين التكيف البدائى البيولوجى والتكيف الاجتماعى غير معدومة .. فاننا حين نتوسع فى التكيف البيولوجى البدائى ونتميه ، نصل بالطفل الى هذا النوع الارقى من التكيف الذى يجعله كائنا مدنيا متحضرا أو شخصا اجتماعيا موفقا ..

والمربى الحقيقى للطفل فى هذه المراحل هو نفسه .. اما المربى الخارجى فقصاراه ان يكون عاملا مساعدا فى عملية النمو التى تقوم بها الذات متجهة الى التكيف مع الواقع ..

وهذه المساعدة التى يقدمها المربى اساسها ان يمد الطفل بالبواعث والحوافز التى تتيح له تغليب مبدأ الواقع الجديد على مبدأ اللذة الذى ولد به أو ولد معه ..

والطريق الذى سلكته الانسانية من التكيف البيولوجى المشترك بيننا وبين سائر الحيوانات الى المستوى الذى بلغناه من المدنية الاجتماعية ، طريق شاق طويل جدا .. فلا يستطيع الطفل أن يختصره فى فترة نموه القصيرة اختصارا غير مخل الا اذا اعانته علوم التربية وفنونها معونة عملية صادقة ..

والتكيف مع الواقع معناه استخدام انواع كثيرة من التحكم والحرمان . وهذا ليس بالامر السهل بالنسبة لأى طفل .. ولذا يجب أن يستغل المربى ظروف الحياة نفسها بحيث يقيم منها حواجز تحول دون الاشباع الغريزى المباشر ، أو تجعل من ذلك الاشباع أمرا مستحيلا

وبهذه الطريقة يجعل الطفل وجها لوجه أمام الضرورات والظروف . فلا ينسب الى المربى انه يتعمده بالحرمان والاضطهاد والمضايقة .. ويفهم أن منطق الحياة هو الذى يحتم عليه تأجيل لذاته أحيانا ، أو التخلى عنها احيانا أخرى ، وأن يتحمل الالم الذى ينتج عن ذلك الحرمان من غير تذمر

وانا اعلم جيدا أن هذه الطريقة تتعارض مع النظريات العصرية التى انتشرت ، أو على الاصح تفشت بين الناس فى هذا الجيل .. فالناس يزعمون اليوم ان التربية المثلى هى أن نترك الطفل يفعل ما يريد ، ولا تزيد الجهود المبذولة لتربيته عن تلك الجهود التى نبذلها فى تربية جرو صغير ، أو جحش فى مزرعة !

ان هذا الراى الذى يزعم اصحابه انهم عصريون تقدميون ، قد نشأ عن سوء الفهم لوسائل التربية وغايتها . وما من منطق معقول يجيز لنا أن نسمى ترك الطفل على هواه تماما تربية صالحة .. انه قد يكون حقا ، ولكنه بالتأكيد ليس النوع الصحيح السليم من التربية

ان كل انسان عاقل كانت له بالاطفال صلة ما — عن قرب أو بعد — يدرك أن الحجر على الدوافع الوقتية والتحكم فيها من جانب الطفل أو تحريمها عليه ، أمر لا مناص منه كى يمارس الطفل حياته اليومية ، ويتعود

أن يضع لنفسه الحدود المناسبة فى كل تصرف ..

وكيف يمكن ان يقبل الطفل فى المستقبل الخضوع لمنطق الحياة واوامرها ونواهيها ــ كما تتمثل فى المجتمع ــ من غير أن يتعود على الخضوع للاوامر والنواهى منذ نعومة أظفاره ؟

ولعل أوفق سؤال يمكن ان نوجهه الى انفسنا هو :

ــ هل توجد لدى الطفل انواع من الرغبات الغريزية تستوجب منا الوقوف فى وجهها اما بالقمع أو بالمنع ؟ أليس من الممكن ان نتجنب الوقوف من الطفل موقف التحريم بصورة نهائية ؟

ويكفى للاجابة ان نتصور طفلا ــ فى أواخر العام الثانى من عمره ــ لم نعوده على الوقوف أمام رغباته أو مقاومة أفعاله .. وسنجد هذا الطفل يجذب مفارش الموائد ، ويكسر كل ما هو قابل للكسر من التحف والآنية .. ويتخذ من مقاعد حجرة الاستقبال أرجوحات ، ويتعرض للوقوع نتيجة لتسلق الاماكن المرتفعة بلا تفكير .. ولا يتورع عن وضع أى مادة فى فمه ، ولا يتعفف عن دس أنفه فى أى شىء

ولو أن الامر وقف عند هذا الحد لهان الخطب ، وان كان فى حد ذاته لا يهون .. بل اننا خليقون ان نجد ذلك الطفل لم يتعلم شيئا من أصول النظافة البدنية الاولية .. فمثله مثل أى قطة أتينا بها من الشارع الى البيت فى اليوم الاول ، فتملا ارجاءه بأنواع القاذورات التى تقلب الامعاء

ان الطفل فى هذه السن يجب ــ على الاقل ــ ان يعرف كل ما يعرفه الجرو النظيف المهذب الذى وجد من يعلمه قواعد النظافة البدنية . فيذهب الى المرحاض لقضاء

حاجته ، ولا يقضيها اينما كان بلا تمييز .. ويغسل فمه ويديه بعد الاكل ، ويحرص على نظافة وجهه وملابسه .. ويفكر ولو قليلا فى حركاته قبل أن يقدم عليها

ان القيود التى تفرض على الطفل ، كى يصل فى نهاية العام الثانى الى شيء من الاتزان والتهذيب ، انما هى فى صالح الطفل نفسه .. وان تراءت فى البداية أعمـــالا تحكمية تحول بينه وبين اشباع رغباته

وقد يقال ــ بل انه ليقال فعلا ــ ان الطفل يتعـــذب نتيجة لهذه الموانع ويتحمل آلاما اكبر من سنه . ونحن لا ننكر ان أى طفل ليس فى مقدوره ان يتخلى عن لذته ، ويخضع للواقع من غير ألم وتجلد . ولكن هذا التجلد هو بعينه كفاحه المجيد فى سبيل التعلم والتأدب ، وفى سبيل الوصول الى التكيف بالواقع والتوافق مع أوضاع المجتمع وقيوده ..

وكل ما نطالب به المربى الواعى ، أن يبســط هـــذا التهذيب والترويض ويهونه على الطفل جهد التهوين .. وعليه بين الحين والحين ان يرخى العنان لرغبات الطفل بعض الشيء ، لاكل الشيء ، ولا كل الوقت فـــلا يجوز للمربى ان ينسى ان الطفل لم يزل خاضعا لمبدأ اللذة ، وأن كتم انفاس اللذة المباشرة طول الوقت انماهو بمثابة عملية خنق لفطرته

ولكن فى الوقت نفسه ، يجب عـــلى المربى وهو يرخى العنان أحيانا ، ألا ينسى انهذا التهاون أوالتساهل ليس جزءا من عملية التربية الصحيحة .. لأن الطفل لا يتعلم من التهاون والتساهل شيئا .. وانما هى فترة راحة من مجهود مقاومة الرغبات واللذات . وكل ما يتعلمه الطفل

من عمليات التكيف ، انما يتعلمه من مقاومة رغباته لامن الانسياق معها

وليست للموانع قيمة تربوية ، ما لم يدرك الطفل أن الاستغناء عن اللذة فى هذا الموقف بالذات أمر ضرورى .. وعلى المربى أن يختار بين احدى طريقتين للوصول الى ذلك ..

الطريقة الاولى ان يترك الطفل يحصل على الاشباع الضار ـ كما يشاء ـ بحيث يحدث له الضرر المنتظر ، فيعرف الطفل بالتجربة العملية ان هذا الألم هو ثمن الاشباع الضار المحرم

والطريقة الاخرى ان يعد المربى للطفل نوعا آخر من الاشباع يقوم مقام الاشباع الممنوع ، فيستعيض باللذة الحلال عن اللذة المحرمة .. وينسى تلك بهذه ..

وسواء فعل المربى هذا أو ذاك .. فعليه ان يصل بالطفل الى نبذ اللذة الضارة التى كان ينشدها ، وله ان يستخدم لتحقيق ذلك وسيلة من وسيلتين : اما الحب والتقريب فى حالة الطاعة ، واما العقاب الواضح فى حالة العصيان ..

وكلتا الوسيلتين نافعة ، وتؤدى الى النتيجة نفسها .. ولكن ينبغى الا نخلط بين المكافأة على الطاعة بالحب والرضا ، وبين اغراء الطفل بالتنازل عن رغباته فى نظير رشوة معينة .. فاننا فى هذه الحالة نعلمه اسلوبا جديدا خبيثا من التمسك باللذة . ونجعله يؤمن ان تلك اللذة لها قيمة ، وانه بتنازله عنها قد أدى للمربى لا لنفسه خدمة يستحق عليها أجرا يعمل باستمرار على رفعه ..

والواقع ان التربية لها وجهان ، هما الثواب والعقاب

.. وكلاهما مفيد ناجع . ومن النـاس فريق يشـب متوافقا مع المجتمع خوفا من العقاب ، وفريق آخر يتوافق مع المجتمع عن طمع لا عن فزع ..

وليس معنى قولنا ان كلتا الطريقتين مفيدة نافعة ،أن اى طريقة منهما يمكن ان تنجـح مائة فى المائة .. فنفس الشخص قد تنجح معه احدى الطريقتين فى مناسبة ما ، وتفشل معه فى مناسبة أخرى ..

ولكننا على العموم ، نستطيع ان نقول ان نجاح التربية رهن بمقدار الحب الذى يجده الطفل من أبويه ومربيه . ولكن هذا الحب يجب ألا يكون كالصنبور التالف ينساب منه الماء بغير حساب ، فالحب اذا جاوز الحـد شـأنه شأن العقاب ـ اذا جاوز الحد ـ خليق أن يفقد أثره ! .. بل انه أكثر من هذا خليق أن يؤدى الى عكس المقصود !

فمن الخير لنا ان نتذكر دائما أن الثواب لا يكون مفيدا الا اذا كان باعثا على الاجتهاد ، أو كان وسيلة لاقلاع الطفل عن لذاته الوقتية الضارة . أما اذا أغرق الآباء أطفـالهم بالحنان والتدليل من غير أن يكلفوهم ولا بالتخلى عن بعض رغباتهم أو تأجيلها .. فلم يجد الاطفال معنى لازعاج أنفسهم للحصول على شىء مضمون أيا كانت النتيجة ، فلا يبقى الحب باعثا على الاجتهاد أو الطاعة ، والتخلى عن اللـذة فى سبيل الواقع . ويكسب الطفل بالعصيان تحقيق لذته الغريزية المباشرة وحب أبويه الممنوح له بلا قيد ولا شرط

والمثل البارز فى هذه الحالة هو الطفل الوحيد المدلل ، أو الطفل آخر العنقود ، فمثل هذا الطفل ينمو نموا جسميا عاديا أو فوق العادى . ولكنه يظل أسـير مبدأ اللذة ، مثلما كان فى طفولته الاولى ..

ومثل هذا الولد المدلل ، اذا خرج الى معترك الحياة

صدم بواقع المجتمع واختلافه الضخم عن بيئة بيته .. وتكون هذه الصدمة مصدر آلام فظيعة تجعله ينهار ويتداعى . ولا يستطيع الكف عن التحسر على نفسه ومصيره ، ومثل هذا المدلل اما ان ينقلب مجرما مستبدا ، أو يسقط صريع الفشل . وهو على الحالتين مريض فاشل منحرف ، اما في صورة عدوانية أو صورة سلبية .. !

ولننتقل الان الى طريقة العقاب والوعيد .. وسنجد ان الاسراف في القسوة عقابا على الاشباع الغريزى المحرم يجعل الطفل وكأنه ضحية .. ويتأكد لديه هذا الشعور المؤلم ، اذا لم تترتب على الطاعة تعويضات لتلك القسوة في صورة حب وعطف ..

ان الطفل في هذه الحالة خليق ان يجنح الى العصيان والتمرد ، لانه لن يخسر شيئا بالتمرد اكثر مما يخسره بالطاعة .. وهو على الاقل في حالة التمرد سيكسب اللذة المباشرة الناتجة عن اشباع الرغبة ..

وهكذا يكون الاسراف في العقاب قد عكس الغاية .. ولم يعلم الطفل الخضوع للمبدأ الواقع ، بل دفعه الى تحدى ذلك المبدأ تمردا على السلطة الغاشمة المفروضة عليه ..

ومن الطبيعى ان تنمو معه نفسية التمرد والعصيان ، فينتقل من التمرد على سلطة أبويه الى التمرد على سلطة معلميه ورؤسائه ، ونظم المجتمع كلها ..

والهدف الاول من هذا التمرد ، هو تأكيد ذاته ضد جميع السلطات التى تصادر رغباته ولذاته .. ويصبح هذا العصيان مصدر نوع جديد من اللذة القوية ، شبيه كل الشبه باللذة التى يحصل عليها من أشباع غرائزه

ويجب الا يغتر الآباء والمربون بالنجاح الوقتى لسياسة العنف والشدة المطلقة .. فيقولون هذا ولد مهذب خاضع مطيع لا يحيد عن سواء السبيل ، وليوقنوا من أن هـذا الخضوع المطلق ستعقبه ـ أن عاجلا أو آجـلا ـ ثورة عارمة تقلب سلوك الفتى رأسـا على عقب حتى يعجب الناس لانقلاب هذا الحمل الوديع الى نمر مفتـرس بغير سابق نذير !



الفصل الخامس

خطر التدليل والقسوة



التدليل

ان اى انحراف ـ فى طريقة العقاب أو طريقة الثواب ـ يؤدى الى اعوجاج لا شك فيه . ومن المشـــــاهد ان الاطفال الذين لم تستقم تربيتهم ، ففقدوا الحب أو أغرقوا به ، يندفعون مع مبدأ اللذة الجارف اندفاعات تميزهم على الفور عن أقرانهم الذين نموا نموا نفسيا طبيعيا بفضل تربية قويمة .. وبهذه العلاقات نتعرف على المنحــرفين من الشبان ، ومن فى حاجة الى تقويم ..

ان اندفاع الشاب وراء اللذة اندفاعا يؤدى الى نشوب صراع بينه وبين المجتمــع ، والى تورطه فى انحرافات ، مسألة يجب أن تقابل بالعلاج المناسـب ، لا بالنبـــذ أو بالعقوبة المجردة .. فان من خصائص الشاب المنحـرف أن يكون متعطشا الى اشباع لذاته ، غير مبال فى هـــذا السبيل شيئا . وتفسير هذا التعطش المرضى أنه استمرار للرغبات الطفلية بعد ان انتهت مرحلة الطفولة .. فالشاب المنحرف مشكلته الاولى انه طفــل من النـــاحية العقلية والنفسية ، يتقمص جسم شاب نام !

ان الشاب المنحرف يشبه الطفل من حيث انه عاجــز عن التخلى عن لذاته العاجلة فى سبيل لذات أخرى آجلة. ولذا نجده يقدم على أقوال وافعال تعتبر عادية تماما لو صدرت عن طفل .. ولكنها اذ تصدر عن شاب تجعلنـــا نعتبره شاذا ، لانه ينبغى أن يكون قد أقلع عما لا يليـــق

بسنه من الافعال والاقوال ..

ولو أننا نظرنا هذه النظرة باستمرار الى جميع اعراض الانحراف عند الشبان ، لصار من السهل علينا فهم تلك الاعراض وتفسيرها وارجاعها الى عللها الاولى ..

وعلى ضوء خبرتى فى الاصلاحيات التى تضم شبانا مراهقين أو جاوزوا المراهقة ، أقول ان هذه المؤسسة الداخلية التى يعيش فيها هؤلاء المنحرفون تكاد تشبه مدارس الحضانة .. لكثرة حوادث الغيرة بين هؤلاء الشبان ، مما يؤدى الى العراك المستمر .. وكأنهم أطفال صغار يغارون من تقرب أحدهم الى الأب أو المعلم ، أو من ظفر احدهم بظاهرة عطف تميزه عن الاخرين

بل وفى غير الناحية الانفعالية ، نجد هذا الشبه الكبير بين الشبان المنحرفين وصغار الاطفال فى الناحية البدنية .. فمعظمهم يهملون نظافة أجسامهم كما يهملها الاطفال الصغار ، ويتركون شعرهم يطول ، وأظافرهم تتسخ وثيابهم تلطخها الاوساخ ..

وثمة وجه شبه آخر بين الشبان المنحرفين وصغار الاطفال ، من الناحية الذهنية .. فهم عاجزون عن التركيز الطويل فى موضوع واحد وعن الاهتمام الكافى بالاشياء .. ويتصفون بضعف الذاكرة ، وضعف التمييز وعدم القدرة على الحكم .. يستثيرهم أول مثير فينفرون ويندفعون من غير روية ، ومن غير قدرة على ضبط انفعالاتهم

والمشكلة فى أمر المنحرف البالغ ، أن ذاته لم يتم نمو جميع اجهزتها فى مستوى واحد .. فجزء معين من ذاته نما الى مستوى الواقع ونضج ، أما بقية ذاته فظلت غير ناضجة ، ولم تنتقل من عالم اللذة اللاشعورى

وعلى هذا يكون جزء من نفسه ناضجا متفقا مع عمره الزمني أو اكبر فى بعض الاحيان .. وبقية نفسه أقل من عمره الزمنى بمراحل . فهو « مسخ » يجتمع فيه مستويان متفاوتان جداً من مستويات العمر ، أحدهما يسيطر عليه مبدأ اللذة العاتية اللاشعورية .. والآخر يسيطر عليه مبدأ الواقع ، فيحسن التصرف فى بعض الامور بكل تعقل ..

ومن المنحرفين من يكون تأخر نموه شاملا للناحية الجنسية .. ولكن هناك فريقا آخر من المنحرفين لم يتأخر نموه الجنسي ، ولا يوجد فى هذه الناحية عنده اى شذوذ أو اعوجاج أو تخلف ..

وقد يكون هذا التفاوت فى النمو ناتجا عن خطأ فى التربية ، فقد يحدث فى احدى مراحل النمو ان يتسبب المربى فى توقف بعض الوظائف العقلية .. فيحدث ما يسمى فى علم النفس « كف النمو » . وقد يحدث أيضا فى احدى مراحل النمو ان يهبط مستوى بعض الوظائف العقلية التى كانت قد نمت نموا حسنا .. وهذا هو ما يسمى فى علم النفس « النكوص »

وعلى هذا يمكن ان يقال بايجاز : ان الانحراف اما ان يكون نتيجة لكف النمو أو للنكوص الذى يصيب اى جانب من جوانب الطفل فى اى مرحلة من مراحل الانتقال من التكيف البدائي الى التكيف الاجتماعى

ومن الواضح ان المنحرف لا يعانى من ناحية التكيف البدائى أو البيولوجى .. ولكن مشكلاته جميعا أساسها اضطراب نموه نحو التكيف الاجتماعى مما يؤدى الى صراع مستمر بين نوع من رغباته غير المنتظمة وبين المجتمع

وفى عزمى ان أوضح النوعين الاساسيين من الانحراف

.. الا وهما الانحراف النـــاتج عن الاسراف فى المحبة والتدليل والانحراف الناتج عن المبالغة فى القسوة والنبذ .. وسأذكر ما ينبغى لكل حالة من هاتين الحـالتين من وسائل العلاج

***

اما الانحراف الناتج عن الاسراف فى المحبة والتدليل ، فأكثر ما يوجد فى بيوت الطبقة الوسطى ..والمؤسف ان افراد هذه الطبقة لا يشعرون بما يرتكبونه من فظائع فى حق ابنائهم عن طريق هذا التدليل المسرف .. وعنـدما تتفاقم الحالة ينتهى الشاب الى عيادات التحليل

ومعظم الحالات التى مرت بى من هذا النوع حـــالات « طفل وحيد » ولا سـيما اذا كان أبوه قد مـــات عنه ، وانقطعت امه الارملة لتربيته .. أو يكون أبواه قد انفصلا بالطلاق ، وكل منهما يتنافس فى كسب قلبه

وفى بعض الاحيان ، يخيل للزوجة ان زوجها منصرف عنها بقلبه أما الى امرأة أخرى :او الى نساء كثيرات، أو الى اعماله .. وتحسين مركزه.. فلا تظفر من محبته الا بقسط ضئيل ، فتنصرف الى طفلها تغمره بطاقة حبهـا المعطلة .. أو تريد ان تحصل منه على كمية المحبة التى أعياها أن تحصل عليها عن طريق زوجها بصورة طبيعية !

ومثل هذه الام هى التى تربى الابن أسوأ تربية .. وكل من يعرف امرأة من هذا الطراز يعرف ولا شك مبلـــغ تلهفها على ابنها الحبيب ، واستعدادها للاقدام عـلى أى تضحية مهما غلت فى سبيل تجـنيبه أى نوع من الالم أو الحرمان

واذا فرضنا ان الطفل وجد أبا رشيدا ، أو معلما حازما،

وتراءى له ان لذعة العصا قد تصلح من أمره الشيء الكثير .. فما أشد اضطراب تلك الام ومبالغتها وتهويلها ، كأن العقاب نزل بها شخصيا مضروبا فى عشرة أضعاف.. وهذا الجزع من جانب الام أشد بكثير من جزع الطفل المعاقب نفسه ..

وكلنا يدرك أيضا ان مثل هذه الام تبدى من التلهف على تمتع ابنها بكل انواع اللذات العاجلة ، أكثر من تلهف الابن نفسه على لذاته .. فكأنه حين يستمتع ويتلذذ ، يستمتع ويتلذذ لها قبل نفسه ..

وقد يؤدى هذا الى فتور همة الابن حتى عن لذاته ، اعتمادا على اهتمامها بالنيابة عنه بتحقيق تلك اللذات .. فكأنها قد أعفته حتى من جهد السعى الى تحقيق لذاته، بما تتكبده هى من مشقة فى السعى له ..

وانها لتتحمل نتائج ذلك بصبر عظيم .. وهذه النتائج هى ان الطفل المدلل متى فقـــد همة السعى والابتكار والتفكير لتحقيق لذاته ، وجه طاقة المبادأة والابتكار الى تنغيص عيشها بتدلله فيما يتعلق بمصلحته أو لذته أو متعته .. فهى تجد لذة كبرى فى تحمل تقلبات مزاجه وشيطنته ، بل تصبح هذه الشيطنة والنزوات وشرود الذهن موضوعا لاعجابها .. وترى فيه دليلا على الذكاء واصالة الشخصية أو خفة الروح ..

والويل لمن سولت له نفســه توجيه أى نقد قاس الى معبودها المدلل .. فكأنه بذلك قد وضع أســاس عداوة شخصية بينها وبينه . وأما رفاقه فى المباريات الرياضية فلن يكون نصيبهم منها الا النقد المر والدعاء عليهم بقصف أعمارهم اذا قاوموه فى اللعب مقاومة طبيعية ، وفازوا من دونه فى نهاية المباراة ..

مثل هذا الطفل يكون محور حيـاة أمه التى تتكفل بتحريره من كل قيد واعفائه من كل مسئولية والتزام.. وبطبيعة الحال لا وجود لديه لشىء اسمه الواقع . وذلك لسبب بسيط هو أن أمه تقف سدا منيعا بينه وبين رؤية ذلك الواقع ! ..

وانه لطبيعى جدا ، وقد منع الطفل من تعديل مبدأ اللذة ، أن يظل مبدأ الواقع شيئا غريبا عن ادراكه .. !

وقد يحدث أن يمتنع مثل هذا الابن عن تنفيذ بعض رغباته ، لا لسبب تربوى بل لأن أمه تحول بينه وبين أى شىء قد يكون مصدر خطر على جسمه .. فهو يجب الا يتسلق الشجرة كى لا يقع على الارض ، ويجب الا يخرج الى الخلاء حتى لا يصاب ببرد .. وهلم جرا ..

ومن الطبيعى أيضا ألا يفهم الطفل الحكمة من هـذه القيود العجيبة التى تتمسك بها أمه ، والتى لا تتفق مع الحرية المطلقة المسموح له بهـا فى كل شىء .. فيتمرد على تلك القيود !

والغالب الا تفهم هذه الام الموقف ، فتحاول تقـديم « رشاوى » اليه كى يتنازل عن تمرده وعصيانه... اما فى صورة نقود ، أو مزيد من التدليل والمكافأة . ولـكن الطفل لا يلبث ، بعد قليل ، أن يسأم هذه المنح ويلجأ الى التمرد أو مطالبة الام بما فوق طاقتها .. فلا تستطيع تلبية طلبه . واذا بها قد عجزت عن تجنيبه مواجهة الواقع فى النهاية ، لأن عدم اجابة رغبته هى الواقع الذى أشفقت عليه من مواجهته فى الوقت المناسب ، فاذا به يواجهـه بعد فوات الأوان وقد تخلف عن الاستعداد لتلك المواجهة بزاد من التدريب الصالح على التكيف .. ذلك التدريب الذى هو لباب التربية الرشيدة

وتكون النتيجة هى الانحراف ، نتيجة الصراع غير المتكافىء مع الواقع ، واشتعال رغبات الفتى وجموحها ، والثورة على الموانع الاجتماعية .. ثورة قد تتخذ شكل الهرب أو التشرذ وغير ذلك

ولعل من المناسب هنا ، ونحن نتحدث عن الطفل ذى النزوات ، أن نذكر التجربة الطريفة التى وردت على لسان « اميل » فى كتاب « جان جاك روسو » الثمين عن التربية :

حدث أن قمت مدى بضعة أسابيع على شأن طفل ، كان قد تعود لا تنفيذ هواه فحسب ، بل وكذلك املاء ارادته على جميع من حوله ، ولذا كان هذا الطفل ذا بدوات ونزوات ..

ومنذ اليوم الاول ، حاول أن يجرب معى تلك السياسة ، ليعرف مدى قابليتى للتساهل .. فنهض من فراشه فى منتصف الليل ، وقفز وأنا غارق فى نومى .. فارتدى دثار الفرقة وأخذ ينادينى ، فاستيقظت وأوقدت شمعة. ولم يكن مراده يتعدى ذلك .. فبعد ربع ساعة عاوده النعاس ، فرقد فى سريره راضيا عن التجربة التى قام بها !

وبعد يومين عاود الكرة ، ولقى من التوفيق ما لقيه فى المرة الاولى . أما أنا فلم أظهر شيئا من ضيق الصدر أو نفاد الصبر .. وكل ما هناك أنى قلت عندما قبلنى لينام ، وبكل هدوء :

ـ يا صديقى الصغير ، لا بأس بما حدث .. ولكن اياك أن تعاود الكرة

ولا شك أن هذه الكلمة أثارت فضوله .. فمنذ اليوم التالى أراد أن يعرف كيف سأجسر على عصيانه ، فلم

يتردد فى أن يستيقظ فى الساعة عينها من منتصف الليل وينادينى .. فسألته ماذا يريد ، فقال لى أنه لا يستطيع أن ينام .. فقلت له :

ـ هذا من سوء حظك ..

ثم لذت بالصمت ، ولم أتحرك من موضعى.. فرجانى ان أوقد الشمعة . فسألته لماذا يريد الشمعة ، ثم لم أتحرك من موضعى .. فضايقته لهجة عدم الاكتراث التى استخدمتها معه ، فجعل يتحسس طريقه بحثا عن القداحة ، وتصنع محاولة استعمالها .. فلم أستطع ان أمنع نفسى من الضحك وأنا أسمعه يدق بها يده فتؤلمه . ولما يئس من النجاح فى استعمالها ، أتانى فى فراشى بالقداحة .. فقلت له انه لا حاجة لى بها . ثم أوليته ظهرى ورقدت على جنبى الآخر ، فراح يجرى فى الحجرة على غير هدى صائحا أو متغنيا ، محدثا ضجة كبيرة .. ومتخبطا بجسمه بين المقاعد والمنضدة ، حريصا على أن تكون الصدمات هينة. ومع هذا كان يستغلها فى الصراخ بشدة ، على أمل أن يدخل على نفسى القلق .. ولكن هذا كله لم يكن له أثر . ورأيت أن الطفل رتب أموره على اثارة الغضب ، ولم يخطر بباله ان أقابل ذلك بالهدوء والثبات ..

الا أنه عقد النية على التغلب على صبرى بقوة عناده ، فاستمر فى ضجته الى درجة أثارتنى .. فأدركت انى سأفسد كل شىء بثورتى ، فعولت على تجنب ذلك بخطة جديدة ، فنهضت من فراشى من غير أن أقول شيئا .. وذهبت أبحث عن القداحة فلم أجدها .. فطلبتها منه . فأعطانى اياها وهو يكاد يقفز من الفرح لتمكنه فى نهاية الامر من الانتصار على .. فضربت القداحة واوقدت الشمعة

.. ثم اخذت الصغير من يده ، وجررته برفق الى حجرة مجاورة محكمة النوافذ ليس فيهـا ما يخشى عليـــــه من تحطيمه .. وتركته هناك وحده من غير الشمعة ، واقفلت عليه الباب بالمفتاح .. ثم عدت ونمت فى فراشى من غير أن أقول له كلمة واحدة

ولا تسلنى هل كانت فى البداية ضجة هائلة .. فقد كنت اتوقع ذلك طبعا ، ولم يغظنى ذلك بتاتا . وأخيرا هدأت الضجة ، وأصغيت فسمعته يستقر حيث هـو ويهدأ .. فاطمأن بالى ..

وفى اليوم التالى ، دخلت الخزانة فى وضح النهار .. فوجدت المتمرد الصغير راقدا على آريكة غارقا فى سنة من النوم . ولا شك أنه كان فى أشد الحاجة الى ذلك النوم العميق بعد كل ذلك العناء

بيد أن الموضوع لم يقف عند ذلك الحد .. فقد علمت الام أن الطفل قضى ثلثى الليل خارج فراشـــه ، فكأنما تقوضت اركان الدنيا وصار الطفل من الهالكين . ووجد الصغير الفرصة ملائمة للانتقام ، فتصنع المرض .. ولم يخطر بباله ان ذلك لن يجدى عليه شيئا

ودعى الطبيب .. وكان رجلا محبا للمزاح والارضاء ، وهذا من سوء حظ الام ، لانه أراد أن يتسلى بفزعها فراح يجسم لها مخاوفها ويضخمها .. ومال على اذنى يهمس لى :

ــ دعنى اتصرف .. واعدك أن الطفل سوف يشفى الى أمد طويل من تلك البدوات ، وعلى الاقل من نزوةالمرض

وفعلا وصف للمريض الصغير غذاء كريها ، ودواءبغيضا، وحتم عليه ملازمة الفراش ملازمة دقيقة .. وهذا كلــه

مزعج للصغير غاية الازعاج . وحز فى نفسى أن آرى تلك الام المسكينة ضحيةخداع جميع منحولها ، فيما عداى أنا، الذى كانت تبغضنى ، لاننى لا اخدعها !

وبعد تقريع قاس ، قالت لى أن ابنها رقيق البنية ، وأنه الوارث الوحيد لاسرتها ، ويجب المحافظة على حياته بالغا ما بلغ الثمن .. وأنها لا تحب أن يلقى الطفل معارضة من أى نوع ..

وكانت تعنى بعدم معارضـــــته أن أطيعه فى كل ما يخطر بباله .. فأدركت أنه ينبغى أن آتخذ فى خطاب الام ما اتخذته فى خطاب الطفل من لهجة ، فقلت لها بأقصى برود ممكن :

ــ أنا لا أدرى ياسيدتى كيف ينبغى أنيربى وريث.. وأكثر من هذا انى لا اريد أن أدرى كيف يربى وريث .. ويجب ان تدبرى آمورك على ذلك الاساس ..

وكانوا بحاجة الى مدةأخرى ، ريثما يعود المربىالاصلى من اجازته ، فتولى الابتهدئة الموقف.وكتبت الام الىالمربى تستعجل عودته .. أما الطفل ، فلما وجد أنه لن يجنى شيئا من اقلاق نومى ، ولا من تصنع المرض .. قرر أخيرا أن ينام من تلقاء نفسه بهدوء ، وان يكف عن المرض

ولا يمكن أن تتخيل أنواع البدوات والنزوات التى كان هذا الطفل يتفنن فيها لتنغيص حياة مربيه المسكين ، لان تربيته كانت تحت سمع الام وبصرها .. والام كانت لاتحتمل أن يعصى لوريثها المدلل آمر

فى أى لحظة من لحظات النهار يخطر للطفل أن يخرج ، كان ينبغى على المربى أن يكون متأهبا تمام الاهبة للخروج به من غير معارضة او استمهال .. وكان الطفـــل الماكر

يختار دواما الوقت الذى يرى فيه مربيه مشغولا جدا !

وأراد الطفل أن يفرض على تلك السلطه بعينها ، فينتقم من راحتى النهارية للراحة الليلية التى أجبرته أن يدعها لى ، وكنت متأهبا لخطته تلك ·· فأظهرت له باستمرار السرور بتنفيذ رغباته · ثم بعد ذلك عولت على أن انتهج سياسة اخرى لشفائه من بداوته ··

ولما كنت اعلم أن الاطفال لا يفكرون الا فى اللحظة الحاضرة ، فقد حرصت على أن أوفر له فى البيت تسليات مما أعلم أنه يحبها جدا ·· ومتى وجدته منغمسا فى التسلية تماما ، اقترحت عليه ان نخرج للنزهة ، وألح فلا يجيبنى ·· فأخرج واتركه غير مقيد به !

وفى اليوم التالى انقلب الوضع ·· لم يكن لديه ما يسليه فى البيت ، فتضجر ·· أما أنا فكنت ابدو على العكس مشغولا جدا · وكان فى هذا الكفاية لكى يقرر ماذا يعمل ·· فلم يتأخر عن الحضور لينتزعنى من عملى كى انطلق به الى نزهته ، فرفضت ·· وأصر هو · فقلت له :

ـ كلا ، فانك حين نفذت أمس ارادتك علمتنى أن اتمسك بارادتى .. وأنا لا أريد الخروج ..

ـ وهو كذلك ! ·· سأخرج وحدى ··

ـ كما تشاء ··

وعدت الى تشاغلى بعملى ·· فارتدى ثيابه وهو قلق لعدم نشاطى لارتداء ثيابى ·· وقبل ان يخرج أتى يحيينى ، فحييته ·· فحاول أن يفزعنى بذكر الجهات التى سيذهب اليها ، ومن سمعه كان يظنه ينوى الذهاب الى آخر الدنيا .. فلم أكترث ، وتمنيت له رحلة سعيدة .. فتضاعف

ضيقه ، بيد أنه تظاهر بالهدوء . وقال لخادمه الخاص ان يتبعه في نزهته

وكانت لدى الخادم أوامر سابقة ، فأجابه أنه مشغول في تنفيذ اشياء أمرته أنا بها ، وانه يجب ان يطيعني . ولم يتصور الطفل ان نتركه يخـــرج وحده ، وهو الذي كان يظن نفسه أهم شخصية في البيت ، ويعتقد أن الســـماء والارض ليست لهما مهمة اخرى سوى المحافظة عليه !

وبدأ يشعر بضعفه .. وبأنه سيواجه وحده أناسـا لا يعرفونه . وتصور المخاطر التي سيتعرض لها ، الا ان العناد وحده هو الذى كان يشد أزره .. فنزل الســـلم ببطء ومشى فى الشارع متعزيا عن المتاعب التى ستصادفه، وألوان الاذى التى سيتعرض لها ، بأن ذلك كله ســوف تقع جريرته على عاتقى . ولكنى كنت قد اعــــددت للامر اخراجا دقيقا بموافقة والده .. فما مشى فى الشــــارع بضع خطوات ، حتى سمع عن يمين ويسار تعليقات جارحة لشخصه تسخر منه

ـ انظر ايها الجار هذا السيد الجميل .. أين تراه يذهب هكذا وحده ؟

ـ انه ياجارتى سيضل طريقه .. أرى أن أدعوه للدخول عندنا ..

ـ احذر من ذلك ياجارى .. ألا ترى أنه طفل مغضوب عليه ، فطرده أبوه من بيته لما يئس من استقامته وطاعته ؟ ان الاطفال العصاة يجب أن يتركوا وشأنهم مهما تعرضوا لضلال الطريق ..

وبعد خطوات قليلة أخرى ، التقى بشرذمة من الاطفال ابناء السبيل من عمره . فأخذوا يغيظونه ويتندرون عليه .. فشعر أنه فى وحدته ضعيف لا حامى له ، العوبة فى

يد جميع الناس ·· وتبين ان شارات النبالة التى يحملها على صدره لا تكفل له الاحترام

وزادت الامور سوءا حين عاد الى البيت، ليجد والده يهبط السلم ·· فكان على الطفل ان يفسر لابيه اين كان ، ولماذا خرج وحده · فتمنى المسكين لو أن الارض ابتلعته ·· وأفهمه أبوه أنه عاص ، وعليه فى المرة القادمة التى يغادر فيها البيت بمفرده ان يرتب عزمه كى لا يعود اليه ·· فهو لا يقبل فى بيته العصاة والخارجين على النظام !

أما أنا فقد استقبلته بلا تأنيب أو سخرية ·· ولكن ببرود وصرامة حتى لا يتبادر الى ذهنه ان المسألة كلها كانت مدبرة · وعاقبته بعدم الخروج معه فى ذلك اليوم فى ساعة النزهة المعتادة

وفى اليوم التالى حرصت ان اخرج معه ·· فخرج ويده فى يدى فخورا على تلك الجماعات التى هزئت منه بالامس حين مر بها وحده · ومن المفروغ منه ، أنه لم يجرب بعد ذلك مطلقا ارغامى على الخروج معه

وبهذه الوسائل ، وما يجرى مجراها ، استطعت فى غضون المدة التى قضيتها مع ذلك الطفل أن أسيره كما أشاء ، من غير مواعظ ومن غير تحذيرات ونواه أو ضجر بدروس لانفع منها ··

كنت أصمت فيكون صمتى مصدر قلق له لانه يعلم أن خطتى العملية ستكون هى الدرس الحازم الذى يتعلم منه ما اريده أن يتعلمه ··

القسوة

أما الانحراف الناتج عن الاسراف فى القسوة ، فهو الغالبية العظمى من الحالات الواردة على المؤسسات الاصلاحية ومحاكم الاحداث !

هذا مع الاعتراف بأن هناك نوعا « هجينا » من المنحرفين ، يرجع اعوجاجه الى الجمع بين النقيضين : التدليل المفرط والقسوة المفرطة ، جمعا من شأنه أن يطيش الصواب ..

وقد يبدو من العسير أن يحدث هذا التناقض فى المعاملة .. ولكن علينا أن نتذكر أن الاسرة يتولاها شخصان عادة هما الاب والام . وليس فى النادر أن يكون الاب متطرفا فى صرامته وشدته ، وأن تكون الام مفرطة فى حنانها ورقتها وعطفها ..

وعلينا أن نتذكر أن تجارب الطفولة ذات أثر عميق فى مستقبل نمو الطفل وتكوينه النفسانى والعقلى ، واننا لنقدر أن حزم الوالد ضرورى .. وان حنان الام ضرورى كذلك ، ولكن الخطأ ليس فى الحزم والحنان ، بل فى تجاوز كل من الحزم والحنان لحدودهما المعقولة ..

ان الاب يمثل الواقع القاسى ، كما سيبدو للطفل فى المستقبل ، كما أن حنان الام من شأنه أن يخفف من وقع شدة الاب ـ مع الاصرار على طاعته ـ مما يهيىء للطفل

لنشأة متوازنة من مواجهة الواقع فى المستقبل بأقل خسارة ممكنة ..

اما اذا كان الاب مبالغا في قسوته ، والام مبالغة فى حنانها لدرجة أنها تعارض الاب وتسفه مطالبه وأوامره .. فانها ستكون ملاذا لذلك الطفل كلما اشتد عليه أبوه كى تحميه من غضبه وتعفيه من الطاعة له . وهو بهذا يتجنب باستمرار مواجهة الواقع ، وبذلك يبقى دائما تحت سيطرة مبدأ اللذة . وهذه هى بداية الطريق الى الانحراف .. لان شعار هذا الفتى هو « مهما تمردت أو أخطأت أو تكاسلت فلن يصيبنى أذى »! .. وهذه هى ضريبة التربية الفاسدة !

***

وليس معنى القسوة أن تكون بالضرورة قسوة بدنية .. فمن الاطفال ما يعتبر قسوة بالنسبة له كافيةلجرحه ان تعامله بجفاء ، معاملة تشعره بأنه محروم من المحبة والحنان .. وهذا الاثر يساوى عند ذوى الحساسية من الاطفال اثر الضرب والقسوة البدنية عند غيرهم .. وهذه الفروق الفردية امر مشاهد معترف به عمليا وعلميا .. ولها أثر كبير فى نشأة الانحرافات . وهذه نقطة يجب الا نتجاهلها أو نغفل عنها ، ونحن نفسر سلوك الاطفال والشبان الذين يبدو عليهم الانحراف .. فلا ننخدع بالمظاهر ، ونعتبر عدم ضرب الطفل دليلا كافيا على عدم شعوره بالقسوة فى تربيته .. فلا بد ان نعمل حسابا كافيا لنسبة الاحساسات عند الاطفال ..

وقد يحدث ان يتكب الطفل ويضطر لمواجهة قسوة الواقع ، وهو فى سن غضة .. فلا يستطيع فى تلك المرحلة المبكرة فى نموه أن يحقق التكيف المطلوب مع الواقع . وبدلا من ان يتيسر للطفل التكيف قبل الاوان ،

يصاب غالبا بنكوص يؤدى الى عرض من أعراض الانحراف بعد فترة تبدو وكأنها لا غبار عليها ..

ومعنى هذا النكوص ، أن يعود مبدأ اللذة الى توجيه سلوك الطفل كما كان الحال فى مرحلة سابقة من مراحل نموه ..

وشر مافى النكوص ، أن الطفل حين يرتد الى مستوى من مستويات نموه القديمة كى يحصل على اشباع نوع معين من رغباته ، فان تقدمه نحو النمو من تلك النقطة التى ارتد اليها يكون أصعب بكثير من النمو الطبيعى ؛ ولذا نجد الطفل الذى أصيب بالنكوص أقل استعداد للاستجابة للحزم ، والاستسلام للشدة .. فبعد أن كان يتحمل الشدة يتمرد عليها تمردا صريحا ، ليس من النادر ان يقترن بأعمال العنف عند المراهقين ..

ومن واجب المربى أو المعالج ــ على كل حال ــ أن يساعد الطفل على اجتياز ما يعترض طريق نموه من عقبات الى أن يتخلى عن مبدأ اللذة الطفلى ، ويتقدم نحو مستوى اكثر تناسبا مع عمره يسيطر عليه فيه مبدأ الواقع

ومن أهم مــا ينبغى ان يعنى به المربى ، أن يبث فى الفتى المنحرف ملكة التحكم والتمييز .. ويدربه على أن يوازن بين اللذة المباشرة التى تعقب ألما أو اذى ، وبين تأجيل هذه اللذة المباشرة او التنازل عنها فى سبيل لذة من نوع آخر

ومن الاهمية بمكان أيضا ، أن يتعلم المنحرف ان القدر من اللذة الذى يظفر به من التوافق مع المجتمع اكثر وأهم من تلك اللذات المتناثرة الجزئية المباشرة التى يجنيها عن طريق يحرمه المجتمع ..

ومن المحتمل أن يكون الفتى المنحرف ناقص الادراك فيما يتصل بالواقع .. فاهتمامه كله منحصر فى تحصيل اللذات اللاشعورية .. أما المجتمع واوامره ونواهيه فليست عنده موضع اهتمام ولا يدركها ادراكا كافيا ، ولذلك لا يهتم باستهجان المجتمع له ..

ان الفتى الذى يثق ثقة تامة بحب والديه له مهما فعل ، أو يستطيع الاستفادة من التضـــــارب بين الابوين أو تنافسهما على حبه يجب أن يبدأ علاجه بتحميله المسئوليات، وبأن يشعر بأن عليه واجبا نحو نفسه ، وأنه اذا لم يقم بهذا الواجب ولم يتعهد برعاية مصالحه وحماية نفسه فلن يقوم أحد عنه بهذه المسئوليات

ومن الضرورى ان يقوم المعالج أو المربى بدور أساسى عن طريق التحويل الذى وضحنا وسائله فى فصل سابق .. وعلى المربى ـ وهو يقوم بهذا الدور ـ ان يستخدم سلاح التقدير للفتى ، ولكن بشرط الا يمنحه تقديره الا جزاء على قيام الفتى بتحقيق مسئولية من مسئولياته ..

ومن الطبيعى اذا كان الطفل مدللا متعودا أن تجاب جميع مطالبه ولا يتعرض لاى متاعب او صعوبات ، أن يرفض الخضوع لاى نوع من الحرمان ، ويأبى اطاعة المربى أو المعالج فى كل ما يحول بينه وبين رغباته ولذاته المباشرة

وفى هذه الحالة ، لابد من التذرع بالصبر الى ان ينشأ « التحويل » بحيث تكون لذة الطفل من ارضاء المربى أهم عنده من لذاته المباشرة الشخصية ..

وهكذا يعزل مبـــدأ اللذة عن العـــرش ، ويبدأ مبـــدأ الواقع فى السيطرة ..

وأما الفتى الذى كان انحرافه نتيجة قسوة مفرطة فى

بيئة البيت ، فهو قد تعود الحرمان من رغباته أوالمعارضة لها .. لذا يجب أن يعامله المربى أو المعالج معاملة تختلف تماما عن معاملة الولد المدلل ..

ان مثل هذا الفتى بحاجة الى الايناس وتبديد ظمئه الى الحب .. انه بحاجة الى ما يعوضه عن الحنان المفقود .. فعلى المربى أن يجعل من نفسه صديقا له ، يبذل له من نفسه ويفتح له قلبه ويتبسط معه .. ويتيح له المتعة والظفر باللذات المباشرة ، بعد حياة كبتت فيها هذه اللذة .. ثم يتدرج به الى التكيف مع الواقع شيئا فشيئا .. ذلك الواقع الذى هو مزيج من اللذات والآلام

وقصارى القول أن كل حالة من حالات الانحراف لها ظروفها ولها اسبابها .. ولذا يجب أن يكون لها منهج خاص بها فى العلاج .. وقد يكون الانحراف الواحد فى شابين له سببان متناقضان فى هذا وذاك .. ولذا يجب ان يكون منهج العلاج لهذا الفتى عكس منهج علاج الفتى الآخر

ان بيئة العلاج والعلاقة بالمربى يجب أن تكون عكس علاقته بوالديه .. فان كان انحرافه ناشئا عن التدليل ، فعلاجه يكون عن طريق الاشعار بالمسئولية وأداء الواجب وتحمل الآلام والحرمان .. وان كان انحرافه ناشئا عن القسوة والحرمان ، فيجب أن يكون علاجه عن طريق المحبة والصداقة والتقرب .. وهكذا ..

ومما يؤسف له حقا أن نجد معظم الاولاد فى الاصلاحية ضحايا تربية منزلية قاسية .. ثم نجد المشرفين على الاصلاحيات يعاملونهم معاملة لاتختلف عن تلك المعاملة التى كانت سببا فى انحرافهم ، فيزيدون الجرح عمقا واتساعا، ويضاعفون الضرر .. ولذا نجد المنحرف يدخل تلك الاصلاحيات ليخرج منها وقد تحول الى مجنون أو مجرم !

الفصل السادس

الذات العليا



الذات العليا

وقد آن لنا ان نتساءل :

ـ لماذا تستجيب الكثرة الغالبة من الناس للاوضاع والنظم الاجتماعية بلا معارضة أو شغب ؟

من المعروف بالتجربة أن فى سريرة كل انسان منا صوتا داخليا يمنعه من الاقدام على أى عمل يأباه المجتمع .. وهذا الصوت الداخلى هو المسمى بالقانون الاخلاقى ، أو الحاسة الخلقية ..

والحاسة الخلقية ، كما تنهانا عن مخالفة المجتمع والخروج عليه ، كذلك تأمرنا بعمل أشياءمعينة.. وحالة النهى تؤدى الى الكف او الكبت .. وحالة الأمر تؤدى على العكس الى الايجابية ..

وهذه الحاسة الخلقية جزء من « جهاز نفسى » يقوم بعمل الرقيب على أفعالنا ونشاطنا العقلى والنفسى .وهذا الرقيب هو الضمير .. وهو الذى يسر للعمل الطيب ويستاء من العمل السيىء ..

وبين علماء النفس من يسمون الرقيب أو الضمير « الانا الناقد » ويسمون الجانب الناشط من العقل « الانا الفعال »

إن الذات الفاعلة تفقد كل قدرة على التوجيه ، اذاكانت الذات الناقدة غير مرتبطة تمام الارتباط بما للمجتمع من

مطالب ومقتضيات •• ولابد للانسان كي يعيش في توافق مع المجتمع ، أن تكون له ذات متوازنة مستعدة لمسايرة السلطة الاجتماعية من غير تمرد أو صراع

والحقيقة أنه مهما كثرت العناصر التي يتكون منها بنياننا النفسي والعقلي ، الا أن المفروض فينا ان نحس بأننا لسنا مجرد كائنات •• بل نحن كائنات من جنس معين • وهذا الشعور بالانتماء الى نوع بشرى والى أمة معينةعميق فينا ••

وقد كان لفرويد فضل كشف اللاشعور ، وأنه القسم الاكبر من الذات ••

وذات كل منا تنمو على مراحل طويلة من البحث عن اللذة المباشرة ، الى التوافق بين اللذة والواقع الخارجي • ويحدد هذا النمو جملة عوامل ، بعضها داخل الانسان ، وبعضها في البيئة الخارجية • وهذه العوامل الداخلية والخارجية تترك آثارها في الشخص •• ومن احتكاكه بها ، واستجابته لها ، وتفاعله معها ، يتم التعلم والتقدم والنضج

ولا نرى بأسا من تكرار حقيقة سبق أن أشرنا اليها •• وهي ان الحياة الوجدانية عند الطفل الصغير ، وما تحفل به من تجارب وخبرات ، هي التي تحدد فيما بعد الحياة الوجدانية للشخص البالغ الذي سيصير اليه ذلك الطفل

وفي المرحلة الاولى من الطفولة ، لا تكون لدى الطفل اي فكرة محددة عن العالم الخارجي من حوله •• فهو متركز بشعوره واهتمامه في شخصه ، فيستمد كل لذاته من أعضاء جسمه •• لان لذاته في تلك المرحلة الاولى تنحصر في اشباع احتياجاته العضوية ، فهو ليس بحاجة الى شيء مما يحيط به كي يتم له هذا الاشباع • ولذلك

يقال ان ذات الطفل فى المرحلة الاولى من عمره هى كل دنياه .. وتسمى هذه المرحلة بمرحلة « اللذة الذاتية »

وبعد انتهاء هذه المرحلة ، تبدأ مرحلة يلاحظ فيهـــا الطفل اشخاصا آخرين موجودين حوله .. ويبدأ فى توجيه انتباهه واهتمامه بهم . وهكذا يتحول جزء من حب الطفل لذاته الى موضوعات خارجية .. وهكذا يتحول الطفل من الحب « النرجسى » او حب ذاته فى المرحلة الاولى الى حب موضوعى ، أو لذة موضوعية فى المرحلة الثانية .. بمعنى ان لذته ورغبته وتعلقه صار موجها الى موضوع خارج شخصه ..

وفى جميع المراحل التالية ، تظل موضوعات اهتمام الطفل وحبه ولذته تتغير وتتبدل .. ولكن تغير اهتمام الطفل من موضـــوع الى موضوع ، ليس معناه أنه نسى الموضوع الاول حين تركه الى موضوع ثان .. بل يترك هذا الاهتمام بالموضـــوع الاول أثره البـــاقى فى نفس الطفل ..

فلا ينبغى أن نعتقد ان فتور حب الطفل لشخص ما ، وتحوله الى حب شخص آخر ، قد اضاع معالم الحب الاول. فالملاحظ ان الطفل ينتحل لنفسه صفات الشخص المحبوب حتى عندما يفتر حبه له . وهذا الانتحال هو الذى يسمى فى علم النفس بالتقمص

وربما حدث التقمص أيضا من غير ان يفتر حب الطفل للشخص الذى يتقمص شخصيته . ولكن يجب ان نتذكر ان التقمص ليس اى انتحال لصفات المحبوب ، بل يجب أن يكون الانتحال فى هذه الحالة شـــديدا وشاملا لصفات كثيرة .. وعندما يفتر الحب ، يظل التقمص باقيا فى الذاكرة .. فكأن التقمص التقاط صورة للشخص المحبوب،

فتظل هذه الصورة باقية سواء حضر صاحبها أو غاب ..

وأهمية التقمص فى حياة الطفل أن الشخص المحبوب يقدم للطفل لذاتموضوعية ، أى أن لاشعور الطفل يحصل على لذاته عن طريق التمتع بقرب الشخص المحبوب . وفى حالة التقمص يستطيع الطفل ان يقدم ذاته كموضوع لهذا الاشباع لدى لاشعوره .. فكأنه صار جامعا بين المحب والمحبوب . وفى هذه الحالة يتحول الحب من موضوعى كما هو في الظاهر ، الى حب نرجسى أو ذاتى كما هو فى الحقيقة ..

ومن الاهمية بمكان ، أن ندرك الدور الخطير الذى يلعبه الاب فى حياة كل طفل .. فالاب هو أول شخصية يتقمصها الطفل ، وتظل آثار من هذا التقمص موجودة حتى بعد ان يتصور الشخص انه انتقل من حبه لابيه الى حب اشخاص آخرين ، وان محبة والده قد بهتت كثيرا ..

وخطورة التقمص ناجمة من أنه عن طريق هذه العملية، تضاف باستمرار الى شخصية الطفل صفات جديدة منتحلة من الاشخاص أو الموضوعات التى يتقمصها .. وهذا هو السر فى سرعة تغير احوال واطوار الاطفال وصفاتهم اثناء النمو ..

ولكن يجب الا يتبادر الى ذهننا ان صفات الشخصيات الجديدة تضاف الى صفات الشخصيات القديمة ، مثلما نضع كتابا فوق كومة أخرى من الكتب ، أو حجـــرا فوق تل من الاحجار .. بل ان هذه الصفات الجديدة تندمج مع الصفات القـديمة لتكوين شخصـــية واحدة جديدة على طريقة غير معلومة ، لانها سر من أسرار كل نفس وتختلف على حسب ظروفها ..

ولا شك أن عمر الطفل له دخل كبير فى شدةالتقمص •• فبديهى ان التقمص يكون أشد وأبقى أثرا كلما جاء فى تاريخ مبكر من حياة الطفل ••

وهذا الحديث عن التقمص جدير أن ينبه اذهاننا الى ان دراســـة الذات لا تخضع لعوامل الوراثة وللتكوين الفطرى وللبيئة فقط •• بل انها تتأثر أيضا والى حدكبير بأنواع التقمص المتفاوتة الشدة التى طرأت على شخصية الطفل ••

وبديهى كذلك ان أنـــواع التقمص الاولى تكون أبقى أثرا ، لانها تجد المجال خاليا أمامها نسبيا •• وتكون ذات الطفل أشبه بالعجينة الخام التى تتطبع بالطابع الجديد من غير مقاومة ••

وأول موضوعات للتقمص هم الآباء والامهـــات ، ومن يتولون التربية من خدم او مربيات أو عمات أو خالات او جدات مقيمات بالمنزل

والمألوف ان يكون أهم تقمص موضوعه الاب والام •• ولكن قد يحدث فى بعض الحالات ان يكون تقمص الخادم او الجدة اكثر أهميه بالنسبة لظروف خاصـــة بالطفل واسرته ••

ولعله من المفيد أن نتذكر حالة ذلك الفتى الذى هرب من امه الى ضاحية قريبة ، وقضى فى الغـــابة يومين أو اكثر بحجة احضار ثمار الكرز لامه •• وكيف اتضح من تحليل نفسيته أنه كان يقلد سلوك أبيه وهو لا يدرى •• وذلك ولا شك أثر من آثار التقمص

وبمناسبة تقمص الطفل لشخصـــية الاب تقمصايبقى أثره حتى عندما تعترض المرحلة « الاوديبية » ذلك الحب،

يجب ان نتأمل فى الموقف « الاوديبى » ونزيده بيانا قبل ان نختتم هذا الكتاب ..

ان الموقف « الاوديبى » معناه تعلق الولد بأمه تعلقـــا يجعله يغار من أبيه ويضيق به ضيقا لا شعوريا . وهكذا تترسب عن طريق تقمص شخصية الام صفات اخرى فى شخصية الطفل بعد الصفات التى ترســـبت من تقمص شخصية الاب فى مرحلة سابقة ..

وعقدة « أوديب » تزول قبل سن البلوغ بصورة طبيعية عند الاطفال الذين ينمون نموا طبيعيا . والفترة التى قبل سن البلوغ تنتهى فيها الرغبة « الاوديبية » ولا تحل محلها رغبة أخرى متعلقة بموضـــوع جديد لفترة من الوقت .. فنقول عندئذ ان الرغبات فى مرحلة مـــا قبل البلوغ فى حالة « كمون » وتسمى هذه المرحلة لذلك بمرحلة « الكمون» أو فترة الكمون ..

وعقب هذه الفتـــرة مبـــاشرة ، يكون تقمص الفتى لشخصية الاب وشخصية الام مزدوجا ..لانه قبيل البلوغ يكون غير متميز الجنسية ، لم تتغلب فيه بعد الذكورة على الانوثة تغلبا حاسما

وهكذا يجتمع للفتى فى تلك الفترة القطبان الايجابى والســــلبى .. وهما القطبان اللذان من المفروض أن يتعارضا باستمرار ويتنافرا

ومن هذه النقطـــة يبدأ تكوين ما يســـميه فرويد « بالذات العليا » ولا بد لتصور الذات العليا ونشأتها ، من التنبه الى وجود مراحل معينة متعاقبة فى النمو النفسى على النحو التالى :

أمام الفتى مصدران للسلطة كلاهما محبوب .. وهمـا

الاب والام ، وان كان الاب يتميز بسلطة اكبر فى احساس الطفل ..

وهذان الشخصان المحبوبان يستخدمان سلطتهما ، كل من جهته او متعاونين ، لحمل الفتى على التخلى عن بعض رغباته الغريزية اما عن طريق الرغبة أو الرهبة ..

ودور الاب فى الامر والنهى أوضح من دور الام بالنسبة للذات الخارجية .. وهو وحده يلعب دورا لاشعوريا بالنسبة لرغبة الفتى المتجهة فى لاشعوره نحو أمه ، مما يضطر الفتى لتحويل تلك الرغبة الى اتجاهات أخرى ..

والاب فى أوامره يغرى ابنه كما تغريه الام ان يفعل كذا وكيت بالطريقة الفلانية ليكون مثل أبيه . وهو فى نواهيه ـ ونواهى أمه ـ يمنع الفتى عن اتيان اشياء معينة أخرى يفعلها الاب .. فكأنما يقـــال له لا ينبغى ان تفعل فى هذه الامور فعل أبيك ، لانها من حقه وحده . ومن هذه الاشياء التى يختص بها الاب ، وتحرم على الابن ، الرغبة اللاشعورية فى الام ..

ان الاب يمثل فى وجدان الفتى عندئذ سـلطة المجتمع من أمر ونهى..والفتى يقتدى بأبيه ، ويريد أن يغدو مثله عندما يكبر كى يظفر بالاعجاب والسلطة ، ولكى يسمح له بفعل ما ينهى عنه مما يختص به الاب وحده ..

وهكذا يعود الفتى الى تقمص شخصية الاب فى سن المراهقة ، ويكون هذا التقمص عونا كبيرا له على التكيف بالمجتمع والتوافق مع الواقع الاجتمـاعى الذى يتمثـل فى شخصية الاب ..

وبالتدريج تترسب صفات الاب فى هذه المرحلة ، وتتحول أوامره ونواهيه الى اوامر ونواه ذات طابع مطلق

كأنها القانون العام •• وهذه هى الصورة الاولية للذات المثلى أو العليا ••

انها مجموعة القوانين الآمرة والمانعة التى ترسبت فى نفسية الفتى من تقمص شخصية أبيه ، نتيجة الرغبة والرهبة معا ••

والذات العليا ـ بهذا الوضع ـ انمـا هى جانب من الذات العادية ، جعل من نفسه قاضيا وحكما ورقيبا على بقية الذات •• فهى تقوم بدور الاب الملازم للفتى فى داخل سريرته تراقب حركاته وسكناته ، وتحكم عليها بالاستحسان أو الاستهجان ••

ويلاحظ « فرويد » فى هذا الصدد أنه كلما كانت عقدة أوديب قوية عند الطفل عميقة الاثر ، ثم كبتت بسرعة بتأثير التعاليم الدينية والتربية البيتية والمدرسية وغير ذلك •• كان سلطان الذات العليا على شخص الفتى فيما بعد أقوى وأدق وأكثر احكاما

ويرى « فرويد » أيضا أن السنة الخامسة أوالسادسة من عمر الطفل من أهم ما يكون فى تحديد معالم شخصيته الرئيسية . ولكن ليس معنى هذا أن تربيته بعد ذلك لاقيمة لها ، أو أن تقويمه مستحيل •• بل المقصـود ان التأثيرات فى تلك السن المبكرة تكون مستمدة من الابوين قبل دخول الطفل المدرسة ، وأن هذه التأثيرات البيتية يبقى مفعولها مستقرا فى النفس مدى العمر • ومع ذلك فالذات العليا يمكن أن تتأثر بأشيـاء كثيرة ، تأتى فى مراحل متأخرة مثل القراءة العميقة وتقمص شخصيات المدرسين اذا وجد فيهم من يثير الاعجـاب عند الفتى ، وأبطال القصص ، وكل من يمكن ان يحل محل الوالد فى الاعتبار الادبى ••

وما افقر الذات العليا التى تعتمد على الاقتداء بالآبــاء فقط ، اذا كان هؤلاء الآباء من مستوى غير رفيع فى الخلق والثقافة ..

وايا كان حال الآباء ، فان تكوين الذات العليا من تقمص شخصياتهم انما يدل على اهمية مكانة الاب عند الطفل حتى ان حبه له يصل الى درجة امتصاص شخصية الاب للاحتفاظ بخلاصتها الحية داخل شخصيته فوق نصب عال يمثل المعبود ، أو فوق منصة القاضى الذى لايحابى فى المثوبة والقصاص

وليس من العسير ان نفهم بعد ذلك أن الذات العليا هى أساس ما نسميه بالضمير .. وسلطة الضمير على الشخص فى جميع مراحل العمر ، لا يمكن ان تقارن بها اى سلطة أخرى .. وان صورة الواجبات الاجتماعية التى يتلقاها الطفل عن ابيه هى أول صورة للواقع الاجتماعى يواجهها ويكيف نفسه بها .. وان كانت القراءة والمذاهب السياسية والاجتماعية قد تدخل تعديلات كثيرة على هذا المفهوم الاجتماعى ، الا ان الشعور بالمسئولية ومحاسبة النفس ومراقبتها تظل لباب هذه السلطة المستمدة قبل كل شيء من شخصية الاب وسلطته ..

وهذا ينقلنا الى أهمية الاثر الذى يتركه الاب بالقدوة فى نفوس أولاده اذا كانوا كثيرين، فان محبة الاب وقربه من قلوب أولاده يجعلهم يتطبعون بطبــاعه ، أما اذا كان فى الاب صفات مكروهة من بعض أبنائه ، فانهم فى الغــالب سينبذون هذه الصفات عند التقمص ..

ويتلو الاب فى الاهمية المدرس .. فالمدرس المحبوب الشخصية قد يستطيع ــ ولا سيما فى المرحلة الاولى ــ أن يطبع فى الطفل نوعا جديدا من التقمص ، قد يدخل

تعديلات لا يستهان بها على رواسب شخصية الاب ..

ولذلك فمن الجناية على أجيال الاطفـال ، أن يكون المعلمون غلاظ الاكباد شرسين ، أو فى طباعهم جفوة أو عدم اكتراث أو ميل لازدراء الصغار وتسخيفهم .. فان هذه الصورة ستنطبع فى نفوس الاطفال ويترتب عليها أن تكون نظرتهم الى أفراد المجتمع من حولهم مثل هـذه النظرة القاصرة المشوهة ..

ومما لاشك فيه أيضا ، أن وجود مدرسين ذكور من ذوى الشخصية اللطيفة القوية فى مدارس البنين الابتدائية أجدى على تكوينهم النفسى والاخلاقى من وجودهم تحت اشراف مربيات طول الوقت ، لأن التعلق بمدرسـة قد يؤدى الى رواسب انثوية زائدة عن الحـد عن طريق التقمص



الطريق الى الانحراف

والمفروض حين تبدأ الذات العليا فى التكوين ، أن ترتب الذات العادية أمورها بحيث تنساق وتنقاد لأوامر الذات العليا ونواهيها من غير صراع أو أزمات .. كما ينقاد الطفل السوى لسلطة أبيه

ولكن ليس هذا ما يحدث فى جميع الاحوال ..

وعندما يوجد تناقض داخل الشخص بين ذاته العادية وذاته العليا ، اى بين أفعاله وضميره ، يكون عرضة للصراع النفسى بين الشعور واللاشعور مما يؤدى به الى الانحراف ..

وقد يحدث أيضا أن تكون الذات العادية سلسة القياد للذات العليا ، فلا يكون بينهما صراع .. ومع ذلك يبدو الشخص منحرفا

فما السبب ؟ ..

الخلل فى هذه الحالة مصدره الذات العليا لا الذات العادية .. فلابد أن هذه الذات العليا قد جاء تكوينها ناقصا أو غير متوافق مع الصورة الحقيقية للمطالب الاجتماعية والواقع الاجتماعى ..

والمسئول فى الغالب عن هذا النقص هو بيئة الاسرة .. فالاب الذى يترك فى ابنه عند التقمص أثرا لايمثل الواقع

الاجتماعي لأنه رجل منحرف أو معيب الشخصية ، انما يتسبب فى نشأة ابنه على المنوال الخطأ .. ويكرر فى شخص ابنه عيوبه . وهكذا ينشأ أبناء قساة او انانيون أو رجعيون أو شرهون مقتدون بآبائهم ، ويصطدمون بالمجتمع وضميرهم مستريح .. لأن هذا الضمير تشكل بصورة خاطئة ..

ان الضمير ككراسة « المشق » التى يقلدها من يتعلم الخط .. وقد يحسن التلميذ التقليد ويتقنه وهو مستريح البال لهذا الاتقان . ولكن الطامة أن تكون كراسة المشق نموذجا للخط الردىء لا للخط الجميل .. فتنشأ مشكلات بين التلميذ المجتهد وبين الناس .. وهو يصر على أن خطه حسن .. وهم يصرون على أن خطه غير مقروء !

وليس من النادر أن نشاهد فى السجون والاصلاحيات نزلاء يتقبلون الاحكام عليهم بسخرية ، غير مقتنعين بأنهم يستحقون العقاب أو أن العقاب عدل .. لا لأنهم ينكرون جرائمهم ، بل لأنهم لا يرون فيما أقترفوه أى جريمة ..

ان طريقة بناء الذات العليا ، او الضمير الاخلاقى ، أو الحاسة الاخلاقية ، عند الطفل لها أهمية كبرى .. لأن الطفل قد يكون مستعدا للانصياع والاقتداء ، ويجعله سوء حظه تحت تأثير قدوة سيئة . فتخلو نفسه من الصراع الداخلى ، ولا يسلم من الصراع الخارجي بينه وبين المجتمع . ولو أن هذا الطفل وجد قدوة أفضل ، لصار تكوينه السليم الطيع بريئا من الانحراف الظاهرى أو الخارجي

وهكذا نجد أن هناك انحرافا داخليا سببه الصراع الداخلى ، بين الذات العليا والذات العادية .. وهذا

يعالج بالتحليل . ونجد انحرافا خارجيا تخلو فيه نفس الشاب من الصراع الداخلى ، ولكن ذاته المتجانسة تكون فى حالة عدم توافق مع العالم الخارجى ..

وهذه الحالات لا تحتاج الى السجن ، بل الى اعادة التربية .. وان كانت اعادة التربية بعد النضج أمرا عسيرا ، الا انه ليس مستحيلا اذا عرفنا كيف نقيم المؤسسات الاصلاحية على أساس نفسى واجتماعى ، وكيف نتذرع بالصبر ..

ولسنا ننكر أن الذات العليا قد تنشأ مشوهة لاسباب وراثية فى الشخص ، أو لاختلال فى افرازات غدده الصماء .. فيكون الطفل عاجزا عن التشبع بأى موضوع تشبعا كافيا للتقمص . وبذلك يكون الاجرام أو الانحراف راجعا الىأسباب فطرية ، ومثلهذه الحالات لا فائدة من تضييع الجهود فيها بالعلاج أو الاصلاح أو اعادة التربية الاجتماعية ..

وفى أحيان أخرى يكونالمسئول عن تشويه الذاتالعليا عند الطفل ، ليس الاب بالذات ولا الام بالذات .. بل حالة الصراع المستمرة بينهما . أو ينحسم الصراعبينهما بالانفصال ، ويظل الطفل كالكرة يتقاذفها الاثنان .. كل منهما يحرضه ضد الاخر !

وليس من المستحسن أن نغض النظر عن حالة الطفل غير الشرعى ، أو الطفل المتبنى الذى فقد أبويه الشرعيين نتيجة كارثة وهو صغير جدا .. فينشأ عالة على بيوت الاقارب والمعارف أو المؤسسات الخيرية . يشعر أنه غير مرغوب فيه ، وانه كان من الافضل للجميع لو أنه مات مع أبويه . وتتقاذفه الايدى ، والبيوت ، لا يستقر هنا

ولا هناك فترة طويلة .. فلا تتاح الفرصة أمام الطفل للتشبع بشخص وتقمص شخصيته . وتظل الصور المحبوبة عنده مهزوزة أو باهتة وبطبيعة الحال لا يمكن أن يترتب على ذلك اقتداء أو تعلق أو بناء واضح للخلق والطباع .. فاذا أضفنا الى ذلك الفظاظة فى المعاملة ، كان من الطبيعى ألا تتكون لهذا الطفل ذات عليا الا فى أضيق الحدود وفى أقل المستويات ..

وتكاد تشبه حالة الطفل غير الشرعى حالة من يموت عنه أبوه صغيرا ، وتتزوج أمه رجلا اخر ، قد لا يكون كريم الطباع .. أو يكون غير مكترث بالطفل .. وأخطر ما يتهدد هذا الطفل ليس قسوة الام مسايرة لزوجها أو دفعا لغيرته واتقاء لسخطه .. بل أسوأ ما يصاب به أن تغرقه أمه بالتدليل لتعويضه عن حرمانه من أبيه ، فلا يجد الطفل شخصا تتمثل فيه سلطة المنع والردع والزجر وهى سلطة الاب الاصلية ، فينشأ وليس لديه من الذات العليا الا كيان خائر ضعيف أقرب الى العدم ..

وهذه الملاحظات كافية لتدلنا على أهمية دراسة الطفولة الاولى للشخص المنحرف ، كى نتعرف على بداية الطريق الى انحرافه ونضع أيدينا على بيت الداء ..

ومن المؤسف أن بعض المربين والمشرفين الاجتماعيين والنفسيين ، يهتمون فقط ببيانات الحالة المدنية التى لا تقدم ولا تؤخر مثل تاريخ الميلاد ، وحالة الاب المالية ، وايجار المسكن ، وفى أى سن بدأ يتكلم ، ومتى تعلم المشى ، وهل أصيب بأمراض كثيرة فى صغره ، الى آخر هذه المعلومات الشكلية التى لا تغنى شيئا فى فهم نفسية الشاب

ان أهم من ذلك الف مرة ان نعرف العلاقات الوجدانية

فى الطفولة الاولى .. من الذين كان يحبهم الطفل ؟ .. من الذى تولى تربيته ؟ وان كان يتيما فما هو احساسه بمن كفلوه ؟ وكم من الوقت لبث فى كل بيت ؟ والمعاملة التى قوبل بها فى كل بيت ؟ وهل كان له مثل أعلى فى تلك البيوت من بين اصحابها أو أبنائهم أو خدمهم ؟.. ومن الذى أثار فيه الكراهية والعداء أكثر من غيره ؟ ..

وهناك نوع من الحالات المنحرفة ، ينشأ فيها الانحراف عن تفاوت شديد بين الذات والذات العليا .. وذلك عندما تكون الذات العليا متشددة فى تحكمها مغالية فى مستواها .. بينما الذات العادية متخلفة ضعيفة ، لا تستطيع مجاراة الذات العليا ..

وفى هذه الحالة ، نجد الذات العليا تتميز بالجبروت والاستبداد .. فترغم الذات على تحمل ما لا تطيق لتحقيق أغراضها ، فيترسب فى الشعور احساس بالتقصير وما نسميه التأثم أو الشعور بالذنب ..

وكلما زادت سطوة الضمير وقسوته فى الحساب والتحذير ، كان الشعور بالاثم فظيعا مؤلما .. ولا سيما عندما تحاول الذات مقاومة الذات العليا والتخلف عن المستوى الذى تطالبها به .. فتضيق الذات بهذا الالم المستمر من تبكيت الضمير ، وتكبت فى اللاشعور هذا الاحساس بالذنب ، وتنسى كل ما يتعلق به حتى تستريح من العذاب الذى لا يطاق ..

ومن المفارقات العجيبة ، ان الاصل فى عملية الكبت اللاشعورية أن تأتى بايحاء من الذات العليا كوسيلة لحماية الذات من الالم البالغ .. ولكن فى حالة الشعور

بالذنب، يستخدم الكبت كعملية وقائية من آلام مصدرها الذات العليا نفسها ..

ويترتب على كبت الشعور بالذنب ان يتضخم فى اعماق اللاشعور فى غفلة من عين الرقيب ، مما قد يؤدى الى أنواع من الانحراف تصل الى الاجرام للتنفيس عن هذه الطاقة المكبوتة ..

وسأضرب هنا مثلا للانحراف الناتج عن كبت الشعور بالذنب ، فقد سرق شاب مبلغا من المال من دولاب ملابس أبيه .. ولم تحم حوله الشبهات والصقت التهمة بغيره ، واذا بهذا الشاب يشترى بجانب من ذلك المال قبعة جديدة . ومع انه يعلم تمام العلم أن القبعة الجديدة ستوجه اليه أنظار من فى البيت ، ويسألونه من أين لك هذه ؟ .. اذ انه جاء بالقبعة الجديدة الى البيت ، وهو سلوك منحرف جاء نتيجة احساس لاشعورى مكبوت بالذنب !

وقياسا على هذا النموذج ، سنجد مجرمين يقترفون جرائمهم بصورة تدل على غباء غير معقول لابد أن يكشف عن شخصيتهم ، أو الذين يعودون الى مسرح جريمتهم متعرضين اخطر الاشتباه أو القبض عليهم .. فمثل هؤلاء يحملهم على ذلك التصرف الغبى رغبة لاشعورية فى العقاب للتخلص من الاحساس المكبوت بالذنب ..

واحب ان انبه فى الختام الى ان النظرية القديمة التى تعالج الانحراف، بالقسوة المفرطة خطأ .. وكذلك النظرية الحديثة جدا التى تعالج الانحراف بالرقةالمفرطة والتدليل خطأ أيضا .. انما الواجب ان يعالج المنحرف كما يعالج المريض، فنفهم سر انحرافه ، وتاريخ انحرافه ، واطواره

التي مر بها .. وعلى ضوء هذا كله ، نتيح له بطريق « التحويل » تقمص شخصية جديدة وبناء ذات عليا تدخل تعديلات على ذاته العليا القديمة بقدر الامكان ..

هذا هو طريق العلاج العلمى لازمات الشباب وانحرافهم .. علاج أساسه العلم والفهم لا القسوة الغاشمة أو الحنان الابله



فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــراق : السيد محمـــود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخله سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jafet No. 127,
5" and Sal 54.
SAO PAULO — BRASIl

ســـيراليون : Messrs Allie Mustapha & Sons.
P O Box 410
Freetown Siera Leone

ســـنغافورة : Ahmed Bin Mohamad Bin Samit.
Almaktab Attijari Assharqi.
P O Box 2205
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU.
7, Bishopsthorpe Road
London S. E 26
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour.
Atlas Library Company,
67 Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

بعد عمر طويل قضاه المؤلف فى الاشراف النفسى والعلاج الاجتماعى لازمات الشباب ، من كافة الطبقات الاجتماعية ، جمع خلاصة تجاربه الثمينة بين دفتى هذا الكتاب

والمؤلف بلغ من النضوج حدا جعله قادرا بصورة غير عادية على تقريب المسائل العلمية العويصة من اذهان القراء العاديين، وتوضيح مراده لهم ، ويلجأ دائما الى الامثلة التطبيقية ، ويعرض الحالات الواقعية ويبين كيفية تشخيص عللها ، ومعرفة طريقة العلاج الناجح لها

وليست قيمة هذا الكتاب علمية فحسب .. بل ان له قيمة عملية اخرى لدى كل مشرف أو مرب أو أب أو أم .. فأزمات الشباب ظاهرات عامة لا يكاد يخلو شاب من التعرض لها بصورة أو بأخرى .. فمن ألزم الامور أن نعرف كيف ((نفهم)) هذه الازمات عندما تصيب فلذات أكبادنا ، حتى لا نسيء التأويل ، ونسيء التصرف ، فتتطور الازمة الى عقدة ، أو الى مرض نفسى يستعصى على العلاج

كتاب الهلال

هذه حياتي

للمرحوم
عبد العزيز فهمي

تقديم
طاهر الطناحي

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٤٥ ــ ذو القعدة ١٣٨٢ ــ ابريل ١٩٦٣

No. 145 – APRIL 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ــ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ــ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ــ فى سائر أنحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

هذه حياتي

للمرحوم

عبد العزيز فهمي

تقديم

طاهر الطناحي

دار الهلال



الزعيم الكبير عبد العزيز فهمى

تقديم

بقلم طاهر الطناحي

في فبراير سنة ١٩٦٢ نشرت سلسلة كتاب الهلال « قصة حياتي » لاستاذ الجيل أحمد لطفي السيد . وقد أشار في أحد فصولها الى صديقه وزميله في الجهاد المرحوم الزعيم الوطني وشيخ القضاة والمحامين عبدالعزيز فهمي . وقد طالبني كثير من قراء هذه السلسلة بأن أنشر حياة هذا الزعيم الكبير

والواقع أنني حرصت كل الحرص على تدوين حياة كل من هذين الزعيمين الصديقين ، اللذين كان لهما آثار جليلة في تاريخ مصر السياسي ، ونهضتها العلمية والاجتماعية . وكنت قد بدأت بتدوين حياة عبد العزيز فهمي ، ونشرت فصولا منها في مجلة « المصور » قبل عشر سنوات . ثم دونت بعدها حياة لطفي السيد ، ونشرت فصولا منها أيضا في تلك المجلة . ثم عدت اليهما وأكملت فصولهما ووضعت كلا منهما في كتاب مبوب كامل

ولست أزعم أنني كتبت قصة حياتهما من عندي أو بأسلوبي الخاص ، بل انني عنيت كل العناية بأن يملي كل منهما فصول هذه الحياة بلسانه . وكانت مهمتي كمؤرخ معاصر أن أضعها في القالب التاريخي ، لأنه لم

يسبق لهما أن وضعا مذكرات أو قصة حياة ، وكانا فى حاجة الى من يعاونهما فى ذلك ، خدمة لنهضتنا الوطنية وتاريخنا القومى الحديث

وكنت كلما انتهيت من تدوين فصل من الفصول بعد املائه ، عدت الى صاحبه فقرأته عليه للتصحيح والمراجعة ، او للزيادة والتهذيب ، حتى اكتملت عندى قصة كل منهما ، التى تترجم حياتهما وسيرتهما كما وافق عليها كل من هذين العظيمين . وقد نشرت حياة أحمد لطفى السيد فى أوائل العام الماضى بمناسبة بلوغه التسعين من عمره !

وهذا هو كتاب « هذه حياتى » للمرحوم عبد العزيز فهمى احد زعماء الصف الاول من الوفد المصرى الذى قام لاول مرة فى تاريخنا السياسى بالوكالة عن الامة فى مطالبة الانجليز برفع الحماية ، وجلاء جنودهم عن مصر التى احتلوا اراضيها منذ سنة ١٨٨٢ م لكى تستقل بشئونها استقلالا كاملا ، وتخلع عنها نيرالذل والاستعمار!

كان يرفض ... !

وقد كان عبد العزيز فهمى منذ اعتزل السياسة فى أواخر حياته يأبى أن يتكلم عن نفسه ، أو عن سعد زغلول وخلافه معه ، أو عن أى حدث من احداث الثورة الوطنية التى قامتسنة ١٩١٩ م ، وشغلت مصر والرأى العام حقبة طويلة من الزمان

وقد أحدثت حملة الصحف الوفدية عليه منذ اختلف مع سعد زغلول عقدة فى نفسه من الصحافة والصحفيين ومن التاريخ والمؤرخين ، حتى أننى خاطبته مرارا فى تدوين مذكراته ، فكان يرفض فى كل مرة رفضا باتا .

وذات مرة ألححت عليه الحاحا شديدا وقلت له :

ـ انك مصدر عظيم من مصادر التاريخ المصرى لحركتنا الوطنية التي قامت سنة ١٩١٩ م ، فهل لك أن تساعد التاريخ والمؤرخين على جلاء الحقائق ؟

فقال فى حركة عصبية اعتادها كل من عرفه :

ـ لست من المؤمنين بالتاريخ ، بل انى من الكافرين بآلهة التاريخ ، لانه مملوء بالكذب ، واذا حدثتك عن يوم ١٣ نوفمبر مثلا ، فقد يكون ما أرويه لكم اختلاقا ، لانه رواية ، والرواية خبر من الاخبار ، والخبر ـ كما يقول علماء اللغة ـ يحتمل الصدق والكذب ، أو ـ كما يقول الشرعيون ـ مايحتمل الصدق والكذب لذاته

وقد زادوا كلمة « لذاته » لئلا يتنـــاول الانبيـاء ، وهم معصومون عن الكذب .. أما غيرهم ، فيجوز لهم الكذب ، بل ان الكثيرين يكذبون فى التاريخ ، وليس هناك حقيقة تاريخية تكون صدقا صرفا

فقلت له :

ـ ولكن حادثة ذهابك أنت ، وسعد زغلول ، وعلى شعراوى الى سير « ونجت » هى حقيقة صادقة صرفة !

فقال :

ـ قد يكون حقا اننا ذهبنا الى سير « ونجت » بدار المعتمد البريطانى ، ولـكن هل يعلم أحد حقيقة ماحـدث فى اجتماعنا به ، واذا رويت أنا هذه الحادثة كما وقعت ، فان روايتى تحتمل الصدق والكذب .. كما أن رواية كل من زميلى تحتمل ذلك ، فأينا يكون الصادق ؟

فقلت له :

ـ ولكن هناك محضرا مكتوبا بهذه الحادثة نشرتموه

فى جميع الصحف بامضائكم انتم الثلاثة !!

فضحك رحمه الله ، وقال : « قد يكون هذا المحضر مزورا .. ولا أتهم زميلى سعد وعلى شعراوى بالتزوير ، لانه ليس مكتوبا بخطهما ، ولكنه مكتوب بخطى .. فقد كنت أصغر الثلاثة سنا . وطبيعى أن الاصغر هو الذى يتولى الكتابة ، فلما عدنا من دار المعتمد البريطانى كتبت هذا المحضر بالحرف ، ولم أترك كلمة ولا معنى دار فى هذه المقابلة الا دونته » !

سياسى أديب

وحاولت وقتئذ أن يروى للناس حياته السياسية ، ولاسيما فى ثورة ١٩١٩ ، وماوقع بين سعد وبين زملائه من خلاف وأسباب هذا الخلاف ، ومادار وراء الستار من آراء واحداث فى القضية المصرية . ولكنه كان يرفض فى كل مرة رفضا شـــديدا على الرغم من لطفه وادبه وأخلاقه الحميدة وتواضعه الكبير ، وقـد اهتديت الى أن من اسباب رفضه أننى كنت أرغب اليه فى ذلك كصحفى . وكان بعد خلافه مع سعد قد كره الصحفيين ..

وفى مايو سنة ١٩٤٩ زرته فى منزله بمصر الجديدة ، وكان قد اعتزل السياسة ، والقضاء ، وانقطع عن مجمع اللغة العربية الذى كان عضوا فيه ، واعتكف فى غرفة نومه لضعفه ومرضـــه . وكان يقضى الوقت فى قراءة مايختار من الـكتب القانونية والادبيـــة . وقد انتهى ــ وهو فى هذه العزلة ــ من ترجمة كتاب « قواعد وآثار فقهية رومانية » عن الفرنسية ، نقلها طائفة من رجال القانون الفرنسيين عن الاصـــل الاول اللاتينى . وهو الكتاب الذى تولت طبعه كلية الحقوق فى جامعة القاهرة

وكان يتسلى فى ذلك الحين بنظم قصـــــيدة دالية فى الاخلاق والاجتماع مطلعها :

يا حادى العمرِ أبعدتَ المدى فتَى
تُلقى عصـاك وتُعفْفى من الـكَبَـدِ
تسعٌ وسبعون ميلاديةٌ غَـبرت
قضيتُـها بشقاءِ الرُّوح والجَسَـدِ
إنْ سامنى الطبع إخلاداً إلى دعة
صالتْ علىَّ الأمانى صولةَ الأسَـدِ

وقد نظم هذه القصـــيدة فى أوائل عام ١٩٤٩ م ، ووصف فيها شيخوخته ومرضه وأبان فيها عن تجاربه فى معاملة الناس ، وماشاهده من أحوال الصحف وعرفه عن فساد السينما ، وأشاد فيها بالعلم ، وحث الشباب العربى على طلبه ، والعناية بالاستزادة منه لانه أساس النهضة فىعصرنا الحديث ، وانه سر قوة الاقوياء ، وقال فى ذلك :

أنظر تجـد أن أهل العـلم قد فتحوا
مَغالقَ الـكوْن من قُربٍ ومن بُعدِ
شقُّوا القفارَ وبطن الأرض وارتفعوا
إلى المجـرَّةِ مثـل الجنَّـةِ المردِ
هُمْ واقفُـون لا تجـدى رواحُـاهم
فى حومْة الغيب ذاك الجهـل الأبدى

بلْ يَعمـدُون إلى ما قدمتْ لهمو
هذى الطبيعـةُ من ماءٍ ومن جَمَدِ
ومن ظواهرَ شتى لا عدادَ لهـا
كالحـرِّ والبردِ أو كالبرق والرَّعَدِ
وكلما كشفوا عن سِرِّ ظاهرةٍ
فازتْ صنـاعتُهم منهم بخـير يدِ
فَساد أقوامهم فى الأرض وامتلكوا
نواصىَ القـاعدين الهُمَّل والرُّكد

وقال عن الصحافة :

واحذرْ فلا تأخذِ التوجيهَ من صُحف
إلا المُقامَ على ثَبْتٍ من السُّنُـدِ
ذاتُ الجـلالة ـ يالله من لعبٍ
أضفوا عليها ـ هَبيدٌ لُفَّ فى بُجد(١)
أميـةٌ مهَروهـا مهْـرَ قارئةٍ
ودللوهـا ، فـلم تحمـل ولم تَـلِدِ
ما أنجبتْ ولداً أو أثمرت خلقـاً
والعقمُ فى الخُـلْقِ شر منـه فى الوَلَد

---

(١) الهبيد : الحنظل . والبجد : بضم الباء والجيم جمع بجاد وهو الثوب المخطط

أجمع صحائف يوم وأمسِ فاكتبوا
تخرج بصفر ولو بالغت فى العدد

ثم خاطب الاستاذ فكرى أباظة ، وكان وقتئذ نقيبا للصحفيين ، وأشار الى فساد السينما أيضا ، فقال :

فكرى أباظة يا نسلَ الكرام الا
دعوت شاردةَ الكُتّاب للرَّشَدِ
وهل علمت بما فى شاشة السينما
وما تُخيلُ فى تمثيلها البردِ
سمعتُ أن ملاهيها قد انتشرت
فى كل زاوية من قطرنا النَّكِدِ
وأنها تتّجِرُ نام بضاعته
معاول تهدمُ الأخلاق فى البلدِ
وكتلةُ الشعب من حافٍ ومُنتعلٍ
تسعى اليها سَعْيَ مُنْجَرِدٍ(٢)
إن الخيالة فيها كل فائدة
لو أنها أقلعت عن سيرها الأودِ(٣)

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة ثلثمائة وأربعين بيتا ، حتى سماها البعض لبلاغتها وجزالتها المعلقة الثامنة ،

---

(٢) المنجرد : الفرس المنطلق فى السباق

(٣) الاود : المعوج

والملقة الحادية عشرة ، ولكنها تكاد تفوق معلقتين من هذه المعلقات بعدد أبياتها ، وقوة تعبيرها ، وماتضمنته من شئوننا العصرية .. على الرغم من أن الكثيرين لم يعرفوا عنه انه ينظم الشعر ، ويجيده هذه الاجادة التى بلغت اجادة الشعراء الفحول

ولا ريب أن عبد العزيز فهمى كان أديبا كبيرا ، وفقيها فى لغتنا العربية ـ كما عرفه الجميع ـ الى ماكان له من نبوغ فى عالم القضاء والمحاماة . وقد كان يهوى الشعر وينظمه منذ كان تلميذا فى مدرسة الحقوق ، وله عدة قصائد نظمها فى شبابه تشهد له بسلامة ذوقه وسمو أفكاره وقوة عاطفته . وكثيرا ماكان يطارح صديقه لطفى السيد بالشعر القديم الذى يحفظان منه لعدد غير قليل من كبار الشعراء . ولما استقال عبد العزيز فهمى من وزارة يحيى باشا ابراهيم ، وهى وزارة « حزب الاتحاد » مع زملائه الاحرار الدستوريين كتب نشيدا طريفا مطلعه :

تحكّمُوا تحكّمُوا يا حزب الاتحادْ

وطوّفوا واغنموا واكمدوا الحُسّادْ

ولما ترجم كتاب « القواعد الفقهية الرومانية » تقدم اليه الاستاذ محمد مفتى الجزائرلى وكيل محكمة النقض السابق ليبدى على ترجمته بعض الملاحظات . وبعد مناقشة بينهما فى موضوع تلك الملاحظات ، تأهب الاستاذ المفتى للانصراف . وعند انصرافه ترك ورقة صغيرة قرأها عبد العزيز فهمى ، فوجد فيها هذين البيتين :

نجيءُ إلى بَحرٍ من العالم زَاخرٍ

فنَمْتَارُ من عالم ومن طُرقاتٍ

فان عينا من رأى كرئيسنا
سألت له الرحمن طول حياة

فرأى رحمه الله أن هذه تحية ينبغى أن يرد عليها بمثلها ، فبعث اليه برسالة فيها هذه الابيات :

إذا الناث بابُ الحق أو غُمّ وجهُهُ
فيمم حمى المفتي أبي النفحات
يَغثك من الرأى السديد بواضحٍ
يُضيء ضياءَ البرق فى الظلماتِ
ولا تعدلنّ عنه إلى رأى غيره
فشتان بين الروض والفلوات
تصدّى لما عربد من فقه رومةٍ
تصدى تحرير طويل أناةِ
فشكراً لمسعاهُ الكريم وأنسأتْ
يد الله فى أيامه الخضرات

فأجابه الاستاذ المفتى الجزائرلى بأبيات أخرى ، فرد عليه رحمه الله مرة ثانية بقصيدة سينية من قافية هذه الابيات ، وكبرها حتى بلغت ثلاثين بيتا • ولما علم بعض شباب الشعراء بهذه الاشعار صاروا يكاتبونه بأبيات يريدون بها مساجلته ، فكان يرد عليهم ويساجلهم الى أن ختم هذا الشعر بتلك المعلقة الدالية كما سماها بعض الادباء

كيف وافق ؟

وكان رحمه الله يعلم انى من المشتغلين بالادب ، وانى طويت حياتى العملية فى العمل بالمجلات الادبية والعلمية ، وان اتجاهى الاول هو الى خدمة العلوم والفنون والآداب ، وقد اشتغلت بالصحافة كخدمة وطنية واجتماعية ، ولم أتخذها وسيلة لخدمة حزب من الاحزاب ولا أداة لهتك الاعراض ، ونشر الفضائح، واشاعة الفساد بين الشباب ، ومساعدة الاجانب والمستعمرين ، وتشويه سمعة المجتمع ، والدعاية السيئة للبلاد

كان رحمه الله يعلم ذلك كله ، وكان يثق بى ويعرف عنى الصدق والامانة . وكنت كلما فاتحته فى تدوين قصة حياته — كما قلت — يرفض رفضا باتا ، فأحببت أن أفتح مغاليق نفسه بما عرفته عن أدبه وحبه للشعر العربى ، وهو جالس فى سريره أو فى غرفة نومه ، فكان يفيض فى ذلك .. ثم امتد الحديث بعد زيارة أخرى الى نشأته الاولى ، فأخذ يحدثنى عنها فى بساطة واطمئنان .. فلما عدت الى مكتبى رأيت أن أضع مشروعا للفصل الاول من قصة حياته ، فوضعته على لسانه ، ثم زرته للمرة الثالثة ، وقدمت اليه هذا المشروع . ولما كان مضمونه بعيدا عن السياسة ، فقد قرأناه معا ، ثم اقترحت عليه أن يمليه هو لكى يكون بأسلوبه ، ففعل . ثم كان الفصل الثانى ، ومايليه من الفصول . وشاء الله أن يرتاح الى طريقتى معه ، فأملى سائر الفصول السياسية والقضائية الى أن انتهينا من هذه القصة التاريخية حتى وقت اعتزاله منصبه القضائى كرئيس لمحكمة النقض والابرام

اصلاح الحروف العربية

وقد اختير بعد ذلك رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين فى فبراير سنة ١٩٤١ بعد وفاة رئيسه السابق محمد محمود — ثم عضوا فى مجلس الشيوخ ، وعضوا لمجمع اللغة العربية . ولم يحدث فى حياته فى هذا الحزب وفى مجلس الشيوخ ومجمع اللغة العربية من الاحداث الكبرى مايحرص عليها المؤرخ ، غير أنه حين كان عضوا فى مجمع اللغة العربية وضع مشروعا لاصلاح الحروف العربية يتضمن استبدالها بالحروف اللاتينية ، كما حدث نظير ذلك فى تركيا ، ولكنه كان فيه تهذيب لبعض تلك الحروف اللاتينية حتى تتفق ولغتنا الفصحى

وكان عجيبا أن يقوم عبد العزيز فهمى الحريص على اللغة العربية وعلى التراث العربى بوضع هذا المشروع ، وتساءل الكثيرون كيف يكون ذلك ، وكان جوابه كما دونه فى مقدمة هذا المشروع :

« .. هذا ومن الناس من يتساءلون كيف يمر بخاطرى — وأنا ممن يعتزون بقوميتهم وبلغتهم العربية — أن استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية لرسم الكتابة ؟

« لهؤلاء المتسائلين كل العذر ، لكنى أعرف أيضا كيف افهم واجبى وأؤيده فى أى وضع أكون : تركت العمل وعولت على قضاء مابقى من زمنى بقريتى هادئا ، بعيدا عن المغامرات والمساجلات والمناصبات فى أى منحى من مناحى الحياة العامه ، لكن — لشقوتى — لم يذرنى القدر أهدأ ، بل فوجئت فى عزلتى فيما فوجئت به بتعيينى عضوا فى مجمعنا اللغوى . ترددت بين القبول والرفض

في القبول مشقة ، وفى رفضى المقدور عليه فى ظن الناس ما يشبه فرار الجبـــان • وفكرة الجبن شر ما تضيق به نفسى • قبلت على مضض معللا النفس بأن الامر خدمـــة العربية بمعهد هادىء بين نخبة من خيرة علمائنا وادبائنـا الافاضل ، ان قصرت فى مجاراتهم ، كان لى من رجاحـــة عقولهم ورجاحة صدورهم وكرم اخلاقهم مايسع قصـــورى أو تقصيرى ، ولا يشعرنى بشىء من قلة غنائى

« وأول ما عنيت به ، معرفة واجب عضـــو هذا المجمع اللغوى • قرأت فى مرسوم تأليفه أن من أول مهـــامه ، المحافظة على سلامة العربية . وفى قرار لوزير المـــعارف ان عليه ان يبحث أمر تيسير هـــذه الكتابة تيسيرا يقى ألسنة قرائها من اللحن والخطأ ، فواجب المجمع فى هذا الصدد مبين بالنصوص الصريحة ، وأنا من ضمن لجنة الاصول المكلفة بتأدية هذا الواجب ضمن ماعليهـــا من التكليفات واجبى اذن بين هو : المحافظة على الفصحى ، وجعل قارىء ماهو مكتوب بها لا يلحن فى قراءتـــه ، ولا يخطىء

« واذا قبلت عضوية المجمع ، فاما ان اؤدى هـــــذا الواجب بحسب ما أراه ، واما أن أفارق ..

« ولا سبيل فى رأيى لتأديته حق التأدية الا باتخاذ الحروف اللاتينية وفيها حروف الحركات — لا اطلاقـــا بل على وجه خاص رأيته — أما الشكل الكلى أو الجزئى أو ماراه البعض من حروف أو ذنبات توضع للحركات فى غضون الرسم ، فقد فكرت فيه كثيرا ولم أجد شيئا منها صالحا .. »

وقد طبع رحمة الله هذا المشروع ، وقدمـــه للمجمع ، فلم يقدر له النجاح كغيره من المشروعات التى قدمت فى

ذلك الحين . وكان رحمه الله متحمسا له كل التحمس . واذا كان مدينا لواجبه ــ كما يقول ــ فى وضــع هذا المشروع ، فأرجح الظن عندى أن قرار وزير المعــارف ينص على تيسير الكتابة العربية لا على تغيير رسمهـــا بحروف أخرى ، على ان الحروف اللاتينية ليست سبيلا الى المحافظة على سلامة اللغة العربية وتراثها المجيد الذى مضى عليه الآن نحو ألف وأربعمائة عام فضلا عن ان الحروف العربية يستخدمها للــكتابة نحو اربعمائة مليون مسلم فى كثير من أنحاء العالم ، وقد أصبحت هذه الحروف بعد تعديلات فى عدة قرون فنا جميلا متعــدد الاشكال ، ولعل الكتابة العربية من أقل الكتابات صعوبة اذا قيست بالكتابة الصينية والكتابة اليابانية فى عصرنا الحديث ، أوالكتابة السنسكريتية أو الكتابة الهيروغليفية فى الزمن القــديم . وقد نجحت الحــروف اللاتينية فى تركيا ، لان اللغة العربية ليست لغة الاتراك !

واجبه الاول

ومن المأثور عن عبد العزيز فهمى باشا انه كان يكره الظهور ، ويمقت المظاهر والغرور ، ولعله لم يشـــاهد يوما لابسا بدلة التشريفة الموشحة بالقصب بعد أن نال رتبة البكوية ، ثم بعد ان أصبح وزيرا وفاز برتبــــة الباشوية . وقد كان فى الحفلات الرسمية لايخرج من داره حتى يلبس فوقها معطفه ، ويرفع ياقته كيلا يبدو منها شىء من نسيجها الذهبى . وحينما يخرج من هذه الحفلات يعود الى لبس المعطف ورفع ياقته بحيث يبرح داره ، ويؤوب اليها ، ولا يعلم أحد انه لابس غير بدلته العـــادية .. وكان رحمه الله يمقت التحلى بالذهب ،

ويكره أن يرى رجلا محليا أسنانه بالذهب ، أو لابسا خاتما من ذهب ، أو معلقا كتينة ذهبية فى صدره ، أو حاملا علبة سجاير من الذهب . واذا أهدى اليه أحد أصحاب القضايا وهو محام هدايا ذهبية ــ بعد نجاحه فيها ــ أهداها الى بعض أصدقائه أو أفراد أسرته

وكانت الخدمة العامة واجبه الاول ، وطالما اعتذر عن مناصب القضاء والوزارة مفضلا المحاماة أو النيابة عن الامة فى مجالسها التشريعية ليكون متفرغا لخدمة أبناء أمته فى ميدان حر

وقد حدث أنه أختير لرياسة محكمة الاستئناف فى ابريل سنة ١٩١٤ ، وكان وقتئذ عضوا فى الجمعية التشريعية ، وكان له صوت مسموع فى الدفاع عن مصالح الامة ، فهاج الرأى العام حين أذيع النبأ بأن الحكومة فى ذلك الحين تريده لخدمة القضاء ، وتحرم الامة من خدماته لها فى الجمعية التشريعية ، واستجاب عبدالعزيز فهمى لرغبة الرأى العام فى بقائه فى هذه الجمعية ورفض منصبه فى محكمة الاستئناف

القدوة الحسنى

واذكر أن صديقه أحمد لطفى السيد ، وكان وقتئذ رئيسا لتحرير صحيفة « الجريدة » كتب فى عدد ٥ ابريل من ذلك العام مقالا بعنوان : « القدوة الحسنى » جاء فيه :

« يسرنا ــ كما يسر صديقنا عبد العزيز فهمى وكل مصرى محب لبلاده ــ أن يكون الرأى العام فى بلادنا يقظا ملتفتا لجميع الحوادث ، مقدرا رجاله الامناء قدرهم ، يطالبهم مطالبة رب الدين أن آتوا بلادكم حقها عليكم ،

وأفنوا فى خدمة الجمعيــة التى ولدتكم والتى عليــكم اعتمادها فى تحقيق الآمال ..

« ويعجبنا أن يكون للناس على خدمة الامة من الدالة مايبيح لهم المداخلة فى شئونهم التى هى أشبه بالشئون الخاصة منها بالاعمال العامة ..

« اللهم لك الحمد والمنة على أن جعلتنا نسمع بآذاننا ونرى بأعيننا أن يقف الرأى العام لعبد العزيز موقف الذى يعتقد أن هذا الرجل ليس له التصرف فى نفسه وملكاته ، بل هى وقف على خدمة الامة فيما تشاء الامــة

« غبطة تســــيل لها الدموع الباردة فرحا بأن زمن الهدم قد ولى ــ لا رده الله ــ وقد جاء بدله زمان بناء الرجال !

« وليست المسألة فى ذاتها من المسائل الـكبرى ، ولا من العقد الاجتماعية ، حتى كنت أتوقع أن تردنا من كل ناحية كتب الاســــتفهام عما تم فيهــا ، بل كتب الاعتراض علينا فى أننا لم نتبين رأينا فى المسألة كمــا نصدع به فى كل مسألة سواها ــ ليست المسألة كذلك ، ولكنها بسيطة فى حد ذاتها ، لم يعتدها الا مركز الاستاذ عبد العزيز وثقة الامة فى نائبها المحترم

« طلبت اليه الحكومة أن يقبل القضاء فى محكمــــة الاستئناف ، وانى شاهد رؤية وسماع على أن الحكومة لم يكن لها فى ذلك الا قصد حسن وخدمة للقضــــاء . وأشهد بذلك ، ولكنىأشهد معه بأننا فى الجمعيةالتشريعية فى غاية الحاجة الى عبد العزيز فهمى وزملائه كبــار العقول أشداء القلوب الذين لا يفرطون فى حق من حقوق الامة مهما صغر قدره وقلت قيمته . وعلى هذا الاعتبــار جرى الرأى العام فى تقدير المســــألة حتى قال لى كبير

الاحرار (يقصد سعد زغلول وكيل الجمعيه) لمناسبة هذه المسألة : تلك جناية على الجمعية تبوء أنت بشطر من المسئولية عليها . واذا كان هذا هو رأى سعد ، فماعسى أن يكون رأى الباقين ؟!

« ان عبد العزيز فهمى بتواضعه المشهور ، لعله لم يقدر ضرورة بقائه فى الجمعية بالقياس الذى قدره به جميع أعضائها والرأى العام .. انه رجل قانون طلب اليه خدمة القانون بمحكمة الاستئناف ، فكان حاله كالجندى طلب منه ان يخدم بسلاحه محل جندى آخر فى ميدان الجهاد ، فما يأخذه زهو الشهرة عن الخدمة الهادئة بين جدران قاعات الجلسات ، ولا يظنه عاملا لاقامة الحق أقل منه شرفا حين يعمل لتأييد الحق والعدل بصورة أخرى فى الجمعية التشريعية

« وأنا ضمين بأن هذا الرجل العالم لن تتجلى أمامه تلك الخيالات اللماعة حين يظفر بالوزارة ، أو حين يسمع صوته الصريح لتحقيق مايراه لمصلحة البلاد . شغل بشغل ، وخدمة للحق هنا وهناك .. خدمة الامة فى الحالين ، فما يكون من التفضيل فى نظره الا اعتبارات شخصية ، وليس لديه من طمع الا العفاف بالكفاف ، فلا مفضل الا مايتفق مع مزاجه ويتمشى مع حال صحته !

« ولقد علم اصحابه ان طبيبه قال غير مرة بعدم استمراره فى الجمعية التشريعية ، وهو الدكتور طلعت . قالها وقوله حجة ، فكان ذلك هو المرجع عند الاستاذ عبد العزيز فهمى واخصائه . فلما رأى أن الامة التى أنابته تحرص على نيابته ، وأصحابه فى المجلس يحرصون على الاحتفاظ به بينهم ، قال : وصحتى ايضا فداء .. ! »

رأيه فى سعد وزملائه

تلك شهادة من صديقه لطفى السيد على أخلاقه وفدائه . وسترى فى فصول هذا الكتاب كيف تولى القضاء فى ظروف غير هذه الظروف ، وكيف خاصم سعد باشا ، وانشق مع بعض زملائه على الوفد ،وأسباب هذه الخصومة والانشقاق . ولكن الرجلين كان كل منهما يقدر الآخر ، واخلاصه فى خدمة بلاده . وأذكر أننى نزلت ضيفا عنده فى قريته « كفر المصيلحة » فجرى الحديث بيننا عن رأيه فى بعض زملائه فى الجهاد ، فقال عن سعد زغلول :

« سعد زغلول كان رجلا ممتازا فى جميع أدوار حياته ، ولم أعرفه وهو محام ، ولكنه كان أول ثلاثة فى عهده اشتهروا بالمقدرة الكبيرة فى المحاماة . ثم عرفته وهو مستشار وترافعت أمامه فى بعض القضايا ، فكان قاضيا نزيها متينا ، ولعله كان فى المحاماة أمتن منه فى القضاء ، لان ذهنه كما عرفته فيما بعد ذهن جدلى مولد واسع النطاق . وكانت قدرته على الجدل لا تعدلها قدرة ، فهو يستطيع أن يجادل ويناقش أربع وعشرين ساعة متواصلة . وقد كان مثقفا مطلعا . وكان عقله أكبر من علمه ! »

وقال عن زميله على شعراوى :

« أما على شعراوى ، فكان من خيرة الوطنيين المخلصين ، بل من أخلص رجال مصر ، وأكثرهم حبا لوطنهم . وكان جريئا فى الحق ، يقول مايعتقد ، ويحافظ على كرامته ، ولا يمتهنها مهما كانت الظروف . وكان فى الجمعية التشريعية من العاملين لخدمة البلاد كالمرحوم

اسماعيل أباظة ، ولكن اسماعيل أباظة كان أكثر تعليما ، وكان كاتبا خطيبا ، وعلى شعراوى لايكتب ولايخطب »

ثم قال عن حسين رشدى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد محمود :

« كان حسين رشدى أعلم جميع رجال مصر بالقانون . وقد عاش فى فرنسا مدة طويلة ، ودرس كثيرا وأطلع كثيرا ..

« وكان عدلى يكن مثقفا رقيقا مخلصا متزنا . ولكن عبد الخالق ثروت كان أدق منه ، وكان محبا للاطلاع على الكتب القانونية والتاريخية والادبية ، وكان فقيها فى علمه وأدبه ..

« وكان محمد محمود من خيرة الرجال اخلاصا لوطنهم ، ومن أكثرهم حبا للتضحية . وفى اعتقادى أن كل مصرى ــ وبخاصة كل مثقف ــ يحب الخير لبلاده ، ويحب نفعها وخدمتها . ولكن قد يكون لكل رجل طريقته فى خدمة المصلحة العامة . وقد يرى صوابا مايراه غيره خطأ . وقد يكون فى ظروف دقيقة تضطره أن يفعل مالايفعله فى غيرها ، ولكنه يفعله اتقاء لضرر أكبر يصيب المصلحة العامة فى نظره » !!

أما رأيه فى صديقه أحمد لطفى السيد ، فستراه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب

صورة صادقة

وقد عنيت بأن يكون هذا الكتاب صورة صادقة لحياة هــذا الرجل الوطنى الكبير الذى كان أحد ثلاثة رجــال رفعوا صوتهم عاليا يطالبون الاسد البريطانى بحق مصر

فى الحرية والاستقلال التــام ، وهم عزل من كل قوة وسلاح ، وهو فى الوقت نفسه خارج من الحرب العالمية الاولى منتصرا ، يتيه بجلجلة القنابل ، وعصف المدافع ، وصليل السيوف !

هذا الرجل الذى طوى حياته عاملا مخلصا نزيها فى كل ميدان من الميادين التى ساهم فيها بكل اخــلاص وكفاءة وتضحية ، فكان محاميا كفئا من كبار المحامين ، وقاضيا نزيها من احرص القضاة على تحقيق العدالة ، وسياسيا زعيما من أوفى الزعماء السياسيين لبلاده ، وأكثرهم سدادا فى الرأى ، وأبعدهم نظرا ، ثم وزيرا قديرا من أكرم الوزراء قدرا ، وأعزهم نفسا ، وأحرصهم على الكرامة ، وعالما من علماء القانون الضليعين ، وأديبا من أعلام الادباء المعدودين الذين ارتفعت المحاماة بأسـلوبهم البليغ ، وانتفع القضاء بتعبيرهم الدقيق العريق

طاهر الطناحى

الفصل الأول

بلدى .. وأبى .. ومدرستى



بلدتى .. وأبى

نشأت فى أسرة من صميم الريف المصرى الذى أعتز به . وولدت فى بلدة من عشائر الفلاحين المصريين الذين مارسوا الزراعة ، وعنوا بخدمتها منذ زمن طويل ، وكانوا أيديا عاملة فى الانتاج العام ، يكدون ويكدحون ، ويخرجون من ثمرات الارض ما ينفعهم وينفع الناس .. وتلك مزية ينفرد بها الفلاح عن غيره ، فكل مايأتى عنه منافع وخيرات ..

أما بلدتى فهى « كفر المصيلحة » من أعمال مديرية المنوفية ، وهى بلدة صغيرة سميت بهذا الاسم ، لان اهلها كانوا فيما سلف حيا من أحياء قرية « المصيلحة » وحدث بينهم وبين باقى أهل القرية ما استوجب أن يخرجوا منها رغم أنوفهم ، وكان ذلك فى نحو سنة ١١٧٥ الهجرية ـ أى منذ مائتى سنة تقريبا ـ فلما نزحوا عن ديارهم فى هذه الحال أتوا الى الشاطىء الشرقى من بحر شبين ، وأقاموا فى اخصاص أمام بندر شبين الكوم .. وكان جدى الثالث محمد عمر مبارك يدرس اذ ذاك فى الازهر ، فلما علم بالحادث أسرع الى أهله وعشيرته ، وأخذ ينظم أحوالهم ، ويلم شعثهم . واستحضر لهم فقيها ، وبنى له بيتا ليقوم بتعليم أطفال القرية القرآن الكريم ، فسرت بذلك فكرة التعليم بين الاهالى . واذا ذكرت هذا الرجل ، فليس هذا غضا من رجال العشائر الاخرى الذين كانوا موجودين معه وعاونوه فى ذلك

الزمان ، فان لكل منهم فضلا فى اصـلاح حال أهالينا السابقين لا ينكر . وانما كل كان يشتغل بقدرمايسرالله له .. وقد سعى محمد عمر مبارك فى فصل الكفر عن البلد الاصلية وفى ترتيب عمدة خاص له . وبقيت العمدية فيه وفى عائلته كل ذلك الزمن الا فترة قصيرة فى عهد الخديو اسماعيل

وأهل هـذا « الكفر » متسـاوون فى عناصرهم وفى احسابهم ، لا فضل لاحد على غيره الا بالعمل الشخصى وأخلاقه النفسية .. واذا كانوا جميعا ولداء الاضـطهاد فقد عاشوا مترابطين متآلفين ، وهم من أنشـط أهالى اقليم المنوفية وأكثرهم جدا واقبالا على الزراعة والتعليم . وقد ولدت به فى ليلة أول شوال سنة ١٢٨٧ من الهجرة الموافقة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٠ الميلادية ، فسنى الآن بالسنين الهجرية احـدى وثمانون سنة ، وبالسـنين الميلادية ثمان وسبعون سنة وبضعة أشهر

ووالدى المرحوم « حجـازى عمر » (١) قرأ القرآن الكريم بمكتب الناحية ، ثم اتصـل ببعض الموظفين ، فأجاد الخط وتعلم أصول المحاكم الشرعية واسـتخدم كاتبا بها .. وكان محبا لأهل بلده ، فعمل ما فى وسعه أثناء خدمته فى الحكومة ، وأثناء حياته بالمعاش لترقيـة شأنهم وقد تولى عمدية البلدة وهو بالمعـاش فدافع عن أهلها ما استطاع ، وحـرص كل الحـرص على الا يرفع بعض أفراد « كفر المصيلحة » على البعض الآخر دعوى أمام اية جهة حكومية ادارية كانت أو قضائية ، اعتقـادا منه ان القضايا تفسد اخلاقهم ، فتعودهم شهادة الزور

---

(١) هو الشيخ حجازى بك عمر، ولكن يظهر ان تواضع ابنه عبدالعزيز باشا لايريد أن يذكر لقبه

الكذب وتغرس فى قلوبهم العداوة والبغضاء . وكان يجتهد ان يحل الخلاف بنفسه ، ويستعمل نفوذه لهذا الغرض ، فكان عمدة لهم ، وقاضيا بينهم فى آن واحد

وكان لوالدى ستة أخوة وقد توفى فى مايو سنة ١٩٢٠ وسنه نحو سنة وثمانين سنة ميلادية ، ولا أذكر انني خالفته يوما ، أو خرجت على تقاليد جيلى فى احترام الابناء للآباء ، فقد كان احترام كل منا لابيه وأستاذه ، بل لأخيه الاكبر ، خلقا ثابتا ، بل امرا كالعقيدة : وبخاصة بيننا نحن أبناء الريف .. حتى انني كنت وانا عضو فى الجمعية التشريعية ، او نقيب المحامين الاهليين ، لا أحد من الأدب أن أخول لنفسي الظهور امام ابى بأنى ادخن السجائر ، وقد علم رحمه الله ذلك اخيرا ، فدعانى ذات يوم من ايام سنة ١٩١٨ بعد الغداء ، وطلب منى أن « ألف » له سيجارة فصدعت بأمره ، وبعد ان لففتها ضحك ، وقال :

ــ دخنها انت ياعبد العزيز .. فما عدت يا ابنى صغيرا .. !

تعليمى .. وزملائى

وقد تلقيت تعليمى الاولى فى بلدتى ، وحفظت القرآن الكريم ، ثم ارسلنى والدى لتجويده فى جامع السيد البدوى بطنطا ، فجودت بعضه ، ونقلنى ابى الى القاهرة فلبثت فى الجامع الازهر أعيد تسميع القرآن على بعض المشايخ وأحفظ المتون .. فحفظت كثيرا ، ومنها الفية ابن مالك ، ولم البث بالازهر الا زمنا قليلا ، ثم انتقلت الى مدرسة الجمالية الابتدائية ومكثت بها سنة ثم انتقلت منها الى مدرسة طنطا الابتدائية ، فأتممت بها

تعليمي الابتدائي .. ونقلت منها الى مدرستها الثانوية . وأثناء وجودي بمدرسة طنطا حفظت كثيرا من مقامات الحريري ، وأذكر أن مما حفظناه تلك المقامة التي باع فيها « أبوزيد السروجي » ابنه موهما المشترى أن هذا الابن رقيق يصح بيعه . وأذكر أنه في امتحان عمومي بالمدرسة ، مثلت أنا وبعض اخواني من التلاميذ المقامة الخاصة بذلك البيع . وكان لتمثيلها وقع طريف عند من حضرها من رجال النظارة ، ومنهم المرحوم محمود بك رشاد الذي كان اذ ذاك مفتشا بالمعارف

ولم يكن التعليم الثانوي منتشرا في بلاد القطر في ذلك الوقت ، بل كانت مدارسه قليلة ، لاتوجد الا في بعض عواصم المديريات

وفي عام ١٨٨٥ ، وبعد أن قضيت عاما في مدرسة طنطا الثانوية ، ألغى الانجليز المدارس الثانوية بالارياف ، وحولوا كل من فيها من التلاميذ الى المدرسة الخديوية بالقاهرة ، وقد عرف هذا العام بعام «هوجة المدارس» ، فقد سيطر الانجليز بعد احتلالهم مصر على نظارات الحكومة ، ومصالحها ، وفيها نظارة المعارف .. وكان يتولاها وقتئذ « عبد الرحمن رشدي باشا » ، ووكيلها « يعقوب أرتين باشا » ، وكان غرضهم من هذا التغيير تنظيم التعليم تنظيما آخر ، لأن نظار المعارف المصريين ، وبخاصة « على باشا مبارك » ، كان يعز عليهم أن يفصلوا تلميذا مهما تعددت مرات رسوبه في الفرقة الواحدة ، مما ترتب عليه أن بعض تلاميذ التعليم الثانوي كانت سنهم تصل الى الثلاثين ، وبجانبهم تلاميذ في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة !

وقد نقلت في ذلك العام من طنطا التي ألغيت مدرستها

الثانوية الى المدرسة الخديوية بالقاهرة ، وفيها تعرفت لأول مرة بأخى « أحمد لطفى السيد » ، فقد كان ممن حولوا من المنصورة الى القاهرة ، وهو أحد خمسة آخيتهم وصادقتهم طول حياتى ، وهم « أحمد لطفى السيد » ، و « حسين درويش » ، و «يوسف نحاس» ، و « عزيز منسى » و « محمد فوزى مرعى »

وكان «لطفى السيد» وقتئذ ملتحقا لاول مرة بالتعليم الثانوى ، فأدخلونا معا السنة الاولى ، وكان تنظيم فصول المدرسة جاريا بحسب طول قامة التلاميذ ، فقصار القامة وضعوهم فى السنة الاولى ، والذين أطول منهم فى السنة الثانية ، وهكذا ..

وكانت سنى وقتئذ نحو خمسة عشر عاما ، و «لطفى السيد » نحو أربعة عشر عاما ، فأنا أكبره بعام واحد لا أكثر ــ ولعله لا يريد أن أصرح هذا التصريح الخطير ! ــ ولكن هذا هو الواقع ، وهذا هو التاريخ !

ولما كنت قد قضيت فى التعليم الثانوى بمدرسة طنطا عاما ، فقد وجدت من الغبن أن اعود الى السنة الاولى بالخديوية ، فاعترضت على ذلك الى أن نقلت الى السنة الثانية بمساعدة « محمود بك رشاد » الذى كان يعرفنى وأنا تلميذ

مكثت فى هذه السنة حتى اتممتها ، وفى الصيف سافرت الى طنطا حيث كان أخى « محمد عمر »(١) كاتبا بنيابة محكمتها ، فأشار عليه صديق بأن ادرس اللغة الفرنسية واتقدم فى أول السنة المكتبية لامتحان

---

(١) هو محمد عمر بك الذى كان فى آخر عهده رئيسا لادارة تفتيش اقلام كتاب المحاكم بوزارة الحقانية وقد انعم عليه بالبكوية

القبول بمدرسة الحقوق ـ وكانت تعرف وقتئذ بمدرسة الادارة والترجمة ، ومكانها فى باب الشعرية ـ فعكفت على دراسة تلك اللغة حتى اذا كان أول السنة الدراسية تقدمت للامتحان فقبلت وانتقلت اليها تاركا الخديوية ، ولكنني حرمت من زمالة صديقى « لطفى السيد » فيها لأنه بقى حتى أدركته شهادة البكالوريا سنة ١٨٨٧ فاضطر البقاء فيها حتى يحصل عليها ليستطيع ان يلتحق بمدرسة عالية كما أصبح هذا هو النظام ، وقد ألتحق بمدرسة الحقوق بعدى بنحو ثلاث سنوات

بين على باشا مبارك وبينى

كنت فى السنة الاولى بالحقوق مزاملا صديقى «حسين درويش » ، وكنا تسعة طلاب ، وكانت فصول المدرسة قليلة العدد . ويمكنك أن تقارن بين ماكانت عليه هذه المدرسة منذ ٦٣ عاما ، وما عليه عددها اليوم لتعرف كيف كان الاقبال على التعليم ضئيلا وبخاصة التعليم العالى فى ذلك الزمان

انى حين أقارن بين الحالين اشعر بالغبطة والتفاؤل ، لتهافت الكثيرين من شبابنا وأهاليهم على دور العلم ومعاهد التعليم .. ولعل هذا التهافت وهذه الزيادة فى الوقت الحاضر عما كانت عليه فى العهد القديم لاتكون مانعة لهم ولا لأساتذتهم من أن يكرسوا كل وقتهم للدراسة وتحصيل العلم الذى تقوم الشواهد كل يوم على أنه هو القوة الاساسية الوحيدة التى لايقوم رقى الامم الا عليها

وقد مكثت فى مدرسة الحقوق حتى كانت سنة ١٨٨٩ ، وكنت وقتئذ فى السنة النهائية ، ولم يبق على امتحان

الليسانس الا بضعة اشهر .. وفى ذلك الحين أعلنت الحكومة عن وظيفتى « مترجم » احداهما فى نظارة الحقانية ، ومرتبها ١٢ جنيها يعلو الى ١٦ جنيها ، وثانيهما فى ادارة مصالح القاهرة بنظارة الاشغال ، ومرتبها ثمانية جنيهات يعلو الى ١٢ جنيها

واذ كان متخرجو مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت ، يتقاضون خمسة جنيهات بعد حصولهم على الليسانس ، فقد أغرانى هذا المرتب انا وبعض زملائى بالتقدم الى امتحان المسابقة فى هاتين الوظيفتين ، وكنا وقتئذ من المولعين بوظائف الحكومة كالمعتاد ..

وكان المرحوم على باشا مبارك قد عاد ناظرا للمعارف .. فبلغه ماعزمت عليه انا وزملائى ، فاستدعانا الى مكتبه بالنظارة ، وكانت مجاورة للمدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، فذهبنا اليه ، فاستقبلنا فى غضب .. وسألنا لماذا نترك مدرسة الحقوق للالتحاق بالوظائف ، مع انه لم يبق على امتحان الليسانس غير مدة وجيزة ، فأجبناه بأن هذه فرصة سانحة لتولى وظيفة حكومية بمرتب لايحصل عليه متخرجو الحقوق ، فلم يقتنع وناقشنا طويلا وناقشناه ، وخرجنا من عنده وهو ناقم غاضب !

أحرجت فى الامتحان

وجاء ميعاد امتحان المسابقة ، فتقدمنا اليه ، وقد نجحت في الامتحان الشفهى ، وكانت اللجنة مؤلفة برئاسة على مبارك باشا ، وعضوية الشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، واثنين آخرين لا أتذكرهما

ولما رآنى على مبارك أمام اللجنة قال فى غضب :

ــ انت ياولد مارحتش المدرسة بتاعتك ليه ؟ ..

طيب لما نشوف .. !

وكان الامتحان الشفهى يدور على مطالعة شيء من كتاب « الوسيلة الادبية » للشيخ حسين المرصفى ، ثم تفسيره ، ولما كان لكل طالب رقم جلوس فى الامتحان التحريرى ، فقد قدم لى الشيخ عبد الكريم سلمان الكتاب ، وطلب منى أن أفتح الصحيفة الموافقة لرقمى .. ففتحتها فكان بها «باب الايجاز والاطناب والمساواة»

واتفق أن كانت قراءتى صحيحة ، وكانت أجوبتى على ما وجه الى من اسئلة مطابقة للمراد ، وعقب هذا قال الشيخ حمزة فتح الله رحمه الله :

ـ خلاص .. خلاص .. قم يابنى

فقال على باشا مبارك :

ـ كلا .. هذا لايفى .. يجب ان يلخص لنا ما قرأه ..

وكان التلخيص سهلا على ، لاننا كنا قد درسنا فى مدرسة الحقوق « علم المعانى » الذى منه الباب المذكور فى كتاب لعله « مختصر السعد للتفتازانى » . وكانت عادة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد البسيونى أن يجعلنا نحفظ النصوص عن ظهر قلب ، فكان تلخيصى لما قرأت أنى تلوت من ذاكرتى ماكنت أحفظه من دروس الشيخ ، وهو تلخيص لولا هذا الحفظ الآلى ماكنت عرفته ، فقال الشيخ حمزة :

ـ كفى .. كفى .. ليس لنا عنده شيء ! ..

فرد على مبارك باشا :

ـ لا .. لا .. ياشيخ عبد الكريم شوف له عقدة ! ..

فقال الشيخ عبد الكريم : « افتح صحيفة كذا من الكتاب ، واقرأ مابها من الاشعار » ، ففتحتها ، وابتدأت

اقرأ أول شعر قابلنى ، فقال : « كلا .. اقرأ مابعده » .. فوجدت أبياتا مكتوبا قبلها : « قال البعيث الحنفى فى وصف ناقة » وهى :

وهاجرة يشــــوى مهاها ســـمومها
طبخت بهـــا عيرانة واشــــتويتها
مفــــرجة منـفوجة حضرميـــــة
مســـــاندة سر المهـارى التقيتهـــا
قطعت بها شجعاء قوراء جرشعا
اذا عد مجـد العيس قدم بيتهـــا
وجدت أباها رائضــــيها وأمهـــا
فأنفذت فيها الحكم حتى احتويتها

فقرأت الابيـــات كأنى اقرأ كلاما اعجميـــا . ولكننى فسرت « عيرانة » بمعنى « ناقة » كما أدركت من عنوان الابيات . ولما جئت الى قوله « شــــجعاء ، قوراء ، جرشعا » قلت : « هاتوا لى قاموسا »

فقال على مبارك باشا :

ـ كيف ذلك .. وأنت فى امتحان ؟!

قلت :

ـ لا استطيع تفسيرها ، فلم يسبق لى أن قرأت هذا الكلام الغريب

فضحك رحمه الله ، وقال :

ـ اتلبخت للرقبة ، ووقف حمار الشيخ فى العقبة .. قم واعطنا عرض أكتافك !

فقلت :

ـ لا .. لست عريض الاكتـــــاف .. بل ان عريض الاكتاف غيرى ..

ومع ذلك نجحت !

نهضت من اللجنة ، وأنا موقن بالرسوب لا محالة ، فقد كانت الروح التى قوبلت بهـا من المتحنين ما عدا الشيخ حمزة فتح الله تنم عن ذلك ، وتجعلنى أقطـــع الأمل فى النجاح ، ولكن النتيجة ظهرت ، فرأيتنى ثالث الناجحين ، وكان الاول « محمد رشـــــيد بك » والد الدكتور فؤاد رشيد وابراهيم ومحمود رشيد ، والثانى رجلا اسمه « كساب » ، فأدركت من ذلك أن وظيفة الحقانية ستكون للاول ووظيفة الاشغال ستكون للثانى ، واعود أنا بخفى حنين ! ..

ولكن حدث أن الثانى لم يقبل وظيفة نظارة الاشغال لانه كان قد شغل فى سابق عهده وظيفة حكومية بمرتب ارقى ولايستطيع أن ينزل الى ثمانية جنيهات ، ولهذا اعتذر ، وعلى الرغم من توظفى فقد حرصت أن أحصل على شهادة الليسانس ، فكنت فى المســـاء مثابرا على الوجود مع اخوانى الطلبــة والمذاكرة معهم ، حتى حل موعد الامتحان ، فأديته وحصلت على الليســانس فى صيف سنة ١٨٩٠

ديموقراطية على مبارك

ولابد من الاشارة الى أن المرحوم على باشا مبارك كان من أحب النظار الى الطلبة ، ومن أكثر رجال مصر عطفـا عليهم وتشجيعا لهم .. ولولا حرصه على مصـــلحتنا ماكان يغضب لخروجنا الى هذه الوظائف قبل الحصول على الشهادة النهائية ، ولولا حبه لنـــا ماكان يقف منى هذا الموقف فى الامتحـان .. على الرغم من غضـــبه ،

وتشدده الظاهر ، اذ لم يفسد هذا الغضـــــب رأيه او ضميره ..

ولقد كان وزيرا وطنيا ديمقراطيا يجتمع كثيرا بأبنائه التلاميذ ، وطالما كان يخرج من مكتبه فى أوقات الفراغ ليتحدث مع تلاميذ المدرسة الخديوية المجاورة للوزارة ، ويسألهم ويناقشهم ، ويلقى عليهم ارشاداته ، ويزودهم بنصائحه وتوجيهاته المفيدة ، رحمه الله ، وجازاه عنـا احسن الجزاء

الفصل الثانى

من الوظيفة
إلى المحاماه



بيني وبين ملنر

حصلت على شهادة الليسانس سنة ١٨٩٠ وسنى وقتئذ اقل من عشرين عاما .. وكانت قد مضت من قبلها بضعة أشهر على تعييني مترجما بنظارة الاشغال ثم مكثت عامين فى هذه الوظيفة ، لم يزد فيها مرتبى على ثمانية جنيهات ..!

وذات يوم كنت بمكتبى فوصلتنى دعوة لمقابلة السيرملنر « وهو اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر المعروف ابان الحركة الوطنية الاخيرة » . وكان فى ذلك الحين وكيلا لوزارةالمالية وصاحب الشأن الفعلى فيها ، فدهشت لهذه الدعوة ، وتهيبت مقابلته لعظم الفارق بين مركزه ومركزى ولجهلى السبب الذى دعانى من اجله . وجعلت افكر فيما عسى أن يكون الباعث على هذه المقابلة ، وظننت انى اخطأت فى ترجمة شيك على خزانة المالية أو فى ترجمة وثيقة من الوثائق . ولكنى تشجعت ولبيت دعوته ووصلت الىمكتبه بالنظارة ، فما كاد يعلم بوجودى حتى أمر بدخولى فورا . ورأيته يستقبلنى استقبالا طيبا اشعرنى بالاطمئنان وأجلسنى أمامه ، ثم حدثنى عن حاجةالحكومة الىمتخرجى مدرسة الحقوق ليعملوا فى وظائف الادارة . وعرض على وظيفة معاون ادارة بالدقهلية بمرتب ١٢ جنيها

وترك لى فرصة للاستشارة .. فبعد مشاورة اهلى قبلت ، وانتقلت فعلا معاونا بالدقهلية وسافرت الى المنصورة

موقفى من خليل عفت باشا

واذكر أن مدير الدقهلية كان اذ ذاك المرحوم خليل باشا عفت . وكنا فى فصل الصيف ، وقت ابتداء فيضان النيل وكان المدير غائبا بالمرور . وبعـــد يومين حضر ، فأتى الباشمعاون ــ وكان اسمه محمود أفندى محمـــد ــ وأفهمنى أنه يريد تقديمى لسعادة المدير ، وطلب أن أقلده فى الاوضاع التى تتخذ فى هذه المقابلة .. ثم زرر جميع أزرار سترته ، فقلدته فيما فعل ، ولكنه ذهب أمام باب غرفة المدير ، وأخذ يرفع الستار الذى على الباب وينظر الى داخل الغرفة ، ثم يرتد ، ويلعب قسماته كما يفعل الخائف من سبع هائل ..!

فلما رأيته فعل هذا وكرره ، وأرادنى أن أقلده فى هذا التمثيل امتلأت نفسى احتقارا له ، ولذلك الاسد الذى بداخل الغرفة ، وقلت له فى عصبية : « أدخل .. وسأفعل ماتريد »

فلم يدخل ، وتنحى عن الباب ، ففككت جميع أزرار سترتى ودخلت مرتفع الرأس .. وكان المدير واقفـــا وسط الغرفة ، فأقبلت عليه ، وتناولت يده ، وكانت مرخاة ، الى جانبه كيد المشلول ، فهززتها ، ووقفت ..

فالتفت الى المدير فى دهشة قائلا :

ــ انت اللى جيت ؟!

فقلت : « نعم »

فقال :

ــ روح اتعلم من اخوانك !

فأدركت أنه اغتاظ من عدم اتباعى لمراسم المقابلة ، ومن انى لم اقبل يده ، وان عبارته لى انما يريد بها أن أتمرن

على مايجول بخاطره ، وما اعتاده الموظفون من أوضاع النفاق والاستجداء عند مقابلته .. ولكنى لما خرجت من عنده جعلت لكلامه معنى غير ما اراده هو ، فقلت لاخوانى من المعاونين : « ان سعادة المدير يطلب الى ان اتعلم منكم ، فما هى اعمال وظائفكم التى يريد سعادته ان أعرفها ؟ »

فقال بعضهم : « أعمالنا متنوعة .. عندنا التحصيل وخفر النيل ، وحفظ الامن ، ومهام كثيرة أخرى »

فسألت : « أليس لهذه الاعمال مصادر مكتوبة يمكن ان ادرسها »

فأحالونى على باشكاتب المديرية .. فسألته ، فتجهم لى ، واخفى عنى كل شىء ، وقال لى : « هذه أعمال يحفظها فى صدره كل من تصدى لهذه الوظائف »

دوار من « البوص »

كنت أدرك من مناقشتى مع هؤلاء انى لن أستفيد منهم شيئا ، وانى مهما طلبت ورجوت ، فلن يفصحوا لى عن شىء مما أريد . كنت أعلم ذلك ، ولكنى جعلت مناقشتى واياهم امر تسلية وتلهية ، ودراسة اخلاق ذلك الوسط .. اذ كنت أعرف من قبل ان هناك قاموسا اسمه « قاموس الادارة والقضاء » حاويا لكل مصادر اجراءات الادارة ووظائفها ، وان منه نسخة موجودة بكل جهات النيابة والقضاء . فذهبت الى نيابة المنصورة التى كان بها بعض اخوانى من خريجى الحقوق ، واطلعت عندهم على ذلك القاموس .. واخذت منه كل البيانات التى تلزم معاون الادارة فى اجراءات التحصيل من تنبيهات وانذارات وحجوز ادارية وبيوع ، وأوامر خاصة بحفظ جسور النيل ونحو ذلك ..

واذ كنا فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٩٢ واخذ النيل فى الارتفاع ، فقد أرسلنى المدير لاخفر النيل فى نقطة اسمها « قولونجيل » واقعة شمال المنصورة بقليل .. فنصبت « خصا » من البوص على جسر البحر ، وأرسل لى والدى بغلة أركبها فى المرور على الدرك المخصص لى ، وقد اتبعت فى عيشتى خطة لم تكن متبعة من قبل ..

تلك أنى دفعت ثمن البوص والخشب اللازم للخص من مالى ، ولم أقبل من أى من الوجهاء أن يقدم لبغلتى شيئا من التبن ولا من العليق كما جرت عادة المعاونين . وجعلت « خصى » كأنه « دوار » فى بلدى أعزم فيه الى الطعام كثيرا ممن يتصلون بى من الوجهاء والاعيان . واذ كنا فى أوائل موسم الفيضان ، وكانت الاوامر الحكومية تقضى بأن العمد ونصف المشايخ يخرجون الى أماكنهم على الجسور وكنت أنا أرى شخصيا ان هذه أوامر ظالمة لان النيل ما يزال فى مبدئه واطئا لا يخشى منه شىء ، فقد نبهت على العمد والمشايخ أن يرجعوا الى بلادهم ، وان يكونوا تحت طلبى اذا أرتفع النيل ، فسر أولئك الاعيان لهذه الخطة وأصبحوا يحضرون عندى للمجالسة والحديث والسمر ..

واذ شاهدت من استبداد الادارة معهم الشىء الكثير ، فقد أخذت فى مجالسى انبههم الى وجوب التحرر من هذا الرق ، وأفيض معهم فى موضوعات من هذا القبيل المشرف للانسانية ، فأصبحوا جميعا يعطفون على كأنى واحد من أبنائهم ..

وبعد فترة قليلة بلغ المدير خبر معاملتى تلك للاهالى .. فخشى ان تكبر نفس بعضهم فيتمردوا وينشلوا أنفسهم من حماة الاستكانة والاستجداء ، فأمر بنقلى من « قولونجيل » الى نقطة « سنبخت » قبلى المنصورة

وبالقرب من منية سمنود ، فنقلت « خصى » ببوصه وأخشابه ، ونصبته بها ..

المدير يتربص .. والعمد يتحدونه !

اخذ النيل يعلو ماؤه . وحدث ان الجسر فى تلك النقطة الجديدة كان ضعيفا ، فلما علا النيل فار الماء خلف الجسر ، فاضطربت .. ولكن اهالى تلك الجهة الجديدة ، كانوا قد سمعوا بسلوكى فى جهة « قولونجيل » فأصبحوا من انفسهم يعطفون على ويساعدوننى بكل ماتسع قلوبهم من نجدة ومروءة ..

حضر كثيرون منهم عندى وقالوا : « لاتخش شيئا » ، ثم عبأوا من بلادهم مئات ومئات من الانفار وأتوا بكثير من الاكياس ، فملاوها بالرمل ، وطرحوها فى النيل أمام الجسر فخفت النوافير الخلفية ، ثم انشأوا جسرا آخر جديدا خلف الجسر الاصلى ، وجعلوه أعرض من الاول .. وقد أسرعوا فى هذا اسراعا كان من نتيجته ان المهندسين — وكان منهم رجل انجليزى اسمه « براون » — ما كادوا يعلمون بحادثة ضعف جسر « سنبخت » ، وما كادوا يحضرون لمشاهدته حتى وجدوا الجسر الخلفى العريض مقاما وأكياس الرمل ملقاة فى البحر .. فشكرونى وشكروا الاهالى على هذا العمل ، ولم يجدوا وجها للكلام ..

لكن سعادة المدير — غفر الله له — لما علم بالامر ، بعث أحد الموظفين يفتش على « الدرك » وقد تحسس المعاون مافى نفس المدير ، فكتب له تقريرا لم يدع فيه أن هناك خطرا ، لانها تكون دعوى ظاهرة الكذب .. بل ادعى ان « أخصاص » الخفراء ليس فى كل منها العدد المقرر ، ولا المقاطف والفئوس والصفائح الكافية الخ

فلم يكد يصل هذا التقرير الى يد المدير حتى أسرع ، فبعث الى خطاب تأنيب بوساطة مأمور مركز منية سمنود .. فعلم الاهالى بهذا الخطاب ، وشجعونى على الرد عليه بما اريد ، فرددت عليه بأن التقرير كله أكاذيب ، فلما وصل الرد الى المدير ، وأدرك ان سهمه لم يصب ، جاء بنفسه فى وابور البحر ، ووقف أمام أول الدرك ، ثم خرج الى الجسر ، وأخذ بنفسه يعدالانفار فى كل «خص» ويحقق الادوات الاخرى من مقاطف وأخشاب . وكان الاهالى قد قاموا كرجل واحد ، فملأوا الجسر بالمقاطف والفئوس والاخشاب ، وجعلوا فى كل « خص » ستة أنفار بدل ثلاثة ..

ونزل المدير ، وأخذ يحقق محتويات كل خص .. فغمه ما رأى من ذلك الاستعداد الذى لم يحلم به ، ولكنه أتعب نفسه من أول الدرك . ولما لم يجد شيئا يبيح له المناقضة ، فاض لسانه بقوله لى :

ـ انا أرسلت لك خليفة أفندى ، وكتب لى تقريرا .. فرددت عليه بأن مافيه كذب ، فهل هذا يجوز ؟

قلت له :

ـ نعم ، يجوز لانه كاذب فعلا .. وقد شاهدتم بنفسكم ماهو موجود بالدرك من الانفار والادوات ، ولم تجدوا شيئا يجيز الملاحظة ..

فلما وجد ان لا وجه له فى زيادة الكلام ، أشار الى وابور البحر الذى كان يسير فى تؤدة ، فأتى قارب منه أخذه وانصرف ..

وبعد ان انتهت فترة خفر النيل فى تلك السنة ـ وهى سنة ١٨٩٢ ـ جاءنى أمر من المدير بأن لا أرجع الى المنصورة ، بل أقوم بالتحصيل فى البلاد التى كان أهاليها يخفرون النيل فى دركى ..

فلما علم عمد تلك البلاد بما كلفت به طمأنونى ، وأخذوا هم يحصلون المال من الاهالى ، واذا بقى على البلد شيء من القسط دفعه أولئك العمد من مالهم الخاص ليحصلوه بعد لانفسهم ..

وبهذه المثابة كانت البلاد التى كلفت بالتحصيل فيها اسبق كل بلاد المديرية فى دفع قسط المال ..

ولم يستطع المدير ان يشفى صدره من سلوكى معه ، ذلك السلوك الذى لايتمشى مع استبداده ..

وانت وانا نستخلص من هذا ان اهالينا كرام النفوس فى حقيقة أمرهم ، وان محاسنتهم ومعاملتهم بالمروءة ، وعدم التعجرف عليهم ، يصل بالموظف الى ان ينال من جانبهم كل مطلوبه ..

وهنا أقول انى لم اطق البقاء بعد سنة ١٨٩٢ بالادارة ، فتبادلت مع كاتب اسمه بسيونى افندى بمحكمة طنطا .. فجاء معاونا بالدقهلية بدلى ، وذهبت كاتبا بمحكمة طنطا بدله ..

وبعد أن مكثت بطنطا نحو سنة ، اشتغلت بها كاتب جلسة بحكمتها الجزئية ، ثم نقلت فى أواخر تلك السنة وهى سنة ١٨٩٣ معاونا للنيابة قنا .. وكان مرتبى اذ ذاك ثلاثة عشر جنيها ونصف جنيه ، وهو المرتب الذى كان يتقاضاه بسيونى أفندى . ومن طنطا نقلت عضوا بنيابة اسنا فمكثت بها لغاية سنة ١٨٩٤ ، ثم نقلت لنيابة نجع حمادى فمكثت لغاية سنة ١٨٩٥ ، ومن سنة ١٨٩٦ الى منتصف سنة ١٨٩٧ كنت بنيابة بنى سويف .. وهناك التقيت بصديقى أحمد لطفى السيد الذى كان وقتئذ عضوا بنيابتها ..

اشتغالى بالمحاماة

هذا ، وفى منتصف سنة ١٨٩٧ عينت وكيلا للمستشار القضائى بالاوقاف – وكانت فى ذلك الحين ادارة لا نظارة ولا وزارة – وكان مستشارها المرحوم ابراهيم الهلباوى بك . ولما كان رحمه الله مشغولا بالمحاماة ، فقد نهضت بالكثير من اعباء هذه الوظيفة حتى سئمتها ، وملت الى المحاماة ..

وفى سنة ١٩٠٣ استقلت من وظيفتى بالاوقاف ، وفتحت مكتبا فى العتبة الخضراء كان مواجها لبناء المحكمة المختلطة القديم الذى هدم ، واقيمت بدله حديقة الميدان الآن ..

وكان زميلى الاول فى هذا المكتب صديقى عزيز منسى .. وأتى عندى للتمرين محمد كامل حسين ، ويونس صالح (يونس صالح باشا) .. ومن هذا المكتب انتقلت الى مكتب آخر بشارع فؤاد الاول بالعمارة المطلة على على مترو مصر الجديدة

صديقى لطفى السيد

وأذكر هنا ان صديقى احمد لطفى السيد الذى كان رئيسا للنيابة استعفى فى أوائل سنة ١٩٠٦ فوضعت مكتبى تحت تصرفه ، فزاملنى فيه بعض الزمن . وكان معنا صديقنا المرحوم احمد مصطفى بك الذى كان وكيلا لمديرية المنيا وخرج منها ، واشتغل أيضا بالمحاماة ..

وينبغى أن أذكر أمرا خاصا بصديقى لطفى السيد ، وبمبلغ ما خبرته فيه من الذكاء ومتانة الخلق ، وما استفدته من وجودنا معا فى عمل واحد منذ كنا فى عهد

الشباب .. ففى عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ ونحن بنيابة بنى سويف ــ كنا بعد اتمام عملنا الرسمى نقضى وقت الفراغ فى المطارحة بالشعر .. فكان لطفى السيد، ينشد عن ظهر قلب كثيرا من الاشعار القديمة ، وعلى الاخص من شعر مهيار الديلمى .. ومما هو باق فى ذاكرتى من انشاده قول مهيار :

بعد أحبابى كسانى الارقا
مات صبرى ، فلهم طول البقا

كنت بالشعب وكانوا جيرتى
فافترقنا ، والهوى ما افترقا

واجتمعنا يوم عيد فى منى
فتشاكينا الجوى والحرقا

لى حبيب كلما عانقته
نثر الورد علينا الورقا

اشعلت فى القلب منه جمرة
وهى لا تطفأ الا باللقا

اتمنى قربه يبعدنى
هكذا الدنيا نعيم وشقا

مثل هذه الابيات وغيرها كان يرويها صديقى لطفى أثناء المطارحة .. ونحن شباب والحياة خضراء غضة ..

ولا شك عندى ان صداقتى لهذا الاخ الذكى الاريب الواسع الاطلاع مما شجعنى على الدراسات القديمة من علمية وادبية .. فله على هذه اليد الطيبة ، ابقاه الله ونفع به ..

على ان هذه اليد ليست وحدها له عندى ، بل انه افادنى بغيرها .. فقد اذكر انه ــ وهو رجل عربى قح ــ كان فى شبابه يألف الرياضة البدنية ، واخصها ركوب

الخيل ، وكانت وسائل ذلك ميسورة له .. لان أباه كان عصاميا ميسور الحال لا يضن عليه بشيء من النفقات . وفى بنى سويف شاهد ضعفا فى صحتى ، وعنده ان الرياضة من خير العلاج لهذا الضعف .. فذهب بنفسه يوما الى القاهرة واشترى بندقيتين احداهما لى والاخرى له ، وأخذ فى أوقات الفراغ يجرنى معه الى المزارع لصيد الطيور

وقد كان من عادته عند خروجه لتحقيق الوقائع الجنائية ، الا يركب حصانا من خيل البوليس كما جرت عادة وكلاء النيابة .. بل ان اباه بعث له بحصان خاص وخادم غزاوى خاص ، فكان يركب حصانه فى الرياضة وعند قيامه لتحقيق الوقائع

وكان والده يحبه حبا جما ، ويؤثره على سائر أبنائه .. ولكن متانة خلقه كانت تأبى هذا الايثار ، وأذكر فى ذلك انه لما اجتمعنا معا فى مكتب واحد للمحاماة سنة ١٩٠٦ جاء والده ذات يوم واخبرنى انه شارع فى شراء عزبة مقدارها اربعمائة وخمسون فدانا ، وانه يريد كتابة عقد المشترى باسم لطفى .. فعند ذلك غضب لطفى وقال لأبيه :

ـ كلا .. لا أقبل مطلقا أن تميزنى على أخوى سالم وسعيد . فان أردت أن يكون العقد لى ولهما ، فذاك ، والا فلا ..!

فأكبر والده وأكبرت هذا الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة .. ولم يسع والده الا اجابة طلبه

لماذا ترك لطفى السيد المحاماة ؟

وقد بقى لطفى السيد فى المحاماة فترة قصيرة ، ثم تركها كارها ، واشتغل بالسياسة راغبا ..

أما كرهه للمحاماة فله قصة .. تلك ان المرحوم على شعراوى باشا الذى كان يعرف لطفى ومقامه عندما كان رئيسا لنيابة المنيا ، جاء ذات يوم الى مكتبنا ، ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » وانبأنا ان بعض الناس قد زوروا عليه سندا بمبلغ كبير ، وانه حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا بالمبلغ . ويريد أن يعمل له لطفى السيد التماس اعادةنظر فى الحكم النهائى ، فدرس لطفى المسألة ودرستها انا ايضا معه ، فلم نجد وجها قانونيا للالتماس ..

ولكون شعراوى باشا يعلم ان الحكم ظالم ، الح هو و « عم‌عزام » على لطفى ان يعمل هذا الالتماس .. فقبل كارها بعد أن أفهمهما أن هذا عمل باطل . فلما رفضت المحكمة الالتماس ، حدث اننى ولطفى كنا ذات يوم داخلين المكتب .. فوجدنا « عم عزام » قاعدا أمامه ، فحين رآنا انتفض قائما وكان مديد القامة ، وقال :

ـ بقى الفلوس ودفعتها .. والقضية وخسرتها ... واعمل ازاى ؟!..

وهو يعنى بالفلوس مبلغ عشرين جنيها كان قد دفعها للمكتب مقدم أتعاب الالتماس .. ومن أخلاق لطفى السيد أن‌المال لا قيمة له فى نظره ، وانك اذا شئت أن تعكر دمه فناقشه فى مسألة مالية ..

فلما سمع لطفى عبارة « عم عزام » أسرع بالدخول الى المكتب ، وفتح الخزانة وأخرج منها عشرين جنيها ، وكلف المرحوم محمد سليمان كاتب المكتب أن يعطيها للرجل وأن يتلطف معه ، فيقول له ان نقوده هذه كانت أمانة بطرفنا ، وقد نبهناه الى أن الالتماس لن ينجح . فلما ألح ، حفظنا هذه النقود على ذمته لنردها له ..

لكن « عم عزام » رفض أن يسترد المبلغ قائلا :

ـ أو ليس عيبا أن آخذ الفلوس التى دفعتها .. !؟

وبقى جالسا خلف باب المكتب . وعند انصرافنا منه وجدنا « عم عزام » منتظرا ، فأسرع لطفى وأسرعت معه فى النزول . وعند عودتنا للعمل بالمكتب بعد ذلك وجدنا « عم عزام » جالسا يترقب .. عقب ذلك قال لى لطفى :

ـ هل هذه هى المحاماة ؟ .. أنا فى غرفة المحامين أسمع من البعض فحش القول وهجره . وأجد من بعض القضاة غلظة . وهاهم أولاء أرباب القضايا يمثلهم « عم عزام » .. فالوسط من أوله لآخره وسط لا يعاش فيه . ولذلك صممت على تطليق المحاماة بتاتا ..

ومن ذلك الحين كان اكثر اشتغاله بالسياسة وتحرير الجريدة

المحاماة بين الماضى والحاضر

وقد كان من كبار المحامين فى العهد القديم : المرحومون أحمد الحسينى بك ، وابراهيم اللقانى بك ، وحسين صقر بك وأمثالهم .. وكانوا يترافعون قبل انشاء المحاكم الاهلية أمام المجالس المحلية الملغاة ، ومجالس الاستئناف ومجلس الاحكام ثم انشئت المحاكم الاهلية سنة ١٨٨٤ .. وقد جاءت أحكام قوانينها فى ذلك الحين موافقة فى جملتها لاحكام القوانين بالمحاكم المختلطة التى أنشئت قبلها فى سنة ١٨٧٥ ..

ولم تكن مصر حين انشاء المحاكم الاهلية قد بلغت فى الفقه القانونى مبلغا ملائما .. اذ لم يكن فيها من متخرجى الحقوق ما يكفى لمناصب القضاء والنيابة . ولهذا قضت الضرورة بأخذ كثير من القضاة بطريق الاستثناء ، كما أن المحامين أمام المحاكم الاهلية كانوا فى جملتهم من النبهاء

الذين لم يدرسوا القوانين الحديثة ، حتى صـــدر قانون المحاماة الذى اشترط فيه أن يكون المحامى حاصـلا على ليسانس الحقوق أو شهادة عالية من مدرسة أجنبية تقوم مقامها ..

ومن ذلك الحين بدأ تيار ذوى الشهادات القانونية يغمر القضاء والمحاماة . وترتب على ذلك أن تقاربت العقليـات بين القاضى والمحامى ، وأخذت الطوائف القديمة تنقرض.. ثم صدر بعد ذلك قانون نقابة المحامين ..

وربما كان من المفيد أن أذكر أن الاحكـــام فى الزمن الماضى كانت فى الاغلب من وحى الذوق ، أو مستعارة من أحكام المحاكم المختلطة ، أو بعض الشراح الاجانب . أمـا اليوم وقد ارتقى نظام القضاء الاهلى ، وفن المحــــاماة ، وانتشرت المؤلفات القانونية ، فقد صرنا نقرأ أحكاما دقيقة ناضجة ، هى نتيجة للعلم الغزير ، والعقل الكبير . كمـــا صرنا نقرأ بحوثا قيمة للمحامين ، ومرافعات بليغة تجمع بين الدراسة المتينة والتمحيص الفنى ، والحجج القوية ، والادلة القانونية ، مع فصاحة اللسان ، وجمال الاسلوب وسلامة المنطق ..

الفصل الثالث

في ساحة القضاء



بينى وبين القاضى « بوند »

لا أذكر أول قضية ترافعت فيها .. ولكننى أذكر هنا قضيتين طريفتين احداهما ترافعت فيها بجلسة كان رئيسها القاضى « بوند » الانجليزى المشهور ، والثانية بجلسة جنح استئنافية كان رئيسها المرحوم عثمان غالب باشا ..

أما الاولى فكانت فى أوائل اشتغالى بالمحاماة .. وقد اتهم فيها ملاحظ بوليس احد أعيان مديرية البحيرة بتهمة باطلة . وكان المأثور عن « بوند » انه يضن بسمعه عن كل محام يترافع ضد موظف من موظفى البوليس . وعلى الرغم من هذه العادة فقد ذهبت للمرافعة أمامه ..

كان الملاحظ قد ظلم هذا المتهم ظلما بينا .. فأخذت اشرح هذا الظلم ، وافتئات هذا الموظف على الحق والعدالة . وبينما أنا كذلك وجدت القاضى يحول كرسيه، ويدير ظهره نحوى كمن يريد ألا يسمع هذا الكلام !

دهشت لهذا التصرف ، وتوقفت عن المرافعة ، فالتفت الى « بوند » وقال :

ـ ما بالك لم تستمر فى مرافعتك ؟

فأجبت بلهجة حازمة :

ـ اننى لا أترافع وانت على هذه الحال .. فاما أن تنصت الى مرافعتى ، واما ان انسحب !..

فلم يسعه الا الاعتدال .. واستأنفت مرافعتى ، ولكنه

ما كادت تمضي برهة حتى عاد الى حالته الاولى ، فقطعت المرافعة .. فعاد « بوند » وسألنى لماذا لم أستمر ، فأجبته بمثل اللهجة الاولى :

ــ لقد قلت لجنابك يجب أن تنصت الى مرافعتى !..

فقال بوند :

ــ وما هو الوقت الذى تحتاج اليه لتثبت أن الملاحظ مزور ملفق ، كما تقول ؟

قلت :

ــ اريد عشر دقائق فقط

فقال بوند :

ــ لك ربع ساعة ، فاستمر فى مرافعتك .. ثم أخذ يستمع فى اهتمام . وما كدت أنتهى من المرافعة حتى مال على من حوله من القضاة ، وأصدر الحكم بالبراءة فى نفس الجلسة . ومنذ ذلك الحين صار يستمع لكل مرافعة لى أمامه ..

مرافعة غير عادية ..

أما القضية الثانية ، فكانت فى أول ابريل سنة ١٩١٥ . وكان البنك البلجيكى قد شكا الى النيابة عزيز بحرى بدعوى انه نصب عليه فى قرض من البنك المذكور توسط فيه لرجل يدعى محمد عمر كيشار ،برهن مقدار من الاطيان ظهر فيما بعد انها موقوفة لايمكن التصرف فيها . فرفعت النيابة على عزيز بحرى دعوى أمام محكمة جنح عابدين ، وكان قاضيها المرحوم أحمد أمين بك . فحكم عليه بالحبس ثلاثة اشهر !..

كنت وقتئذ فى حالة نقاهة من مرض اصابنى ، وقد

دعانى صديقى يوسف نحاس لزيارته بعزبتـــه بفاقوس للرياضة وتغيير الطقس ، فسافرت معه .. وفى اثناء ذلك بعث الى عزيز بحري يطلب منى ان اترافع عنـــه أمام المحكمة الاستئنافية ، فاعتذرت لضعفى .. فبعث الى من القاهرة خليل مطران بك ، واصر على ان اترافع فى هذه القضية ، فاضطررت للقبول ..

قرأت القضية والحكم .. فوجدت المتهم مظلوما ، لان كشف التكليف الرسمى عن هذه الاطيـان الذى ارسله الراهن محمد كيشار الى عزيز لم تكن فيه أية اشـــارة تدل على انها موقوفة . وليس من عمل الوسيط ، ولا مما يدور بخلده ان يفتش عن صــــحة المعلومات التى احتواها مثل هذا الكشف ما دام صادرا من جهة رسمية وعليها ختمها ..

وكان الحكم مكتوبا بأسلوب فصيح ، وان لم يكن حقا .. ومن أهم ما فيه الاستشهاد على اجرام عزيز بحـرى بلهجة الخطابات المرسلة منه الى محمد كيشار ، لانه كان يعده ويغريه ويستعجله بعبارات خلابة ، فطلبت منه ان يطلعنى على « دفاتر الكوبيا » التى يسجل فيها خطاباته الى عملائه .. فوجدت خطابات منه الى عدة شخصيات كبيرة محترمة قد كتبت بهذه اللهجة ، مثل يحيى باشـــا ابراهيم ، ومحمد حلمى عيسى باشــا وغيرهما ، فأشرت عليه بأن يطبع لى عدة نسخ من الحكم الابتــــدائى .. فطبع منه نسخا كثيرة

وفى يوم الجلسة ذهبت الى المحكمة ، ووزعت نســخ الحكم على جميع الحاضرين بالجلســـة ، ومعظمهم من التجار والوسطاء والعملاء ..

وشرعت فى مرافعتى مبتدئا بأنى سأنهج فيها طريقة غير عادية • وهى انى بعد استئذان المحكمة ، ســتكون

مرافعتي في الاغلب موجهةالى الحاضرين ٠٠ولهذاارجوان يتابعوني فقرة فقرة . وبعد استيفائي للمرافعة فيهـــا وبيان خطئها ، يجيبونني هل نشطبها أو لا نشطبها . وطلبت من وكيل النيابة ان يعترض اذا كان له وجــه للاعتراض قبل الانتقال من فقرة الى أخرى ..

أخذت أفند ما جاء في الحكم . وكلما انتهيت من فقرة، سألت النيابة ان تتكلم اذا كان لديها شيء ، فكانت لاتجيب ٠٠ فاتجه الى الحاضرين وأســألهم رأيهم ، فيجيبون في صوت واحد : « شطب » ! حتى اذا مررت بكشف التكاليف الذي هو المستند الاساسي في القضية ، طلبت الى النيابة ان تقيم الدليل على أن هذا الكشف قد استخرجه عزيز بحري بنفسه من المديرية فلم تستطع ، خصوصا وان الثابت في القضية ان عزيز بحري كان في خطاباته يستحث كيشار على سرعة استخراج هذا الكشف وارساله اليه ليقدمه للبنك ٠٠ ثم احضرت دفاتر الكوبيا ، وفيهـــا الخطابات الموجهة الى شخصيات كبيرة محترمة ، وأثبت ما فيها من مشابهة بينها وبين خطابات عزيز الى كيشار، وقلت ان هذه اللهجة التي كتبت بها هي لهجة الصنعة المعتادة عند السماسرة والوسطاء ..

وبعد أن فندت جميع أجزاء الحكم توجهت الى النيابة، وطلبت منها ــ اذا كانت عندها الشجاعة ــ أن تطلب من المحكمة البراءة ..

ولما كان واجب النيابة في هذه الحال ان تفوض الامر للمحكمة ، فقد طلب وكيلها رفع الجلسة للاستراحة ، فأجيب الى طلبه . وفي هذه الاثناء قابل الوكيل النـائب العام ، وأخبره بما حدث ٠٠ ثم اعيدت الجلســة ، فوقف وكيل النيابة ، وصرح بأنه يفوض الامر للمحكمة ، فحكمت بالغاء الحكم وبالبراءة ..

فى الجمعية التشريعية

فى يوليو سنة ١٩١٣ صـــدر قانون بانشاء الجمعية التشريعية لتحل محل مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، واعلن عن انتخاباتها .. ولم أكن ممن يميلون لترشيح انفسهم ، وخوض المعارك الانتخابيـــة ، ولكن صديقى محمد علوى الجزار هو الذى جعل اهالى قويسنا يرشحوننى ، وينتخبوننى عن دائرتهم ..

وقد كانت هذه الجمعية نوعا من الحياة النيابيـــة الناقصـــة ، ويمكنكم الرجوع الى قانونها واختصاصاتها لتقفوا على هذا النقص (١)

---

(١) بالرجوع الى قانون الجمعية التشريعية نجد ما يأتى :

« الفت الجمعيـــة التشريعية من اعضاء قانونيين هم النظار والوزراء واعضاء معينين ، وأعضاء منتخبين، والاعضاء المعينون سبعة عشر عضوا أحدهم الرئيس ، والثانى الوكيل ، والخمسة عشر عينوا على نحو يكفل النيابة عن الاقليات والمصالح التى لم تنل نصيبا فى الانتخابات

اما المنتخبـون فوزعـوا حسب النظـام الآتى : للقـاهرة اربعـة ، وللاسكندرية ثلاثة ، وللغربية سبعة ولكل من المنوفية والدقهلية والبحيرة والشرقية وأسيوط خمسة ، ولكل من المنيا ، وجرجا ، وقنا أربعة ؛ ولكل من القليوبية ، والجيزة والفيوم ثلاثة ، ولبنى سويف اثنـان .. ولكل من بورسعيد ودمياط والسويس وأسوان واحد

والمعينون أربعـة للاقباط وثلاثة لعرب البدو واثنان لكل من الاطباء، ورجال التربية الدينيـــة والمدنيـــة وللتجـار وعضـــو واحـد لـكل من المهندسين والمجالس البلدية

والمعينـون والمنتخبون يأخـذون مكافأة قدرها خمسة وعشرون جنيها فى الشـــهر ، ومدة العضـويه ست سنوات ويسقط ثلث الاعضـــاء كل سنتين ويعاد انتخاب الثلث

ويجوز حل الجمعية فى أى وقت بأمر خديوى بناء على طلب مجلس النظار ، وتجرى الانتخابات الجديدة فى ظرف ثلاثة أشهر

ولهـذه الجمعيـــة حق تحضـــير مشروعات القوانين ما عدا ما يتعلق منها بالقوانين النظاميـــة .. وكان لمجلس النظـــــار ان يوافق على المشروعات التى تقترحها الجمعية او يرفضها ، وفى حالة الرفض يذكر=

وان من يطلع على قانون الجمعية التشريعية ، ويقف على كيفيــة تأليفها ، ومبلغ اختصاصاتها ، ويقارن بين ما كانت عليه في ذلك الوقت ومـا عليه البرلمــان المصرى يتبين مدى التقدم العظيم الذى اشتمل عليه دســـتور سنة ١٩٢٣ ومدى ما وصلت اليه حياتنا النيابية من نمو ورقى ..

وقد كانت حياة هذه الجمعية التشريعية قصـيرة ، فقد افتتحت في ٢٢ يناير عام ١٩١٤ وأخـذت تعمل حتى كان صيف تلك السنة ، وفيه سافرت أنا وبعض زملائى الى فيشى للاستشفاء . وأثناء وجودى بفيشى فى شـهر يوليه من ذلك العام ، ثارت الشائعات بقيام الخلاف بين فرنسا وألمانيا .. وبأن الحرب واقعة بينهما لا محالة .. ولما ذاعت تلك الاخبار ، اضطربت الاحوال فى تلك الجهات واقفلت البنوك أبوابهـا ، وســارع كثير من المصريين الموجودين بفيشى الى مرسيليا للابحار منها الى مصر . أمـا انا فقد سافرت الى باريس ومنها الى انجلترا لاعيد معى ابن عمتى عبد الخالق مطاوع الذى كان وقتئذ فى بعثـة علمية بنيوكاسل ، وقد أرسلت اليه تلغرافا ليقـابلنى فى لندن ، ولما وصلت اليه الححت عليه فى العودة معى ، فاعتذر مفضلا البقاء لاتمام دراسته ومعتمدا على أن الحـرب

= الاسباب ، ولايجوز للجمعية مناقشة هذه الاسباب !

واذا لم تقتنع الجمعية بالاسباب التى يبـديها مجلس النظار فانهـا تنعقد معه فى هيئة مؤتمر واذا لم توافق على ما يبديه النظار فانهـا تحل ..!

وليس للجمعيــة التشريعيــة ان تنظر فى مخصصات الخديو ، أو فى خراج الاستانة ، اوالدين العمومي ، ولا أن تنـاقش الالتزامات الناتجة عن قانون التصفية ، او تبحث فى الاتفاقات الدولية ، أو المســائل المتعلقة بالدول الاجنبية ، والمسائل الخاصة بتعيين الموظفين أو عقوباتهم أو ترقيتهم »

بعيده عن انجلترا .. ولكن لم نلبث أن شهدنا نقاشا فى البرلمان الانجليزى انتهى بالموافقة على دخـــول انجلترا الحرب . وقد اضطررت الى موافقته على البقـــــاء فى انجلترا ، وعدت مع بعض المصريين على سفينة يابانية قامت بنا من انجلترا الى بورســعيد .. وقد كانت رحلة بحرية شاقة محفوفة بالاخطار فى ذلك الحين .

لقد أتعبتنى يا مولاى

عدت الى مصر ، وتوالت الحوادث .. ففرضت الحماية عليها وتوقف عمل الجمعية التشريعية طبعـــا . وتولى السلطان حسين كامل عرش البلاد ..

وكان من قبل قد رأس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، وكان يقــول بعــد أن تولى عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية :

ــ ان هذا العرش ارث من أجدادنا ، فواجب علينــا ان نحفظه من الضيـاع ليبقى لمن يأتى بعدنا

وقد كنت أعرفه من قبل شخصيا ، لان دائــرته كانت قد عهدت الى دراسة اشكال خاص بأرض سرايـــاته التى بالدقى ..

وحدث انى قابلته يوما مع صديقى يوسـف نحاس بك ، فجاء فى أثناء حديثه معنا كلام عن قضية عزيز بحـــرى التى ترافعت فيها ، ففهمت من كلامه أنه يرى فى هذه القضية غير ما رأته محكمة الجنح الاستئنافية التى قضت بانه برىء ، فلم أرتح لذلك ، وقلت بانفعال : « لقـــد اتعبتنى يا مولاى ، فانى أنا الذى اعرف حقيقة هـــذه القضية دونك ! » .

فلما رآنى على هذا الوضع اسرع الى تغيير مجرى الحديث

احتججت على السلطان

وحدث بعد ذلك بمدة ان أقامت النيابة دعوى على مأمور ضبط القاهرة ، وكان وقتئذ رجلا يدعى « فيلبيدس » فانتدبنى للدفاع عنه فقبلت مبدئيا .. ولكثرة أعمالى اشركت معى بعض المحامين

وفى أثناء التحقيق فى هذه الدعوى سافر السلطان حسين الى بنى سويف وزار محكمتها ، ومر بغرفة المحامين ، وتحدث معهم . وجاء ذكر عبد العزيز فهمى ، وكنت وقتئذ نقيبا للمحامين ، فقال كلاما خلاصته :

— أن عبد العزيز فهمى رجل طيب ، غير انى الاحظ انه قبل الدفاع عن رجل حرامى

بلغنى هذا الكلام ، فأنكرت على السلطان أن يتدخل فى شئون القضاء ، وأن يقول ذلك على مسمع من المحامين وفى دار المحكمة . ولانى وقتئذ كنت عضوا فى المجلس الحسبى العالى ، وكان رئيسه هو رئيس محكمة الاستئناف يحيى ابراهيم باشا ، فقد ذهبت اليه واحتججت على ما بدر من السلطان ، ثم قدمت له استقالتى من عضوية المجلس الحسبى ، وهذه العضوية هى الصلة الوحيدة التى كانت تربطنى بالحكومة ، فاضطرب يحيى باشا لهذه الاستقالة ورفض قبولها قائلا : « انه ليس هو الذى عيننى فى تلك العضوية ، بل مجلس النظار » فطلبت اليه ان يرسل الاستقالة الى المجلس ، فأبى ورد الى ورقتها فأخذتها وكتبت لرياسة مجلس النظار باصرارى عليها ..

ولما كان السلطان حسين مصابا وقتئذ بضعف شديد ، فقد استدعاني رئيس الوزارة حسين رشدى باشا ، وراجعني فى أمر استقالتي .. وأعرب أنها فى الظرف الحاضر تكون شديدة الوقع على نفس السلطان لمرضه ، وأخذ على عاتقه تسوية المسألة باصدار بلاغ من الحكومة ينشر فى الصحف ويفيد الاعتذار عما حدث .. وفعلا نشر هـــذا البلاغ فى « الاهرام »

وفى أثناء التحقيق فى القضية ظهرت مســـــألة كان « فيلبيدس » قد رواها لى على وجه لا يطابق الواقع ، فلم تطاوعنى نفسى على الاستمرار فى الدفاع ، فاعتذرت وتولى القضية غيرى من المحامين

فؤاد الاول ومشروع بيرونيت

توفى المغفور له السلطان حسين كامل ، وتولى العرش بعده السلطان فؤاد الاول ـ الملك فؤاد فيما بعد ـ ولم تكن صلتى به تتجاوز حد الرسميات

وكانت سنة ١٩١٨ ، وكان فى مصر يومئذ مستشـــار انجليزى لوزارة الحقانية يدعى « برونيت » ، وكان قبل اشتغاله بالقانون مهندسا ، ثم درس الحقوق وحصل على شهادتها وتولى منصب المستشار ، ووضع وهو مستشار لوزارة الحقانية مشروعات قوانين لتوحيد القضـــــاء الاهلى والمختلط

وانتدب لدراستها وتحضيرها نهائيا لجانــــا مؤلفة من بعض رجال القانون ، واذ كان من ضمن هذه المشروعات قسم خاص بنقابة المحاماة ، فقد انتدبنى عضوا فى لجنـــة هذا القسم ، فلما قرأته ، وجدت فيه تمييزا للمحـــامين

بالمحاكم المختلطة على المحامين الاهليين ، فلم اوافق عليه ٠ فدعاني « برونيت » الى مكتبه بالوزارة ، وأخذ يناقشني في شأن المشروع ، وكان مما قاله عن مشروعات التعديل التي تشمل القسم المذكور : « ان الانجليز يريدون الغاء الامتيازات الاجنبية ، ويهدفون الى ابعاد الاجانب عن التدخل في تشريع البلاد » ، ومع تحبيذي لفكرة الغاء الامتيازات بوجه عام فقد صممت على أن النصوص الموضوعة للقسم الخاص بنقابة المحاماة بعد توحيد القضاءين هي نصوص لا أوافق عليها ولا أشترك في العمل على أساسها لما فيها من ذلك التمييز الذي أشرت اليه ٠٠ « ولما وجد مني هذا الاباء قال لي : « انه يود أن يقابل أعضاء مجلس النقابة الاهلية ليتناقش معهم » فخشيت ان يؤثر على بعضهم ٠٠ فجمعت أنا المجلس وعرضت على اعضائه الموضوع وما دار بيني وبينه ، فانتهى المجلس بالموافقة على رأيي ، وقرر بالاجماع رفض المشروع بصيغته الموضوعة٠٠

وكان لرفضي مشروع « برونيت » ، ولموافقة زملائي على هذا الرفض ضجة في جميع الاوساط ، وخاصة الاوساط الرسمية والقانونية

وقد لفتت هذه الضجة نظر السلطان فؤاد ، فقد كان يعني بمسائل التشريع ، ويهتم بالبحوث القانونية والعلمية فرغب في أن أقابله

وكان من اللائذين به المرحوم امين يحيى بك (باشا) فجاءني يوما يدعوني الى مقابلة السلطان

فقلت له : « إني أشكره ولكني أود أن تكون دعوتي حسب التقاليد المرعية بخطاب من ديوان التشريفات »

فقال أمين باشا :

ــ مافيش داعي ياأخي ، حليك ظريف

فقلت له : « هب أننى ذهبت الى السلطان ، وسألنى : من دعاك ؟ ! »

فعاد أمين يحيى وأبلغ السلطان فؤاد هـــذا الحديث ، فحضر عندى فى اليوم التالى حسن عبد الرازق باشـــا ، وكان وكيلا لديوان عظمة السلطان ، فدعانى الى المقابلة ، فأجبته بما أجبت أمين يحيى • وبعد يومين ، جاءنى أحد رجال التشريفات بخطاب كتب فيه :

« بناء على طلبكم مقابلة عظمة السلطان ، قد تحددت لكم الساعة •• » الى آخر ما ورد فى هذا الخطاب

فقلت له : « انى مطلوب للمقابلة ، ولست طالبا لها ، فكيف تكتبون (بناء على طلبكم ؟) »

فقال : « هذا هو البروتوكول • وليس فى استطاعتنا تغيير البروتوكول »

وذهبت لمقـــابلته ، فحدثنى عن مشروع « برونيت » ، وأفضيت بما دار بينى وبين المســتشار الانجليزى ، وكان شديد الاهتمام بهذا الموضوع ، وكان يتحدث بحماســة ويتمنى أن يجد فى مصر من يدافعون عن مصـــالحها فى جرأة وشجاعة ، ومما قاله لى :

ــ اننى أود أن أرى فى مصر رجالا مخلصين ، يطالبون بحقوق وطنهم ، ويتسمون بالاخلاص والنزاهة والجرأة فى هذه المطالب

أحمد حشمت باشا

قدمت أنه كان لوالدى ســـتة أخوة ذكور •• وهؤلاء الاخوة لم يكن لهم الا أخت واحدة هى والدة عبد الخـــالق

مطاوع • وكانوا جميعا يكتبون ويقرأون ، وأكبرهم سنا يدعى «محمد» وهو اكبر من والدى وعاش الى نحو سن التسعين ، وتوفى سنة ١٩٢٤ ، وكان فى حياته يشتغل بالتجارة ، الا إنه لم يكن من كبار التجار • أما الخمسة الذين بعد والدى ، فهم المرحوم الشيخ عمر وقد درس الفقه بالازهر ، ويليه المرحوم أحمد حشمت باشا ، ثم على بك عمر • وكان هذا فى آخر عهده وكيلا لمديرية الجيزة ، وهو والد عبد المجيد عمر باشا وزير الاشغال الاسبق

ويلى على بك ، الشيخ ابراهيم •• وقد أقام طول حياته بقريتنا ، اذ كان يشتغل بالزراعة • ثم يأتى أصغر اخوة والدى ، وهو المرحوم حسين بك عمر • وكان قاضيا بالمحاكم الاهلية ومستشارا قضائيا بديوان الاوقاف • وقد خلف أولادا ، أكبرهم محمد حسنى عمر بك السكرتيرالعام لوزارة الخارجيه الاسبق ، فقد كان أحد اعضاء البعثة العلمية التى أرسلتها الحكومة المصرية الى فرنسا فى عهد المغفور له الخديو اسماعيل ، بعد أن أتم دراسته فى مدرسة الادارة والترجمة (مدرسة الحقوق) سنة ١٨٧٤

وقد بقى فى فرنسا سبع سنوات متواليات ، حصل خلالها على اجازة ليسانس الحقوق ، ودرس الادب الفرنسى دراسة متينة •• وحفظ الكثير من مؤلفات كبار الادباء الفرنسيين مثل « لامارتين » و « كورنى » و « موليير » و « راسين » ، وكان مولعا بالادب ، محبا للادباء ••

وأذكر أنه لما وجد أن المرحوم عثمان جلال ترجم رواية « ترتوف » لموليير ، باسم « الشيخ متلوف » أعجب حشمت باشا بهذه الترجمة ايما اعجاب ، لمطابقة الاسم للشخصية التى تكلم عنها فى الرواية • ولما عاد الى سنة ١٨٨١ ، اتصل به الشيخ عبد الخالق المهدى ابن الشيخ عباس المهدى ، وحفنى ناصف بك • وكانا ملازمين له ، ومن

خاصة أصدقائه الاقربين .. وقد تولى فى أول حياته الحكومية وظيفة مندوب قلم قضايا الحكومة عن محافظة القاهرة ، وكانت تدعى وقتئذ « ضبطية مصر » . ولما أنشئت المحاكم الاهلية ، كان أول من تولى منصب « الافوكاتو العام » ، وهو المنصب الذى يلى مباشرة منصب النائب العام ..

وبعد أن مكث زمنا فى النيابة والقضاء الاهلى ، أختير مديرا لجرجا ، ثم لاسيوط ، ثم للدقهلية ، خلفا لعدلى يكن باشا الذى نقل وقتئذ الى الغربية ..

وقد تولى حشمت باشا الوزارة خمس مرات ، لا مرة واحدة .. فهو من أكثر الرجال الذين تولوا الحكم ، سواء أكان فى ادارة الاقاليم ، أم فى مناصب الوزارة .. فقد عين وزيرا للمالية لاول مرة فى وزارة بطرس غالى باشا فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وكان فى هذه الوزارة : حسين رشدى باشا وزيرا للحقانية ، وسعد زغلول باشا وزيرا للمعارف ، ومحمد سعيد باشا وزيرا للداخلية

ولما تولت وزارة محمد سعيد باشا فى فبراير سنة ١٩١٠ خلفا لوزارة بطرس باشا غالى ، اختير فيها وزيرا للمعارف حتى سنة ١٩١٣ حين عدلت هذه الوزارة ، فنقل وزيرا للاوقاف ، وكان أول وزير تولى هذه الوزارة عند انشائها فى ٢٠ نوفمبر من تلك السنة ، كانت تدعى وقتئذ « نظارة » وبقى ناظرا لها الى ان استقالت وزارة سعيد باشا فى سنة ١٩١٤ ..

ثم كانت لجنة الدستور التى ألفت فى سنة ١٩٢٢ ، فاختير حشمت باشا نائبا لرئيسها ، وبقى بها حتى أتمت مهمتها

ولما تولت الحكم وزارة يحيى ابراهيم باشا ، وهى

الوزارة التى أصدرت الدستور المصرى فى أوائل سنة ١٩٢٣ ، أختير حشمت باشا وزيرا للخارجية فيها ، وبقى فى هذا المنصب من ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ حتى ٦ أغسطس من تلك السنة حين عدلت الوزارة فنقل وزيرا للمالية حتى يناير سنة ١٩٢٤ ..

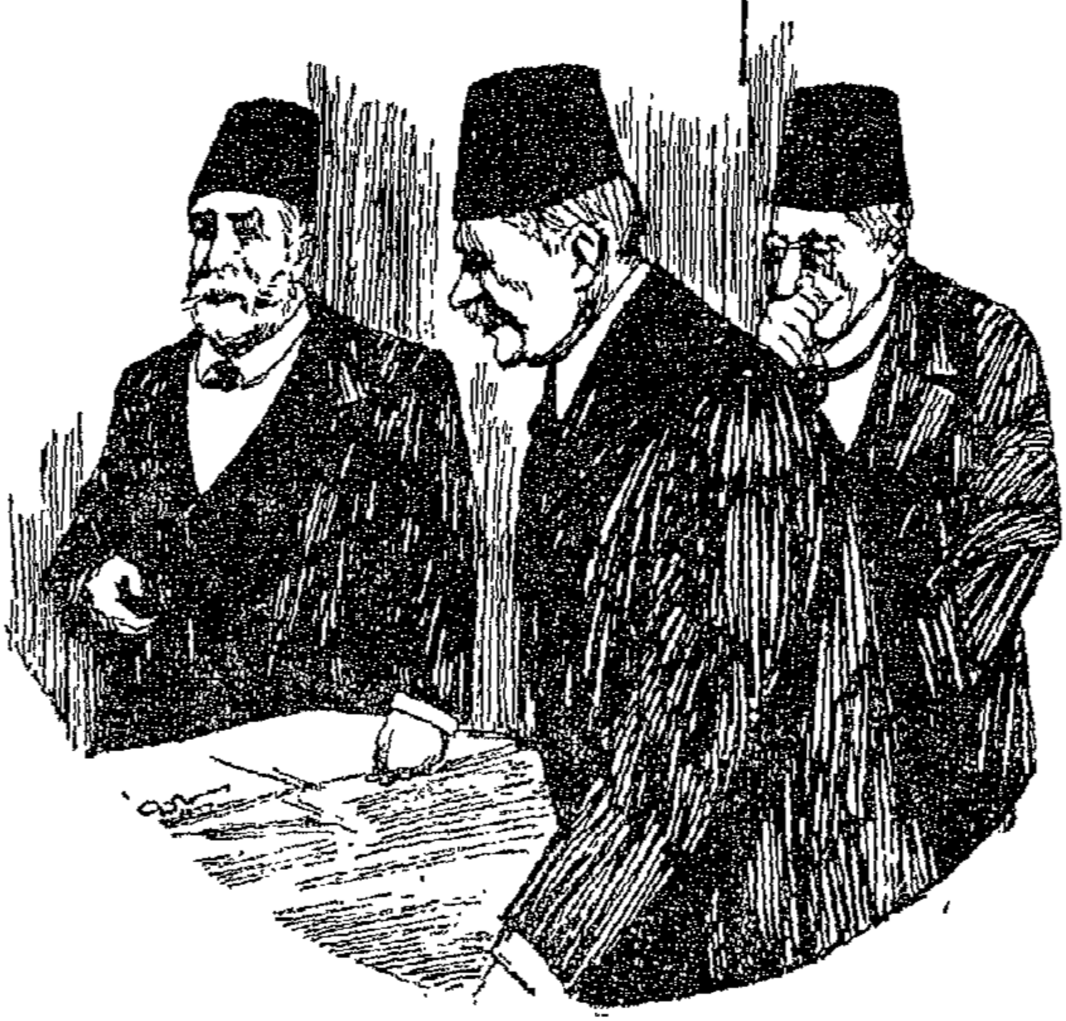
تلك هى المناصب الادارية والوزارية التى تولاها حشمت باشا .. وقد كان الى جانب ذلك يرعى الادب العربى وأدباءه ، وهو الذى اختار حافظ ابراهيم وكيلا لدار الكتب المصرية ، وطبع على نفقته الخاصة ديوان « ابن الرومى » وحث حافظا على ترجمة كتاب « البؤساء » لفيكتور هوجو .. كما كلفه هو وخليل مطران بك بترجمة كتاب فى الاقتصاد السياسى الى العربية ، وعمل فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية التى كان دعامتها صديقه المرحوم حسن عاصم باشا

وقد توفى سنة ١٩٢٦ فرأى ابنه الاكبر حسن أن يحقق رغبة أبيه فى مساعدة هذه الجمعية ، فأوقف عليها أربعين فدانا بالفيوم من نصيبه فى تركة أبيه

ورزق حشمت باشا بولديه : حسن ، ومراد ، وبابنته فاطمة التى توفيت سنة ١٩٠٩ ، وربى ولديه فى مصر وانجلترا أحسن تربية

الفصل الرابع

تأليف الوفد المصرى



دش بارد

على اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى ، اتجهت الاذهان الى مصير مصر التى رزحت تحت نير الحماية البريطانية .. تلك الحماية التى فرضت عليها كرها من أجل هذه الحرب ، وخشى رجالات مصر أن تنقلب الحماية الى ضم نهائى ، فتصبح مصر جزءا من الامبراطورية البريطانية ، وذات يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩١٨ كنت مع صديقى أحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول ، ومحمد محمود ، خارجين من مجلس ادارة الجامعة المصرية القديمة .. فلما جاوزنا بابها ، واتجهنا الى الجهة القبلية نحو ميدان الفلكى ، اعترض محمد محمود باشا سبيلنا واضعا عصاه أمامنا فى عرض الرصيف وقال :

ـ الى أين تذهبون ؟! اننى أريد أن نتحدث فى مصير مصر .. لقد انتهت الحرب وستحصل الهدنة ، ولابد من النظر فى تأليف وفد كى يسافر للمطالبة بحقوق البلاد ..

وقد سرنا نحن مع محمد محمود باشا الى منزل والده ، وأرسلنا الى على شعراوى باشا ، فحضر الينا .. وفى اثناء وجودنا معا بسلاملك المنزل استعاد سعد زغلول من محمد محمود باشا بيان مايريد ، فكرر ماسبق له قوله من ضرورة السعى للحصول على حقوق البلاد ، وتأليف وفد للعمل لهذه الغاية .. فأبى سعد زغلول موافقته على ذلك قائلا :

ـ ان الوقت غير منـاسب لأن الانجليز منتصرون ، وعددهم ومعداتهم كثيرة تملأ البلاد .. وهذا وضع لاأمل معه فى الحصول على شىء منهم ..

ثم استطرد سعد قائلا :

ـ أرى الاولى من ذلك أن تؤلف جمعية يســاعد أعضاؤها بعضهم بعضا ..

فنزل علينا هـذا الكلام كدش بارد ، فأمسـكنا عن الحديث .. وانصرف سـعد باشا الى بيته ، وانصرفنا نحن ، وكان أكثرنا حنقا المرحوم على شعراوى باشا ، فانه لما خرجنا من منزل محمد محمود وقف أمامه فى الشارع ، وقال بلهجة صـعيدية عبارة لا محل لذكرها تدل على تغيظه وحنقه ..

سعد يعود

وبعد ذلك انصرف كل منا الى حاله ، وقطعنا النظر عن مسألة تأليف وفد .. ولكن لم يمض الا قليل حتى أرسل لنا سعد باشا نفسه يدعونا الى الاجتماع عنده ، وفتح لنا بيته واسعا رحبا ..

وهنا يسأل سائل : لماذا عاد سعد فدعانا للبحث فى تأليف الوفد ؟

والجواب عن ذلك أنه عقب اجتماعنا فى منزل محمد محمود باشا ، ذهب سعد باشـا الى نادى محمد على كعادته .. فالتقى فيه بحسين رشدى باشا ، وعدلى يكن باشا ، وروى لهما ماكان من أمر اجتماعنا وحديثنا فى منزل محمد محمود .. وما كان من رده علينا ورفضه موافقتنا على تأليف الوفد ، فعتب عليه رشدى باشـا وعدلى باشا ، وخطآه فى رأيه ، وقالا له :

ـ انك اخطأت ، لاننا نحن والسلطان فؤاد متفقون على السفر لاوربا للمطالبة بحقوق مصر .. ومن المصلحة أن يكون الى جانبنا فريق من الامة يدافع عن حقوقها ، نعتمد عليه لاخذ شيء من الانجليز ..

سمع سعد باشا هذا الحديث من رشدى باشا وعدلى باشا ، فخشى ألا يكون له فى الامر شيء .. فأسرع الى دعوتنا الى منزله ، وفتحه لنا وسيعا مملوءا بالكرم !

الثلاثة الذين قابلوا «ونجت»

توالت اجتماعاتنا ببيت سعد زغلول ، واتفقنا على الاشخاص الذين يتألف منهم الوفد . ولما كان سفر الوفد فى ذلك الحين يقتضى تصريحا به من السلطة الانجليزية التى بيدها الاحكام العرفية ، فقد اتفق اخواننا على ندب ثلاثة منهم لمقابلة السير « ونجت » لاستصدار التصريح منه ..

وهؤلاء الثلاثة هم : سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ..

ومما تجب ملاحظته هنا ان اختيار هؤلاء الثلاثة ، انما وقع بطريق المصادفة والاتفاق .. والا فباقى اخوانهم ، فيهم من هو أكفأ فى النضال المنطقى ، وأولى بالسفارة مثل رجلنا الكبير أحمد لطفى السيد ..

ولعل التقدم فى السن ، كان هو السبب الطبيعى الذى ادى الى اختيارهم

***

ومما تجب ملاحظته أيضا أن المرحوم محمد محمود باشا كان شديد التحمس لهذه الفكرة ، مبعثه اليها وطنيته الصادقة وتغيظه من الانجليز بسبب حادثة كانوا

اثاروها ظلما ، وترتب عليهـا خروجه من منصب مدير البحيرة .. هذا الى أنه ابن محمود باشا سليمان الذى كان اذ ذاك ، أكبر وجهاء الصعيد سنا ، وجميعهم كانوا يعتبرونه أمثلهم ومن الغيورين على حقوق الوطن ..

أما لطفى السيد ، فكان متحمسا بطبعه لأنه كان من مبدأ الامر مشتغلا بالسياسة ، ومتتبعا لمناحى رشدى باشا وعدلى باشا فيما يتعلق بوضع البلاد ومالها من حقوق يغمطها الانجليز .. زد على ذلك أن والده المرحوم السيد باشا أبو على كان ـ بحسب اعتقادى ـ أرجل رجل عصامى رأيته فى مديرية الدقهلية ..

وأما على شـــعراوى ، فكان كما يعلم الجميع اكبر شخصية يغار لنبله ومحتده ومركزه ـ على الاحتفـــاظ للبلاد بحقوقها ، خصوصا وهو ابن أخت سـلطان باشا الذى يعلم الجميع أنه كان اكبر رجل فى الصعيد من عهد الخديو اسماعيل باشا ..

***

وفى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ـ وهو يوم الهدنة ـ طلبنا من سير « ريجنلد ونجت » المعتمد البريطانى فى مصر تحديد ميعاد لمقابلته ، فحدد لنا الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ نوفمبر

تدخل الامير عمر طوسون

وفى هذه الاثناء علم الامير عمر طوسون بما اسـتقر عليه رأينا ، فحضر الينا يوم ١٢ نوفمبر سـنة ١٩١٨ واجتمع معنا بمنزل سعد باشـا ، وقال لنا بلسـان الغاضب :

ـ كيف تستقلون بعمل وفد للنظر فى قضية البلاد ؟

. . ان الاولى ــ كما ارى ــ ان يقام اجتماع عام يشترك فيه جميع ذوى الراى ، وهم الذين يقررون تأليف الوفد الذى يريدونه .. وخير الامور ان تدعوا الناس الى اجتماع يعقد بمنزلى بجزيرة بدران يوم ١٦ نوفمبر ، وأن أقوم انا بعمل الدعوة لهذا الفرض

قال الامير هذا ، وطلب تحرير مسودة الدعوة فحررها احمد لطفى السيد ، واخذها الامير على أن يطبعها ويوزعها على من يريد دعوتهم من البيئات المختلفة

ونظرا الى أن السير « ريجنلد ونجت » كان قدحدد لنا يوم ١٣ نوفمبر للمقابلة ، وهو ثانى يوم مجىء الامير عندنا ، فقد اتفقنا على الا نتكلم معه فى الشأن الاساسى الذى طلبنا مقابلته من اجله ، بل يكون كلامنا خاصا بثقل الاحكام العرفية وضرورة تخفيف وقعها على الناس

بين الزعماء الثلاثة والمعتمد البريطانى

وفى صباح يوم الاربعاء ١٣ نوفمبر ذهبنا الى دار المعتمد البريطانى ، فقابلنا السير « ريجنلد ونجت » مقابلة استغرقت ساعة كاملة ، ودار بيننا وبينه الحديث الذى دونته بعد الاجتماع فى محضر أودعته بين أوراق الوفد ، وهو :

بدأ جنابه الكلام قائلا : « ان الصلح اقترب موعده ، وان العالم يفيق بعد غمرات الحرب الذى شغلته زمنا طويلا وان مصر سينالها خير كثير ، وان الله مع الصابرين ، وان المصريين هم اقل الامم تألما من اضرار الحرب ؛ وانهم مع ذلك استفادوا منها اموالا طائلة ، وان عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت سببا فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم »

فأجابه سعد باشا : « ماتقول أن انجلترا فعلته من خير لمصر ، فان المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر » وخرج من ذلك الى القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق الا تنظيف آثاره • وانه يظن ان لا محل لدوام الاحكام العرفية ، ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، وان الناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنوات

فقال جنابه انه حقا عمل لازالة المراقبة المذكورة ، وانه تخابر فعلا مع جناب القائد العام للجيوش البريطانية فى هذا الصدد • ولما كانت هذه المسألة عسكرية ، فانه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع جناب القائد سيكتب الحكومة البريطانية ، ويأمل الوصول الى مايرضى • ثم استطرد قائلا : « يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت انجلترا من مؤتمر الصلح ، فانها تلتفت لمصر ومايلزمها ولن يكون الامر الا خيرا »

فقال سعد باشا : « ان الهدنة قد عقدت ، وان المصريين لهم الحق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم •• ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ماهو الخير الذى تريده انجلترا »

فقال : « يجب الا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم ، فان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة »

فقال سعد باشا : « ان هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد بها »

فقال : « أريد أن اقول ان المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر »

فقال سعد باشا : « لا استطيع الموافقة على ذلك .. فانى ان وافقت أنكرت صفتى . فانى منتخب فى الجمعية التشريعيه عن قسمين من أقسام القاهرة . وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى انتخابى . وكذلك كان الامر مع زميلى على شعراوى باشا وعبد العزيز بك فهمى »

فقال جنابه : « انه قبل الحرب كثيرا ماحصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله فى الحزب الوطنى . وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها ، فماهى أغراض المصريين ؟ »

فقال على شعراوى باشا : « اننا نريد أن نكون أصدقاء الانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر »

فقال جنابه : « اذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟! »

فقال سعد باشا : « ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الامم المستقلة ؟ »

فقال جنابه : « ولكن الطفل اذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم تخم »

فقال عبد العزيز فهمى بك : « نحن نطالب بالاستقلال التام ، وقد ذكرتم جنابكم ان الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد فأقول لجنابكم ان الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال وكل البلد كانت تطلب الاستقلال . وغاية الامر أن طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها مايؤخذ علينا . وذلك راجع الى طبيعة الشبان فى كل جهة .. فلأجل ازالة الاعتراض الوارد على طريقة الحزب الوطنى فى تنفيذ مبدئه الاساسى الذى هو مبدأ كل الامة وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لايظن

نيهم التطـرف فى الاجراءات وأسســـوا حزب الامة وأنشأوا صحيفة « الجريدة » وكان مقصدهم أيضـا الاستقلال التام . وطريقتهم أخف فى الحدة من طريقة الحزب الوطنى . وذلك معروف عند الجميع . والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض . ونحن فى طلب الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه ، فان أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الاســود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثا »

فقال جنابه : « ولكن نسبة الاميين فى مصر كبيرة ، لا كما فى البلاد التى ذكرتها ، الا الجبل الاسود والالبان على ما أظن »

فقال عبد العزيز بك : « ان هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الامم ، فان لمصر تاريخا قديمـــا باهرا وسوابق فى الاستقلال التام وهى قائمة بذاتها .. وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحـدة ، وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوافرة فى مصر . ومن جهة نسبة الاميين للمتعلمين ، فهـذه مسألة لا دخل لها فى الاستقلال كما قدمت ، لان الذين يقودون الامم فى كل البلاد أفراد قلائل .. فانى أعرف أن لانجلترا — وهى بلاد العظمة والحرية عند أهلهـا — ثقة كبرى بحكومتها ، فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها ، هى تتبعهم بلا مناقشـــة فى كثير من الاحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم . وكذلك مجلس نوابها ليس كل أفراده متعلمين ، وانمـــا المتعلم منهم فئة قليلة . فبلاد مصر يكفى أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بادارتها كما ينبغى وهى مستقلة استقلالا تاما .. ونحن عندنـــا كثير من المتعلمين بدليل أن أولى الحل والعقد نسمع منهم فى كثير من الاحيان أن التعليم

زاد فى البلد حتى صارت فيها طائفة من المتعلمين العاطلين . وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم اذا غذى بأزيد من اللازم ، فاسمحوا لى أن أقول ان حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا التشبيه . بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الاطباء استحال عليهم أن يعرفوا من انفسهم موقع دائه ، بل هو نفسه الذى يحس بألم الداء ويرشد اليه .. فالمصرى وحده هو الذى يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف ومايفيده من الاشغال العمومية فى القضاء وغير ذلك ، فالاستقلال التام ضرورى لرقينا »

فقال جنابه : « أتظنون أن بلاد العرب وقد اخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟ »

فقال عبد العزيز بك : « ان معرفة ذلك راجعة الى المستقبل .. ومع ذلك فان كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل قد أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك »

فقال جنابه : قد كانت مصر عبدا لتركيا .. أفتكون أحط منها لو كانت عبدا لانجلترا ؟! »

فقال شعراوى باشا : « قد أكون عبدا لرجل من قبيلة الجعليين ، وقد أكون عبدا للسير ريجنلد ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الجعلى .. ومع ذلك لاتسرنى الحالتان لان العبودية لا أرضاها ، ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلها . ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الاحرار لا صداقة العبيد »

فقال جنابه : « ولكن مركز مصر ، حربيا وجغرافيا ، يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا »

فقال سعد باشا : « متى ساعدتنا انجلترا على

الاستقلال التام ، فاننا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين أية دولة من استقلالنا أو المساس بمصلحة انجلترا .. فنعطيها ضمانة فى طريقها للهند وهى قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء ، بل ونحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ماتستلزم المحالفة من الجنود »

ثم قال شعراوى باشا : « يبقى أمر آخر عند هذا الحد ، وهو حقوق أرباب الديون من الاجانب .. فيمكن بقاء مستشار المالية الانجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى »

فقال سعد باشا : « نحن نعترف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية ، وأنا نعترف لها بالاعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر .. فنطلب باسم هذه المبادىء التى ذكرت الآن أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر . واننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك ، بصفتك ممثلا لهذه الدولة العظيمة . وعند الاقتضاء فسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الامور فى انجلترا فلا نلتجىء هنا لسواك ، ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية . ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر ، مطلعا على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب »

فقال جنابه : « قد سمعت أقوالكم ، وانى اعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفة حبية ، فاننى لا أعرف شيئا من أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد . وعلى كل فانى شاكر زيارتكم وأحب لكم الخير »

فشكرناه على حسن مقابلته وأنصرفنا ..

بيت الامة

وكان الامير عمر طوسون قد عاد الى الاسكندرية ، وأخذ يهتم بارسال الدعوة الى اعضاء الجمعية التشريعية ، وأعضاء مجالس المديريات والى الاعيان وكبار القوم والمشتغلين بالقضية المصرية للاجتماع بقصره بجزيره بدران . وبينما كان منهمكا فى ارسال الدعوات وتحضير الاجتماع ، علم « السلطان » فؤاد بما يعتزمه الامير ، وما يقوم به فى هذا الشأن ، فلم يرض عن تدخله فى أعمال الوفد ، وأمر رشدى باشا بأن يمنعه .. فاتصل بالامير ، وأبلغه أن الحكومة قررت منع الاجتماع، فحضر سموه وقابل رئيس الوزارة ، ولكن رشدى باشا أكد له قرار الحكومة .. وعلى ذلك أوقف الاجتماع ..

كان السلطان فؤاد يريد أن تظل الحركة شعبية لا أثر لذى جاه فيها ولكن الامير عمر على الرغم من ذلك عاد بعد الغاء الاجتماع ، وولى وجهه شطر هيئة أخرى وأخذ يعقد اجتماعات بفندق شبرد مع بعض اعضاء الجمعية التشريعية وأعضاء الحزب الوطنى

ومما أذكره هنا ، انه بينما نحن مجتمعون بمنزل سعد باشا اذ حضر عندنا اثنان من الحزب الوطنى لعلهما مصطفى بك الشوربجى ومحمد زكى على « بك » باشا ، وأخذا يعترضان على استقلالنا بتأليف الوفد دون تفكير فى الحزب الوطنى وغيره . فلما وجد سعد باشا جرأة فى اعتراضهما وتشددا فى رأيهما ، قال لهما ما معناه : «كيف تعترضان على عمل نعمله فى بيتى الذى أنا حر فيه ؟! »

فقال أحدهما ، وأظنه « مصطفى الشوربجى » : «هذا البيت ليس الآن بيتك ، هو « بيت الامة » .. »

وهذه الكلمة التى ألقاها الشوربجى بك أصبحت

الاساس الذى انبنى عليه فيما بعد تسمية منزل سعد باشا بهذا الاسم ..

هذا ، ولما وجدنا أن الامير عمر طوسون ومن معه من أعضاء الجمعية التشريعية والحزب الوطنى قد وصل بهم الامر الى تأليف وفد آخر الى جانب وفدنا .. وكانت هذه الفكرة موجبة للانقسام والتخاذل خصوصا أن فريق الامير طوسون الذى يناوئنا كان فيه اسماعيل صدقى باشا ـ وهو رجل كان من أكبر الشخصيات وأعلمهم بحال البلد وأقدرهم على نفعها بعلمه وكفايته ـ فقد تدبر فيها وفدنا وعمل على ازالة ضررها ، وذلك بأن اتفقنا على فكرة ترضي الجميع ، وهي تقريرنا بأن كل من كان عضوا فى الجمعية التشريعية يكون عضوا فى وفدنا ، واذ كان محمد سعيد باشا وصدقى باشا وسينوت حنا بك أعضاء فى الجمعية التشريعية ، فقرارنا يرضيهم .. وكما أن أظهر عضو فى الحزب الوطنى اذ ذاك كان المرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى ـ وكان عضوا فى الجمعية التشريعية ـ فاذا دخل وفدنا بمقتضى ذلك القرار كان فى وجوده التمثيل الكافى للحزب الوطنى

رياسة سعد للوفد

ولما قررنا هذا القرار ، واتفقنا عليه كلفنا سعد باشا أن يذهب الى فندق شبرد ، ويبلغه الامير ومحمد سعيد ومن معهما .. فلما هم سعد باشا بالخروج لتنفيذ ذلك خرج وراءه محمد محمود باشا ، ثم عاد بعد قليل وقال لنا : « انى خرجت لابصر سعد باشا بأمر هام .. ذلك ان محمد سعيد باشا كان رئيسا للوزارة ، ولم يكن سعد معه الا وزيرا فقط .. فخشيت انه اذا دخل وفدنا ، فربما تاقت نفسه الى القول بأن له رياسة الوفد . فأنا

قلت لسعد باشا : « اننا لا نقبل أن يكون سعيد باشا رئيسا ، بل أنت الرئيس للوفد »

فلما قال لنا محمد محمود باشا هذا القول ، ثبت من وقتها سعد باشا على فكرة رياسته للوفد .. !

وهي فكرة لم تتردد قبل بيننا ، فان خطتنا كانت جعل الرياسة لاكبر الاعضاء سنا حسب الاقتضاء !

وكنت أنا شخصيا أمانع فى اسناد الرياسة اليه لسبب يقتضينى الادب الا أذكره تفصيلا ..

الفصل الخامس

الوفد
وكيل الأمة



الوفد وكيل الامة

تألف الوفد المصرى ، وبدأ ينهض بمسئولية الدفاع عن حقوق البلاد ، ويسعى لرفع الحماية البريطانية . وتحقيق الاستقلال ..

ولكنه أراد ان يدعم مركزه فى الجهاد ، وأن يبرهن للانجليز أنه وكيل عن الامة ينطق بلسانها .. فضلا عن الصفة النيابية التى كانت لأكثر أعضائه فى الجمعية التشريعية ، ففكر فى امضاء توكيل له من جميع هيئات الامة - النيابية منها وغير النيابية - ومن ذوى الحيثيات وأهل الرأى فى البلاد ، فوضع توكيلا لهذا الغرض جعل صيغته فى البدء كما يأتى :

« نحن الموقعين على هذا الاعضاء بالجمعية التشريعية قد أنبنا عنا حضرات : سعد زغلول باشا ، وعلى شعراوى باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، ومحمد اعلى بك (علوبة باشا) وعبد اللطيف المكباتى بك ، ومحمد محمود باشا ، واحمد لطفى السيد بك ، - ولهم أن يضموا اليهم من يختارونه - فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا - فى استقلال مصر استقلالا تاما »

نوفمبر سنة ١٩١٨

ثم رؤى تغيير نص التوكيل بنص آخر ، زيدت فيه عبارة تدل على اعتماد المطالبين بالاستقلال على مبادىء الحرية والعدل التى تنادى بها وقتئذ دول الحلفاء . وهذا هو نص الصيغة الثانية للتوكيل :

« نحن الموقعين على هذا ، الاعضاء بالجمعية التشريعية ، قد أنبنا عنا حضرات : سعد زغلول باشا ، وعلى شعراوى باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، ومحمد على بك « علوبة باشا » وعبد اللطيف المكباتى بك ، ومحمد محمود باشا ، واحمد لطفى السيد بك ـ ولهم أن يضموا اليهم من يختارونه ـ فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا لمبادىء الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب »

وكانت الفكرة متجهة بادىء ذى بدء الى الاكتفاء بتوقيع اعضاء الجمعية التشريعية على هذا التوكيل ، لانهم بصفتهم النيابية يعبرون عن رأى الامة بأجمعها ، ولكن بعض ذوى الرأى من الامة من غير هؤلاء الاعضاء أرادوا أن يشتركوا فى التوقيع على هذا التوكيل

زد على ذلك أن نبأه اتصل بالناس ، واهتموا به .. فرأى الوفد أن يعرض التوكيل على الهيئات الاخرى ، فسارعت الى امضائه ، وأخذ الاقبال يزداد على التوقيع عليه من جميع الطبقات ، فطبعت منه نسخ عديدة ، وأرسلت الى جميع أنحاء القطر ..

يمنعوننا من السفر

ولا أريد أن أعرض لما هو معروف من حوادث ذلك الحين . ولكنني أشير الى ما لابد منه مما يعنى فى هذه الذكريات .. ذلك اننا كلفنا صديقنا المرحوم حامد فهمى بك الذى كان محاميا بالزقازيق بالسعى فى توقيع أعيان مديرية الشرقية على ورقة توكيل ارسلناها له . فلما أخذ الجمهور فى التوقيع عليها تصدت له السلطة العسكرية لهذا التوكيل ، واصدرت امرها بمنع الناس

من التوقيع عليه ، فشكا لنا حامد بك من هذا .. فكتبنا خطابا الى دولة رئيس الوزراء حسين رشدى باشا محتجين على هذا التصرف ، فأجابنا رشدى باشا بأنه برىء من هذا المنع وان الذى أمر به انما هو مستشار الداخلية الانجليزى الذى بيده السلطة الفعلية فى الاحكام العرفية . وعلى الرغم من ذلك المنع الرسمى ، تواترت التوقيعات بدون ان تعرف السلطة العسكرية وسيلة لمنعها .. اذ كان المنع داعيا لاقبال الناس عليها فى الخفاء وارسالها سرا الى الوفد

وفى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ طالبنا من السلطة العسكرية ان تمنح أعضاء الوفد ورئيسه جوازات سفر الى أوربا للمطالبة بحقوق البلاد ، فأجابت القيادة العليا للجيوش البريطانية بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من سفرنا .. فبعثنا خطابا لفخامة السير « ريجنالد ونجت» نشكو فيه من هذا الخطر، فرد علينا بخطاب عن طريق سكرتيره الخاص بالنيابة « ج . س . سميث » يقول فيه أنه كلف من قبل فخامة المعتمد السامى البريطانى باخبارنا بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومته ، انه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية فى هذا الموضوع . وانه آذا كانت لدينا اقتراحات بخصوص كيفية الحكم فى مصر ، مما لايخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك واعلنتها من قبل ، فالافضل ان مثل هذه الاقتراحات تقدم كتابة الى فخامته

وقد اجبناه على ذلك بخطاب تضمن انه ليس فى وسع الوفد المصرى ان يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الامة المصرية المعبر عنها فى التوكيلات التى اعطيت لنا :

وبأن سفرنا الى انجلترا لا نريد منه الا ان نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للامة الانجليزية ، والاشخاص الذين يتولون توجيه الرأى العام الانجليزى الذى لا شك فى تأثيره على القرارات الحكومية ..

وقلنا ايضا فى هذا الخطاب « وسنعتنى على الخصوص بأن نجعل وجهتنا الرأى العام . ونحن واثقون بأن نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على روح العدالة والحرية ومبدأ حماية حقوق الضعفاء »

وفى الوقت نفسه ، بعثنا خطابا الى رئيس الوزارة رشدى باشا نخطره بمنع السلطة لنا من السفر ، ونرجوه ان يصرف همته لتيسير سفر الوفد المصرى . فاهتم رشدى باشا ، وضم صوته الينا طالبا من السلطة العسكرية السماح للوفد المصرى بالسفر ، غير ان الحكومة البريطانية رفضت هذا الطلب

رشدى باشا والانجليز

وكان رشدى باشا من ناحية أخرى ، قد رفع فى ذلك الحين الى عظمة السلطان تقريرا يبين فيه لعظمته ما قر عليه رأيه من السفر الى انجلترا مصحوبا بعدلى باشا للغاية نفسها . وذلك طبعا تنفيذا للفكرة الاساسية التى كانت قائمة من قبل فى نفس عظمة السلطان ورجال حكومته ، من ارادتهم السفر لاوربا للمطالبه بحقوق لبلاد . وقد جاء فى هذا التقرير ما يأتى :

حضرة صاحب العظمة السلطانية

« أن الحوادث تتوالى سراعا .. وستبدأ مفاوضات الصلح ، ويشرع فى تسوية جميع المسائل التى اثارتها

الحرب . ومن أهم الامور ان نبسط آراء عظمتكم وآراء حكومتكم فى مصير مصر السياسى لحكومة صاحب الجلالة البريطانية مباشرة . ولذا اقترح على عظمتكم ان تعهدوا الى والى زميلى عدلى باشا بهذه المهمة ..

« وسينوب عنى سرى باشا فى رياسة مجلس الوزراء اثناء غيابى ، وينوب عنى ثروت باشا فى وزارة الداخلية ؛ وينوب زيور باشا عن عدلى باشا فى وزارة المعارف »

وقد استصوب السلطان فؤاد هذا الاقتراح ، وطلب رشدى باشا من السير ريجنلد ونجت ان يبلغ طلبه هذا لحكومته .. ولكن الحكومة الانجليزية ابت السماح له بذلك محتجة بأن الوقت لا يسمح الآن لهذه الزيارة وان الفرصة ليست ملائمة للتكلم فى هذه المسائل. فكان هذا الرفض لسفره وسفر زميله عدلى باشا معه ، ثم رفض سفرنا ايضا ، مما جعل رشدى باشا يقدم استقالته من الوزارة ..

اعتقال زملائنا الاربعة

توالت الحوادث بعد ذلك وقدمنا الاحتجاجات الى المعتمد البريطانى ، والى ممثلى الدول الاجنبية حتى كان يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ ، وهو اليوم الذى اعتقل فيه زملاؤنا الاربعة : سعد باشا ، واسماعيل صدقى باشا ، ومحمد محمود باشا ، وحمد الباسل باشا ، ونفوا الى مالطة ..

ولم يكن اعتقال زملائنا الاربعة بمانع لنا عن السير فى طريقنا .. بل اسرع باقى اعضاء الوفد الى الاجتماع برياسة وكيل الوفد وقتئذ ، على شعراوى باشا ،

وارسلنا برقيـة الى مستر لويد جورج رئيس الحكومة البريطانيـة نحتج فيها على اعتقال زملائنـا ، وختمناها بقولنا : « اننا سنستمر فى الدفاع بكل الطرق المشروعة عن قضية البلاد العادلة »

وفى الوقت نفسه ارسلنا الى معتمدى الدول الاجنبية بمصر بيانا نبسط فيه ما حدث ، ونعلن ان هذه الشـدة لن تمنعنا عن متابعة السير فى الدفاع عن بلادنا ..

وفى اليوم التالى ، وجهنا الى عظمة السـلطان فؤاد كتابا نشكو فيه من تصرف السلطة العسكرية مع رجال الوفد ..

خطاب الى السلطان

وقد جاء فى هذا الخطاب :

«ياصاحب العظمة ..

« يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى برفع ما يلى لمقام عظمتكم السامى ..

« قبلتم استقالة الوزيرين رشدى باشا وعدلى باشـا، ففهمنا ان هذا ربما كان الحل الوحيد لمسالة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلدكم الاسـيف ، وأنه حل لا يسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية ، ان يقبل تأليف الوزارة ما دام الوزيران المستقيلان علقا سحب استقالتهما على امر سفر الوفد . وقد عرضنا لسـدتكم العليـة متضرعين أن تتعرفوا رأى الامة قبل البت نهائيا فى هـذا الامر ، وان تبدو للامة آية من آيات ما جبلتم عليه من حبها ، فتكونوا فى صفها مدافعين عنها لتنال غرضها ..

« تضرعنا بذلك الى مولانا ، ولبثنا متطلعين بكمال الثقة

الى ان ابن اسماعيل الجالس على عرش محمد على الكبير سيرينا من نفحاته ما يحقق الامل

« غير انه لم يمض يومان حتى استدعتنا السلطة العسكرية فى ٦ مارس وأبلغتنا انها علمت أننا نضع مسألة وجود الحماية موضع البحث ، وأننا نلقى العراقيل فى سبيل الحكومة المصرية بمحاولة منع تأليف الوزارة ، وأنذرتنا بالعقاب العسكرى الشديد ان أتينا عملا يرمى الى تعطيل سير الوزارة .. ثم منعتنا من مناقشتها فى هذا البلاغ ..

« لم تصب السلطة فى رأيها ، فان هذه الحماية باطلة . ولكل انسان الحق المطلق فى أن يضعها تحت البحث والمناقشة القانونية ..

« وأما عدم نجاح الحكومة فى تأليف الوزارة ، فهو النتيجة الطبيعية للخطة التى اتخذت فى مسألة سفر الوفد .. فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة فى هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده ..

« ولم يقف الامر عند هذا الانذار ، بل قبضت السلطة العسكرية على رئيسنا سعد زغلول باشا ، وزملائنا محمد محمود باشا ، وحمد الباسل باشا ، واسماعيل صدقى باشا .. وزجوهم فى قصر النيل ، ثم سيق بهم الى بور سعيد ، فالى حيث لا نعلم

« وذنبنا فى ذلك اننا نطلب حريتنا السياسية ، طبقا للمبادىء الشريفة التى اتخذت قاعدة للسياسة العالمية الجديدة ، والتى قبلتها انجلترا نفسها . واننا لم نتعد القانون ، فلم نهج فى البلاد طائرا ، ولم نحرك ساكنا .. بل قبلنا توكيل الشعب ايانا كى نصدع بأمره ، ونسعى

لتحقيق مشيئته عند الذين يقولون أنه لم يبق فى العالم شعب سيد وشعب مسود ، بل العالم فى الاخاء الانسانى سواء

« على هذا الاعتبار يصعب علينا يا مولاى أن نفهم مبررا لهذه الخطة القاسية التى جرت عليها السياسة الانجليزية تحت ثوب الاحكام العسكرية .. تلك الاحكام التى لا ندرى مسوغا لوجودها الى الان بعد الهدنة بأربعة أشهر ، وبعد أن امتحنت مصر فى أشد ظروف الحرب حرجا .. فلم يكن منها الا الطاعة للاوامر العسكرية من غير بحث ، والا اخلاد الى السكينة لم يوجد مثله فى بريطانيا العظمى نفسها ..

« اليكم يا صاحب العظمة ، وانتم تتبوأون اكبر مقام فى مصر ، وعليكم اكبر مسئولية فيها .. نرفع باسم الامة امر هذا التصرف القاسى ، فان شعبكم الآن يحق له ان يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية بأن تقفوا فى صفه مدافعين عن قضيته العادلة .. »

خداع الانجليز وغدر الرئيس ولسن

كان اليوم الذى رفعنا فيه هذا الخطاب الى عظمة السلطان ، وبعثنا فيه باحتجاجاتنا الى رئيس الوزارة البريطانية والى معتمدى الدول الاجنبية فى مصر ، هو يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ .. وهو اليوم الذى تأججت فيه الثورة المصرية على نحو ما هو معلوم ..

وهنا يجب ان نشير الى ان كافة محررات الوفد باللغة العربية من وقت تأليفه ، كان يقوم بها صديقى أحمد لطفى السيد باشا . وما كان يحرر باللغة الفرنسية كان

يقوم به اسماعيل صدقي باشا من وقت دخوله في الوفد هذا وفي أوائل ابريل سنة ١٩١٩ — سمحت لنا السلطة البريطانية بالسفر الى أوربا ، ففي اليوم الحادى عشر من ذاك الشهر خرجنا لركوب القطار من محطة القاهرة .. وكان يوما مشهودا ، غصت فيه الميادين والطرق بآلاف المودعين . ولما قارب موعد القطار القى الاستاذ محمد أبو شادي خطابا بليغا في توديعنا ، ورد عليه أحمد لطفي السيد بكلمات قيمة نالت استحسان الجميع . ومما اذكره عن ذلك اليوم ، اننا ونحن بمحطة السكة الحديد على اهبة ركوب القطار ، ادركنا مصطفى النحاس بك « باشا » فسافر معنا .. وهنا اذكر انه لما اشتد نزاع الحزب الوطني لنا عرضت انا على اخواني في الوفد أن نضم الينا حافظ عفيفي ومصطفى النحاس اللذين كانا من اعضاء الحزب الوطني ، فقبل الوفد تزكيتي اياهما وقرر ضمهما فصارا منذ ذلك التاريخ اعضاء فيه ..

ركبنا الباخرة الى مرسيليا .. وفي الطريق عرجت بنا على جزيرة مالطة التي اعتقل فيها الانجليز سعد باشا وزملاءه محمد محمود ، واسماعيل صدقي ، وحمد الباسل ، فأخذناهم معنا الى أوربا

وهنا لا يفوتني أن أذكر ان الانجليزي خصم في السياسة بارع .. فلقد ظهر لنا أنهم لم يسمحوا لنا بالسفر ، ولم يفرجوا عن اصحابنا الذين كانوا معتقلين في مالطة الا بعد ان استوثقوا من مساعدة أكبر دولة في العالم اذ ذاك — وهي دولة امريكا ورئيسها ولسون — ذلك الرجل الذي لبس للعالم ثوب المتعبد الزاهد رياء ونفاقا . وكانت مبادؤه الاربعة عشر هي السبب الاهم في هياج المصريين ، وسعيهم الى الانتصاف من الانجليز ، وتشبثهم بالغاء الحماية ..

تلك الحماية التى تناقض أظهر مبدأ من مبادىء ولسون وهو حق كل امة فى تقرير مصيرها . .

ومهد الانجليز لانفسهم السبيل ، واستوثقوا من ولسون بحيث أننا لم نكد نصل الى مرسيليا حتى قرأنا فى التلغرافات العمومية ان امريكا ــ وفى مقدمتها رئيسها ــ وافقت على الحماية البريطانية على مصر . .

ضربة شديدة صوبها الينا هذا الخصم الانجليزى المحنك . .

ضربة مؤلمة اصابتنا فى الصميم لمجيئها من أهم جهة كنا نأمل منها الخير والانصاف ، لا هذا البغى والاجحاف

تحملنا هذه الضربة ، ولم نقطع الامل . . بل منينا أنفسنا بأن أعضاء مؤتمر الصلح ربما كانوا فى جملتهم أكرم نفسا ، وأصفى وجدانا من أمريكا ورئيسها ولسون امام الغاوين المغررين . .

مندوب انجلترا يمزق مذكرة الوفد

فلما ذهبنا الى باريس ، لبثنا عدة اشهر نطرق ابواب مؤتمر الصلح ونقدم اليه المذكرات تلو المذكرات . . ولكن لا حياة لمن تنادى . .

وفى النهاية ادركنا أن بباب المؤتمر رجلا ، كلما قدمت له ورقة نظر اليها . . فان كانت من وفود الامم الضعيفة كمصر وسوريا والترنسفال وأمثالهم ، ألقاها فى سلة المهملات ، ولم يعرضها على أحد . فلما تبين لنا ذلك عزمنا أن نعمل مذكرة ، نكتب منها صورا بعدد أعضاء المؤتمر ، ونرسلها لهم مباشرة . . وفعلا أعددنا عدة نسخ من مذكرتنا ، وأرسلناها الى كل عضو بعنوانه الخاص . .

وانتظرنا أثر هذه المذكرة عندهم .. ولكن شد ما كانت دهشتنا من تصرف المندوب الانجليزى فى هذا المؤتمر ، فانه ما كاد يقرأ المذكرة المرسلة اليه حتى شطب على كل صفحة من صفحاتها بالقلم الاحمر ، ومزقها نصفين ثم اعادها الينا بالبريد .. !

كانت صدمة شديدة ، وعملا غريبا غير لائق من دبلوماسى يمثل دولة كبيرة محترمة . واثر هذا الحادث فى نفس كل منا ، حتى أذكر ان المرحوم حمد الباسل باشا ، ثارت نفسه ، وقال بلهجته البدوية :

ـ والله اروح اعمل معه دويل « أى مبارزة »

ولم تقف مضايقة الانجليز لنا فى باريس عند هذا الحد .. بل كانوا متفقين مع وزارة الخارجية الفرنسية على وضعنا تحت مراقبتها الخاصة ، فى حين أن وفود الامم الاخرى كانت تحت المراقبة العادية

لجنة ملنر

مضى علينا فى باريس نحو سنة على هذه الحال .. وفى أثناء ذلك ، حضرت الى مصر لجنة ملنر ، وقوبلت من البلاد بالمقاطعة .. وبعث لنا رشدى باشا وعدلى باشا مع على ماهر بك « باشا » تقريرا ضافيا عن مقاطعة البلاد بالاجماع للجنة ملنر ، وتأكد لها أن الوفد هو وكيل الامة وأن على اللجنة ان تتجه اليه ..

فلما وصلنا هذا التقرير ، واطلعنا على مافيه ، شد من ازرنا واعاد الينا الامل ، وتشجعت نفوسنا .. وظننا ان لجنة ملنر ستأتى الينا ضارعة خاضعة ..

انتظرنا مرور اللجنة بباريس عند عودتها من مصر الى انجلترا . ولكن ما كان اشد عجبنا حين مرت بالعاصمة

الفرنسية ، ولم تعرنا التفاتا ، ولم تشعرنا بأنها تعلـــم بوجودنا ..

غير أن أحد أعضائها ــ ويدعى ســير بويل ــ وكان من قبل موظفا بالوكالة البريطانية بمصر ويعرف محمد باشا ووالده محمود سليمان باشا ــ أرسل اليـــه من محطة السكة الحـــديد ببطاقة ذكر فيهـا أنه كان بمصر ورأى والده محمود سليمان باشا ، وأنه بخير ..

ولم يزد .. !

الفصل السادس

انقسام الوفد



مقاطعة لجنة ملنر

قدمت فى الفصل السابق أن لجنة ملنر قوطعت مقاطعة تامةمن جميع هيئات الامة ،ورفضت كل هيئةأن تتفاهم معها ، وقالت مصر لها بلسان واحد : ان الوفد فى باريس هو وكيلها • واذا كان هناك من تريد محادثته أو مفاوضته ، فلتذهب اليه فهو وحده المختص بالبحث فى مصير البلاد ••

واذا كان الانجليز قد سدوا الابواب أمامنا فى مؤتمر الصلح ، وأقاموا فى وجوهنا العراقيل ، فقد دب القلق فى نفوسنا ، ورأينا أن لا محيص من الاستنجاد بعدلى يكن باشا •• فبعثنا اليه نطلب منه الاسراع بالحضور الينا بباريس ، فأرسل عدلى باشا الينا تلغرافا يقول فيه ماحاصله « انه يكون سعيدا لو بعثنا اليه بخطاب تفصيلى عن واقع الحال » • فأجبناه بتلغراف نقول له فيه ما حاصله : « آننا نكون سعداء برؤيته فى أقرب فرصة لتبادل الآراء »

فلم يسع عدلى باشا الا أن يستجيب لنا ، ويحضر الى باريس ••

عدلى باشا مع الوفد

وصل عدلى باشا الينا فى أواخر ابريل سنة ١٩٢٠، فأطلعناه على الموقف الحرج الذى كنا فيه • وكان لعدلى مركز معروف بين رجال السياسة ، وقد كانوا يوقرونه لكياسته

وحذقه وما عرف عنه من اصـــالة الرأى والادب الجم ..
فأخذ يبحث بباريس حتى عثر على رجل انجليزى اســمه « أزموند » كان ضابطا من ضباط الخيالة الانجليز فى حرب الترنفسال وكبا به الحصـــان ، فانكسر عظمه . فصار أعرج . وقد رآه كثير من المصريين فى مصر . وكنا نسميه « عثمان » !

فلما عثر عليه عدلى باشا بباريس ، أرسله من قبله الى اللورد ملنر بانجلترا ليخبره أن المجاملة السياسية تدعو الى أن يتصل بالوفد ، ويتحادث معه .. فلم يكد رســول عدلى باشا يقابل اللورد ملنر حتى جاءنا من قبله الى باريس سير سسل هيرست الذى كان عضوا بلجنته يدعونا للذهاب الى مقابلة اللجنة بلوندره

سررنا بهذا الخبر عندما اجتمع بنا سيرسســل . ثم قال لنا وهو يودعنا ماحاصـــله : « اننى أعلم أن الوفـد يكتب دائما الى مصر بما يتفق له من الحوادث والاخبار ، وانى ارجــــو ألا يذكر فى خبر مجيئى اليكم اننى جئت بصفتى مستشار قضائى وزارة الخارجية الانجليزية ، بل يذكر فقط اننى عضو بلجنة ملنر »

خرج سير سسل ، وأرســلنا الى مصر نبأ دعوة ملنر للوفد لمفاوضته بانجلترا . وقد حدثت فى الوفد حول ارسال هذا النبأ مناقشات لا أهمية الآن لذكرها ..

سفر الوفد الى لندن

رأينا أن نستجيب لمقابلـــة ملنر بانجلترا .. ولكن لبعض الاسباب ، عدنا فقررنا أن تسافر أولا طليعـــــة من الوفد لتستوثق من أن محادثاتنا ، ومفاوضـــاتنا مع

اللجنة ، لن تكون الا على أساس الغاء الحماية • وكانت هذه الطليعة مؤلفة من : « عدلى يكن ، ومحمد محمود ، وعلى ماهر ، وعبد العزيز فهمى »

سافرنا فعلا نحن الاربعة الى لوندره ، وقابلنا اللورد ملنر ولجنته • وأخذ عدلى باشا فى اجتماعنا ، يستعلم من ملنر عن الاساس الذى ستكون عليه مفاوضات الوفد •• وصارحه بأنها لابد أن تكون على أساس « الغاء الحماية » ••

فرد علينا ملنر قائلا :

ـ ان لجنتنا ليست هى التى وضعت الحماية على مصر •• ومهمتها هى المحادثة معكم فيما ترغبون ، فأنتم أحرار فى أن تقولوا ما تريدون ، وان تطلبوا لامجرد الغاء الحماية فقط ، بل وضع أيديكم على شىء من أملاك الانجليز • وكل ما تقولونه سيدون ويرفع للحكومة الانجليزية •• وهى ـ دون لجنتنا ـ صاحبة الشأن فى تقرير ما تراه »

ولما فرغ الحديث عند هذا الاساس ، تباطأ عدلى باشا وتردد فى عرض شىء (١) كان يقلقه ، ثم أكره نفسه ، فقال لملنر :

ـ إن باقى اخواننا الموجودين بباريس مستعدون

---

(١) تعمقنا فى البحث عن هـذا « الشىء » الذى لم يرد عبدالعزيز فهمى باشا ان يصارح به فعلمنا انه هو طلب«التأمين» اذ كان سعد باشا قد اقترح ضرورة تأمين الانجليز اياه على نفسه قبل ان يذهب الى انجلترا حتى لايحدث منهم ماسبق ان أتوه من اعتقاله ، وكان عدلى باشا يرى ان عرض مثل هذا الطلب لاتسمح بـه العلاقات الدولية .. ولكنه كان مضطرا لعرضه تنفيذا لرغبة سعد ، ولعل لسعد باشا عذرا فى ذلك بسبب الحالة النفسية التى كان عليها اذذاك بعد اعتقاله ، فالنفس البشرية لا تلدغ من جحر مرتين ...!

للحضـــــور لمقابلتكم ٠٠ ولكن أرجو اذا حضروا أن تكون لهم الحرية فى الرجوع ٠٠

أدرك ملنر ما يرمى اليه عدلى باشا بتلك العبارة ، فاستشاط غضبا ، وضرب المنضدة بيده ٠ وقال بلهجة شديدة :

ـ ما هذا ؟ ٠٠ هل نحن فى القرون الوسطى ؟ ٠٠ ان هؤلاء الناس أحرار فى المجىء وعدمه ، وأحرار ـ متى جاءوا ـ فى الرجوع الى حيث يشاءون ٠٠ بل انى سأنبه بألا تكون على مراســـــلاتهم البريدية أو التلغرافيه أية مراقبة ، بل انى سأصرح لهم بأن تكون لهم شـــــفرة خاصة يتخاطبون بها مع أية جهة بلا أدنى رقيب

مقابلة الوفد لملنر

بعثنا لاخواننا بخلاصةماحدث ، وطلبنا منهمالحضور ٠٠ فحضروا ، وتوالت اجتمــــاعاتنا مع ملنـر ولجنته ، ودارت بيننا وبينهم مناقشات طويلة حتى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٠ ثم وضع ملنر مشروعه المعروف للاتفاق ، فلم يوافق عليه الوفد ٠٠

وهنا ليسمح لى أن أقول ان الوفـــد كان قد كلفنى بدراسة هذا المشروع ، فدرسته وقدمت له فى اكتوبر سنة ١٩٢٠ ملاحظاتى عليه فى مذكرة طويلة

وكان قد رأى أن يستشير الامــــة فى مشروع ملنر ، فانتدب أربعة من أعضائه للســــــفر الى مصر ٠٠ وهم : « محمد محمود ، ولطفى الســيد ، وعلى مـــــاهر ، وعبد اللطيف المكباتى »

سافر هؤلاء الزملاء واتصلوا بهيئات الامة ، وأطلعوها

على المشروع .. فأبدت تلك الهيئات رغبات أوتحفظات تريد ادخالها عليه . فلما عاد الينا اخواننا عرضنا تلك التحفظات على لجنة ملنر .. وكان ذلك فى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ ، فلم يقبل الانجليز تغيير شىء فى مشروعهم الاول ، وأفهمونا أن المرحلة التالية هى مرحلة مفاوضات رسمية تجرى معمن تعينهم الحكومة المصرية ..

وفى ١٠ نوفمبر سافر الوفد من لندن الى باريس ، وبعث بنداء تاريخى الى الامة المصرية كتبه صديقى أحمد لطفى السيد الذى كان وحده هو الذى يحرر وقتئذ كل كتابات الوفد باللغة العربية ..

وهذا هو نص النداء :

أيها المواطنون الاعزاء ..

« لقد رفعتم منذ عامين عن كبريائكم القومى ذلك العبء الذى يثقل كاهله ..

«وبصيحة الاستقلال اعلنتم فى وجه العالم بأسره حقكم فى الحياة .. وما زلتم من ذلك اليوم تثبتون انكم جديرون بأمانيكم الوطنية . وجاءت نتيجة الاستنارة برأيكم فى مشروع الاتفاق مثبتة أن الاستقلال ليس فى نظركم كلمة تردد فى الفضاء بغير معنى .. بل انتم تريدون استقلالا حقيقيا خليقا بكم ، وبمستقبلكم الذى سيرسل غدا اشعته الوضاءة على مصر الحرة ..

« هذا الاستقلال سنحصل عليه باتحادنا ، وبروح التضحية والايمان بأنفسنا وبعدالة قضيتنا المقدسة ايمانا هادئا صادقا .. فلتحيى مصر »

تلغراف الى جريدة يسبب استقالة

وصلنا الى باريس بعد أن فشلت مفاوضاتنا مع ملنر ولجنته .. وفي ذلك الحين نشرت جريدة « الاخبار » تلغرافا من مراسلها أحمد افندى نجيب ينسب فيه الى عدلى باشا انه يسد الابواب فى وجه الوفد ، ويضع العراقيل فى سبيل المفاوضات ، كما نشرت بعد ذلك تلغرافا آخر من أحد أعضاء الوفد حاصله : « ان عدلى باشا كارثة على الوفد »

وهذان التلغرافان محزنان كما هو واضح . وقد صادف عقب ذلك انى سمعت من صديقى على ماهر ما جعل ذمتى تتحرج ، فلم أجد للتفريج عن نفسى سوى الاستعفاء من الوفد ، والسفر الى مصر

قصة التلغرافين

«عدلى» يثور .. و «سعد» يعاتب «النحاس»

لما رجع الوفد من لندن الى باريس عقب فشل المفاوضات التى أجراها مع لجنة ملنر ، بعث الى جريدة « الاخبار» بمصر مراسلها فى باريس الاستاذ احمد نجيب تلغرافا يقول فيه : « ان عدلى باشا يكن يسد الابواب فى وجوه الوفد ، ويضع العراقيل فى سبيل المفاوضات » فأرسل اسماعيل صدقى باشا صورة هذا التلغراف الى عدلى باشا ..

وبينما كان الوفد مجتمعا بمقره بباريس ، اذ بعدلى باشا يدخل عليه ووجهه مربد ، وقد تجهمت أساريره ، واحمرت عيناه ..وفى يده ورقة القاها امام سعد وزملائه

على المنضدة بشدة ، ونظر اليهم قائلا :

ـ من منكم قال انني خائن لبلادى ؟ .. من منكم اشتغل للبلد أكثر مما اشتغلت وتعب اكثر مما تعبت ؟!

فدهش أعضاء الوفد لسماع هذه العبارات ، واستفهموا منه عن مبعثها ، فقال لهم :

ـ اقرأوا هذا التلغراف

فتناولوه ، فاذا به تلغراف من اسماعيل صدقى باشا يتضمن فحوى تلغراف أحمد نجيب . ثم قال لهم عدلى باشا :

ـ هل أنا الذى اسد الابواب فى وجه الوفد ، وأضع العراقيل فى سبيل المفاوضات كما قيل فى هذه البرقية؟ الستم انتم الذين استدعيتمونى لافتح لكم ابوابا كانت مغلقة ، وقد جاهدت حتى فتحت لكم فعلا ؟

فأجابه سعد باشا :

ـ ما لنا ولاحمد نجيب ؟ انه مكاتب جريدة ، ولا شأن لنا به ..

وعند ذلك قام سينوت حنا الى غرفة السكرتيرية التى كان بها وقتئذ الاستاذ احمدنجيب ،ثم اخذ سعد باشا يقول لعدلى باشا :

ـ اولم تكن تذهب لمقابلة ملنروغيره من الانجليز،ولا تخبرنا بما دار بينك وبينهم ؟! ..

فرد عدلى باشا عليه قائلا :

ـ انت ياشيخ تريد أن تضع مبدأ قاضيا بان كل مصرى يقابل انجليزيا ولا يخبر اخوانه المصريين بما كان حديثهما، فان هذا المصرى يكون خائنا لبلده .. ما هذا الكلام ؟!انى

كنت أقابل ملنر ، وغير ملنر فى دواوينهم ، ونواديهـــم ، وبيوتهم . ولكن مقابلاتى انما كانت لاقناعهم بأحقية مصر فى مطالبها . وكثير من هذه المقـــابلات كانت بنـــاء عن رجائكم اياى ! ..

فسكت سعد قليلا ثم قال :

ــ أو ليس انى واياك قابلنا ملنر يوما فى ديوانه ، وبدأ يتكلم معنا بالفرنسية ، ثم خرج من الفرنسية الى الانجليزية التى لا أعرفها ، فتكلم معك بها . ولما انصرفنا من عنـــده أوصلتنى انت بسيارتك الى الفندق الذى أقيم به . ولم تسمح بأن تخبرنى بما قاله لك بالانجليزية ! ..

فاستشـــاط عدلى باشا غضبا ، ورد على سعد باشـــا قائلا :

ــ وهذه قاعدة أخرى تريد أن تضعها .. وهى ان كل مصرى يتكلم مع انجليزى بالانجليزية أمام مصرى آخـــر لا يعرفها ، فان كلامه يكون معناه الاتفاق مع الانجليز على ما يضاد مصلحة مصر .. ماهذه القواعد التى تضعها ؟! ولماذا لاتكون حسن النية ، فتقدر ان ملنر قال لى شيئـــا يغمنى ، ويغم مصر ، فاردت أن احتمل الغـــم وحدى ولا أشركك فيه ؟ !

ولما انصرف اعضاء الوفد ، ركب عبد العزيز فهمى باشا مع سعد باشا فى سيارته وأخذ يسأله فى الطريق عما اذا كان له علم سابق بهذا التلغراف ، فنفى سعد علمـــه به نفيا باتا ..

وما كاد يمضى بعد ذلك يوم أو يومان حتى دخل محمد محمود باشا على أعضاء الوفد وأتى عملا يشابه ما كان من عدلى باشا

وكان بيده ورقة تلغراف وارد اليه من والده محمود سليمان باشا ، حاصله انه يستعلم منه عن حقيقة موقف عدلى باشا . فقد نشرت جريدة « الاخبار » تلغرافا اخر واردا اليها من مصطفى النحاس « بك » يقول فيه :

« ان عدلى باشا كارثة على الوفد » وأطلع محمد محمود باشا زملاءه على هذا التلغراف . وكان مصطفى النحاس « بك »جالسا معهم ، فقال له سعد وقد رأى امتعاض أعضاء الوفد من هذا الحادث :

ـ طيب قلنا ان احمد نجيب مكاتب جورنال ، لا شأن لنا به .. ولكنك انت يا مصطفى بك عضو فى الوفد . فما هذا التلغراف ؟!

فرد مصطفى « بك » النحاس قائلا :

ـ انه تلغراف خصوصي سرى .. أرسلته لامين بك الرافعى لتوجيه سياسة الجريدة . ومع ذلك ، فانه ليس نصه ما ذكر فى البرقية الواردة الى محمدباشا محمود

فقال سعد باشا لمصطفى النحاس (بك) :

ـ انه لاينبغى لاحد من أعضاء الوفد ان يبعث بمثل هذا التلغراف الا بالاتفاق مع الوفد ..

ولما انصرف الاعضاء من قاعة الاجتماع ، ركب سعد وعبد العزيز فهمي السيارة الى فندق الكونتننتال الذى كان سعد نازلا به فى باريس

وفى أثناء الطريق تحدث عبد العزيز فهمي مع سعد فى هذا التلغراف ، وخطره على الوفد ، وسأله عما اذا كان له علم سابق به ، فنفى ذلك أيضا نفيا قاطعا

ولما وصلا الى الفندق جلسا فى فنائه برهة ، ثم دخل

عليهما مصطفى النحاس ، فلما رآه سعد قال له :

ـ تعال يامصطفى بك .. يا اخى ايه التلغراف المهبب ده !..

فرد مصطفى النحاس قائلا :

ـ انه كما قلت لكم تلغراف خصوصى سرى لتوجيه سياسة الجريدة . وقد قلت لكم انه ليس بالنص الوارد فى برقية محمود سليمان لابنه ..

فهز سعد راسه وقال : « هه .. » .. وسكت

وبعد يوم أو يومين ذهب عبد العزيز فهمى باشا الى مركز الوفد ، وبينما هو داخل فى الردهة وجد محمد محمود باشا ، ومحمد على (بك) علوية ، وحمد الباسل باشا ، وعبد اللطيف المكباتى بك جالسين يتحادثون ، ويروى لهم على ماهر (بك) أن سعدا كان له علم بهذين التلغرافين ، وأن مصطفى النحاس (بك) هو الذى كتبهما بالشفرة . وكان على ماهر وقتئذ شديد الاتصال بسعد باشا .. فما كاد عبد العزيز فهمى يسمع ذلك حتى غضب وقام للاستعفاء من الوفد

تلك هى وقائع هذين التلغرافين التى سببت خروجى من الوفد وخروج بعض زملائى ، وعودتهم الى مصر ، كما سأوضحه فى الفصل القادم

الفصل السابع

لماذا..
استقلت من الوفد؟



مناقشتى مع سعد فى الاستقالة

تكلمت فى الفصل الماضى عن الاسباب التى دفعتنى الى الاستعفاء من الوفد المصرى . وأهمها حادث التلغرافين اللذين نشرا فى جريدة الاخبار طعنا فى عدلى باشا ... ذلك الرجل الوطنى الشريف الذى لم يدخر وسعا فى مساعدة الوفد ، والعمل لانجاح القضية المصرية ، والذى استنجدنا به ونحن بباريس ، فحضر الينا وأخذ يسعى جاهدا حتى مكننا من مقابلة لجنة ملنر بلندن ، وفتح لنا أبواب المفاوضة ..

ولقد اقام معنا من شهر ابريل سنة ١٩٢٠ الى آخر نوفمبر من تلك السنة يعمل لمصر ، منفقا على نفسه من ماله الخاص انفاقا يكفى أن اقول بصدده أنه كان يدفع لاجرة مسكنه فقط اثنى عشر جنيها يوميا بلندرة . وكان جزاؤه بعد ذلك ان يتهم فى ذمته ، وأن يطعن فى وطنيته ، ذلك الطعن الذى لم أطق ان أحتمله ، فكتبت فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٠ كتاب استعفاء من الوفد مضمونه : « ان حالتى من جهة الصحة (وغيرها) تضطرنى للعودة الى مصر .. وانى سأعود وانقطع عن العمل الى أن تعود لى القدرة عليه »

وأشرت بكلمة (وغيرها) الى مافى نفسى ، ولم ارد ان أصرح بأكثر من ذلك حتى لا أدع سببا للقيل والقال ، والتنازع والجدال ..

ودفعت بهذا الكتاب لحضرة محمد كامل سليم افندى

سكرتير الوفد ورجوته ان يوصله لسعد باشـــا .. ولما وجدت عليه علائم التأسف من تقـديمى اياه، قلت له ان يخبر « سعد » بأننى سأقابله ..

وفى اليوم التالى ، جاءنى من سعد باشا كتاب يأسف فيه لعزمى على الاستقالة ، ويطلب أن اقابله ..

ذهبت اليه ، ولم يكن بين مسكنى ومسكنه سوى قليل من الخطوات ، فأخذ يناقشنى فى كلمة (وغيرها) التى بكتاب استقالتى .. فضبطت احساسى ، لانى لم أرد ان أدخل معـه فى جدال قد يطول ، وقلت له : « اصرفهـا للشئون العائلية ، أو مزق الورقة ، فانه لا حاجة بى الى تقديمها » . وانصرفت ..

هذا انتحار لى

وفى يوم ٥ يناير سنة ١٩٢١ ذهبت الى مركز الوفـد بناء على طلب اخوانى .. وكان كل الاعضاء وسعد باشا حاضرين ، فوجدتهم فى حالة قلق وانفعال . وهم وسعد متخالفون متشادون بسبب المركز الحـرج الذى كان الجميع فيه ، فاقترحت بعد بيان طويل توجيه نداء للامة ـ لامكان السير فى المرحلة الثانية التى اشار اليهامشروع ملنر ـ يتضمن الحث على الاتحاد ، وتجديد الثقة بعدلى باشا ليكون ذلك علاجا لحالة الانقسام الموجودة بالبلاد ، وليمكن تعيين وزارة ثقة لتدخل المفاوضات متى أمكنها الحصول على تصريح من الانجليز بالغاء الحماية ..

وافقنى خمسة من الاعضاء على هذا الاقتراح ..وقبل ان يبدى العضوان الاخران رأيهما ، قال لى سعد باشا :

ـ أهذا اقتراحك يا أستاذ ؟

قلت :

ـ نعم ...

فقال :

ـ انا لا أوافق عليه .. ومع ذلك ، فليكتب مشروع النداء ، ثم نبحثه بعد ..

كتب أحمد لطفى السيد النداء متضمنا مبادىء الاقتراح .. وأهم مافيه :

١ ـ ان الوفد متمسك بعدم دخوله المفاوضات الرسمية بالذات الا بعد قبول التحفظات لتكون كلها أساسا للمفاوضات

٢ ـ أما الحكومة ـ وهى غير الوفد ـ فلايجوز لها دخول المفاوضات ، ولا تنال تعضيد الامة الا اذا كان لديها تصريح بأن النص على الغاء الحماية أساس من الاسس التى تبنى عليها المفوضات ..

وفى يوم ٧ يناير سنة ١٩٢١ اجتمعنا وسعد باشا لقراءة هذا النداء الذى حرره لطفى السيد ، فلما سمعه سعد انفعل انفعالا شديدا ، وقال :

ـ انا لايمكننى ان أكتب بالوثوق بعدلى ، لا يمكننى ، لا يمكننى .. ان هذا يكون انتحارا لى ..

وهنا قامت ضجة فى الوفد ، وصاح عبد اللطيف المكباتى قائلا :

ـ اذن هى أمور شخصية .. ماهذا ؟ وهل نحن هنا نشتغل لك أم للبلد ؟..

وكرر المكباتى ذلك ، فاستدرك سعد قائلا :

ـ وانتحار للوفد ..

ثم قال :

ـ اشمعنا ياإخواننا التصريح يجى لعـدلى .. كيف يذهب عملنا لغيرنا .. التصريح يجب أن يكون لى أنا لانى وكيل الامة ..

وأخذ يردد هذا الـكلام .. ثم انفض الاجتمـاع ، وانصرفنا على غير اتفاق

أنا غير محتاج لكم

وفى يوم ٨ يناير سنة ١٩٢١ كتب سعد تلغرافا الى جريدة الاخبار مضمونه « انه من غير المعقول ان تدخل مصر المفاوضة وهى حرة مستقلة ، بل انه يكتفى بتأكيد بوضع نص فى المعاهدة النهائية يتضمن الغاء الحماية »

كتب هذا التلغراف ، وتحدث بما فى معناه الى بعض الجرائد ، فوصفه الناس بأنه « تلغراف المساومة » ، وحاولنا بكل وسيلة أن نحول سعدا عن رأيه فلم نستطع ، وانتهى الامر باخواننا أن رأوا من الضرورة العودة لمصر كى يطمئنوا الافكار فيها ، ويلموا شعثها جهد الاستطاعة ، مصممين على ألا يذكروا فى مصر شيئا ممـا قام من الخلاف ..

وقد توجهوا فعلا ـ وكنت معهم ـ الى مسكن سعد ، فقلت له : « اننا ذاهبون الى مصر لمراقبة الحال ، وتوجيه الامور كما تقضى به المصلحة ، وسنكتب لكم بما نراه أولا فأولا »

فكان جوابه الذى خرق صماخ أذننا :

ـ أنا غير محتاج لكتابتكم ، وأنا مطمئن ..

تركناه وعدنا بعد أن لفتنا نظر على ماهر (بك) الى موقف القضية الذى قد يضر به هذا الخصام ، فقـال ماهر (بك) :

ـ انى سأراقب سعدا هنا .. وان أتى بشىء ، فانى سأستقيل من الوفد

اذبحهم قبل أن يذبحونى

قمنا من باريس مصممين على ألا نشير بكلمة ما الى ماوقع من سعد ، وركبنا الباخرة من مرسيليا فى ٢٠ يناير سنة ١٩٢١ . وكنا خمسة : محمد محمود ، واحمد لطفى السيد ، ومحمد على علوبة ، وحمد الباسل ، وعبد العزيز فهمى . أما المكباتى ، فقد سافر عن طريق أيطاليا .

وفى يوم ٢٣ يناير ـ أى قبل وصولنا الى الاسكندرية بثلاثة أيام ـ جاءنا تلغراف لاسلكى من جورجى خياط بك، مضمونه : « أن سعدا أرسل تلغرافا للجنة الوفد المركزية حاصله انه نبتت فكرة ترمى الى دخول المفاوضات بغير مراعاة الشروط الواردة فى تحفظات الامة ، وأن أصحاب هذه الفكرة يجب الحذر منهم »

قرأنا هذا التلغراف ، فأيقنا ان سعدا ينفذ تهديده ...

ولقد كان حاضرا معنا بالباخرة الى مصر محمد بدر بك ـ وكان من كتاب الوفد ـ وقد أرسل معه سعد باشا نسخة من هذا النداء الذى كتبه أحمد لطفى السيد ليوصلها الى لجنة الوفد بالقاهرة ـ وهو النداء الذى عده سعد انتحارا له ـ فلما رأى بدر بك هذا التلغراف المخالف لما فى النداء الموجود نسخته معه ، لم يسعه الا أن يفضى الينا بأنه حامل لتلك النسخة الوارد بها صراحة أن المفاوضات بين مصر وانجلترا انما تكون على اساس الغاء الحماية ، فقلنا لبدر بك : « احفظ هذه النسخة التي أؤتمنت عليها ، وأوصلها الى لجنة الوفد المركزية

تنفيذا لما كلفت به » . ولما وصلت الباخرة الى الاسكندرية يوم ٢٦ يناير وجدنا جمهورا كبيرا ينتظـــرنا متهيجين متحفزين ، فسكنا غضبهم بقدر ماسمحت به الظروف ..

ثم سافرنا من الاسكندرية الى القاهرة بعد ان خطب بعض اخواننا تطمينا للجمهور . وفى اثناء وجودنا فى القطار قلت لاخوانى :

ـ أنتم الآن اصبحتم ولا قيمة لكم فى مصر .. فاما ان تصيحوا مع الصائحين : « يحيا الرئيس المحبوب » ، واما أن يلزم كل منكم بيته ..

وزدت فقلت :

ـ اما انا فسألزم بيتى .. واذا حضر عندى احـــد وسألنى عن شىء ، فسأقرر له الواقع ..!

ولما وصلنا الى القاهرة ، واطلعت لجنة الوفد المركزية على صورة النداء التى حملها بدر بك اليها ، ووجدت انها تتنافى كل التنافى مع تلغراف سعد السابق الاشارة اليه ، وان مافى هذا التلغراف كله ظلم فى ظلم أرسلت اللجنـة التلغراف تلو التلغراف لسعد كيما يصرح بالحقيقة ويعدل عن هذه المظلمة بتلغراف آخر يرسله للبلد ، فلم يقبل التراجع ومما حدث فى هذا الصدد ان على ماهر بك الذى كان باقيا معه بباريس خاطبه فى شأن هذه المظلمة ، وطلب اليه العمل على ازالة ما انتجه من الاثر السىء ضـد اخوانه الذين سافروا الى مصر ، فلم يكن جواب سعد الا ان قال :

ـ أذبحهم قبل أن يذبحونى .. !

الفصل الثامن

خلاف سعد وعدلى



الغاء الحماية

لزمت بيتى بعد عودتى مع اخوانى من باريس ، وعزمت عزما نهائيا على الانقطاع عن كل عمل فى الوفد .. ولكن اخواننا كانوا أمتن أعصابا ، وأصبر على مضض السياسة ، فلم ينقطعوا عن الاجتماع معا

وبعد نحو شهر - أى فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ - اعلن الانجليز مايفيد أنهم اقتنعوا بأن الحماية علاقة غير مرضية ، وطلبوا من عظمة السلطان فؤاد تعيين مفوضين رسميين للبحث فى العدول عن الحماية الى نظام آخر يضمن لبريطانيا مصالحها ، ويطابق الامانى المشروعة لمصر وللشعب المصرى ..

وكانت هذه هى الفرصة الاولى التى حصلت عليها البلاد نتيجة لمجهوداتها .. أما الفرصة الثانية ، فكانت عند اصدارهم تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

وكلتا الفرصتين أضاعهما على مصر الخلاف الذى قام بين « سعد » وبين « عدلى » كما سأبينه ..

الفرصة الاولى

لما أتى تبليغ ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ توجهت انظار البلاد لتعيين وزارة موثوق بها ، وحصل نقاش طويل فى كيفية تكوينها .. وانتهت الحال بتكليف عدلى يكن باشا فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ بتأليفها ، ففعل ..

قبل تأليف هذه الوزارة ، صادف انى ذهبت لمقابلة عدلى باشا — وأظن أن ذهابى كان بناء على دعوة منه — فوجدت عنده كثيرا من اخوانى يتكلمون فى أمر تشكيله انوزارة للمفاوضة الرسمية مع استدعاء سعد زغلول لهذا الغرض من باريس ، وكأنهم متفقون على ذلك ، فقلت لهم : « اذن تستدعون سعدا على أن يكون وزيرا معكم ؛ لعل المسئولية الوزارية تقفه عند حده »

ثم تركتهم وانصرفت .. وقبيل ذلك كان أحمد مظلوم باشا ، قد تفضل فزارنى وسألنى فى أمر تشكيله للوزارة واستدعاء سعد ، وكان عظمة السلطان قد اتجه اليه قبل اتجاهه الى عدلى فى تأليف الوزارة ، فاجبته بمثل ماقلت من بعد لعدلى وباقى اخواننا ، ولكن الله أراد أن يخطىء عدلى باشا ..

ذلك بأنه لما قبل تأليف الوزارة كتب فى برنامجها الذى نشر على الناس يوم ١٧ مارس سنة ١٩٢١ أنه استدعى الوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول للاشتراك مع وزارته فى العمل ..

الخلاف على الرياسة

حضر سعد باشا ، ولم يكن يصدق أن عدلى باشا يتجاوز له عما فعله فى باريس . وعند حضوره استقبله الناس استقبال الفاتحين ..

رأى أنه لم يبق فى البلد أمير ولا حقير الا هرع لملاقاته .. حتى اخوانه الذين هدمهم من قبل ، بل حتى محمد سعيد باشا — الذى كان هو واشياعه الشغل الشاغل لسعد باشا — كان فى الاسكندرية أول المستقبلين عند رسو الباخرة .. رءوس عالية تنحنى وزينات تقام ،

فزاد ذلك من اعتداد سعد .. فلما جاء دور الكلام عن وفد المفاوضة تشبث سعد بأنه رئيس الامة ، فله رياسة الوفد .. فنبهه عدلى الى أن دعواه خطرة ، لان للأمة رئيسا واحدا وهو اذ ذاك عظمة السلطان فؤاد ، والى أن التقاليد الدولية توجب أن يكون رئيس الحكومة هو رئيس الوفد فى الخارج ..

على الرغم من ذلك ، أبى سعد الا الرياسة .. ولما كانت اجابته الى طلبه مستحيلة ، يأباها كل نظام ، فقد رفضها عدلى . وعندها قامت القيامة .. وبعد أن كان موافقا تمام الموافقة على المفاوضة عاد فعارضها ، وأخذ يخطب ويكتب منحيا باللوم على المفاوضة والمفاوضين قائلا عبارته المشهورة :

ـ ان جورج الخامس يفاوض جورج الخامس

كانت نتيجة هذه الخطب أن قامت عدة مظاهرات واعتداءات بالقاهرة والاسكندرية أضرت بالقضية المصرية أيما ضرر ..

ذلك ان الاجانب جميعا كانوا فى صف المصريين ، فلما قام الهياج فى مايو سنة ١٩٢١ ، خاف قضاة المحكمة المختلطة أن يصيبهم شيء فخاطبوا قناصلهم .. فطلب القناصل الى الوكالة البريطانية أن تعمل على حماية رعاياهم ، والا اتجهوا لدولهم لتتولى هى حمايتهم ، فبمجرد ماطلبوا هذا استغلت انجلترا الموقف . وكان ماكان مما لايجهله أحد ..

سافر عدلى باشا وأعضاء وفده للمفاوضة مع اللورد كيرزون ، فأقيمت أيضا لهم العقبات هناك .. وكان محضر تحقيق الحوادث التى وقعت بالاسكندرية بسبب تلك المظاهرات قد أرسلت صورته للحكومة الانجليزية ، فكان من العقبات التى قامت أمام عدلى باشا فى مفاوضاته

مع الانجليز .. فلم ينجح عدلى ، وقسا الانجليز قسوتهم التى وردت فى مذكرتهم للسلطان فؤاد فى ديسمبر سنة ١٩٢١

ومما قد أذكره أنى سمعت فى ذلك الوقت أن لويد جورج رئيس الحكومة الانجليزية وقتئذ ، اشار فى حديث له مع عدلى الى وجوب نفى سعد .. ولكن عدلى أبى عليه هذا الخاطر اباء تاما ، وأفهمه أن هذا أمر يستحيل أن يوافق عليه ..

ولعل « سعد » ، لو كان قد آزر عدلى فى مهمته ،لكانت الامة المصرية قد حصلت على كثير من أمانيها منذ ذلك الزمن البعيد ..

الفرصة الثانية

لما استعفى عدلى باشا من الوزارة كانت البلاد بعد المذكرة الانجليزية ـ السابق الاشارة اليها ـ فى أحرج المواقف ، خصوصا وأن الانجليز نفذوا مشيئتهم فاعتقلوا سعدا فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢١ . واذ كان لايوجد وقتئذ رجل كفء لتحمل أعباء الوزارة سوى عبدالخالق ثروت باشا ، فقد طلب اليه عظمة السلطان أن يتولاها .. فأبى اباء تاما ، غضبا مما كان من الانجليز مع صديقه الكبير عدلى ، ومن قسوة مذكرتهم الى السلطان ، ومن اعتقال سعد ...

على أن ثروت لم يكن وحده هو الغاضب ، بل كل زملائه وأصدقائه أعلنوا احتجاجهم على نفى سعد (١)

(١) هذا نص خطاب الاحتجاج الذى ارسله الى رئيس الوزارة البريطانية عبد العزيز فهمى، ومحمدمحمود ، واحمد لطفى السيد ، وحافظ عفيفى ، وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة ، وجورج خياط :

كما أعلنوا تحريم قبول الوزارة على كل مصرى ، وأن من يتعرض لقبولها فى تلك الظروف ، فانما يضع خنجرا فى صدر أمته ..

أباها ثروت باشا .. وأذكر انه كلفنى أن أتشرف بمقابلة عظمة السلطان فؤاد ، وان استعطفه حتى يقيله من التكليف بهذا العبء الثقيل ، فتشرفت بالمقابلة ، واستعطفت عظمته ما استطعت ، ومما قلته لعظمته :

ـ ان الامر كان يطيقه ثروت لو أن الانجليز تساهلوا مع البلد فى شىء من المسألة السياسية

ولكن السلطان فؤاد صمم على تكليف ثروت بالوزارة

تصريح ٢٨ فبراير

وفى اثناء ذلك كان ثروت باشا ، وصدقى باشا (بمعونة عدلى يكن باشا) يعالجان المسألة مع اللورد اللنبى الذى كان يستعين بالمستشارين ايموس ، وباترسن ، وكليتون

ولما اقتنع اللورد اللنبى بأحقية مصر فى مطالبها ،

«جناب مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ..
« لما اخفقت السياسة البريطانية فى حمل المصريين على قبول الحماية بأى شكل عمدت الى سياسة الارهاب على طريقة مطردة .. فقد ابعدت السلطة العسكرية اليوم عن القاهرة سعد زغلول باشا وبعض اصحابه، وحظرت عليهم الاشتراك فى أى عمل سياسى خلافا لابسط مبادىء الحرية الشخصية .. فنحن باسم الامة المصرية نحتج على هذا العمل التعسفى ونكرر ان الارهاب لن يثنى الامة عن متابعة مقصدها الاسمى مهما تحملت فى سبيله من صنوف الارهاب .. »

أخذ عى نفســه الدفاع عن نظرية هذين الســياسيين الكبيرين لدى حكومته .. ووطن نفسه على الاستقالة من منصبه ان لم تقبل وساطته . وكثير من الذين ودعوه عند سفره للندرة فى ٣ فبراير ســنة ١٩٢٢ يعلمون أنه قال لثروت باشا ، وهو يودعه :

ـ أخشى ألا أراك بعد اليوم !

وهو يشير الى ماقد يجده من تعنت الانجليز فى لندرة تعنتا ربما أفضى الى استقالته ..

كان اخوان ثروت باشــا وصـــدقى باشــا يعلمون بمساعيهما أولا ، فأولا .. ولم يكونوا واثقين من أنهــا مساع ناجحة ، بل كانوا يظنون أن ثروت انما يتشــدد فيها هذا التشدد كى يتخلص من رغبــة السلطان فؤاد فى تقلده للوزارة . ولكن الله وفقه ، وأنجح مساعيه بما اتخذه لها من الاحتياطات . وأولها اقناع اللورد اللنبى بأحقية المطالب المصرية ، فكانت النتيجــة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

***

وانه ليسهل على من تتبع أدوار القضية المصرية من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢٢ أن يدرك كم كسبت مصر بهــذا التصريح بلا حــرب ولا ضرب ، وكم كان ثروت وصدقى سياسيين بارعين فى استصداره ، اذ :

أولا : الحماية ، والاستقلال ، والدستور .. كل هذه أمور كانت بيد الانجليز ، وكانت من موضوعات المفاوضة ، فهم بذلك التصريح تنازلوا عنها بلا مفاوضة رسمية ولا مقابل ..

ثانيا : ثلاثة من الامور الاربعة المحتفظ بها .. وهى :

١ ـ تأمين المواصلات البريطانية فى مصر

٢ ـ الدفاع عن مصر من كل اعتداء أجنبى أو تدخل أجنبى

٣ ـ حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات

هذه الامور الثلاثة هى مما بيد الانجليز من قبل ، وكانت من الموضوعات المحفوظة للمفاوضة ..

ثالثا : السودان .. كان اللورد ملنر قد استبعده من محادثته مع الوفد المصرى بلندن ، ولم يسمح لا هو ولا أحد من بعده لمصر بالتكلم فيه الا فيما يختص بضمان الماء ، فجعله هذا التصريح من الموضوعات المحتفظ بها ، لا مسألة ماء فقط ..

فتصريح ٢٨ فبراير ألغى الحماية دوليا ..

وأعطى الاستقلال دوليا ..

وأرجع لنا وزارة الخارجية ..

ومكننا من التمثيل الخارجى بلا شروط ولا قيد ..

وخلى بيننا وبين التمتع بالدستور ..

ويسر لنا أن نفاوض بلا قيد ولا شرط على الامور الاخرى المختلف عليها ..

وان ندخل المفاوضة ونحن أحرار مستقلون ..

هذا التصريح من أجل الاعمال السياسية ، يحمد عليه عظمة السلطان فؤاد ، وكل من سعى فيه من ثروت وصدقى وغيرهما ..

تعقيب للرئيس على ماهر

عود الى بدء (١)

تألف الوفد وكنت مديرا للمجالس الحسبية فى وزارة

(١) كانت مجلة «المصور» قد نشرت هذه المذكرات فى اعداد سابقة ، وقد علق عليها السيد على ماهر بهذا التعليق

الحقانية ، وساعدت بكل قوتى فى خدمة الوفد ، فكان اضراب الموظفين ردا على اللورد كيرزن الذى صرح بأن الثورة المصرية لايؤيدها المثقفون ، لان المثقفين — وهم موظفو الحكومة — بعيدون عنها ،وكانت أغلبية المثقفين فى ذلك العهد حقا فى السلك الحكومى ، وأسقطنا بهذا الاضراب الوزارة القائمة ، فلم تبق فى الحكم أكثر من أسبوعين ، اذ لم تجد موظفا يعاونها فى العمل . وذلك لانها عجزت عن أن تضفى على الوفد صفة التمثيل الرسمية للبلاد . وفى عهد الوزارة التالية فصلت من خدمة الحكومة ،وكان الوفد فى باريس فقرر الوفد ضمى الى عضويته على أن ابقى فى مصر ، فبقيت ، وكانت الروح الوطنية قوية والقلوب صافية والضمائر نقية وكلمة البلاد موحدة

وجاءت لجنة ملنر فصادفت مقاطعة اجماعية من الامة وتحدث اليها رشدى وعدلى وثروت بعد تفاهم مع لجنة الوفد لبيان مطالب الامة ولتفسير الغرض من المقاطعة . ودونت لذلك محاضر . وكان لورد اللنبى قد أصدر تصريحا يقرر فيه أن الحماية باقية وانه لايسمح لأحد بمناقشتها فكتبت ردا عليه فى كلمات قوية نشر فى الجرائد .. وفى اليوم التالى اعتقلت فى قشلاق قصر النيل ، وبعدها أبعدت الى الاقصر

فى باريس ..

بعد تلك المذكرات التاريخية النفيسة والمحررات السياسية القيمة التى حررها لطفى السيد بقلمه البليغ وعاونه فيها عبد العزيز فهمى بعلمه الغزير ودقته المعهودة من بدء قيام الوفد والتى استمر سيلها كلما سنحت فرصة للدفاع عن حقوق مصر . وبعد تلك البيانات الشيقة التى كان يدبجها واصف غالى بالفرنسية

وبعــد تلك الاحاديث الصــحفية والمقابلات الســياسية الهامة والاجتماعات الكثيرة والبيانات القوية التى امتاز بها سعد ، ساد فى الوفد سكون طال أمده وظهر خلاله انشقاق كبير فى الوفد بباريس نتيجة لتوتر الاعصــاب بسبب طول الانتظار وعدم وجود عمل ايجابى لديهم .. وكان من بين من هم فى جانب « سعد » « عبد العزيز فهمى » و « لطفى الســيد » و « محمد على علوبة » .. ومن بين من هم فى الجــانب الآخر « حمد البــاســـل » و « عبد اللطيف المكباتى » الذى كانت فى عهدته أمانة صندوق الوفد ..

استدعيت الى باريس وســافرت من الاقصر الى باريس مباشرة ولا حاجة لى الآن الى تفصيل الظروف التى يسرت هذا السفر ، وحملت معى محاضر أحاديث رشدى وعدلي وثروت مع لجنة ملنر ، وكانت مهمتى أن أسعى لتصفية الجو بين جانبى الوفد وأبين لزملائى رجال الوفد المصرى مبلغ اتحاد البلاد الذى لايســمح لمواطن صالح أن يمسه بسوء ..

وقضيت أياما أعالج أمر الانشقاق حتى تم التفــاهم والتصافى ، ونقلت أمانة صندوق الوفد الى « علوبة » . وعقب ذلك أعددت عشرين نسخة من مجموعة دساتير « دارست » وزعت على أعضــاء الوفد حتى نشــتغل بوضع أسس الدستور المصرى ، وتم كذلك الاتصــال بالمسيو «لابراديل» مستشار وزارةالخارجيةالفرنسية ، فكنا نحيل اليه من الموضوعات مايحتاج الي بحوث فنية فيبين أصول النظريات ويبين السوابق ، والمعاهداتالتى طبقت فيها هذه النظريات ، وذلك بقصد اعداد مايلزمنا من الناحية الدولية فى كل جزئية من جزئيات القضية المصرية

الدعوة الى المفاوضة بلندن

ولما حضر السير سسيل هيرست الى باريس لدعوة الوفد للمفاوضة فى لندن أراد سعد أن يرجع الى الامة لاستشارتها فى أمر السفر الى لندن فاقترحت لتحقيق ذلك أن نرجو « شوقى بك » (١) الشـاعر الوطنى الكبير فى أن يكتب دعاء يتلى فى المساجد والكنائس ليكلل الله جهود الوفد بالنجاح فى مفاوضاته بلندن .. وقد حصل

---

(١) هذا هو الدعاء الذى وضعه المغفور له احمد شـوقى بك أمير الشعراء ، وتلى فى المساجد والكنائس قبيل سفر « الوفد المصرى » الى لندن لاجراء أول مفاوضة ، بين مصر وبريطانيا وهو الذى أشـار اليه على ماهر فى مقاله ، وكان هو صاحب فكرته :

« اللهم قاهر القياصر ، ومـذل الجبـابر ، وناصر من لا له ناصر ، ركن الضعيف ومادة قواه ، وملهم القوى خشينه وتقواه ومن لا يحكم بين عباده سواه هذه كنانتك فزع اليـك بنوها ، وهرع اليك ساكنوها ، هلالا وصليبا ، بعيدا وقريبا ، شبانا وشيبا ، نجيبة ونجيبا ، مستبقين كنائسك المكرمة ، التى رفعتها لقدسك أعتابا ، ميممين مساجدك المعظمة التى شرعتها لكرمك أبوابا ، نسألك فيها بعيسى روح الحق ، ومحمـد نبى الصدق ، وموسى الهارب من الرق كما نسألك بالشهر الابر والصائمية وليلة الاغر والقائميه ، وبهذه الصلاة العامة من اقباط الوادى ومسلميه ، ان تعزنا بالعتق الا من ولائك ، ولا تنزلنا بالرق لغير آلائك ، ولا تحملنا على غير حكمك واستعلائك ، اللهم ان الملأ منا ومنهم قد تداعوا الى الخطة الفاضلة والكلمة الفاصلة ، فى قضيتنا العادلة فآتنا اللهم حقوقنا كاملة ، واجعل وفدنا فى دارهم هو وفدك ، وجندنا الاعزل الا من الحق جندك ، وقلده اللهم التوفيق والسداد ، واعصمه فى ركنك الشديد ، أقم نوابنا المقام المحمود ، وظللهم بظلك المحمـود . وكن انت الوكيل عنا توكيلا غير محدود ، سبحانك لا يحد لك كرم ولا وجود ، ويرد اليك الامر كله وامرك غير مردود ، واجعل القوم محالفينا ولا تجعلهم مخاليفنا . واحمل اهل الرأى فيهم على رايك فينا . اللهم تاجنا منك نطلبـه ، وعرشنا اليك نخطبه ، واستقلالنا التام بك نستوجبه ، فقلدنا زمامنا ، وولنا أحكامنا ، واجعل الحق امامنا ، وتمم لنا الفرح ، بالتى مابعدها مقترح ولا وراءها مطرح . ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين ، واكتبنا فى الارض من المصلحين ، غير المفسدين فيها ولا الضالين . آمين

الدعاء فى المســـاجد والكنائس فكان ذلك بمثابة اذن وتصديق من الامة على ســفرنا ، وانحلت بذلك هــذه العقدة

مزاجان مختلفان !

جرت المفاوضات بلندن برئاسة « سعد » واشترك فيها « عدلى » . وكانت العقبات كثيرة لا محل لذكرها فى هذا المقام . وفى خلالها برزت شخصية « ســعد » وشخصية « عدلى » بمزاجين مختلفين ولو أن أهدافهما واحدة هى أهداف الوفد وأهداف الامة المصرية . فكان « سعد » صلبا فى الاتجاه الى غايته شديدا فى أسلوبه ، وهو أسلوب المحامى الذى يتربص لخصمه وينقض على كل نقطة ضعف تصــدر منه . بينما كان عدلى لينا فى عباراته يحاول الوصول الى غايته بكل مايعرض له من الوسائل . اصطنع أسـلوب السياسة الديبلوماســية الذى يلخص الحـديث بلبـاقة ولين ، فكان المفـاوض الانجليزى أكثر ارتياحا الى أسلوب « عدلى » ، وكلما بدت صعوبات فى جلسات المفاوضة كان « عدلى » يتصل اتصالا شخصيا لتذليلها . ونشأ من ذلك ســوء الظن الذى انتهى الى عدم التفاهم بين سعد وعدلى !

وأذكر انى تقدمت ذات يوم الى سعد فى هذه الفترة وقلت له : « أنت تعلم أنالقضية المصرية اذا نجحت فان النجاح نجاح لسعد ، واذا فشلت فسيقال ان ســعدا فشل . والرجل العظيم لايقوم بعمله وحده ، بل بمكانة الرجال الذين يعـاونونه . وأنت تعلم أن نابليون الذى أسندت اليه تلك الانتصارات الرائعة ماكان ليحققها الا بحسن اختياره لقواده وبما أتوه من أعمال مجيدة . لكن اسم نابليون وحده هو الذى ســاد كل شىء » .. فقال

لى سعد : « وماذا تريد ؟ » قلت : « أن ينتهى الخلاف ، بتكريمك لعدلى ودعوته الى الغـداء معك » .. فطلب منى أن أحضر معهما فاعتـذرت . وكان بعد اجتمـاع الرجلين العظيمين أن حل الصفاء بينهما ، ولكنه لم يدم أكثر من اسبوعين .. !

عرض مشروع ملنر فى مصر

عدنا من لندن ولم يرتض احد من الوفد ماعرضـه « لورد ملنر » ودونه فى مشروعه للمعـاهدة بين مصر وانجلترا . أراد « سعد » وفريق من الوفد أن يرفض المشروع اطلاقا . ورأى آخرون أن الحـركة الوطنيـة يجب أن تغذى ولذلك لا يجوز قفل باب المفاوضـة من غير بذل مجهودات جديدة . ولذلك كان اختيار أربعة من الذين اشـتركوا فى المفاوضـة لعرض المشروع على الشعب المصرى ، خصوصا وأن « ملنر » كثيراً ماقال لهيئة المفاوضة : « انكم تطلبون أشياء لم تطلبها الامة المصرية » ! .. فكان من الضرورى أن يسمع رأى الامة المصرية ، ولذلك ندب « محمـد محمود » و « لطفى السيد » و « عبد اللطيف المكباتى » و « على ماهر » لعـرض المشروع على الامـة . وانضم اليهم فى مصر «مصطفى النحاس» و «حافظ عفيفى» و «ويصا واصف»

عرض المشروع .. وكان « أمين الرافعى » الصـحفى القدير وصاحب جريدة « الاخبار » مساعدا لسكرتير لجنة الوفد . وقد سـألنى هو وشـقيقه عبد الرحمن الرافعى بك اذا كان الطعن فى المشروع يضايق الوفد ، فأفهمتهما أن الطعن فى المشروع بالعكس قد يسـاعد الوفد ، ولكنى رجوت يومئذ أن يتحاشـوا ذكر الوفد بسـوء

عرض المشروع على الهيئات العامة بصفة علنيـة فى اجتماعات كبيرة شعبية كانت تشهدها الطبقات المختلفة وفسر المشروع ودونت الرغبات الشعبية التى ترمى الى تعديل نصوصه .. وبعد تمام ذلك عدنا الى باريس نحن الاربعة وأصررت على أن يعود معنا مصطفى النحـاس وحافظ عفيفى وويصا واصف . ذلك انى كنت أخشى أن يتجدد الشـقاق السـابق وكنت أحسب أن وجود عناصر جديدة يؤدى الى التهدئة .. سافرنا .. وفى البحر دونا ماكان من أمر عرض المشروع على الشـعب فى مذكرة من ثلاثة أعمدة : العمود الاول به نص مشروع ملنر ، والعمود الثانى ماقدمناه من تفسير لأهل البلاد ، وفى العمود الثالث رغبات الشعب . وأضفنا ان الهيئات استعملت كلمة رغبات تأدبا فى حق الوفد لعظيم ثقتها به ولكنها فى الواقع تريد تحقيقها باعتبارها تحفظات

خلاف جديد !

ولما عرضنا الامر على سعد وباقى أعضـاء الوفد فى باريس قال سعد « ان التفسيرات التى أدليتم بها لا تتفق مع النصوص ولا مع ما سـمعناه من ملنر » فأجبتـه تفاديا من المناقشات : « ان الاستشارة كان الغرض منها تبين رأى الامة ، ورأى الامة واضح وضوحا تاما من مجموع تفسيراتنا والرغبات التى أبديت • فاذا أضفناهما معا كان المجموع هو ما تريده الامة •• »

بعد ذلك اتصل الوفد بلندن ودعينا مرة ثانية لاتمام المفاوضة • فأعلن سعد أنه لا حاجة لسفر الوفد بأكمله وأن الظروف تقتضى أن يسـافر منـا ثلاثة فقط ورأى أن يكون اختيـارهم بالاقتـراع السرى واصر على رأيـه فحصـل الاقتراع وتقرر سـفر سـعد وعبد العزيز

فهمي وعلى ماهر . وأعلن « سعد » انه يريد سفر « مصطفى النحاس » بوصفه سكرتيرا ، فسافرنا الى لندن وهناك أظهر لورد ملنر استحسانه لحضور باقى اعضاء الوفد ، فدعاهم « سعد » .. وحضروا جميعا

عرضت نتيجة استشارة الامة ، واستمرت المفاوضات الى أن رأى الانجليز اننا قطعنا مرحلة كافية ، وانه يجب أن تترك المفاوضات الآن حتى تعين الحكومة المصرية هيئة رسمية لاتمام المفاوضات وتوقيع معاهدة فى حالة نجاحها

ووقع خلاف جديد بسبب انه كان هناك فريق من الوفد يرى وجوب الغاء الحماية قبل العودة الى المفاوضات ، بينما يرى فريق آخر أن الغاء الحماية مع باقى تحفظات الامة هى الهدف الاخير ، فاذا وصلنا اليها فى النهاية كان ذلك كافيا ، ولا محل لاشتراط شىء مقدما

ويلاحظ انه فى بداية حضور « عدلى » الى باريس للاشتراك فى العمل مع الوفد ، كانت نظرية الوفد أن يبقى الوفد رمزا لمطالبة مصر بحقوقها الكاملة ، وأن لاشىء يمنع قيام وزارة ثقة يرأسها « عدلى » ويؤيدها الوفد ، على أن تعمل بالتفاهم التام مع الوفد .. ولكن هذه الفكرة ضاعت بسبب الخلاف المستحكم وقتئذ الذى كان له أكبر الاثر فى الوفد وفى مصير قضية البلاد . على أن هذه الفكرة عادت فى سنة ١٩٢٦ التى تم فيها التعاون بين الرجلين العظيمين من جديد فى صورة أخرى . والواقع أن « سعد » شعبى عظيم و « عدلى » دبلوماسى كبير وهما يكملان بعضهما وكان تعاونهما واجبا وطنيا وعلى الاخص لانه فى ذلك العهد ، عهد الاحتلال ، ماكان يتيسر لرجل واحد أن يجمع بين الشعبية والدبلوماسية .

ولا ريب عندى فى انه كان يمكن تفادى هذا الانشقاق بقليل من الصبر وشيء من الاعتدال والثبات

عودة الى التلغرافين

أما التلغرافان اللذان ورد ذكرهما فى الحديث فلست أعرف شيئا عن منشأ كتابتهما ولكن بطبيعة الحال كان رأيى متفقا مع رأى زملائى فى أنه لم يكن فى مقدور كاتبيهما أن يكتبا ماكتبا بلا رأى سعد

وظاهر أن سعدا كان يعلم بالتلغرافين فقد كان فى مقدوره أن يكتب كلمة لأهل البلاد ينبئهم بأن هذين التلغرافين لايعبران عن الحقيقة فى شيء .. لكنه بقى فى موقفه مكتفيا بنفى علمه بهما وهو لايريد أن يصحح ماورد فيهما

وبعد عودتنا الى باريس رأى فريق من الاخوان العودة الى مصر مباشرة ، ولم تفلح المساعى فى حملهم على العدول عن سفرهم كتلة واحدة .. وقد كنت وسينوت حنا والمحامى الفرنسى « اولانييه » مع سعد قبيل قيام القطار الذى يقل هؤلاء الاخوان من باريس فى طريقهم الى مصر فأخبرت سعدا أنى سأودع اخوانى ومعى سينوت ، فامتعض سعد ، لكننا ذهبنا ولما قابلناهم فى المحطة قلت لهم : « ان الخلاف بين فريقى الوفد هو فى الاجراءات وحدها ، ومادامت لن تكون هناك مفاوضة رسمية الا بعد شهور فلدينا متسع من الوقت للتفاهم على هذه الاجراءات . وأرجو أن تتمتعوا بالهدوء فى هذه السفرية البحرية ، واذا ما عدتم الى مصر الا تثيروا شيئا من هذا الخلاف حتى نحافظ على وحدة الامة واتحادها المتين » فأجابوا : « اننا مصممون على ذلك ونريده من أعماق قلوبنا .. لكن الخوف من سعد ! »

فقلت : « اذا اتى سعد شيئا فى حقكم فانى سأستقيل .. وسأعود الى بيت سعد بعد هذا الوداع وأخبره بكل ماتحدثنا به » .. وبالفعل عدت من المحطة مع « سينوت » ونفذت ما وعدت به ..

تلغراف آخر !

بعد ذلك بيومين وأنا فى مقر الوفد بباريس وجدت « سعد » و « واصف غالى » جالسين . فقال لى سعد : « هل أطلعت على التلغراف الذى أرسلته الى أمين الرافعى ؟ » .. فأجبته انى لم أر شيئا فأطلعنى على صورة التلغراف الذى أرسله الى « أمين الرافعى » وحاصله انه نبتت فكرة ترمى الى دخول المفاوضات بغير مراعاة الشروط الواردة فى تحفظات الامة ، وان البلاد يجب أن تحذر أصحاب هذه الفكرة

فتأثرت وغضبت وقلت : « اذن أنا مستقيل ! »

فألح على أن لا أفعل ، وبعد ذلك رأى واصف أن يبعث بتلغراف مستعجل لامين الرافعى يطلب اليه أن لاينشر التلغراف السابق ويقول انه أرسل اليه بوصفه مساعدا لسكرتير لجنة الوفد للتوجيه لا للنشر .. وأرسل التلغراف بالفعل ، فعدلت عن الاستقالة . ولكنى بعد ذلك بزمن علمت أن التلغراف الاول نشر بالفعل ، وقيل فى تعليل نشره ان التلغراف المستعجل وصل بعد أن كانت الجريدة قد طبعت وأعد منها ٤٥ ألف نسخة للتوزيع . فلم يتمكن أمين الرافعى من تنفيذه

من يكتب تاريخ الحركة الوطنية ؟

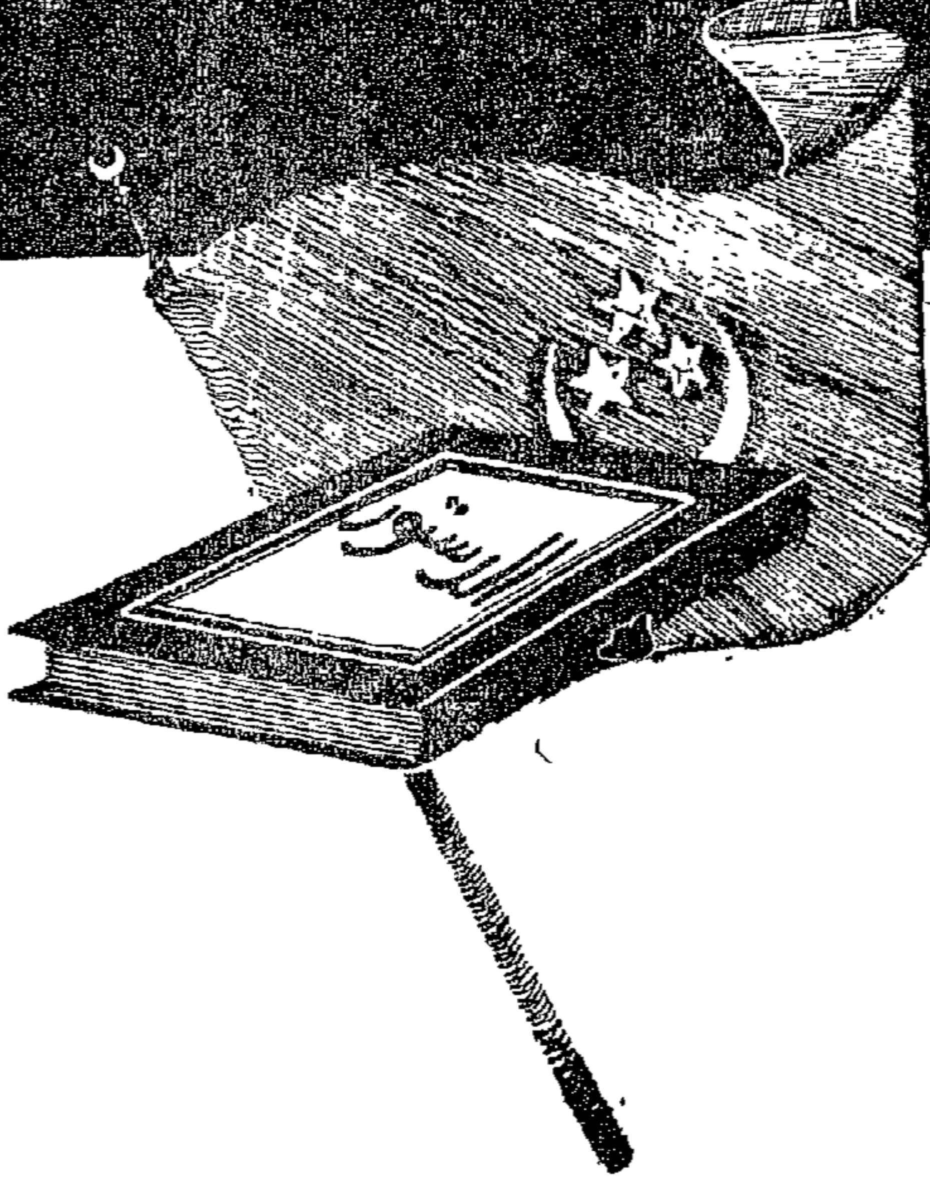
عاد سعد فى ابريل سنة ١٩٢١ ، وكان معه واصف غالى دسينوت حنا وعلى ماهر .. وعقب وصولنا مباشرة رجوت سعداً أن يبدأ عمله فى مصر بزيارة اخواننا الذين سافروا من قبل فرضى عن طيب خاطر وقد صاحبته فى زيارتها جميعا .. ومن رأيى أن التاريخ الكامل للحركة الوطنية لا يمكن أن يكتبه عضو من الوفد بمعلوماته وحده لانه محال أن يكون قد أحاط بالوقائع جميعا ، بل يجب أن يتعاون بعض أعضاء فى تدوينه حتى يبين كل من شهد واقعة معينة ما يعرفه لمن لم يشهدها ، ولا شك أن الاستعانة بسكرتارية الوفد قد يكون مفيدا « ١ »

---

(١) الى هنا ينتهى تعليق السيد على ماهر الذى اشرنا اليه من قبل

الفصل التاسع

دستور ١٩٢٣



وضعت دستورا فى باريس

فى سنة ١٩٢٠ حينما كنت بباريس مع الوفد المصرى عهد الى الوفد بوضع مشروع لدستور مصرى ، لاننا كنا نطالب بالاستقلال والدستور ، فتوفرت هناك على دراسة دساتير الامم الراقية ، فوجدت دستور بلجيكا هو أحسن الدساتير الحديثة التى وضعت لحكومة ملكية دستورية لدقته ونظامه . على أننى وجدت فى دستور تركيا الذى وضع سنة ١٩٠٨ م ميزة لاتوجد فى الدستور البلجيكى . وهذه الميزة فى النصوص الخاصة بالحريات ، ففيها توسع أكثر ، فنهجت نهج الدستور البلجيكى وأخذت منه بعضا واقتبست بعضا أخر من دستور رومانيا ، ووضعت دستورا لمصر ، ثم اجتمع الوفد المصرى وهو بباريس لقراءته

ولكننى أثناء قراءته على اخوانى فوجئت بسعد باشا زغلول يعترض على بعض المواد وحدثت مناقشة طويلة بينى وبينه انتهت بأن طويت الاوراق وانسحبت من الجلسة

الى أن كانت سنة ١٩٢٣ والفت وزارة المرحوم عبد الخالق ثروت . وأعلنت هذه الوزارة استقلال مصر بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير بخطاب موجه اليها من الملك فؤاد لتبلغه الى الشعب وفيه يقول الملك :

« .. نعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال » فأخذت الوزارة الثروتية تعمل

منذ ذلك اليوم وما يتفق واستقلال مصر من مظاهر الشخصية الدولية

وكانت فاتحة أعمالها تأليف لجنة من ثلاثين عضوا لوضع الدستور برئاسة المرحوم حسين رشدى باشا ، سميت « لجنة الدستور » أو لجنة الثلاثين ، أو لجنة الاشقياء كما أطلق عليها المرحوم سعد باشا هذا الاسم وكان وقتئذ فى المنفى هو وصحبه

لماذا سميت « لجنة الاشقياء » ؟

وهنا نسأل هذا السؤال لماذا سميت لجنة الدستور لجنة الاشقياء ؟ هل لان الوفد وهو زعيم الحركة الوطنية لم يشترك فيها ولم يدع اليها ؟

ـ كلا فقد دعا ثروت باشا أعضاء الوفد الموجودين فى مقر الزعامة فى ذلك الحين الى الاشتراك فيها ، فرفضوا رفضا باتا ، بل سميت بذلك لانه كان من رأى الوفد وخصوم الوزارة بوجه عام الا يضع الدستور المصرى لجنة كهذه اللجنة أعضاؤها معينون من الحكومة ، وأكثرهم لم يساهم فى الجهاد الوطنى ولم يشترك فى الثورة الوطنية ، بل كان يرى ان تتولى وضعه « جمعية وطنية » مؤلفة من الزعماء المجاهدين ، وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ، كما حدث فى البلاد الاوربية التى وضعت دساتيرها جمعيات وطنية ، لانها فى رأيه الوسيلة الوحيدة للوقوف على رغبات الامة وحاجاتها

ولكن المرحوم ثروت باشا أبى أن يأخذ بهذا الرأى ؛ واحتج بأن ايطاليا واليابان والنمسا والبرتغال لم تضع دساتيرها جمعيات وطنية ، بل وضعت دساتير هذه البلاد بالطريق العادى ، فصدرت من ملوكها . أما البلاد التى

وضعت دساتيرها جمعيات وطنية ، فانما يرجع سبب ذلك الى ظروفها الاستثنائية الخاصة كالثورة وزوال السلطة الشرعية فيها وحلول سلطة مؤقتة محلها . وقد جرى الامر فى مصر على أن تصدر القوانين من ولى الامر وحده سواء أكان ذلك فى انشاء مجلس الوزراء ، وهو أول حجر فى وضع النظام الديموقراطى فى مصر أو فيما تلا ذلك من النظم النيابية

وقد رد عليه خصومه السياسيون بأن مصر فى حالة ثورة وطنية قضت بتغيير نظام الحكم . وقد حدث ان وضعت نظام الحكم فيها جمعية وطنية سنة ١٨٨٢ كما حدث فى غيرها من البلاد . وقالوا أن الدستور اذا لم يكن من وضع هذه الجمعية فان فى وسع ولى الامر ان يسترده فى يوم من الايام

هل الدستور منحة ؟

وقد اجتمعت لجنة الثلاثين فى قاعة الجمعيةالتشريعية لوضع مواد الدستور ـ وهى قاعة مجلس الشيوخ الآن ـ وخطب فى افتتاحها ثروت باشا خطبة طويلة ، فقام على أثره المرحوم عبد اللطيف المكباتى بك ، وقال: «جاء فى خطاب رئيس الوزارة ان الدستور الذى نقوم به الآن هو منحة من جلالة الملك ، ولكننى أقرر أن ما نتمتع به الآن من الدستور انما هو ثمرة جهاد الامة ، وأن للامة السيادة التى يجب أن تكون بارزة فى نصوص الدستور ، وعلى هذا الاساس نحن نشترك فى العمل . وهناك مبادىء يجب أن نقررها قبل انتخاب اللجان منها « سلطة الامة » يجب أن تكون بارزة ، و « مسئولية الوزارة » يجب أن تكون بارزة و « الدستور الذى نعده » يجب أن يكون قابلا للتعديل أمام البرلمان ، وأنه يجب ان يكون الانتخاب بدرجة أو

بدرجتين الخ .. فرد عليه دولة رشدى باشا أن كل هذه المبادىء قد سلم بها دولة رئيس الوزراء

اسمع .. جاتك الطماطم

وقد قررت لجنة الثلاثين فى جلستها الثانية المنعقدة فى ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ تأليف لجنة فرعية من أعضائها تدعى « لجنة وضع المبادىء العامة » ، وانتخبت ١٨ عضوا لها . وكان رئيس اللجنتين دولة حسين رشدى باشا . وكان رحمه الله أستاذ الجميع فى القانون وفى دراسة دساتير الامم . وكان اذا ناقش عضوا وأطال المناقشة يقول له : « اسمع .. اسمع .. جاتك الطماطم » وكان كثيرا مايكررها ، وكان أمر الطماطم والبيض مشهورا (١) فى ذلك الحين !

وكان من نشاطه وظرفه اذا أمر عضوا بالسكوت بعد اطالة الكلام ، ولم يستمع اليه يحمل جرس الرئاسة ويذهب الى مكان العضو ويدق به أمام وجهه ليسكته . وكان قوى الحجة الى حد كبير . وحدث أن أبدى مرة رأيا أزعج الاعضاء ، فاعترضوا عليه ، فصاح فيهم قائلا : « ياحضرات السادة استمعوا لى حتى أفرغ من كلامى ثم فندوه بكل ماعندكم من حجج وبراهين » ثم سكت قليلا ، وقال : « ولكنكم لن تستطيعوا .. » . وقد كان !

شىء لله ياسيدة

ودار نقاش طويل حول كثير من المسائل . ومن أبرزها مسألة تمثيل الاقليات التى أثارها توفيق (بك) دوس

(١) كان المتظاهرون فى ذلك الحين اذا غضبوا على حاكم او سياسى يرمونه فى الطريق بالبيض والطماطم

ومحاكمة الوزراء ، ومسئولية الوزارة ، والانتخاب بدرجة أو بدرجتين ، وحق حل مجلس النواب ، وامتيازات العرب بمصر وسقوط رئيس الديوان الملكى ، وكبير الامناء مع سقوط الوزارة . وكان فى رأس هذه المسائل مسألة النص على سيادة مصر فى الدستور . فقد وضعت لجنة تحرير الدستور التى كنت أرأسها المادة الاولى منه هكذا : «مصر دولة سيدة حرة مستقلة . ملكها لايتجزأ ، ولا ينزل عن شىء منه الخ .. » أعترض الشيخ محمد بخيت بأن السيادة لامعنى لها هنا . والسيد فى اللغة الشريف الكريم ، ودارت مناقشة بينه وبينى ، فقال الشيخ بخيت : « مصر سيدة يعنى شريفة .. شىء لله يا سيدة ! »

فضحك الاعضاء ، وغضبت من هذه النكتة الباردة ..!

سقوط الوزارة

بقيت الوزارة الثروتية فى الحكم الى نوفمبر سنة ١٩٢٢ وقد أعلنت استقلال المملكة المصرية ، وألفت لجنة الدستور ، وألغت وظائف المستشارين الانجليز ، ماعدا مستشارى المالية والحقانية ، وأبطلت حضور المستشار المالى جلسات مجلس الوزراء ، ثم عصفت بها أزمة سياسية ، فاستقالت وقامت على أثرها وزارة نسيم باشا

وكان سقوط الوزارة الثروتية وتأليف الوزارة النسيمية محاطين بظرف دقيق . لذلك لم يمكث نسيم باشا طويلا حتى اصطدم بأزمة النص فى الدستور على « ملك مصر والسودان » فطوحت به هذه الازمة ، وكان يقول انه ضحى بنفسه وبوزارته . وقد أشيع وقتئذ أن وزارة نسيم باشا عدلت بعض مواد الدستور فهاج الرأى العام ، وبعثت الى دولة يحيى باشا ابراهيم الذى خلف نسيم باشا فى

الحكم خطابا اعترض على نسيم باشا ، وأقول : « انه بجملته وتفصيله سلب جرىء لحقوق البلاد الثابتة لها ثبوتا لاريب فيه وفتح لباب واسع من أبواب الفوضى والاخلال بالنظام »

يحيى ابراهيم واللورد اللنبى

خرت وزارة نسيم باشا صريعة فى أزمتها ، ودعى يحيى ابراهيم باشا لتأليف الوزارة ، فألفها . وفى ذلك اليوم الذى تألفت فيه هذه الوزارة قابل رئيسها اللورد اللنبى، وأخبره أنه كلف بتأليف الوزارة الجديدة ، وسأله هل هو مستعد للتعاون معه ، فأجابه اللورد اللنبى : « اننى أرحب بالتعاون معكم بكل صراحة واخلاص مادامت طلباتكم معقولة» فرد عليه يحيى باشا بأن طلباته ستكون معقولة حتما ، فسأله اللورد اللنبى عن طلباته ، فقال يحيى باشا :« ان البلاد تطلب الافراج عن سعد باشا وصحبه ، وعن المعتقلين الاخرين ، وتطلب الغاء الاحكام العسكرية »

فأجابه اللورد اللنبى بالموافقة على المطلب الثانى ، وأجل المطلب الاول ، ولكنه وعده أن يفاوض حكومته ، حتى اذا كان شهر رمضان من ذلك العام طالب يحيى باشا بالوفاء ، فتم الافراج عن سعد وصحبه وكثير من المعتقلين السياسيين

وكانت مفاوضات بين اللورد اللنبى ويحيى باشا ابراهيم اجتازت فيها وزارته ظروفا دقيقة تتعلق ببعض نصوص الدستور وكنت وقتئذ ازاول المحاماة . وذهبت الى غرفة المحامين ، فسألنى بعض الزملاء عن حقيقة ما يشاع حول الدستور من انه ضيق الحدود ، قاصر عن تقرير الحريات المطلوبة للشعب ، فقلت لهم : « كلا ، انه دستور فضفاض » وكنت أقصد بذلك انه وسع كل الحريات

المطلوبة للشعب رادا بذلك على من ظنوه دستورا « ضيقا » لا يتسع لحقوق البلاد وامانيها

وكان هناك مشروع اعدته لجنة الدستور قد تضمن النص التالى :

« لا يخل تطبيق هذا الدستور بتعهدات مصر للدول الاجنبية ، ولا يمكن ان يمس ما يكون للاجانب من الحقوق فى مصر بموجب القوانين والمعاهدات الدولية »

وعلمت ان من ادخلوا التعديل على الدستور قد أضافوا الى هذا النص كلمتى « والعادات المرعية » . وادركت ما فى هذه الاضافة من خطورة على حقوق البلاد ، وكتبت فى ذلك خطابا مفتوحا للمرحوم يحيى باشا ابراهيم

وتوجهت الى جريدة « الاهرام » مصطحبا معى المرحوم محمد علام باشا وقدمت صورة من هذا الخطاب الى المرحوم الاستاذ انطون الجميل بك « باشا »

واثناء وجودى فى « الاهرام » كتبت خطابا خاصا للمرحوم يحيى باشا ابراهيم الذى خلف نسيم باشا ، وبصرته بخطر اضافة كلمة « العادات المرعية » لانها تحجر التشريع ، وضربت له مثلا بمنح رخصة رى على احدى الترع لاحد الاجانب ، ومضى على الرخصة ثمانى سنوات مثلا ، واردت الحكومة تعديل الرى ، فتقف كلمة « العادات المرعية » حجر عثرة فى سبيل ذلك التعديل ، فيتحجر التشريع ولا يسهل اتمامه ثم افهمته فيه ان الامتيازات قد اتسع نطاقها بسبب العادة .. واهتماما منى بهذا الامر ، توجهت بنفسى لمقابلة المرحوم يحى باشا بالوزارة وسلمته الخطاب الذى اعددته فى دار «الاهرام» بحضور من ذكرت ، وقلت له فيه:

« ان هذا التعديل بجملته وتفصيله سـلب جرىء لحقوق البلاد الثابته لها ثبوتا لاريب فيه ، وفتح لبـاب واسع من أبواب الفوضى والاخلال بالنظام » ثم زالت الازمة وتهيأت الامور لاصدار الدستور حين هيـئت الامور لاصداره . وتكشفت السحب ، وأسرع يحيى ابراهيم باشا الى قصر عابدين فى ليلة ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ورجا الملك فؤاد أن يقضى من وقته فى تلك الليلة ساعتين لمراجعة الدستور، ثم يتفضل بأمضائه ، ولو أن فى ذلك مشقة على صحته ،لان المصلحة الوطنية تقضى بالاسراع فى أمضـاء الدسـتور واصداره فراجعه وأمضـاه في تلك الليلة التاريخية

الفصل العاشر

طلقت الوزارة وطلقتني



رياستي لحزب الاحرار الدستوريين

ناضلت عن الدستور ــ لا عن اقبال على الخوض فى شئون السياسة ، ولكن عن ايمان بأن الدستور ــ وهــو الوثيقة الاساسية التى تقرر نوع الحكم وتسجل حقوق الامة ــ يجب أن يبذل لصيانته كل جهد ..

وقد أصدرت وزارة يحيى ابراهيم باشا الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ ، واستمرت فى الحـــكم الى أن استقالت فى يناير سنة ١٩٢٤ ، وخلفتها وزارة ســـعد زغلول باشا . وفى سنة ١٩٢٤ أثناء تولى سعد الوزارة قتل « السير لى ستاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام .. فطرد الانجليز الجيش المصرى من السودان ، واحتلت جنودهم الجمارك ، وفرضوا على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، وأنذروا مصر بأنهم سيأخذون من مياه النيل لرى أى مقدار فى أقليم الجزيرة السودانى يزيد على ثلثمائة الف فدان ..

فى هذا الوضع الذى كله مصائب على مصر ، لم تستطع حكومة سعد زغلول البقاء فى الحكم فاستعفت فى نوفمبر سنة ١٩٢٤

وفى ذلك الوقت كانت حالة مصر مضطربة ، وكنت أنا مريضا بالسويس عند أخى الدكتور عبدالرحمن عمر بك الذى كان مديرا لمستشفى هذه المدينة . وقد كنت معتزلا السياسة مبتعدا بعدا تاما عن مشاكلها وأحداثها ، كارها لها ولاسمها ، متجنبا التدخل فى أى عمل عام

وفى أثناء وجودى عند أخى فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢٤ أو اوائل يناير سنة ١٩٢٥ – وكانت وزارة زيور باشا الاولى فى الحكم – وصلنى خطاب من محمد محمود باشا ، وآخر من حافظ عفيفى باشا ، حاصلهما انهما يرغبان فى أن أكون رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين ، فلم أستطع اجابتهما الى هذه الرغبة

وقد كان بالسويس بعض اهلى ، فأحضرونى الىالقاهرة وحضر اليها أخى الدكتور عبد الرحمن بك للعناية بصحتى .. ولم أكد أستقر فى بيتى حتى حضر عندى عدلى يكن باشا وثروت باشا ، وطلبا الى أن أكون رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين بدل عدلى باشا الذى استقال من رياسة الحزب . واذ ذاك علمت ان رجال الحزب الاحرار قد اتفقوا على ان تسند الى رياسة الحزب ..

أدركت حينذاك ان عدلى باشا سئم الاشتغال بالسياسة الحزبية ، فربأ بنفسه عنها ، وأنه يريد مع اخوانه ان يغرزنى فيها .. ولقد كانت كل ظروفى لاتسمح لى بقبول هذه الرياسة ، خصوصا وانى لم أكن عضوا فى الحزب اذ انه تأسس فى آخر سنة ١٩٢٢ ؛ ولم اشترك فى تأسيسه ولم انضم اليه .. ولكن عدلى باشا وثروت باشا لم يقبلا عذرى ، ولا اقاما وزنا لحالتى الصحية التى لا تساعدنى على التورط فى مثل هذا العمل . وكان أخى الدكتور عبد الرحمن حاضراً المجلس ، فعارض رأيهما رعاية لصحتى ، وخوفا عليها من التعب .. فقالا له : « اننا نريد اسمه فقط ، ولا نريد منه أن يتعب نفسه ، أو يعمل شيئا » .. فبدر من أخى عبد الرحمن ، تأدبا فى حقهما ، أن قال :

– مادام الامر كذلك فلا مانع ..

فلم يكادا يسمعان هذه العبارة حتى قالا : « نحن نكتفى

بهذا » .. ثم انصرفا ، واعلنا فى الحزب أننى قبلت رياسته فلصقت بى هذه الرياسة من ذلك الحين

عقب ذلك شرعت وزارة زيور باشا « الاولى التى حلت محل وزارة سعد زغلول » فى عمل انتخابات للبرلمان ، فأكرهنى أخوانى فى الحزب على ترشيح نفسى فيها مادمت رئيسا لهم .. وكنت أود أن أظل بعيدا عن الانتخابات لانى أكره التعرض لها لما تقتضيه من تزكية المرء نفسه أمام الناس ، وقد أبيت ان أسير فى هذا السبيل .. ولكن بعض أهلى فى قريتنا رشحونى ، وانتهيت بأن صرت نائبا عن الدائرة التى بها بلدى ...

دخولى الوزارة

وفى صبيحة يوم اعلان النتيجة ، جاءنى وكيل مديرية المنوفية « أحمد فهمى حسين » وأخبرنى أنى مطلوب فى القاهرة .. وأخذنى معه فى سيارته ، حتى أوصلنى الى نادى محمد على ، فوجدت زيور باشا وعدلى باشا وثروت باشا وصدقى باشا وغيرهم مجتمعين ، فحتموا على أن أدخل الوزارة التى كان زيور باشا يؤلفها وقتئذ . وهى وزارته الثانية التى وليت الحكم ابتداء من ١٣ مارس سنة ١٩٢٥

حاولت الاعتذار والتخلص من دخول الوزارة لا كراهة فى الوزارة ، ولكن مراعاة لحالتى الشخصية ، واستعدادى النفسى الذى ينفر من مثل هذا العمل السياسى العام . ولكن ضغط اخوانى وصل بهم الى ان تلمسوا منى كلمة « طيب » فأدرج زيور باشا اسمى وزيرا للحقانية فى تلك الوزارة !

وفى ٢٢ مارس سنة١٩٢٥ ، اجتمع مجلس النواب الذى أتت به انتخابات وزارة زيور باشا الاولى واخذت فى انتخاب رئيس له .. وكان المرشحان للرياسة سعد باشا وثروت باشا ، ففاز بها « سعد » على « ثروت »

وما كادت تلك النتيجة تظهر حتى غضب الانجليز وبعثوا الى الملك فؤاد انذارا يطلبون فيه حل مجلس النواب فورا .. فلما علم زيور باشا بهذا الانذار لم يسعه الا ان يقدم استعفاءه للملك ، ولكن الملك فؤاد بصر زيور باشا ووزارته بحرج الموقف ، وما كانت عليه البلاد فى ذلك الحين ، خصوصا والانجليز يتحفزون لوضع يدهم على مرافق البلاد بالقوة .. فلم تجد وزارة زيور باشا من الوطنية ولا من المروءة ، أن تترك الملك فى هذا الظرف العصيب . بل اضطرت لحل المجلس تفاديا من الخطر الذى أشار اليه الملك ، وهو وضع الانجليز يدهم بالقوة على جميع المصالح ..

يتبين من ذلك أن حل مجلس النواب فى ذلك الحين لم يأت من الوزارة باختيارها ، ولا من الملك باختياره .. وانما وقع تفاديا لعواقب تهديدات الانجليز الذين لايقفون عند حد فى تنفيذ ما يهددون به . ولو أن الملك ووزارته فى ذلك الحين لم يحلا المجلس ، وكان الانجليز نفذوا تهديدهم بالاستيلاء بالقوة العسكرية على مصالح البلاد ، لكانت هذه طامة كبرى ، تزيد على تلك المصائب التى والوها علينا يوم مقتل السردار سنة ١٩٢٤

ولقد كان كل اخوانى يعلمون انى كنت قلقا فى هذه الوزارة ، وكان أخوانى الوزراء يعلمون انى غير راض عن البقاء فيها .. لا كرها فى هذه الوزاره بالذات ، ولكن كرها للعمل فى الحكومة بالاطلاق ، خصوصا وان الوزير فى كثير من الاحيان مضطر لممالأة اخوانه على امور فى سير

الحكم ، لو كان هو وحـده المتصرف فيهـا لارتأى خلاف ما يرون ..

ولقد حدث اثناء وجودى فى هذه الوزارة مسالتان ، أذكرهما للدلالة على مقدار ما شقيت به نفسى بالوجـود فى عمل تأباه طبيعتى ..

الاولى ـ ان احدى الجهـات طلبت بواسـطة بعض زملائنا من حزب الاتحاد تعـديل قانون العقوبات تعديلا مقصـودا به حمـاية بعض كبـار الموظفين .. واذ كنت وقتئذ وزيرا للحقانية ، ورئيسـا للجنة التشريعية التى يجب ان يمر بها مثل هذا التعديل ، فقد بصرت أعضـاء اللجنة بما يقعون فيه من الخطأ لو انهم ساروا فى هـذا التعديل وفق ما هو مطلوب ، فتحفظ الاعضـاء كثيرا ، وخرج التعـديل من يدهم لا يسـمن ولا يغنى فى الغرض المطلوب ..

وقد استدعانى الملك فؤاد ، وناقشـنى فى أمر التعديل ، فقلت له :

ـ يا مولانا ان مصلحة جلالتكم ـ بحسب ما أراها ـ فى عدم فتح هذا الباب

فقال :

ـ ولكن الجرائد تتعرض كثيرا لرجال السراى

فقلت له :

ـ ان رجال السراى هم من موظفى الحكومة ، وقانون العقـوبات بحسب وضعه الحـاضر يحمى كل الموظفين ، ومنهم رجال السراى ، فتخصيص هؤلاء بقـانون خاص ليس من مصلحة العرش ..

فقال لى :

ـ لكنى أرى أن تعيدوا النظر مرة أخرى فيما قرر بموه باللجنة التشريعية

ثم أمرنى بأن أرد عليه فى ٤٨ ساعة ، فقلت له :
ـ ان الموضوع خاص بتعديل قانون العقوبات ولا يمكن اعادة بحثه فى أقل من أسبوعين

فبدا عليه عدم الرضـــا بهذا الرد ، ثم قام ليحضر مجلس الوزراء الذى كان يومهـــا منعقدا بسراى رأس التين ، وكان مقررا أن يرأسه جلالته فى تلك الجلسة ..
فلما اوفينا على اخواننـــا الوزراء ، بادرهم الملك فؤاد قائلا :
ـ أنا حا اعمل ايه .. أهو سى عبد العزيز غلبنى .. !
فقلت له :
ـ كلا يا مولاى .. جلالتكم الغالب على الدوام ..
فأراد زيور باشا أن يقول كلمة لارضاء الملك ، فقلت له :
ـ ياباشا خل عنك ، فان جلالته فهم الموضوع بحذافيره
على ان المسألة عادت فعلا مرة اخرى ونظـــرت فى اللجنة التشريعية ، ولم يحدث فيها الا مجرد تعـديل سطحى ..

مسألة الشيخ على عبد الرازق

اما المسألة الثانية التى زادتنى كرها فى الوزارة فقصتها ما يأتى :
أنا أعرف المرحـوم حسن عبد الرازق باشـا الكبير ، وأعرف أولاده الكبـار الذين كنت أقابلهم بمنزل والدهم الذى كان مفتوحا لاصدقائه وعارفيه ، فعرفت « حسن » و « حسين » و « محمود » و « مصطفى » .. وأما ولداه

الآخران وهما « على » و « اسماعيل » ولم اعرفهما لصغر سنهما واشتغالهما اذ ذاك بالدراسة

وفى أثناء وجودى سنة ١٩٢٥ وزيرا للحقانية ، علمت أن دعوى رفعت أمام مجلس الازهر العالى ضد الشيخ على عبد الرازق ابن المرحوم حسن عبد الرازق باشا الكبير ، وكان اذ ذاك قاضيا بالمحاكم الشرعية ولم تكن قد سبقت لى رؤيته .. وقد طلب فى هذه الدعوة تجريده من درجة العالمية التى حصل عليها من الازهر ، لانه آخل بوصف العالمية اذ الف كتابا اسمه « الاسلام واصول الحكم » ، قرر فيه ، ما يفيد ان الاسلام لا خلافه فيه ، وأن رؤساء المسلمين الآن ملوك لا خلفاء ..

استحضرت هذا الكتاب وقرأته مرة وأخرى ، فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه ، بل بالعكس وجدته يشيد بذكر الاسلام ونبى الاسلام ويقدس النبى « ص » تقديسا تاما ، ويشير الى أن النبوة فى الاسلام هى وحى من عند الله ، وان الوحى لا خلافة فيه ، بل هو اختصاص من الله لمن يوحى اليهم من بنى البشر ..

واخص ما ارادوا بناء التهمة عليه هو ما قد يظهر من عبارة الكتاب من أن الاسلام دين نظرى .. لكن هذا الفهم الذى فهمه متهمو الشيخ على عبدالرازق غير وارد بتاتا فى الكتاب ، لان الاسلام ما دام دينا ، وما دامت أصوله مقررة من عند الله ، فالنظر فيه لا يمكن بوجه من الوجوه أن يكون له معنى الا اذا سار العمل على مقتضاه . واذ كانت الدعوى كما سلف مرفوعة على أساس أن الشيخ «على» أخل بوصف العالمية ــ اذا كان هذا ، وكان كل من ثروت باشا وصدقى باشا هما ممن اشتغلوا بوضع قانون الازهر ــ فقد سألتهما فعلا عما اذا كان من غرضهما بهذا

النص ترتيب عقاب على الرأى ـ ذلك العقاب المخالف لكل دستور ـ فأجابا : « كلا ان ذلك لم يخطر بخلدنا » .. عند ذلك اتجهت لمصدر هذه الدعوى ، فناقشت وكيل الديوان العالى فيها وافهمته ان المجلس غير مختص بها ، فوافقنى على رأيى وقال : « يكفى أن يحضر الشيخ على عبد الرازق أمام المجلس ويطلب عدم اختصاصه فتزول هذه الدعوى » ، فأرسلت الى الشيخ على ، أن يفعل هذا ففعل .. ولكن مع الاسف لم يقبل دفاعه بعدم الاختصاص ، وحكم فى الموضوع بتجريده من درجة العالمية !

وكان يحيى ابراهيم باشا فى ذلك الوقت قائما برياسة مجلس الوزراء بالنيابة عن زيور باشا الذى كان غائبا بالاجازة .. فأرسل لى يحيى باشا نسخة الحكم الوارد لمجلس الوزراء من رياسة الازهر ، وطلب منى أن أنفذه .. وتنفيذه يكون طبعا بأن أوقع عليه الى قلم المستخدمين بشطب اسم « الشيخ على عبد الرازق » من سلك القضاة الشرعيين ..

ثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو فى ذاته باطل غير واجب التنفيذ ، لصدوره من هيئة أنا أعتقد أنها غير مختصة بالقضاء فى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم متحرج يشيد بالاسلام وبنبى الاسلام ، ويحترم دينه الى أقصى حد .. وكل ما فى الامر أن متهميه يتأولون فى أقواله ويولدون منها تهمة ، ما أنزل الله بها من سلطان .. وقياما بالواجب على نحو ذمتى ، ونحو المصلحة العامة ، رأيت ان أبعث بالحكم الى كبار رجال القانون فى الحكومة وهم مستشارو لجنة القضايا

لاسألهم عن قيمة هذا الحكم ، وهل مثله مما يجب على وزارة الحقانية تنفيذه أم لا (١)

فلما علم يحيى ابراهيم باشا بأنى أحلت الحكم على لجنة القضايا للفرض المذكور هاج ، وقال لى :

ــ اذن نحن غير متفقين فى العمل ، ومن لا يريد أن يعمل معنا ، فليستقل ..

فقلت له :

ــ أنت تعلم انى كاره للوزارة ، متضايق من وجودى بها ، وانى طالما أبديت رغبتى فى الاستعفاء . ولكنى الان لن أستعفى مطلقا ، بل أنا فى خصوصية هذا الحكم أدافع عن حق أعتقده ، فأنا كالعسكرى الديدبان أحرس النقطة التى أنا مكلف بحراستها ..

ولما كانت هناك رغبة شديدة فى اخراج الشيخ على من منصبه ــ ذلك الذى تكلم ضد الخلافة ــ فماذا يصنع

---

(١) رأينا ان نعرف نص توقيع عبد العزيز فهمى باشا على ذلك الحكم ، فرجعنا الى كتاب «الحوليات» لشفيق باشا فوجدنا ان نص التوقيع الموجه لقلم قضايا الحكومة يحوى أسئلة هذا نصها :

اولا : هل نص الفقرة الاولى من المادة ١٠١ من قانون الازهر الصادر فى سنة ١٩١١ يقصر اختصاص هيئة كبار العلماء على الافعال الشائنة التى تمس كرامة العالم ، أم هو نص عام يشمل جريمة الخطأ فى الرأى من مثل ما نسب الى الشيخ على عبد الرازق ووقعت المحكمة فيه ؟

ثانيا : ان كان النص المذكور عاما يشمل جريمة الفعل الشائن وجريمة الخطأ فى الرأى معا فهل احكام الدستور فى المادتين ١٤ ، ١٦٧ وغيرهما لا تأثير لها فى حكم الفقرة المذكورة من جهة جريمة الرأى ؟

ثالثا : ان كان نص الفقرة المذكورة عاما يشمل الجريمتين معا ، وكانت نصوص الدستور لا تأثير لها فيما يتعلق باخراج العالم من زمرة العلماء فهل لها تأثير ايضا فى العقوبة التبعية التى تترتب على حكم هيئة كبار العلماء من جهة اخراج العالم من وظيفته وقطع مرتباته وحرمانه من الدخول فى أى خدمة حكومية ؟

يحيى باشا ؟ ذهب الى مقر الوكالة البريطـانية ، وقال لمن قابله من رجالها :

ــ ان أكبر هيئة دينية فى مصر أصدرت حكما ، ووزير الحقانية لا يريد تنفيـــذه ومن رأى الحـكومة عزله من الوزراة ..

وســاسة الانجليز يرتهبون أمام المســـائل الدينية ، وسياستهم تقضى بألا يتعرضوا لامر دينى ، فقالوا له :

ــ نحن لا دخل لنا فلتتصرف الحكومة مع ذلك الوزير بما تريد ..

بعد ان اتخذ يحيى باشا هـذه الخطوة . ذهب واتخذ طريقة هى من أبسط ما يكون ، ومن أطرف ما يكون ..

ذلك أنه لم يســتصدر مرســوما بعــزلى من وزارة الحقانية ، بل استصدر مرسوما يقضى باحالة أعمال وزير الحقانية الى معالى وزير المعارف الى أن يعين للحقــانية وزير ! وكان ذلك فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٢٥

وبهذه الطـريقة التى ليست فيهــا كلمة العــزل ، أو الاقالة الفجة ، أصبح لا عمل لى طبعا فى وزارة الحقــانية .. وصارت كل أعمالها من اختصاص وزير المعارف ، فلزمت بيتى ..

وقد تضامن معى فى هذا الحادث حضرتا محمــد على علوبة باشا وتوفيــق دوس باشــا فاســتقالا ... وكان اسماعيل صدقى باشا غائبا وقتئذ فى أوربا ، فلما بلغه الخبر تضامن معى أيضا ، واستقال تلغرافيا ..

تلك هما المسألتان اللتان كانتا أبرز ما اتفق لى وانا وزير الحقانية ..

كان سرورى عظيما بخروجى من وزارة أحمــد زيور باشا ، ونجاتى من الاثقال الوزارية ، وبعدى عما يقترفه

غيرى من الاوزار . ولم يكن هناك وقتئذ ما يثقل كاهلى الا رياستى لحزب الاحرار الدستوريين .. فلما كانت سنة ١٩٢٦ ، وحدث الائتلاف بين الاحزاب المصرية ، حمدت الله على أن أتاح لى هذا الاتفاق فرصة التخلى عن رياسة ذلك الحزب

وأنا أول من يحب الاتفاق ويوده من صميم فؤاده .. ولكن تجاربى الماضية دلتنى على أنه غير حاصل لوجه الله ولوجه الوطن .. ولهذا قدمت استعفائى من رياسة حزب الاحرار ، وعدلت عن السياسة للتفرغ لصناعتى الاصلية وهى المحاماة ..

الاخلاقيات خير من الماديات

وذات يوم وأنا بمكتبى ، حضر الى على ماهر باشا ، وطلب منى ان أترافع عن الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى رئيس تحرير جريدة «الاتحاد» وآخر معه ، لاتهامهما بالطعن فى تلك الجريدة على سعد باشا رئيس مجلس النواب فى ذلك الحين ، فاستقبلت ماهر باشا بما يليق بمقامه من الاحترام ، واجبته بأنى أقبل الدفاع فى هذه القضية .. ولعلمى أن أصحاب مثل هذه القضية قد يكلفون المحامى السير على خطة معينة ، فقد قلت لماهر باشا :

ــ أنت تعلم أنى ممن لا يقبلون من أصحاب القضايا أى شرط ولا رسم لخطة معينة ..

فأجابنى بكل لباقة وكياسة :

ــ اننى أعرف ذلك ، وانى أترك لك القضية لتتصرف فيها بما ترى ..

وبعد دراستى لاعداد الجريدة التى أخذت منها التهمة،

أفهمت ماهر باشا أنها تهمة ثابتة ، وان كل ما اطمع فيه الا يحكم فيها بشيء أزيد من الغرامة ..
فقال : « ونحن لا نطلب أزيد من هذا ! »

سرت فى تلك القضية ، وقد انتهيت بالحكم فيها بالغرامة فقط .. وقد كان دفاعى فيها بلا مقابل بالبداهة .. ولم أقبل من أصحابها أى أتعاب ..

وبعد هذه القضية بقليل ، صادف أن كان للدائرة « الامير سيف الدين » دعوى منظورة أمام مجلس البلاط . وكان صديقى الاستاذ توفيق دوس باشا وكيلا عن الدائرة فيها .. فقابلنى فى ذات يوم وأخبرنى أن من « المرغوب فيه » أن أشترك معه فى تلك القضية ، فقبلت طلبه . وحدث انه عرض على مبلغا جسيما بصفة أتعاب فى القضية ، فرفضته رفضا باتا

ولقد تعمدت الخدمة فى هاتين القضيتين بلا مقابل ، تأكيداً لذلك المعنى السامى الذى تدعو اليه الاخلاق .. وهو «ان الماديات لا وزن لها أمام الاخلاقيات» وان العالم لا يخلو من ذمم لا تشترى ..

رفضت عضوية الشيوخ

عقب هذا قال لى توفيق دوس باشا أن « جهة عالية » ترغب فى تعيينك عضوا فى مجلس الشيوخ ، فنفرت عند سماعى هذا الكلام . وكنا يومهـا فى جلسة بالسراى ، خاصة بقضية « سيف الدين » ، فأخذت توفيق باشا الى غرفة محمود شوقى باشا السكرتير الخاص ، وقلت لشوقى باشا :

ــ ان فى صدرى حزازة شديدة من دوس باشا ، فقد اخبرنى أنه يراد تعيينى عضوا فى مجلس الشيوخ ..

فأنا أرجوك أن تنقل عنى انى لا أوافق على عضوية الشيوخ التى تأتينى فى الظروف الحاضرة ! ..

فعلت ذلك اتماما لتحقيق تلك الفكرة الاخلاقية التى أشرت اليها ..

على أننى لم اكتف بذلك ، بل قابلت ثروت باشا ، وكان وقتئذ رئيسا للحكومة وابلغته ما كان من دوس باشا ، وما كان منى مع شوقى باشا فقال لى :

ـ هون على نفسك ، فان الحكومة هى التى فكرت وحدها فى تعيينك عضوا فى الشيوخ ..

فأجبت : « انى أرفض هذا التعيين على أى وجه يكون ..! »

وفى صيف سنة ١٩٢٧ توفى المرحوم سعد زغلول باشا .. وقد حزنت لوفاته وشق نعيه على كثيرا .. اسأل الله له الرحمة والغفران

فى رياسة الاستئناف

وفى صيف العام التالى ـ عام ١٩٢٨ ـ تألفت وزارة محمد محمود باشا بعد اقالة وزارة مصطفى النحاس باشا الاولى . ومما اذكره أنه عند تأليف هذه الوزارة حضر عندى أحمد خشبة باشا ولطفى السيد باشا ، وطلبا منى أن أدخلَ معهما هذه الوزارة ، فرفضت رفضا باتا ، وقلت لهما : « ان مركز قاض من الدرجة الثانية ، أكرم عندى من مركز الوزير ! »

ولما يئسا من قبولى، انصرفا .. وكنا فى اوائل الصيف ، فسافرت بعدها الى اوربا للاستشفاء ، ومكثت فيها نحو ثلاثة أشهر ثم عدت الى مصر ..

وقد كان توفيق دوس باشا أول من قابلني بالاسكندرية عند وصول الباخرة الى مينائها • وبعد التحيــة قال لى :

ــ مبروك • • •

قلت في دهشة : « ماذا ؟! • • »

قال : « انك ستعين رئيسا لمحكمة الاستئناف . . . »

ولمــا كنت أكره وظائف الحكومة على الاطلاق ، فقــد أسرعت بعــد نزولى من البـــاخرة ، وذهبت الى رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، وكان ما يزال بالاسكندرية، وأفهمته انى غير قابل هذا المنصب .. وانى أفضــل أن أكون بعيدا عن الحكومة ومتاعبها ، وكان صديقى أحمــد لطفى السيد باشا موجودا معه ، فقال لى :

ــ كيف لا تقبــل هــذا المنصب مع أنك قلت لنا انك تفضل مركز قاض من الدرجة الثانية على مركز الوزير ؟! فالان لن تكون قاضيا من الدرجة الثـانية ، بل رئيســا للقضاة ! . .

هذه الاجابة من لطفى باشا يعرف هو أنها ليست للبر الاصـيل ، بل هى مجـرد كلام لصرف المجلس . وقــد ناقشته هو ومحمد محمود باشا مصمما على الرفض

ولكن محمد محمود باشا أتى لى من الجانب الضعيف، اذ قال اننا اتفقنـــا مع الملك على أن تكون بهذا المنصب ، فأخذنا على عاتقنا امامه انه ستوافقنا ولن ترفض ..

عندئذ لم أجد بدا من القبول .. وعينت رئيسا لمحكمة الاستئناف فى نحو منتصف أكتوبر ســنة ١٩٢٨ . وكان قبلى فى رياستها المرحوم أحمد طلعت باشــا . وقد كان رجلا كفئا جدا لمركزه .. عرفته اذ كان رئيســا لنيــابة بنى سويف ، وكنت أنا عضـــوا بهــا ، فكان مثــالا للذكاء

والادراك الصحيح ، فلم أنكر عليه ذكاءه واستعداده عند حلولى محاله فى رياسة الاستئناف . ويجدر عنـــد ذكر هذا الرجل أن أقول ان اعوص القضايا كانت تجـد عنده حلا سريعــا .. لان فكره يتجه الى النقطة الاســـاسية العويصة فيها . ومتى حلها بذكائه واحساسه المرهف ، وفر على نفسه مضض البحث فى ملابساتها الثانوية التى لا تقدم ولا تؤخر فى الفصل فى الموضوع ..

كرامة القضاء

مكثت فى رياسة الاستئناف الى أن استعفيت منها فى فبراير سنة ١٩٣٠ .. ولذلك قصة : فقد حدث أن تولت وزارة مصطفى النحاس باشا بعد استقالة وزارتى محمد محمود باشا وعدلى يكن باشا . وذات صـــباح قرأت فى الصحف سؤالا من أحد أعضاء مجلس النواب الوفديين ، وهو الاســـتاذ زهير صـــبرى ، حاصله أنه يسأل وزير الحقانية ــ وكان محمد نجيب الغرابلى باشا ــ عن مرتب رئيس محكمة الاستئناف ، ولماذا يكون كمرتب وزير ؟!

وما كدت اقرأ هذا السؤال حتى حررت استقالتى من هذا المنصب ولم أذهب الى مكتبى بوزارة الحقانية ، بل ذهبت الى سراى عابدين رأسا وطلبت الاذن بمقابلة الملك فؤاد ، فتفضل واذن بمقابلتى فقلت له :

ــ يا مولاى ان كرامة القضاء ينبغى ان تصان من ان يعبث بها عابث .. وما دام أحد النواب قد سمح لنفسه أن يقدم هـــذا الســـؤال ، فانى لا أســـتطيع أن أبقى فى منصبى ...

وقدمت لجلالته استقالتى .. فأمهلنى جلالته ، وطلب أن انتظر أسبوعا حتى لا تتعطل الاعمال

وبعد يومين من هذه المقابلة تقابلت مع نجيب الغرابلى باشا وزير الحقانية ، فقال لى : « انك تخطيتنى بتقديم الاستقالة الى جلالة الملك .. »

فما كان جوابى الا أن حررت له فورا نص الاستقالة وتركتها له وانصرفت

حدث بعد ذلك ان رشحت الوزارة عدة اسماء لتولى هذا المنصب ، فلم يوافق الملك فؤاد .. وبعد نحـو أربعه اشهر استدعيت للعودة الى رياسة الاستئناف

وفى وزارة اسماعيل صدقي باشا سنة ١٩٣٠ ــ وكان علي ماهر باشا وزيرا للحقانية ــ أنشئت محكمة النقض والابرام ، فأسندت الى رياســتها ، ومكثت بهـا الى أن اختتمت حياتي القضائية رئيسا لتلك المحكمة

الفصل الحادى عشر

تعدد الزوجات
لماذا أقول بتحريمه؟



وضع المرحوم عبد العزيز فهمى هذا البحث الاجتماعى الشرعى الذى ننشره مع هذه المذكرات السياسية لما له من مكانة خاصة عند المسلمين والباحثين الذين يهمهم أن يقفوا على رأى هذا العالم القانونى الضليع . ولاسيما أنه يبرهن فيه على أن الاصل فى الاسلام تحريم تعدد الزوجات

لماذا كتبت هذا الموضوع ؟

من مدة مضت تفضل الاستاذ دريني خشبة فزارني وتحدث معى فى مشروع قانون خاص بالزواج تعتزم وزارة الشئون الاجتماعية استصداره . وقد تشعب الحديث فتناول مسألة تعدد الزوجات . فقلت له ان الذى أفهمه من مقارنة بعض الآيات القرآنية ببعض أن الاصل عندنا نحن المسلمين تحريم التعدد ، وبينت له وجه استدلالى . فنشر حديثى فى عدد مجلة «المجتمع» الصادر فى فبراير سنة ١٩٤٧ . ثم علمت أن أحد الأفاضل من المشتغلين بالفقه الاسلامى ، رد على ردا نشر فى عدد مارس سنة ١٩٤٧ من تلك المجلة . فاطلعت على كلام حضرته فاذا به يعترض علىّ بما حاصله أنه مصرح للمسلم بزواج أربع ، وكل مايطلبه اليه القرآن انما هو العدل المستطاع بين الزوجات ، وأن هذا مدلول عليه بقوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » ، وانى فى حديثى تركت هذه العبارة التى هى موطن الحكم

و ن عملي في تركها كعمل من يقول : « ويل للمصلين » تاركا ذكر باقي الآية — الى أقوال أخـرى لحضرته في الاعتراض

ولاسباب شخصية خاصة بي وأسباب تجريبية ممـا رأيته في أحوالنا الاجتماعية امسكت عن الخوض في هـذا الموضوع الذي أتحسس أن الكلام فيه وفيما هو من واديه يكثر بلا نتيجة

ولكن في يوم (٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧) شرفني بعض الافاضل من اخواني بالزيارة ، وبينهم الاستاذ احمد أمين . وقد جر الكلام الى هذا الموضوع ، ولاختـلاف الآراء فيه بدر مني أني سأكتب رأيي تفصيلا وأنشره . ومع أن انجاز هذا الوعد ليس فيه سوى الاسراف على صحتي دون جدوى ، فقد آثرت أن أتحامل على نفسي وأنجز ماوعدت به

آيات القرآن ووجوه الاستدلال بها

* هاك نص الآيات القرآنية التي بنيت وأبني عليهـا رأيي ، وكلها في سورة النساء :

اولا : الآية الثانية من السورة وهي : « وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى اموالكم انه كان حوبا كبيرا »

ثانيا : الآية الثالثة ونصها : « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثـلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ، ذلك أدنى الا تعولوا »

ثالثا : الآية التاسعة والعشرون بعد المائة ونصها :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »

* وأقول : ان الكلام فى الآيتين الثانية والثالثة من السورة مسوق لتحقيق فضيلة العدل فى المعاملة . فأشار فى أولاهما الى ماكان حاصلا من أكل المخاطبين أموال اليتامى الذين فى ولايتهم ومن العبث بها ، وقد أمرهم باجتناب هذا العبث وعدم التورط فيه لانه اثم عظيم

ولما كان بعض اليتامى اناثا فى حجر المخاطبين وكان لهن اموال تحت يدهم وكان من عاداتهم السيئة أنهم يتخذون هؤلاء اليتامى زوجات لهم ويمسكونهن هن وأموالهن ضرارا ، وكان هذا أشنع مظهر من مظاهر أكل مال اليتامى ، فتتميما لفكرة تحقيق العدل (التى فى الآية الثانية من السورة) وتثبيتا لها أشار فى الآية الثالثة الى هذا المنكر ، وأتى بأبلغ مايكون من القول لصرفهم عنه . انه يقول لهم : اذا فهمتم قولى فى الآية السابقة وعلمتم ان أكل مال اليتامى مطلقا (من ذكور واناث) اثم كبير فلا تتذرعوا الى هذا العبث بنكاح اليتيمات اللاتى فى حجوركم ، بل تعففوا عن نكاحهن المفضى بكم الى اكل أموالهن ، ولديكم ممن تستطيبونهن من غيرهن من النساء كثيرات ، تستطيعون ان تنكحوا منهن ماتشاءون، لا واحدة ولا اثنتين واحدة بعد أخرى ولا ثلاثا واحدة بعد الاثنتين الاوليين ، بل حتى مثنى وثلاث ورباع ، أى جزافا بلا حساب ولا عدد

* فهذه الآية ليست مسوقة لتحديد عدد الزوجات مطلقا ، بل هى مسوقة بالذات وبالقصد الاول الى التضييق على المخاطبين فى نكاح من تحت حجرهم من اليتيمات ، مع تبكيتهم لعدم انصرافهم عن هذا المنكر

من تلقاء أنفسهم ، والحال انهم يرون أن لهم مندوحة عنه وأن شفاء شهواتهم ورغباتهم ميسور التحقق لهم من غير تلك السبيل الآثمة الخطرة . وكل متذوق يعلم كم فى التعبير بهذه الكيفية من الهزؤ والسخرية بالمخاطبين من جهة ابرازه أمام نظرهم صورة تكاد تكون مجسمة لتعاميهم عن ادراك ماهو فى متناول يدهم عفوا صفوا لا اثم فيه ، وارتكابهم ذلك الاثم الذى هم فى غنى عن ارتكابه

غير أنه مع هذا التوسيع التقريبى العظيم لم يترك فكرة العدل التى هى اساس القول فى هذه الآية وفى التى قبلها ، بل سارع الى التنبيه اليها والتنويه بها فقال : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم » . بل انه كيما يثبتها فى أذهان المخاطبين أكدها بذكر العلة المرغبة الموجبة فقال : « ذلك ادنى الا تعولوا »

* ويلاحظ فى الصدد الذى نحن فيه انه لا فرق بين أن يكون النص أبقى على التعدد المطلق المألوف للعرب كعادتهم أو اباحته الى الاربع فقط كما يقول حضرات المخالفين ، فان الرباط الذى وضعه فى قوله « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » يسقط قيمة كل كلام فى التعدد والى أى حد يكون ، ويجعل العبارة تؤول الى شىء واحد هو : أن الشارع يستوى عنده أن يتزوج الرجل واحدة أو ألفا مادامت معاملته لكل واحدة من زوجاته تكون عادلة ، ومادام يسوى بين الجميع فى هذه المعاملة العادلة ، ومادام لا يخاف من نفسه عدم العدل ، وبحيث أنه ان خاف عدم العدل فواجبه أن يقتصر على الواحدة

* الا أن النص فى نظرى بعيد ـ كما اسلفت ـ كل

البعد عن افادة أن الآية مسوقة لتحديد عدد الزوجات الجائز جمعهن ، كما يقال وذلك :

أولا : لان تحديد عدد الزوجات من الامور الاساسية فى التشريع للعرب ، لانه يصادم عادة متأصلة فيهم ، والقرآن أجل من أن يأتى بهذا الشأن الاساسى بصفة عرضية جوابا لعبارة شرطية بعيدة بظاهرها عن هذا الشأن ولا مناسبة بينها وبينه . اذ الحق أن أحدا لا يستطيع أن يفهم ماهو الارتباط بين خوف عدم الاقساط فى اليتامى وبين نكاح النساء والى أربع فقط . ان القرآن لاجل بلاغة من أن يأتى بهذه المفارقة

ثانيا : لان كلمة «ما» فى قوله « ما طاب لكم » هى من أقوى مايكون فى افادة العموم . ولست أميل الى ماقد يقولونه من أنها موصولة مستعملة فى محل كلمة «من» . بل الذى اطمئن اليه أنها نكرة بمعنى (أى شىء) ، فهى من أعم مايكون فى الدلالة ، أى فانكحوا مما ينكح أى شىء طاب لكم ، أى أية امرأة او أية مجموعة من النساء طابت لكم . ولاشك أن هذا التعبير فى ذوق كل عربى أعم من دلالة «ما» اذا فهمت على أنها «ما» موصولة

ومتى اطمأن الناظر الى أن لفظ (ما) عام ذلك العموم ، وانه بأصل وضعه يطلق على الإنسان والحيوان والجماد وسائر الموجودات ، ولا يتحدد الا بالوصف المباشر الذى ينعته ، وهو هنا « طاب لكم من النساء » ، فمما يطعن على بلاغة القرآن وتساوق عباراته وتناسبها أن ينحدر من هذا العموم الكلى الى التحديد بالاربع ، بل انه انحدار يكون غير مقبول شكلا (كما يقول) الناس فى وقتنا الحاضر) . اذ لا مشاكلة بين ذلك الاطلاق المبتدأ به وبين هذا القصر المفاجىء الذى يصدم الفكر لانه من

واد آخر مفارق لوادى التعميم ، وهو فى التمثيل أشبه الاشياء بفارس يكبح فرسه ويكرهه على الوقوف فجأة وهو فى أوج انطلاق عدوه . وبلاغة الآية لا تحتمل هذا العبث الشديد

ومما تجب ملاحظته أن القرآن عندما نعت كلمة (ما) المذكورة راعى عمومها المطلق فاستعمل فى النعت كلمة (طاب) ولم يستعمل كلمة (حل) لان (الطائب) قد يكون حلالا وقد يكون حراما ، فمدلوله أعم وأشمل من مدلول الحلال . وهذا من أبدع مايكون فى مراعاة المشاكلة . فحرام اذن ان يعبث احد بهذه البلاغة المتناهية

ثالثا : لان التغاضى عن مقصود العبارة القرآنية وفهمها على ذلك التحديد الحرفى يؤول بنا الى نتيجة منكرة : ذلك أن مثنى وثلاث ورباع معناها المتفق عليه عند الجميع اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ، لانها أوصاف معدولة عن أصلها هذا العددى . ومثل هذا التعبير سواء كأصله أو كما عدل به اليه مستعمل الان وقبل الان فى كثير من الظروف . يقول الضابط لجنوده : سيروا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة او أربعة أربعة (أو يقول لهم مايساوى هذا بالضبط فى فصيح العربية الموجز : سيروا مثنى أو ثلاث أو رباع) ، فاذا أراد الجنود تنفيذ هذا الامر وجب أن يكون حدث السير واقعا من كل اثنين منهم معا فى آن ؛ أو من كل ثلاثة منهم فى آن ، أو من كل أربعة فى آن ، بحيث انه اذا سار واحد منهم بمفرده ثم سار الآخر من بعده بمفرده فان سيرهم لا يكون مثنى (أى اثنين اثنين) بل يكون موحدا فقط . وكذلك اذا قلت لاحد الناس : كل هذه العنبات مثنى وثلاث ورباع ،

فتنفيذ هذا يكون بأن يأخذ فى اللقمة الواحدة حبتين من العنب أو ثلاث حبات او أربع

أقول هذا لافادة أن المعنى الحقيقى للفظ (مثنى) يقتضى أن الحدث المتبوع بهذا الوصف يقع فى وقت واحد من الفاعلين أو على المفعولين . فقوله : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » معناه بحسب حقيقة هذه الالفاظ يقتضى أن حدث النكاح يقع فى الوقت ذاته على اثنتين أو ثلاث أو أربع ، أى ان يأتى الرجل لامرأتين فيتزوجهما فى وقت واحد بعقد واحد أو أن يأتى لثلاث نساء أو لاربع فيتزوجهن فى وقت واحد بعقد واحـــد كذلك . وهذا من أشد مايكون افسادا للفكر ، لمخالفته لما هو معلوم من مجريات العادة عند العرب وغير العـــرب فى الزواج . هذا الفساد الشنيع الذى يؤول اليه المعنى يفيد أن تلك المغالاة اللفظية يستحيل أن يكون معناها الحرفى هو المقصود ، بل هى كناية عن الاخذ الجـــزاف المنافى لكل تحديد ، وقد جاءت هنا للغرض الواضح الذى اشرت اليه وهو تقريع المخاطبين والهزؤ بهم لتماديهم فى اكل اموال اليتيمات بالباطل عن طريق نكاحهن ، وتعاميهم عن الباب الواسع الموصل الى تحقيق رغباتهم من النكاح بلا حرج ولا فسوق ولا أثام . اما رجوع الآمر بعد هـــذا الكلام الى قوله : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة . . . » فهو تعجيل منه بالعودة الى مايجب من تحقيق فكرة العدل التى قامت عليها الآية التى نحن فيها والآية التى قبلها وكثير مما بعدها من الآيات

رابعا : لان عبـــارة الآية « مثنى وثلاث ورباع » أتت بكل ما فى العربية من ألفاظ الصفات العددية التوزيعية . اذ ليس فى العربية (خماس) ولا مايليها ، وخلاصـــة

ماقاله ثقات اللغويين المختصين أنه ورد فيها لفظ (عشار) سماعا فقط ولكنه من الشذوذ

وهذا يدلك على ان القرآن استقصى فى الآية كل ما فى العربية من الفاظ التوزيع الجزاف ، ولم يترك بعدها لفظا لمزيد . ومن التسلل الرخيص على عبارة الآية أن تلتمس منها ارادة تحديد الزوجات بشىء من المجاميع التوزيعية المبينة بها . ولقد يخيل الى أن هذا التسلل الرخيص هو من عمل بعضهم ايام التدوين واجتهادهم فى تصويب ما أستقر عليه الاجماع فى بيئتهم من عدم تعدى الاربع . وجدوا ألفاظ هذه الآية تنتهى الى (رباع) فجعلوا هذا اللفظ متكأهم وأخذوا يؤولون الآية ويفسرون العربية على غير ما لالفاظها من الدلالات والمفاهيم

بل ان من أبلغ ضروب التسلل ماعمدت اليه بعض البيئات من قولهم ان الآية اذا قالت : « مثنى وثلاث ورباع » فقد أباحت للمسلم تسعا من النساء ، لان (مثنى) معناها اثنتان و (ثلاث) معناها ثلاث و (رباع) معناها أربع ، وهى متعاطفة بالواو المفيدة للجمع ومجموع هذا تسع ، ثم من تأييدهم هذا الفهم الجرىء بما كان من ترك النبى تسعا من الزوجات . وأخطر من هذا التسلل زعم بعضهم أن للمسلم التعديد الى ثمانى عشرة لان الفاظ الآية تفيد التكرار

ومن عبارات الحق التى يدعم بها الباطل أن المقتصرين على أربع ردوا على أولئك بأن التسع من خصوصيات النبى لا يشركه فيها مسلم ، وظنوا أنهم بهذا الرد ألزموا بنظريتهم فى حل الاربع فقط مخالفيهم اولئك المتطرفين

واقول ان الحق بين ، وهو ان الآية لم تعمد قط الى تحديد عدد الزوجات بالنص ، لا بأربع ولا بتسع ولا بثمانى

عشرة كما هو مزعوم . ولا يطعن على أى دين من الاديان أنه يترك تعدد الزوجات على أصله من الاباحة ، انما الذى يطعن على الدين أن لا يأمر بالعدل التام فيما بين الزوجات المتعددات ، والدين الاسلامى يأمر به بأقوى العبارات ويشدد فى أمره غاية التشديد ، بل يصرح بأنه فوق استطاعة الانسان

خامسا : لانهم ــ تأييدا لتفسيرهم الاكراهى ــ يقولون ان فى الآثار ان فلانا أو فلانا كان تحته ثمانى نساء أو عشر ، فلما نزلت الآية كلم النبى فأمره بامساك أربع ومفارقة الباقيات

وأقول : كيف تطمئن قلوب المؤمنين الى الاخذ بمثل هذه الاحاديث ؟ انه حتى مع التسليم جدلا بأن الآية تحدد عدد الزوجات ، فان فلانا الذى يروون حكايته اما أن نساءه كن جميعا لديه فى الجاهلية ، واما أنه جمعهن بعد الاسلام ومن قبل اسلامه هو ، أو بعد اسلامه ومن قبل نزول قوله تعالى : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » . وعلى أى الفروض فهل يعقل أن مثل هذا الرجل الذى قد يجوز أن تكون كل نسائه والدات ، ويجوز أن يكون له من كلهن أطفال فى دور الرضاع ــ هل يعقل أن أية شريعة سماوية أو وضعية تأتى بخراب بيت مثل هذا الرجل وتشتيت بعض زوجاته وماقد يكون لهن من أطفال هذا منكر لا يأتيه شرع الله ، ولايمكن أن يكون النبى أمر به الا اذا تصورنا النبى ــ وحاشاه ــ قد فارقه ما فطر عليه من الخلق العظيم . وأية ضرورة دينية أو اجتماعية عاجلة تدعو الشرع الاسلامى الى مثل هذا التخريب العاجل الشنيع ؟ ألا يكفى أن يكون القانون نافذا فى المستقبل وأن الله الغفور الرحيم يعفو عما سلف ، بلا

اسناد الحكم ولارجعية ؟ أظن هذا هو الحق وانه هو مراد القرآن ، وهو جار على طريقة القرآن

ومن ناحية أخرى فان قوله : « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... » ان فرض أنه مسوق للتصريح بتعديد النساء الى أربع فقط (على التفسير النسرى الاكراهى الذى يريده أصحاب هذه النظرية) ، فانه يقرر أيضا حكما أساسيا هاما هو وجوب الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل بين الاربع المزعومات . وهذا الحكم الاساسى كان يقتضى بطبيعة الحال أن يأمر النبى الناس بمفارقة مازاد عن واحدة ، لان الخوف يملأ كل نفس حتى نفس النبى . فلماذا يترك النبى تنبيه الناس الى هذا ويقتصر على تنبيههم الى مقتضى الحكم الاول الخاص بعدم الزيادة على الاربع (كرأيهم) ؟ ان هذا ليجعلنا نرتاب كل الارتياب فى صدق تلك الاحاديث التى يحتجون بها

دفع اعتراض

* اما ما قيل من انى فى حديثى الاول اشرت الى الآية الاخرى الواردة فى نفس سورة النساء ، ولكنى ذكرت جزءا منها فقط هو قوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وتركت باقيها وهو قوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة .. » وان هذا الذى لم أذكره هو موطن الحكم ، وان عملى فى تركه كعمل من يقتصر من الآية القرآنية على قولها : « ويل للمصلين » — كل مايقال من هذا لا جد فيه . وحضرة المعترض الفاضل يعلم طبعا أن لاجد فيه ، ولكن

يبدو أنه يريد الاعتماد على الادلة الخطابية التى لاتجدى فيما نحن فيه . وان أرادنى على بيان عدم جد هذا القول ، فانى كمثله لا أرجع للعبارات الاصطلاحية التى يراها ثقيلة . بل يكفي ان أقول ان هناك طريقة عملية بسيطة تبين فساد التشبيه : هى أن تذكر العبارة القرآنية أو غيرها مجردة ، وان تنتظر هل يقال لك : (هذا صحيح) ، أو يقال : (هذا كذب) . فكل عبارة يقول لك سامعها : (هذا كذب) تعرف بلا رجوع الى الاصطلاحات العلمية أنها عبارة لا تستقل بذاتها،ولايجوز فصلها عما يتممها . فاذا قلت : « لا تقربوا الصلاة » فقط أو « ويل للمصلين » فقط قيل لك (هذا كذب) ، فتعلم من هذا ان عدم تتميم الكلام خطأ فاحش . أماكل عبارة لا تسمع أحدا بعدها الا قائلا : (هذا صحيح) مثل قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فانها تكون عبارة مفيدة معنى تاماصحيحا كل الصحة ، ويكون لك أن تقتصر على ايرادها وأن تستنتج منها أو تفرع عليها ماشاء الله أن تستنتج أو تفرع مما لايمنعك منه مانع شرعى أو عقلى . وكل هذا معروف طبعا وترديدى اياه الان لمجرد التذكير

* ان آية اول السورة بعد ان وسعت فى الزواج ذلك التوسيع التفريعى الجزاف الذى لا تحديد فيه قالت : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم » ، وآية آخر السورة تقول : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، ولفظ (العدل) وارد فى الآيتين بحروفه ، فلايمكن أن يكون معناه فيهما الا واحدا على حقيقته الشاملة للماديات ثم المعنويات العاطفية جميعا . ولقد فهمت أن الآيتين متكاملتان وأن

اولاهما اذا كانت أوجبت على من يخاف عدم العدل بين زوجاته أن يقتصر على واحدة ، فان الثانية اذ قررت أن هذا العدل غير مستطاع مهما حرص الانسان عليه ، فقد أكدت بهذا أن الخوف حقيقة واقعة لا محالة ، فكان تأكيدها هذا أدعى الى الاقتصار على واحدة وأوجب له وجوبا لا انفكاك منه . فهمت هذا وقررته وقلت انى من دعاته والمؤمنين به . فقال حضرة المعترض : انه يحتج على بالجملة التابعة للآية الثانية وهى قولها : «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ... » ، وان القرآن اباح التعدد الى الاربع ، وانه لو كان أراد تحريم تعددالزوجات حقيقة لسهل جدا أن يعمد الى النص على هذا رأسا فى عبارة موجزة تقتصر على بيان تحريم التعدد وحكمة التحريم بما فى التعدد من جور .. »

فمؤدى احتجاج حضرة الاستاذ أن الاصل القرآنى هو أن التعدد مباح دائما بلا شرط ولا قيد ولكن الى الاربع فقط ، وأن عبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» وردت لتنظيم السير عند الاخذ بهذه الاباحة المطلقة الدائمة الى الاربع

* واقول انه لو صح هذا الفهم لتعارضت هذه العبارة على الدوام والاستمرار تعارضا شديدا مع عبارة « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » ولاضطرب قلب المسلم وما فهم كيف ان الله يأمره عند مجرد خوفه من عدم العدل بين الزوجات ان يقتصر على واحدة ، وكيف انه مع حكمه فى قوله : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » بأن هذا العدل غير ممكن مهما حرص الرجل على تحقيقه ــ كيف أنه مع حكمة هذا الحكم القاضى بتحقق الخوف حتما بصفة دائمة والمقتضى عقلا وبطريق الاولى وجوب اقتصاره على واحدة ــ كيف أنه هو

نفسه يسقط عمل هذا المقتضى ويجعل الرجل حـرا فى تعديد الزوجات ، وكل ما يطلبه اليه هو العدل بينهن ما استطاع ؟ اقول لاضطرب قلب المسلم ولم يدر هل بعبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » نسخ الله امره الاول وهو الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل نسخا أبديا ؟ أم أنه له منها مرادا آخر ؟ اشـكال شديد تصطرع فيه ذمة من يريد السير على مقتضى شريعة الله القائمة . واحتجاج حضرة المعتـرض لا ينتج الا اذا كان هذا النص الذى يحتج به قد نسخ النص الاول فأصبح لا معول عليه ، وأصبح النص الثانى المذكور وهو قوله : « فلا تميلوا كل الميل » هو النص الابدى المعول عليه . وما أظن احدا يجرؤ ان يقول بهذا النسخ

لا اشكال فى النصوص

* والواقع الذى يبدو لى ان ليس فى عبـارات القرآن التى نحن بصددها شىء من الاشكال أو الغموض لو نظرنا اليها على بساطتها ونظرنا الى حال العرب الاولين عند نزولها ، وأدركنا ان القرآن كتاب هداية وارشـاد ، كان يتنزل ويبلغ للعـرب رويدا رويدا تبعا لحالهـم الاجتمـاعية واسـتعدادهم النفسى الذى يتربى بالزمن شيئا فشيئا بغير عنف لا تقتضيه الظروف

ذلك بأن الآيةالاولى ـ كما اسلفنا ـ لم تأت قط بقصد التصريح بتعدد الزوجات ، ولكن الى أربع فقط كما هـو مزعوم ، وانما اتت ـ بظاهرها ـ غير مانعة من أخذ اى عـدد كان من النساء ولكنها مع هذا التوسيع التقريعى الجزاف خشيت أن يسىء المخاطبون فهمهـا فنبهتهم الى لزوم الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل . وبما انه يبدو ان النبى وكثيرا من الناس كانوا على عادة العرب

متزوجين بأكثر من واحدة ، فخوفهم من عدم العـــدل حاصل بالطبع وقلوبهم واجفة واقعة فى الاضطراب حتما ، وهى حال لا تطاق ، ، فما العمل ؟ هل يسارعون الى العمل بقوله : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » وحينئذ يفارقون ما زاد على الواحدة ؟ أم أن الله فى لطفه وكرمه والدين الاسلامى فى يسره وسهولته ينظر الى الزوجات اللاتى تبين، والاطفال الذين يهملون ، والبيوت التى تخرب ، والعـرب الواجب تأليف قلوبهم لا تنفيرهم ، فيجعـل تشريعـه للمستقبل ويتساهل فى الماضى وفى أثر النكاح القـائم ويتركه يزول بطبعه بعد قليل من الزمن ، شـــأن كل تشريع سليم يرضاه العقل ويطيقه الاجتماع ؟ يبدو لى أن هذا هو الواقع ، وان المسلمين هلعوا وجأروا هم والنبى الى الله متململين من هذه المحنة الراهنة ، فلطف الله بهم فبين مراده بأن أنزل قوله : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » لا تنظيما للمستقبل الابدى كما يقـولون ، بل تنظيما للحالة الوقتية الناشئة عن تلك المحنة التى وجدها المسلمون حائقة بهم ، وهى حالة الزوجات المتعـددات الموجودات فعلا عند نزول هذا القول ، وذلك بأن يراعى العدل بين الزوجـات المذكورات بقدر الاســتطاعة وبأن لا محل لمفارقتهن وعدم الابقاء الا على واحدة منهن بسبب خوف عدم العدل

* وهذا الفهم الذى نفهمه من اضطراب المسـلمين وشكواهم ومن تخفيف الله عنهم على الوجـه المذكور ـ (الذى هو مجرد تخصيص او بيان لحـــكم « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » من جهة زمان تطبيقه) ـ هــذا الفهم تؤيده نصوص القرآن نفسه ، فان الآية (رقم ١٢٩) التى ورد فيها قوله : « فلا تميلوا كل الميل فتذروهـــا كالمعلقة » انما نزلت ضمن ما نزل بعد قوله تعـــالى فى

الآية (رقم ١٢٧) التى ورد فيها قوله : « ويستفتونك فى النساء . قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن . . » فأنت ترى فى هذه الآية (رقم ١٢٧) ما يؤيد فهمنا من أن العرب ضجوا وجأروا بالشكوى من المحنة التى وجدوا انها نزلت بهم فاستفتوا النبى . وأنت ترى أيضا أن هذه المحنة المشكو منها والمستفتى فيها اشار القرآن اليها والى موضوعها اشارة واضحة ، وذلك بتصريحه بأن الاستفتاء هو فى النساء ، ثم بتصريحه بأن فتواه هى ما سبق تلاوته عليهم فى القرآن فى يتامى النساء اللاتى كان العرب يأكلون أموالهن ويريدون أن يتزوجوهن ، اى تذرعا لاكل اموالهن . والذى سبق للقرآن تلاوته عليهم فى هذا الصدد انما هو قوله تعالى فى الآية الثالثة من السورة : « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . » ولاشك أن اشارة القرآن فى الآية (رقم ١٢٧) الى الآية (رقم ٢) المذكورة انما هى توكيد منه لهذه الآية رقم (٣) ولفت نظر الى وجوب العمل بها . على أن القرآن لم يكتف بهذا التوكيد المفهوم بطريق الاشارة والايماء ، بل انه ـ كيلا يتأول العرب اى تأول فى معنى خوف عدم العدل المفهوم من قوله : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » ـ قد سارع قبل قوله : « فلا تميلوا كل الميل » الى قوله : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، فكأن هذا زيادة تثبيت منه لمقتضى قوله : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » كما كان بيانا منه واضحا لوجوب العمل بقوله هذا فى المستقبل وتأكده تأكدا محتوما

* فعبارة « فلا تميلوا كل الميل » المراد الاحتجاج بها ليست اذن ـ يعلم الله ـ سوى حكم وقتى ينقضى بانقضاء الموجود من الزوجات عند نزولها مهما يكن عددهن . ومن المستبعد عقلا أن تكون ـ كما يزعمون ـ تنظيمـــا أبديا للسير عند تعدد الزوجات الى أربع (أو الى ثمانى عشرة كنظريات المتطرفين) . مستبعد هذا عقلا ، الا اذا قيل ان الله الغى قوله : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » أو انه مع ايجابه على الناس تشغيل عقولهم فانهم يجوز لهم تأويل كلامه بما يخالف مقتضى العقل ، ولو حكم العقل بأن ما يذهب اليه هو الاولى . ومن ذا الذى يقول ذلك ؟

* ومتى فهمنا عبارة « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » على هذا الوجه المعقول الموافق لاصول التشريع أبعدنا عن نصوص القرآن شبهة التعارض والاشـــكال والنسخ ، وعن الذين شبهة ظلم النساء المتزوجات فعـــلا اذ ذاك بلا موجب اجتماعى أو دينى ، وعن مسلمى ذلك الوقت مضض العنت اللازم عن تنفيذ مثل تلك الاحاديث التى يروونها عمن يقولون ان النبى أمرهم بترك الزائد عن اربع من النساء

* وخشية سوء التأويل لا يفوتنى هنا تكرار القول بأن القرآن الكريم لم يحرم تعدد الزوجـــات بنص صريح قاطع خـــاص ، بل انى كنت ذكرت فى حـــديثى الاول أنه يحرم التعدد فواضح من الحديث ذاته أن ذلك استنتاج من الآيتين (رقم ٣) و (رقم ١٢٩) واحتياط منى بصفتى مسلما يحب أن يعنى بتقرير ما يغلب على ظنه أنه هـــو المقصود للنصوص الواردة بكتاب شريعته

* أما ما اعترض به من أن القرآن (لو أراد تحريم تعدد الزوجـــات لنص عـــلى هـــذا .. الخ) فيبـــدو أن أساسه ما تلقفه حضرة المعترض من كلمة « بتاتا » التى

وردت فى حديثى . تلك الكلمة التى توهم بظاهرها انه تحريم مطلق لا منوية فيه . فانا اعذره فى اعتراضه . ولكنى أعتب عليه لتركه ما فى تفصيل الحديث وتلقفه تلك الكلمة الشاردة لبناء الاعتراض ، وهو لابد عالم بأن المحادثات الشفوية ، وبخاصة فى مثل هذه الموضوعات الحساسة ، غالبا ما يلابسها التشدد فى تأييد الاعتقاد فلا تخلو من شرود بعض الالفاظ . وبقطع النظر عن هذا ، فان ما يقوله الآن هنا غير قويم لاننا جميعا نعرف — كما أشرت اليه من قبل — ان الدين الاسلامى عالج نقائص العرب تدريجيا مع الاناة والتلطف والابتعاد عن كل ماينفرهم بلا مقتض . ومسألة تعدد الزوجات كانت من العادات المتأصلة فيهم ، فمصادمتهم بتحريمها بالنص القاطع القاسى لا محل لها . لكنه اتخذ لهذا أسهل طريق العدل بين الزوجات ، فكانت وسيلة سائغة من شأنها — او أخذ بها — ان تكون موصلة الى الغرض غاية التوصيل، بل انه — كما أفهم — لطفبهم فلم يكلفهم فى الموجود من الزوجات الا العدل المستطاع ، ولم يجعل حكم الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل نافذا فى هذه الموجودات واذن فما محل اعتراض حضرة الاستاذ المعترض ؟ انما المحل للاعتراض هو دعواهم على الآية انما تحدد للزوجات المحلات اطلاقا بأربع . ان هذا مواطن القول بأن القرآن لو اراد لتعمد ان يقول بعبارة بسيطة موجزة : (يحل نكاح النساء الى اربع) أو (يحرم أكثر من اربع) . بل بما ان عدم الزيادة على اربع هو من باب محرمات النكاح — كان من الاولى ايضا ان يذكر أمره به فى الآية « حرمت عليكم امهاتكم » بان يأتى بعد عبارة «وان تجمعوا بين الاختين » فيقول : (ولا ازيد من اربع الا ماقد

سلف) ــ أو كان يذكره استقلالا كما ذكر « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » . ثم هو لا يحتاج فى تسويغ هذا التحريم لشىء من العلل لان العلة واضحة

منهج القرآن والأصل المتبادر فى هذه المسألة

* وينبغى لى أن أسـارع الى القول بأن أفعال الله تعالى تقوم على الحق ودينه يقوم على الحق . والعدل هو ميزان الحق أى هو الطريق الوحيد الممكن للحق فى هذا الوجود ، وليس للحق من ميزان غيره . ولذلك تجد القرآن الكريم يشيد بالعدل ويحث على تحريه فى كل منحى من مناحى الاعمال المقصودة للدنيا أو للاخره ؛ وما هذا الا ليتحقق فى ملكوت الله قيام الحق . وفيما عدا الحق المعلوم من الدين بالضرورة كوجود الله وقدرته والبعث والحساب وما شاكل هذا مما علينا اعتقاده ، فان العدل الذى هو وسيلة التمكين للحق أمر نسبى يتغير مجراه بحسب الاحوال والظروف . فمن بيده تدبير أمور العباد يلاحظ ظروفهم ملاحظة دقيقة ، ويقر العدل فيهم موازنا دائما بين النفع والضرر فيما يأتى من التدابير وما يذر ، غير مجر فيهم الا ما هو نفع محض أو ما نفعه اكثر من ضرورة

* على هذه الوتيرة سار الدين الاسـلامى فى تدبير أمور المسلمين . عالج احوال العرب بكل تؤدة وسار بهم رويدا رويدا بلا طفرة نحـو ما كانوا ميسرين له من الكمال والرقى المـادى . وكل يعرف كيف كان تدرجه فى كثير من الانظمة التى وضعها . وفى الموضوع الذى نحن بصدده الآن قد ترك القرآن النـاس على حريتهم وعاداتهم يتزوجون أى عدد من النسـاء يريدون . وغير

صحيح – فى نظرى – انه حد من هذه الحرية نصا أى تحديد . بل كل الامر انه نبههم الى القاعدة الاساسية فى تشريعه ، وهى مراعاة العدل والابتعاد عن مزالق الجور ، فأوجب على المسلم عندما يقوم فى نفسه الخوف من عدم العدل أن يقتصر على زوجة واحدة . ثم أكد هذا المعنى تأكيدا لا هوادة فيه بقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . فأصبح الاصل الواجب الذى يحتذيه كل مسلم يريد الاحتياط لنفسه هو الاقتصار على زوجة واحدة

* وهنا يعرض السؤال الآتى : الا هوادة فى هذا الاصل ولا محيص عنه اصلا ؟

والجواب حاضر ميسور . وهو ما قرره السلف ويقره العقل من أن الشرط اذا انتفى بطل المشروط ، ومن أن العلة الموجبة اذا زال المعلول . ومن انه لا تكليف بما لا يطاق ، ومن ان الضرورات تبيح المحظورات – تلك القواعد التى بها مصادر اساسية فى القرآن ذاته ، كقوله تعالى : « واذا حللتم فاصطادوا » وقوله : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وقوله : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وكقوله بعد تحريم بعض اصناف الطعام : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه »

* وهذا يبين لك حل التعديد فى حالتين . الاولى اذا انعدم الشرط بأن انتفى موطن خوف الجور بتاتا والثانية اذا قضت الضرورات الماسة بإباحة التعديد ولو مع قيام خوف الجور

فاذا فرض ان للرجل زوجة مرضت ، واصبحت نهائيا فى حال لا تصلح معها للزوجية ، فمثلها يستحيل أن تكون محلا لتحقيق العدل فى القسم ، وكل ما ينبغى من

فالعدل فى حقهـا انمـا هو اجراء النفقة عليهـا بالمعروف بحسب حاجتها ، كما يجريها الرجل على أبيه أو أمه أو أخته أو غيرهم ممن تلزمه نفقتهم . فهذه الصـورة وما قد يشبهها لا مانع شرعا ولا عقلا يمنع فيهـا من التزوج ثانية

ثم ان الامم قد يقوم فيها من الظروف ما يقضى عليها حتما بتعديد الزوجات ، كأن تدخـل أمة فى حرب تقضى على كثير من رجالها فيقل عدد سـكانها وتتضاعف فيهم نسـبة الاناث ، ويكون لا محيص من تعـديد الزوجات تكثيرا للنسل من الذكور الذين يرفعون الامة من وهدتها. فهذه أيضا صورة تبيح تعديد الزوجات . اذ الضرر من خوف الجور فيها لا يصح أن يقام لله وزن بجـانب ذلك النفع العظيم الذى يأتى به التعديد ، وهو المحـافظة على كيان الامة ومنع تقوضه بسبب قلة رجالهـا وصيرورتها هدفا لاعدائها

* وأنت اذا دققت النظـر وجـدت أن فكرة تحقيق العدل هى أيضا القاضـية بتعـديد الزوجات فى مثـل الصورتين السـابقتين . ذلك أن الضرورة الطبيعية تقضى على الرجل بمبـاشرة الاختـلاط الجنسى ، والزنا محرم عليه شرعا ، وامرأته فى الصـورة الاولى لا تصـلح لهذه المباشرة ، فمن العدل فى حقه أن تبيح له التزوج بغيرها والا فقد ظلمته بتكليفه مالا يطاق ، وكذلك من العدل فى الصورة الثانية عـدم تعريض الامة للهـلاك بحرمانها من تقوية نفسها ، ولا وسـيلة الى هـذه التقوية الا بتكثير النسل من الذكـور ، ومظنته انمـا هى اباحة تعديد الزوجات

وحاصل ما تقدم أن الاصل فى الاحوال الاعتيادية هـو الاقتصار على زوجة واحدة ، وان هذا الاصل قد يقضى

العدل نفسه بالخروج عليه فى بعض الصور ، ولكنها تكون صورا استثنائية تقدر بقدرها ، ومن بيده أمر السياسة الشرعية يلاحظ هذا ويأمر به بحسب مقتضيات الاحوال

خصوصيات النبى

* بعد هذا لك أن تسأل : أليس للنبى خصوصيات وإذا كانت فما هى ؟

والجواب أن له خصوصيات ولكنها فيما يتعلق بالزواج ليست خصوصيات تمتع . بل خصوصيات حرمان او تكاليف مست اليها الضرورة لتحقيق المصالح الدينية والاجتماعية ، وقضت بها السياسة الشرعية القائم هو - ودون غيره - باجرائها

انك اذا قرأت سورة الاحزاب وجدت فيها عبارة خاصة بزينب بنت جحش وزيد بن حارثة معتوق النبى ومتبناه الذى كانوا يدعونه (زيد بن محمد) كعادة العرب فى الادعياء . ثم عبارة أخرى بعدها بقليل خاصة بما احله الله للنبى من الازواج

وكلتا العبارتين يظن من يأخذ بظاهرهما أنهما خصوصيتا تمتع اختص بهما النبى . والواقع ان اولاهما بلية ابتلى بها لضرورة التشريع الماسة ، والثانية خصوصية يكاد كل ما فيها يكون مشوبا بالحرمان كما سترى :

* يظن بعضهم فى قوله تعالى : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » . يظنون أن الذى كان يخفيه النبى فى نفسه ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب بنت جحش ، ويحسبون أن الله يعتب

عليه لعدم تصريحه بهذا الميل خشية تعيير الناس له .
ولكن لا ريب ان هذا الظن اثم . اذ ما محل العتب على رجل يحب امرأة ويكتم حبها ؟ هل الاصل الاخلاقي أن الرجل عليه أن يلفظ بين الناس مشهرا بنفسه وبمن يحبها ؟ أم أن الاخلاق الكريمة توجب كتمان الحب والتستر فيه ؟ وعلى الاخص متى كان حاصلا بالمخالفة لعادات القوم وتقاليدهم ، وذلك حتى لا يفضح الرجل نفسه وغيره ؟ أليس أن من أفشى حبه كشف ستر نفسه فكان في عرف الناس مجنونا ، ومثله عند العرب مجنون ليلى ومن أشبهه ؟ أو كان بالاقل مستهترا ، ففسقه الناس ، وتنقصوه مهما علا مركزه كامرىء القيس الذي لقبوه بالملك الضليل ؟ واذن فمن المستحيل خلقيا وعاده أن يكون مراد الآية ما ظنوه ، بل ان هذا الظن ــ كما نقول ــ اثم ، واثم كبير

* والحق انك لو التفت ، في آخر الآية الرابعة من نفس سورة الاحزاب ، الى قوله تعالى : « وماجعل ادعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . ثم الى قوله عقب هذا الآية الخامسة . « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم .. الخ » ــ لو التفت الى هذا لعلمت أن الله تعالى أراد ابطال نظام التبني كما هو معروف عند العرب ، وذلك لفداحة نتائجه التي منها خلطهم المتبنى بنسب متبنيه ودعوتهم اياه كذبا لغير أبيه الحقيقي ، فأشار في النصوص المذكورة الى ذلك الخلط وعابه ونهى عنه

ولما كان التبني من المباحات يأتيه من يريد ويهمله من يريد ، وابطاله يتحقق بمجرد الكف عنه ، وهذا الكف أمر سلبي يستوى فيه كل تارك له سواء أكان

الامساك من جانبه اطاعة للنهى عنه ام كان لسبب آخر ، فلهذا قصد الله الى شيء عملى ينهر النـــاس وينبت فى قلوبهم ضرورة العمل بما يريده من ابطال ذلك النظام . واذا كان اخطر نتـــائج التبنى وأظهرها اغراقا فى الكذب والتلبيس اعتبـــارهم المتبنى كابن الصلب حتى من حيث تحريم حليلته على متبنيه سواء طلقها هو أو مات عنها . فقد اختار الله ابطال هذه النتيجة ، وان يكون ابطالهـــا بفعل ايجابى لا مستتر ولا وقتى ، بل علنى ظاهر ومستمر باق بين الناس ، وذلك لمـــا رآه من ان مثل هذا الفعـــل هو وحده الذى تقوم به الحجة ويتحقق المقصود

واذ كان من البعيد عادة أن يحـــدث فى العرب مثـــال رجل متبنى كزيد بن حارثة له امرأة يختلف معها ويطلقها أو يموت عنها ثم يأتى متبنيه فيتزوجها ــ اذا كان هـــذا الحادث فى ذاته بعيد الوقوع فى البيئات العربية لشذوذه فيها كل الشذوذ ، فقد اختار الله النبى ليكون هو مثال المتبنى الذى يدور على شخصه تحقيق موجب التشريع. وواضح انه انما اختار هذه الشخصـــية الفذة البـــارزة لتكون الاحدوثة فى النـــاس أســـير ، والتسامع بهـــا آكد وأوفى ، والعـــلانية فيهـــا أعم ، والحجة ابلغ . ثم جرت المقادير بأن يختلف زيد وزوجته . فالنبى الذى اختاره الله لذلك الغرض كان من الطبيعى أن يتأذى من تنفيـــذ ما أمر به من ترك زيد يطلق «زينب» حتى يتزوجها هو من بعد ، وكان طبيعيا أن يتراخى فى هذا التنفيذ ، وكان طبيعيا جدا أيضا أن تدفعه غريزة الحياء وكرم النجـــار بادىء الرأى الى ما يشبه معارضـــة هـــذا الامر بالنصح لزيد أن يمسك زوجه ويتقى الله ، ففعل مضـــطرا على رجاء أن ينظر الله الى ما هو واقع فيه من المشقة فيخفف عنه ، كما جرت عادته تعالى معه فى مثل هذا من المآزق

ـالذى اخفاه فى نفسه ليس ميله لزينب كما ظن بعض الظانين ، بل هو تأذيه ، وهو ـ قبل أن يكون نبيا ورسولا ـ انسان بشر يجد من أشق التكاليف على نفسه أن يبادر الى تبليغ أمر الله فى هذا الموضوع ، وأن يسارع الى العمل على تنفيذه ، وأن يعرض نفسه بهذا أمام قومه لتهمة شنيعة عندهم ، هى انه أعان على تطليق زيد لزينب كيما يتزوجها ، خروجا على تقاليدهم المتوارثة ، وذلك عوضا عن أن يعمل جاهدا على تصالحهما والتوفيق بينهما وألا يصرفه هذا عن المسعى الحميد صارف ، كما هو المأمول منه والمنتظر من كريم أخلاقه فى مثل هذه الظروف .

وقول الآية « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ليس سوى عتاب من الله له على تراخيه فى امتثال أمره وفى العمل على تنفيذه ، وباقى الآية نفسها وهو قوله تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ... » يدلك دلالة واضحة على أن كل المقصود انما هو التشريع الذى أشارت اليه هذه العبارة الاخيره . فكل ما فى الآية ترتيب مقرر محتوم للوصول الى هذا المقصود . وقول الآية الاخيرة « وكان أمر الله مفعولا » من ابلغ ما يكون فى الدلالة على عتاب النبى لتراخيه فى تنفيذ امر الله الذى من شأنه ومن حقه أن يكون مفعولا واقعا حتما على الرغم من أى ابطاء أو تراخ .

وقول القرآن من بعد : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا » ـ هذا القول أيضا بالغ فى الدلالة على صدق ما أسلفنا من أن علة تراخى النبى انما هى تحرجه وتأذيه ذلك التأذى الذى أشرنا اليه ، وبالغ فى الدلالة أيضا على ان الموضوع

هو أمر قد جرت به ارادة الله وقدره مما لا حرج على النبى فى المسارعة الى تنفيذه ، ومما لا محل له لان يخشى فيه أحدا سوى الله

فانت ترى من كل هذا ان مسألة زينب وزيد بن حارثة التى طالما طنطن بها المرجفون هى فى حقيقتها المفصلة فى القرآن بلية ومحنة للنبى استحق العتاب على تأذيه منها وعدم المبادرة الى الامتثال لها ، وليست تمتيعا له كما يزعمون

* أما العبارة الثانية الواردة فى سورة الاحزاب فهى قوله تعالى : « يا أيها النبى انا احللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت ايمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما »

يقولون ان هذا الكلام أتى بخصوصية للنبى ولا سيما فى تعقيب القرآن عليه بقوله : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك »

* وأقول مبدئيا : ان سباق آية التحليل المصدر بها هذا الكلام يدل على أنها نزلت كما هى دفعة واحدة . وقد جاء من بعد فى نفس السورة قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد .. »

وظاهر هذه العبارة الاخيرة قد يدل على أن آية التحليل نزلت بعد ان كان النبى قد تزوج كل من تركهن عند وفاته . لكن هذا الفهم يمنع منه ما ورد فى الآية من

قولها (وامرأة مؤمنـــة ان وهبت نفســـها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها) هذه العبارة الشرطية التى لا يمكن أن يقع الحدث فيها الا مستقبلا . واذن يتبين القول بأن البعدية فى قول الآية الاخـرى « لا يحل لك النســاء من بعد » ليست بعدية زمان بل هى بعدية أعيان أى غيرية ، وبأن آية التحليل تبيح للنبى أنواعا من الازواج معينة فيها بالتحديد ، ليس له غيرها ، وان من ضمن هذه الانواع طبعا من كن موجودات عنده بالفعل وقت نزولها ، ويجب طبعا أن يكون منها من حلل له النص أخذهن بعد نزولها

بعد هذا أقول انى على أى حال لست أجد فى كلام آية التحليل التى نحن بصددها شيئا خاصا يفيد تمتيع النبى بمـا لم يكن متمتعا به غيره من المســلمين الذين صحبوه وشايعوه الى ما بعد واقعة الاحزاب التى نزلت الآية فى سورتها . بل ان الرخص التى يتضمنها كلام الآية كادت كلها تكون مقترنة بالشقة والتضييق فى تفصيلها كما شيبت بهما من بعد فى جملتها

* أما من جهـــة التفصـــيل فأنت ترى من قولـــه « اللاتى آتيت أجورهن » أن الله لم يحل للنبى الزوجة الا اذا كان قد عجل لها المهر ، مع أن للمسلم أن يتزوج ويبـــاشر حقــوق الزوجية بدون تعجيـــل المهر . وانى بمقارنة ما تردد فى هذا البحث من آيات القـرآن وجملها بعضها ببعض لا أشك فى أن هذه الجملة ليست تصريحا بحل زواج مستقبل ، بل هى اقرار لحل نوع الزوجات الاجنبيات المهيرات الموجودات قبـــلا عنـــد نزولها . واســـتعمال القرآن صيغة الماضى فى « آتيت أجورهن » يتمشى مع هذا الفهم وقد يؤيده . ويغلب على ظنى أن هؤلاء هن اللواتى كن موجودات عنده وقت نزول « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » كســودة وعائشــة

وحفصة (دع زينب بنت جحش التى لها شأن خاص) واذا صح رأيى وفرض أن النبى كان باقيا فى ذمته لأية من اولئك التلاث شىء من مهرها ، فانه لا شك قد اضطرب عند نزول هذه الجملة ووفى لكل منهن ما قد كان باقيا فى ذمته لها من المهر حتى تستمر حلالا له . فالنبى بهذا قد ضيق عليه وحرم مما لم يحرم منه أى مسلم

وكذلك مما احل للمسلم أن ينكح ما ملكت يمينه اطلاقا ، ولكن هذا الاطلاق قيد فى حق النبى بقول الآية « مما أفاء الله عليك » فلم يحلل له من ملك اليمين الا من كان سبيا من فىء الحرب ، أما الرقيقات اللاتى تباع فى الاسواق فلم يحلل له شىء منهن كما هو محلل لكل مسلم

وكذلك لكل مسلم أن يتزوج بنت عمه او بنت عمته أو بنت خاله اطلاقا ، أما النبى فحرم من هذا الاطلاق بقول الآية : « اللاتى هاجرن معك » . اى انه منع من تزوج اية من قريباته هؤلاء ما لم تكن قد هاجرت معه من مكة الى المدينة

والذي افهمه فى مسألة المرأة المؤمنة التى تهب نفسها للنبى . انها تصور حال فئتين من النساء : أولاهما المنقطعات اللواتى لا عائل لهن فيترامين على من يتوسمن فيه القيام بمعاشهن ، فهى كما نقول الآن فى العامية (تلقيحة) ، وثانيتهما المؤمنات الصالحات اللواتى يلذن بالنبى تدينا وتقوى ، ويكون من شأن النبى حمايتهن مروءة وتدينا وتقوى . فمؤمنة الصورتين داخلة فيما أشار اليه لفظ الآية . ولكن الله فى لطفه بالنبى وفى علمه بفقره وعدم استطاعته الانفاق على تلك اللائذات ، وفى علمه فوق هذا هذا بأن مشاغله الدينية قد لا تسمح له بقبول كل وافدة

منهن ، أشار بقوله « ان أراد النبى أن يستنكحها » الى عدم احراجه الى النهاية فى هذه البلوى ، فقرر لهذا أنه ليس مكلفا حتما بزواج كل طارئة من تلك الوافدات ،بل انه حر مختار فى القبول وعدمه . وجلى أن ترك هـذه الحـرية للنبى كان ضروريا كل الضرورة ، لان المرأة المؤمنة التى تهب نفسها للنبى قد تكون مجذومة أو مصابة بمرض آخر معد أو مشهورة فى القوم بسـوء السلوك فى ماضيها ، أو قد تكون متدينة مجذوبة قريبة من الجنون . ومنصـب النبى لا يحتمل البتة تعريضه للعدوى ، ولا للتعيير وسوء القالة ، ولا ان يكون بيته مستشفى مجاذيب .. فترك الحرية له فى القول كان ـ كما أقول ـ ضروريا حتى يقدر حال كل وافدة وينظر ما اذا كانت مصلـحة الاخلاق والدين والاجتماع تقضى عليه بقبولها وحمايتها فى بيته أم لا

والحاصل أن تفاصيل الآية دالة على حرمان النبى مما لم يحرم منه المسلمون ، وعلى تكليفه بما لم يكلفوا به . وشبهة الميزة التى تتراءى فى مسـألة المؤمنة التى تهب نفسها للنبى هى شبهة وهمية ، وليس من الانصاف أن يقال عنها انها ميزة تلقاء ما بها من عظيم البلوى . وكما تدرك أنها فى الحقيقة بلوى وبلوى عظيمة ، بحسبك ان تتخيل أن الحكومة المصرية مثلا أصدرت قانونا يلزم كل من تولى رياسة الوزراء أو مشـيخة الازهر أن يتزوج أية امرأة مصرية مؤمنة تعرض نفسها عليه ـ بحسبك هذا لتدرك يقينا ان يوما واحدا لا يكاد يمضى على صدور مثل هذا القانون حتى يضج الرئيس أو الشـيخ ويفر من منصبه ، وهذا حتى لو كانت الوافدات أبكارا مكنونات مكفيات المئونة ، لا أرامل أو مطلقات من المسنات المعدمات المستميتات

* ذلك من جهة التفصيل . اما من جهة الاجمال فان المقرر لكل المسلمين ان الرجل اذا ماتت نساؤه أو طلقهن قله أن يتبدل بهن غيرهن فى حدود المشروع . لكن النبى حرم من هذه الميزة التى يتمتع بها كل المسلمين . وجاء هذا الحرمان عاما ساريا حتى على نسائه اللاتى كن عنده قبل نزول هذه الآية ، كسودة وعائشة وحفصة وزينب . قال تعالى بعد ما تقدم : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا » ! أرأيت هذا الحرمان ؟ ! ثم أرأيت هذا التحذير بل التهديد الذى بالجملة الاخيرة ؟ ! أفلا تحس كأنما هذه الجملة ترسم أمام نظر النبى لوحة رهيبة تتراءى فيها عين القدر شاخصة اليه محملقة فيه ترقبه وترصده لترى هل يطيع أو يعصى فيبوء بالرضوان أو بالعتاب ؟!

* لننظر الآن كيف كان فى العمل أخذ النبى بنص آية التحليل التى نحن فيها :

ان القرآن ـ كما أسلفت لك من التدليل ـ لم يمنع تعدد الزوجات بنص صريح خاص ، بل ترك العرب أحرارا فى تزوج أى عدد يريدون ، وكل ما اشترط عليهم أبديا هو الاقتصار على واحدة عند خوف عدم العدل بين المتعددات ولكنه بين مراده بهذا فجعله ، فيما يتعلق بالموجودات وقت الاستفتاء ، آيلا الى مراعاة العدل المستطاع بينهن ، وأنزل لهذا قوله « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »

فكل أزواج النبى اللاتى كن عنده وقت نزول هذا القول واستمررن الى وقت واقعة الاحزاب فى السنة الخامسة من الهجرة ونزول سورتها ، كان شأن النبى فيهن كشأن باقى المسلمين فى نسائهم اللاتى كن عندهم

وقت نزول القول المذكور أى (فلا تميلوا كل الميل ..) واستمررن الى وقت واقعة الاحزاب ونزول سورتها أو الى ما بعد ذلك

* ولست أعرف بالضبط تاريخ نزول عبارة « فلا تميلوا كل الميل » ولا من هن اللواتى كن عنده وقت نزولها ، ومن هن اللواتى أخذهن بعد نزولها . ولكن المعروف على كل حال أن سودة وعائشة وحفصة ، هؤلاء الثلاث هن من أوليات من كن عنده فى أوائل سنى الهجرة ، وكان معهن رابعة هى زينب بنت خزيمة أخذها فى السنة الثالثة وتوفيت فى الرابعة قبل واقعة الاحزاب . فهؤلاء الثلاث (أو الاربع) هن اللواتى كن عنده وقت نزول قوله تعالى : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ذلك القول الذى بين ـ على الوجه الذى أسلفنا ـ بعبارة « فلا تميلوا كل الميل » وبديهى أن شأن النبى فيهن كان كشأن كل المسلمين من جهة حلهن له وعدم التزامه بالعدل بينهن الا بقدر استطاعته

فاذا فرضنا أن الست الباقيات قد اخذهن بعد نزول العبارة المذكورة ـ سواء أكان أخذه لكلهن بعد واقعة الاحزاب أم أنه أخذ بعضهن قبلها ـ فانك فيما تقدم قد رأيت العلة التشريعية الخاصة بأخذه احداهن زينب بنت جحش وما لابس أخذها من البلوى . أما الخمس الاخريات فمنهن جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وصفية بنت حيى سيد بنى النضير كانتا سبيتين أسرتا بعد غزو قوميهما وهلاك أبويهما وزوجيهما ، أى أنهما من ملك اليمين المباح اطلاقا للمسلمين من قبل . فلو أن النبى كان أخذهما عقب أسرهما فلا خصوصية له فى هذا ولا استثناء . ولكنه لم يأخذهما مباشرة بل ان هاتين السيدتين اللتين كانت لهما السيادة فى قوميهما بعد

هلاك أبويهما وقعتا فى نصيب بعض العرب المحــاربين معه ، فلم تطق جويرية هذه الحال . فكاتبها من هى عنده، على مال ليعتقها ، فاستنجدت بالنبى طالبة أن يعينها على قضاء مبلغ المكاتبة . ففى هذا الوضع الذى يستدر عطف الجماد مــاذا تنتظر ان يكون من النبى وهو من هو فى سمو الخلق ورجاحة العقل ؟ دفعته المروءة والمصلحة الدينية الى استنقاذها هى وصفية بنت ســـــيد بنى النضير ، وعدم تركهما لسوقة العــرب وهما العزيزتان ذلتا . انتشلهما بأن عمل على اعتاقهما وتزوجهما مثقلا على نفسه وحده بتحملهما . وهذه المواساة التى اندفع اليها كان من نتيجتها أن جذبت قوميهما الى الاسلام لاعتبارها مصاهرة من النبى لهم

ولقـــــد يخطـر فى بالك أن تقول ان النبى كان فى استطاعته قبول التجائهما اليه وان يحميهما فى بيته بعد أن أسلمتا وعتقتا من غير أن يتزوجهما . ولكن يفوتك أن النبى بوصفه القوام على الآداب والاخلاق فى الاسلام كان له أن يتحرج من هذا الذى يخطر ببالك . لانه لم يكن يقيم هو وعائلته فى قصر فســـيح مترامى الاماكن والبيوت كالقصور التى كانت من بعد للخلفاء ووزرائهم أو التى تراها للامراء والرؤساء اليوم . بل إن منزلـــه فى المدينة كان بالبداهة موجزا قليل الاماكن ، والمقيم به مهما تحرز لابد أن يطلع من النساء المقيمات معه فيه على بعض العورات التى لا يجوز بحسب أخلاق الاســلام أن يطلع عليها أجنبى . ونفس سورة الاحزاب التى نحن فيها نزلت بآداب للنساء مما يزيد فى ضرورة التحرج . أضــــف الى هذا أن كثيرا من العرب كانت أخلاقهم غير مأمونة ، وكان بنفس المدينة كثير من المسلمين المنافقين الذين آمنت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، فكانوا متحفزين يتصيدون

أقل الشبه ضد الاسلام ونبى الاسلام ويجسمونها . وان النبى لم ينج من تقولاتهم فى مسـألة الافك المشـئومه ، فما ظنك لو أنه أدخل فى بيته سيدتين معروفتين مترفتين ممن لا يحل له الاطلاع على مواقع زينتهما شرعا ؟!! كل هذا يشهد بأن زواج النبى بهما كان هو الوسيلة الوحيدة المتعينة لامكان حمايتهما فى بيته حماية قوامها نوع الالفة المسقط لكل تحرج وكلفة ..

وأما الثلاث الباقيات وهن أمسلمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وميمونة بنت الحارث فهن من أشرف بيوت العرب .. وكن جميعا أرامل مسلمات صالحات بائسات . وكان أخذه لـكل واحدة منهن له علة قوية هى أيضـا ضرورة دينية أو اجتماعية ماسة ما كان يستطيع البتة تفاديهـا بوصفه القوام وحده على مصالح الاسلام والمسلمين

ولا مانع يمنعك من اعتبار هؤلاء الثلاث هن وجويرية وصفية أيضا من المؤمنات الملتجئات اليه المشـار اليهن فى الآية ، وانه اختارهن من بين الوافدات عليه للاسباب القوية التى تجدها ، ولابد ـ فى كتب السيرة ـ عن سبب أخذه لكل منهن

* ولعلك قائل أيضا : اذا كان القرآن مع عدم منعه التعدد بالنص أوجب العدل أو الواحدة ،، وقد صرح بأن العدل غير مستطاع للانســـان فكيف اجاز هنا للنبى التعديد ؟

قول يخطر وسؤال يعن وشبهة أشرنا اليها عقب ايراد نص الآية . ولكن هل نسيت ان ماتحتج به هو الاصـل وانه يخضـع القاعدة : « الضرورات تبيح المحظورات » ؟ وهل تظن أن هناك ضرورات أمس وأقوى من تلك التى عرضت وأشرت اليها ، فلم يجد النبى فيهـا بدا من الامتثال لقضاء الله أو من العمل بما توجبه المروءة والنخوة

ومكارم الاخلاق ؟ ولا شك عندى ان ما لم أشر اليه هنا من الضرورات ، وأحلت فيـــه على كتب الســيرة لا يمكن أن يكون أقل مما أشرت اليه مسيسا واقتضاء . ومن جهة أخرى هل بلغ بك اليأس من روح الله أن تظن انه يقدر على النبى اولئك المطلقات والارامل المنقطعـات ثم لا يخفف عنه هذا البلاء ؟ هون عليك ولا تظن هذا ، فان الواقع أن الله خفف عنه بقوله : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » . ولكون هذا التخفيف يشف ظاهره عن اعفائه من مراعاة العدل ، فانه تعالى بقوله : « ذلك أدنى أن تقر اعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » قد نبه الى انه أقر فى قلوب النساء عاطفة الرضـا بكل ما يأتيه النبى من التصرف الذى أبيح له معهن . واذ كان المقصود من العدل هو رضا النساء واطمئنانهن وهذا حاصل هنا بشهادة الله ، فقد توافر العدل وخرج النبى من عهدته، وسقطت الشبهة .

* من كل ما تقدم ترى ان نصوص سورة الاحزاب ، التى قدر الله فيها على النبى أخذ زينب بنت جحش ، ثم أخذ ما أحل له غيرها من أولئك المطلقــات والارامـل والبائسات ، هى نصـــوص كل ما فيها محن وتكاليف مشوبة بالمشقة والحرمان . ومصلحة الاسلام هى التى أوجبت على النبى تحملها ، ولو أنه كان حرا غير مقيد بأحكام الله وكان ممن يعملون لارضاء شـهواتهم لتخير لنفسه من حسان الابكار ما أراد

* واذن فلا محل لاقتحام خصـوصيات النبى فيما نحن فيه ، فان هذه الخصوصيات قائمة على مبـــادىء الضرورات التشريعية والاخـلاقية ، والنبى هو وحـده صاحب السـياسة الشرعية المكلف دون غيره بتنفيـذ

ما تقضى به الضرورات تحقيقا لمصلحة الاجتماع . ومع ذلك فقد رأيت كم فى هذا التحليل من الحـــرمان ومن البلوى ومشقة الاوضاع

اما الذى نحن فيه فغير هذا . نحن ازاء نص فى الآية الثالثة من سورة النساء يقولون انه يصرح بزواج أربع اطلاقا ، وان النبى مستثنى منه ، أى انه عند تسـاوى الاوضاع وعدم قيام ضرورة من الضرورات فللمســلم أربع ، ولكن للنبى أن يزيد على أربع ، أى ولو بغير ضرورة ماسة أو مصلحة اجتماعية عامة . وهــذا هو الذى لا أسلم به مطلقا ، بل انى أراه تحريفا للمبادىء وتطبيقـا للرخص فى غير موطن تطبيقها

سؤال آخر غير محتمل

* كأنى ببعضهم يقول اذا أطقنا مع الـــكراهة قولك ان الاصل القرآنى يوجب الاقتصار على الزوجة الواحدة وأن الخروج على الاصل لا يجوز الا لضرورة ماســـة تقدرها السياسة الشرعية بقدرها ، فانا لا نســلم بما تقوله من أن نظرية اباحة التعدد الى أربع اطلاقا قـائمة على التسلل على لفظ «رباع» الوارد فى الآية ، والاعتماد عليه لتصويب ما استقر عليه الاجماع ، فهل أنت لاتحترم اجماع المسلمين ؟ أو هل أنت أعلم باللغة العربيـــة من أهلها العرب المسلمين الاولين ؟

هــذا ســؤال أوجهه الى نفسى قبل أن يوجهــه الى المغرمون بالجدل اللفظى . وجوابى عليه بسيط :

أما أن اطاقة رأيى لا تكون الا مــع الكراهــة فذلك لا يهمنى فى دينى ، لأنه لا يخرجنى من الجنة ولا يدخلنى النار . واستحقاق الجنة أو النار ليس بأمانيهم ولا أمانى غيرهم . انه رهن بآرائى أنا وبعملى أنا دون آرائهم هــم

وعملهم هم . ثم هو متعلق بارادة الله ومشيئته ، وارادة الله ليست فى سند تحت اذنهم يحولونها كيف شــــاءوا لمصلحة من شاءوا وضد من شاءوا

وأما عن الاجماع ، فانى ما ناقشت قط فى حجته فى البيئات التى يتسلط فيها ولو كان فاسدا . انه أخــذ مجراه قضاء على الرغم منى ومن كل انسان . ولو كنت من المغرمين بالنساء لكان من الحمق أن اتزوج خمســا منهن ، لان السلطة العامة فى مصر تقوم فى وجهى وتفرق بينى وبين واحدة منهن ، رضيت أو أبيت . لكنى مــع هذا الانصياع لحكم القضاء اعتقــد ان الاجمـــاع الذى يسرى على المسلم ديانة له صـــــور ثلاث : الاولى ــ ان يقوم فى أساسه على نصوص قرآنية مسلم بصحة قيامه عليها مباشرة ، أو بطريق القياس الصحيح ، والثـانية ــ أن يقوم على سنة نبوية يطمئن الضمير الى صحتها والى صحة قيامه عليها مباشرة أو بالقياس الصحيح كذلك ، والثالثة ــ أن يكون اقرارا من النــاس كافة لعــادة من المباحات لم يأمر بها كتاب ولا سنة ولم يمنع منها كتاب ولا سنة ، لا مباشرة ولا بالقياس . وهــــذه الصـــــورة الثالثة هى التى يصح ان يطلق عليها اصطلاح «الاجماع» اما الصورتان الاولى والثانية فان الدليل الشرعى فيهما ليس هو اجماع الناس انما هو نص الكتاب أو الســـنة او هو القياس الصحيح على نص أيهما . والمسألة التى نحن بصـــددها غير مقول ان فيها اجماعـــا من القبيل الاصطلاحى المذكور بالصورةالثالثة ، بل يقولون انالاجماع فيها قائم على العمل مباشرة بقوله تعالى : « فانكحــوا ما طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع »، وقوله من بعد : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . ولاشك ان الحكم ما دام مرده الى النص فان لكل مسلم ، وان

انصياع قضاء للاجماع المرتب عليه ، ان يعترض ويبين مايعتقده فى الاساس من خطأ التأويل . فأنا مع انصياعى لما استقر عليه الاجماع فى بيئتنا المصرية وما وافقها ، من أن للمسلم زواج اربع نساء لايسأل عن العدل بينهن الا بقدر استطاعته ــ صرحت وأصرح بأن الاساس القرآنى الذى يبنون عليه هذا الاجماع لا يصلح البتة لأن يكون اساسا لرأيهم . واذ كنت لا اتطاول أنا ولا غيرى الى ادعاء العلم بالعربية كأهلها العرب المسلمين الاولين ، فانى ــ علما بقصورى هذا ــ لم آت فى بيانى بشىء الا مأخوذا عن شيوخ اللغة الاولين

واذن يرى أن السؤال الوارد برأس هذه الفقرة بعضه لا أهمية له والبعض لا انصاف فيه

سؤال آخر فى لب الموضوع

* يبقى معرفة كيف مال المسلمون الى عدم التدقيق فى تأويل النص القرآنى وانحدروا الى القول باباحة الاربع اطلاقا ، ثم الى الاجماع فى بعض البيئات عليه ؟

مظنة الجواب على هذا السؤال هى تاريخ الفترة الاولى فى الاسلام من ابتداء الهجرة الى أواخر القرن الثانى الذى ابتدأ فيه شىء من التدوين . ومن المسلم به أن العرب كانوا أميين ندر منهم من يعرف القراءة والكتابة . والخلفاء الراشدون لم يعنوا بغير القرآن ، فهو وحده الذى نقلوه الينا غضا تاما كما أنزل . ومن المسلم به أيضا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه منع كتابة الحديث اكتفاء بالقرآن ولكى لا يشتبه شىء منه به ، ولم يقم فى مدة الخلفاء الراشدين ولا فى مدى بنى أمية مؤرخ دون الحوادث المعاصرة له ووصل الينا كتاب منه . بل ان عمر بن عبد

العزيز فى آخر القرن الاول أحس - كمـــا يقولون - بضرورة تحقيق الاحاديث النبوية وكتابتها ، خلافا لراى ابن الخطاب ، ولكن لم يتم هذا المقصود فى عهده . بل ان أقدم كتاب من الكتب المعتبرة الآن فى سيرة النبى هو - اذا لم يخطىء ظنى - لابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ، اى انه كتب مدة العباسيين فى آخر القرن الثانى أو اوائل الثالث بعد نحو مائتى سنة من وفاة النبى . وكل كتب الحديث المعتبرة الآن جمعها أصحابها فى أواخر القرن الثانى وما بعده . واذا كان المدون أقرب الآثار الى الصحة فان هذا التقدير ظنى ، ولا مانع من أن يكون بعضهـــا موضـوعا لاحقيقة له . خصوصا متى علمنا أن الاجماع تام على وقوع الوضع فى الاحاديث ، لاغراض سياسية وغير سياسية ، من أعداء الاسلام ومن المنافقين ، بل ومن بعض صـــالحى المسلمين

* ومن ناحية أخرى فان تلك الفترة الاولى من بعد الهجرة الى آخر القرن الثانى كانت كلها فترة نشر للدين وقتال لمن اعترض سبيل الدعوة اليه . قاتل النبى المشركين وغيرهم من العرب فى وقائع بدر وأحد والاحزاب وغيرها ، وعقب انتقاله الى الرفيق الاعلى فى أوائل الحادية عشرة من الهجرة اشتغل المسلمون فى خـــلافة أبى بكر بحروب الردة فى بلاد العرب نفسها ، تلك الحروب الدالة على أن بعض العرب الذين أسلموا كانوا أعرابا لما يدخل الايمان تماما فى قلوبهم . ومدة خلافة عمر وعثمان كانت كلهـــا عهد فتح فى فارس والشام وفلسطين ومصر وأرمينيـــا وغيرها . وفى مدة على قام الخلاف الحزبى وكانت الحرب الاهلية بينه وبين معاوية . ومدة الأمويين كلها كانت عهد فتح فى أفريقيا وأسبانيا وغيرهما وقمع ثورات حزبية

أو مذهبية الى آخر ما هو معروف بالتواتر من الاضطراب فيها وعدم الاستقرار

* فأنت اذا تمثلت تلك الظروف التى كانت تلابس العرب فى فترة الاسلام الاولى ، وأضفت الى هذا ما تتيقنه بالمشاهد فى العصر الحاضر من أن أخلاق الامم تتدهور حتما ابان الحروب وعقبهـــا الى حين ، لافرق فى ذلك بين غالب ومغلوب ، ولا بين متدين وضعيف الايمان ، ثم لو أضفت اليه أيضا أن الجنود فى كل أمة يدللون ويتجاوز لهم عن كثير من الآثام فى مقابل أنهم وهبوا حياتهم نفسها طوعا وقدموها كرها فداء لوطنهم ولاهليهم وذويهم المتخلفين القاعدين .. اذا تمثلت كل هذا ، وأعملت عقلك لوصلت الى الاجابة على السؤال ، ولكانت اجابتك أصـــح من كل تاريخ مدون ، لان سندها المشاهدات والنواميس الاجتماعية التى لا تتخلف ، ومرجعها حكم العقل وحده لا شهادة شاهد يجوز عليه التلفيق عمدا أو سهوا فى رواية الحوادث وفى الحكم عليها

والذى يهدى اليه العقل - بعد استصحاب ماتقدم - ان شبان العرب الذين خرجوا للقتال كانت الضرورة الطبيعية تدفعهم الى الاختلاط الجنسى ، وكانت هذه الضرورة تتســلط عليهم كلما فرغوا من واقعة ، وحولهم الخلو الى الراحة ، والاخلاد الى شىء من لذات العيش ومباهج الحياة . ولقد ترامت غزواتهم فى مواقع متعددة بكل قطر من تلك الاقطار الشاسعة التى فتحوها فى عهد عمر وعثمان وبنى أمية . فلا غرابة ولا شذوذ ولا أستنكار فى عمل الجندى منهم اذا مالت نفسه ، فى فترة الراحة التــالية للموقعة ، الى اجابة داعى الطبيعة العتيد ، ولا سبيل له فى هـذا الا

التزوج ، لان الزنا محرم عليه . والوقائع كانت متعددة ، والتنقلات كثيرة ، والطبع الداعى هو الطبع لايفتأ داعيـــا

ولكن الجنود ـ اذا اراد الوحد منهم بعد احدى الوقائع أن يتزوج فوق من تزوجها بعد واقعـــة سـابقة ـ كانوا يجدون قوله تعالى : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحـــدة » مانعا من التعديد . كان الجنود يجدون أمامهم هذه العقبة، ولكنهم من جهـــــة أخرى يعرفون ان آباءهم واجدادهم المسلمين متزوجون قبل وفاة النبى (أو كانوا فى حيـاته وقبل وفاتهم هم متزوجين) بعـدة من النســـاء ليس عليهم « اوما كان عليهم » ألا العدل بينهن بقدر الاستطاعة عملا بقوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » كان الجنود يجدون هذا فيتأففون لسلبهم ميزة التعديد لمجرد تأخرهم فى الوجود، مع اختصاص كثير من القاعدين بها لمجرد تقدمهم فيه ، والحال ان هؤلاء القاعدين المتمتعين بكثرة الازواج من عهد النبى بعيدون عن مواطن المشقة والهلاك ، وليسوا اجدر منهم بالامتياز . ومهما يكن حكم تلك العبارة وقتيا كما أسلفنا ـ فان واقع المشـاهدات والضرورات كان فى وجدانهم اقوى اثرا وأشهر فعلا من كل تفقه

* ذلك وضع تقوم الفطرة البشرية ذاتهـــا دليـــلا على حدوثه ولا تقبل لنفيه شـــهادة أى شـــاهد ، ومن المكابرة المماراة فيه . والعقل يحكم بأن تلك المفـــارقة تدفع الجنـــود الى التحلل من حـــكم الآيـــة والى تعديد النسـاء ، فيتزوج الرجل منهم واحدة أو اكثـــر فى كل بلد قاتل فيه وانتصر . وانك لتعلم من المشاهـدات الآن أن الجندى ـ كما أسلفنا ـ مدلل وأنه يغتفر له مالا يغتفر للقاعد . اغتفر اذن أولو الحل والعقد للجنود هذا التجاوز . وبديهى أن السياسة الشرعية ما كانت تأبى

هذا الاغتفار ، لان النفع الذي كان يحدث للدين الاسلامي وللوطن الاسلامى من استرضاء الجندى وتحصينه من الزنا أكثر بكثير من اثم التعديد

* استمر الجنود اذن على التعديد كما اخال ، ولكنهم فى داخل ضمائرهم لم ينسوا أنهم لا يستطيعون العدل وان والجبهم ديانة ، الاقتصار على واحدة فما العمل ؟لم يعدموا من يهون عليهم هذا الوضع بالحيل الشرعية المأخوذ بها من عهد ابراهيم الخليل وأيوب . تلمس المتلمسون لحفظ « رباع » فى الآية فحللوا لهم الاربع اطلاقا والزموهم الوقوف عندها . وظروف الفتح قد ساعدت على هذا الوقوف . فتحوا فارس وبعض بلاد الترك وأرمينيا والشام وغيرها ، وسبوا منها ما لايحصيه العد من النساء الجميلات اللاتى توزعوهن . وفى هذه السبيات المملوكات الجميلات ما يفى بالمقصود من الانسال وبالحاجة الجنسية ، وفيهن كل الغناء عن الحرائر المهيرات الثقيلات النفقة من عربيات وغير عربيات

ويغلب على الظن أنه لولا هذه الظروف المسهلة لما تنازل الجنود عن التعديد ، ولاستحلوه الى ما فوق الاربع ، ولوجدوا من يعينهم على هذا ، كمن افتى بعض طوائف المسلمين الذين يقولون ان الآية تحلل تسعا ، بل ان الفاظها تفيد التكرار فتحلل ثماني عشرة ، ولعلك لوبحثت لوجدت معظم المفتين بهذا والآخذين به موالى من البلاد المفتوحة لم يخصهم من السبيات شيء ، ثم هم يستنكفون شراء الرقيقات لانهن من بلادهم المفتوحة ذاتها

* ولقد يخيل الى ايضا ان اولئك الجنود الذين استنوا تلك السنة قد شايعهم عليها أهلهم الذين قضت عليهم بعض الاسباب بالتخلف عن الخروج الى ميادين

القتال ، لان هؤلاء المتخلفين ســواء منهم الشــبان أو الشيوخ كانوا جميعا يعلمــون أن لا محل لتدليلهــم كالمحاربين فعلا ولا لمعذرتهم فى التعديد اذا أراد الشبان منهم التزوج بأكثر من واحدة ، أو أراد الشــيوخ ــ من الاولين ، السارى عليهم حكم « فلا تميلوا كل الميل » ــ الاستزادة من الازواج فوق الواحدة البــاقية ممن كن عندهم وقت نزول هذه العبارة ، فكان من مصلحة الجميع المبادرة الى تحبيذ سنه الجنود والى تعميمهــا . وهؤلاء المتخلفون اذا كان لهم من غرائزهم دافع الى منــاصرة السنة التى استنها الجنود فان السياسة التشريعيه أيضا كانت ترى المصلحة فى هذه المناصرة . وذلك لان الحرب تهلك الجنود وتقلل عدد المواطنين ، ومن الواجب التغاضى عن العمل بالواحدة فى حق المتخلفين واباحة تعديد زوجاتهم لزيادة النسل الذى فى زيادته مصلحة الاسلام والمسلمين

ولقد كان أهم ما يشغل الناس بداهة هو الحــرب وميادينها المختلفة وما تأتى به من الغنائم وما تكســبه للاسلام من انصار ، اما الزوجات وتعددهن أو عدم تعددهن فبديهى أنه كان من الامور الثــانية التى لا يحسن أن يشتغل بها الرؤساء وأولو الحل والعقد والحرب قائمــة على ساق وقدم . كما ان حالة التــراخى الخلقى التى تصاحب فترات الحروب كانت صالحة كل الصــلاحية للأخذ فى هذه المسألة بأى حل كان ما دام انها ليست من أصول العقائد التى لا هوادة فيها

* استمرت اذن عادة الاربع هذه التى أســســها الجنود ــ وأغلب شبان المسلمين وكهولهم كانوا جنودا ــ استمرت ودامت بدوام الحروب والثورات فى القــرنين الاول والثانى . فلما جاء عصر التدوين فى آخر الثــانى وأوائل الثالث ، كانت قد صارت من التقاليد القديمــة

المستقرة المحببة الى المسلمين والملائمة لغرائزهم الموروثة عن آبائهم العرب من غابر الدهور ، فاضطر الفقهاء في كثير من الجهات الى مسايرتها وتدوين الواقع من متابعة الناس لها ، وتساهلوا فى تأويل سندها القرآنى كما تساهل فيه المحاربون الاولون

هذا ما أجيب به على السؤال ، وحاصله انى بالبداهة ملزم قضاء بمسايرة الاجماع فى مسألة تعدد الزوجات اطلاقا الى أربع فى بيئتنا المصرية ، ولكنى ديانة اراه غير قائم على سند من القرآن صالح لقيامه عليه ، بل أساسه عمل المجاهدين الاولين فى أول الاسلام واقرار من بيدهم السياسة الشرعية لعملهم ، وجنوح الفقهاء فى تسويغه الى تأويل النصوص بالشبهة اللفظية مسايرة لهم ، وما كان فى استطاعتهم غير هذا خصوصا وليست المسألة من العقائد التى تدعو الى التحرج ونبذ المسايرات

فهرس

صفحة